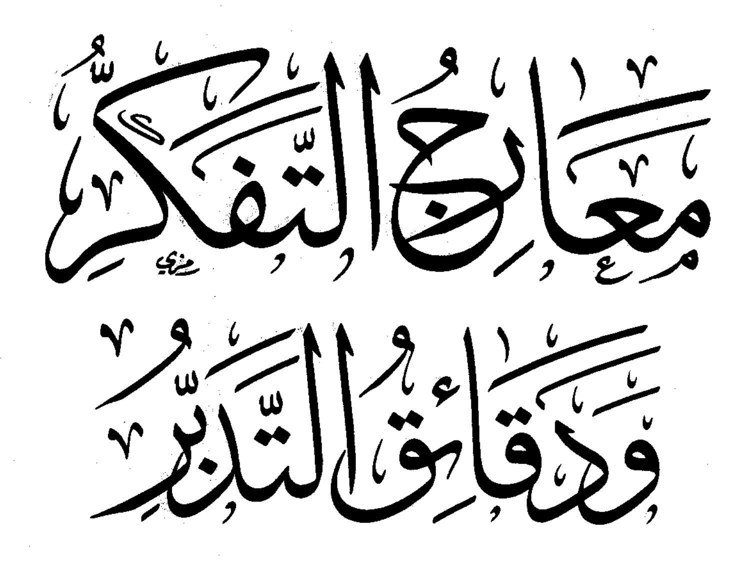


معارج التفكر ودقائق التدبر

تفسير تدبري للقرآن الكريم بحسب ترتيب النزول

وفق منهج كتاب «قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل»

المجلد الرابع عشر

تفسير سور

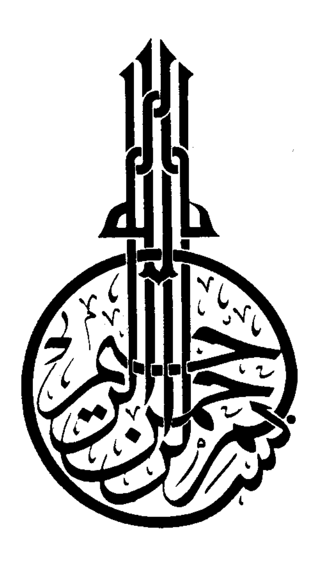
إبراهيم/٧٢ الأنبياء/٧٣ المؤمنون/٧٤ السجدة/٧٥

الطور/٧٦ الملك/٧٧ الحاقة/٧٨ والمعارج/٧٩

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

دار القلم

دمشق


بسم الله الرحمن الرحيم


معارج التفكر
ودقائق التدبر

الطبعة الأولى
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

تطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

سُورَة إبراهيم

١٤ مصحف ٧٢ نزول

وهي سورةٌ مكّيةٌ كُلُّها

وقيل إلّا الآيتين (٢٨) و(٢٩) فَمَدَنيتان



(١)

نص السورة وما فيها من فرش القراءات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ

---

١ ـ • سَكَتَ أبو جَعْفَر على الألِفِ، واللّام، والرّاءِ، فقرأها: (ألِفْ ـ لَامْ ـ رَا).

١ ـ • قرأ قُنْبُل، ورُوَيس: [سِرَاطِ]، وقرأها خَلَفٌ عَنْ حَمْزَة بإشْمَامِ الصَّادِ زايا.
وقرأها باقي القراء العشرة [صِرَاطِ] بالصّاد الخالِصَة.

١ ـ ٢ • قرأ نَافع وابن عامر، وأبُو جَعفر: [الْحَمِيدِ اللهُ] بِرَفع الهاء وصْلاً؛ وابتداءً.
وقرأها رُوَيس: بِرَفْعِها في الابْتداء وخَفْضِها في الوصل.
وقرأها باقي القراء العشرة بِكَسْرِ الهاء وَصْلاً وابْتِداءً.

أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن

٩ و١٠ • قرأ أبو عمرو: [رُسْلُهُمْ] بإسْكانِ السّين.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [رُسُلُهُمْ] بضمّ السّين.

١٠ ـ • قرأ ورْش، وأبُو جعفر: [وَيُوَخِّرَكُمْ] وصْلاً ووقفاً. وكذلِكَ قرأها حمزة في الوقف.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَيُؤَخِّرَكُمْ] في الحالَيْن.

١١ ـ • قرأ أبو عمْرو: [رُسْلُهُمْ] بإسْكانِ السّين.
وقرأها باقي القراء العشرة: [رُسُلُهُمْ] بضمّ السين.

يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ

١٢ ـ • قرأ أبو عمْرو: [سُبْلَنا] بإسْكانِ الباء.
وقرأها بَاقِي القُرَّاءِ العَشَرَةِ: [سُبُلَنا] بضمّ الباء.

١٣ ـ • قرأ أبو عمْرو: [لِرُسْلِهِمْ] بإسْكان السّين.
وقرأها بَاقِي القُرَّاءِ العَشَرَةِ: [لِرُسُلِهِمْ] بضمّ السّين.

١٤ ـ • قرأ يَعْقُوب: [وَعِيدِي] بإثبات ياء المتكلّم في الوصل والوقف.
وقرأها وَرْشٌ كذلِكَ في الوقف فقط. وقرأها بَاقِي القُرَّاءِ العَشَرَةِ: [وَعِيدِ] بحذف ياء المتكلّم وصلاً ووقفاً.

١٨ ـ • قرأ نَافع، وأبو جَعْفَر: [الرِّيَاحُ] بالجمع.
وقرأها بَاقِي القُرَّاءِ العَشَرَةِ: [الرِّيحُ] بالإفراد.

تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا

---

١٩ - • قرأ حمزة، والكِسائي، وخلف: [خَالِقُ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ]، وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ].

١٩ - • قَرَأَ أبو جَعْفَر: [إِنْ يَشَا] في الوصل والوقف. وكذلِكَ حمزة، وهشام في الوقف.

وقرأها باقي القراء العشرة: [إِنْ يَشَأْ].

٢٢ - • قرأ حفص: [لِيَ عَلَيْكُمْ] بفتح ياء المتكلّم.

وقرأها باقي القراء العشرة بالإسْكَانِ: [لِي عَلَيْكُمْ].

٢٢ - • قرأ حمزة: [بِمُصْرِخِيِّ] بِكَسْرِ الياءِ المشدّدة.

وقرأها باقي القراء العشرة: [بِمُصْرِخِيَّ] بفتح الياء المشدّدة.

٢٢ - • قرأ أبو عمرو، وأبو جعفر: [أَشْرَكْتُمُونِي] بإثبات ياء المتكلم وصْلاً. وكذلِكَ قرأها يَعْقُوب وصْلاً ووقفاً.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [أَشْرَكْتُمُونِ] بحَذْفِ ياء المتكلّم.

بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا

٢٥ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمْرو: [أُكْلَهَا] بإسْكان الكاف.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [أُكُلَهَا] بِضمّ الكاف.
وهما لغتان.

٢٦ ـ • قرأ أبو عمْرو، وعَاصِم، وحمزة: [خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ] بِكَسْرِ التَّنوين. وَكَذلِكَ ابْنُ ذكْوان بِخُلْفٍ عَنْهُ، وَكَذلِكَ يعقوب في الوصل. وقرأها بَاقِي القرّاء العشرة بضمّ التنوين في الوصل، وهو الوجْهُ الثاني لابن ذكوان.

٢٩ ـ • قرأ ورش، والسُّوسي، وأبُو جعفر: [وَبِيسَ].
وكذلك قرأها حمزة في الوقف.
وقرأها بَاقِي القُرَّاءِ العَشرَةِ: [وَبِئْسَ].

٣٠ ـ • قرأ ابْن كثير، وأبو عمْرو، وَرُوَيْس: [لِيَضِلُّوا].
وقرأها باقي القراء العشرة: [لِيُضِلُّوا] وبين القراءتين تَكَامُلٌ في أداء المعنَىٰ المراد.

٣١ ـ • قرأ ابْنُ عَامر، وحمزة، والكسائي، ورَوْح: [قُلْ لِعِبَادِيْ الَّذِينَ] بإسكان ياء المتكلّم.
وقرأها بَاقِي القراء العشرة بفَتْحِ ياء المتكلم.

ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ
لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ
وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ
وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ
ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ
لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن
تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ
﴿٣٤﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى
وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ
ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ
بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ

---

٣١ ـ • قرأ ابنُ كَثير، وأبو عمرو، ويَعْقُوبُ: [لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ]. وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ].
وهُمَا وَجْهَانِ نَحْوِيَّانِ جَائِزَان.

٣٥ ـ • قرأ هِشَام: [إِبْرَاهَامُ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [إِبْرَاهِيمُ]. وهما نُطْقَانِ عَرَبِيَّانِ.

٣٧ ـ • قرأ نافع، وابنُ كثير، وأبو عَمْرو، وأبُو جَعْفر: [إِنِّيَ أَسْكَنْتُ] بفتح ياء المتكَلّم.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بالإِسْكَانِ.

٣٧ ـ • قرأ هشامُ بِخُلْفٍ عَنْهُ [أَفْئِيدَةً]، وقرأها بَاقي القراء العشرة [أَفْئِدَةً]. وهو الوجْهُ الثّاني لِهشام.

٣٧ ـ • قرأ حَمْزَةُ، ويعقوب: [إِلَيْهُمْ] بضَمّ هاء الضمير.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [إِلَيْهِمْ].

تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ

---

٤٠ ـ • قرأ ورش، وأبو عمرو، وحمزة، وأبو جَعْفر: [دُعَائِي] بإثبات ياء المتكلم وَصْلاً.

وَكَذلِكَ قرأها البزّي، ويَعْقُوب وصْلاً وَوَقْفاً، وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [دُعَاءِ] وصْلاً ووقفاً.

٤٢ ـ • قرأ عَاصِم، وابْنُ عَامر، وحمزة، وأبو جعفر: [وَلَا تَحْسَبَنَّ] بِفَتْحِ السّين.

وقرأها باقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [وَلَا تَحْسِبَنَّ] بِكَسْرِ السّين.

وهُمَا لغتان لمعنًى واحد، وهو الظَّنُّ التوهُّمِيُّ الضعيف.

٤٤ ـ • قرأ أبو عمْرو: [يَأْتِيهِمِ الْعَذَابُ] بِكَسْرِ ميم «يأتيهم». وكَسْرِ الهاء قَبْلَهَا.

وقرأها حمزة، والكِسَائِي، ويعقوبُ، وخَلَف: [يَأْتِيهُمُ الْعَذَابُ] بِضَمِّ الهاء والميم بعدها.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ] بِكَسْرِ الهاء وضمّ الميم بَعْدَهَا.

ويَعْقُوبُ عَلَىٰ أَصْلِهِ في ضَمّ الْهَاءِ وقفاً.

مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾

٤٦ ـ • قرأ الكِسَائِي: [لَتَزُولُ]. وقرأها باقي القُرَّاء العشرة: [لِتَزُولَ].

٤٧ ـ • قرأ عَاصِمٌ، وابْنُ عَامر، وحمزة، وأبُو جعفر: [فَلَا تَحْسَبَنَّ] بفتح السّين. وقرأها باقِي القراء العشرة: [فَلَا تَحْسِبَنَّ] بِكَسْرِ السين. وسبق في الآية (٤٢) التوجيه.

(٢)
موضوع سورة (إبراهيم)

يَدُورُ مَوْضُوعُ سورة إبراهيم حَوْلَ بَيَانِ وَظِيفة القرآنِ وَوَظِيفَةِ الرَّسُول في النَّاس، وهِيَ إِخْرَاجُ المسْتَجِيبِينَ مِنْهم مِنْ ظُلُمَاتِ الكُفْرِ وسُبُلِ ضَلَالَاتِهِ اعْتِقَاداً وسُلُوكاً، إِلَىٰ نُورِ الْإِيمانِ بالْحَقِّ الرَّبَّانِي وصِرَاطِهِ المسْتَقِيم اعْتِقَاداً وَسُلُوكاً. وبَيَانِ مُتَعَلَّقَاتٍ بهٰذَا الْخَطِّ العظيم تَارِيخيًّا وَتَرْبويًّا وَفِكْرِيًّا تتنَاوَلُ

عِدَّةَ قَضايا هِيَ مِنَ الْحَقَائِقِ الدّينيَّةِ الكُبْرَىٰ، أو هِيَ مِنْ سُنَنِ اللهِ في عباده.

مع تَبْشِير المؤمنين، وإِنْذَارِ الْكَافِرِينَ.

(٣)
دُرُوسُ سورة (إبراهيم)

ظَهَرَ لِي أَنَّ هَـٰذِهِ السُّورَةَ تَشْتَمِلُ عَلَىٰ تِسْعَةِ دُروس، وهي على الوجه التالي:

الدرس الأول: الآيات من (١ ـ ٤).

وفي آيات هـٰذَا الدَّرْسِ بيانُ وظيفة القرآن، ووظيفَة الرَّسُولِ فِي النَّاسِ، وَهِيَ إِخْرَاجُ المستَجِيبِينَ مِنْهُمْ لِدَعْوَةِ الحقِّ الرَّبَّانِيَّةِ؛ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّور، أي: من ظُلُمات الكُفْرِ وسُبُلِ ضَلاَلاَتِهِ اعْتِقَاداً وسُلُوكاً، إلىٰ نُورِ الإيمانِ بالْحَقِّ الرَّبَّانِيِّ وصِرَاطِهِ المسْتَقِيم، اعتقاداً وسُلُوكاً.

وفيها وَعِيدُ الكافِرِينَ بِعَذَابٍ شَدِيدٍ، لأَنَّهُمْ آثَرُوا الحياة الدُّنيا علىٰ الآخِرَة، ولِأَنَّهُمْ يَعْمَلُونَ عَلَىٰ إِضْلَالِ مَنْ يَسْتَجِيبُ لَهُمْ، وإِبْعَادِهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ.

وفيها بيانُ أنَّ اللهَ جلَّ جَلَالُهُ مَا أَرْسَلَ في تَارِيخ البشريَّة مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ، فمحمَّدٌ ﷺ أرْسَلَهُ اللهُ بِلِسَانِ قومه الْعَرَبِ.

الدرس الثاني: الآيَات من (٥ ـ ٨).

وفي آيات هـٰذَا الدَّرْسِ بيانٌ بأنَّ الله جَلَّ جَلَالُهُ أرْسَل مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بآيَاتِهِ البيانيَّة، وَكَلَّفَه أَنْ يُخرِجَ قَوْمَهُ (أي: مَنْ يَسْتَجِيبُ لَهُ مِنْهُمْ) مِنَ الظُّلَمَاتِ إِلَى النور. وأَنْ يُذَكِّرَهُمْ آناً فَآناً بأَيَّامِ اللهِ.

وفيها بيانُ بَعْضِ مَا قَالَهُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ أَنْ أنجاهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ آلِ فِرْعَونَ.

الدرس الثالث: الآيَات من (٩ ـ ١٨).

وفي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ مُعَالَجَةٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلْكَافِرِينَ إِبَّانَ التّنزيل، وَلَا سِيمَا أئمّتُهُمْ الْمُضِلُّونَ الْمُعَانِدُونَ المسْتَكْبِرُون، وَفِي هَـٰذِهِ المعالَجَةِ تَذْكِيرُهُمْ بِمَا كَانَ لِقَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وثمود، والَّذِينَ من بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا الله، وبيان ما كان منهم مِنْ جَدَلِياتٍ لِرُسُلِهِم، وَكَيْفَ أَنَّ الله بَعَدْلِهِ عَذَّبَهُمْ وأَهْلَكَهُمْ إِهْلَاكَ اسْتِئْصَالٍ، مع ما أَعَدَّ لَهُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ أَبَدِيٍّ فِي جَهَنَّمَ يَوْمَ القيامة، وَكَيْفَ خَابَتْ أَعْمَالُهُمْ.

وتنطبقُ هذه المعالجةُ عَلَىٰ أمْثَالِهِمْ في كُلِّ عَصْرٍ لَاحقٍ.

الدرس الرابع: الآيات من (١٩ ـ ٢٣).

وفي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ خطابٌ من اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِكُلِّ صَالِحٍ للخطابِ بأنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْض بالحقِّ قادِرٌ علىٰ أَنْ يَذْهَبَ بالنَّاسِ جَمِيعاً وَيَأْتِي بِخَلْقٍ جَدِيد، أي: فالْبَعْثُ الموعُودُ بِهِ حَقٌّ.

وفيها انتقال سَرِيعٌ لِتَقْدِيمِ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ القيامَةِ.

وَفِيها عَرْضُ حِوارٍ بَيْنَ الَّذِينَ كَانُوا ضُعَفَاء أَتْبَاعاً لِأَئِمَّتِهِم الَّذِينَ كانُوا في الدُّنيا مُسْتَكْبِرِين، وفي هـٰذَا الْحِوَارِ مَعْنَىٰ الْخُصُومَة.

وفيها ما يُجِيبُ بِهِ الشَّيْطَانُ مَنْ ضَلُّوا بِوَسَاوِسِهِ وَتَسْوِيلاته، إِذْ يَقُول لهم: وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي.

وفيها بيانُ إِدْخَالِ الذين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تحتها الأنهارُ خالِدِينَ فِيها بإذْن رَبِّهِمْ.

الدرس الخامس: الآيات من (٢٤ ـ ٢٦).

وفي آيات هذا الدّرس بَيَانُ مَثَلِ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ، وَمَثَلِ كَلِمَةٍ خَبِيثَة.

الدرس السادس: الآيات من (٢٧ ـ ٣٠).

وَفِي آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ، بَيَانُ تَثبيتِ اللهِ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الدُّنْيَا وفي الْآخِرَة.

أمَّا الظَّالِمُونَ الْكَافِرُونَ فَلَا تَثْبيتَ لَهُمْ، بَلْ يُضِلُّهُمُ اللهُ، فقد بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْراً، وأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ بقيادَتِهِمْ لَهُمْ دَارِ الْبَوَار (وهُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ الْأَبَدِيُّ) وهي جَهَنَّم، ومِنْ تَضْلِيلِهِمْ أَنَّهُمْ جَعَلُوا للهِ أَنْدَاداً شُرَكَاءَ لَهُ.

الدَّرْس السّابع: الآيات من (٣١ ـ ٣٤).

في آيات هٰذَا الدَّرْسِ ما يلي:

(١) أمَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ ﷺ بأنْ يأمُرَ عِبَادَ اللهِ المؤمنينَ بأنْ يقيموا الصلاة، وبأنْ يُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ الله.

(٢) بيان أنّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ الرَّزَاقُ من السّماء، وهُو المسَخِّرُ لِلْفُلْكِ، والمسَخِّرُ لِلأَنْهَارِ، وللشَّمْسِ والقمر دائبيْنِ، ولِلَّيْلِ والنَّهَارِ، وهو الذي آتاهُمْ ممَّا سَأَلُوه.

(٣) ذَكَّرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ النَّاسَ بأَنَّهُمْ إنْ يَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا يُحْصُوها، وَأَبَانَ لَهُمْ أَنَّ الإنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّار.

الدَّرْس الثامن: الآيات من (٣٥ ـ ٤١).

وفِي آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ عَرْضُ أدْعِيَةٍ دَعَا بها إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَام في مُنَاسَبَاتٍ وأزْمِنَةٍ مُخْتَلِفَةٍ، تَذْكِيراً لِلْمُعَالَجِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّة، بما كان عَلَيْهِ أَبُوهُمْ إبراهيمُ وَوَلَدُهُ إسْمَاعِيلُ عَلَيْهِما السَّلَامُ من نَبْذٍ للأصْنام، وَمُقَاوَمَةٍ لَها.

الدَّرْس التاسع: الآيات من (٤٢ ـ ٥٢) آخر السورة.

وفِي آيات هٰذَا الدَّرْسِ بيانٌ من اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ عِلْمِهِ بِمَا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ، وَأَنَّهُ يُؤَخِّرُهُمْ إلى يوم القيامة.

وَفِيهَا تكليفُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ محمَّداً ﷺ أنْ يُنْذِر كُفَّارَ قَوْمِهِ باحْتِمَال أن يُنْزِلَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَذاباً مُهْلِكاً لهم، مَعَ بَيَانٍ عَنْ عَذَابِ يَوْم القيامة.

وفي الآية الأَخِيرَة تَعْرِيفٌ عَامٌّ بِشَأْنِ الْقَضَايَا الَّتِي جاءت في السُّورَةِ.

❊ ❊ ❊

(٤)
التدبر التحليلي للدَّرس الأول من دُروس سورة (إبراهيم) الآيات من (١ ـ ٤)

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:



﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾:

القراءات:

(١) • سَكَتَ أبو جعفر على الألف، واللّام، والراء، فقرأها «ألف ـ لاَم ـ را».

(١) • قرأ قُنْبل، ورُويس: [سِرَاطِ]. وقرأها خلف عَنْ حمزة بإشْمَام الصاد زاياً.

وقرأها باقي القراء العشرة: [صِرَاطِ] بالصّاد الخالِصَة.

(١ ـ ٢) ● قرأ نَافع وابْنُ عامر، وأَبُو جَعفر: [الْحَمِيدِ اللهُ] بِرَفع الهاء وصْلاً؛ وابتداءً. وقرأها رُويس: بِرَفْعِها في الابْتداء وخَفْضِها في الوصل. وقرأها باقي القراء العشرة بِكَسْرِ الهاء وَصْلاً وابْتِداء، على أنها بَدَلٌ من العزيز الحميد.

تَمْهيد:

في آيات هـٰذَا الدَّرْسِ بيانُ وظيفةِ القرآنِ، وَوَظِيفَةِ الرَّسُول ﷺ فِي الناس، وهِي إِخْرَاجُ المستجيبين منْهم لدعوة الحقّ الرَّبَّانية، مِنَ الظُّلُماتِ إِلَىٰ النّور، أي: من ظُلُمَاتِ الكُفْرِ وسُبُلِ ضَلَالاتِهِ اعتقاداً وسُلُوكاً، إلى نُور الإيمانِ بالْحَقِّ الرَّبَّانِيّ، وصراطه المستقيم اعتقاداً وسُلُوكاً.

وفيها وَعِيدُ الكافرين بعذابٍ شَدِيدٍ، لأَنَّهُمْ آثَرُوا الحياة الدُّنيا عَلَىٰ الآخِرَة، ولأَنَّهُمْ يَعْمَلُونَ على إضْلَالِ مَنْ يَسْتَجِيبُ لهم، وإبْعَادِهم عَنْ سَبِيلِ الله.

وفِيهَا بَيَانُ أنَّ اللهَ جَلَّ جلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ مَا أَرْسَلَ في تَارِيخ البشريَّةِ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ الَّذِينَ هُمْ في الصَّفِّ الأَوَّلِ من المدْعُوِّين، فمحمَّدٌ ﷺ أَرْسَلَهُ اللهُ بِلِسَانِ قَوْمِهِ الْعَرَب، لِيَحْمِلَ المستجيبونَ مِنْهُمْ رِسَالَتَهُ إِلَىٰ النَّاسِ أَجْمَعِينَ بِلُغَاتِهِمْ.

التدبر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خطاباً لِرَسُولِهِ محمّد ﷺ بضمير المتكلم العظيم:

● ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ . . . ﴿٢﴾﴾.

● ﴿الٓر﴾ هذه من الحروف المقطّعَةِ الواردة في أَوَائِلِ بَعْضِ السُّور،

وَقَدْ سَبَقَ بيانُ مَا يَكْفِي بِشَأْنِها في أوّل سورة (القلم/ ٤ نزول) فَلْيُرْجَعْ إلَيْهِ.

• ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾: أي: مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ آيَاتِ رَبِّكَ البيانيَّة، هُوَ كِتَابٌ أَنْزَلْنَا بَعْضَهُ إِلَيْكَ، وَسَنُنْزِلُ سَائِرَهُ، الَّذِي تَمَّ بِتَقْدِيرِنَا وَقَضَائِنَا أَنْ نُنْزِلَهُ، فَهُوَ بِحُكْمِ المنزَلِ، لأنَّ مَا قَضَىٰ اللهُ فِعْلَهُ مُسْتَقْبَلاً مُتَحَقِّقُ الْوُقُوعِ حَتْماً، وَمَا هُوَ مُتَحَقِّقُ الوقُوعِ مُسْتَقْبَلاً يَصِحُّ التعبيرُ عَنْهُ بأنَّهُ وَقَعَ.

مَنْ أَطْلَقَ قَذِيْفَةً بِتَسْدِيدٍ دَقِيقٍ جدًّا، يُقَالُ بِشَأْنِهِ أَصَابَ الْهَدَفَ، وَلَوْ كَانَتْ قَذِيفَتُهُ سَائِرَةً فِي الْجَوِّ لَمْ تَصِلْ بَعْدُ إِلَىٰ هَدَفِها.

• ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾:

أي: لتُخْرِجَ مَنْ يَسْتَجِيبُ لِدَعْوَتِكَ وَيَتَّبِعُ آيَاتِ هٰذَا الكتاب، مِنَ الكُفْرِ وسُبُلِ ضَلَالَاتِهِ فِي الْفِكْرِ وَفِي السُّلُوكِ، الَّتِي تُشْبِهُ الظُّلُمَاتِ؛ إِلَىٰ الإيمَانِ بالْحَقِّ الْمُنَزَّلِ عَلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ، وَإِلَىٰ الالْتِزَامِ بِصِرَاطِ اللهِ المسْتَقِيم في الْفِكْرِ وفي السُّلُوكِ، وهُمَا يُشْبِهَانِ النُّور.

ففي استعمال الظُّلُماتِ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنْوَاعِ الكُفْرِ وسُبُلِ ضَلَالَاتِهِ، واسْتِعْمَالِ النُّور للدَّلَالَةِ عَلَىٰ الإيمانِ وصِرَاطِ اللهِ المسْتَقِيم الواحِدِ، اسْتِعَارَتَانِ أَصْلُهُمَا تَشْبِيهٌ حُذِفَتْ مِنْهُ أَدَاةُ التَّشْبِيهِ وَوَجْهُ الشَّبَهِ والمشَبَّهُ، وبَقِيَ المشَبَّهُ بِهِ، وَهُمَا الظُّلُمَاتُ والنور.

ولمَّا كَانَ خُرُوجُ المسْتَجِيبينَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ عَملاً إرَادِيًا مِنْ ذَوِي إرَادَاتٍ حُرَّةٍ، وَكَانَ اللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ مُهَيْمِناً عَلَىٰ كُلِّ الْوُجُودِ فِي كُلِّ حَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ وفي كُلِّ تَصَارِيفِهِ، كَانَ تَمْكِينُ ذَوِي الْإِرَادَاتِ الْحُرَّةِ مِنَ الْقِيَامِ بأَعْمَالِهِمْ خَاضِعاً لإِذْنِهِ، فَجَاءَتْ عِبَارَةُ: [**بِإِذْنِ رَبِّهِمْ**] قَيْداً دَالًّا عَلَىٰ هَٰذِهِ الحقيقة.

أَمَّا الْأَعْمَالُ الَّتِي تَظْهَرُ دُونَ تَوسُّطِ ذِي إِرَادَةٍ حُرَّةٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ، فَهِيَ تَتِمُّ بِتَقْدِيرِ اللهِ وَقَضَائِهِ بِصِفَةٍ جَبْرِيَّةٍ، وَبِإِذْنِهِ إذا كان لَهَا قَانُونٌ ثَابت.

وَكُلُّ مَأْذُونٍ بِهِ أَوْ مَجْبُورٍ لَا يَتَحَقَّقُ فِي الْوَاقِعِ إِلَّا بِخَلْقِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

• ﴿... إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ...﴾:

هَٰذِهِ العبارة بَدَلٌ مِنَ النُّورِ، فَهِيَ كَاشِفَةٌ لِلْمُرَادِ بالنور، وأُعِيدَ الجارُّ ﴿إِلَىٰ﴾ لِتَوْكِيدِ أَنَّ المعْنِيَّ بالنُّورِ هُوَ صِرَاطُ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ اللهِ، الذي لَهُ مُلْك مَا فِي السَّمَاوَاتِ والأرض.

لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ بَدَلٌ مِنَ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ، بِمُقْتَضَىٰ قراءة الجمهور، وجاءت القراءَةُ الأخرى بالرَّفْعِ عَلَىٰ الْقَطْعِ، وجَعْلِ لفظ الجلالَةِ خَبراً لِمُبْتَدأٍ محذوف، والتقدير: هُوَ اللهُ.

• ﴿... وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢﴾:

«وَيْلٌ» كَلِمَةُ عَذَاب، وتُسْتَعْمَلُ فِي التَّحْذِيرِ والتَّهْدِيدِ، فَيُقَالُ لِمَنْ يُوَجَّهُ لَهُ الإِنْذَارُ: «وَيْلٌ لَكَ».

وَجَاءَتْ عِبارَةُ ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ بَيَاناً لِلْمُنْذَرِ بِهِ الَّذِي جاءَ مُجْمَلاً فِي: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾.

ووَصَفَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الْكَافِرِينَ بِقَوله تعالى:

• ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ۝٣﴾:

جاء في هَٰذِهِ الآيَةِ وصْفُ الْكَافِرِين ـ الْمُنْذَرِينَ بعَذَاب شديد في الآيَة السابقة ـ بثَلَاثِ صِفَات:

الصفة الأولى: أَنَّهُمْ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَىٰ الآخِرَة، أي: يُحِبُّونَ الحياة الدُّنْيَا حُبًّا شَدِيداً وَيُؤْثِرُونَهَا عَلَىٰ الآخِرَة.

ضُمِّنَ فِعْلُ «يَسْتَحِبُّونَ» معْنَىٰ فعل «يُؤْثِرُونَ» فَعُدِّيَ تَعْدِيَتَهُ بِحرف «على».

هَـٰذِهِ الصِّفَةُ تَجعَلُهُمْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ المنَزَّلَات، ويكْفُرُونَ بالجَزَاءِ الرَّبَّانِيِّ ويَوْمِ الدِّين، ويَكْفُرُونَ بِرُسُلِ اللهِ، تَعَلُّقاً بِمَتَاعَاتِهِمْ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنيا وَزِينَاتِها.

الصِّفَةُ الثّانية: أَنَّهُمْ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ الله، أي: يَمْنَعُونَ مَنْ يَسْتَجِيبُ لَهُمْ عَنْ سُلُوكِ سَبِيلِ اللهِ، ويَصْرِفُونَهُ عَنِ الاقتراب مِنْهُ، بدِعَايَاتِهِمْ وَوَسَائِلِهِم التَّضْلِيلِيَّة، فَهُمْ ضَالُّونَ ومُضِلُّونَ.

الصفة الثّالِثَة: أَنَّهُمْ يَبْغُونَ أَنْ تَكُونَ سَبِيلُهُمْ في الْحيَاةِ وَسُبُلُ غَيْرِهِمْ سُبُلاً عِوَجاً، أي: عَوْجَاءَ غَيْرَ مُسْتَقِيمَةٍ عَلَىٰ الحقّ والخير والْهُدَىٰ.

الْعِوَجُ: مصْدَر فِعْل «عَوِجَ، يَعْوَجُ، عِوَجاً» أي: مَالَ وانْحَرَفَ عَنِ الْحَقِّ والخير والْهُدَىٰ، **فالْعِوَجُ** بِكَسْرِ الْعَيْن عَدَمُ الاسْتِقَامَةِ في الْأَشْيَاءِ المعْنَوِيَّة: الفكرِيَّة، والْقَوْلِيَّةِ، والنَّفْسِيّة، والسُّلُوكِيَّة.

أَمَّا الْعَوَجُ بفَتْح العين فهو: الْمَيْلُ والانْعِطَافُ في الْأَشْيَاءِ الَّتِي تُدْرَكُ بالْحَوَاس، وهو أيضاً مَصْدَرُ: «عَوِجَ، يَعْوَجُ، عَوَجاً»، فَيُقَالُ: في القضيب عَوَجٌ، وفي الطَّرِيقِ عَوَجٌ.

وَأَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ أَنَّهُمْ بِسَبَبِ اتِّصَافِهِمْ بِهَـٰذِهِ الصِّفَاتِ الْخَسِيسَاتِ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ، فقال تَعَالَىٰ في آخِرِ الآيَةِ:

• ﴿... أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ۝٣﴾: أي: أُولَـئِكَ الْبُعَدَاءُ عَنْ تَنَزُّلَاتِ الرَّحْمَةِ، المنْحَطُّونَ فِي الدَّرَكَاتِ: فِي ضَلَالٍ وَضَيَاعٍ بَعِيدٍ عَمَّا يُحَقِّقُ لَهُمُ النَّجاةَ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ، الَّذِي يَكُونُونَ خَالِدِينَ فِيهِ بِجَهَنَّمَ دَارِ عَذَابِ المجْرِمِينَ.

الضَّلَالُ المرادُ هُنَا هُوَ: الضَّيَاعُ في المتاهَاتِ والْمَهَالِكِ والْأَعْمَالِ الْبَاطِلَة وأنواعِ السُّلُوكِ الإجرامي.

ولمَّا كَانَ مِنَ الاعْتِرَاضَاتِ الَّتِي قَدْ يُوَجِّهُهَا الَّذِينَ لَا يَسْتَجِيبُونَ لِدَعْوَةِ الرَّسُولِ محمَّدٍ ﷺ أَنْ يَقُولُوا: لِمَاذَا أُنْزِلَ الْقُرْآنُ باللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ، مَعَ ادِّعَاءِ مُحَمَّدٍ ﷺ بأَنَّهُ رَسُولُ اللهِ للنَّاسِ أَجْمَعِينَ، أَلَيْسَ مِنَ الأَحْسَنِ أَنْ يُنَزَّلَ الْقُرْآنُ بِلِسَانٍ أَعْجَمِيٍّ أَوْسَعَ انْتِشَاراً في النَّاسِ مِنَ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بضمير المتكلّم العظيم:

• ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾:

أي: وَمَا أَرْسَلْنَا فيما سَبَقَ مِنْ تَاريخ النَّاسِ مِنْ رَسُولٍ فِي قَوْمٍ، هُمْ قَوْمُهُ الَّذِينَ يَتَكَلَّمُ بِلِسَانِهِمْ، وَلَدَيْهِ اسْتِطَاعَةُ أَنْ يُبَيِّنَ لَهُمْ دِينَ اللهِ وَمَا يُنَزِّلُ إِلَيْهِ مِن آياتِ كِتَابِهِ؛ مَا أَرْسَلْنَاهُ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ، لِيُبَيِّنَ لَهُمْ أَلْفَاظَ وَمَعَانِيَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ، وَلِيُبَيِّنَ لَهُمْ مَطْلُوبَاتِ اللهِ مِنْ عِبَادِهِ في الدِّين الَّذِي اصْطَفَاهُ للنَّاس.

وَالْمُؤَهَّلُونَ لِحَمْلِ رِسَالَتِهِ مِنْ قَوْمِهِ، مِنَ الَّذِينَ يَسْتَجِيبُ مِنْهُمْ لِدَعْوَتِهِ، يَقُومُونَ بِتَبْلِيغِ رِسَالَتِهِ لِلْأَقْوَامِ الْآخَرِينَ بِلُغَاتِهِمْ وأَلْسِنَتِهِمُ الَّتِي يَتَكَلَّمُونَ بِهَا، كَمَا فَعَلَ رُسُلُ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ السَّبْعُونَ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمْ إِلَىٰ الأَقَالِيم فِي جِهَاتِ الْأَرْضِ، فَخَاطَبُوا النَّاسَ بأَلْسِنَتِهِمْ، وَدَعَوْهُمْ إِلَىٰ دِينِ رَبّهم، بِبَرَكَةِ دَعْوَةِ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُمْ أَنْ يَتَكلَّمُوا بألْسِنَتِهِمْ، وَكَمَا فَعَلَ الدُّعَاةُ المؤهَّلُونَ مِنْ قَوْمِ محمّد ﷺ، إِذْ بَلَّغُوا دِينَ اللهِ لِلنَّاسِ بِأَلْسِنَتِهِمِ الَّتِي تَعَلَّمُوهَا أَوْ كَانَ لَدَيْهِمْ عِلْمٌ بِها.

قَولُ الله تَعَالَىٰ:

• ﴿... فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۚ ...﴾:

أي: وَبَعْدَ أَنْ يَقُومَ الرَّسُولُ أَوْ حَمَلَةُ رِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ بالتَّبْلِيغِ المطْلُوب مِنْهُمْ، يَنْقَسِمُ المبَلَّغُونَ إلى قِسْمَيْن:

(١) الْقِسْمُ الَّذِينَ يَرْفُضُونَ الاسْتِجَابَةَ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّةِ، وَهَؤُلَاءِ يُضِلُّهُمُ اللهُ بِمَشيئَتِهِ الحكيمة، أي: يَحْكُمُ عَلَيْهِمْ بالضَّلَالِ.

(٢) والْقِسْمُ الَّذِينَ يَسْتَجِيبُونَ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّة، وَهَؤلَاءِ يَهْدِيهِمُ اللهُ بِمَشِيئَتِهِ الحكيمَة، أي: يَحْكُمُ لَهُمْ بالْهِدَايَةِ.

وَمَنْ يَحْكُمُ اللهُ عَلَيْهِ بالضَّلَالَةِ يَجْزِيهِ بِعِزَّتِهِ ضِمْنَ قواعِدِ الْعَدْلِ الحكيمة.

ومَنْ يَحْكُمُ لَهُ بِالْهِدَايَةِ يَجْزِيهِ ثَواباً جَزِيلاً بِحِكْمَتِهِ، ضِمْنَ واسِعِ فَضْلِهِ وَفَيْضِ عَطاياهُ.

﴿... وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾: أي: وهو القويُّ الْغَالِبُ، الحكيمُ في عَدْلِهِ وَفَضْلِهِ.

وبهٰذَا انتهىٰ تَدَبُّر الدّرسِ الْأَوَّل من دُرُوس سورة (إبراهيم).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(٥)
التدبّر التحليلي للدرس الثاني من دُروس سورة (إبراهيم)
الآيات من (٥ ـ ٨)

قال الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ

شَكُورٍ ۝٥ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ۝٧ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝٨﴾.

تمهيد:

في آياتِ هٰذَا الدَّرْسِ بَيَانٌ بأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ أرْسَل مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بآياتِهِ الْبَيَانِيَّة، وكَلَّفَهُ أَنْ يُخرِجَ قَوْمَهُ (أي: مَنْ يَسْتَجِيبُ لَهُ مِنْهُمْ)، مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ، وَأَنْ يُذَكِّرَهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ آناً فَآناً. فَوَظِيفَتُهُ مِثْلُ وَظِيفَةِ الرَّسُولِ محمَّد ﷺ، الَّتِي جاء بيانُها في الدرس الأوّل من هذه السُّورة.

وفيها بيانُ بَعْضِ مَا قَالَهُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ بَنِي إِسْرَائِيل بَعْدَ أَنْ أَنْجَاهُمُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ مِنْ آل فِرْعَوْنَ، وَهٰذَا مِنْ تَذْكِيرِهِمْ بِأَيَّامِ اللهِ الَّتِي أَمَرَهُ اللهُ بأَنْ يُذَكِّرَهُمْ بها.

التّدبُّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَحَدِّثاً بِضميرِ المتكلّم العظيم:

● ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥﴾:

● ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ . . .﴾: وَنُؤكِّدُ لَكُمْ أَيُّها المتَلَقُّونَ وَأَيُّها المعَالَجُونَ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ بعبارَة: **[لَقَدْ]** أَنَّنا بِحِكْمَتِنَا وَسُلْطَانِ رُبُوبِيَّتِنا أرسَلْنَا مُوسَىٰ مَصْحُوباً بِآيَاتِنَا الْبَيَانِيَّة، كما أَرْسَلْنَا محمَّداً ﷺ إليكُم بآياتِ الكتابِ المبينِ، فَسُنَّتُنَا فِي إِرْسَالِ الرُّسُلِ للنَّاسِ واحِدَة، إِذْ هِي الاختيارُ الأَحْكَمُ. «لَقَدْ» فيها مؤكِّدان: لامُ القسم، وحَرْفُ التحقيق.

• ﴿... أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ...﴾: أي: وأمَرْنَاهُ أمراً تَفْسِيرُهُ: أَنْ أَخْرِجِ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّور، وهٰذَا نَظِيرُ قولِنَا لمُحَمّدٍ ـ ﷺ ـ: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، في الآية الأولى، فمَا سَبَقَ مِنْ تَدَبُّرٍ لهذا البيان يَنْطَبِقُ عَلَىٰ: ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾.

• ﴿... وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ...﴾: يُرادَ بعبارَة «أيّام الله» الأيَّامُ الْعُظمَىٰ الَّتِي أَهْلَكَ اللهُ بِهَا الجبابِرَة والكَفَرَةَ المجرمين، وأنْجَىٰ فِيهَا رُسُلَهُ عَلَيْهِم السَّلام وَمَنْ مَعَهُمْ مِنَ المؤمِنِينَ، ومِنْ هٰذِهِ الْأَيَّامِ: فَلْقُ الْبَحْرِ لِمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام وَمَعَهُ بنو إسْرَائِيل، وَتَنْجِيَتُهُمْ بخَارِقٍ عجيبٍ لَمْ تَسْبِقْ لَهُ سَابِقَةٌ فِي تَاريخ النَّاسِ، وإغْرَاقُ فِرْعَوْنَ وَكُلٍّ مَنْ مَعَهُ مِنْ آلِهِ وَجُنُودِهِ وجَيْشِهِ الكَبِيرِ الْمَجْمُوعِ مِنْ أَرْجَاءِ مِصْر.

ويَظْهَرُ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيل وَهُمْ فِي التّيه، قَدْ بَعُدَ عَهْدُهُمْ بِخَارِقَةِ فَلْقِ الْبَحْرِ، حَتَّىٰ صَارَتْ غَيْرَ ذَاتِ حَيَاةٍ فِي ذَاكِرَاتهم، فَأَمَرَ اللهُ رَسُولَهُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام بأنْ يُذَكِّرَهُمْ بِأَيَّام الله.

التذكير: إعَادَةُ ذِكْرِ مَا سَبَقَ الْعِلْمُ به، لإِخْرَاجِهِ مِن مَرَاكِزِ المعْرِفَةِ الكامِنَة، إلى سَاحَةِ الذَّاكِرَةِ الحاضِرَةِ المؤثِّرَةِ في تَوْجِيهِ الإرادَة.

• ﴿... إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥﴾: أي: إنَّ فِي إِخْرَاجِهِمْ إِخْرَاجاً فِكْرِيًّا مِنْ ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ إِلَىٰ نُورِ الْعِلْم الرَّبَّانِيّ الحقّ، وَفِي تَذْكِيرِهِمْ بِأَيَّام اللهِ لَآيَاتٍ هَادِيَاتٍ إِلَىٰ تَثْبِيتِ الإيمان، وتَرْسِيخ الالْتِزَامِ بالإِسْلَام، وَتَنْبِيهِ الإرادَةِ عَلَىٰ أَنَّ الْعَاقِلَ الرَّشِيدَ؛ يَخْتَارُ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ في الحياة الدُّنْيا؛ مَا يَجْعَلُهُ يَرْتَقِي في دَرَجَاتِ جَنَّاتِ النَّعِيم، رَغْبَةً في الْوُصُولِ إِلَىٰ الْفِرْدَوْسِ الْأَعْلَىٰ مِنْهَا، بمُجَاهَدَةِ النَّفْسِ قِيَاماً بِمَرَاضِي اللهِ عَزَّ وَجلَّ.

وَلَا يَنْتَفِعُ مِنْ هَـٰذِهِ الْآيَاتِ الْهَادِيَاتِ الانْتِفَاعَ الْأَسْمَىٰ إِلَّا مَنْ يَتَحَلَّىٰ بِصِفَتَيْنِ جَلِيلَتَيْنِ:

الصِّفَة الْأُولَىٰ: أَنْ يَكُونَ صَبَّاراً، أيْ: كَثِيرَ الصَّبْرِ عَلَىٰ الْقِيَامِ بِالْأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ عَلَىٰ النُّفُوسِ، الْمُحَقِّقَةِ لِمَرْضَاةِ اللهِ، مِنْ فِعْلِ الواجباتِ والمنْدُوبَاتِ وَنَوَافِلِ العبادات والْقُرُبَاتِ الخالِيَةِ من الْغُلُوّ والابْتِداع، وتَرْكِ الْمُحَرَّمَاتِ، وَالْمَكْرُوهَات، وَمَا هُوَ خِلَافُ الْأَوْلَىٰ، مِمَّا يُتَقَرَّبُ بِتَرْكِهِ إِلَىٰ اللهِ تَعَالى، بِشَرْطِ عَدَمِ الْغُلُوّ والابْتِدَاعِ.

وكثيرَ الصَّبْرِ على المصَائِبِ وَالْمَكَارِهِ مِمَّا يَبْتَلِي اللهُ بِهِ عِبَادَه.

الصِّفَة الثّانية: أَنْ يَكُونَ شَكُوراً، أي: كَثِيرَ الشُّكْرِ لِرَبِّهِ عَلَىٰ نِعَمِهِ الَّتِي لَا يُحْصِيهَا العباد.

الشُّكْرُ: مُقَابَلَةُ الْمُنْعِمِ عَلَىٰ نِعَمِهِ بِمَا يُرْضِيهِ مِنْ شيءٍ، أَوْ عَمَلٍ، أَوْ قَوْل.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً الحديثَ عَنْ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام:

• ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦﴾:

نَفَّذَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا أَمَرَهُ اللهُ بِهِ مِنْ تذكير قومِهِ بَنِي إِسْرائيل، بأيَّام اللهِ، بِدَليلِ أَنَّهُ ذَكَّرَهُمْ بِنِعْمَةِ اللهِ عَلَيْهِمْ إِذْ أَنْجاهم مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ بإخراجِهِمْ مِنْ مِصْرَ وَفَلْقِ الْبَحْرِ لَهُمْ، وَإِغْرَاقِ عَدُوِّهم وَجَيْشِهِ وَرَاءَهُمْ.

• ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ ...﴾: أي: وَضَعْ فِي ذَاكِرَتِكَ أَيُّهَا المتَلَقِّي لِكَلَامِ رَبِّكَ، حِينَ قَالَ مُوسَىٰ ـ عَلَيْهِ السَّلَام ـ لِقَوْمِهِ بَنِي إِسْرَائِيل وَهُمْ فِي التِّيهِ، بَعْدَ أَنْ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعَهْدُ مُنْذُ خَرَجُوا مِنَ الْبَحْرِ بالخارِقَةِ الرَّبَّانِيَّةِ الْعَجِيبة.

• ﴿... ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ... ⑥﴾:

أي: ضَعُوا في ذَاكِرَاتِكُمُ الْحَاضِرَةِ الْبَاعِثَةِ عَلَىٰ اخْتيَارِ الأَعْمَالِ الْمُلَائِمَةِ لِمَا يَكُونُ حَاضِراً فَاعِلاً فِيها؛ نِعْمَةَ اللهِ الْعَظِيمَةَ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَيْكُمْ، حِينَ أَنْجَاكُمْ مِنْ ظُلْمِ آلِ فِرْعَوْنَ لَكُمْ، بإِخْرَاجِكُمْ مِنْ مِصْرَ في اتِّجَاهِ بَحْرِ سُوفَ، وَمُلَاحِقَةِ فِرْعَوْنَ بِجَيْشِهِ الكَبِيرِ لَهُمْ، وَفَلْقِ الْبَحْرِ لَهُمْ، حَتَّىٰ عَبَرُوا مِنْ مَكَانِ الْفَرْقِ على الْيَابِسَةِ، وَخَرَجُوا مِنَ الشَّاطِئِ الآخَرِ، وَعَبَرَ فِرْعَوْنُ بِجَيْشِهِ وَرَاءَهُمْ مِنْ مَكَانِ عُبُورِهِمْ، ثُمَّ لَمَّا كَانُوا جَمِيعاً في دِاخِلِ مَكَانِ الْبَحْرِ بَيْنَ جَبَلَيْنِ عَظِيمَيْنِ مِنَ الماءِ، ضَمَّ اللهُ مَاءَ الْبَحْرِ عَلَيْهِم فَأَغْرَقَهُمْ جَمِيعاً، وَأَخْرَجَ اللهُ بَدَنَ فِرْعَوْن إِلَىٰ الشَّاطِئِ لِيَرَاهُ النَّاسُ صَرِيعاً.

وقَدْ كَانَ آلُ فِرْعَوْنَ في مِصْرَ يَفْعَلُونَ مَا يلي:

• ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾: أي: يُحَمِّلُونَكُمْ وَيُكَلِّفُونَكُمْ وَيُنْزِلُونَ بِكُمْ سُوءَ العذاب.

سُوءُ الْعَذَابِ: أَشَدُّهُ، وَشَاقُّهُ، وَمُؤْلِمُهُ، وأَكْثَرُهُ عُنْفاً وَظُلْماً. وهو من إِضَافَةِ الصِّفَةِ إلى الموصوف، وأصل الكلام: الْعَذَابُ السُّوء.

والسُّوءُ: اسْمٌ جَامِعٌ لمختلف الآفَاتِ.

• ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾:

وَجَاءَ فِي سورة (الأعراف/ ٣٩ نزول) خِطَابُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فيها لِأَجْيَالِ بني إِسْرَائيل بقوله:

﴿وَإِذْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ⑭١﴾.

يُلاحَظُ أَنَّهُ جَاءَ في سورة (إبراهيم/ ٧٢ نزول): ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾،

وفي سُورَة (الْأعْرَاف/ ٣٩ نزول): ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾، ويَظْهَرُ لي من هٰذَا التَّنْويعِ فِي الْبَيَانِ أَنَّ الْقَاعِدَةَ الْعَامَّةَ كَانَتْ تَذْبيحاً بِأَداةٍ حَدِيدِيَّةٍ حَادَّةٍ، كالسِّكِّين، ولَكِنْ إِذَا لَمْ تُوجَدْ أَدَاةٌ حَادَّةٌ كان الْقَتْلُ بأَيَّةِ وَسِيلَةٍ أُخْرَىٰ، كَالْخَنْق، والضَّرْبِ بِحَجرٍ عَلَىٰ مَقْتل.

فالمعنى: ويُذَبِّحُونَ مَوَالِيدَكُمْ مِنَ الذُّكُور، لِئَلَّا يَكْثُرَ رِجَالُكُمْ فَيَكُونُوا خَطَراً عَلَىٰ قُوَّةِ آلِ فِرْعَوْنَ الْعَسْكَرِيَّة. وكانُوا يَسْتَبْقُونَ موالِيدَكُم مِنَ الْبَنَاتِ اللَّوَاتِي سَيَكُونُ مَصِيرُهُنَّ أَنْ يَكُنَّ نِسَاءً أَحْيَاءً، فَلَا يَذْبَحُونَهُنَّ، وَلَا يَقْتُلُونَهُنَّ بِوسِيلَةٍ أُخرىٰ.

يُقَال لغة: «اسْتَحْيَا الْأَمِيرُ الْأَسِيرَ» أي: اسْتَبْقَاهُ حَيًّا فَلَمْ يَقْتُلْهُ.

والغرضُ مِنِ اسْتِحْيَائِهِنَّ اسْتِعْبَادُهُنَّ، وَتَكْلِيفُهُنَّ الْخَدَمَاتِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ، ومعْلُومٌ أَنّ كَثْرَةَ النِّسَاءِ لَا تُشَكِّلُ خطراً عَلَىٰ قُوَّةِ آل فِرْعَوْنَ الْعَسْكَرِيَّةِ فِي مِصْر.

إِطْلَاقُ كَلِمَةِ: «نِساء» على المواليد من البنات؛ هو مِنَ المجاز المرسَلِ، وهُوَ مِنْ إِطْلَاقِ اللَّفْظِ عَلَىٰ الشَّيْءِ باعتبار مَا سَيؤُول إِلَيْهِ، والْغَرَضُ هُنَا الدَّلَالَةُ على أَنَّ اسْتِحْيَاءَ الْبَنَاتِ يُرَادُ بِهِ أَنْ يَكُنَّ في المستقبل نساءً صَالِحَاتٍ للاسْتِعْبَادِ والْخَدَمَاتِ، وغَيْرِ ذَلِكَ.

وعبارة: ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ مِنْ عَطْفِ الخاصِّ على الْعَامِّ فيما يظهر، وهو: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾، وَهٰذَا المعنَىٰ مُضَافٌ عَلَىٰ مَا جَاءَ في سُورَةِ (الْأعْرَافِ/ ٣٩ نزول)، إِذْ جَاءَتِ العبارَةُ فِيها بَدَلَ بَعْضٍ مِنْ كُلٍّ، أَمَّا الْعَطْفُ فَقَدْ يَحْمِلُ مَعْنَىٰ التَّغَايُرِ، فَيَكُونُ سُوءُ الْعَذَابِ شَيْئاً، وَتَذْبِيحُ الْمَوَالِيدِ الذُّكُورِ واسْتِعْبَادُ المواليد الْإِنَاثِ شيئاً آخَرَ.

• ﴿...وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦﴾: أي: وفي ذَلِكُمُ الَّذِي جَرَىٰ لَكُمْ فِي مِصْرَ امْتِحَانٌ لَكُمْ عَظِيمٌ مِنْ رَبِّكُمْ، الَّذِي كَافَأَكُمْ عَلَىٰ الصَّبْرِ

عَلَيْهِ، بِأَنْ أنْجَاكُمْ بخارِقَةٍ عظِيمَةٍ، وبِأَنْ فَضَّلَكُمْ عَلَىٰ أهْلِ زَمَانِكُمْ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتابعاً بَيَان مَا قَالَهُ مُوسىٰ عَلَيْهِ السَّلَام لِقَوْمِهِ بَنِي إسْرَائِيلَ:

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾:

• ﴿تَأَذَّنَ﴾: أي: أَعْلَمَ.

• ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾: أيْ: أُقْسِمُ لَئِنْ آمَنْتُمْ وَأَسْلَمْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ مِنْ نِعَمِي عَلَيكُمْ.

المعنى: وَضَعُوا في ذَاكِرَاتِكُمُ الْعَامِلَةِ الْحَاضِرَةِ ذَاتِ الْأَثَرِ التوجيهِيِّ، مَا أَعْلَمَكُمُ اللهُ رَبُّكُم بِهِ حِينَ قَالَ لَكُمْ: أُقْسِمُ لَكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ نِعَمِي عَليكُمْ بِالإيمان والإسْلَامِ، اعْتِرَافاً بِرُبُوبيَّتِي، وإِذْعَاناً لإلَهيَّتِي؛ لَأَزِيدَنَّكُم مِنْ نِعَمِي. وأُقْسِمُ لَكُمْ لَئِنْ كَفَرْتُم فَجَحَدتُّمْ نِعَمِي وَوَحْدَانِيَّتِي في رُبُوبِيَّتِي وفي إلَهِيَّتِي؛ لَأُعَذِّبَنَّكُمْ ضِمْنَ أحْكَامِ الْعَدْلِ الَّتِي قَدَّرْتُهَا وَقَضَيْتُهَا فِي مُجَازَاتِي لِعِبَادِي، الذينَ وَضَعْتُهُمْ في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الابْتِلاء، إذْ جَعَلْتُهُمْ مُخَيَّرِينَ وَمُؤَهَّلِينَ للامْتحان الّذِي أَمْتَحِنُهُمْ بِهِ.

دَلَّ هٰذَا البيانُ عَلَىٰ أنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ سَبَقَ أنْ أعْلَمَ بَنِي إسْرَائِيل بما دلَّتْ عَلَيْهِ هٰذِهِ الآية.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بَيَانَ مَا قَالَهُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام لقوْمِهِ بَنِي إسرائيل:

• ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٨﴾:

أي: وَقَالَ مُوسَىٰ ـ عَليهِ السَّلَام ـ لِقَوْمِهِ بَنِي إسْرَائِيلَ فِي بَعْضِ بيَانَاتِهِ

لَهُمْ وَهُمْ فِي التِّيهِ: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِنْ تَكْفُرُوا باللهِ وَبِكِتَابِهِ وَبِرَسُولَيْهِ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ـ عَلَيْهِما السَّلَام ـ، وَبِمَا أَنْزَلَ مِنْ حَقَائِقَ دِينِيَّةً لِهِدَايَتِكُمْ، فإِنَّكُمْ لَنْ تُؤَثِّرُوا عَلَىٰ اللهِ بِشَيْءٍ، لِأَنَّهُ غَنِيٌّ بِذَاتِهِ وبِصِفَاتِهِ عَنْ إيمانِكُمْ بِهِ، وَبِأَيِّ شَيْءٍ طَلَبَ مِنْكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِهِ وَتَعْمَلُوا بِمُقْتَضَاهُ، وَهُوَ مَحْمُودٌ في السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَلَا شَيْءَ في الْوُجُودِ إلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ، وَمِنْ وَظَائِفِ الْمَلَائِكَةِ الدَّائِمَةِ أَنَّهُمْ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُقَدِّسُونَ له.

جاءَتْ عِبارَة: ﴿... فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٨﴾ دَالَّةً بأسلوبٍ كِنَائِي، عَلَىٰ أَنَّ كُفْرَ كُلِّ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنْ ذَوِي الإراداتِ الْحُرَّة؛ لَا يُؤَثِّرُ عَلَىٰ اللهِ بِشَيْءٍ، فَهُوَ فِي ذَاتِهِ وفي صِفَاتِهِ غَنِيٌّ.

وَلفظ «حَمِيد» هنا «فعيل» بمعنَىٰ «مَفْعول». وقد جاء في البيانِ القرآني على أنَّ كُلَّ شَيْءٍ يُسَبِّحُ بِحَمْدِ اللهِ، وأنّ الْمَلَائِكَةَ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُقَدِّسُونَ له.

وقَدْ جَاءَ التعبيرُ عَنْ مَضْمُونِ هٰذَا القول الّذِي قالَهُ موسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام لِقَومِهِ بني إسْرَائيل، في سِتَّةِ نُصُوصٍ قُرآنِيَّة، مِنْهَا: ما سَبَقَ أَنْ جَاءَ في سُورَة (هود/ ٥٢ نزول) بياناً لِقَوْلِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ:

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ۝٥٧﴾.

إِنَّ الْكَافِرِينَ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً لِأَنَّ اللهَ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ لَغَنِيٌّ حَمِيد.

وعبارة: ﴿... فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٨﴾ مُؤَكَّدَةٌ بالمؤكّدات.

«إِنَّ ـ والجملة الاسْمِيَّة ـ ولام الابْتداء المزحْلَقَة لِخَبَرِ إنّ».

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرسِ الثاني من دُرُوس سورة (إبراهيم).

والحمد للهِ على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

❁ ❁ ❁

(٦)
التدبّر التحليلي للدّرس الثالث من دُروس سورة (إبراهيم) الآيات من (٩ ـ ١٨)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَـٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾:

القراءات:

(٩ و١٠) • قرأ أبو عمْرو: **[رُسْلُهُمْ]** بإسْكان السِّين.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[رُسُلُهُمْ]** بضمّ السين.

(١٠) • قرأ وَرْشٌ، وأبو جعفر: [وَيُوَخِّرَكُمْ] وصْلاً ووقفاً.

وكذلك قرأها حمزة في الوقف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [وَيُؤَخِّرَكُمْ] وَصْلاً ووقفاً.

(١١) • قرأ أبو عمْرو: [رُسْلُهُمْ] بإسْكَانِ السِّين.

وقرأها باقِي القرّاءِ العشرة: [رُسُلُهُمْ] بِضَمِّ السّين.

(١٢) • قرأ أبو عَمْرو: [سُبْلَنَا] بإسْكانِ الباء.

وقرأها باقِي الْقُرَّاءِ العَشَرَةِ: [سُبُلَنَا] بضَمّ الباء.

(١٣) • قرأ أبو عَمْرو: [لِرُسْلِهِمْ] بإسْكَانِ السِّين.

وقرأها باقِي القرّاء العشرة: [لِرُسُلِهِمْ] بِضَمِّ السّين.

(١٤) • قرأ يعقوب: [وَعِيدِي] بإثبات ياء المتكلم في الوصل والوقف. وقرأ ورشٌ كذلِكَ في الوقف فقط.

وقرأهَا بَاقِي القرّاءِ العشرة: [وَعِيدِ] بحذف ياء المتكلّم وصلاً ووقفاً.

(١٨) • قرأ نَافع، وأبو جَعْفر: [الرِّيَاحُ] بالجمع.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [الرِّيحُ] بالإفراد.

تَمْهيد:

فِي آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ مُعَالَجَةٌ من اللهِ عَزَّ وَجلَّ لِلْكَافِرِينَ إبَّانَ التنْزيل، ولا سيما أئمَّتُهُمُ الْمُضِلُّونَ المعَانِدُونَ المسْتَكْبِرُونَ، وفي هٰذِهِ المعالَجَةِ تَذْكِيرُهُمْ بِمَا كَانَ لِقَوْمِ نُوحٍ وعادٍ وثمود، والَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إلَّا اللهُ، وبيانُ مَا كَانَ مِنْهُمْ مِن جَدَلِيَّاتٍ لِرُسُلِهِمْ، وَكَيفَ أنّ الله بِعَدْلِهِ عَذَّبَهُمْ وَأَهْلَكَهُمْ إهْلَاكَ اسْتِئصالٍ، مع ما أعَدَّ لَهُمْ من عَذَابٍ أَلِيمٍ أبَدِيٍّ في جَهَنَّم يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَكَيْفَ خابَتْ أَعْمَالُهُمْ.

التدبُّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُخاطبُ الكَفَرَةَ المعالَجِينَ إبَّانَ التنزيل، وهو موجَّهٌ دواماً لكُلِّ أمْثَالِهم:

• ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾:

• ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾؟: اسْتِفْهَامٌ يُرادُ بِهِ تقريرُهم على الْإِثْبَاتِ، أي: بَلَىٰ لَقَدْ أَتَاكُمْ، والْخِطَابُ مُوَجَّهٌ لِلْكَافِرِينَ.

• ﴿نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾: أي: نَبأُ إهْلَاكِ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ من قَبْلِكُمْ، وَهُوَ خَبَرٌ عَظِيمٌ ظَاهِرٌ، يُحَرِّضُ نُفُوسَ أَهْلِ الْعَقْلِ والرُّشْدِ لِلاسْتجابَةِ لِدَعْوَةِ الحقِّ، الَّتِي يَدْعُو إِلَيْهَا رَسُولُ رَبِّكُمْ.

• ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾: وقَدْ سَبَقَ في نُجُومِ التَّنْزِيلِ تَفْصِيلُ لقَطَاتٍ مُتَكَامِلَاتٍ مِنْ قِصَصِهِمْ مَعَ رُسُلِ رَبِّهم، وَكَانَ كُفْرُهُمُ الْعِنَادِي الْأَحْمَقُ سَبَبَ تَعْذِيبِهِمْ وَإِهْلَاكِهِمْ إهْلَاكَ اسْتِئْصَالٍ.

• ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾: وَقَدْ سَبَقَ أن جَاءَ الْبَيَانُ عَنْهُمْ مجملاً في قول اللهِ تَعَالَىٰ في سورة (غافر/ ٦٠ نزول):

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

ومعلومٌ أنَّ الَّذِينَ لَمْ يَقُصَّ اللهُ نَبأً مُفَصَّلاً عَنْهُمْ مِنَ الرُّسُلِ قَدْ أُرسِلُوا إِلَىٰ أَقْوَام لَمْ يَقُصَّ اللهُ عَنْهُمْ نَبأً، فَهُمْ لَا يَعْلَمُهُمْ مِنْ كُتَّابِ تاريخِ النَّاسِ أو رُواته أَحَدٌ، لكنَّ اللهَ يعلمهم عِلْماً شَامِلاً، وفيما أنْبأَ به كِفَايَةٌ عمَّا لَمْ يُنْبِئْ به.

• ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾: أي: جاءتْهُم رُسُلُهُم الْمُرْسَلُونَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ، مَصْحُوبِينَ بالآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ الواضِحَاتِ، وهِي قسمان:

الأَوَّل: خوارقُ عَادَاتٍ وَمُعْجِزَاتٌ كُبْرَىٰ مُثْبِتَاتٌ صِدْقَ رُسُلِ رَبِّهِمْ.

الثاني: آيَاتٌ بَيَانِيَّةٌ كَلامِيَّةٌ دَالَّاتٌ عَلَىٰ أُصُولِ الدِّينِ وقواعِدِه وَأَحْكَامِهِ وَشَرَائِعِهِ، وَمَطْلُوبَاتِ اللهِ مِنْ عِبادِهِ فِي حياة الامْتِحَان، مع مَا يرافِقُها مِنْ وسَائِلِ إقْنَاعٍ وَتَرْغِيبٍ وَتَرْهِيب وتَرْبِيَةٍ.

• ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾: هَـٰذِهِ العبارة دَلَّتْ بأسْلُوبِ الكِنَايَةِ، عَلَىٰ أَنَّ أَقْوَامَ الرُّسُلِ رَفَضُوا الاستماعَ لِبَيَانَاتِهِمُ الدَّاعِيَةِ إلى دِينِ اللهِ الْحَقِّ، لِأَنَّهُمْ مُتَمَسِّكُونَ بِكُفْرِيَّاتِهِمْ، وأنْوَاعِ سُلُوكِهِمْ الْمُلَائِمَةِ لِكُفْرِيَّاتِهِمْ، وَمَفْهُومَاتِهِم الْبَاطِلَاتِ، وَتَعَلُّقِهِمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَاتِها، وَإِيثَارِهِمْ إِيَّاهَا عَلَىٰ الْآخِرَةِ.

إِنَّ مُحَدِّثَ النَّاسِ بِشَأْنِ قَضَايَا لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا، وهو واقِفٌ بَيْنَهُمْ؛ يَسْتَعْمِلُ فِي الْغَالِبِ يَدَيْهِ لِلَفْتِ أنْظَارِهِمْ إِلَىٰ أَقْوَالِهِ ومَعَانِيهَا، في الإِثْبَاتِ، والنَّفْيِ، والاسْتِفْهَامِ، وَالْجَمْعِ، والتَّفْرِيقِ، والْعَدَدِ، والارتفاعِ، والانخفاضِ، والْجِهَاتِ السِّتّ، والإشَارَةِ إِلَىٰ شَيْءٍ، إلى غَيْرِ هَـٰذِهِ من المعاني الَّتي تُسَاعِدُ حَرَكَاتُ الْيَدَيْنِ عَلَىٰ إدْرَاكِهَا بِسُرْعَةٍ.

وحِينَ يُوَجِّهُ بَعْضُ حُضُورِ دَعْوَةِ الرُّسُلِ أَسْمَاعَهُمْ وَأَنْظَارَهُمْ إلى تَفَهُّم دَعْوَتِهِمْ، يَغْتَاظُ قَادَةُ الْقَوْمِ وَكُبَرَاؤُهُمْ، فَيَقُومُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ الرَّسُولِ فَيَأْمُرُهُ بالسُّكُوتِ والانْصِرَافِ، فَإِذَا تَابَعَ الرَّسُولُ دَعْوَتَهُ أَمْسَكَ سَفِيهُ الْقَوْمِ بِيَدِ الرَّسُولِ الَّتِي يُشِيرُ بِهَا، وَرَدَّهَا إِلَىٰ فِيهِ بِعُنْفٍ، وَرُبَمَا أَدْخَلَ بَعْضَ أَصَابِعِها فِيهِ لِيُسْكِتَهُ.

هَـٰذِهِ الْحَرَكَةُ صَارَتْ حَرَكَةً يُكَنَّىٰ بِهَا عَنْ رَفْضِ الاسْتِمَاعِ لِدَعْوَةِ الداعي، وَرَفْضِ دَعْوَتِهِ كُلِّهَا.

• ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾: أي: وَقَالُوا مُؤَكِّدِينَ بـ «إِنَّ ـ والجملة الاسْمِيَّة» لِرُسُلِ رَبِّهِمْ إِلَيْهِمْ: كَفَرْنَا بِتَوْحِيدِ رُبُوبِيَّةِ اللهِ وَبِتَوْحِيدِ إِلَهِيَّتِهِ، وَبِكُلِّ مَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ مِنْ مَفْهُومَاتٍ تَقُولونَ: إِنَّهَا دِينُ اللهِ للنَّاسِ. أي: نَرْفُضُ أَنْ نُؤْمِنَ بِها، وَنَتَّبعَ مَا فِيها من أوامِرَ وَنَوَاهِي وَوَصَايا.

• ﴿. . . وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾: أي: وَإِنَّا لَفِي مُحِيطِ مِنَ الشَّكِّ، نُفُوراً مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ، وَهٰذَا الَّذِي تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ الْمُخَالِفُ لِدِينِ آبَائِنَا وَأَجْدَادِنَا؛ يُوقِعُنَا فِي الرَّيْبِ مِنْ غَايَتِكُمْ مِنْ دَعْوَتِكُمْ، إِذْ نُقَدِّرُ أَنَّكُم جِئْتُمْ بِهَا لِتَحْتَلُّوا مَرْكَزَ الرِّئَاسَةِ، والقيادة، والسُّلْطَةِ الْأُولَىٰ في الْبِلَادِ، والْمُلْك.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً رَدَّ الرُّسُلِ عَلَيْهِم السَّلَام عَلَىٰ أَقْوامهم وَرَدَّ الْأَقوام على رُسُلِهِم عَلَيْهِم السَّلَام:

• ﴿۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾:

لَمَّا كَانَ الْأَصْلُ الْأَوَّلُ لِدَعْوَةِ جَمِيعِ رُسُلِ اللهِ الْإِيمَانَ باللهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالْمُهَيْمِنِ عَلَىٰ كُلِّ مَا سِوَاهُ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ، كَانَ الْحِوَارُ الْفِكْرِيُّ مَعَ الْمُخَالِفِينَ فِي قضايا الدِّين، يَجِبُ أَنْ يَبْدأَ مِنَ الْأَصْلِ الْأَوَّلِ في الْفِكْرِ الدِّينِيِّ الحقِّ، وهُوَ الاتِّفَاقُ بَيْنَ المتَحَاوِرَيْنِ عَلَىٰ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

• ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خَالِقِ وَمُوجِدِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَفْقَ نِظَامِ الْفَطْرِ وَالْفَلْقِ.

الْفَطْرُ: الشَّقُّ والْإِخْرَاجُ مِنَ الْبَاطِنِ.

وقَدِ اخْتَارَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَكُونَ خَلْقُهُ ضِمْنَ نِظَامِ الْفَطْرِ، لِأَنَّ نُقْطَةَ الْعُمْقِ مِنْ كُلِّ شيءٍ هِيَ الْعَدَم، فَاللهُ هُوَ الْمُوجِدُ مِنَ الْعَدَم.

• ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾:

أي: إِنَّ دَعْوَتَنَا لَكُمْ لَيْسَتْ دَعْوَةً مِنَّا، إِذْ نَحْنُ رُسُلُ رَبِّكُم، فَهِيَ دَعْوَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَاطِرِ السَّماواتِ وَالأَرْضِ، يَدْعُوكُمْ إِلى الإيمانِ بِالْحَقِّ وإِلَىٰ الإِسْلام لَهُ، وَإِلَىٰ سَائِرِ قَضَايَا الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ لعباده، لِيَغْفِرَ لَكُم مِنْ ذُنُوبِكُمُ الْمَاضِيَةِ مَا يَتَعَلَّقُ بِحُقوقِهِ عَلَيْكُمْ، فإِذَا غَفَرَهَا لَكُم حَكَمَ لَكُمْ بِالْهِدَايَةِ، فَصِرْتُمْ مِنْ مُسْتَحِقِّي دُخُولِ جَنَّتِهِ يَوْمَ الدِّينِ، وَالْخُلُودِ في سَعَادَةٍ أَبَدِيَّةٍ وَنَعِيم مُقِيم.

أَمَّا الذُّنُوبُ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِحُقُوقِ غَيْرِ اللهِ عَلَيْكُمْ؛ فَيُطَبَّقُ عَلَيْكُمْ فِيها قَانُونُ الْعَدْلِ الرَّبَّانِي، وَهُوَ الْقِصَاصُ أَوْ مُسَامَحَةُ أَصْحَابِ الْحُقُوق.

وَبِسَبَبِ إِيمانكم وإسلامِكُمْ؛ يَرْفَعُ عَنْكُمْ مَا تَسْتَحِقُّونَ من تَعْذِيبٍ وإِهْلَاكٍ مُسْتَأْصِلٍ، وَيُؤَخِّرُ كُلًّا مِنْكُمْ إِلَىٰ أَجَلِ بَقَائِهِ فِي الْحَيَاةِ، الْمُسَمَّىٰ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُخْلَقَ، وَالَّذِي يُؤْمَرُ بِكِتَابَتِهِ الْمَلَكُ حِينَ يَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ وهُوَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ.

■ فَكَانَ مِنْ شَأْنِ أَقْوَامِ الرُّسُلِ عَلَيْهِم السَّلام أَنْ يَتَهَرَّبُوا مِنَ الْحِوَارِ حَوْلَ الأَصْلِ الأَوَّلِ مِنْ أُصُولِ الدِّين، ويَفْتَعِلُوا حِوَاراً حَوْلَ عَدَمِ صَلاحِيَةِ الْبَشَرِ لِأَنْ يَكُونُوا رُسُلاً للهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكُلِّ مَا فيهما:

• ﴿... قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾:

﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾: أي: والْبَشَرُ لَا يَصْلُحُونَ لِأَنْ يَتَلَقَّوْا بَيَانَاتٍ عَنِ اللهِ، وَيَكُونُوا رُسُلاً للهِ يَحْمِلُونَ رِسَالَةً عَنْهُ إِلَىٰ النَّاس، وَقَدْ جَاءَ فِي القرآن رَدٌّ لِهَٰذَا الاعْتِرَاضِ فِي عِدَّةِ سُوَرٍ، وعلى أَلْسِنَةِ عَدَدٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَقَدْ سَبَقَتْ دِرَاسَةُ هَٰذَا الموضوع في مُلْحَقٍ خاصٍّ[1].

(١) انظر الملحق الثالث من مَلَاحِق تدبُّر سورة (يسٓ): «بَيَانُ اعْتِرَاضِ الأُمَمِ عَلَىٰ بَشَرِيَّةِ الرُّسُل عَلَيْهِم السَّلَام».

«إنْ» في «إنْ أنْتُمْ» حَرْفُ نفي بمعنى «ما».

• ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾: أي: تُريدُون أنْ تَصْرِفُونَا عَنْ عِبَادَةِ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا مِنْ آلِهَةٍ، لِغَرَضٍ في نُفُوسِكُمْ، كَأَنْ تَحْتَلُّوا باتِّبَاعِ النَّاس لَكُمْ في هٰذَا الدِّينَ مَرَاكِزَ الرِّئَاسَةِ والسِّيَادَةِ والْمُلْكِ، ومِنْ بَعْدِ ذَلِكَ الاسْتِيلاءُ عَلَىٰ الْأَمْوَالِ، والْحُصُولُ على مَا تَبْغُونَ مِنْ لَذَّاتٍ وَشَهَوَاتٍ، كَمَا يَفْعَلُ الْمُلوكُ ذَوُو السُّلْطَانِ فِي الْأَرْضِ.

• ﴿... فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾: أي: فَأتُونَا بخارِقٍ مِنَ الآيَاتِ الكِبَارِ يَكُونُ بُرْهَاناً لكُمْ عَلَىٰ أَنَّكُم أَنْبِيَاءُ الله، خالِقِ السَّمَاوَاتِ والأرْضِ، وَرُسُلٌ مُرْسَلُونَ مِنْهُ لِتُبَلِّغُوا النَّاسَ مَطْلُوبَ اللهِ مِنْ عباده.

وَكَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يُؤْتِي رُسُلَهُ عَلَيْهِم السَّلَام مِنَ المعْجِزَاتِ الْبَاهِرَاتِ، بالمِقْدَارِ الَّذِي يَعْلَمُ أَنَّ أَقْوَامَهُمْ اسْتَيْقَنُوا بِهِ مِن عُمْقِ قُلُوبِهِمْ أَنَّ الرُّسُلَ عَلَيْهِم السَّلَام صَادِقُونَ في نُبُوَّاتِهِمْ وَفي رِسَالَاتهم.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً مَا رَدَّ بِهِ الرُّسُلُ عَلَيْهِم السَّلَام عَلَىٰ أقوامِهِمْ:

• ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾:

أجابَتِ الرُّسُلُ عَلَيْهِم السَّلَام أَقْوامَهُمْ بإجابَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ إلَىٰ سِتِّ قَضَايَا:

القَضِيَّةُ الْأُولى: قَالُوا فِيها لِأَقوامِهِمْ: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾:

أي: نَعَمْ، مَا نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدمَ ـ عَلَيْهِ السَّلام ـ أَبِي الْبَشَرِ، وَلَكِنَّ اللهَ فَضَّلَ بَعْضَ الْبَشَرِ عَلَىٰ بَعضٍ، فَهُوَ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ

سُلْطَانُهُ، وَعَظُمَتْ قُدْرَتُهُ، وسَمَتْ حِكْمَتُهُ ـ يَمُنُّ بالتَّفْضِيلِ بِالنُّبُوَّةِ والرِّسَالَةِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَمَشيئَتُهُ لَا تُفَارِقُ حِكْمَتَهُ، ومِنَ الْهَيِّنِ عَلَىٰ قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ أَنْ يُوحِيَ إِلَىٰ إِنْسَانٍ بَشَرٍ مِنَ الْبَشَرِ، وَأَنْ يُحَمِّلَهُ رِسَالَةً، وَيُكَلِّفَهُ أَنْ يُبَلِّغَهَا لِقَوْمِهِ الَّذِينَ أَرْسَلَهُ إِلَيْهِمْ.

هَلْ في هـٰذَا مَا يَتَعَارَضُ مَعَ قَانُونٍ عَقْلِيٍّ؟؟.

أَلَيْسَ اللهُ الْخَالِقُ بِقُدْرَتِهِ الْمُصَاحِبَةِ لِحِكْمَتِهِ كُلَّ ذَرَّةٍ مِن ذَرَّاتِ الكَوْنِ، وكُلَّ ذَرَّةٍ مِنْ ذَرَّاتِ الْأَحْيَاءِ، وكُلَّ ذَرَّةٍ مِنْ ذَرَّاتِ كُلِّ إِنْسَانٍ؛ قَادِراً عَلَىٰ أنْ يُوحِيَ مَا يَشَاءُ لِمَنْ يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ.

مَا هُوَ الْأَمْرُ الْمُنَافِي لِقَضِيَّةٍ عَقْلِيَّةٍ في هـٰذَا الْأَمْرِ؟؟.

أَتَعْتَرِضُونَ عَلَىٰ اخْتِيَارٍ اختارَهُ رَبُّكُم دُونَ أَنْ تَكُونَ لَكُمْ حُجَّةٌ تَقْبَلُهَا الْعُقُولُ السَّلِيمَةُ؟!!.

الْمَنُّ: الإنْعَامُ والإحْسَانُ والتَّفَضُّلُ بالْعَطَاء.

القضية الثانية: قَالَ فِيهَا الرُّسُلُ عَلَيْهِم السَّلَام لِأَقْوامِهِم: ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾:

أي: وَمَا ثَبَتَ لَنَا مِنَ التَّمْكِينِ الرَّبَّانِيِّ لِقُدْرَاتِنَا؛ أَنْ نَأْتِيَكُمْ بآيَةٍ خارِقَةٍ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ الباهراتِ، تَكُونُ بُرْهَاناً عَلَىٰ أَنَّنَا صَادِقُونَ في ادِّعَاءِ أَنَّنَا أَنْبِيَاءُ اللهِ وَرُسُلُهُ، إِلَّا بِأَنْ يَأْذَنَ اللهُ لَنَا بِذَلِكَ، فَالإِذْنُ إِذْنُهُ، وَالْأَمْرُ أَمْرُهُ، والْخَلْقُ خَلْقُهُ، وإِذَا عَلِمَ اللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ أَنَّكُمْ صَادِقُونَ فِي طَلَبِ الْبُرْهَانِ عَلَىٰ أَنَّنَا أَنْبِيَاءُ اللهِ وَرُسُلُهُ، وَإِذَا قَدَّمَ لَكُمْ هـٰذَا السُّلْطَانَ آمَنْتُمْ وَأَسْلَمْتُمْ، فَإِنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ سَيُقَدِّمُ لَكُمْ ذَلِكَ لإِقْنَاعِكُمْ بِأَنَّنَا أَنْبِيَاءُ اللهِ وَرُسُلُهُ.

فَمَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا آتَاهُ اللهُ مِنَ الْآيَاتِ الْبَاهِرَاتِ؛ مَا جَعَلَ أُمَّتَهُ

يَسْتَيْقِنُونَ مِنْ عُمْقِ قُلُوبِهِمْ أَنَّهُ نَبِيُّ اللهِ وَرَسُولُهُ حَقًّا، لَكِنَّ الْكَافِرِينَ مِنْهُمْ كَانُوا بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ.

السُّلْطَان: الآيَةُ الخارقة المعجزة ـ الحجَّةُ والْبُرْهَان.

القضية الثالثة: قَال فيها الرُّسُلُ عَلَيْهِم السَّلَام لِأَقْوَامِهِمْ: ﴿... وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾:

دَلَّتْ هَـٰذِهِ العبارة عَلَىٰ أَنَّ الرُّسُلَ عَلَيْهِم السَّلَام تَعَرَّضُوا مِنْ قِبَل كُبَرَاءِ أقوامِهِمْ؛ للتَّهْدِيدِ بِمَا يُؤْذِيهِمْ أَوْ يَضُرُّهم فِي أَنْفُسِهِمْ أَوْ أَمْوالِهِمْ أَوْ أَهْلِيهِمْ، فَقَالُوا: تَوَكَّلْنَا عَلَىٰ اللهِ رَبِّنَا فِي أمْرِ حِمَايَتِنَا وَحِفْظِنَا، وَصَرْفِ الضُّرِّ وَالْأَذَى عَنَّا، وَعَلَىٰ اللهِ فَلْيَتَوَكَلِ المؤمِنُونَ جَمِيعاً، لِيَحْمِيَهُمْ وَيَحْفَظَهُمْ وَيَنْصُرَهُمْ عَلَىٰ مَنْ يُرِيدُ بِهِمْ شرًّا وضُرًّا وسُوءاً.

القضية الرابعة: قالَ فِيها الرُّسُلُ عَلَيْهِم السَّلَام: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ﴾:

ودَلَّتْ هَـٰذِهِ الْعِبَارَةُ عَلَىٰ أَنَّ بَعْضَ أَتْبَاعِ كُلِّ رَسُولٍ مِنْهُمْ؛ وجَدُوا أنْفُسَهُمْ ضُعَفَاءَ، لَا يَمْلِكُونَ حِمَايَةَ أَنْفُسِهِمْ مِنْ جَبَابِرَةَ كُفَّارِ قَوْمِهِمْ، فَقَالُوا لِرَسُولِهِمْ: كَيْفَ يَحْمِينَا التَّوكُّلُ الْقَلْبِيُّ عَلَىٰ اللهِ، وكُبَرَاءُ كُفَّارِ قَوْمِنَا يَمْلِكُونَ الْقُوَّةَ الْمُسَلَّحَةَ، والْأَنْصَارَ الكَثِيرِينَ، وَالْجُنُودَ المطيعِينَ لِأَوَامِرِ سَادَتِهِمْ وقَادَتِهِمْ؟.

فقالَتْ رُسُلُهُمْ عَلَيْهِم السَّلَام لَهُمْ: إِنَّ اللهَ هو الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَقَدْ آمَنَّا بِهِ، وَنُهَدَّدُ بما يَسُوؤنَا مِنْ أَجْلِ إيمانِنَا وإسلَامِنَا، أَفَلَيْسَ مِنْ كَمَالِ إِيمَانِنَا بِسُلْطَانِهِ العظيم أَنْ نَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَحْمِيَنَا وَيَنْصُرنَا؟، وَلَنْ يُوجَدَ شَيْءٌ يجلبُ لَنَا الْوَهْنَ وَيَسُدُّ عَلَيْنَا سُبُلَ النَّجاةِ مِنْ كَيْدِ كُفَّارِ أقوامِنَا، وَقَدْ هَدَانَا رَبُّنَا سُبلَنَا، مِنْهَا سَبِيلُ الْهِجْرَة، وَمِنْهَا سَبِيلُ إعْدَادِ الْمُسْتَطَاعِ مِنَ الْقُوَّةِ، لِمُوَاجَهَةِ قُوَّاتِ أَعْدَائِنَا إِذَا تَحَرَّكُوا

لِقِتَالِنَا، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ، وَمِنْهَا: السُّكُوتُ عَنِ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ دِينِ اللهِ تَعَالى مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ بِأُسْلُوبِ عَلَنِي، والاشْتِغَالُ بأسْلُوبِ الدَّعْوَةِ السِّرِّيَّة، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ سُبُلٍ، وَالتَّوَكُّلُ عَلَىٰ اللهِ تَبَارَك اسْمُه فِي كُلِّ سَبِيلٍ مِنْ هَـٰذِهِ السُّبُلِ يَجْعَلُ لَنَا مَخارِجَ يَقْضِي اللهُ لَنَا فِيهَا بالْفَرَجِ، ومِنْ سُنَّةِ اللهِ جَلَّ شأْنُه أَنْ يَنْصُرَ رُسُلَهُ عَلَيْهِم السَّلَام وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ وَاتَّبَعُوهُمْ.

القضيَّة الخامسة: قَالَ فِيهَا الرُّسُلُ عَلَيْهِم السَّلَام لِأَقْوَامِهِمْ: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾:

أي: ونُؤَكِّدُ لكم مُقْسِمينَ يا كُفَّارَ أَقْوَامِنَا أَنَّنَا سَنَصْبِرُ عَلَىٰ إِيْذَائِكم لَنا، وَلَا نُقَابِلُكُمْ بِمِثْلِهِ، وَلَوْ مَلَكْنَا الْقُوَّةَ عَلَىٰ مُعَاقَبَتِكُمْ بِالْعَدْلِ، لِأَنَّ حِرْصَنَا عَلَىٰ إِيمانِكُمْ وإسْلامِكُمْ، وَنَجَاتِكُمْ مِنَ الْخُلُودِ في عَذَابِ النَّار، أَشَدُّ مِنْ رَغَبَاتِ نُفُوسِنَا بالتَّشَفِّي مِنْكُمْ، إِذْ كَانَ إِيْذَاؤُكُم لَنا عُدْواناً بِغَيْرِ حَقٍّ.

القضيَّة السّادِسة: أَعْلَنَ فِيهَا الرُّسُل عَلَيْهِم السَّلَام قَوْلَهُمْ: ﴿... وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٣﴾﴾.

أي: ونَتَوَكَّلُ عَلَىٰ اللهِ لِيَرْزُقَنَا الصَّبْرَ، وَيُعِينَنَا عَلَيْهِ، وَيُثِيبَنَا بِأَجْرٍ حَسَنٍ يَكُونُ مُكَافَأَةً لَنَا عَلَىٰ صَبْرِنَا، وَعَلَىٰ اللهِ وَحْدَهُ فَلْيَتَوَكَّلِ المتوَكِّلُونَ، لِأَنَّهُ هُو التَّوكُّلُ النَّافِعُ، وكُلُّ تَوكُّلٍ عَلَىٰ غَيْرِ اللهِ تَوَكُّلٌ ضَائِعٌ لَا يَنْفَعُ المتوكِّلَ بشيءٍ.

في هَـٰذِهِ العبارة بَيَانٌ وَدَعْوَةٌ إلى الإيمان باللهِ والتوكُّلِ عَلَيْهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالى مُتَابِعاً بَيَانَ قِصَّةِ الرُّسُلِ عَلَيْهِم السَّلَام مَعَ أقوامِهِمْ:

● ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا... ﴿١٣﴾﴾:

دَلَّ هـٰذَا الْبَيَانُ على أنَّ الْخِصَامَ قَدِ اشْتَدَّ بَيْنَ الرُّسُلِ عَلَيْهِم السَّلَام وأقْوَامِهِمْ، إِذْ ضَاقَتْ صُدُور أقْوَامِهِمْ عَنْ تَحمُّلِ مُتَابَعَةِ الرُّسُلِ عَلَيْهِم السَّلَام بوسَائِلَ مُخْتَلِفَةٍ؛ دَعْوَتَهُمْ إِلَىٰ دِينِ اللهِ الْحَقِّ، بَيْنَ جمَاهِيرِهِمْ، وَلَوْ فِي السِّرِّ دَاخِلَ الْبُيُوتِ، فَأَنْذَرَ الكُبرَاءُ والْقَادَةُ في الأَقْوَام الرُّسُلَ عَلَيْهِم السَّلَام مُقْسِمِينَ بِالْإِخْرَاجِ طَرْداً مِنْ أرْضِهِمْ، ومَعَهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ واتَّبَعُوهم، إِذَا لَمْ يَعُودُوا عَنْ دِينهِم الْجَدِيدِ، وَيَدْخُلُوا فِي مِلَّةِ قَوْمِهِمْ دُخُولاً جَدِيداً بَعْدَ أَنْ خَرَجُوا مِنْهَا، وهذا بِحَسَبِ التَّصَوُّرِ الظَّاهِرِ لِلْأَقْوَام بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الرُّسُل عَلَيْهِم السَّلَام، لَكِنَّ رُسُلَ اللهِ عَلَيْهِم السَّلَام لَمْ يَكُونُوا مُنْذُ نَشْأتِهِمْ دَاخِلِينَ فِي مِلَلِ أقْوَامِهِمْ، أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ واتَّبَعُوهم فَكَانُوا دِاخِلِينَ في مِلَلِ أقْوَامِهِمْ، فَيُقَالُ بِشَأْنِهِمْ: «حَتَّىٰ تَعُودُوا».

ضُمِّنُ فِعْل: «تَعُودُوا» مَعْنَىٰ فِعْلِ: «تَدْخُلُوا»، فَعُدِّيَ تَعْدِيَتَهُ بِحَرْفِ «في».

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مبيّناً ما أَوْحَاهُ إِلَىٰ رُسُلِهِ عَلَيْهِم السَّلَام بَعْدَ التهديد الَّذِي أنْذَرَهُمْ بِهِ أقوامُهُمْ:

● ﴿... فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾:

أي: فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ الرُّسُلِ عَلَيْهِم السَّلَام رَبُّهُمْ مُؤَكِّداً مُقْسِماً: لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ الكَفَرَةَ مِنْ أَقْوَامِكُمْ، الَّذِينَ أَنْذَرُوكُم بِالْإِخْرَاجِ والطَّرْدِ مِنْ أَرْضِهِمْ، وَلَنُسْكِنَنَّكُمْ الأَرْضَ الَّتِي أنْذَرُوكُم بِالإخْرَاجِ مِنْهَا، وَمَعَكُمْ الَّذِينَ آمَنُوا بِكُمْ واتَّبَعُوكُم، بِمَعْنَىٰ: ولَنُمكِّنَنَّكُمْ مِنْ أَنْ تَسْكُنُوها إِذْ يَكُونَ لَكُمُ السُّلْطَانُ عَلَيْهَا، بَعْدَ إِهْلَاكِ الظَّالِمِينَ مِنْ قَوْمِكُمْ.

﴿... ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾: في هٰذِهِ العبارة تَعْمِيمٌ بَعْدَ تَخْصِيصٍ ـ أي: مَا وَعَدْنَا بِهِ الرُّسُلَ مِنْ إهْلَاكِ الظَّالِمِينَ مِنْ أقْوَامِهِمْ، وإسْكَانِهِمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ، ومَعَهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ واتَّبَعُوهُمْ، هُوَ سُنَّةٌ مِنْ سُنَنِي، فَهِيَ تَشْمَلُ كُلَّ مَنْ آمَنَ بِي وأعْلَنَ إسْلَامَهُ وَطَاعَتَهُ وانْقِيَادَهِ، وخَافَ قِيَامَهُ يَوْمَ الدِّينِ فِي مَحْكَمَتِي مُحَاسِباً، وَحَاكِماً لِعِبَادِي أَوْ عَلَيْهِمْ بِمَا يَقْتَضِيهِ فَضْلِي أوْ عَدْلِي، وَخَافَ وَعِيدِي الَّذِي أَنْذَرْتُ بِهِ الكُفَّارَ والْعُصَاةَ الْمُسْرِفين في مَعَاصِيهِمْ، أي: فَهُوَ يُؤْمِنُ بالآخِرَةِ وبِيَوْمِ الدين.

- ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾﴾:

اسْتفْتَحُوا: أي: سَأَلُوا اللهَ أَنْ يَقْضِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ كُفَّارِ قَوْمِهِمْ وَلَا سِيما الجبابِرَةُ مِنْهُمْ، ويَلْزَمُ مِنْ قَضَاءِ اللهِ الحكيم، أَنْ يَنْصُرَ أَوْلِيَاءَهُ عَلَىٰ أَعْدَائِهِ. فالفتح على هٰذَا هُو النَّصْر.

فالمعنى: وسَأَلَ الرُّسُلُ عَلَيْهِم السَّلَام اللهَ رَبَّهُمْ أَنْ يَنْصُرَهُمْ عَلَىٰ كُفَّارِ قَوْمِهِمْ، الَّذِينَ دبَّرُوا أَنْ يُخْرِجُوهُمْ مَعَ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ وَاتَّبَعُوهُمْ مِنْ أَرْضِهِمْ، بِالْقُوَّةِ المسلَّحَةِ.

- ﴿... وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾﴾:

خَابَ: أي: ذَهَبَتْ أَعْمَالُهُ الَّتِي عَمِلَهَا، وَتَدْبِيرَاتُهُ الَّتِي دبَّرَهَا، لِتَحْقِيقِ مُرَادِهِ؛ سُدىً، لَمْ تَنْفَعْهُ بِشَيْءٍ.

الْجَبَّار: المتكبّر، العاتي، المتَسَلِّطُ بالْقُوَّة، الَّذِي يُكْرِهُ النَّاسَ عَلَىٰ مَا يُرِيدُ بغير حقٍّ، مُسْتَخْدِماً الْقُوَّةَ الْقَاهِرَة.

العنيد: الشَّدِيدُ الرَّفْضِ لِلْحَقِّ، وَإِنْ ظَهَرَ لَهُ بِالْبُرْهَانِ السَّاطِعِ، والشّدِيدُ في الإصْرَارِ على رأْيِهِ، أو اعْتِقَادِه، أَوْ مَذْهَبِهِ، أَوْ سُلُوكِهِ، وَإِنْ ظَهَرَ لَهُ بُطْلَانُهُ بالْبُرْهَانِ السَّاطِعِ.

فالْمَعْنَىٰ: وذهبَتْ سُدىً أَعْمَالُ وَتَدْبِيرَاتُ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ عَاتٍ مُتَسَلِّطٍ بالْقُوَّةِ، شَدِيدِ الرَّفْضِ لِلْحَقِّ وإِنْ ظَهَرَ لَهُ بِالْبُرْهَانِ أَنَّهُ حَقٌّ، وَشَدِيدِ الإِصْرَارِ على باطِلِهِ وإِنْ ظَهَرَ لَهُ بُطْلَانُهُ بِالْبُرْهَانِ، مِنْ كُفَّارِ أَقْوَامِ الرُّسُلِ عَلَيْهِم السَّلَام، فَلَمْ يَكُنْ لِمُخَطَّطَاتِهِمْ، وَتَدْبِيراتِهِمْ، وَأَعْمَالِهِمْ، أَثَرٌ يَنْفَعُهُمْ في رَفْعِ عَذَابِ اللهِ عَنْهُمْ، وإِهْلَاكِهِمْ إِهْلَاكَ اسْتِئْصَالٍ.

قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابعاً بَيَانَ عِقَابِ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ كَافِرٍ:

• ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾: أي: سَوْفَ يَكُون مَصِيرُهُ يَوْمَ القيامَةِ الْخُلُود في جَهَنَّمَ دَارِ عَذَاب الْمُجْرِمِين.

جاء التعبيرُ بِعِبَارَةِ: «مِنْ وَرَائِهِ»؛ لِأَنَّ المسْتَقْبَلَ بالنِّسْبَةِ إلى المخْلُوقِينَ الَّذِينَ يَجْهَلُونَ أَحْدَاثَ مُسْتَقْبَلِهِمْ، يَقَعُ وَرَاءَهُمْ ولَيْسَ لِأَبْصَارِهِم رُؤْيَةٌ مَا لَهُ، إِنَّهُمْ يَرَوْنَ الْحَالَ والْمَاضِي فَقَطْ، دُونَ المسْتَقْبَلِ، فَمَثَلُهُمْ كَمَثَلِ رَاكِبِ مَرْكَبَةٍ تَسِيرُ إِلَىٰ الشَّرْقِ، ووَجْهُهُ فِيها مُوَجَّهٌ جِهَةَ الْغَرْب، إِنَّهُ يَرَىٰ مَا يَقْطَعُ وَمَا قَطَعَ مِنْ جِهَةِ الْغَرْب، وَلَا يَرَىٰ مِنْ جَهَةِ الشَّرْقِ شَيْئاً لِأَنَّهُ يَقَعُ وَرَاءَه، لَا أَمَامَهُ.

جَهَنَّم: اسْمٌ عَلَمٌ مِنْ أَسْمَاءِ النّار الَّتِي أَعَدَّهَا اللهُ لِيُعَذِّبَ فيها الْكَافِرِينَ والْعُصَاة المجْرِمِينَ يَوْمَ الدّين، ولفظ «جهنم» ممنوعٌ من الصَّرْفِ لِلْعَلَمِيَّةِ والتَّأْنِيث. ويقال لغة: «بِئْرٌ جَهَنَّم» أي: بَعِيدَةُ الْقَعْرِ.

﴿... وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ۝١٦﴾:

الصَّدِيد: الْقَيْحُ الَّذِي يَتَكَوَّنُ مِنْ فَسَادِ الْجُرْحِ.

أي: ويُسْقَىٰ حِينَ يَشْتَدُّ ظَمَؤُهُ مِنْ مَاءٍ يُشْبِهُ الصَّدِيدَ، كَرِيهِ الطَّعْمِ كَرِيهِ المنظر.

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ ... ۝١٧﴾:

يَتجرَّعُهُ: أيْ: يَتَكَلَّفُ ابْتِلَاعَهُ وهُوَ كَارِهٌ طَعْمَه وَرَائِحَتَهُ.

يُسِيغُهُ: أي: يَبْتَلِعُهُ ويَجْعَلُهُ يَنْحَدِرُ إلَىٰ مَعِدَته.

فالْمَعْنَى: يَتجَرَّعُ الْمَاءَ الَّذِي يُشْبِهُ الصَّدِيدَ بِتَكَلُّفٍ وهُوَ كَارِهٌ لَهُ، وَلَا يَقْتَرِبُ مِنْ إسَاغَتِهِ، بَلْ يَبْتَلِعُهُ كَمَا لَوْ أَنَّهُ يَبْتَلِعُ الطِّينَ والرَّملَ وَمَوَادَّ أُخْرَىٰ ثَقِيلَةٍ خَشِنَةٍ، لَا تُسْتَسَاغُ إلَّا بِصُعُوبَةٍ وَإِيلَام.

● ﴿... وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ...﴾:

أي: وَيَأْتِيهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ المعَذِّبَةِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ من حَوْلِهِ فِي جَهَنَّم، مَا يَكْفِي كُلُّ واحِدٍ منها لِأَنْ يُمِيتَ، لَوْلَا أَنَّ الْحَيَاةَ الْأُخْرَىٰ لَا مَوْتَ فِيهَا، فَقَدْ ذُبِحَ الْمَوْتُ عَلَىٰ أَوَّلِ الصِّرَاط، فَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ، وَلَكِنَّهُ يُعَذَّبُ عَذَاباً يَكْفِي لِلإِمَاتَةِ لَوْ كَانَ نِظَامُ الموْتِ مَا زَالَ سَارِياً، مِيتَاتٍ بِعَدَدِ الْمُعَذِّبَاتِ الَّتِي تَصِلُ إِلَيْهِ.

● ﴿... وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾:

أي: ويَأْتِيهِ بَعْدَ هـٰذَا الْعَذَابِ في مُسْتَقْبَلِ بَقَائِهِ في جَهَنَّمَ؛ عَذَابٌ غَلِيظٌ آخَرُ، وَهَكَذَا مَعَ كُلِّ زَمَنٍ لَاحِقٍ.

عَذَابٌ غَلِيظ: أي: شَدِيدُ الإِيْلَامِ. أَصْلُ الْغَلِيظ في اللُّغَةِ خِلَافُ الرَّقِيق، والْعَصَا الْغَلِيظَة هِيَ الثَّقِيلَةُ الْعَظِيمَةُ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يَصِفُ أَعْمَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مُقَاوَمَةِ دَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّةِ الَّتِي أَرْسَلَ بِهَا رُسُلَهُ عَلَيْهِم السَّلَام:

● ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾:

في هَـٰذِهِ الْآيَةِ تَشْبِيهٌ تَمْثِيلِيٌّ رائِعٌ لِأَعْمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ، الَّتِي أَرَادُوا بِهَا مُقَاوَمَةَ دَعْوَةِ الرُّسُلِ إِلَىٰ دِينِ اللهِ وَصِرَاطِهِ المسْتَقِيم، إِنَّ مَثَلَهُمْ

كَمَثَلِ مَنْ جَمَعُوا حَطَباً كَثِيراً وأَوْقَدُوا نَاراً عَلَىٰ مِقْدَارِ مَا جَمَعُوا مِنْ حَطَبٍ، فَأَطْفَأَ اللهُ نَارَهُمْ، فَصَارَتِ الْبَقَايَا رَمَاداً، فَأَرْسَلَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ عَلَىٰ الرَّمَادِ رِيحاً شَدِيدَةً مِنْ جِهَاتٍ مُخْتَلِفَاتٍ ظَهَرَتْ كَأَنَّهَا رِيَاحٌ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ، أيْ: ثَارَتْ فِيهِ رِيَاحٌ عَاصِفَةٌ تَحْمِلُ الْعَصْفَ (وهو النبات اليابِسُ، وَوَرَقُ الشجر) فَتَدُورُ بِهِ وَتَرْمِيهِ كَيْفَمَا اتَّفَقَ.

فَحَمَلَتِ الرِّيَاحُ الْعَاصِفَةُ الرَّمَادَ، وَسَفَّتْهُ وَنَسَفَتْهُ، فَلَمْ يَبْقَ لِأَعْمَالِهِمْ أَثَرٌ مَا، وَخَابَ سَعْيُهُمْ، وَخَسِرُوا كُلَّ مَا أَنْفَقُوهُ فِيمَا مَكَرُوه وَدَبَّرُوهُ وَكَادُوهُ مِنْ أَعْمَالٍ، حَتَّىٰ صَارُوا لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يَحْصُلُوا عَلَىٰ شَيْءٍ كَانُوا يَرْجُونَهُ مِمَّا كَسَبُوه بأعْمَالِهِمْ، وَوَجَدُوا أَنْفُسَهُمْ بِمُعَاقَبَةِ اللهِ لَهُمْ ضَالِّينَ ضَلَالاً بَعِيداً، مُعَذَّبِينَ عَذَاباً شَدِيداً، نَادِمِينَ عَلَىٰ كُلِّ مَا فَعَلُوا.

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الثالِثِ من دُرُوس سورة (إبراهيم).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(٧)
التدبّر التحليلي للدرس الرابع من دُروس سورة (إبراهيم) الآيات من (١٩ ـ ٢٣)

قال الله عزّ وجل:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ

فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾:

القراءات:

(١٩) • قرأ حمزة، والكِسَائي، وخلف: **[خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ]**.

وقرأها بَاقِي القرّاء العشرة: **[خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضَ]**.

(١٩) • قرأ أبو جَعْفَر: **[إِنْ يَشَا]** في الوصْل والوقف، وكذلِكَ حمزة، وهِشام في الوقف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[إِنْ يَشَأْ]**.

(٢٢) • قَرَأ حَفصٌ: **[لِيَ عَلَيْكُمْ]** بِفَتْحِ ياء المتكلّم.

وقرأهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بالإسْكان: **[لِيْ عَلَيْكُمْ]**.

(٢٢) • قرأ حمزة: **[بِمُصْرِخِيِّ]** بِكَسْرِ الياء المشدّدة.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[بِمُصْرِخِيَّ]** بِفَتْحِ الياء المشَدَّدَة.

(٢٢) • قرأ أبو عَمْرو، وأبو جعفر: **[أَشْرَكْتُمُونِي]** بإثْبات يَاء المتكلّمِ وصْلاً، وَكَذَلِكَ قَرَأها يَعْقُوبُ وَصْلاً وَوَقْفاً.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[أَشْرَكْتُمونِ]** بِحَذْفِ ياء المتكلّم.

تَمْهيد:

في آيات هـٰذَا الدَّرْسِ خِطابٌ من اللهِ عَزَّ وَجلَّ لكُلِّ صَالِحٍ لِلْخِطَابِ بِأَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحقِّ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَذْهَبَ بِالنَّاسِ جَمِيعاً ويَأْتِي بِخَلْقٍ جَدِيدٍ، أي: فالْبَعْثُ الْمَوْعُودُ بِهِ حَقٌّ.

وفِيها انْتِقَالٌ سَرِيعٌ لِتَقْدِيم مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ القيامَة.

وفِيهَا عَرْضُ حِوَارٍ بَيْنَ الَّذِينَ كَانُوا ضُعَفَاء أتْباعاً لِأَئِمَّتِهِمُ الَّذِينَ كَانُوا فِي الدُّنْيَا مُسْتَكْبِرِينَ، وفي هٰذَا الحوار مَعْنَىٰ الْخُصُومَة.

وَفِيهَا مَا يُجِيبُ بِهِ الشَّيْطَانُ مِنْ ضَلُّوا بِوَسَاوِسِه وَتَسْوِيلاتِهِ، إذْ يَقُولُ لَهُمْ: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾.

وفيها بَيَانُ إدْخَالِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيها بإِذْنِ رَبِّهِمْ.

التَّدبُّرُ التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بأسْلُوب الْخِطَاب الإفراديّ لِكُلِّ صَالحٍ لِلْخِطَاب:

• ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾:

أي: أَلَم تَرَ بِفِكْرِكَ أيُّهَا الرائي المتفكّرُ المتدبّر في خَلْقِ اللهِ أَنَّ اللهَ ـ جَل جَلَالُهُ وسَمَتْ حِكْمَتُه ـ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مُتَّصِفاً خَلْقُهُ لَهُمَا بِالْحَقِّ.

وفي القراءة الْأُخرى: أنَّ اللهَ خَالِقُ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ بالْحَقِّ.

والمرادُ بِالحقِّ هُنَا مَا كَانَ إيجَادُهُ لِغَايَةٍ حَكِيمَةٍ يُدْرِكُها الْعُقَلَاء، وَيُدْرِكُونَ أَنَّهَا مِنْ كَمَالِ الْمُوجِد، أَمَّا إيجادُ شيءٍ مَا، أَوْ فِعْلُ فِعْلٍ مَا دُونَ غَايَةٍ حَكِيمَةٍ تُقْصَدُ مِنْ قِبَلِ أَهْلِ الْكَمَالِ، فَهُوَ عَبَثٌ يَتَنَزَّهُ عَنْهُ أَهْلُ الْعِلْمِ والرُّشْدِ والتَّصرُّفِ الْحَلِيم.

وقد سبَقَ تَدَبُّرُ نَظِيرِ هٰذَا البَيَانِ بِتَوسُّعٍ، لَدَى تَدبُّرِ الآيَةِ الثَّالِثَةِ مِنْ سُورة (النَّحْلِ/ ٧٠ نزول) فَلْيُرْجَعْ إِلَيه.

ولمَّا كَانَ خَلْقُ اللهِ لِكُلِّ مَا خلَقَ مَسْبُوقاً بِمَشِيئَتِهِ الْحَكِيمَةِ؛ كَانَ عَلَىٰ ذِي الْعَقْلِ أَنْ يُدْرِكَ أَنَّهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ إِنْ يَشَأْ أَنْ يُذْهِبَ قَوْماً أَوِ النَّاسَ جَمِيعاً؛ يُذْهِبْهُمْ مِنْ وُجُودِهِمْ فِي الْحَيَاةِ، وإِنْ يَشَأْ أَنْ يَأْتِيَ بِمَخْلُوقَاتٍ جَدِيدَةٍ غَيْرِ الَّذِينَ أذْهَبَهُمْ مِنْ حَيَواتِهِمْ، إِلَىٰ الْفَنَاءِ، أو إِلَىٰ الْعَدَمِ الْكُلِّي؛ فَعَلَ فَجَاءَ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ.

هٰذَا ما نَفْهَمُهُ مِنْ قولِ اللهِ تَعَالَىٰ في الْآيَةِ:

• ﴿... إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾﴾: أي: إِنْ يَشَأْ أَنْ يُذْهِبَكُمْ يا أَيُّهَا الْقَوْمُ، أَوْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ، مِنْ وُجُودِكُمْ ذِي الْحَيَاةِ؛ أَذْهَبَكُمْ، وَجَاءَ بِخَلْقٍ آخَرَ جَدِيدٍ، مُمَاثِلٍ لِخَلْقِكُمْ، أخذاً مِنْ دَلَالَة لفظ «جَدِيد».

الْخَلْقُ: المخْلُوقُ، ويُطْلَقُ هٰذَا اللفظ علَىٰ النَّاسِ.

• ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾: أي: وَمَا ذَلِكَ الْأَمْرُ، وهُوَ إِذْهَابُكُمْ والْإِتْيَانُ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ؛ عَلَىٰ اللهِ بِصَعْبٍ ولا شاقٍّ، بَلْ هُوَ هَيِّنٌ عَلَيْهِ.

يُقَالُ لُغَةً: «عَزَّ الْأَمْرُ عَلَىٰ فُلَانٍ» أي: اشْتَدَّ، وشَقَّ، وصَعُبَ.

وجاء في العبارة تَوْكيد النَّفْي بحَرْف الجرِّ الزَّائدِ «الباء» في: «بِعَزِيز».

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِانْتِقَالٍ سَرِيعٍ إِلَىٰ عَرْضِ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ خَلْقٌ جَدِيدٌ للنَّاس لِلْحِساب، وفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَتنفِيذِ الجزاء:

• ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَـٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾:

• ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾: أي: وظَهَرَ الَّذِينَ كَانُوا مَوْضُوعِينَ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ جَمِيعاً، في مَوْقِفٍ جَامِعٍ عَلَىٰ أَرْضِ الْمَحْشَرِ، لِمَا يَقْضِي اللهُ بِهِ لَهُمْ أَوْ عَلَيْهِمْ، لَا يَمْلِكُ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَنْ يَتَصَرَّفَ لِنَفْسِهِ بشيءٍ، فالْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ مُلْكُهُ، وَالْحُكْمُ حُكْمُهُ، وَالْأَمْرُ كُلُّهُ أَمْرُه.

الْبَرَازُ: الْمَكَانُ الْفَضَاءُ مِنَ الْأَرْضِ الْوَاسِعُ الْبَعِيدُ، وإذا خَرَجَ الخارِجُ إِلَىٰ ذَلِكَ المكانِ يُقَالُ بِشَأْنِهِ: «بَرَزَ، يَبْرُزُ، بُرُوزاً» أي: خَرَجَ إِلَىٰ الْبَرَازِ، وأَرْضُ الْمَحْشَرِ يَوْمَ القيامَةِ أَرْضٌ فَضَاءٌ واسِعَةٌ جِدًّا، وبَعِيدَةُ الْأَطْرَاف.

جَمِيعاً: حَالٌ.

أي: وأَجْرَىٰ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ سُؤَالَ الْعِبَادِ، وَفَصَلَ قَضَاءَهُ بِشَأْنِهِمْ.

• ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾: أي: فَقَالَ الَّذِينَ كَانُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ضُعَفَاءَ تَابِعِينَ قَادَتَهُمْ وَسَادَتَهُمْ فِي أَقْوَامِهِمْ.

• ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ﴾: أَيْ: لِلَّذِينَ كَانُوا اسْتَكْبَرُوا في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بأمْوَالِهِمْ، وَبِمَا كَانَ قَدْ فَضَّلَهُمُ اللهُ بِهِ لِيَبْلُوَهُمْ فِي ذَوَاتِهِمْ، وَفِي أَنْصَارِهِمْ وَجُنُودِهم:

• ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾:

أي: إِنَّا كُنَّا لَكُمْ أَتْبَاعاً نَسِيرُ في أَثَرِكُمْ، وَنَتَّبِعُ أوامِرَكُمْ، وخُطُواتِكُم، فَهَلْ أَنْتُمْ تَصرِفُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ، بَعْدَ أَنْ صَدَرَتْ أَحْكَامُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْنَا بالْعَذَاب.

«مِنْ» في: «مِنْ شَيْءٍ» مَزِيدَة لِتَوْكِيدِ عُمُومِ «شيءٍ» أي: أي شيءٍ.

تَبَعاً: أي: أتباعاً، ولَفْظُ «تَبَع» بمَعْنَىٰ تابع، يقالُ للواحِدِ والْجَمْعِ، ويُجْمَعُ عَلَىٰ أَتْبَاع.

مُغْنُونَ عَنَّا: أي: صَارِفُونَ عَنَّا، أصْل معنى «أغْنَاهُ»: كَفَاه. وحِينَ تَكُونُ عِنْدَ الحاجة إلى دفع مَكْرُوه يُضَمَّنُ الْفِعْلُ مَعْنَىٰ الكَفِّ والصَّرْفِ فَيُعَدَّى تَعْدِيَتَهُ بحرف «عَنْ»، فيقال: «أَغْنِ عَنَّا شَرَّكَ» أي: كُفَّهُ واصْرِفْه عَنَّا.

• ﴿قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾:

أي: قَالَ الَّذِينَ كَانُوا مُسْتَكْبِرِينَ مَتْبُوعِينَ فِي الدُّنْيَا: لَوْ حَكَمَ اللهُ الْيَوْمَ لَنَا بِالْهِدَايَةِ لَكُنَّا باتِّبَاعِكُمْ لَنَا فِي الدُّنْيَا هَدَيْنَاكُمْ، وَلَكِنْ حَكَمَ اللهُ عَلَيْنَا وَعَلَيْكُمْ بالضَّلَالِ، وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ عُذْرٌ باتِّبَاعِنَا، بَلْ كُنْتُمْ تَتَّبِعُونَ أَهواءَكُمْ وَشَهَوَاتِكُمُ الَّتِي وَجَدْتُمُوها عَنْدنَا وَفِي مَسَالِكِ غَوَايَتِنَا.

فَسَوَاءٌ عَلَيْنَا الْيَوْمَ أَجزِعْنَا وَأَظْهَرْنَا سَخَطَنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا بالصِّيَاحِ وَالْعَوِيلِ والْبُكَاءِ، أَمْ صَبَرْنَا وَصَمَتْنَا، مَا لَنَا مِنْ مَكَانٍ نَحِيدُ وَنَعْدِلُ وَنَهْرُبُ إِلَيْهِ.

يقال لغة: «حَاصَ عَنِ الشيءِ، يَحِيصُ، حَيْصاً، ومَحِيصاً، وحَيَصَاناً» أي: حَادَ عَنْهُ وَعَدَل.

لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا: أي لِلّذِين كانوا غُلَاةً مُبَالِغِينَ فِي تَكَبُّرِهِمْ، بِما آتَاهُمْ اللهُ مِنْ مَالٍ وَصِفَاتٍ يَتَكَبَّرُونَ بِهَا عَلَىٰ جَمَاهِيرِ قَوْمِهِمْ.

وَلَمَّا كَانَ الشَّيْطَانُ قَائِدَ غَوَايَةٍ وَتَضْلِيلٍ فِي حَيَاةِ الامْتِحَانِ في الدُّنْيَا، فَمِنْ شَأْنِ الَّذِينَ كَانَ الشَّيْطَانُ في الدُّنْيَا قَدْ أَضَلَّهُمْ وَأَغْوَاهُمْ، أَنْ يُوَجِّهُوا لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّهُ كَانَ السَّبَبَ في إغوائهمْ وإضْلَالِهِمْ، فَلْيَحْمِلْ عَنْهُمْ نَصِيباً مِنْ الْعَذَابِ الَّذِي قُضِيَ بِهِ عَلَيْهِمْ. فَيُدَافِعُ الشَّيْطَانُ عَنْ نَفْسِهِ بِمَا جَاء في الآيَةِ التَّالِيَة:

• ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى

وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٢﴾﴾:

الشيطان: اسْمُ جنْسٍ يَقَعُ عَلَىٰ كُلِّ مُغْوٍ مُضِلٍّ مُتَمرِّدٍ مُفْسِدٍ مِنَ الجنِّ والإنْسِ. وإبْلِيسُ إمَامُ الشَّيَاطِين ورَئِيسُهُمْ. وهُوَ عَلَىٰ وَزْنِ «فَيْعَال»، من فِعْل «شَطَنَ» أي: بَعُدَ.

• ﴿لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾: أَيْ: لمَّا أُنْهِيَ أَمْرُ حُكْمِ اللهِ بَيْنَ الْعِبَادِ.

• ﴿وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾: مَفْعُول مُطْلَقٌ مُبَيِّنٌ لِلنَّوعِ، وهُوَ كَوْنُهُ حَقًّا لَا كَذِبَ فِيهِ وَلَا بَاطِلَ، وهو من إضَافَةِ الموصُوفِ إلى الصِّفَةِ، أي: الْوَعْدَ الْحَقَّ.

• ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ﴾: أي: وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ قُوَّةٍ تُجْبِرُكُمْ وَتُلْغِي إرادَاتِكُمْ الْحُرَّةَ.

• ﴿إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِي﴾: أي: وَمَا كَانَ لِي مِنْ عَمَلٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ إِلَىٰ سُبُلِ الضَّلَالَةِ والْغَوَايَةِ، فَاسْتَجَبْتُمْ لِي باخْتِيَارِكُمْ الْحُرِّ، دُونَ إكْرَاهٍ وَلَا إجْبَارٍ، فَأَنْتُم تَتَحَمَّلُونَ عَاقِبَةَ اخْتِيَارِكُمْ تَحَمُّلاً كَامِلاً.

• ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾: أي: فَلَا تَلُومُونِي عَلَىٰ غَوَايَتِكُمْ وَضَلَالِكُمْ، ولُومُوا أَنْفُسَكُمْ، إِذْ أَنْتُمُ الَّذِينَ جَنَيْتُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ باخْتِيَارِكُمْ الْحُرِّ، إِذِ اسْتَجَبْتُمْ لِدَعْوَتِي إِيَّاكُمْ أَنْ تَسْلُكُوا سُبُلَ الضَّلَالِ.

• ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ﴾: مَا أَنا بمغيثِكُمْ، وما أَنْتُمْ بِمُغِيثِيَّ. **الْمُصْرِخ**: المغيث، الَّذِي يَسْمَعُ صُرَاخ المستغيث بِهِ فَيُغِيثُه.

• ﴿إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ﴾: أي: إِنِّي كَفَرْتُ باتِّخَاذِكم لي شَرِيكاً للهِ في إلَهِيَّتِهِ، فَأَطَعْتُمُونِي في دَعْوَتِي، وَلَمْ تُطِيعُوا اللهَ بارِئَكُمْ وَمُمِدَّكُمْ دَوَاماً بعطَاءَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ. ﴿بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ﴾: أي بإشْرَاكِكُمْ إِيَّايَ.

وهٰذَا الْمَعْنَىٰ مِنْ عِبَادَةِ الشَّيْطَانِ هُوَ مَا دَلَّ عَلَيْهِ قول الله تَعالَىٰ في سورة (يس/ ٤١ نزول) حكايَة لمَا سَوْفَ يَحْدُثُ يَوْم القيامَة:

﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩) ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١)﴾:

فجَعلَ اللهُ طَاعَةَ الشَّيْطَانِ في وَسَاوِسِهِ وَتَسْوِيلَاتِهِ عِبَادَة لَهُ، وَمُشَارَكَةً للهِ في إلَهِيَّتِهِ.

• ﴿... إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢)﴾: بَيَانٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بأنَّ الظَّالِمِينَ مِنْ أدنَىٰ دَرَكَاتِ الكُفرِ فَمَا هُوَ أَحَطُّ مِنْهَا وَأَخَسُّ؛ لَهُمْ عَذَابٌ أليمٌ مُعَدٌّ لَهُمْ، يَنَالُونَهُ حينَ حُلُولِ أَجَلِهِ يَوْمَ الدِّينِ، والبيان يقضي بأَنَّهُمْ أُدْخِلُوا في دَارِ العَذَابِ ليذوقوا فيها جزاءهم بالعدلِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بشأنِ ثوابِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَوْم الدّين، بِعِبَارَةٍ تَحْكِي بَيَاناً مُقْتَطعاً مِمَّا سَوفَ يَحْدُثُ لَهُمْ بِفَضْلِ اللهِ:

• ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ (٢٣)﴾:

أي: وفي مُقَابِلِ إدْخَالِ أَهْلِ النَّارِ في النَّارِ ليَذُوقوا جزاءَهُمْ عَذاباً أليماً، أُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعمِلُوا الصَّالِحَاتِ الْمُرْضِيَاتِ رَبَّهُمْ عَنْهُمْ؛ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِ شُرُفَاتِ قُصُورِهَا أَوْ مِنْ تَحْتِ قُصُورِهَا الأَنْهَارُ، حَالَةَ كَوْنِهِمْ خَالِدِينَ فِي التَّنَعُّمِ بِأَنْوَاعِ نَعِيمِهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ، وَحَالَ كَوْنِ تَحِيَّةِ الْمَلائِكَةِ لَهُمْ فيها، وتَحِيَّةِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ: سَلَامٌ.

السَّلَامُ: السَّلَامَةُ وَالأَمْنُ الدائمانِ مَعَ النَّعِيمِ الَّذِي لَا يَنْقطع.

وبهذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الرابع من دُرُوس سورة (إبراهيم).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

❊ ❊ ❊

(٨)
التدبر التحليلي للدرس الخامس من دُروس سورة (إبراهيم) الآيات من (٢٤ ـ ٢٦)

قال الله عَزَّ وجل:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾.

القراءات:

(٢٥) • قرأ نَافع، وابن كثير، وأبو عمْرو: **[أُكْلَهَا]** بإسْكان الكاف.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[أُكُلَهَا]** بِضمِّ الكاف.

وهُمَا لغتان.

(٢٦) • قرأ أَبُو عَمْرو، وعَاصِم، وحَمْزة وَيَعْقُوب: **[خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ]** بِكَسْرِ التَّنْوِينِ.

وَكَذَلِكَ ابْنُ ذَكْوَان وقُنْبل بِخُلْفٍ عَنْهُما.

وقرأهَا بَاقِي القرّاء العشرة بِضَمِّ التَّنْوين في الوصل، وهُو الوجْهُ الثّاني لابْنِ ذَكْوَان وَقُنْبل.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ مَثَلِ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ، وَمَثَلِ كَلِمَةٍ خبيثة.

التَّدَبُّر التَّحْلِيلِي:

• ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: أي: انْظُرْ نَظَرَ تَفَكُّرٍ عَمِيقٍ وَتَدَبُّرٍ دَقِيقٍ أَيُّهَا المتَلَقِي

لِهٰذَا البَيانِ مِنْ رَبِّكَ، فالاسْتِفْهَامُ هُنَا اسْتِفْهَامٌ تَحْرِيضي عَلَىٰ التَّفَكُّر الْعَمِيقِ والتَّدَبُّر الدَّقيق فِيمَا سَيُعْرَضُ مِنْ بَيَان.

• ﴿كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾: أي: تَفكَّرْ فِي الكَيْفِيَّةِ الْوَصْفِيَّةِ لِلْمَثَلِ الْآتي:

• ﴿... كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾:

يَضْرِبُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ مَثَلاً لِلْكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ؛ بالشَّجَرَةِ الطَّيِّبَةِ الَّتِي لَهَا أَصْلٌ ثَابِتٌ فِي الْأَرْضِ، إِذْ هِيَ ذاتُ جُذُورٍ مُتَغَلْغِلَةٍ فِي الْأَعْمَاقِ، تَمْتَصُّ الْغِذَاءَ للشَّجَرَةِ مِن الْمَاءِ والتُّرَاب، فَيَصْعَدُ فِي قَنواتٍ مِنْ الْجُذُورِ إِلَىٰ السَّاقِ، فَإِلَىٰ الْفُرُوعِ الصَّاعِدَة فِي الْجَوِّ الَّذِي هُوَ سَمَاءٌ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الْأَرْضِ، فَإِلَىٰ الْأَوْرَاقِ والْأَفْنَانِ والثَّمَرَاتِ، فَهِي تُؤْتِي النَّاسَ أُكُلَهَا، وهُوَ مَا يُؤْكَلُ مِنْهَا مِنْ ثَمَرَاتٍ، كُلَّ حِينٍ مِنْ فُصُولِ إِنْتَاجِهَا، بإِذْنِ رَبِّهَا مُدَبِّرِ نَمَائِهَا وَعَطَائِهَا، ضِمْنَ قَانُونِ إِنْتَاجِهَا الَّذِي قَدَّرَهُ بِحِكْمَتِهِ وَقَضَاهُ لَها.

وأولَىٰ الشجراتِ بالمثَلِ في بِلَادِ الْعَرَبِ إِبَّانَ التَّنْزِيل: النَّخْلَة.

كذلِكَ الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ الَّتِي تَدُلُّ عَلَىٰ حَقٍّ مُؤَيَّدٍ بالْبُرْهَان، أَوْ تَهْدِي إِلَىٰ خَيْرٍ أَوْ فَضِيلَةٍ، أَوْ عَمَلٍ صَالِحٍ يُرْضِي الله جَلَّ جَلَالُهُ.

وفي رَأْسِ الْكَلِمَاتِ الطَّيِّبَاتِ كَلِمَةُ الإِيمانِ باللهِ رَبًّا لَا شَرِيكَ لَهُ، وَكَلِمَةُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وكلمات سُبْحَانَ اللهِ، والْحَمْدُ للهِ، واللهُ أَكْبَر، وَكُلُّ كَلِمَةٍ فيها تَنْزِيهٌ للهِ، أَوْ كَلِمَةُ صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ اللهِ الثَابِتَةِ في القرآن أَوِ السُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ، والآيَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ الْهَادِيَةُ إِلَىٰ حَقٍّ أَوْ خَيْرٍ أَوْ فَضِيلَةٍ؛ كُلُّهَا كَلِمَاتٌ طيِّبات.

إِنَّ الْكَلِمَةَ الطَّيِّبَةَ ذَاتُ أَصْلٍ ثَابِتٍ، إِذْ لَهَا جُذُور كَجذُورِ الشَّجَرَةِ

الطَّيِّبَةِ، وهـٰذِهِ الْجُذُور مُتَغَلْغِلَةٌ فِي حَقَائِقِ الْعِلْمِ الرَّبَّانِيّ، وَلَهَا فَرْعٌ صَاعِدٌ فِي سَمَاءِ السُّلوكِ الإنْسانيّ، تَجْعَلُ المؤمِنَ بِهَا الْمَهْدِيَّ بَهَدْيِهَا ذَا أَعْمَالٍ نَافِعَةٍ، وصَاحِبَ امْتِدَادَاتٍ فِي كُلِّ اتِّجَاهِ، كَفُرُوعِ شَجَرَةٍ وَارِفَةِ الظِّلَالِ، جَمِيلَةِ الْأَفْنَانِ وَالْأَوْرَاقِ، كَثِيرَةِ الثَّمَرَاتِ النَّافِعَاتِ، تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ مِنْ أَحْيَانِ إِنْتَاجِهَا بِإِذْنِ رَبِّهَا، وافراً كثيراً عَلَىٰ وَفْقِ قَانُونِ إِنْتَاجِهَا.

• ﴿... وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ... ﴿٢٥﴾﴾: أي: لِتَقْرِيبِ حَقَائِقِ الْمَعْرِفَةِ الصَّحِيحَةِ النَّافِعَةِ إِلَىٰ أَذْهَانِهِمْ وَمَدَارِكِ عُقُولِهِمْ.

• ﴿... لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾: أي: رَغْبَةً فِي أَنْ يَتَذَكَّرُوا حَقَائِقَ الْعِلْمِ النَّافِعِ الْمُثْمِرِ الْهَادِي إلى الرُّشْدِ والسَّدَادِ، فَيَكُونَ دَافِعاً لَهُمْ إلى سُلُوكٍ يُسْعِدُهُمْ في دُنْيَاهُمْ وَآخِرَتِهِمْ، وَيُنْجِيهِمْ مِنْ عَوَاقِب سُلُوكِ السُّبُلِ المنْحَرِفَةِ الْبَعِيدَةِ عَنْ صِرَاطِ اللهِ المسْتَقِيم.

• ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾:

الخبيث: ضِدُّ الطَّيِّب، وهو الذي لَا خَيْرَ فِيهِ، وربما يكون ضارّاً.

• ﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾: أي: قُطِعَتْ قَطْعاً كَامِلاً، فَلَمْ يَبْقَ لَهَا جَذْرٌ مَا فِي الْأَرْضِ يَمْتَصُّ مَاءً وَلَا غِذَاءً، فَهِيَ حَطَبٌ خبيثٌ يَضُرُّ وَلَا يَنْفع.

• ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾: أي: لَيْسَ لَهَا مَكَانٌ تَسْتَقِرُّ فِيهِ وَتَثْبُتُ، بَلْ تَسْقُطُ حَطَباً غَيْرَ مُثْمِر، وَلَيْسَ لَهَا ثَبَاتٌ وَلَا اسْتِقْرَارٌ، إِذْ هِيَ مُنْقَطِعَةٌ فَلَا شَيْءَ يَجْعَلُهَا تَثْبُتُ مُسْتَقِرَّة.

القَرَارُ: المكانُ المنخفض، يَجْتَمِعُ فِيه الماءُ ويَسْتَقِرُّ فِيهِ. ومَصْدَرُ «قَرَّ، يَقِرُّ، قَرَاراً بالْمَكَانِ» أي: أقام فِيهِ مُسْتَقِرّاً مُطْمَئِنًّا.

وبهذا يَضْرِبُ اللهُ مَثلاً لِلْكَلِمَةِ الخبيثَةِ بشَجَرَةٍ خَبيثَةٍ مُتَصَوَّرَةٍ ذِهْناً، وَلَا يُشْتَرَطُ أَنْ يَكُونَ لَهَا وُجُودٌ في أشجارِ الْأَرْضِ، وهَـٰذِهِ الشَّجَرَةُ الخبيثَةُ مَقْطُوعَةٌ مِنْ فَوْق الْأَرْض عَنْ جُذُورِهَا، فِهِيَ لَا تَسْتَمِدُّ مَاءً وَلَا غِذَاءً، فَلَا يَكُونُ لَهَا خُضرَةٌ وَلَا نُضرَة، وإِنْ بَقِيَ مِنْهَا صُورَةُ شَيْءٍ فَهِيَ سَاقِطَةٌ علَىٰ الأرض لَا نَفْعَ فيها وَلَا وَرَق وَلَا ثَمَرَ، وإِنْ يَصْلُحْ مِنْهَا شيءٌ فَلَا يَصْلُحُ إِلَّا لِلْحَرِيق بِنَارِ يَوْم الدّين.

والكَلِمَةُ الخبيثَةُ هِيَ كَلِمَةُ الكُفْرِ باللهِ أو بِصِفَاتِهِ أو بأسمائِهِ الحسْنَى أو بأفعاله، أو بِكِتَابِهِ، أَوْ بِرُسُلِهِ عَلَيْهِم السَّلَام، أو بِحَقِّهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ، وكَلِمَةُ الْبَاطِلِ، والكَلِمَةُ الداعِيَةُ إِلَىٰ كُفْرٍ أَوْ شَرٍّ أَوْ إِثْمٍ أَوْ فُسُوقٍ أَوْ عِصْيَانٍ لِلْمَلَكِ الدَّيَّانِ، والْكَلِمَةُ الدَّاعِيةُ إِلَىٰ اتِّبَاعِ الشَّيْطان، ونَحْوِ ذَلِكَ مِنْ كَلِمَاتٍ.

فَكُلُّ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ هِيَ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ مُتَخَيَّلَةٍ مَقْطُوعَةِ الصِّلَةِ بِمَا يُمِدُّهَا مِنْ مَاءٍ وَغِذَاءٍ، ضَارَّةٍ غَيرِ نَافِعَة، لَا وَرَقَ لَهَا وَلَا ثَمَرَ.

إِنَّ الْكَلِمَةَ الْخَبِيثَةَ مَقْطُوعَةُ الصِّلَةِ بِمَا يُمِدُّهَا مِنْ الْعِلْمِ الرَّبَّانِي، الْمُحِيطِ بِكُلِّ شيءٍ، والَّذِي لَا يُمِدُّ إِلَّا بِالْحَقِّ وَالْخَيْرِ والنُّورِ والهِدَايَةِ إِلَىٰ مَا يُوصِلُ إلى السَّعَادَة الْأَبَدِيَّة، مَنِ اهْتَدَىٰ بِهَا، واتَّبَعَ صِرَاطَهَا، وَعَمِلَ بِمَا تُرْشِدُ إِلَيْهِ.

هـٰذَا التّشبيهُ التَّمْثِيلِيُّ الَّذِي جَاءَ بَعْضُهُ مُصرَّحاً بِهِ، وطُوِيَ سَائِرُهُ فِي طَيَّاتِ النَّصِّ؛ مِنْ رَوَائِعِ التَّشْبِيهَاتِ الْقُرْآنِيَّة، الَّتِي يَسِيحُ ذِهْنُ الْأَدِيبِ اللَّمَّاحِ فِي الْخَبَايَا المطْوِيَّةِ فِي مَثَانِيهَا.

وبهـٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الخامس من دُرُوس سورة (إبراهيم).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

❀ ❀ ❀

(٩)
التدبُّر التحليلي للدرس السَّادِس من دُروس سورة (إبراهيم)
الآيات من (٢٧ ـ ٣٠)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾:

القراءات:

(٢٩) ● قرأ ورش والسُّوسِي، وأَبُو جَعْفر: **[وَبِيسَ]** وَكَذَٰلِكَ قرأها حَمْزَة فِي الوقف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[وَبِئْسَ]**.

(٣٠) ● قرأ ابْنُ كَثِيرٍ، وأَبُو عَمْرو، وَرُوَيْس بخلف عنه: **[لِيَضِلُّوا]**: أي: لتكُونَ عَاقِبَةُ جَعْلِهِمْ للهِ أَنْداداً أَنْ يَضِلُّوا عَنْ سَبِيلِ الله.

وقرأَها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ وهُوَ الوَجْهُ الثَّاني لرُوَيْس: **[لِيُضِلُّوا]**: أي: لِيُضِلُّوا مَنْ يَسْتَجِيبُ لهم عَنْ سَبِيلِ الله.

وَبَيْنَ القراءتَيْنِ تكامُلٌ في أداء المعْنَىٰ المراد.

تَمْهيد:

في آياتِ هٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ تَثْبِيتِ اللهِ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الدنيا وفي الآخِرَةِ.

أَمَّا الظَّالِمُونَ مِنْ دَرَكَةِ الكُفرِ فَلَا تَثْبِيتَ لَهُمْ، بَلْ يُضِلُّهُمُ اللهُ، فَقَدْ

بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْراً، وَأَحلُّوا قَوْمَهُمْ بِقِيَادَتِهِمْ لَهُمْ دَارَ الْبَوَار (وهو الْعَذَابُ الأَلِيمُ الأَبَدِيُّ) وهِي جَهَنَّم، وَمِنْ تَضْلِيلِهِمْ أَنَّهُمْ جعَلُوا للهِ أَنْدَاداً شُرَكَاءَ لَهُ.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ:

• ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾:

فِي هَـٰذِهِ الآيَةِ بَيَانُ ثَلاثِ قَضَايا:

الْقَضِيَّةُ الأُولَى: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْل اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾:

أَفْهَمُ من هـٰذَا الْبَيَان أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ يُثَبِّتُ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً صَحِيحاً صَادِقاً؛ فِي كُلِّ الأَحْوَالِ الَّتِي يَحْتَاجُونَ فِيها إِلَىٰ تَثْبِيتٍ، وَهُمْ في الحياة الدُّنْيا، كَتَثْبِيتِهِمْ وهُمْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الله، وكَتَثْبِيتِهِمْ في ابْتِغَاءِ مَرْضَاةِ اللهِ وَهُمْ يَبْذُلُونَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ في الْمَبَرَّاتِ والأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ.

وَكَتَثْبيتِهِمْ عَلَىٰ الإِيمانِ كُلَّمَا تَعَرَّضُوا لِهَزَّاتٍ مُزَلْزِلَاتٍ لِلْقُلُوبِ والنُّفُوس، وأَتَمُّهَا تَثْبِيتُهُمْ عَلَىٰ الإيمانِ قَبْلَ نَزْعِ أَرْوَاحِهِمْ عِنْدَ اقْتِرَابِ آجَالِهِمْ، لِتَكُونَ وَفَاتُهُمْ عَلَىٰ إيمانٍ صحِيحٍ كاملٍ.

أَمَّا فِي الآخِرَةِ فيَكُونُ تَثْبِيتُهُمْ عَلى الإيمانِ عِنْدَ سُؤَالِ الْمَلَائِكَةِ المكَلَّفِينَ بِسُؤَالِ الْمَوْتَىٰ بَعْدَ مَوْتِهِمْ، عن دِينِهِمْ، ورَسُولِهِمْ، والكِتَابِ المنَزَّلِ عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ، وَبعْدَ ذَلِكَ فِي مَوْقِفِ الْحِسَابِ، وَرُبما في مَوَاقِف أُخْرَىٰ اللهُ أَعْلَمُ بها.

أَمَّا مَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَهِيَ الْمَعْرُوفَةُ بأُولَىٰ مَنَازِلِ الآخِرَةِ، ويُطْلَقُ عَلَيْهَا حَالَةُ الدَّفْنِ في الْقَبْرِ، فَقَدْ جاءَ بِشَأْنِها أَحَادِيثُ مِنْهَا الصَّحِيحَةُ وَمِنْهَا دُونَ ذَلِكَ:

رَوَىٰ البخاري بِسَنَدِهِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

«إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ في قَبْرِهِ، وَتَوَلَّىٰ عَنْهُ أصْحَابُهُ، وإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ، أَتَاهُ مَلَكَانِ فَيُقْعِدَانِهِ، فَيَقُولاَنِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هٰذَا الرَّجُلِ، لِمُحَمْدٍ ﷺ؟. فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، فَيُقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَىٰ مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ، قَدْ أَبْدَلَكَ اللهُ بِهِ مَقْعَداً مِنَ الْجَنَّةِ، فَيَرَاهُمَا جَمِيعاً. وَأَمَّا الْمُنَافِقُ وَالْكَافِرُ فَيُقَالُ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هٰذَا الرَّجُلِ؟، فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ، فَيُقَالُ: لَا دَرَيْتَ وَلَا تَلَيْتَ، وَيُضْرَبُ بِمَطَارِقَ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ».

وَجَاءَ في أحَادِيث أُخْرَىٰ مِنْهَا عَنِ البراء بن عازب عِنْدَ أَبِي دَاوُد وأَحْمَد وَغَيْرَهما، عَنِ النبيَّ ﷺ، أَنَّ الميّتَ بَعْدَ دَفْنِهِ فِي قَبْرِهِ، يُسْأَلُ فيقالُ له: «مَنْ رَبُّكَ؟. وَمَا دِينُكَ؟. وَمَنْ نَبِيُّكَ؟».

قَالَ: «ويأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولاَنِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ رَبِّيَ اللهُ. فَيَقُولاَنِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينيَ الإسْلَام. فَيَقُولاَنِ لَهُ: مَا هٰذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللهِ. فَيَقُولاَنِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ فَيَقولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ فَآمَنْتُ وَصَدَّقْتُ. قَالَ: فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَاباً إِلَىٰ الْجَنَّةِ. قَالَ: فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا. وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِه...

قَالَ: وإِنَّ الْكَافِرَ ـ فَذَكَرَ مَوْتَهُ ـ، قَالَ: وَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسِدهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولاَنِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ، لَا أدْرِي. فَيَقُولاَنِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيقولُ: هَاهْ هَاهْ، لا أَدْرِي. فَيَقولاَنِ لَهُ: مَا هٰذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ، لَا أَدْرِي. فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّماءِ، أَنْ كَذَبَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ النَّارِ، وافْتَحُوا لَهُ بَاباً إِلَىٰ النَّار، قَالَ: فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا. قَالَ: وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّىٰ تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ...».

الْقَضِيَّةُ الثَّانِية: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿... وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ ...﴾:

أَيْ: ويَحْكُمُ اللهُ عَلَىٰ الظَّالِمِينَ مِنْ دَرَكَةِ الكُفْرِ بالضَّلَالِ، وأَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ الْخُلُودِ فِي عَذَابِ النَّار، ثُمَّ يَكُونُ مَصِيرُهُمْ إِلَىٰ مَقَاعِدِهِمْ فِي جَهَنَّمَ، بَعْدَ إِصْدَارِ الْحُكْمِ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ فِي مَحْكَمَةِ الْعَدْلِ الرَّبَّانِيَّةِ يَوْمَ الدِّين.

الْقَضِيَّةُ الثَّالِثَةُ: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿... وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾:

أي: وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ يَوْمَ الدِّينِ، بَعْدَ تَثْبِيتِ الَّذِينَ آمَنُوا إيماناً صَحِيحاً صَادِقاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا والْآخِرَة، وَبَعْدَ الْحُكْمِ عَلَىٰ الظَّالِمِينَ مِنْ دَرَكَةِ الكُفْرِ بالضَّلَالِ، وباسْتِحْقَاقِ الْخُلُودِ فِي عَذَاب النَّارِ.

وَنَفْهَمُ مِنْ هَٰذَا أَنَّهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ يُنْعِمُ بِفَضْلِهِ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا إيماناً صَحِيحاً صَادِقاً بالْخُلُودِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيم، وَبِمَا تَقْتَضِي حِكْمَتُهُ أَنْ يُنْعِمَ بِهِ عَلَىٰ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مِنْ أَنْوَاعِ نَعِيمٍ، بِحَسَبِ الدَّرَجَةِ الَّتِي قَضَىٰ بِأَنْ يَكُونَ فِيهَا مِنْ دَرَجَاتِ الْجَنَّةِ المئة.

ويُعَذِّبُ الظَّالِمِينَ بِعَدْلِهِ عَلَىٰ وَفْقِ مَشِيئَتِهِ الْحَكِيمَةِ، بِحَسَبِ الدَّرَكَةِ الَّتِي قَضَىٰ أَنْ يَكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فيها، من دَرَكَاتِ جَهَنَّمَ.

وَمَشِيئَةُ اللهِ فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ لَا تُفَارِقُ حِكْمَتَهُ، بِفَضْلِهِ إنْعَاماً، وبعَدْلِهِ تَعْذِيباً وإِيلَاماً.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَاۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾:

أي: انْظُرْ أَيُّهَا الْمُتَلَقِّي لِبَيَانِ رَبِّكَ بِفِكْرِكَ المتأمِّلِ المتدبِّرِ، إلى

الكَفَرَةِ الجاحِدِينَ الْمُشْرِكِينَ، الّذِينَ بَدَّلُوا مَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ شُكْرِ نِعَمِ اللهِ عَلَيْهِمْ، بالإيمانِ والْإِسْلامِ والْعَمَلِ بمَراضِيهِ، فَجَعَلُوا مَكَانَهُ كُفْراً وجُحُوداً لِنِعَمِ اللهِ الكثيرَةِ عَلَيْهِمْ، فَنَسَبُوا مَا هُمْ فِيهِ مِنْ نِعَمِ اللهِ إلى عِلْمِهِمْ وَعَمَلِهِمْ وَمَهَارَاتِهِمْ في الكَسْب، وإِلَىٰ آلِهَتِهِمُ الْبَاطِلَةِ الَّتِي اتَّخَذُوها افْتِرَاءً عَلَىٰ حَقِّ اللهِ عَلَيْهِمْ، وَعَبَدُوهَا مِنْ دُونِهِ، وهِيَ لَا تَنْفَعُهُمْ وَلَا تَضُرُّهُمْ بِشَيْءٍ، وَدَعَوْا جَمَاهِيرَ قَوْمِهِمْ إِلَىٰ سُبُلِ الكُفْرِ والضَّلَالِ الَّتِي سَلَكُوهَا، فَاتَّبَعَتْهُمْ جَمَاهِيرُهُمْ دُونَ أَنْ يُحَاكِمُوا اتِّبَاعَهُمْ لَهُمْ بِآرَاءٍ سَدِيدَةٍ، وعُقُولٍ رَشِيدَةٍ، وإِنَّما وَثِقُوا بِقِيَادَاتِهِم ورِئاسَاتِهِم لَهُمْ فَاتَّبَعُوهم، فَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ باتِّبَاعِهِمْ لَهُمْ فِي الْكُفْرِ والضَّلَالِ دَارَ الْبَوَارِ، أي: دَارَ مُعَاقَبَةِ أَهْلِ الْفَسَادِ باختيارِهِمُ الْحُرّ، وهي جَهَنَّمُ الَّتِي يَحْتَرِقُونَ بِنَارِهَا يَوْمَ الدِّينِ.

• ﴿... وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾: أي: دَارَ مُعَاقَبَةِ أَهْلِ الْفَسَادِ والإفْسَادِ في الأَرْض.

الْبَوَارُ: مَصْدَرُ «بَارَ، يَبُورُ، بَوْراً، وَبَوَاراً» أي: هَلَكَ، أَوْ كانَتْ نَتَائِجُ عَمَلِهِ خيْبَةً، فَلَمْ يُحقِّقِ المقْصُودَ مِنْهُ، فَدَارُ الْبَوَارِ هِيَ دَارُ الخيبَةِ فِي كُلِّ شيءٍ، وجَاءَ عَطْفُ الْبَيَانِ مُبَيّناً كَوْنَ دَار الْبَوَارِ:

• ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾:

جَهَنَّمُ: هِيَ الدَّارُ الْمُعَدَّةُ لِعَذَابِ المجْرمينَ يَوْمَ الدين.

يَصْلَوْنَهَا: أي: يُعَذَّبُونَ بالاحْتِرَاقِ بنارِهَا، كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهم بَدَّلَهُمُ اللهُ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقوا العذاب.

وَبِئْسَ الْقَرار: أي: وَسَاءَ سُوءاً ـ لَا يُوجَدُ أَشَدُّ مِنْهُ ـ مَكَانُ إقَامَتِهِمْ واسْتِقْرَارِهِمُ الْأَبَدِيِّ فيها.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾: أي: وجَعَلُوا للهِ مُمَاثِلِينَ ونُظَرَاءَ لَهُ، فِي رُبُوبِيَّتِهِ أو في إِلَهِيَّتِهِ، فَعَبَدُوهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ.

• ﴿لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِۦ﴾: أي: لِيُضِلُّوا مَنْ يَسْتَجِيبُ لهم ويَتَّبِعُهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ، وهذا شَأنُ الْقَادَةِ والأَئِمَّةِ الْمُغْوِينَ المضِلِّينَ.

• و[ليضلوا عن سَبيلِ اللهِ] في قراءة ابْنِ كثير، وأبي عَمرو، ورُوَيس، أي: لِيَبْتَعِدُوا فِي مَتَاهَاتِ الْأَهْوَاءِ والشَّهَوَاتِ وَمَتَاعَاتِهِمْ من الْحياةِ الدُّنْيَا ضَالِّينَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ المستقيم.

• ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾﴾:

أي: قُلْ لَهُمْ أَيُّهَا الداعي إلى سَبِيلِ رَبِّكَ، تَمَتَّعُوا بِمَتَاعَاتِكُمْ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنيا، فَإِنَّ الْمَصِيرَ الَّذِي سَوْفَ تَصِيرُونَ إِلَيْهِ هو عَذَاب النَّار يَوْمَ الدِّين، إذا لم تَتُوبُوا إلى بَارِئِكُمْ قَبْلَ مَوْتِكُمْ، وفي هٰذَا وَعِيدٌ عظيم لهم بالمصير التَّعِيسِ الذي سَوْفَ يُلاقُونه.

مَصِيرُ الْأَمْرِ: مُنْتَهَاهُ وعَاقِبَتُهُ.

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس السادس من دُرُوس سورة (إبراهيم).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(١٠)
التدبّر التحليلي للدرس السابع من دروس سورة (إبراهيم)
الآيات من (٣١ ـ ٣٤)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ الثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ

دَآئِبَيْنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾:

القراءات:

(٣١) ● قرأ ابْنُ عامر، وحَمْزة، والكسائي، ورَوْح: [**قُلْ لِعِبَادِي الَّذِينَ**] بإسْكانِ ياء المتكلّم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بِفَتْحِ ياء المتكلم.

(٣١) ● قرأ ابْنُ كثير، وأبو عمْرو، ويَعْقُوب: [**لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ**].

وقرأها باقي القراء العشرة: [**لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ**].

وهما وَجْهَانِ نَحْوِيَّانِ جَائِزَانِ في «لَا» النَّافِيَةِ لِلْجِنْسِ إِذَا تَكَرَّرَت، ضِمْنَ خَمْسَةِ وُجُوه جَائِزَة.

تَمْهيد:

في آيات هٰذَا الدَّرْسِ مَا يلي:

(١) أَمَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ ﷺ بأَنْ يَأْمُرَ عِبَادَ اللهِ المؤمنين؛ بأَنْ يُقِيمُوا الصَّلَاة، وبِأَنْ يُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ.

(٢) بَيَانُ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ الرَّزَّاقُ مِنَ السَّمَاءِ، وهُوَ المسَخِّرُ لِلْفُلْكِ، والمسَخِّرُ لِلْأَنْهَارِ وللشَّمْسِ والْقَمَرِ دائِبَيْنِ، ولِلَّيْلِ والنَّهَارِ، وهو الَّذِي آتاهُمْ مِمَّا سَأَلُوه.

(٣) ذَكَّرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ النَّاسَ بِأَنَّهُمْ إِنْ يَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا يُحْصُوها، وأَبَانَ لَهُمْ أَنّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ.

التدَبُّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِرَسُولِهِ محمّد ﷺ، ويُلْحَقُ بِهِ كُلُّ حَامِلٍ لِرِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ:

• ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾:

أي: قُلْ يَا مُحَمَّد، ويَا كُلَّ حَامِلٍ لِرِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ؛ لِعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا فَشَرَّفْتُهُمْ بِعُبُودِيَّتِهِمْ لي بِسَبَبِ إيمانِهِمْ؛ لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ المفروضَةَ فِي أَوْقَاتِها الْخَمْسِ الَّتِي سَبَقَ أَنْ فُرِضَتْ فِي لَيْلَةِ الإسْرَاءِ والمِعْرَاجِ، كَمَا جَاءَ بَيَانُهُ مُفَصَّلاً في الدَّرْسِ الأوَّلِ من دُرُوس سورة (الإسراء/ ٥٠ نزول).

• ﴿يُقِيمُوا۟﴾: أي: «لِيُقِيمُوا» مَجْزُومٌ بِلَامِ أَمْرٍ محذوفَةٍ تَخْفِيفاً، إِذْ جَاءَتِ الْعِبَارَةُ بَعْدَ تَكْلِيفِ اللهِ رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَقُول لِعِبَادِهِ المؤمنين، وعُطِفَ عَلَيْهِ.

• ﴿وَيُنفِقُوا۟﴾ بالْجَزْمِ أَيْضاً.

• ﴿وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾: لَمْ تَكُنِ الزَّكَاةُ بِأَنْصِبَتِهَا وَمَقَادِيرِهَا قَدْ فُرِضَتْ في المرحَلَةِ المكيَّةِ مِنْ مَسِيرَةِ الدَّعْوَةِ الْمُحَمَّدِيَّة، وإِنَّما جَاءَ فيها التَّرْغِيب في الإنْفَاقِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ، والحثُّ عَلَيْهِ، والأَمْرُ بِهِ أمْراً عَامًّا غَيْرَ مُحَدَّدِ المقدار، وتَحْسِينُهُ، وذَلِكَ فيما يلي:

(١) في الآية (٤٧) من سورة (يسٓ/ ٤١ نزول).

(٢) وفي الآية (٢٩) من سورة (فاطر/ ٤٣ نزول).

(٣) وفي الآية (٥٤) من سورة (القصص/ ٤٦ نزول).

(٤) وفي الآية (٣٩) من سورة (سبأ/ ٥٨ نزول).

(٥) وفي الآية (٣٨) من سورة (الشورى/ ٦٢ نزول).

(٦) وفي الآية (٧٥) من سورة (النحل/ ٧٠ نزول).

(٧) وفي الآية (٣١) من سورة (إبراهيم/ ٧٢ نزول) الْجَارِي تَدَبُّرُهَا.

أَفْهَمُ مِنْ هَـٰذِهِ الْعِبَارَة أَنَّ اللهَ يَأْمُرُ رَسُولَهُ ﷺ بِأَنْ يَأْمُرَ الَّذِينَ آمَنُوا في هَـٰذِهِ الْمَرْحَلَةِ أَمْرَ إِلْزَام، بِأَنْ يُنفِقُوا مِمَّا رَزَقَهُمْ رَبُّهُمْ بِصِفَةٍ عَامَّةٍ، دُونَ تَحْدِيدِ مِقْدَار مَا يُنْفِقُونَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، تَمْهِيداً وَتَوْطِئَةً لِمَا سَيَنْزِلُ مِنْ تَحْدِيدٍ في الْمَرْحَلَةِ الْمَدَنِيَّةِ، وَفْقَ أُسْلُوبِ التَّدَرُّجِ فِي تَنْزِيلِ أَحْكَامِ التَّكَالِيفِ الدِّينِيَّةِ.

سِرّاً: أي: دُونَ إِظْهَارٍ للنَّاسِ، بَلْ يَكُونُ بَيْنَ المنْفِقِ والمنْفَقِ عَلَيْهِ، أَوْ بَيْنَ المنْفِقِ وَبَيْنَ المشْرُوع الْعَامّ، الَّذِي يُوضَعُ فِيهِ الْمَالُ بِصُنْدُوقٍ عَامٍّ لَا يُعْرَفُ اسْمُ مَنْ يَضَعُ فِيهِ صَدَقَتَهُ، وَمَا بَذَلَهُ فِي سَبِيلِ مَرْضَاةِ رَبِّهِ.

وَعَلانِيَةً: أي: ظَاهِراً لَا خَفَاءَ فِيهِ، يَرَاهُ مَنْ شَهِدَ الإِنْفَاقَ.

وفي تقديم السِّرّ على الْعَلَانِيَةِ إِشْعَارٌ بِتَفْضِيلِه لِأَنَّهُ أَبْعَدُ عَنِ الرِّيَاءِ، وأقربُ إِلَىٰ الإِخلَاصِ للهِ فِيهِ.

﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ حَالَانِ لِلْإِنْفَاقِ.

• ﴿... مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾:

خِلَال: جمع «خُلَّة» وهو الصّدِيق (يسْتَوِي فِيهِ المذكَّرُ والمؤنَّثُ والمفرد والجمع)، ويُقَالُ: «خُلَّةُ الإنْسَانِ» أَهْلُ مَوَدَّتِهِ، و«خُلَّةُ الرَّجُلِ» زَوْجَتُهُ، والجمع: «خِلَال».

أي: من قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، يَوْمُ الجزاء الأكبر، وهُوَ يَوْمٌ لَا يَمْلِكُ فِيهِ مَنْ كَانَ مَوضوعاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوضِعَ الامْتِحَانِ؛ مَا يَفْتَدِي بِهِ مِنْ عَذَابِ الله إِنْ كَانَ قد حُكِمَ عَلَيْهِ بِالْعَذَابِ، ولا ما يَشْتَرِي ما يَتَمَنَّى مِنْ ثَوَابِ جَنَّاتِ النَّعِيمِ، ولا يَكُونُ لَهُ مُحِبُّونَ أَنْصارٌ يَدْفَعُونَ عَنْهُ شَيْئاً مِنْ عَذَابِ اللهِ بِشَفَاعَةٍ وَلَا غَيْرِهَا إِلَّا بِإِذْنِ الله، أَوْ يَجْلُبُونَ لَهُ شَيْئاً مِنْ ثوابِ اللهِ فِي الْجَنَّةِ بِشَفَاعَةٍ وَلَا غَيْرِهَا إِلَّا بإِذْنِ الله، وضِمْنَ قَانُونِ عَدْلِهِ وَفَضْلِهِ.

وَجَاءَ التَّعْبيرُ عَن انْعِدَامِ مَا يُتَوَهَّمُ أَنَّهُ يُفْتَدَىٰ بِهِ عَذَابُ اللهِ من مال، أَوْ يُشْتَرَىٰ بِهِ مَا يُتَمَنَّىٰ مِنْ نَعِيمِ الْجَنَّةِ بالمال؛ بعبارَة: ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾ إِذْ هُوَ مِثَالٌ مِنَ الأَمْثِلَةِ الْكُبرَىٰ الَّتِي تَتَداولُ فِيهَا الأَمْوَالُ.

وَجَاءَ التعبير عَنِ انْعِدَام مَا يُتَوَهَّمُ أَنْ يُسْتَنْصَرَ بهم أَوْ يُسْتَشْفَعَ بِهِمْ بِعِبَارَة: ﴿وَلَا خِلَٰلٌ﴾: أي: وَلَا أَصْدِقَاءُ وَلَا أَهْلُ مَوَدَّةٍ يَنْصُرُونَ، أَوْ يَشْفَعُونَ، إِذْ لَا يَشْفَعُ أَحَدٌ لِأَحَدٍ يَوْمَ الدِّينِ إِلَّا بِإِذْنِ الله.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطاباً للنَّاسِ مُمْتَنّاً عَلَيْهِمْ بِبَعْضِ نِعَمِهِ الّتِي خَلَقَهَا لهم:

• ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾:

في هَـٰذِهِ الآيات الثلاث بَيَانُ تسع قضايا:

القَضِيَّةُ الأُولى: جاء التعبيرُ عَنْهَا بِقولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾: أي: اللهُ هُو الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِكُلِّ مَا فِيهَا، وَخَلَقَ الأَرْضَ بِكُلِّ مَا فِيها، وَمَا بَيْنَ السَّماءِ والأَرْضِ إِمَّا هُو تَابعٌ لِلْأَرْضِ وإِمَّا هو تَابِعٌ للسَّماء، ولمَّا كَانَ الكَوْنُ كُلُّهُ مُنْحصِراً فِي الأَرْضِ وفِيمَا حَوْلَ الأَرْضِ مِنْ سَماوَاتٍ؛ كَانَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ خَالِقاً كُلَّ شَيْءٍ، والمرادُ بِالْخَلْقِ هُنَا الإبْدَاعُ مِنَ الْعَدَم عَلَىٰ غَيْرِ مِثَالٍ سَبَق، وَيَدْخُلُ فِيهِ: إِعْطَاءُ الأشياءِ صُوَرَهَا، وهَـٰذَا الخَلْقُ مِنَ العَدَمِ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنَ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

القَضِيَّة الثانية: جاء التعبير عَنْها بِقَوْلِ الله تَعالَىٰ: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ﴾:

أي: وَأَنْزَلَ ماءً مِنَ السَّحابِ الّذِي هُوَ سَماءٌ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الأَرْضِ، وَهُوَ بُخارُ الْماءِ الصّاعِدُ من الأَرْض، والمتجمِّع سَحاباً، والَّذِي يَهْطُلُ أَمْطاراً ضِمْنَ نِظَامٍ قَدَّرَه اللهُ وَقَضاه بحِكْمَتِهِ.

والماءُ الَّذِي يُنْزِلُهُ اللهُ مِنَ السَّحابِ يَخْتَلِطُ بِتُرَابِ الأَرْض، فَتَنْبُتُ بِهِ نَبَاتَاتُ الأَرْضِ، فَتَخْرُجُ مِنْهَا ثَمَراتٌ مُخْتَلِفَاتٌ رِزْقاً للنَّاس.

لفظ «مِنْ» في ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ لِلتَّبْعِيض، لِأَنَّ كُلَّ مَا فِي الأَرْضِ مِنْ ثَمَرَاتٍ هُوَ بَعْضُ مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ ثَمَرَاتٍ، فَفِي الْجَنَّةِ ثمَراتٌ كثيراتٌ جدًّا لَا وُجُودَ لِنَظِيراتِهَا فِي الأَرْض.

القضيَّة الثالِثَة: جاء التعبيرُ عَنْهَا بِقَوْلِ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾:

إِنَّ نِظَامَ الطَّفْوِ الَّذِي قَدَّرَهُ اللهُ وقَضَاهُ في كَوْنِهِ؛ يَنْتُجُ عَنْهُ أَنْ يَحْمِلَ الْمَاءُ مَرَاكِبَ تَجْرِي فِيهِ، وَهٰذَا مِنْ تَسْخِيرِ اللهِ لعبادِه، وحينَما تَجْرِي فإِنَّما تَجْرِي بِأَمْرِه، لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يَشَأْ أَنْ تَجْرِيَ فَإِنَّهَا تَتَوَقَّفُ.

التَّسْخِيرُ: التَّذْلِيلُ لأَمْرٍ ما، وجَعْلُ الشيء مطاوعاً لِمَا يُرَادُ بِهِ أَوْ مِنْهُ ضِمْنَ قانون تَسْخِيرِه.

وَسَبَقَ فِي عِدَّةِ نُصُوصٍ بَيَانُ مَنَافِعِ النَّاسِ مِنْ تَسْخِير الْفُلْكِ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِ رَبِّها.

القضيَّة الرابعة: جاءَ التَّعْبِيرُ عَنْهَا بقول اللهِ تَعالَىٰ: ﴿... وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ ﴿٣٢﴾﴾:

أي: وسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ لِتَسْتَقُوا مِنْهَا، وَلِتُسْقُوا مِنْهَا أَنْعَامَكُمْ وَدَوَابَّكُمْ وزُروعَكُمْ وأشجارَكُمْ، ولِتَسْتَخْرِجُوا مِنْهَا لَحماً طَرِيًّا، وَلَكُمْ فيها مَنَافِعُ كثيرة أُخْرَىٰ.

القضية الخامِسَة: جاء التعبير عَنْها بِقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾:

أي: وسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ مُشْرِقَةً عَلَىٰ أَرْضِكُمْ فِي النَّهار، كَثِيرَةَ الْمَنَافِعِ لَكُمْ، وَسَخَّرَ لَكُمْ الْقَمَرَ بِنِظَامِهِ الْخَاصِّ كثير المنافِعِ، يَسِيرانِ ضِمْنَ نِظَامٍ ثابتٍ، وَعَادَةٍ لَا تَخْرِمُ لَحْظَةً واحِدَة.

الدّأب: العادة والسُّنَّة المتَّبَعَةُ الَّتِي تَتَكَرَّرُ بلا تغْيير مع الجدِّ والاجتهاد.

القضية السادسة: جاء التعبير عَنْها بقول الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾:

وقد سبق في نجوم التنزيل بيان منافع اللّيل والنهار للناس، فالليل للسكون والراحة، والنهار للعمل.

الْقَضِيَّةُ السَّابِعَة: جاء التَّعْبِيرُ عَنْهَا بِقَوْلِ اللهِ تَعَالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ﴾:

دَلَّتْ هَـٰذِهِ القضيَّةُ عَلَىٰ آيَة اسْتِجَابَةِ الدُّعَاءِ، من آيَاتِ اللهِ الدَّالَّاتِ عَلَىٰ وجُودِهِ، فَمَا مِنْ إِنْسَانٍ إِلَّا سَأَلَ اللهَ رَبَّهُ أَمْراً مِنْ أُمُورِ دُنْيَاهُ، في مَالٍ أو صِحَّةٍ وَعَافِيَة، أَوْ أَمْنٍ، أَوْ خَلاصٍ مِنْ مَكْرُوه؛ إِلَّا اسْتَجَابَ اللهُ لَهُ بَعْضَ دُعَائِهِ له، لِيُبَيِّنَ له أَنَّهُ رَبٌّ مَوْجُودٌ في الْغَيْبِ عَنِ الحواسِ، ويُجِيبُ دُعَاءَ المضْطَرِّ إذا دَعَاه.

الْقَضِيَّةُ الثامِنَةُ: جاء التعبيرُ عَنْهَا بِقَوْلِ اللهِ تَعَالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ﴾:

أي: وإِنِ اتَّجَهَتْ أفْكَارُكُمْ لِعَدِّ نِعْمَةِ اللهِ (أي: نِعَمِهِ الكثيرة عَلَيْكُمْ) لَا تُحْصُوهَا، أي: لَا تَسْتَطِيعُونَ إِحْصَاءَها عَدًّا، لَا تَفْصِيلاً وَلَا جُمْلَةً، أَدْنَاهَا نَفَسٌ واحِدٌ تَتَنَفَّسُونَهُ.

وَهَـٰذِهِ النِّعَمُ الكَثِيرَةُ، مِنَ اللهِ رَبِّكُم عَلَيْكُمْ، تَسْتَوْجِبُ أَنْ تَشْكُرُوه

عَلَيْهَا بالْإِيمانِ والإسلام والْعِبَادَة، بِمَا يُحِبُّ أَنْ تَعْبُدُوه بِهِ، مِنْ طَاعَاتٍ وقُرُبَاتٍ وَنَوَافِلِ أَعْمَالٍ صَالِحَةٍ تُرْضِيه.

الْقَضِيَّةُ التاسِعة: جاء التعبيرُ عَنْهَا بِقَوْل اللهِ تعالى: ﴿... إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾:

أي: إنَّ الْإِنْسَان لَكثِيرُ الظُّلْم لِنَفْسِهِ ولِغَيْرِهِ، ولَكثير كُفْرَانِ وجُحُودِ نِعَم اللهِ رَبِّهِ عَلَيْهِ، فَبِظُلْمِهِ لِنَفْسِهِ يَرْتَكِبُ الكَبَائِرَ الكُبْرَىٰ فَيُعَرِّضُ نَفْسَهُ لِعِقَابِ اللهِ الشّدِيد له، وَبِكَثْرَةِ كُفْره جُحُوداً لِنِعَم اللهِ يَخْرُجُ عَنْ صِرَاطِ اللهِ المسْتَقِيم، فَيُعَرِّضُ نَفْسَهُ لِلْحِرْمَانِ مِنْ زِيَادَةِ نِعَمِ اللهِ عَلَيْه.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس السَّابعِ من دُرُوس سورة (إبراهيم).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(١١)

التدبّر التحليلي للدّرس الثامن من دروس سورة (إبراهيم) الآيات من (٣٥ ـ ٤١)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن

ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾.

القراءات:

(٣٥) • قرأ هشام: [**إِبْرَاهَامُ**].

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**إِبْرَاهِيمُ**].

وهُمَا نُطْقَانِ عَرَبيان.

(٣٧) • قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأبو عمْرو، وأبو جعفر: [**إِنِّيَ أَسْكَنْتُ**] بِفَتْحِ يَاءِ المتكلّم.

وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

(٣٧) • قرأ هِشامٌ بخُلْفٍ عَنْه: [**أَفْئِيدَةً**].

وقرأها باقي القراء العشرة: [**أَفْئِدَةً**] وهو الوجه الثاني لِهِشام.

(٣٧) • قرأ حَمْزَةُ، ويعْقُوب: [**إِلَيْهُمْ**] بِضمِّ هَاءِ الضمير.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**إِلَيْهِمْ**] بِكَسْرِ هَاء الضمير.

(٤٠) • قرأ ورشٌ، وأبو عمْرو، وحمزة، وأبو جعفر: [**دُعَائِي**] بإثبات يَاءِ المتكلم وصلاً. وكذلِكَ قَرأها الْبَزّي، ويعقوب وصْلاً ووقفاً.

وَقَرأَهَا بَاقِي القراء العشرة: [**دُعَاءِ**] بحذف يَاءِ الْمُتَكلِّمِ وصْلاً ووَقْفاً.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ عَرْضُ أَدْعِيَةٍ دعا بها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام في مُنَاسَبَاتٍ وأزمِنَةٍ مُخْتَلِفَة، تَذْكِيراً لِلْمُعَالَجِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّة، بِمَا كَانَ عَلَيْهِ أَبُوهُمْ إبراهيم ولَدُهُ إسْمَاعِيل عَلَيْهِمَا السَّلام؛ مِنْ نَبْذٍ لِلأَصْنَامِ، وَمُقَاوَمَةٍ لَهَا.

التدبُّر التحليلي:

بَعْضُ الْأَدْعِيَةِ الَّتِي دَعَا بِهَا إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ جَاءَ مُتَأَخِّراً فِي آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ، مع أَنَّهَا مُتَقَدِّمَةٌ زَمناً عَلَىٰ أَدْعِيَةٍ جاءَت بِحِكْمَةِ اللهِ مُتقَدِّمَةً في تَرْتيب آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ، إِذْ رُوعِيَ في التَّرْتِيب تَقْدِيمُ مَا هُوَ الْأَوْلَىٰ بِالتَّقْدِيم بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ المَضْمُونِ الْفِكْرِيِّ الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ الْآيات، فَمَا يَتَعَلَّقُ بقَضَايَا الدِّينِ الْكُبْرَىٰ قُدِّمَتِ الْآيَاتُ الدَّالَّاتُ عَلَيْها، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِشَخْصِ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام وخُصُوصِ ذُرِّيَّتِهِ وَوَالِدَيْهِ والمؤمِنِينَ أُخِّرَتْ الْآيَاتُ الدَّالَّاتُ عَلَيْهَا.

فَلْنُتَابِعْ تَدَبُّرَ الْآيَاتِ عَلَىٰ وَفْقِ تَرْتِيبِهَا فِي النَّصّ:

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ:

• ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾:

أي: وَضَعْ فِي ذَاكِرَتِكَ أَيُّهَا المتَلَقِي لِكَلَامِ رَبِّكِ أدْعِيَةَ إِبْرَاهِيمَ ـ عَلَيْهِ السَّلَام ـ حِينَ قَالَ فِيها:

أولاً: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾: المرادُ بِهٰذَا الْبَلَدِ مَكَّةُ المكَرَّمَةُ، زادَها اللهُ تَشْرِيفاً وتعظيماً.

دلَّ هٰذَا الدُّعَاءُ عَلَىٰ أَنَّ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ فِيهَا حينَ دَعَا هٰذَا الدُّعاء، إِذْ قَالَ: ﴿هَٰذَا ٱلْبَلَدَ﴾. وقَد اسْتَجَابَ اللهُ دُعَاءَ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام، فجعل مَكَّةَ بَلَداً آمِنًا بِحُكْمِ الشَّرْعِ، وآمِناً مِنَ الكوارثِ الكُبْرَىٰ كالزَلَازِلِ والْبَرَاكِينِ وَنحوهما، وحينَ أَرَادَ أَبْرَهَةُ بِمَكَّةَ شرًّا أَهْلَكَهُ اللهُ وَأَهْلَكَ جَيْشَهُ، وَسَلَّمَ مَكَّةَ مِنْ شَرِّهِمْ.

ثانياً: ﴿... وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾: أي: ونَحِّنِي وأَبْعِدْنِي، وَنَحِّ بَنِيَّ وأَبْعِدْهُمْ عَنْ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَام.

وَقَدْ حَمَىٰ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام وأَبْنَاءَهُ عَنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَام، فَكَانَ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام نَبِيًّا رَسُولاً، وكان إِسْحَاقُ عَلَيْهِ السَّلَام نَبِيًّا رَسُولاً، ولَمْ يُعْلَمَ أَنَّ أَبْنَاءَه مِنْ «قَطُّورَة» في مَدْيَنَ بَعْدَ سَارَةَ كَانَ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَابِدَ وَثَنٍ.

وَلَا أَفْهَمُ أَنَّ الْمُرَادَ كُلُّ الذُّكُورِ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، فَقَدْ ظَهَرَ الشِّرْكُ فِي أَهْلِ مَكَّة وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، وَظَهَرَ الشِّرْكُ في أَهْلِ مَدْينَ وَكَثِيرٌ مِنهم مِنْ ذُرِّيَّتِهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ، وظَهَرَ الشِّرْكُ فِي بَنِي إِسْرَائِيل بَعْدَ سُلَيْمانَ عَلَيْهِ السَّلَام.

ثالثاً: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾:

أيْ: رَبِّ إِنَّ الْأَصْنَامَ وَالْفِتْنَةَ بِمَا تَرْمُزُ إِلَيْهِ؛ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ، فَافْتُتِنُوا بِعِبَادَتِها، تَوَهُّماً مِنْهُمْ أَنَّ عِبَادَتَهَا تَنْفَعُهُمْ فِي مَطَالِبِ دُنْيَاهم، أَوْ تَدْفَعُ عَنْهُمْ ضُرّاً.

رَبِّ فَمَنْ تَبِعَنِي عَلى التوحيد، والْإِيمان الصحيح، واتَّبَعَنِي في الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الَّتِي تُرْضِيكَ مِنْ عِبَادِكَ؛ فَإِنَّهُ مِنْ جَمَاعَتِي، ومِنْ أُمَّتِي المسْتَجِيبينَ لِدَعْوَتِي، وَمَنْ عَصَانِي فَكَفَرَ، أَوْ عَصَانِي بِمَا هُوَ دُونَ الكُفْرِ، فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ لِمَنْ تَعْلَمُ أَنَّ حِكْمَتَكَ تَقْتَضِي أَنْ تَغْفِرَ لَهُ، وَإِنَّكَ تُعَاقِبُ بَعَدْلِكَ؛ مَنْ كَفَرَ بالشِّرْكِ أَوْ بغَيْرِهِ، إِذْ تَقْضِي حِكْمَتُكَ بأَنْ تُنْزِلَ بِهِ عِقَابَكَ.

طَوَىٰ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام في اللَّفْظِ مَا يُشِيرُ إِلىٰ الْعِقَابِ، لِعِلْمِهِ بِأَنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذلك لِمَنْ يَشَاءُ.

رابعاً: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾:

دَلَّتْ عبارة: ﴿رَبَّنَآ﴾ بِضَمِيرِ المتكَلِّمِ ومَعَهُ غَيْرُهُ؛ عَلَىٰ أَنَّ هٰذَا

الدُّعَاءَ كَانَ مَعَ إِبْرَاهِيم فِيهِ وَلَدُهُ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِمَا السَّلام، ورُبَّما بَعْض أَوْلَادِ وَلَدِه.

• ﴿إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾: أي: إِنِّي أسْكَنْتُ بَعْضَ ذُرِّيَّتِي مِن إسماعيل. فحَرْفُ «مِنْ» للتَّبْعيض. أَمَّا ذُرِّيَّتُهُ مِنْ إِسْحَاقَ ـ عَلَيْهِمَا السَّلامُ ـ فَكَانَتْ في أَرْضِ الشَّام. ثُمَّ كَانَتْ لَهُ ذُرِّيَّةٌ بَعْدَ سَارَة في أَرْضِ مَدْين.

• ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾: هُوَ الْوَادِي الذي فيه الآنَ الكَعبَةُ المشَرَّفَة والْمَسْجِدُ الْحَرَامُ، وَمَا حَوْلَهُمَا إِلَىٰ الْجِبَالِ الْمُحِيطَة، وَكَانَ حينَئِذٍ خَالِياً مِنْ زَرْعٍ أَرْضِيٍّ، وخَالِياً مِنَ الأَشْجَارِ، ولا أَرَىٰ أَنَّ أَرْضَهُ لَمْ تَكُنْ صَالِحةً لِلزَّرْع.

• ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾: يَظْهَرُ أَنَّ هـٰذَا الدُّعَاءَ قَدْ كَانَ بَعْدَ أَنْ بَوَّأَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام مَكَانَ البيْتِ المحرّم، مَعَ احْتِمَالِ أَنَّ الله أَعْلَمَهُ بِوُجُودِ مَكَانِ بَيْتِهِ الْمُحَرَّمِ فِي هـٰذَا الْوَادِي، مُنْذُ وضَعَ إِسْمَاعِيلَ ـ عَلَيْهِ السَّلام ـ فِيهِ مع أُمِّهِ هَاجَرَ، قَادِماً بِهِ وَهو طِفْلٌ مِنْ أَرْضِ الشَّام.

الْمُحَرَّم: أيْ: ذُو الْحُرْمَةِ والْمَكَانَةِ الرَّفِيعَةِ، والْمَمْنُوعُ مِمَّنْ يُريد بِهِ شرًّا، باعْتِبَارِهِ بَيْتاً لِعِبَادَةِ اللهِ، فَهُوَ يُرِيدُ مَحْوَهُ أَوْ صَرْفَ النَّاسِ عَنْهُ مُحَارِباً بِمَا يَفْعَلُ دِينَ اللهِ الحقِّ.

• ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: أي: أَسْكَنْتُ هُنَا بَعْضَ ذُرِّيَّتِي؛ لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّم، ولِيَكُونُوا الْقُدْوَةَ لِلنَّاسِ فِي إِقَامَةِ الصَّلَاةِ، وعِبَادَتِكَ عَلَىٰ الوجْهِ الَّذِي يُرْضِيكَ.

• ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾:

الْأَفْئِدَة: الْقُلُوب، أَوْ عُمْقُهَا كَمَا يَظْهَرُ لِي.

تَهْوِي إِلَيْهِم: أي: تَمِيلُ إِلَىٰ حُضُورِ بَلَدِهِمْ بِقُوَّة، كَمَا يَهْوِي الشَّيْءُ

مِنْ عُلْوٍ إلى سُفْلٍ. وهٰذَا هُوَ الْمُشَاهَدُ فِي مَيْلِ قُلُوبِ كثيرٍ مِنَ النَّاسِ لِزِيَارَةِ الْبَلَدِ الْحَرَامِ والكَعْبَةِ المشَرَّفَةِ، لِأَدَاءِ مَنَاسِكِ الحجّ أَوِ الْعُمْرَةِ، والصَّلَاةِ في المسْجِدِ الحرام، والطَّوَافِ فِيهِ حَوْلَ الكَعْبَةِ، صَانَهَا اللهُ، وَزَادَهَا شَرَفاً وَتكْرِيماً.

• ﴿وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾:

أيْ: وارْزُقْهُمْ بِأَنْ تُجْلَبَ إِلَىٰ بَلَدِهِمُ الَّذِي لَا زَرْعَ فِيهِ؛ مِنْ أَنْوَاعِ الثَّمَرَاتِ الَّتِي تُنْتَجُ فِي الْبِلَادِ ذَاتِ الزُّرُوعِ والثمراتِ الوفيرات، وأثَرُ هٰذَا الدُّعَاءِ ظاهِرٌ مُشَاهَدٌ، إِذْ تُجْبَىٰ دواماً إِلَىٰ مَكَةَ مِنْ كُلِّ أَنْواعِ الثَّمَرَاتِ بِفَضْلِ اللهِ، وَبِبَرَكَةِ دُعَاءِ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَام.

وقَدْ سَبَقَ فِي نُجُومِ التَّنْزِيلِ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سُورَة (القصص/ ٢٨ نُزُولِ) بِشَأْنِ أَهْلِ مَكَّة:

﴿... أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

• ﴿... لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾: أي: رَاجِياً أَوْ رَاغِباً أَنْ يَشْكُرُوا نِعَمَكَ الكثيرةَ عَلَيْهم، بالإيمان والإسْلَام والأعْمَالِ الصَّالِحَة الَّتِي تُرْضِيكَ عَنْهُمْ.

خامساً: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾﴾:

دَلَّتْ عِبارَةُ: ﴿رَبَّنَآ﴾ هُنَا أَيْضاً على أَنَّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلام كَانَ يَدْعُو ومَعَهُ غَيْرُهُ، كَوَلَدِهِ إسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلام، وأَوْلَادِه وَزَوْجَتِهِ.

• ﴿إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ﴾: أي: فَاغْفِرْ لَنَا خَطَايَانَا الَّتِي نُخْفِيهَا وَخَطَايَانَا الَّتِي نُعْلِنُهَا. فَطَلَبُ المغفرة هو لازمُ الاعْتِرَافِ بِعِلْمِ اللهِ لِمَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ.

• ﴿... وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾﴾:

في هَـٰذِهِ العبارة أثْنَىٰ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام عَلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بأَنَّ عِلْمَهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ شيء، فَمَا يَخْفَىٰ على اللهِ مِنْ شَيْءٍ في الأَرْضِ، وَلَا فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ حَوْلَ الأَرْضِ الَّذِي هُوَ سَمَاءٌ بالنِّسْبَةِ إِلَيْهَا.

«مِنْ» في عبارَة: ﴿مِن شَىْءٍ﴾ لِتَوْكِيدِ اسْتغراقِ عُمُوم النفي والتنصيصِ عَلَيْهِ.

سادساً: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾:

حَمِدَ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَام بهذا الدُّعَاءِ اللهَ الَّذِي وَهَبَ لَهُ مَعَ الكِبَرِ وَلَدَهُ إِسْمَاعِيلَ، وَوَلَدَهُ إِسْحَاق عَلَيْهِما السَّلَام، اسْتِجَابَةً لِدُعَائِهِ الَّذِي دَعَاهُ إياه، وقال: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾: أي: فَإِذَا شَاءَ بِحِكْمَتِهِ أَنْ يُجِيب دَعْوَةَ مَنْ دَعَاهُ أجابَهُ، وَقَدْ أَجَابَ اللهُ دُعائي.

«على» في عِبَارَةِ: ﴿عَلَى ٱلْكِبَرِ﴾ بمعنى «مَعْ»، أي: مَعَ الكِبر.

وجاء في الدُّعَاءِ تقديم إِسْمَاعيل عَلَيْهِ السَّلَام على إِسْحَاق عَلَيْهِ السَّلَام، مُرَاعَاةً لِكِبَرِ سِنِّ إِسْمَاعِيلَ بالنِّسْبَةِ إلى سِنِّ إِسْحَاق عليهما السلام.

سابعاً: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ﴾:

دَعَا إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَام رَبَّهُ لِنَفْسِهِ بِأَنْ يَجْعَلَهُ مُقِيمَ الصَّلَاةِ المطْلُوبَةِ مِنْهُ إِلْزَاماً أَوْ تَرْغِيباً، وَدَعَا مِثْلَ ذَلِكَ لِبَعْضِ ذُرِّيَّتِهِ، لَا لِكُلِّهِمْ، أَيْ: لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ مِنْهُمْ، فَهؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ يَسْتَجِيبُ اللهُ دُعَاءَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام مِنْ أَجْلِهِمْ، إِذْ بَدَؤوا الْخُطْوَةَ الْوَاجِبَةَ عَلَىٰ إِرَادَةِ كُلِّ واحِدٍ مِنْهُمْ، وهِي خُطْوَةُ الْإِيْمَانِ وإِعْلَانِ الإِسْلَام، فَدَخَلُوا بِهَا صِرَاطَ اللهِ المستقيم، فَمَنْ يَعْلَمُ اللهُ صِدْقَهُمْ في إيمانِهِمْ وإِسْلَامِهِمْ؛ قَدْ تَقْتَضِي حِكْمَتُهُ بِأَنْ يَسْتَجِيبَ دُعَاءَ جَدِّهِمْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام بِشَأْنِهِمْ، فَيُوَفِّقَهُمْ لِإِقَامَةِ الصَّلَاة.

إقَامَةُ الصَّلَاة: الْمُدَاومَةُ والْمُوَاظَبَةُ عَلَيْهَا في أَوْقَاتِهَا، وأَدَاؤُهَا عَلَىٰ الْوَجْهِ الشَّرْعِيِّ المطْلُوب فيها، وبهٰذَا تكُونُ مُسْتَقِيمَةً لَا عِوَجَ فيها.

ثامناً: ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾﴾:

دَلَّ هـٰذَا عَلَىٰ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ جمع مِنْ أَهْلِهِ وأَوْلَادِهِ وأَحْفَادِهِ مَنْ جمَعَ، وَدَعَا لِنَفْسِهِ وَلَهُمْ بِمَا هُوَ خيرٌ وصَلَاحٌ لِدِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ وَآخِرَتِهِمْ، وَبَعْدَ أَنْ أَنْهَىٰ مَا فَصَّلَهُ فِي دُعَائِهِ الَّذِي بَدَأَهُ بِعِبَارَةِ: ﴿رَبَّنَآ﴾ قَالَ دَاعِياً: وَتَقَبَّلْ دُعَائِي، أي: واجْعَلْ دُعَائِي مَقْبُولاً عِنْدَكَ، فَأَنْت تَسْتَجِيبُ مِنْهُ مَا تَشَاءُ بِحِكْمَتِكَ السَّنِيَّةِ.

تَاسِعاً: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾:

يَظْهَرُ أَنَّ هـٰذَا الدُّعَاءَ كَانَ قَبْلَ أَنْ يُفَارِقَ أَبُوهُ الْحَيَاةَ كَافِراً غَيْرَ مُؤْمِنٍ، أَمَّا أُمُّهُ فَيَظْهَرُ أَنَّها قَدْ آمَنَتْ.

دَلَّ عَلَىٰ هـٰذَا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سُورَةِ: (التوبَة/ ١١٣ نزول):

﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾.

لَمْ يَأْتِ في هـٰذَا النَّصِّ ذِكْرٌ لِوَالِدَتِهِ الَّتِي دَعَا اللهَ أَنْ يَغْفِرَ لَهَا مَعَ والِدِهِ، فَدَلَّ هـٰذَا عَلَىٰ أَنَّهَا كَانَتْ مُؤْمِنَة، بخلافِ حَالِ أَبِيهِ.

وحِينَ خَاطَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ المؤمِنِينَ بَعْدَ بِعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، بِأَنْ يَتَّخِذُوا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام وَالَّذِينَ مَعَهُ أُسْوَةً لَهُمْ؛ اسْتَثْنَىٰ مِنْ هَـٰذِهِ الأُسْوَةِ قَوْلَ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَبِيهِ: لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ، فَلَمْ يَأْذَنِ اللهُ لِمُؤْمِنٍ بِأَنْ يَسْتَغْفِرَ لِكَافِرٍ وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ النَّاسِ إِلَيْهِ، كَوَالِدَيْهِ، أَوْ وَلَدِهِ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي سُورَةِ (الْمُمْتَحِنَة/ ٩١ نزول) خِطَاباً لِلْمُؤْمِنِينَ بِرِسَالَةِ مُحَمَّد ﷺ:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ

مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾.

● ﴿... يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾: أي: يَوْمَ يَتَحَقَّقُ الْحِسَابُ، وَفَصْلُ القضاءِ، فِي مَحْكَمَةِ الفضْلِ والْعَدْلِ الرَّبَّانِيَّةِ يَوْمَ القيامَة، تَمْهِيداً لِتَنْفِيذِ الجزاء الرَّبَّانِيِّ يَوْمَئِذٍ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمْ، أَوْ فِي عَذَابِ الْجَحِيمِ.

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الثامِنِ من دُرُوس سورة (إبراهيم).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(١٢)

التدبّر التحليلي للدّرس التاسع من دُرُوس سورة (إبراهيم) الآيات من (٤٢ ـ ٥٢) آخر السورة

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى

ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾.

القراءات:

(٤٢) • قرأ عَاصم، وابن عامر، وحمزة، وأبو جعفر: **[وَلَا تَحْسَبَنَّ]** بفتح السين.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[وَلَا تَحْسِبَنَّ]** بِكَسْرِ السين.

وهُما لُغَتان لمعنًى واحد، وهو الظَّنُّ التَّوهُّمِيُّ الضعيفُ.

(٤٤) • قرأ أبو عمْرو: **[يَأْتِيهِمِ الْعَذَابُ]** بِكَسْرِ الهاء والميم بَعْدَهَا.

وقرأها حمزة، والكسائيّ، ويَعْقُوبُ، وخلف: **[يَأْتِيهُمُ الْعَذَابُ]** بضمّ الهاء والميم بَعْدَها.

ويعْقُوبُ علىٰ أصْلِهِ في ضَمّ الْهَاءِ وَقْفاً.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ]** بِكَسْرِ الهاء وضم الميم بَعْدَها.

(٤٦) • قرأ الكِسَائيُّ: **[لَتَزُولُ]**.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[لِتَزُولَ]**.

(٤٧) • قرأ عاصم، وابْنُ عامر، وحمزة، وأبو جعفر: **[فَلَا تَحْسَبَنَّ]** بفتح السين.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[فَلَا تَحْسِبَنَّ]** بِكَسْرِ السين.

وهُمَا لغتان لمعنى واحد، وهو الظَّنُّ التَّوهُّمِيُّ الضعيف.

تَمْهيد:

في آياتِ هٰذَا الدَّرْسِ بيانٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ عِلْمِهِ بِما يَعْمَلُ الظّالمون، وأَنَّهُ يُؤَخِّرُ حِسَابَهُمْ وَعِقَابَهُمْ إلى يَوْمِ القيامَة.

وفيها تَكْلِيفُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ محمّداً ﷺ أَنْ يُنْذِرَ كُفَّارَ قَوْمِهِ، باحْتِمَالِ أَنْ يُنْزِلَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَذَاباً مُهْلِكاً لَهُمْ، مع بَيَانٍ جَلِيٍّ عَنْ عَذَابِ يَوْمِ القيامَة.

التدبُّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِكُلِّ صَالِحٍ لِلْخِطَابِ بأسلوب الخطاب الإفرادي:

● ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾:

مَادَّة «حَسِبَ، يَحْسَبُ، ويَحْسِبُ» هي عِنْدَ أهل اللُّغَة بمعنى: «ظَنّ»، ومن اسْتِقْرَاء هٰذَا الْفِعْلِ في القرآن، مَعَ تَدَبُّر مَعانِيهِ؛ تَبَيَّنَ لِي أَنَّه قد اسْتُعْمِل للدَّلَالَةِ على الظَّنِّ التوهُّمِيِّ الضَّعيف، الَّذِي يجب طَرْحُهُ واسْتِبْعَادُه.

غَافِلاً: الْغَافِلُ هو الْمُنْصَرِفُ عَنْ مُلَاحَظَةِ وَمُرَاقَبَةِ الشَّيْءِ مَعَ وُجُودِهِ في مَجَالِ إِدْرَاكِهِ لَهُ. والْغَفْلَةُ عَنْ أَيِّ شيءٍ في الوجود سواءٌ أكان كَبِيراً أَمْ صَغِيراً مُتَنَاهِياً في الصِّغَرِ؛ مِنَ المسْتَحِيلِ أَنْ يَتَّصِفَ اللهُ بِهَا، جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

● ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾: لَا يُهْمِلُ عِقَابَهُمْ، وإِنَّما يُمْهِلُهُ.

● ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾: هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، إِذْ تَشْخَصُ فِيهِ أَبْصَارُ

أَهْل الْمَحْشَرِ. يُقَالُ لغة: «شَخَصَ فُلَانٌ بَصَرَهُ، وَشَخَصَ بِبَصَرِه» أي: فَتَحَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَطْرِفْ بِهِمَا، مُتَأَمِّلاً مُنْدَهِشاً مَبْهُوتاً، أَوْ خَائِفاً مَذْعُوراً.

• ﴿مُهْطِعِينَ﴾: **مُهْطِع**: اسم فَاعل من فِعْل «أَهْطَعَ». وقد جاء عند أَهْلِ اللُّغَةِ فِي مَعْنَىٰ هـٰذَا الفعل: «أَقْبَلَ عَلَىٰ الشَّيْءِ بِبَصَرِهِ فَلَمْ يَرفَعْهُ ـ نَظَرَ في ذُلٍّ وخُشُوع ـ أَقْبَلَ مُسْرِعاً خَائِفاً ـ مَدَّ عُنُقَهُ وَصَوَّبَ رَأْسَهُ، أي خَفَضَهُ وَأَمَالَهُ ـ أَسْرَعَ في الْعَدْو».

• ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾: أي: مُطَأْطِئِي رُؤوسِهِمْ شاخِصَةً أَبْصَارُهُمْ في ذُلٍّ وخُضُوعٍ وخُشُوع.

• ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾: **الطَّرْف**: تَحَرُّكُ جَفْنِ الْعَيْنِ. أي: لا يَرْجِعُ جَفْنُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ إِلَىٰ الانْطِبَاقِ بَعْدَ أَنْ شَخَصَ بَصَرُه.

• ﴿... وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾: أي: وأَفْئِدَتُهُمْ خَالِيَةٌ، فَقَدَتْ قُواهَا الإِدْرَاكِيَّةَ كُلَّها مِنْ شِدَّةِ هَوْلِ المَوْقِفِ.

جَاءَ فِي هـٰذَا البيان النَّهْيُ عَنْ تَوَهُّمِ أَنَّ اللهِ غَافِلٌ عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمونَ، أي: النَّهْي على تَوَهُّم أنّ اللهَ تعالى مُهْمِلٌ لِعِقَابهم.

إِنَّ الله ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ يُمْهِلُ وَلَا يُهْمِل، إِنَّهُ يُؤَخِّرُ عِقَابَ الظَّالِمِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّة وَمَا حَوْلَهَا إِبَّانَ التَّنْزِيلِ إِلَىٰ يَوْم القيامَة.

وَقَدَّمَ هـٰذَا البيانُ مَشْهداً مِنْ مَشَاهِدِ أَحْوَالِ الظَّالِمِينَ الكَفَرَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وهُمْ في الْمَحْشرِ ذَاهِلُونَ مُنْدَهِشُونَ خَائِفُونَ أَذِلَّاءُ خَاشِعُون سَاكِنُونَ، مَادُّونَ أَعْنَاقَهُمْ مُطَأْطِئُون رُؤوسَهُمْ مع إِمَالَةِ ذُلٍّ وانْكِسَار، لَا تَنْطَبِقُ أَجْفَانُهُمْ مِنْ شِدَّةِ شُخُوص أَبْصَارِهم، وأَفْئِدَتُهُمْ فَاقِدَةٌ قواهَا الإِدْرَاكِيَّة، مِنْ شِدَّةِ هَوْلِ الْمَوْقِفِ الَّذِي هُمْ فِيهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِرَسُولِهِ محمّد ﷺ فَلِكُلِّ حَامِلِ رِسَالَتِهِ من أُمَّته:

• ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾:

• ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾: أي: بِعَذَابٍ مُؤَجَّلٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ، مَعَ احْتِمَالِ إِنْزَالِ عَذَابٍ مُعَجَّلٍ فِيهِمْ فِي الدُّنْيَا يَكُونُ بِهِ هَلَاكُهُمْ إِلَىٰ حَدِّ الاسْتِئْصَالِ.

والمرادُ بالنَّاسِ الَّذِينَ يُوجَّهُ لَهُمُ الإِنْذَارُ: الْكَافِرُونَ الْمُجْرِمُونَ، وقَدْ يَشْمَلُ الإِنْذَارُ عُصَاة المؤمنين بعقابٍ عَلَىٰ مَقَادِيرِ مَعَاصِيهِمْ.

• ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾: أي: يَوْمَ يَأْتِي مَا يَكُون بِهِ تَعْذِيبُهُمْ وَإِهْلَاكُهُمْ مِنْ وَسَائِلَ، وَيَرَوْنَ أَنَّهُ صَارَ قَرِيباً مِنْهُمْ، يَشْتَدُّ هَلَعُهُمْ وَفَزَعُهُمْ، وَهٰذَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْعَذَابِ المعَجَّل الَّذِي أُنْذِرُوا بِهِ.

• ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾: أي: فيقُول الّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ دركَةِ الْكُفْرِ: رَبَّنَا أَخِّرْ تَعْذِيبَنَا وَإِهْلَاكَنَا، وأَمْهِلْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نَسْتَطِيعُ فِيهِ أَنْ نُجِيبَ دَعْوَتَكَ إِلَىٰ الإيمانِ والإسْلَام، نُجِبْ دَعْوَتَكَ، فَنُؤْمِنُ وَنُسْلِمُ، وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ باتِّبَاعِ خَاتِمِهِمْ مُحَمَّدِ بْنِ عبْدِ اللهِ ﷺ.

إِنّ اتِّبَاعَ الرَّسُولِ الْخَاتِمِ هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ اتِّبَاعٌ لِكُلِّ رُسُلِ اللهِ السَّابِقِينَ عَلَيْهِم السَّلَام.

فَيَأْتِيهِمُ الجوابُ الرَّبَّانِيُّ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ الْمَلَائِكَةِ الْكَرَامِ الْمَأْمُورِين بتعْذِيبهمْ وَالَّذِينَ يَقْبِضُونَ أَرْوَاحَهُمْ عِنْدَ إِهْلَاكِهِمْ، إِذْ يَقولُونَ لهم:

• ﴿... أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾:

أي: أَلَمْ تُكَذِّبُوا رُسُلَ رَبِّكُمْ حِينَ أَنْذَرُوكُمْ بِعَذَابِهِ الْمُعَجَّلِ والمؤَجَّل،

وأقْسَمْتُمْ عَلَىٰ أَنَّكُمْ سَتَدُومُونَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ حَتَّىٰ تأْتِيكُم آجالُكُمْ، وَلَيْسَ لِلنِّعَمِ الَّتِي أَنْتُمْ عَلَيْهَا مِنْ زَوَالٍ بِعِقَابٍ مِنَ اللهِ لَكُمْ عَلَىٰ كُفْرِكُمْ، وَمُقَاوَمَةٍ لِدِينِهِ وكتابِهِ، ومُعَادَاةٍ لِرُسُلِهِ.

الزّوال: هُو في اللُّغَةِ تَحُوُّلُ الشَّيْءِ وانْتِقالُهُ مِنْ حَالٍ إِلَىٰ حَالٍ.

إِنَّهُمْ أقْسَمُوا عَلَىٰ أَنَّهُمْ ما لَهُمْ مِنْ تَحَوُّلٍ عَنْ أَحْوَالِهِمُ الَّتِي هُمْ عَلَيْهَا بِعُقُوبَةٍ مِنَ اللهِ لَهُمْ، وَكَذَّبُوا رَسُولَ رَبِّهِمْ بِمَا أَنْذَرَهُمْ بِهِ مِنْ عِقَابِ اللهِ لَهُمْ.

• ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ...﴾:

أي: وَتَقُولُ المَلائِكَةُ لهم أَيْضاً: وسَكَنْتُمْ في مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أنْفُسَهُمْ مِنْ دَرَكَةِ الكُفْرِ، فَعُذِّبُوا وأُهْلِكُوا، وَلَمْ تَتَّعِظُوا بِتَعْذِيبِهِمْ وإِهْلاكِ اللهِ لَهُمْ، وَمِثْلُ هٰذَا الْقَوْلِ يُوَجَّهُ لِلَّذِينَ سَكَنُوا فِي مَسَاكِنِ الفراعِنَة، وَمَسَاكِنِ الكفرَةِ الَّذِينَ بَقِيَتْ لَهُمْ مَسَاكِنُ تُسْكَنُ في الشام والعراق وغيرها.

وَتَقُول الْمَلائِكَةُ لَهُمْ أَيْضاً تَبْلِيغاً عَنْ رَبِّهِمْ:

• ﴿... وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ...﴾:

أي: وَتَبَيَّنَ لَكُمْ بِمُشَاهَدَةِ آثَارِ الْمُهْلَكِينَ الكَفَرَةِ، كَيْفَ فَعَلْنا بِهِمْ مِنْ إهْلاكٍ وَتَدْمِيرٍ بَعْدَ تَعْذِيبٍ مُؤْلِمْ.

• ﴿... وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾:

أي: وَضَرَبْنَا لَكُمْ بالبيانات في كِتَابِنَا، وَعَلَىٰ أَلْسِنَةِ رُسُلِنَا، أَمْثَالَكُمُ الكَفَرَة، وَكَيْفَ أهْلَكْنَاهم، وَدَمَّرْنَا عَلَيْهِمْ، كَقَوْمِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلام، وَعَادٍ، وثَمُودَ، وَفِرْعَوْنَ وَجَيْشِهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ:

• ﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾:

وفي قراءة الكِسَائي: [**وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لَتَزُولُ مِنْهُ الْجِبَالُ**].

المكْرُ: تَدْبِيرُ أَمْرٍ في خَفَاءٍ بِخَيْرٍ أَوْ بِشَرٍ، أَمَّا مَكْرُ الكَفَرَةِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَجَزَاءِ اللهِ فيها؛ فَمُعْظَمُهُ لَا يَكُونُ إِلَّا في شَرٍّ، وأَمَّا مَكْرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بالْآخِرَةِ وَجَزَاءِ اللهِ فِيها فَيَكُونُ مكراً في خير.

• ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ ...﴾: أيْ: وَقَدْ مَكَرَ الْمُهْلَكُون السَّابِقُونَ مَكْرَهُمُ الشَّدِيدَ، لِقَمْعِ دَعْوَةِ رُسُلِ رَبِّهِمْ عَلَيْهِم السَّلَام، وللتَّخَلُّصِ مِنْهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ واتَّبَعُوهم.

• ﴿... وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ ...﴾: أي: وَكَانَ عِنْدَ اللهِ عِلْمُ مَكْرِهِمْ، بِكُلِّ تَفْصِيلَاتِهِ وَجُزْئِيَّاتِهِ وَمَرَاحِلِهِ، كَانَ عِنْدَ اللهِ الْمَمْكُورِ بِدِينِهِ وَبِرَسُولِهِ عَلَيْهِ السَّلَام وبِكِتَابِهِ؛ صُورَةٌ كَامِلَةٌ عَنْ مَكْرِهِمْ، فَهُوَ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ قَدِيرٌ على إِحْبَاطِ كُلِّ عَمَلٍ يَعْمَلُونَهُ لِتَحْقِيقِ مَا مَكَرُوه.

• ﴿... وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾:

أي: وعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ، فَاللهُ مُحْبِطٌ أَعْمَالَهُمْ وَرَادٌّ مَكْرَهُمْ إِلَىٰ نُحورِهِمْ، وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ كَافِياً مِنْ شِدَّتِهِ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ، فَاللهُ أَشَدُّ قُوَّةً وأَعْظَمُ بَأْساً، وهُمْ لَا حَوْلَ لَهُمْ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِهِ.

• [**وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لَتَزُوْلُ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ**] بِقِرَاءَةِ الكِسَائِيِّ:

«إِنْ» هي المخففة مِنَ الثقيلَة. واللام في [**لَتَزولُ**] هي: الفارقة بَيْنَها وبين «إِنْ» النَّافِية. وعبارة [**لَتَزولُ مِنْهُ الْجِبَالُ**] تُمَثِّلُ شِدَّة مَا أَعَدُّوا مِنْ مَكْر، فَقَدْ أَعَدُّوا بِهِ غَايَةَ مَا يَسْتَطِيعُونَ مِنْ عَمَلٍ لتحقيق غَايَتِهِمْ، وَكَانَ مَكْرُ فِرْعَوْنَ وآلِهِ بَالِغاً، فَلَوْ وَجَّهَهُ لِإِزَالَةِ جِبَالٍ مِنْ حَوْلِ مَدِينَتِهِ لَكَانَ كَافِياً، وَقَدْ جاءَت المعْجِزَةُ الرَّبَّانِيَّة فَأَبْطَلَتْ كُلَّ مَكْرِهِ وَكَيْدِهِ، وأغْرَقَ اللهُ فِرْعَوْنَ وآلَه وكُلَّ جَيْشِهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بأسْلُوب الْخِطَابِ الْإفرادي الموجَّهِ لِكُلِّ مَنْ هو صالِحٌ لتلقِّي الخِطاب:

• ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾:

سَبَقَ في نُجُومِ التَّنْزِيلِ بَيَانُ وَعْدِ اللهِ بِأَنْ يَنْصُرَ رُسُلَه عَلَيْهِم السَّلام، وهُوَ بَيَانٌ يَحْكِي اللهُ عَزَّ وَجلَّ فِيهِ مَا سَبَقَ فِي تَارِيخِ النَّاسِ مِنْ هٰذَا الْوَعْد، وَمِمَّا سَبَقَ في نُجُومِ التَّنْزِيلِ مِنْهُ؛ قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (غافر/ ٦٠ نُزُول) مُتَحَدِّثاً بِضَمِيرِ المتكلِّم العظيم ومُؤَكِّداً:

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾.

المعنَىٰ: فَلَا تَتوهَّمَنَّ أيُّهَا المتَلَقِّي لِكَلام رَبِّكَ مَهْمَا كَانَ التَّوَهُّمُ ضَعِيفاً؛ أَنَّ الله خَالِقَ كُلِّ شَيْءٍ، وَالَّذِي بِيدِهِ مَلَكُوتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، يُخْلِفُ رُسُلَهُ عَلَيْهِم السَّلَام مَا وَعَدَهُمْ مِنْ نَصْرٍ عَلَىٰ أَعْدَاءِ رِسَالَتِهِ الَّتِي أَرْسَلَهُمْ بِهَا، وَحَمَّلَهُمْ واجِبَ تَبْلِيغِهَا، وَواجِبَ اتِّخاذِ مَا يَلْزَمُ للإقْنَاعِ بِمَضَامِينِهَا، وَتَرْغِيبِ وَتَرْهِيب الَّذِينَ لَا يَكْفِيهِمُ الاقْتِنَاعُ بالحقِّ الرَّبَّانِي، مُحَاصَرَةً مِنْ كُلِّ جوانبهم الداخِلِيَّةِ الَّتِي لَهَا تَأْثِيرٌ عَلَىٰ إرَادَاتِهِم واخْتِيَارَاتِهِم السُّلُوكَ المنْجِي مِن عَذَابِ رَبِّهِمْ، والمسْعِدَ لَهُمْ سَعَادَةً أَبَدِيَّةً فِي جَنَّاتِ النَّعِيم.

• ﴿... إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾:

أَيْ: إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ غَالِبٌ بِعِزَّتِهِ، وَهُوَ ذُو انْتِقَام، فَهُوَ يُعَاقِبُ بِالْعَدْلِ عَلَىٰ الذُّنُوب، إِلَّا إِذَا اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ أَنْ يَغْفِرَ مَا دُونَ كَبِيرَةِ الشِّرْكِ.

الانْتِقَامُ: الْمُعَاقَبَةُ عَلَىٰ الذَّنْبِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾

وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾﴾:

- ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾:

أي: ضَعْ فِي ذَاكِرَتِكَ أيُّهَا المتَلَقِّي لِكَلامِ رَبِّكَ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ والسَّمَاوَاتُ غَيْرَ السَّمَاوات، وهٰذَا يَكُونُ يَوْم القيامَة.

وقَد اشْتَغَلَ المفَسِّرُونَ في تَعْيينِ هَل التَّغْيِيرُ يَكُونُ في الذَّاتِ أَوْ فِي الصِّفَاتِ، وَرَجَّحَ بَعْضُهُمْ أَنَّ التغييرَ يَكُونُ في الذَّاتِ، ورَجَّحَ بَعْضُهُمْ أَنَّ التغيير يَكُون في الصِّفَاتِ.

أقول: إنَّ كُلّاً مِنْهُمَا يُوصَفُ بأنَّهُ تَبْدِيلٌ، ولَيْسَ أَحَدُهُمَا بأدَلّ عَلَىٰ عَظِيم قُدْرَةِ اللهِ مِنَ الْآخر، لِأَنَّ الله ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَتْ قُدْرَتُه ـ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ: كُنْ فيكون، سواءٌ أكان إيجاداً مِنَ الْعَدَمِ المطلَقِ، أَمْ تغْييراً في صِفَاتِ الموجود، أَمْ إعْدَاماً لِلْمَوْجُودِ وَتَبْدِيلاً لَهُ بِمَوْجُودٍ آخر، فالكلُّ بالنِّسْبَةِ إلى قُدْرَة اللهِ العظيمةِ سَواءٌ، والأشياءُ الّتي نَجْهَلُهَا مِنْ أُمُور الدنيا والآخرة أكْثَرُ مِن التي نعلَمُهَا.

والَّذِي يُفيدُهُ الْبَيَانُ هُنَا أَنَّ صِفَاتِ الْأَرْضِ، وَوَضْعَهَا، وَهَيْئَتَهَا؛ تَكُونُ مُخَالِفَةً لِمَا هِي عَلَيْهِ في الحياة الدُّنيا، وكَذَلِكَ السَّمَاوَاتُ بِنُجُومِهَا، وَكَواكِبِهَا، وحَرَكَةِ أَجْرَامِهَا، وَنِظام تَرَابُطِهَا، وأقْسَامِها، تَكُونُ مُخْتَلِفَةً عَمَّا هِي عَلَيْهِ في الْحَيَاةِ الدُّنيا، وَكُلُّ ذَلِكَ يَكُونُ بِقُدْرَةِ وحِكْمَةِ الْعَلِيمِ الخبير الّذِي وَسِعَ كُلَّ شيءٍ عِلْماً، وَلَا يُعْجِزُهُ خَلْقُ شيءٍ يُرِيدُه.

بَعْضُ أَحَادِيث بِشَأْنِ تَبْدِيل الْأَرْضِ غَيْرَ الْأَرْض والسَّمَاوَات:

(١) روى البخاري ومُسْلِمٌ مِنْ حديث سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رسُولَ اللهِ ﷺ يَقُول:

«يُحشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ على أَرْضٍ بَيْضاءَ عَفْراءَ كَقُرْصَةِ نَقِيٍّ».

الأرض العَفْرَاء: هي الأَرْض الْبَيْضاءُ الَّتِي لَمْ تُوطأ.

كَقُرْصَةِ نَقِيٍّ: أي: كَرَغيفِ خُبْزٍ مِنَ الدَّقِيقِ الأَبْيَضِ الْحُوارَىٰ.

(٢) وروى البخاري ومُسْلِمٌ مِنْ حديثِ أبي سَعِيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قَالَ رَسُولِ اللهِ ﷺ:

«تكُونُ الأَرْضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خُبْزَةً واحِدَةً يَتَكَفَّؤُها الْجَبَّارُ بيدِهِ».

يَتَكَفَّؤُهَا: أي: يُقَلِّبُها، كَمَا يُقَلِّبُ الخبازُ رَغِيفَ الْخُبْزِ قَبْلَ أَنْ يُدْخِلَهُ في الْفُرْن.

• ﴿... وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾:

أي: وَظَهَرَ الَّذِينَ كَانُوا مَوْضُوعِينَ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَان جَمِيعاً، في مَوْقِفٍ جَامِعٍ على أَرْضِ المحشَرِ؛ لِمَا يَقْضِي اللهُ بِهِ لَهُمْ أَوْ عَلَيْهِم، لَا يَمْلِكُ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَنْ يَتَصرَّفَ لِنَفْسِهِ بِشَيْءٍ، فَالْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ مُلْكُهُ، والْحُكم حُكْمُهُ، وَالأَمْرُ كُلُّهُ أَمْرُه.

الْبَرَازُ: المكان الفضاء الواسِعُ الْبَعِيدُ، ويقالُ: «بَرَزَ فُلان» أي: خَرَجَ إلى الأرض الْبراز.

الْوَاحِدِ: أي: الَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَلَا فِي إِلَهِيَّتِهِ.

الْقَهَّار: أي: الْغَالِبُ الْمُجبِرُ عَلَىٰ مَا يُرِيد، وهو اسم من أسماء اللهِ الحسنى.

• ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾﴾:

الْمُجْرِم: هو المعتدي بذَنْبٍ كبير، ولفْظُ الْمُجْرِمِينَ في القرآن جَاءَ

عُنْواناً مُقَابِلاً لِلْمُسْلِمِينَ، وَوَصْفاً للكافِرِينَ، وللمعذّبين في النار.

مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ: **الْقَرَنُ**: الْحَبْلُ الَّذِي يُشَدُّ بِهِ الْأَسِيرُ. يُقَالُ: قَرَنَ الْأَسِيرَ بِالْحَبْلِ، أي: شَدَّهُ بِهِ، ويُقَالُ: «قَرَّنَهُ» أي: شَدَّدَ عَلَيْهِ الوثَاقَ. ويُقَالُ: «قَرَنَ الْأَسِيرَ بِالْأَسِير» أي: جَمَعَهُمَا في وَثَاقٍ واحِدٍ.

الْأَصْفَاد: هِي السَّلاسِلُ والْأَغْلَالُ، مُفْرَدُهَا: الصَّفَدُ، والصِّفَادُ.

سَرَابِيلُهُمْ: جمع «سِرْبال»، وهوَ الْقَمِيصُ وَكُلُّ مَا يُلْبَسُ.

مِنْ قَطِرَانٍ: **الْقَطِرَان**: مَادَّةٌ سَوْدَاءُ سائِلَةٌ لَزِجَةٌ تُسْتَخْرَجُ مِنَ الْخَشَبِ، وهِي شَدِيدَة الاشْتِعَال، تُطْلَىٰ بِهَا الإبلُ من الجَرَب.

وَتغْشَىٰ وُجُوهَهُم النَّارُ: أي: تُغَطِّي وُجُوهَهُمُ النَّارُ تَعْذِيباً لَهُمْ.

المَعْنَىٰ: وَتَرَىٰ أَيُّهَا المتَلَقِّي إِنْ كُنْتَ مِمَّنْ يَرَىٰ الْمُجْرِمِينَ الْمُعَذَّبِينَ في دَارِ الْعَذَابِ يَوْمَ الدِّين؛ مَشْدُودِينَ في السَّلَاسِلِ والْأَغْلَالِ، وَمُقَرَّنِيْنَ مع نُظَرَائِهِمْ في وَثَاقٍ وَاحِدٍ، وَقَدْ طُلِيَتْ أَجْسَادُهُم بِالْقَطِرَانِ، فَكَانَ الْقَطِرَانُ بِمَثَابَةِ ثِيَابٍ لَهُمْ، وَيُلَامِسُ وُجُوهَهُمْ لَهَبُ النَّارِ.

• ﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٥١﴾:

أي: اعْلَمْ أَيُّهَا المتَلَقِّي لِكَلَام رَبِّكَ؛ أَنَّ يَوْمَ الدِّينِ الَّذِي تُبَدَّلُ فِيهِ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ، وَتُبَدَّلُ السَّمَاوَاتُ غَيْرَ السَّمَاوَاتِ، وَيَبْرُزُ الَّذِينَ كَانُوا في الحياةِ الدُّنْيا مَوْضُوعِينَ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، في مَوْقِفٍ جَامِعٍ عَلَىٰ أَرْضِ الْمَحْشَرِ، مُنْتَظِرِينَ مَا يَقْضِي اللهُ بِهِ لَهُمْ أَوْ عَلَيْهِمْ، وَيُحْكَمُ عَلَىٰ الْمُجْرِمِينَ وَيُسَاقُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ، وَيُكَبُّونَ فِيهَا، قَبْلَ أَنْ يُقْضَىٰ بَيْنَ الْعِبَادِ الَّذِينَ لَمْ يَصِلُوا إِلَىٰ دَرَكَةِ الْمُجْرِمِينَ ـ فِيهِ تُقَامُ مَحْكَمَةُ الْعَدْلِ وَالْفَضْلِ الرَّبَّانِيَّةُ:

لِيَجْزِيَ اللهُ كُلَّ نَفْسٍ جَزَاءً مُسَاوِياً مَا كَسَبَتْ ضِمْنَ قَانُونِ الْعَدْلِ

بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ السَّيِّئَاتِ الْمَقْرُونِ بِعَفْوٍ عَنْ كثير مِنْها، وضِمْنَ عَطَاءات الْفَضْلِ بالنِّسْبَةِ إلى الْحَسَنَاتِ، الَّتِي قَدْ تَصِلُ إلى سَبْعِمَائَةِ ضِعْفٍ إلى أضْعَافٍ كَثيرَةٍ جِدًّا، يَمْنَحُهَا اللهُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِجُودِهِ وَكَرَمِهِ.

وَتَأْخِيرُ مَنْ لَمْ يَصِلُوا إلىٰ دَرَكَةِ الْمُجْرِمِينَ فِي الْحِسَابِ، وَفَصْلِ الْقَضَاءِ، عَنِ الْمُجْرِمِينَ؛ لَا يُؤَثِّرُ عَلَىٰ نُفُوسِهِمْ شَيْئاً، لِأَنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسَابِ لَا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ عَنْ شَأْنٍ، فَهُو قَدِيرٌ عَلَىٰ أَنْ يُحَاسِبَهُمْ جَمِيعاً فِي سَاعَةٍ واحِدَةٍ، دُونَ أَنْ يَنْقُصَ أَحداً شَيْئاً مِنْ حَقِّهِ.

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي خِتَامِ هَـٰذِهِ السُّورة، وهُو آخِرُ الدَّرسِ الْأَخِير مِنْ دُرُوسها:

● ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٥٢﴾:

المشار إليه باسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ كُلُّ مَا جَاءَ في آيَاتِ السُّورَةِ مِنْ بَيَانَاتٍ تَشْتَمِلُ عَلَىٰ قَضَايا دِينيَّة.

وهَـٰذِهِ الآيَةُ جَدِيرَةٌ بِأَنْ تَكُونَ هِي الدَّرْس الأخيرَ من دُرُوس السُّورة، إذ اشْتَمَلَتْ عَلَىٰ تَلْخِيصٍ كُلِّيٍّ لِمَا جَاءَ في كُلِّ آيَاتِ السُّورة.

بَلَاغ: البلاغ اسْمٌ بمَعْنَىٰ الْمَصْدَر الَّذِي هو الإبْلاغُ أو التَّبْليغ، وهو إيْصَالُ رِسَالَةٍ مَا إلىٰ مَنْ وُجِّهَتْ له.

فَمَا جَاءَ في سورة (إبراهيم) بَلَاغٌ يَتَضَمَّنُ قَضَايا دِينِيَّة، وهَـٰذِهِ الْقَضَايَا مُوَجَّهَةٌ لِلنَّاسِ، لِكَيْ يَعْلَمُوهَا وَيَعْمَلُوا بِمَا تَدْعُوهُمْ إلَىٰ الْعَملَ به.

● ﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾: أي: وَلِيُنْذَرُوا بِمَا جَاءَ فِي هـٰذَا الْبَلَاغِ مِنْ إنْذَارَاتٍ بِعِقَاب اللهِ الْمُعَجَّلِ والْمُؤَجَّلِ إلى يَوْم القيامَةِ.

● ﴿وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾: أي: وَلِيَعْلَمُ النَّاسُ مِمَّا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ

هٰذَا الْبَلَاغُ؛ أَنَّمَا الإِلَهُ الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ إِلَهٌ واحِدٌ فقَط، هو الله رَبُّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ، فَمَنِ اتَّخَذَ إِلَهاً مِنْ دُونِهِ يَعْبُدُهُ كَانَ مُشْرِكاً كافِراً بِرَبِّهِ، وَيَسْتَحِقُّ الْخُلُودَ في عَذَابِ النّار يَوْم الدين.

• ﴿... وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾:

الأَلْبَاب: العقول الواعِيَةُ الدَّرَّاكَةُ، الّتِي تَعْقِلُ الْمَعَارِفَ فَتُمْسِكُ بِها، وَتَعْقِلُ النَّفْسَ عَنِ اتِّبَاعِ الْهَوَىٰ. **واللّب**: الْعَقْلُ الْخَالِصُ مِنَ الشَّوَائِب، فَأُولُو الْأَلْبَاب هُمْ أَصْحَابُ هَٰذِهِ الْعُقُول.

والمرادُ بالتَّذَكُّرِ في الاسْتِعْمَالَاتِ القرآنِيَّةِ الْأَثَرُ النَّفْسِيُّ والْقَلْبِيُّ مِنْ حُضُورِ الْمَعْلُومَةِ في الذَّاكِرَةِ الْعَامِلَةِ الدَّافِعَةِ للسُّلُوكِ الدِّينيّ الْمُلَائِمِ لَهَا، والمَطْلُوبِ فِيها.

فالْمَعْنَىٰ: ولِيَكُونَ في أَنْفُسِ أُولي الْأَلْبَابِ وقُلوبِهِمْ وسُلُوكِهِم؛ الْأَثَرُ النَّافِعُ مِنْ حُضُورِ الْمَعْلُومَةِ في الذَّاكِرَةِ الْعَامِلَةِ الدَّافِعَةِ للسُّلُوكِ الدِّينيِّ الملَائِمِ لَهَا، والمطْلُوبِ فيها.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّرُ سورة (إبراهيم) عليه السَّلَام.

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(١٣)
الملحق الأول
مُستَخرَجَات بَلَاغية مِن سورة (إبراهيم)

أولاً: من التشبيه المرَكب المُسَمَّىٰ «التَّمْثِيل»:

وهو التَّشبيه الّذِي يكُونُ عَلَىٰ شَكْلِ لَوْحَةٍ تُصَوِّرُ أَكْثَر مِنْ مُفْرَدٍ، وَوَجْهُ الشَّبَهِ فِيهِ لَا يَكُون مَأْخُوذاً مِنْ مُفْرَدٍ بِعَيْنِهِ، بَلْ يَكُونُ مأخوذاً مِنْهُ

وَمِنْ غَيْرِهِ، أَوْ مِنَ الصُّورَةِ الْعَامَّةِ دُونَ تَقَابُلِ مُفْرَدَاتٍ بالمشَبَّهِ بِمُفْرَدَاتٍ فِي المشَبَّهِ بِهِ.

ومِنْ تَشْبيه (التَّمْثِيلِ) في هذه السورة مَا يَلِي:

المثال الأوّل: قَوْلُ الله عَزَّ وَجَلَّ فيها:

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ١٨﴾. وفي القراءة الأخرىٰ: [**اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيَاحُ**].

فِي هَـٰذِهِ الآية تَشْبيهٌ مَأْخُوذٌ مِنْ مُتَعَدِّدٍ بَيْنَ المشَبَّهِ والمشَبَّهِ بِهِ، فالمشَبَّهُ أعْمَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا الَّتِي قَامُوا بِهَا، وَأَعَدُّوا بِهَا وَسَائِلَهُمْ، لِمُقَاوَمَةِ دَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّةِ، والتَّخَلُّصِ مِنْ رُسُلِ اللهِ عَلَيْهِم السَّلَام، ومِن الَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ واتَّبَعُوهُمْ؛ بِقَوْمٍ أَوْقَدُوا نَاراً عَظِيمَةً لِيُحْرِقُوا بِهَا قُرَىً، ومُدُناً، وَمَصَانِعَ، وَجَنَّاتٍ، وَثَرواتٍ، وَبَشراً، فَأَطْفَأَ اللهُ نَارَهُمْ، وَجَعَلَ حَطَبَهُمْ رَمَاداً، ثُمَّ أَرْسَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رِيحاً عَاصِفَةً مِنْ جهاتٍ مُخْتَلِفَاتٍ، فَدَخَلَتْ قَوِيَّةً شَدِيدَةً في الرَّمَادِ فَاحْتَمَلَتْهُ وَوَزَّعَتْ ذَرَّاتِهِ بِعُنْفٍ في جِهَاتٍ مُتَبَاعِدَاتٍ مِنْ شَرْقِ الأرضِ وغَرْبِها وشمَالِهَا وَجَنُوبِها، فَلَا أحدَ يَسْتَطِيعُ مِنْ أَصْحَابِ الرَّمَادِ أَنْ يَلْتَقِطَ مِنْهُ شَيْئاً.

وكَذَلِكَ أَعْمَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِمُقَاوَمَةِ دَعْوَةِ رُسُلِ اللهِ عَلَيْهِم السَّلَام؛ أَحْبَطَهَا اللهُ وَبَدَّدَها، فَهُمْ لَا يَقْدِرُونَ علَىٰ اسْتِعْمَالِ شيءٍ ممَّا سَبَقَ أَنْ كَسَبُوهُ بأَعْمَالِهِم مِنْ وَسَائِلَ.

وذَلِكَ الْأَمْرُ الّذِي دَعَاهُمْ إلى مُقَاوَمَةِ دَعْوَةِ رُسُلِ اللهِ عَلَيْهِم السَّلَام، وخَيْبَتِهِمْ فِي كُلِّ أَعْمَالِهِمْ، وإهْلاكِ اللهِ لَهُمْ بِعَذَابٍ شَدِيدٍ فِي نَهَايَةِ الْأَمْرِ؛ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ جدًّا عَمَّا يُحَقِّقُ لَهُمُ النَّجاة، ومَا كَانُوا يَطْمَعُونَ بِهِ لِلذَّاتِهِمْ، وشَهَوَاتِهِمْ، وَمَتَاعَاتِهِمْ مِنَ الحياة الدُّنيا.

المثال الثاني: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فيها:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾:

فِي هٰذَا النَّصِّ تَشْبيهانِ هُمَا مِنْ تَشْبِيهِ (التَّمْثِيلِ) إِذْ وَجْهُ الشَّبَهِ مُنْتَزَعٌ مِنْ متعدّد.

فالتَّشْبِيهُ الأَوَّل: هُوَ تَشْبيه كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ بِشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثابتٌ مُتَغَلْغِلُ الجذُورِ في الأَرْضِ.

فالكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ الَّتِي تَدُلُّ عَلَىٰ حَقٍّ مُؤَيَّدٍ بالْبُرْهَانِ، أَوْ تَهْدِي إِلَىٰ خَيْرٍ أَوْ فَضِيلَةٍ، أَوْ عَمَلٍ صَالِحٍ يُرْضِي اللهَ عَزَّ وَجلَّ، مِثْل كلمة: لا إِلَهَ إِلَّا الله؛ هي ذَاتُ أَصْلٍ ثَابِتٍ، إِذْ لَهَا جُذُورٌ كَجُذُور الشَّجَرَةِ الطَّيِّبَةِ، وهذه الجذور مُتَغَلْغِلَةٌ فِي حَقَائِقِ الْعِلْمِ الرَّبَّانِي، ولَهَا فَرْعٌ صَاعِدٌ في سُلُوكِ المؤمِنِ بِها.

فهي كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ، إِذْ لَهَا أَصْلٌ ثَابِتٌ في الْأَرْضِ ذُو جَذُورٍ مُتَغَلْغِلَةٍ في الْأَعْمَاقِ، تَمْتَصُّ الْغِذَاءَ للشَّجَرَةِ من الماء والتراب، فَيَصْعَدُ بخَلْقِ اللهِ حَتَّىٰ يَصِلَ إِلَىٰ كُلِّ ذَرَّةٍ مِنْ ذَرَّاتِ الشَّجَرَةِ، فَهِيَ تُؤْتِي مَا يُؤْكَلُ مِنْهَا مِنْ ثَمَرات، كُلَّ حِينٍ مِنْ فُصُوْلِ إِنْتَاجِهَا بإِذْنِ رَبِّها.

والنَّخْلَةُ هي أولَىٰ الشَّجَرَاتِ بالْمَثَلِ فِي بِلَادِ العَرَبِ إِبَّانَ التَّنْزِيْلِ.

والتَّشْبِيهُ الثَّانِي: هُوَ تَشْبيهُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ بِشَجَرَةٍ مُتَخَيَّلَةٍ خَبِيثَةٍ، قُطِعَتْ قَطْعاً كَامِلاً مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ، فَمَا لَهَا مَكَانٌ تَسْتَقِرُّ فِيهِ، وَلَيْس لَهَا مَا يُغَذِّيها لِنَمَاءٍ أَوْ ثَمَرَ، وَلَيْسَ فِيها نَفْعٌ لِذِي حَيَاةٍ، بَلْ هِيَ ضَارَّةٌ سَامَّةٌ خَبِيثَةٌ.

وكذلِكَ الْكَلِمَةُ الخبيثَةُ، مثلُ كَلِمَةِ الكُفْرِ الَّتِي تُودِي إلى الْخُلُودِ في عَذَاب النَّار.

ثانياً: من الكناية في السُّورة قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فيها:

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾:

عبارة: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ تَدُلُّ بأسلوب الكِنَايَةِ؛ علَىٰ أَنَّ أقْوَامَ الرُّسُلِ رَفَضُوا الاسْتِمَاعَ إلى بَيَانَاتِ رُسُلِهِمْ عَلَيْهِم السَّلَام، الدَّاعِيَةِ إلى دِينِ اللهِ الحقّ.

وذَلِكَ لِأَنَّ مُحَدِّثَ النَّاسِ بِشَأْنِ قَضَايَا لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وهو واقِفٌ بَيْنَهُمْ؛ يَسْتَعْمِلُ في الغالِبِ يَدَيْهِ لِلَفْتِ أَنْظارِهِمْ إِلَىٰ أَقْوَالِهِ ومعانيها، في الإثْبَاتِ، والنَّفْيِ، والاستفهام، والْجَمْعِ، والتَّفْرِيق، والْعَدَدِ، والارْتِفَاع، والانخفاضِ، والْجِهَاتِ السّتّ، والإشارة إلَىٰ شيءٍ، إلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ من المعاني الَّتِي تُسَاعِدُ حَرَكَاتُ الْيَدَيْنِ عَلَىٰ إدْرَاكِهَا بِسُرْعَةٍ.

وحِينَ يُوَجِّهُ بَعْضُ حضُورِ دَعْوَتِهِمْ أَسْمَاعَهُمْ وأَنْظَارَهُمْ إلى دَعْوَةِ رُسُلِ رَبِّهِمْ عَلَيْهِم السَّلَام؛ يَغْتَاظُ قَادَةُ الْقَوْمِ وَكُبَرَاؤُهُم، فَيَقُومُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ الرَّسُولِ فَيَأْمُرُهُ بالسُّكُوتِ والانْصِرَاف، فَإِذَا تَابَعَ الرَّسُولُ دَعْوَتَهُ أَمْسَكَ سَفِيهُ الْقَوْمِ بِيَدِ الرَّسُولِ الَّتِي يُشِيرُ بها، وَرَدَّهَا إلى فَمِهِ بِعُنْفٍ، ورُبَّما أَدْخَلَ بَعْضَ أَصَابِعِها فِيهِ لِيُسْكِتَهُ.

هَـٰذِهِ الحركَةُ صالِحَةٌ لِأَنْ يُكَنَّىٰ بِهَا عَنْ رَفْضِ الاسْتِمَاعِ إلى دَعْوَةِ الداعي، ورفضِ دَعْوَتِهِ كُلِّها.

ثالثاً: من الاستعارة فِي السُّورَةِ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فيها:

﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾:

فِي هَـٰذِهِ الآيَةِ اسْتِعَارَتَان:

الاسْتِعَارَةُ الأولَىٰ: اسْتِعْمَالُ الظُّلُمَاتِ للدَّلَالَة بِهَا عَلَىٰ أَنْوَاعِ الكُفْر وسُبُلِ ضَلَالَاتِهِ، لِأَنَّ هَـٰذِهِ تُشْبِهُ الظُّلُمَاتِ فِي فِكْرِ الْإِنْسَانِ وقَلْبِهِ ونَفْسِهِ وَسُبُلِهِ الَّتِي يَتَخبَّطُ فِي مَسِيرَتِهِ الدُّنْيَوِيَّةِ عَلَىٰ أَوْحَالِهَا وعَقَبَاتِهَا وَحُفَرِها ومَخَاطِرِها.

الاستعارة الثانية: اسْتِعْمَالُ النُّورِ للدَّلَالَةِ بِهِ عَلَىٰ الإيمانِ بالْحَقِّ، وصِرَاطِ اللهِ المستقيم الواحد، فالْحَقُّ الْجَلِيُّ يُشْبِهُ النُّور، والصِّراطُ الْمُسْتَقِيمُ الواضِحُ لِسَالِكِيه يُشْبِهِ النُّورَ أَيْضاً.

فاسْتُعِيرَ المشَبَّهُ به للدَّلَالَةِ بِهِ عَلَىٰ المشبَّه.

رابعاً: من التعبير عمَّا سَيَأْتِي مُسْتَقْبلاً بِصِيغَةِ الْفِعْلِ الماضِي، باعْتِبَارِ أَنَّهُ مُتَحقِّقُ الْوُقُوعِ في المستقبل، ومَا سَيؤُول إِلَيْهِ أَمْرِهِ، قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فيها:

﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ... ﴿١﴾﴾:

لم يَكُنْ قَدْ أُنْزِلَ إِبَّانَ نُزُولِ سُورَة (إبراهيم) كُلُّ الْقُرْآنِ، ولَكِنَّ خُطَّةَ الله عَزَّ وَجلَّ الَّتِي لَا بُدَّ أَنْ تَتَحقَّقَ مُسْتَقْبلاً؛ أَنْ يُنْزِل إلى رَسُولِهِ ﷺ كُلَّ القرآنِ، فَجاءَ إطْلَاقُ الإنْزَالِ عَلَىٰ كُلِّ الكتابِ، باعْتِبَارِ مَا سَيؤُولُ إِلَيْهِ الْأَمْرُ، بالنَّظَرِ إِلَىٰ خُطَّةِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ. وهذا من المجاز المرسل.

خامساً: من المجاز المرسَل في السُّورة قَوْل الله عَزَّ وَجَلَّ فيها:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾:

في هَـٰذِهِ الآيَةِ إِطْلَاق كَلِمَةِ: «نِسَاء» على المواليد من البناتِ، وهـٰذَا من المجاز المرسَلِ، وَهُو مِنْ إِطْلَاقِ اللَّفْظِ علىٰ الشَيْءِ باعْتِبَارِ مَا سَيؤُولُ إليه.

والْغَرَضُ هُنَا الدَّلَالَةُ عَلَىٰ أَنَّ اسْتِحْيَاءَ الْبَنَاتِ، بِمَعْنَىٰ إِبْقَائِهِنَّ فِي الْحَيَاةِ وَعَدَمِ قَتْلِهِنَّ؛ يُرَادُ بِهِ أَنْ يَكُنَّ فِي المستَقْبَلِ نِسَاءً صَالِحَاتٍ للاسْتِعْبَادِ، وللخدمة، ولِغَيْرِ ذَلِكَ.

سادساً: من الْإِيجَازِ بالْحَذْفِ في السورة قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ... ﴿٩﴾﴾:

أي: أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ إِهْلَاكِ الَّذِينَ كَفرُوا مِنْ قَبْلِكُمْ.

سابعاً: من خُروج الاستفهام عَنْ أَصْلِ دَلَالَتِهِ مَا يَلِي ـ مما جاء في السُّورَة:

(١) قول الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ... ﴿٢٤﴾﴾:

أي: انظر نَظَرَ تَفكُّرٍ عَمِيقٍ، وتَدَبُّرٍ دَقِيقٍ.

ففي هذا الاسْتِفْهَامِ حَثٌّ وتَحْرِيضٌ عَلَىٰ النظر التَّفَكُّرِيّ.

(٢) قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾:

الاستفهام في هَـٰذِهِ الآيَةِ اسْتِفْهَامٌ تَعْجِيبِيٌّ مِنْ أَمْرِهِمْ.

وأَكْتَفِي بهَـٰذِهِ المسْتَخْرَجَاتِ الْبَلَاغِيَّةِ مِنْ سُورَةِ (إبراهيم).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

❊ ❊ ❊

(١٤)

الملحق الثاني

البابُ الأول

إبراهِيمُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ في القرآن

أولاً: النُّصوصُ القرآنيَّةُ الَّتي جاءَ فِيها ذكر إبراهيم عليه السلام:

النصّ الأول: الآيات من (١٢٤ ـ ١٣٦) من سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

قال اللهُ عزَّ وَجلَّ:

﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ

أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾.

النّصُّ الثاني: الآية (١٤٠) من سُورَةِ (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾.

النَّصُّ الثَّالث: الآية (٢٥٨) من سُورَةِ (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾.

النَّصُّ الرَّابع: الآية (٢٦٠) من سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾.

النصّ الخامس: الآيتان (٣٣ و٣٤) من سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نُزُول):

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾.

النَّصُّ السَّادِس: الآيات من (٦٥ ـ ٦٨) من سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

النّصّ السابع: الآيتان: (٨٤ و٨٥) من سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

قال الله عَزَّ وَجَلَّ خِطاباً لِرَسُولِهِ محمّد ﷺ فَلِكُلِّ مُؤْمِنٍ مسلم:

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

النصّ الثامن: الآيات من (٩٥ ـ ٩٧) من سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ خِطاباً لِرَسُوله ﷺ:

﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ

أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾.

النصّ التاسع: الآيتان (٥٤ و٥٥) من سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ أَهْلِ الكِتَاب:

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾.

النصّ العاشر: الآية (١٢٥) من سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

قال الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾.

النَّصُّ الحادي عشر: الآية (١٦٣) من سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ خِطَاباً لِرَسُولِه محمّد ﷺ:

﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾.

النّصّ الثاني عشر: الآيات من (٧٤ ـ ٨٧) من سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾.

النّصّ الثالث عشر: الآية (١٦١) من سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

قال اللهُ عَزَّ وَجلَّ خِطاباً لِرَسُولِهِ محمّد ﷺ:

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾.

النصّ الرابع عشر: الآية (٧٠) من سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ الَّذِينَ كَفَرُوا:

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

النصّ الخامس عشر: الآيتان (١١٣ و١١٤) من سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾.

النصّ السادس عشر: الآيات من (٦٩ ـ ٧٦) من سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ

ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾.

النصّ السابع عشر: الآيتان (٥ و٦) من سورة (يوسف/ ١٢ مصحف/ ٥٣ نزول):

قال الله عَزَّ وَجَلَّ حكايَةً لِقَوْلِ يَعْقُوب لوَلَدِهِ يُوسف عليهما السلام:

﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾.

النّص الثامن عشر: الآية (٣٨) من سورة (يوسف/ ١٢ مصحف/ ٥٣ نزول):

قال الله عَزَّ وَجَلَّ حِكَايَةً لِقَوْلِ يوسُفَ عَلَيْهِ السَّلامُ لِصَاحِبَيْهِ في السِّجْن:

﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

النص التاسع عشر: الآيات من (٣٥ ـ ٤١) مِنْ سُورَة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول):

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ حِكَايَةً لِبَعْضِ دُعَاءِ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَام:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ

ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾.

النصّ العشرون: الآيات من (٥١ ـ ٦٠) من سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

قال اللهُ عَزَّ وَجلَّ خِطاباً لِرَسُوله ﷺ:

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

النصّ الحادي والعشرون: الآيات من (١٢٠ ـ ١٢٣) من سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

قال الله عَزَّ وَجلَّ:

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾.

النصّ الثاني والعشرون: الآيات مِنْ (٤١ ـ ٥٠) من سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول):

قال الله عزَّ وَجلَّ:

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴿٤٧﴾ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلًّا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا ﴿٥٠﴾﴾.

النصّ الثالث والعشرون: الآية (٥٨) من سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول):

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ بَعْدَ ذِكْرِ عَدَدٍ مِن الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلام:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا۩ ﴿٥٨﴾﴾.

النصّ الرابع والعشرون: الآيات من (٥١ ـ ٧٣) من سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ

وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

النّصّ الخامس والعشرون: الآيتانِ (٢٦ و٢٧) من سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

قال الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾.

النّصّ السّادس والعشرون: الآيتان (٤٢ و٤٣) من سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ خطاباً لِرَسُولِهِ ﷺ:

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾﴾.

النصّ السَّابع والْعِشْرونَ: الآية (٧٨) من سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

قال الله عَزَّ وَجَلَّ خطاباً للَّذِينَ آمَنُوا:

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ۖ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾.

النص الثامن والعشرون: الآيات من (٦٩ ـ ٨٩) من سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

قال الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾.

النَّصُّ التاسِع والعشرون: الآيتان (١٦ و١٧) من سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾.

النصّ الثلاثون: الآيتان (٣١ و٣٢) من سورة (الْعَنْكَبُوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

النصّ الحادي والثلاثون: الآية (٧) من سورة (الْأَحْزَاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول):

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ خطاباً لرسوله محمدٍ ﷺ:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾.

النصّ الثاني والثلاثون: الآيات من (٨٣ ـ ١١٣) من سورة (الصَّافَّات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عقِبَ بَيَانٍ مُوجَزٍ جدًّا عَنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَام:

﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ

مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾.

النّصّ الثالث والثلاثون: الآيات من (٤٥ ـ ٤٧) من سورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول):

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾.

النَّصُّ الرابع والثلاثون: الآية (١٣) من سورة (الشُّورى/٤٢ مصحف/٦٢ نزول):

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾.

النصّ الخامس والثلاثون: الآيات من (٢٦ ـ ٢٨) من سورة (الزُّخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نُزول):

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨)﴾.

النصّ السادس والثلاثون: الآيات من (٢٤ ـ ٣٤) من سورة (الذّارِيات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول):

قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ (٣٠) ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ (٣٣) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤)﴾.

النصّ السابع والثلاثون: الآيات من (٣٦ ـ ٤٢) من سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول):

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأنِ الكافِرِ الَّذي تَوَلَّىٰ وأَعْطَىٰ قَليلاً وأَكْدَىٰ:

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ (٣٦) وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ (٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ (٤١) وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ (٤٢)﴾.

النصّ الثامن والثلاثون: الآية (٢٦) من سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول):

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

النصّ التاسع والثلاثون: الآيات من (٤ ـ ٦) من سورة (الممتَحنَة/ ٦٠ مصحف/ ٩١ نزول):

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ خِطَاباً لِلَّذِينَ آمَنُوا برسالَة محمّد ﷺ:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾﴾.

النص الأَرْبَعُون: الآيتان (١٨ و١٩) من سورة (الأعلى/ ٨٧ مصحف/ ٨ نزول):

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ تَعْقِيباً عَلَىٰ آيات جاءتْ في السورة:

﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾.



ثانياً: موجز تاريخي عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام عِنْد المؤرّخين:

(١) ولادة إبراهيم عليه السلام ونَشْأته:

وُلدَ إِبْرَاهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ في مدينة «أُور الكلْدَانِيِّينَ» كما ذكر كاتبو «قاموس الكتاب المقدس».

ومكان «أور» الْيوم خرائِبُ تُدْعَىٰ «المغبَّر» في مُنْتَصف المسَافَةِ بَيْنَ «بغداد» وبين «الخليج الْعَربي»، ويقالُ لَهُ عِنْدَ غَيْرِ الْمُسْلِمِين «الخليج الفارسي»، وهي على مَسافة (١٠) أميال، شَرْقي مَجْرَىٰ نَهْرِ الْفُرَاتِ في عَصْرِنا.

وقَدْ دَلَّتِ الكُشُوفُ الحديثَة على أَنَّ مَدِينَة «أور» مُؤَسَّسَةٌ مِنْ قَبْلِ مِيلَادِ إبراهيم ونَشْأَتِهِ فيها بَنحْوِ أَلْفِ سَنَةٍ أَوْ أَكْثر، وأَنَّهَا كانَتْ مَرْكَزاً لِمَدِنيَّةٍ رَاقِيَةٍ بِحَسَبِ مُسْتَوَىٰ المدُنِ فِي ذَلِكَ الزَّمَنِ القديم.

وقَدِ امْتَدَّ سُلْطَانُ دَوْلَةِ مَدِينَةِ «أُور» قَدِيماً حَتَّىٰ شَمَلَتَ مُعْظَم أَرْضِ مَا بَيْنَ النَّهْرَين، وأَنَّهَا كانَتْ مَرْكَزاً كَبِيراً للتجارة.

(٢) قَوْمُ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام كانُوا مِنَ الصَّابِئِينَ الَّذِينَ دخل إليهم شِرْكُ عِبَادَةِ النجوم:

جَاءَ عِنْدَ مُؤَرِّخِي أَدْيَانِ الأُمَم؛ أَنّ قَوْمَ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلام كانُوا مِنَ الصَّابِئين، الّذِين كَانُوا يَتَوَهَّمُونَ أَنَّ بَعْضَ الكواكبِ لَهَا تَأْثِيرُ رُبُوبِيَّةٍ فِي أَحْدَاثِ الأَرْضِ، فيتَّخِذُونَ أَصْناماً عَلَىٰ هَيْئَاتٍ يَتَخيَّلُونَها لها.

وَكَانَ مِنْ أَوْثَانِهِمْ الْوَثَنُ «نَانَار» = «إلَه الْقَمَر»، وزَوْجَتُهُ «ننجال»، وَكَانَتْ لَهُمْ آلِهَةٌ كَثِيرَةٌ يَعْبُدُونها.

وبَقِيَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُجَاهِدُ في الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ ونَبْذِ الشِّرْكِ فِيما بَيْنَ النَّهْرَينِ، حتَّىٰ بَلَغَ عُمْرُهُ قُرَابَة (٧٥) عَاماً.

(٣) زواجه:

تَزَوَّج إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام من «سَارَة» وكانت ذَاتَ حُسْنٍ، إِلَّا أَنَّها بَقِيَتْ عقيماً حَتَّىٰ صَارَتْ عَجُوزاً، ثم وهبها اللهُ إسحاق عَلَيْهِ السَّلام، وَهِيَ

مع زَوْجِهَا مُهَاجِرَيْن إلى أَرْضِ الكَنْعَانِيين مِنْ بِلَادِ الشَّام، وكان عُمْرُ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام (١٠٠) سنَة، وكانَ عُمْر «سَارَة» (٩٠) سَنَة، وتحقَّقَ حَمْلُها وَوِلَادَتُهَا بخارِقٍ للْعَادَةِ، اسْتِجَابَةً لِدُعَاءِ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام.

وكَانَ قَدْ وُلِدَ لَهُ «إسْمَاعِيلُ» عَلَيْهِ السَّلَام مِنْ «هَاجَرَ» المصْرِيَّة، الْأَمَةِ الَّتِي وَهَبَتْهَا لَهُ «سَارَةُ»، عَسَىٰ أَنْ يُنْجِبَ مِنْهَا وَلَداً يَكُونُ عِوَضاً عَمَّا حُرِمَتْ مِنَ الْأَوْلَادِ بِسَبَبِ عُقْمِهَا، وقَدْ صَارَتْ عَجُوزاً.

(٤) هِجْرَةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام مِنْ أَرْضِ مَا بَيْنَ النَّهْرَيْن:

بَعْدَ جهادٍ طَوِيلٍ في الدَّعْوَةِ إلى دِينِ اللهِ الحقّ فيما بَيْنَ النَّهْرَيْنَ، وبَعْدَ تَوَالي أَحْدَاثٍ عظيمَة جَرَتْ لَهُ مع قَوْمِهِ وَمَلِكِهِمْ؛ هَاجَرَ مُتَوجّهاً إِلَىٰ أَرْضِ الكَنْعَانِيين في بِلَادِ الشَّامِ (= فلسطين) بِتَوْجِيهٍ مِنَ اللهِ، فَنَزَلَ في «حَارَان» وَكَانَ مَعَهُ فِي هجْرَتِهِ زَوْجَتُهُ «سارة» وأَبُوه، وابْنُ أخِيهِ «لُوطٌ» مُؤْمِناً بِهِ، وَغَيْرُهُمْ، وأَقَام في «حَارَانَ» مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ، وفِيها مَاتَ أَبُوه «آزر» كافِراً علَىٰ مَذْهَبِ قَوْمه المشْرِكِين.

ثُمَّ رَحَلَ مَعَ مَنْ مَعَهُ إلى أَرْضِ الكَنْعَانِيينَ بِتَوْجِيهِ مِن اللهِ الحكيم الْعَلِيم، وأَقَامَ أَوّلاً في: «شَكِيم = نَابلس».

ثُمَّ رَحَلَ إلى مِصْرَ مع زَوْجَتِهِ «سَارَة» وَكَانَ ذَلِكَ فِي عَهْدِ مُلُوكِ الرُّعَاة، وهُمُ الْعَمَالِيق، ويُسَمِّيهِمُ الرُّومان «هِكْسُوس».

قالوا: واسْمُ فِرْعَوْن مصر حينئذٍ «سِنَانُ بن عُلْوان»، وقيل: اسمَهُ: «طُوليس»، واللهُ أعلم.

وَقَدْ حَاوَلَ فِرْعَوْنُ مِصْرَ أَنْ يُعَاشِر «سَارَة» معاشرة الزَّوْجَاتِ، فَعَصَمَهَا اللهُ عَزَّ وَجلَّ بدُعَاءِ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام ودُعَائِها، إِذْ كَانَ كُلَّمَا اقْتَرَبَ مِنْهَا تَيَبَّسَتْ أَعْضَاؤه ولَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَفْعَلَ شَيْئاً، فَقَالَ لِلَّذِينَ جَاءُوا

بِهَا إِلَيْهِ: لَقَدْ جِئْتُمُونِي بِشَيْطَانَةٍ لَا بِإِنْسَانَة، قَالوا وأَعْطَاهَا هَدَايا، وَمَنَحها جارِيَةً مَصْرِيَّةً خَادِمَةً لها اسْمُها «هَاجَر» = «آجَر».

وبَعْدَ أَنْ يَئِسَتْ «سَارةُ» مِنَ الْوَلَدِ، وصَارَتْ عَجُوزاً؛ وَهَبَتْ زوْجَهَا «هَاجَر» لِيُنْجِبَ مِنْهَا وَلَداً، فَأَنْجبَ «إسماعيل» عَلَيْهِ السَّلَام، فاشْتَدَّتْ غَيْرَةُ «سَارة» فَطَلَبَتْ مِنْ «إبراهيم» عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ أَنْ يُبْعِدَ «هاجَرَ» وَوَلَدَهَا «إسْماعِيل» عَلَيْهِ السَّلَام عَنْ كُلِّ الأَرْضِ الَّتِي هُمْ فِيها في فلسْطِين، فأوْحَىٰ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ أن يَأْخُذَهُمَا إِلَىٰ وادِي مَكَّة الْبَلَدِ الْحَرام، لِتَأْسِيسِ شَعْبٍ مُؤْمِنٍ مُسْلِمٍ فِيهِ مِنْ وَلَدِهِ «إسْمَاعِيل» عَلَيْهِ السَّلام، فَرَحَلَ بِهِمَا إِلَىٰ وَادِي مَكَّةَ، وَتَرَكَهُمَا فِيهِ، عَلَىٰ مَا جَاءَ فِي بَيَانِ الرَّسُولِ ﷺ، الَّذِي سَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللهُ ذِكْرُه.

وَصَارَ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يَزُورُ وَلَدَهُ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَام آناً ثُمَّ آناً، يَتفَقَّدُ أَحْواله، واخْتَتَنَ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلام وهو ابْنُ ثَمانِينَ سَنَةً بالْقَدُومِ.

(٥) وَجاء في الإصْحَاح (٢٥) من سفر التكوين عند أهل الكتاب؛ أَنَّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام تَزَوَّجَ بَعْدَ وَفَاةِ «سَارَة» زَوْجَةً اسْمُها «قَطُورَة»، فَوَلَدَت لَهُ (٦) أولاد، هم: «زَمْرَان، وَيَقْشَان، وَمدَان، وَيَشْبَاق، وشُوحا، ومَدْيَان».

وإِلى مَدْيَان هذا «وهو مَدْيَنُ ابْنُ إبراهيم «عَلَيْهِ السَّلَام» يُنْسَبُ «أَهْلُ مَدْيَنَ» الَّذِين أَرْسَلَ اللهُ إليهم «شُعَيْباً» عَلَيْهِ السَّلَام.

(٦) وَلَمَّا بَلَغَ عمْرُ «إبراهيم» عَلَيْهِ السَّلَام (١٧٥) سنة خَتَمَ اللهُ حَيَاتَهُ في أَرْضِ فلسطين، ودُفِنَ في مَدِينَةِ الْخَلِيل «= حَبْرُوْنَ»، وَكَانَ اسْمُهَا فِي الْأَصْلِ «قَرْية أَرْبع»، في المغارَةِ المقام عليها الآن مَقَام الْخَلِيلِ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَام، وتُعْرَفُ بِمَغَارَةِ الأَنْبِيَاء.

❁ ❁ ❁

ثالثاً: الدِّرَاسَة التَّكَامُلِيَّة للنُّصُوصِ القرآنِيّة الَّتِي جاء فيها ذِكْرُ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام ويُمْكِنُ تَقْسِيمُها إلى اثْنَيْ عشر فَصْلاً:

الفصْلُ الأَوّل

كان إبراهيم عَلَيهِ السَّلاَم قبل نُبُوَّتِهِ مِن شِيعَةِ نُوحٍ عَلَيهِ السَّلاَم

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (الصَّافَّات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾﴾:

الشيعة: كُلُّ قَوْمٍ أَوْ جَمَاعَةٍ من النَّاسِ لَهُمْ أَمْرٌ واحِدٌ هُمْ مُتَّفِقُون عَلَيْهِ، أَوْ لَهُمْ مَذْهَبٌ واحِدٌ يَسِيرُونَ عَلَيْهِ، أَو لَهُمْ مِلَّةٌ واحِدَةٌ يُؤْمِنُونَ بِها ويَتَّبِعُونَ أَحْكَامَهَا، وَلَوْ لَمْ يَكُونُوا فِي زَمَنٍ واحِدٍ.

دلَّ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في هـٰذَا النَّصِّ: ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾﴾:

أي: مِنْ شِيعَةِ نُوح عَلَيْهِمَا السلام عَلَىٰ أَنَّهُ مَا زَالَتْ أُصُولُ الدِّينِ الّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَىٰ نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَوْجُودَةً لَدَىٰ بَعْضِ النَّاسِ، وَكَذَٰلِكَ بَعْضُ الْعِبَادَاتِ كالصَّلَاةِ، وَبَعْضُ الْأَخْلَاقِ كالصِّدْقِ والْأَمَانَةِ، وَبَعْضُ أنواعِ السُّلُوكِ الاجْتِمَاعِيّ والْآدَابِ، وَقَدْ تَلَقَّاهَا إِبراهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ بِهَا، فَآمَنَ بِهَا والْتَزَمَهَا، فَكَانَ بِذَلِكَ مِنْ شِيعَةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَام، وأَتْبَاعِ مِلَّتِهِ قَبْلَ أَنْ يَصْطَفِيَهُ اللهُ لِلنُّبُوَّة، فَلَمْ يَتَّبِعْ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ شِرْكِيَّاتِ قَوْمِهِ مُنْذُ نَشْأَتِهِ.

وكانَتْ أَسَالِيبُ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلام الْجَدَلِيَّةُ مَعَ قَوْمِهِ مِنْ نَوْعِ مجارَاةِ قَوْمِهِ مُجَارَاةً ظَاهِرَةً، لِيَنْتَقِلَ مِنْهَا إلى نَقْضِ عَقَائِدِهِم الشِّرْكِيَّة بالْحُجَجِ

الدامِغَة، وإبْطَالِ اعْتِقَادِهِمْ في رُبُوبِيَّةِ بَعْضِ النُّجُومِ وإِلَهِيَّتِهَا، وإبْطَالِ عبَادَاتِهِمْ لَهَا ولِلْأَوْثَانِ مُطْلقاً.

الفصل الثاني
اجتِبَاءُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ إبراهيم عَلَيهِ السَّلَام للنُّبُوَّةِ والرِّسَالة

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في سُورة (النحل/١٦ مصحف/٧٠ نزول):

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾.

وبَعْدَ هـٰذَا خَاطَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في السّورَةِ رَسُولَهُ محمّداً ﷺ بِقَولِهِ:

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾.

وَصَفَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَام في هـٰذَا النَّصِّ بِتِسْعِ صِفَاتٍ:

الصِّفَةُ الْأُولى: أَنَّهُ كَانَ أُمَّةً وحْدَه، إِذْ لَمْ يَكُنْ عَلَىٰ الدِّينِ الْحَقِّ فِي أَوَّلِ نَشْأَتِهِ غَيْرُهُ، فَحَمَلَ عَبْءَ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ التوحِيدِ، ونَبْذِ الْوَثَنِيَّةِ وَحْدَه.

الأُمَّة: تُطْلَقُ في الاسْتِعْمَالِ القرآنِيِّ عَلَىٰ كُلِّ مَجْمُوعَةٍ تَجْمَعُها صِفَاتٌ، أَوْ خَصَائِصُ، أَوْ رَوابِطُ مُتَمَيِّزَةٌ، وَقَدْ يُطْلَقُ على الْفَرْدِ الواحِدِ المتَمَيِّزِ بِصِفَاتٍ لَا يُشَارِكُهُ فِيهَا غَيْرُهُ لفظ «أُمَّة».

الصِّفَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ كَانَ قانِتاً للهِ، أي: عَابداً للهِ، مُطِيعاً خاضِعاً لَهُ، يَذِلُّ لَهُ فِي عِبادَتِهِ.

الصِّفَةُ الثالثة: أَنَّهُ كَانَ حَنِيفاً، أي: كَانَ مَائِلاً عَنْ كُلِّ الْأَدْيَانِ البـاطِلَةِ، الـمـنْـحَـرِفَـةِ عَـنْ صِـرَاطِ الْـحَـقِّ والْـهُـدَىٰ، وهـٰذَا لَا يَكُونُ إِلَّا بالاسْتِقَامَةِ على دِينِ اللهِ الحقِّ ذي الصِّرَاطِ المسْتَقِيم، لِأَنَّ الْأَدْيَانَ والْمِلَلَ

الْبَاطِلَةَ مائِلَةٌ عَنْهُ إِلَىٰ جِهاتٍ مُخْتَلِفَاتٍ، مَائِلَاتِ السَّاحَاتِ اللَّوَاتِي لَيْسَتْ على الصِّرَاطِ المسْتَقِيم.

الصِّفَة الرابِعَة: أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنَ المشْرِكِين، فَقَدْ كَانَ لَا يُشْرِكُ باللهِ أَرْبَاباً، وَلَا آلِهَةً، وَلَا أَسْبَاباً، مُنْذُ نَشْأَتِهِ، بَلْ كَانَ يُؤْمِنُ بأنَّ كُلَّ شيءٍ في الوجود مَحْكُومٌ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّةِ اللهِ لَهُ، إيجاداً، وإعداماً، وتَصارِيفَ، وتغييراتٍ، وحَرَكَاتٍ، وسَكَنَاتٍ.

الصِّفة الخامسة: أَنَّهُ كَانَ شَاكِراً لِأَنْعُمِ اللهِ عَلَيْهِ، قَائماً على مِقْدَارِ اسْتِطَاعَتِهِ الْبَشَرِيَّةِ، بِمَا يُطْلَبُ مِنْهُ أَنْ يكونَ شاكراً لَهُ وُجُوباً أو نَدْباً.

الشُّكْرُ: مُقَابَلَةُ إِنْعَامِ المنْعِم بمَا يُرْضِيهِ من اعْتِقَادٍ، أَوْ عَمَلٍ ظاهِرٍ أَوْ بَاطِنٍ، أَوْ قَوْلٍ، فَيَدْخُلُ في الشُّكْرِ: الحمْدُ اللِّسَانِيُّ.

الصِّفَة السادسة: أنّ الله اجْتَبَاهُ، أي: اخْتَارَهُ واصْطَفَاهُ مِنْ عباده، فَجَعَلَهُ نَبِيًّا يُوحَىٰ إِلَيْهِ، ثُمَّ جَعَلَهُ رَسُولاً مُكَلّفاً أَنْ يُبَلِّغَ النَّاس عَنْ رَبِّهِ مَا أَوْحَىٰ بِهِ إِلَيْهِ.

الصِّفَةُ السابِعَة: أَنَّ اللهَ هَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيم، فَعَلَّمَهُ عَنْ طَرِيقِ الوحي صِرَاطَهُ المستقيم، وهو مَا اشْتَمَلَ عَلَىٰ الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ لِعِبَادِهِ فِي رِحْلَةِ الامْتِحَانِ في الحياة الدُّنيا، وهُو الصِّرَاطُ الْمُوصِلُ سَالِكِيهِ إِلَىٰ جَنَّاتِ النَّعِيم يَوْمَ الدِّين.

الصِّفَةُ الثَّامِنَة: أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ آتَاهُ في الحياة الدُّنْيا حَسَنَةً، أي: عَطَايَا حَسَنَةً، فَنَصَرَهُ عَلَىٰ نمرودِ الْعِرَاق، واخْتَارَ لَهُ مُهاجَراً حَسَناً في بلادِ الشَّامِ الَّتِي بَارَكَ اللهُ فيها، وَمَنَحَهُ مَعِيشَةً حَسَنَةً بِصِحَّةٍ وَسَلَامَةٍ وَغِنًى واسِعٍ مِنَ المواشِي، مع عُمْرٍ مَدِيدٍ وَقُوَّةٍ، وذِكْرٍ حَسَنٍ بَيْنَ النَّاسِ، وطُمَأْنِينَةِ قَلْبٍ ورضاً كامِلٍ عَنْ رَبِّهِ.

الصِّفَة التاسِعَة: أَنَّ اللهَ حَكَم لَهُ وَهُوَ فِي الدُّنْيَا بِأَنَّهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ زُمْرَةِ الصَّالحين.

الصَّالِحُ: هُوَ الْخالِي مِن الْفَسَادِ الْكُلِّيِّ والْجُزْئي.

الفصل الثالث

ابتِلاءُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ إبراهِيم عَلَيهِ السّلَام بتكاليفَ إعداداً لَهُ لِحَملِ رِسالَتِهِ

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في سُورَة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾:

أي: وَضعْ في ذَاكِرَتِكَ أَيُّهَا المتَلَقِّي لكَلَام رَبِّك؛ أَنَّ حِكْمَتَهُ قَضتْ بأَنْ يَمْتَحِنَ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام بِكَلِمَاتٍ، تَتَضَمَّنُ تَكَالِيفَ تَكْشِفُ أَهْلِيَّتَهُ لِأَنْ يَكُونَ إِمَاماً لِلنَّاسِ، فَأَدَّىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ التَّكَالِيفُ الرَّبَّانِيَّةُ لَهُ، أَدَاءً تَامًّا غَيْرَ مَنْقُوص.

وَإِذِ اجْتَازَ الامْتِحَانَ بِنَجَاحٍ تَامٍّ نَالَ فِيهِ الدَّرجَةَ العظْمَىٰ؛ قَالَ اللهُ لَهُ: إِنِّي جَاعِلُكَ للنَّاسِ ـ مِنْ بَعْدِكَ ـ إِمَاماً، فَكَانَ إماماً لِلْأَنْبِيَاءِ والْمُرْسَلِينَ عَلَيْهِم السَّلَام مِنْ بَعْدِهِ، وَظَهرَ هـٰذَا فِي رِسَالَةِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَقَدْ أَمَرَهُ اللهُ بِأَنْ يَتَّبعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام حَنيفاً، وأَمَرَ المؤمِنِينَ في الإِسْلَام بِذَلِكَ، وَأَبَانَ لَهُمْ أَنَّ الدِّينَ الَّذِي أُمِرُوا باتّباعِهِ هُوَ مِلَّةُ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَام وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي سَمَّاهُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ.

الإمَامُ: مَا يُؤْتَمُّ بِهِ، ومَنْ يُؤْتَمُّ بِهِ، أي: يُتَّبَعُ.

قال إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾؟، أَيْ: هَلْ يَكُونُ مِنْهُمْ إِمَامٌ.

فقال اللهُ لَهُ: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: سَيَكُونُ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ أَئِمَّة، وَلَكِنَّ عَهْدَ اللهِ لَكَ بِهـٰذَا لَا يَصِلُ الظَّالِمِينَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ مِنْهُ شَيْءٌ، إِذْ سَيَكُونُ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ مُسْلِمُونَ وَظَالِمُونَ، والظَالِمُونَ غَيْرُ مُؤَهَّلِين لِلْإِمَامَة.

يَقَالُ لغة: «نَالَ فُلَانٌ فُلَاناً الْعَطِيَّةَ» أي: أَعْطَاهُ إِيَّاهَا.

يُعَلِّمُنَا اللهُ عَزَّ وَجلَّ بِهٰذَا الْبَيَانِ أَنَّ اخْتِيَارَ إِنْسَانٍ مَا لِأَنْ يَكُونَ إِمَاماً لِلنَّاس، يَجِبُ أَنْ يُسْبَقَ باخْتِبَارٍ كَاشِفٍ، يَكْشِفُ أَهْلِيَّتَهُ لِأَنْ يَكُونَ إِمَاماً لِلنَّاسِ، فِي الموضُوعِ الَّذِي يُخْتَارُ لِأَنْ يَكُونَ فِيهِ إِمَاماً.

فاللهُ الْعَلِيمُ الْحَكِيم، الخبيرُ بِنُفُوسِ عِبادِهِ، إِذْ هُوَ خَالِقُهُمْ، والمطّلِعُ دَواماً عَلَىٰ كُلِّ أَعْمَالِهِمُ الظَّاهِرَةِ والْبَاطِنَةِ، وَلَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنْ سَرَائِرِهِمْ خَافِيَةٌ؛ قَدِ اخْتَبَرَ عَبْدَهُ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بِكَلِمَاتٍ تَتَضَمَّنُ تَكَالِيفَ خاصَّةً، وَهٰذِهِ التَّكَالِيفُ كواشِفُ، فإِذَا أَتَمَّهُنَّ بِأَنْ أَدَّىٰ التَّكَالِيفَ بِنَجَاحٍ تَامٍّ؛ اسْتَحقَّ أَنْ يَكُونَ إِمَاماً لِلنَّاسِ، إِذَا اخْتَارَهُ اللهِ لِهٰذِهِ الإِمَامَة.

وَحِينَ سَأَلَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام عَنْ ذُرِّيَّتِهِ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ لَهُ: هٰذَا الْعَهْدُ الَّذِي جَعَلْتُكَ بِهِ إِمَاماً للنَّاسِ لَا أُعْطِيهِ للظَّالِمِينَ مِن ذُرِّيَّتِكَ.

الفصل الرابع
مَرَاحِلُ دَعوَةِ إبراهيم عَلَيهِ السَّلامُ إلَى دِينِ اللهِ الحَقِّ في قَومِهِ

(١) مَرْحَلَةٌ من مَرَاحِلِ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام الدَّعَوِية:

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾:

الرُّشْدُ: السُّلُوكُ الْفِكْرِيُّ والنَّفْسِيُّ والْخُلُقِيُّ والْعَمَلِيُّ الموافِقُ لِلْحَقِّ والصَّوَاب، أو لما هُوَ الْأَفْضَلُ والْأَحْسَنُ والْأَكْثَرُ نَفعاً، والْأَبْعَدُ عَنِ الضَّرر.

أي: وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام رُشْدَهُ من قَبْلِ إرْسَال مُحَمّدٍ ﷺ وإِنْزَالِ القرآنِ عَلَيْه.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾

قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾:

• ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ﴾؟ أي: مَا حَقِيقَةُ هَـٰذِهِ الأَصْنَام والأَوْثَانِ الَّتِي تَنْحِتُونَهَا مِنَ الْحِجَارَةِ، أَوْ تَصْنَعُونَهَا مِنْ غَيْرِ الحجارَةِ، حَتَّىٰ تَسْتَحِقَّ مِنْكُمْ أَنْ تَعْبُدوهَا بِأَلْوَانٍ مِنَ الْعِبَادَاتِ، كالملازمَةِ، والطَّوافِ، والدُّعَاءِ، والرّكوعِ، وتقديمِ القرابين.

• ﴿ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾: أي: الَّتِي أَنْتُمْ لِأَجْلِ عِبَادَتِهَا مُقِيمُونَ عِنْدَهَا ومُلَازِمُونَ الْمَكَانَ الَّذِي تَضَعُونَهَا فِيهِ.

يُقَالُ لغة: «عَكَفَ فِي المكانِ يَعْكُفُ، ويَعْكِفُ، عَكْفاً، وعُكُوفاً» أي: أَقَامَ فِيهِ ولَزِمَهُ. وقَدْ صَارَ الْعُكُوفُ شَكْلاً مِنْ أشْكَالِ الْعِبَادَةِ للهِ أَوْ لِغَيْرِهِ، وَلَا يُشْتَرَطُ في الْعُكُوفِ أَنْ يَكُونَ لِلْعِبَادَةِ، بَلْ قَدْ يَكُونُ لِحَاجَاتٍ فِي النَّفْسِ، كالاسْتِئْنَاسِ والرَّاحَةِ والاسْتِمْتَاعِ بالجمال.

• ﴿قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾: أي: قَالُوا: نَحْنُ نَعْبُدُهَا بِهـٰذَا الْعُكُوفِ تَقْلِيداً لِآبَائِنَا، إِذْ وَجَدْنَاهُمْ لَهَا عَابِدِينَ.

• ﴿قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٥٤﴾﴾: أي: قَالَ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ الَّذِينَ أَجْرَىٰ هـٰذَا الْحِوَارَ مَعَهُمْ: لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ بِعِبَادَتِكُمْ لِهـٰذِهِ التَّمَاثِيلِ، وَكَانَ آبَاؤُكُمْ مِنْ قَبْلِكُمْ بِعِبَادَتِهَا؛ فِي ضَيَاعٍ عَنْ صِرَاطِ الحقِّ والْخَيْرِ والْهُدَىٰ، وَاضِحٍ جَلِيٍّ، فَلَيْسَ لِهـٰذِهِ التماثيل رُبُوبِيَّةٌ وَلَا إِلَهِيَّة.

فَدَهِش أبُوهُ وَقَوْمُهُ مِنْ مُوَاجَهَتِهِ لَهُمْ بِحَزْمٍ وَثِقَةٍ مِمَّا قَالَ لَهُمْ، إِذْ وَصَفَهُمْ بِأَنَّهُمْ مُنْغَمِسُونَ فِي ضَلَالٍ وَضَيَاعٍ عَنْ صِرَاطِ الْحَقِّ والْخَيْرِ والْهُدَىٰ، وهـٰذَا الضَّلَالُ مُبِينٌ، أي: جَلِيٌّ وَوَاضِحٌ.

• ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾﴾: أي: قَالُوا لَه:

يَا إبْرَاهِيمُ أَأَنْتَ جَادٌّ فِيمَا قُلْتَ، أَمْ قُلْتَ مَا قُلْتَ عَلَىٰ سَبِيلِ الْمُزَاحِ، تُرِيدُ أَنْ تَلْعَبَ بِأَعْصَابِنَا وَتَسْتَثِيرَنَا؟، أَجِئْتَنَا بالْحَقِّ الَّذِي تُؤْمِنُ بِهِ؟.

• ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾: أي: قَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُمْ: أنا لَست مِنَ اللَّاعِبِينَ، بَلْ أَنَا جَادٌّ، وَقَدْ جِئْتُكُمْ بالْحَقِّ، فَرَبُّكُمُ الَّذِي يَرْزُقُكُمْ وَيُهَيْمِنُ عَلَيْكُمْ، وَيُجْرِي تَصَارِيفَهُ فِيكُمْ بِصِفَاتِ رُبُوبِيّتِهِ، وَيُؤْتِيكُمْ مِمَّا تَسْأَلُونَهُ؛ هُوَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، المتَصَرِّفُ دواماً فِيهِمَا بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ والْمُهَيْمِنُ دَواماً عَلَيْهِمَا، وَهُوَ الَّذِي خَلَقَهُمَا إبْدَاعاً وَفْقَ نِظَامِ الْفَطْرِ مِنَ الْبَاطِنِ، الَّذِي هُوَ فِي الحقيقَةِ خَلْقٌ مِنَ الْعَدَمِ، لِأَنَّ مَا بَعْدَ عُمْقِ بَاطِنِ كُلِّ شَيْءٍ هُوَ الْعَدَمُ لَا مَحالَة.

وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمُ الَّذِي قُلْتُهُ لَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ شُهُوداً فِكْرِيًّا مَقْرُوناً بالْحُجَجِ الْبُرْهَانِيَّة، وَمِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ الَّذِينَ يُعْلِنُونَ شَهَادَتَهُمْ بِهِ، شَهَادَةً باللِّسَانِ مُطَابِقَةً لِمَا فِي الْفُؤَادِ مِنْ إيمَانٍ رَاسِخ الْأَرْكَانِ، ثَابِتِ الْبُنْيَان.

وَأَضْمَرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ في نَفْسِهِ عَزْمَهُ الْمُوثَّقَ باليَمِينِ عَلَىٰ أَنْ يُحَطِّمَ أَصْنَامَهُمْ، انْتِصَاراً لِرَبِّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، كَمَا جَاءَ في الآيَةِ (٥٧) من سُورَةِ (الْأَنْبِيَاء).

❁ ❁ ❁

(٢) مَرْحَلَةٌ مِنْ مراحل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام الدَّعَوية:

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في سُورَةِ (الشُّعَرَاء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نُزُول) خطاباً لِرَسُولِهِ محمّد ﷺ يُعَلِّمُهُ أَنْ يَتْلُوَ على المشركين:

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ

أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾:

• ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾: أي: واتْلُ يَا مُحَمَّدُ عَلَىٰ مُشْرِكِي قَوْمِكَ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلام، إِذْ دَعَا قَوْمَهُ إِلَىٰ تَوْحِيدِ اللهِ في الرُّبُوبِيَّةِ والإِلَهِيَّة، وَإِلَىٰ نَبْذِ الأَوْثَانِ وَكُلِّ أَنْواعِ الشِّرْكِ، وَكُلِّ مُفْرزَاتِهِ في العَقَائِدِ والْمَفَاهِيم والسُّلوك، فَقَدْ كَانَتْ حَالَتُهُمْ تُشْبِهُ حَالَةَ مُشْرِكِي قَوْمِكَ، فَإِبْرَاهِيمُ والِدُ جَدِّهِمْ إسْمَاعِيلَ عَلَيْهِما السَّلَام، وَهُوَ الَّذِي أَعْلَمَهُ اللهُ بِمَكَانِ الكَعْبَةِ المشَرَّفَةِ، أَوَّلِ بَيْتٍ وُضِعَ للنَّاسِ، والَّتِي يَرْتَبِطُ بِهَا مَجْدُهُمْ بَيْنَ الْعَرب، وهُوَ الَّذِي بَنَاهَا مَعَ وَلَدِهِ إسْمَاعِيلَ عَلَيْهِما السَّلام.

وَبيِّنْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلام قَدْ كَانَ عَدُوّاً لِلأَوْثَانِ الَّتِي كَانَ قَوْمُهُ يَعْبُدُونها، وهَاجَرَ مُفَارِقاً لَهُمْ، وَقَدِمَ إِلَىٰ وادِي مَكَّةَ بِأَمْرِ اللهِ، وَتَرَكَ فِيهِ وَلَدَهُ إسماعِيلَ عَلَيْهِ السَّلام مَعَ أُمِّهِ هَاجَرَ، لِيُؤَسِّسَ أُمَّةً مُؤْمِنَةً بِتَوْحِيدِ الرَّبِّ، وبوَحْدَانِيَّتِهِ فِي إِلَهِيَّتِهِ، ثُمَّ أَقَامَ بِنَاءَ الكَعْبَةِ لِلتَّوْحِيدِ وَمُحَارَبَةِ الْوَثَنِيَّةِ بِكُلِّ أَشْكَالِهَا وَصُوَرِها.

تِلَاوَةُ القرآن: النُّطْقُ بِكَلِمَاتِهِ مع تَتَبُّعِ حُرُوفِهِ كما أَنْزَلَهُ اللهُ، فإِذَا كَانَ تَتَبُّعاً لِلْمَكْتُوبِ فَهِيَ قراءة.

• ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾﴾: أي: اتْلُ عَلَىٰ مُشْرِكِي

قَوْمِكَ قِصَّةَ إِبْراهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام حِينَ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ، مَا تَعْبُدُونَ؟.

بَدَأ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ دَعْوَتَهُ لِأَبِيهِ فَقَوْمِهِ بِسُؤَالِهِمْ عَمَّا يَعْبُدون، لِيَسْتَفْهِمَ مِنْهُمْ عَنْ حَقِيقَةِ الأَصْنَامِ الَّتِي يَعْبُدُونها، ولِيَعْرِفَ مَا يَعْتَقِدُونَ مِنْ صِفَاتٍ لَهَا تَسْتَحِقُّ عِنْدَهُمْ أَنْ تُعْبَدَ بِحَسَبِ مَفْهُومَاتِهِمْ، أَوْ لِيَكْشِفَ لَهُمْ جَهْلَهُمْ وَسَفَاهَتَهُمْ فِي عِبَادَتِها.

وَبَدْؤُهُ بِأَبِيهِ الْتِزامٌ مِنْهُ بِمَنْهَجِ الْحِكْمَةِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ، إِذْ تَقْتَضِي الْحِكْمَةُ الْبَدْءَ بالْأَقْرَبِينَ، فَمَنْ يَأْتِي بَعْدَهُمْ فِي الْقُرْبِ، حَتَّىٰ قَوْمِهِ، ثُمَّ مَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ الْأَقْوَامِ، الْأَقْرَبِ فَالْأَقْرَبِ.

• ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾؟؟: أي: مَا حَقِيقَةُ مَا تَعْبُدون، كَلِمَةُ «ما» اسْتفهامِيَّة يُسْتَفْهَمْ بِها عَنْ غَيْرِ ذِي الْعِلْم، ويُسْتَفْهَمُ بِهَا عَنْ صِفَاتِ ذِي الْعِلْمِ، وَمِنْ صِفَاتِهِ حَقِيقَةُ ذَاتِهِ وَمَاهِيَّتُها.

فَسَأَلَهُمْ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام عَنْ حَقِيقَة ذَاتِ الْأَصْنَامِ الَّتِي يَعْبُدُونها، وعَنِ الصِّفَاتِ الَّتِي تُؤَهِّلُهَا لِأَنْ تُعْبَدَ مِنْ دُونِ اللهِ.

• ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾﴾: أي: فَأَجَابُوهُ عَلَىٰ سُؤَالِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِبَيَانِ أَعْيَانِ ذَواتِ مَعْبُوداتِهِمْ، وَأَنَّهَا أَصْنَامٌ مَصْنُوعَةٌ مَنْحُوتَةٌ مِنْ حِجَارَةٍ، أو مِنْ جَامِدَاتٍ أُخْرَىٰ، وَهِيَ مُصَوَّرَةٌ بِصُوَرِ بَعْضِ النَّاسِ، أَوْ بَعْضِ الحَيَوَانَاتِ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ صُوَرٍ.

لَمْ يَفْهَمْ أَبو إِبْرَاهِيمَ ـ عَلَيْهِ السَّلَام ـ وَقَوْمُهُ أَنَّهُ يَسْأَلُهُمْ عَنْ حَقِيقَتِها، وعَنِ صِفَاتِهَا الَّتِي تُؤَهِّلُهَا لِأَنْ تُعْبَدَ، فَأَجَابُوهُ عَنْ ذَوَاتِها، وعَنْ نَوْعِ عبادَتِهِمْ لها. ومَعْلُومٌ أَنَّ عِبادَةَ الْأَصْنَامِ تَكُونُ بِتَقْدِيمِ القرابِينِ لها، أو الركوعِ والسُّجُودِ لها، أو الطَّوافِ حَوْلها، أو الْعُكُوفِ عَلَيْهَا، أو التَّمَسُّحِ بِها، أو سُؤالِها بالدُّعاء.

• ﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾: أي: فَنُدَاوِمُ عَلَىٰ عِبادَتِها بالْعُكُوفِ، وهو

مُلَازَمَةُ الْإِقَامَةِ عِنْدَها، مُقْبِلِينَ عَلَيْهَا إقْبال الْعَابِدِ عَلَىٰ الْمَعْبُود.

• ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾:

دلَّ هـٰذَا البيان علىٰ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ كَانَ يَعْلَمُ مِنْ حَالِ قَوْمِهِ أَنَّهُمْ يَعْبُدون أَصْنَامَهُمْ بالدُّعاء، وأَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ عِبادَتَهُمْ لَهَا تَجْلُبُ لَهُمْ نَفْعاً وَتَدْفَعُ عَنْهُمْ ضراً، فَطَرَحَ عَلَىٰ أَبِيهِ فَقَوْمِهِ سُؤَالَيْنِ:

السؤال الأول: هَلْ تَسْمَعُكُمْ أَصْنَامُكُمْ حِينَ تَدْعُونَهُمْ لِمَطَالِبِ حَيَاتِكُمْ، مِنْ رِزْقٍ، ونَصْرٍ، وَذُرِّيَّةٍ، وأَمْنٍ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ مَطَالِبِ الحياة.

السؤال الثاني: هَلْ تَنْفَعُكُمْ أَصْنَامُكُمْ فَتَعْبُدُونَهُمْ لِيُحَقِّقُوا لَكُمْ نَفْعاً؟.

هَلْ يَضُرُّونَكُمْ فَتَعْبُدُونَهُمْ لاسْتِرْضَائِهِمْ حَتَّىٰ لَا يَضُرُّوكُمْ؟. أَوْ هَلْ يَضُرُّونَ أَعْدَاءَكُمْ فَتَعْبُدُونَهُمْ لِإِنْزَالِ الضَّرَرِ بِهِمْ؟.

سُؤَالَانِ تَابَعَ بِهِما إِبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُنَاظَرَتَهُ لِقَوْمِهِ، الَّتِي بَدَأَهَا بالسُّؤَالِ الأَوَّل: مَا تَعْبُدُونَ؟.

هـٰذَا مَنْهَجٌ جَدَليٌّ حَكِيمٌ يُبَاشِرُ الْمَوْضُوعَ مِنْ أَقْرَبِ السُّبُل، ويَظْهَرُ أَنَّهُمْ عَجَزُوا عَنْ إِثْبَاتِ أَنَّ أَصْنَامَهُمْ تَسْمَعُ دُعَاءَهم، وَعَجَزُوا عَنْ إِثْبَاتِ أَنَّهَا تَجْلُبُ لَهُمْ نَفعاً أَوْ ضُرّاً، أَوْ تَدْفَعُ عَنْهُمْ ضُرّاً، فَأَجَابُوا بِمَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي الآيَةِ التَّالِيَة:

• ﴿قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾:

أي: لَا نَسْتَطِيعُ إِثْبَاتَ أَنَّهَا تَسْمَعُ دُعَاءَنا، وَلَا نَسْتَطِيعُ إِثْبَاتَ أَنَّهَا تَنْفَعُ أَوْ تَضُرُّ، بَلْ وَجَدْنَا آباءَنَا يَفْعَلُونَ مِثْلَ ذَلِكَ الْفِعْلِ الَّذِي نَفْعَلُهُ مِنْ عِبَادَاتٍ لها، فَنَحْنُ عَلَىٰ آثَارِ آبَائِنَا سَائِرُونَ، وَلَهُمْ مُقَلِّدُونَ.

وبِهـٰذَا كَشَفَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُمْ؛ أَنَّهُمْ على باطلٍ واضِحِ الْبُطْلَانِ، نظراً إِلَىٰ أَنَّ تَقْلِيدَ مَا كَانَ عَلَيْهِ آبَاؤُهُمْ لَا يَصْلُحُ لِأَنْ يَكُونَ دَلِيلاً

بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ، لاحْتِمَالِ أَنَّهُمْ كَانُوا جَاهِلِينَ، أَوْ كَانُوا عَلَىٰ ضَلَالَةٍ يَتَّبِعُونَ فِيها الْأَهْوَاءَ، أَوْ كَانُوا مُتَأَثِّرِينَ بِوَسَاوِسِ الشَّيَاطِينِ وَتَسْوِيلاتِهِمْ.

عِنْدئِذٍ رَأَىٰ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَنَّ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي المنَاظَرَةِ أَنْ يُعْلِنَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ، أَنَّ كُلَّ مَعْبُودَاتِهِمْ وَمَعْبُودَاتِ آبَائِهِمْ مِنْ دُونِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَعْدَاءٌ لَهُ، إِذْ لَيْسَ لَهَا شَيْءٌ مِنَ الصِّفَاتِ الَّتِي تُؤَهِّلُهَا لِأَنْ تُعْبَدَ مِنْ دُونِ اللهِ، وعِبَادَتُهَا عُدْوَانٌ عَلَىٰ حَقِّ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ في أَنْ لَا يُعْبَدَ شَيْءٌ وَلَا كَائِنٌ مَا مِنْ دُونِهِ، إِذْ لَا إِلَهَ بحَقٍّ إِلَّا هُوَ، فَهُوَ وَحْدَهُ رَبُّ كُلِّ شيءٍ سِوَاه.

فقال لهم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في المناظَرَة، مَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

أي: أَتَفَكَّرْتُم تَفكُّراً سَلِيماً سَدِيداً، فَرَأَيْتُم بِعُقُولِكُمْ وَقُلُوبِكُمْ بُطْلَانَ مَا كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ، تَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَمَا زِلْتُمْ أَنْتُم تَعْبُدُونَهُمْ تَقْلِيداً لِآبَائِكُمْ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي، لِأَنَّهُمْ بَاطِلٌ لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الإلَهِيَّةِ وَصْفٌ مَا، وأَنَا أَعْتَبِرُ كُلَّ بَاطِلٍ عَدُواً لي، أَكْفُرُ بِهِ، وأُعَادِيهِ، وأُقَاتِلُهُ، ومِنَ اللَّازِمِ الْفِكْرِيِّ لِمُعَادَاةِ الباطِلِ، مُعَاداةُ أَنْصَارِهِ المؤمِنِينَ بِهِ، والدَّاعِينَ إِلَيْهِ.

ووصَفَ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ آبَاءَهُمْ بالْأَقْدَمِينَ، للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّ الْأَقْدَمِيَّةَ لَا تُعْطِي الْبَاطِلَ مَشْرُوعِيَّةَ الْبَقَاءِ، ولا تُكْسِبُهُ شَيْئاً مِنْ صِفَاتِ الحقّ، فالباطِلُ أَزَلاً بَاطِلٌ أبداً، والْبَاطِلُ لِذَاتِهِ فِيمَا مَضَىٰ، بَاطِلٌ دَواماً في الماضِي، والحاضِرِ، والمستقبل.

ولـمَّا كَانَ قَوْمُ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مُشْرِكِينَ، يَعْبُدُونَ أَصْنَامَهُمْ

ويُعْبُدُونَ أيضاً رَبَّ العالَمِينَ، كَانَ مِنَ الْوَاجِبِ أَنْ يَسْتَثْنِي فيقول:

﴿... إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾: أي: إِلَّا الْمَعْبُودَ المتَّصِفَ بأَنَّهُ رَبُّ العالَمِينَ.

وَقَدْ أبان عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ صِفَاتِ رُبُوبِيَّةِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِين، مَا جَاءَ في الآيَاتِ التاليات:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾:

فذكر إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ في هٰذَا مِنْ صِفَات رُبُوبِيَّة اللهِ رَبِّ العالَمِين، الَّتِي لَهُ بِها ارْتِبَاطٌ شَدِيدٌ فِي حَيَاتِهِ ثَمَانِي ظَواهِر:

الظَّاهِرَة الْأُولَى: أَنَّهُ خَلَقَهُ، إِذْ لَمْ يَكُنْ قَبْلَ خَلْقِهِ لَهُ شيئاً مَذْكُوراً فقال عَلَيْهِ السَّلام: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى﴾: أي: الَّذي حدَّدَ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ فِيَّ، وابْتَدَعَنِي مِنَ الْعَدَم.

الْخَلْق يأتي في اللُّغَةِ بِمَعْنَيَيْنِ: **التقدير**، بإعْطاءِ الْأَشْيَاءِ مَقَادِيرَها؛ **والابتداع** على غَيْرِ مِثَالٍ سَبَق، والإيجاد من الْعَدَم. وهٰذَان المعْنَيَانِ مُرَادَانِ هُنَا.

الظَّاهِرَة الثانية: أَنَّ اللهَ رَبَّهُ يَهْدِيهِ لِتَنْفِيذِ الْأَعْمَالِ الْمُحَقِّقَةِ لِلْأَغْرَاضِ منها، وهَـٰذِهِ الْهِدَايَةُ تَشْمَلُ كُلَّ تَصَرُّفَاتِهِ الإرادِيَّة الْجَسَدِيّة والنَّفْسِيَّة، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ فَهُوَ يَهْدِينِ، ومِنْ هَـٰذِهِ الهدايَةِ هِدَايَةُ اللهِ الطِّفْلَ كَيْفَ يَرْضَعُ ثَدْيَ مُرْضِعَتِهِ، بَعْدَ أَنْ أَعْطَىٰ كُلَّ جُزْءٍ مِنْ فَمِهِ المقدارَ الحكيمَ الْمُلَائِمَ للرَّضَاع.

الظَّاهِرَة الثالِثَة: أَنَّ اللهَ رَبَّهُ هُوَ وَحْدَهُ الَّذِي يُطْعِمُهُ، فقالَ عَلَيْهِ

السَّلَامُ: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى﴾. فاللهُ هُوَ وَحْدَهُ الَّذِي يَخْلُقُ أَرْزَاقَ الْعِبَادِ، وَيَخْلُقُ وَسَائِلَهَا فِي كَوْنِهِ.

الظَّاهِرَة الرابعة: أَنَّ اللهَ رَبَّهُ هُو وَحْدَهُ الَّذِي يَسْقِيهِ الماء وأنواعَ شَرَابَاتٍ أُخرى، فقال عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿وَيَسْقِينِ﴾ عطفاً على: ﴿هُوَ يُطْعِمُنِى﴾ ومَعْلُومٌ أَنَّ رَبَّ العالَمِين هو الَّذِي خَلَقَ الماء وسائر أنواع الأَشْرِبَة.

الظَّاهِرَة الْخَامِسَة: أَنَّ اللهَ رَبَّهُ هُوَ الَّذِي يَشْفِيهِ إِذَا مَرِض، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾.

وقَدْ تَأَدَّبَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مع رَبِّهِ، فَلَمْ يَنْسُبْ إِلَيْهِ الْقَضَاءَ بالْمَرَضِ الَّذِي هُوَ مِنْ قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ لِيَبْلُوَ بِهِ عباده.

إِنَّ الشِّفَاءَ مِنْ عَوَارِضِ الأَمْرَاض، لَا يَكُونَ إِلَّا بِقَدَرٍ مِنَ اللهِ وقضاء، فإذا قَضَىٰ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بالشِّفَاء أَلْهَمَ الطَّبِيبَ الدَّوَاءَ الَّذِي جَعَلَهُ هُوَ جَلَّ جَلَالُهُ سَبباً للشِّفَاءِ.

الظَّاهِرَة السّادسة: إِنَّ اللهَ رَبَّهُ هُوَ الَّذِي يُمِيتُهُ حِينَ يَأْتِي الأَجَلُ المقدَّرُ لإِمَاتَتِهِ، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى﴾: عطفاً علىٰ: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾﴾: أي: وهو وَحْدَهُ الَّذِي يُمِيتُنِي.

إِنَّ الإِمَاتَةَ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ، إِذْ يَتَحَقَّقُ الْمَوْتُ بِفَصْلِ الرُّوحِ الَّتِي هِيَ مِنْ أَمْرِ اللهِ عَنِ النَّفْسِ الَّتِي فِيهَا طَبْعَةُ الْكَائِنِ الحيِّ، كَمَا تَكُونُ الحياة بِوَصْلِهَا بِالنَّفْسِ، وَكُلٌّ مِنَ الْوَصْلِ والْفَصْلِ إِنَّما يَكُونُ بِخَلْقِ اللهِ وفِعْله.

الظّاهِرَةُ السَّابِعة: أَنَّ اللهَ رَبَّهُ هُوَ وَحْدَهُ الَّذِي يُعِيدُهُ إِلَىٰ الْحَيَاةِ يَوْمَ بَعْثِ الْمَوْتَىٰ فِي الآخِرَة، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿ثُمَّ يُحْيِينِ﴾. أي: ويُحْيِي جَمِيعَ النَّاس، لِلْحِسَابِ، وَفَصْلِ الْقَضاء، وتَنْفِيذِ الجزاء، بالثواب، وبالْعِقَاب.

الظَّاهِرَة الثامِنَة: أَنَّ اللهَ رَبَّهُ هُوَ وَحْدَهُ الَّذِي يَطْمَعُ إبْرَاهيم في أنْ يَغْفِرَ لَهُ خَطِيئَتَهُ يَوْمَ الدِّين، فَلَا غَافِرَ لِذُنُوبِ من آمَنَ وأسْلَمَ إلَّا هُوَ جَلَّ جلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

مِنْ حِكْمَةِ إبراهيمَ الدَّعَوِيَّةِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ عَرَضَ عَقِيدَتَهُ الإيمانِيَّةَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ، لِيَسْتَثِيرَ فِيهِمُ الرَّغْبَةَ فِي مُنَاظَرَتِهِ بِشَأْنِها، وعِنْدَئِذٍ يُقَدِّمُ حُجَجَهُ الْبُرْهَانِيَّةَ حَوْلَ مَا يُبْدُونَهُ مِنْ شُكُوكٍ بِشَأْنِهَا.

وأتْبَعَ إبْرَاهيمُ عَلَيْهِ السَّلَام بَيَانَهُ لِمَا يُؤْمِنُ بِهِ بِشَأْنِ الْقَضَايَا الَّتِي عَرَضَهَا، بِدُعَاءٍ دَعَا بِهِ رَبَّهُ رَبَّ الْعَالَمِين، فَقَال:

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾:

عَنَاصِرُ هٰذَا الدُّعَاءِ تُؤَكِّدُ إيمانَ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام بِيَوْمِ الدِّينِ إيماناً لَا شَكَّ يُخَالِطُهُ، وَلَا شُبْهَةَ تُلامِسُه.

ودُعَاؤُهُ رَبَّهُ بهٰذَا الدُّعَاءِ أَمَامَ أَبِيهِ وَقَوْمِهِ، هو في الحقيقة مِنْ أُسْلُوبِ الدَّعْوَةِ غَيْرِ المباشِرَةِ إلَىٰ الإيمان بِمِثْلِ مَا يُؤْمِنُ هُوَ بِهِ.

وفي هٰذَا الدُّعَاء الذي دَعَا بِهِ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَام ستَّةُ مَطَالِب:

المطلب الأوّل: قولُهُ في دُعَائِهِ: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾:

الحكْمُ: فِقْهُ الأُمور، ومَعْرِفَةُ الْحَقِّ والْبَاطِلِ وحُدُودِ كُلٍّ مِنْهما، ومَعْرِفَةُ الْخَيْرِ والشَّرِّ وحُدُودِ كُلٍّ منهما، ومَعْرِفَةُ الحسَنِ والسِّيِّىءِ وَحُدُودِ كُلٍّ مِنْهُمَا، وَمَعْرِفَةُ الْجَمِيلِ والْقَبِيحِ في السُّلُوكِ الإرَادِيِّ وحُدُودِ كُلٍّ منهما.

وبِنَاءً عَلَىٰ فِقْهِ الأُمُورِ يُصْدِرُ مَنْ أُوتِيَ الْحُكْمَ أَحْكَامَهُ الْعِلْمِيَّةَ وأَحْكَامَهُ الْقَضَائِيَّةَ مُطَابِقَةً لِلْحَقِّ والْخَيْرِ والْفَضِيلَة.

ويَدْخُلُ فِي إيتائِهِ الحُكْمَ إيتَاؤُهُ الْقُدْرَةَ عَلَىٰ تَقْدِيم الْحُجَجِ الدامِغَةِ، والْبَرَاهِينِ الْقَاطِعَةِ لِجَدلِيَّاتِ الْمُبْطِلِينَ والمُرَاوِغِينَ، وَمُحَاصَرَتِهِمْ مِنْ كُلِّ مَهْرَبٍ فِكْرِي.

وقَدْ آتَىٰ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حُجَّتَهُ الدَّامِغَةَ لِقَوْمِهِ، أَهْلِ الْبَاطِلِ والشِّرْك، وَقَدْ ظَهَرَ هٰذَا فِي مُجادَلَته لِقَوْمِهِ ولِمَلِكِهِمْ نُمْرُود إِذْ بَهَتَهُ بِجَدَلِيَّاتِهِ له.

ولَمْ أَفْهَمْ مِنْ لَفْظِ «الْحُكْم» هُنَا مَعْنَىٰ النُّبُوَّةِ، لِأَنَّ سَوَابِقَ هٰذَا الدُّعَاءِ تُشْعِرُ بأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَدْعُو قَوْمَهُ إِلَىٰ دِينِ اللهِ الْحَقِّ، مِنْ مَوْقِعِ كَوْنِهِ نَبِيًّا وَرَسُولاً، عَلَىٰ أَنَّ النُّبُوَّةَ تَأْتِي اصْطِفَاءً مِنَ اللهِ وَلَا تَأْتِي بِطَلَبِ الْعَبْدِ لها.

الْهِبَة: الْعَطِيَّةُ الْخَالِيَةُ مِن الْأَعْوَاضِ والْأَغْرَاض.

المطلَبُ الثاني: قَوْلُ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام في دُعَائِهِ: ﴿... وَأَلْحِقْنِي بِالصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾:

أي: واجْعَلْنِي أَلْحَقُ الصَّالِحِينَ السَّابِقِينَ فِي فِعْلِ الْخَيْرَاتِ قَبْلِي، مِنْ أُولِي الْعَزْمِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ والْمُرْسَلِينَ، فَإِذَا لَحِقْتُهُمْ سِرْتُ مَعَهُمْ سَابِقاً فِي الْخَيْرَاتِ الَّتِي تُرْضِيكَ، وصِرْتُ مِنْ أَهْلِ الكمالِ في الصَّلَاحِ.

الصَّلَاحُ: ضِدُّ الْفَسَاد، والصَّالِحُ هُوَ الْخَالِي مِنَ الْفَسَادِ، ومَعْلُومٌ أَنَّ المعاصِيَ في السُّلُوكِ الدِّيني مِنَ الْفَسَادِ.

المطلب الثالث: قولُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي دُعَائِهِ: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾:

أي: واجْعَلْنِي دَوَاماً حَتَّىٰ آخِرِ نَفَسٍ مِنْ أَنْفَاسِي فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ كَامِلِي الصَّلَاحِ، حَتَّىٰ يَكُونَ لِي ثَنَاءٌ حَسَنٌ صَادِقٌ مُطَابِقٌ لِوَاقِعِ حَالِي فِي الْآخَرِينَ مِنَ النَّاسِ، بمُقْتَضَىٰ سُنَّتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ.

﴿لِسَانَ صِدْقٍ﴾: أي: ثَنَاءً صَادِقاً لَا مُبَالَغَةَ فِيهِ وَلَا زِيَادَةً عَنْ وَاقِعِ الْحَالِ الَّذِي تَجْعَلُنِي فِيهِ. أُطْلِقَ لَفْظُ «لِسَان» وأرِيدَ بِهِ الثَّنَاءُ الْحَسَنُ الَّذِي يَنْطِقُ اللِّسَانُ به، وإضَافَةُ «لِسَانٍ» إلَىٰ «صِدْقٍ» مِنْ إضَافَةِ الْمَوْصُوفِ إلَىٰ صِفَتِهِ، وهٰذَا من الوصْفِ بالمصْدَر، للدَّلَالَةِ عَلى المطَابَقَةِ التَّامَّةِ بَيْنَ الثَّنَاءِ والصِّدْقِ فِيهِ.

وقَدِ اسْتَجَابَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ دُعَاءَ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام في هٰذَا فَكَانَ كامِلَ الْمُدَاوَمَةِ عَلَىٰ كَمَالِ الصَّلَاحِ، فَجَعَلَ اللهُ لَهُ لِسَاناً صِدْقاً في الْآخِرِينَ.

المطلب الرابع: قولُ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ في دُعَائِهِ لِرَبِّهِ: ﴿وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾:

وَرَثَة: جمع «وَارِث» وهُوَ مَنْ يَصِيرُ إلَيْهِ مَا كَانَ لِغَيْرِهِ مِنْ مَالٍ، أوْ مَجْدٍ، أو غَيْرِهِمَا، دُونَ عِوَض.

وَقَدْ عَلِمَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام، أَنَّ دُخُولَهُ جَنَّةَ النَّعِيم يَوْمَ الدِّينِ، إنَّمَا يَكُونُ بِفَضْلِ اللهِ، لا بأعْمَالِهِ مَهْمَا كَانَتْ صَالِحَةً، فَطَلَبَ مِنْ رَبِّهِ أَنْ يَتفَضَّلَ عَلَيْهِ، فَيَجْعَلَهُ مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمَ بِفَيْضِ عَطَاءَاتِهِ، وبهذا يكونُ ميراث الجنّة بِمَعْنَىٰ الْهِبَة بلا عِوَض.

المطلبَ الخامس: قولُهُ في دُعَائِهِ: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾﴾. وقَدْ عَذَرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بهذا الدُّعَاءِ لِأَبِيه الكافر، إذ كان بناءً على مَوْعِدَةٍ وعِدَهَا إيّاه، فَلَما تَبَيّنَ لَهُ أَنّهُ عُدُوٌّ للهِ تبرّأ مِنْهُ.

المطْلَبُ السادس: قَوْلُ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ في دُعَائِهِ لِرَبِّهِ: ﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾:

الْخِزْيُ: يُسْتَعْمَلُ لِلدَّلَالَةِ عَلَىٰ عِدَّةِ معانٍ، وهي: الوقُوعُ في الشَّرِّ

وَالْعَذَابِ، والْمَصَائِبِ، والْبَلَايَا، والافْتِضَاحُ بالقَبَائِحِ والسَّيِّئَاتِ والآثَام الْمَكْتُومَةِ، الْمُورِثَةِ لِلْخَجَلِ الشَّدِيدِ مِنها، والاسْتِحْيَاءُ بِمَا يَنْزِلُ مِنْ ذُلٍّ وَهَوَانٍ، وهَـٰذِهِ المعانِي صَالِحَةٌ كُلُّهَا لِأَنْ تَكُونَ مُرادَةً هُنَا.

أي: واحْفَظْنِي رَبِّ واعْصِمْنِي مِمَّا يَكُونُ سَبَباً فِي خِزْيِي عَلَىٰ أَيِّ مَعْنَىً مِنَ هَـٰذِهِ الْمَعَانِي، وَهَـٰذِهِ الْعِصْمَةُ تَكُونُ بإعَانَتِهِ وتَوْفِيقِهِ حَتَّىٰ يُدَاوِمَ على الاسْتِقَامَةِ الكامِلَةِ على صِرَاطِ اللهِ المسْتَقِيم، اعْتِقاداً، وعَمَلاً، وقَوْلاً، ونِيَّةً، وكُلَّ سُلُوكٍ يَخْضَعُ لِإِرَادَتِهِ.

وأَتَمَّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام استعْطَافَهُ لِرَبِّهِ في دُعَائِهِ بِوَصْفِهِ لِيَوْمِ الْبَعْثِ بأَنَّهُ لَا يَنْفَعُ فِيهِ مَالٌ وَلَا بَنُون.

﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾: أي: لَكِنْ مَنْ أَتَىٰ اللهَ يَوْمَ القيامَةِ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ مِنْ أَمْرَاضِ الكُفْرِ والمعَاصِي، فإنَّ أَعْمَالَهُ الصَّالِحَةَ الَّتِي كَسَبَهَا بِقَلْبِهِ السَّلِيمِ تَنْفعه عِنْدَ رَبِّهِ يَوْمَ الدِّين.

❁ ❁ ❁

(٣) مَرْحَلَةٌ أُخْرَىٰ مِنْ مَرَاحِلِ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ الدَّعَوِيَّة:

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (العنكَبُوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾:

- ﴿وَإِبْرَاهِيمَ﴾: أي: وأَرْسَلْنَا إبراهيمَ عَطْفاً عَلَىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ في الآية (١٤) من السورة.
- ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾: أي: وضَعْ في ذَاكِرَتِكَ أَيُّهَا

المتَلَقِّي لِآيَاتِ كِتَابِ رَبِّكَ، مَا نُبَيِّنُهُ لَكَ بِشَأْنِ إِبْرَاهِيمَ، حِينَ قَالَ لِقَوْمِه: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾: أي: وَحْدَهُ لَا شَرِيْكَ لَهُ بِدَلِيلِ مَا جَاءَ فِي النَّصِّ مِنْ تَحْذِيره الشَّدِيدِ مِنَ الشِّرْكِ وعِبَادَةِ الْأَوْثَان.

﴿وَٱتَّقُوهُۥ﴾: أي: واتَّقُوا عِقَابَ اللهِ وعَذَابَهُ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ شِرْكٍ، وضَلَالَاتٍ سُلُوكِيَّةٍ نَفْسِيَّةٍ وَجَسَدِيَّةٍ هي مِنْ مُفْرَزَاتِ الشِّرْكْ.

• ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾﴾: أي: ذَلِكُمْ الَّذِي هُوَ إِفْرَادُ اللهِ بالْعِبَادَة، واتِّقَاءُ عِقَابِهِ وعَذَابِهِ، خَيْرٌ لَكُمْ في دُنْيَاكُمْ وَآخِرَتِكُمْ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ مَا يَجِبُ عَلَيْكُمْ تُجَاهَ اللهِ رَبِّكُمْ، وتَعْمَلُونَ بِمُقْتَضَىٰ هٰذَا الْعِلْمْ مُؤْمِنِينَ به.

• ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾:

أي: مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِلَّا أوثاناً تَصْنَعُونَهَا بأَيْدِيكُمْ، لَا تَسْمَعُ وَلَا تُبْصِرُ وَلَا تَنْطِقُ، وَلَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ.

﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾: أي: مَا تَفْتَرُونَ في ادِّعَاءِ الْإِلَهِيَّة لِمَا تَعْبُدُونَ إِلَّا كَذِباً، فَلَا إِلَهِيَّةَ في الْوُجُودِ كُلِّهِ إِلَّا للهِ رَبِّ العالَمِين.

تَخْلُقُونَ: أي: تَصْنَعُونَ افْتَرَاءً.

إِفْكاً: أيْ: كَذِباً.

• ﴿... إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا ...﴾:

أي: إِذَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ آلِهَتَكُمْ لِتَرْزُقَكُمْ فاعْلَمُوا أَنَّهَا لَا تَمْلِكُ أَنْ تَرْزُقَكُمْ أَقَلَّ رِزْقٍ.

الرِّزْق: كُلُّ مَا يُنْتَفَعُ بِهِ مِمَّا يُؤْكَلُ وَيُلْبَسُ وَيُشْرَبُ، وكُلُّ مَا يَحْتَاجُهُ الحيُّ لِحَيَاتِهِ.

﴿... فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾:

أي: فَاطْلُبُوا عِنْدَ اللهِ بالدُّعَاءِ الرِّزْقَ، واعْبُدُوه وحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ بالدُّعَاء وبِغَيْرِهِ مِنْ أَنْوَاعِ العِبَادَاتِ الَّتِي تُرْضِيهِ، واشْكُرُوا لَهُ مَا يُمِدُّكُمْ بِهِ مِنْ نِعَمٍ، وذَلِكَ بالْعَمَلِ بِمَرَاضِيهِ والإيمان بأَنَّهُ لَا رَبَّ فِي الوجودِ غَيْرُهُ، وَلَا إلَه سِوَاهُ.

﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾: أي: سَتُبْعَثُونَ بَعْدَ الْمَوْتِ إِلَىٰ الْحَيَاةِ الْأُخْرَىٰ، وإِلَىٰ حِسَابِ اللهِ، وَفَصْلِ قَضَائِهِ، وتَنْفِيذِ جَزَائِهِ تُرْجَعُونَ.

❀ ❀ ❀

(٤) مَرْحلة أخرى من مراحِلِ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ الدَّعَوِيَّة:

قال الله عَزَّ وَجَلَّ في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول):

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨)﴾:

تمهيد:

كَانَ مِنْ سِيَاسَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ في دَعْوَتِهِ، أَنَّهُ بَدَأَ بِأَقْرَبِ النَّاسِ إِلَيْهِ، وَهٰذَا تَعْلِيمٌ رَبَّانِيٌّ فِي مَجَالِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ، وَإِلَىٰ صِرَاطِهِ المستقيم، فَقَدْ أَمَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ رَسُولَهُ مُحمّداً خَاتَمَ الْمُرْسَلِينَ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ والسّلَامُ أَجْمَعِينَ.

واهْتِمَاماً بالْقِيَام بِهٰذِهِ السِّيَاسَةِ الدَّعَوِيَّةِ الْحَكِيمَةِ الرَّشِيدَةِ، أَلَحَّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَىٰ أَبِيهِ فِي الدَّعْوَةِ إلى دِينِ اللهِ الْحَقِّ، وإِلَىٰ نَبْذِ اتِّخَاذِ الْأَوْثَانِ وَعِبَادَتِها، وَنَوَّعَ لِأَبِيهِ أَسَالِيبَ الإقْنَاع، وقَدَّمَ له البراهِينَ وَحُجَجاً مُخْتَلِفَةً، واسْتَعْطَفَهُ واسْتَلَانَهُ، وتَخَضَّعَ لَهُ، وَتَرَفَّقَ بِهِ وَعَاشِرَهُ بإحْسَانٍ، ولَمْ يُقَابِلْهُ بِمَا يَكْرَهُ.

وحِينَ طَلَبَ مِنْهُ أبوهُ أَنْ يَهْجُرَهُ إِلَىٰ حِينٍ، اسْتَجَابَ لِطَلَبِهِ، وَوَعَدَهُ بِأَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُ رَبَّهُ، قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ مُصِرٌّ عَلَىٰ أَنْ يَكُونَ عَدُوّاً لله، فَلَمَّا عَلِمَ أَنَّهُ عَدُوٌّ للهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ.

ونَفْهَمُ مِنْ هٰذَا النَّصِّ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ أَضْجَرَ أَبَاهُ فِي دَعْوَتِهِ لَهُ، مَقْرُونَةً بِالْحُجَجِ الْبُرْهَانِيَّةِ الْمُقْنِعَةِ، رَجاءَ أَنْ يَسْتَجِيبَ لَهُ، فَيَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُوَحِّدِينَ النَّاجِينَ مِنْ عَذَابِ اللهِ الْخَالِدِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، وَنَفْهَمُ أَنَّ الضَّجَرَ قَدْ أَوْصَلَ الْأَبَ إِلَىٰ أَنْ يُهَدِّدَ ابْنَهُ إبْرَاهِيمَ النَّاصِحَ لَهُ، والْمُلِحَّ عَلَيْهِ بالنَّصِيحَةِ، وبإقَامَةِ الحجج الْبُرْهَانِيَّةِ المقْنِعَةِ، فَيَتَوَعَّدَهُ بالرَّجْم، فقال لَهُ: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ أي: لَأَقْتُلَنَّكَ بِوَسِيلَةِ الرَّجْمِ بالْحِجارَة.

ويَظْهَرُ أَنَّ هٰذَا التَّهْدِيدَ قَدْ صَدَرَ مِنَ الْأَبِ وَهُوَ فِي حَالَةِ ضِيقِ صَدْرٍ، إِذْ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَرُدَّ عَلَىٰ حُجَجِ ابْنِهِ الْبُرْهَانِيَّةِ بِمَا يُزَيِّنُ تَقْلِيدَهُ الْأَعْمَىٰ فِي شِرْكِيَّاتِهِ، ومَعْلُومٌ أَنَّ ضِيقَ الصَّدْرِ يُوَلِّدُ غَضباً، وَمَعَ الْغَضَبِ تَصْدُرُ عِبَارَاتُ التَّهْدِيدِ الَّتِي قَدْ تَصِلُ إِلَىٰ التَّهْدِيدِ بالْقَتْلِ.

وَيَظْهَرُ أَيضاً أَنَّهُ لَمَّا سَكَتَ عَنْ أَبِيهِ غَضَبُهُ تَرَاجَعَ عَنِ التَّهْدِيدِ بالرَّجْمِ، وَطَلَبَ مِن ابْنِهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَهْجُرَهُ مُدَّةً طَوِيلَةً مِنَ الزَّمَنِ، فَقَالَ لَهُ: ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾: **الْمَلِيُّ**: المدَّةُ الطَّوِيلَةُ مِنَ الزَّمَنِ.

وَيَظْهَرُ أَيْضاً أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ اسْتَشْعَرَ مِنْ قَوْلِ أَبِيهِ لَهُ: ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ وَعْداً ضِمْنِيًّا بِأَنْ يُرَاجِعَ نَفْسَه، وَيَتَفَكَّرَ فِي الْأَمْرِ، وَيَتَّخِذَ

تَدَابِيرَ يَتَخَلَّصُ بِهَا مِنْ ضَغْطِ بِيئَتِهِ الاجْتِمَاعِيّة. فَوَعَدَهُ بأَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُ رَبَّهُ، وَقَالَ لَهُ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾: أي: إِنَّ رَبِّي كَانَ بِي لَطِيفاً، وَكَانَ لِي مُكْرِماً، وَكَانَ ذَا عِنَايَةٍ بي، فَأَرْجُو أَنْ يَسْتَجِيبَ لي إذَا دَعَوْتُهُ طَالِباً مِنْهُ أَنْ يَغْفِرَ لك.

التدبر:

قول الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾:

أي: وَضَعْ في ذَاكِرَتِكَ أَيُّهَا المتَلَقِي لآيَاتِ كِتَابِ رَبِّكَ أَيّاً كُنْتَ، خَبَراً مُنَزَّلاً فِي الكتاب (= القرآن الكريم) فَاحْفَظْهُ، وَتَدَبَّرْهُ، واسْتَذْكِرْهُ عِنْدَ الْمُنَاسَبَاتِ الدَّاعِيَاتِ لِتَنْتَفِعَ بِمَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِنْ إِرْشَادَاتٍ جلِيلَات، وَتَوْجِيهَاتٍ إِلَىٰ فِعْلِ الْخَيْرَاتِ.

اذْكُرْ نَبِيَّ اللهِ وَرَسُولَهُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، في صِفَاتِهِ الذَّاتِيَّةِ، وفي أَخْبَارِ دَعْوَتِهِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ يَتَأَسَّىٰ بها الدُّعَاةُ إِلَىٰ اللهِ، وإلى صِرَاطِهِ المسْتَقِيم.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾: **صِدِّيقٌ**: عَلَىٰ وَزْنِ «فِعِّيل» مِنْ صِيَغِ الْمُبَالَغَةِ والتَّكْثِير، ولَهُ فِي الْعَرَبِيَّةِ نَظَائِرُ مَسْمُوعَةٌ لَا يُقَاسُ عَلَيْهَا، مِنْها: «خِرِّيت» وَهُوَ ذُو الْحِذْقِ بالطُّرُقِ والْمَسَالِكِ، ومِنها: «ضِلِّيلٌ» وهُوَ كَثِيرُ الضَّلَالِ والتَّضْلِيلِ.

الصِّدِّيق: هُوَ عَظِيمُ الصِّدْقِ في أَقْوَالِهِ، وَعَظِيمُ الصِّدْقِ في أَفْعَالِهِ وأعْمَالِهِ، فَلا يُنَافِقُ بِهَا وَلَا يُرائي. والصِّدْقُ في الْأَعْمَالِ الدِّينِيَّةِ أَنْ تَكُونَ خَالِصَةً للهِ عَزَّ وَجَلَّ.

ويأتِي الصِّدِّيق بِمَعْنَىٰ كَثِير التَّصْدِيقِ بِمَا يَأْتِي مِنْ بَيَانَاتٍ عَنِ الوحْي

الصَّادِق، فَلَا يَشُكُّ في شَيْءٍ مِنْهَا، مَهْمَا كَانَ غَرِيباً عَجِيباً، إِذَا كَانَ مِنَ الْمُمْكِنَاتِ الْعَقْلِيَّة، ولهذا وُصِفَ أَبُو بَكْرٍ رضي اللهُ عَنْهُ بِأَنَّهُ صِدِّيق.

﴿نَبِيًّا﴾: النَّبِيُّ عَبْدٌ اصْطَفَاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالْوَحْيِ إِلَيْه.

النُّبُوَّة: هِيَ في اللُّغَةِ مَأْخُوذَةٌ مِنَ النَّبَأ وهُوَ الْخَبَرُ البارِزُ، أَوْ مِنَ «النَّبْوَةِ» وَهِيَ مَا ارْتَفَعَ مِنَ الْأَرْضِ. وهي في الاصْطِلَاحِ الشَّرعي، اصْطَفَاءُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَبْداً مِنْ عِبادِهِ بالْوَحْيِ إِلَيْهِ.

فالنَّبِيُّ مُنَبَّأٌ بِبَيَانَاتٍ وأَخْبَارٍ عَنْ طَرِيقِ الْوَحْي، وَمُنَبِّئٌ بِمَا تَلَقَّاهُ عَنْ طَرِيق الْوَحْي.

وَجَاءَ إِثْبَاتُ أَنَّ إِبْراهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَسُولٌ في نُصُوصٍ قرآنِيَّةٍ أُخْرَىٰ، وتُفْهَمُ رِسَالَتُهُ مِنْ هٰذَا النَّصِّ بَدَلَالَةِ اللُّزُومِ الْعَقْلِيِّ لِقِيَامِهِ بالدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ.

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾؟: أي: وَضَعْ فِي ذَاكِرَتِكَ أَيُّهَا المتَلَقِّي هٰذَا الْحَدَث.

﴿يَٰٓأَبَتِ﴾: لَقَدْ تَلَطَّفَ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلام مَعَ أَبِيهِ، فَخَاطَبَهُ بِتَذَلُّلٍ وَخُضُوعٍ وإِشْعارٍ بِارْتِفَاعِ مَنْزِلَةِ أَبِيهِ بالْأُبُوَّةِ، فَنَادَاهُ بأَدَاةِ النِّدَاء الْمَوْضُوعَةِ لِنِدَاءِ الْبَعِيدِ، وَوَضَعَ بَدَلَ يَاءِ المتكلّم تَاءَ التَّأْنِيثِ الَّتِي يَسْتَعْطِفُ بِهَا رِقَّتَهُ الَّتِي يُشَارِكُ الْأُمَّ بِهَا، فَكَأَنَّهُ قَالَ لَهُ: يَا أَبِي الَّذِي هُوَ مِثْلُ أُمِّي في الشَّفَقَةِ عَلَيَّ والرَّحْمَةِ بِي، إِنَّ مِنَ الْبِرِّ بِكَ أَنْ أَنْصَحَكَ وَأَدُلَّكَ عَلَىٰ الْحَقِّ وَصِراطِ الْهُدَىٰ، وأَنْ أُحَذِّرَكَ مِنْ عَذَابِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، إِذْ يُحَاسِبُ عِبَادَهُ، ويَقْضِي بَيْنَهُمْ، وَيُجَازِيهِمْ يَوْمَ الدِّين.

﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا﴾؟؟

اسْتِفْهَامٌ اسْتِفْسَارِيٌّ، واسْتِنْكَارِيٌّ، وَتَعَجُّبِيٌّ.

أي: يَا أَبَتِ، هَلْ لَكَ مَقْصِدٌ يَتحقَّقُ لَكَ، بِعِبَادَتِكَ أَوْثَاناً جامِدَةً، لَا تَسْمَعُ دُعَاءَكَ، وَلَا تُبْصِرُ ذَاتَكَ، وَلَا تَنْفَعُكَ بِنَافِعَةٍ، وَلَا تَصْرِفُ عَنْكَ شيئاً مِمَّا تَكْرَهُ؟؟!.

هٰذَا السُّؤَال لَا يُمْكِنُ أَنْ يُجِيب عَلَيْهِ عَاقِلٌ إِجَابَةً صَحِيحَةً، إِلَّا بأَنْ يَقُول: وَجَدْتُ قَوْمِي وَآبَاءَهُمْ يَعْبُدُونَ هَـٰذِهِ الْآلِهَةَ مِنَ الْأَوْثَانِ فَعَبَدْتُها، مُسْتَبْعِداً عَنْ تَصَوُّرِي أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَىٰ ضَلَالَة.

عِنْدَئِذٍ انْتَقَلَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَىٰ اتِّخَاذِ وَسِيلَة إِقْنَاعِ أبيه بالحقّ الَّذِي يَدْعُوهُ إِلَيْهِ، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ:

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾﴾:

كرَّرَ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَام اسْتِعْطَافَهُ لِأَبِيهِ بقولِهِ له: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ وَأَكَّدَ لَهُ أَنَّهُ قَدْ جَاءَهُ مِنَ العِلْمِ الَّذِي يَسْعَىٰ إِلَيْهِ الْعُقَلَاءُ الراشِدُونَ، مَا لَيْسَ عِنْدَ أَبِيهِ مِنْه.

وهُنَا لَا بُدَّ أَنْ تَجْرِيَ مُحَادَثَةٌ بَيْنَهُمَا، يُثْبِتُ فيها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام لِأَبِيهِ الْعِلْمَ الَّذِي جَاءَهُ، بِشَأْنِ الرُّبُوبِيَّةِ والإِلَهِيَّةِ، وحَقِّ اللهِ الرَّبِّ عَلَىٰ عِبَادِهِ في أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِعِبَادَته أَحداً وَلَا شَيْئاً، وأَنَّ مَنِ اتَّخَذَ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللهِ، جَعَلَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْخَالِدِينَ يَوْمَ الدِّينِ في عَذَابِ نَارِ جَهَنَّمَ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَام قَدْ أَبَانَ لِأَبِيهِ أَرْكَانَ الإيمانِ بالْحُجَّةِ والْبُرْهَان.

ومِنَ الواضِحِ أنْ لَا يَجِدَ الْأَبُ الْمُشْرِكُ كَلَاماً يَصِحُّ في الْعُقُولِ، يَنْقُضُ بِهِ أَدِلَّةَ الْابن الرَّسُولِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام، بِشَأْنِ أَرْكَانِ العقيدة الإيمانِيَّة، في الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ اللهُ لِعِبَادِه، وَبِشأْنِ أُسُسِها الْعَقْلِيَّة، وَجُذُورِهَا الْوِجْدَانِيَّة.

وبانْقِطَاعِ الْأَب، وعَجْزِهِ عَنْ مُتَابَعَةِ المنَاظَرَةِ المنْطِقِيَّةِ المقْبُولَةِ فِي الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ، وَجَدَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام أَنَّ مِنَ الْمُنَاسِبِ عِنْدَ هٰذَا الموقِفِ الْحَرِجِ عَلَىٰ أَبِيهِ أَنْ يَفْتَحَ لَهُ مَخْرَجاً، فَقَال له:

﴿... فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾﴾:

أي: إنَّ القاعِدَةَ الإيمانِيَّةَ مُلْزِمَةٌ لِكُلِّ ذِي عَقْلٍ سَوِيٍّ بالإيمانِ بِها، وبِنَاءً عَلَىٰ الْقَاعِدَةِ الإيمانِيَّةِ يَأْتِي السُّلُوكُ الظَّاهِرُ والباطِنُ، فانْطِلاقاً مِنَ الْحَقِّ الَّذِي تَأَلَّفَتْ مِنْهُ أَرْكَانُ الْقَاعِدَةِ الإيمانِيَّة، لَا يَكُونُ السُّلُوكُ الَّذِي تُوجِبُهُ هٰذِهِ الْأَرْكَانُ إِلَّا عَلَىٰ صراطٍ سَوِيّ.

الصِّرَاطُ: هُوَ الطَّرِيقُ الواضِحُ الْمُيَسَّرُ السَّهْلُ، الَّذِي لَا تُوجَدُ فِيهِ عَقَبَاتٌ وَلَا عراقيلُ وَلَا مَوَانِعُ.

السَّوِيُّ: هو المستوي المعتدل، الذي لا اعْوِجَاجَ فِيهِ ولا انْحراف، ولا مُرتَفَعاتٍ ولا منخفضات.

وقد جاء في نُصُوصِ القرآنِ والسُّنَّةِ إطْلَاق لفظ «الصِّراط» عَلَىٰ الشَّرَائِعِ والْأَحْكَامِ، والنَّصَائِحِ والْوَصَايا، وسَائِرِ البياناتِ والتعليمات الدِّينيَّة للنَّاسِ، على سَبِيلِ الاسْتِعَارَة، حتَّىٰ صَارَ مُصْطَلحاً دِينِيًّا دالًّا عَلَىٰ ذَلِكَ.

﴿أَهۡدِكَ﴾: يُقَالُ لغة: «هَدَاهُ الطَّريقَ، وَهَدَاهُ إِلَيْهِ» أي: بَيَّنَهُ وَأَوْضَحَهُ لَهُ، وَأَرْشَدَهُ إِلَيْهِ، وأعْلَمَهُ بِهِ.

ولَمَّا كَانَتِ الْهِدَايَةُ إِلَىٰ الصِّرَاطِ السَّوِيّ، لَا تَتَحَقَّقُ إِلَّا باجْتِنَابِ سُبُلِ الضَّلَالِ، وَلَمَّا كَانَ السَّيْرُ في سُبُلِ الضَّلَالِ هُوَ مِنْ طَاعَةِ الشَّيْطَانِ الْعَدُوِّ لِبَنِي آدَمَ، وَكَانَتْ هٰذِهِ الطَّاعَةُ للشَّيْطَانِ مِنَ الْعِبَادَةِ الْمُنَاقِضَةِ لِعِبَادَةِ اللهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ قَالَ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَبِيه:

﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾﴾:

فَأَبَانَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلام لِأَبِيهِ أَنَّ عِبادَة الْأَوْثَانِ، هِيَ فِي الحقيقَةِ عِبادَةٌ للشَّيْطَانِ الَّذِي أَوْحَىٰ بِهَا، وأَمَرَ أَوْلِيَاءَهُ مِنَ الإِنْسِ بِتَزْيين عِبادَتِها، وعِبادَةُ الْأَوْثَانِ تَجُرُّ إِلَىٰ ضَلَالَاتٍ كَثِيرَاتٍ، وشُرُورٍ مُفْسِدَاتٍ لِلْأَفْرَادِ والمجتمعات.

وأبان إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَبِيهِ أَنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ شَدِيدَ الْعِصْيَانِ للرَّحْمٰن، وشَدِيدَ التَّمَرُّدِ عَلَىٰ أوامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، مُنْكِراً إِلَهِيَّتَهُ الَّتِي تَقْتَضِيهَا عَقْلاً رُبُوبِيَّتُهُ.

وَذَكَرَ مِنْ أسماء اللهِ الحسْنَىٰ اسْمَهُ الرَّحْمَن، لِيُحَرِّكَ وِجْدَانَهُ وَعَاطِفَتَهُ الخيِّرَةَ نَحْوَ رَبِّهِ، الَّذِي يَرْحَمُهُ فَيُمِدُّهُ بالْحَيَاةِ والرِّزْقِ والصِّحَّةِ، وبِكَثِيرٍ مِنَ مَحَابِّهِ، والَّذِي تُرْجَىٰ رَحْمَتُهُ دواماً، والَّذِي يغْفِرُ لِلتَّائِبِينَ إِلَيْهِ، ويَعْفُو عَنْهُمْ بِرَحْمَتِهِ.

الْعَصِيُّ: هُوَ الشَّدِيدُ الْعِصْيَان. وهٰذَا اللفظ من صِيَغِ المبالَغَةِ.

وَبَعْدَ هٰذَا الأسْلُوبِ التَّنْفِيرِيِّ مِنْ عبادَةِ الشَّيْطان، رأى إبْراهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يُحَذِّرَ أَبَاهُ مِنْ عَذَابِ الرَّحْمٰنِ المعَجَّلِ، بِسَبَبِ شِرْكِهِ، مَعَ احْتِفَاظِهِ بالْأُسْلُوبِ الاسْتِعْطَافِيِّ الرَّفِيقِ، فقال لَهُ:

﴿يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾:

أي: يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ مِنْ طُولِ إِصْرَارِكَ عَلَىٰ الشِّرْكِ، أَنْ يَمَسَّكَ فِي حَيَاتِكَ الدُّنْيَا عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ، فَتَكُونَ بِذَلِكَ مِنَ المحْكُوم عَلَيْهِمْ بأَنَّهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ وَجَمَاعَتِهِ وَحِزْبِهِ، الَّذِينَ يَمَسُّهُمْ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ عَذَابٌ عِقَابِيٌّ مُعَجَّلٌ، قَبْلَ الْعَذَابِ الْعِقَابِيِّ الْأَكْبَرِ يَوْمَ الدِّين.

دَلَّ عَلَىٰ أَنَّ مُرادَهُ الْعَذَابُ المعَجَّلُ فِعْل: ﴿أَخَافُ﴾ المشْعِرُ بالظَّنّ، وَفِعْلُ: ﴿أَن يَمَسَّكَ﴾ دُونَ: «أَنْ يُنْزِلَ بِكَ» واسْتِعْمَالُ اسْمِ اللهِ: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ دُونَ اسمِهِ: «المنْتَقِم الْجَبَّار».

فَقَالَ الأَبُ المشْرِكُ لابْنِهِ إبْرَاهِيمَ النَّبِيِّ الرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَام مَا حَكَاهُ اللهُ عَنْهُ:

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾:

دَلَّ هٰذَا الرَّدُّ عَنْ حَالَةِ غَضَبٍ خَرَجَ فِيهَا الْأَبْ عَنْ مِزَاجِهِ السَّوِيّ، إِذْ وَجَدَ نَفْسَهُ مَغْلُوباً، مَهْزُوماً فِكْرِيًّا وَنَفْسِيًّا، وَلَمْ يَكُنْ مُسْتَعِدًّا أَنْ يَنْبِذَ تَقَالِيدَهُ الْبَاطِلَةَ لِقَوْمِهِ وَآبَائِهِمْ مِنْ قَبْلِهِمْ، فَلَمْ يَجِدْ وَسِيلَةً غَيْرَ التَّهْدِيدِ بِالرَّجْمِ، مُسْتَخْدِماً سُلْطَتَهُ الْأَبَوِيَّةَ، وأَنَّ ابْنَهُ خَاضِعٌ لَهُ بَارٌّ بِهِ.

لَكِنَّهُ لَمَّا بَرَدَتْ جَذْوَةُ غَضَبِهِ طَلَبَ مِنِ ابْنِهِ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام أَنْ يَهْجُرَهُ مُدَّةً طَوِيلَةً، لِئَلَّا يَكُونَ بَيْنَهُمَا احْتِكَاكٌ مَا فِي مَسَائِلِ الدِّينِ وَقَضَايَاه.

﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾: أي: أَتَارِكٌ أَنْتَ آلِهَتي، ومُخَالِفٌ لِي فِي دِينِي وَفِي عِبَادَتي؟؟!!

يقال لغة: «رَغِبَ عَنِ الشَّيْءِ» أي: تَرَكَهُ زُهْداً فِيهِ، أو إنْكَاراً له.

ويقال لغة: «رَغِبَ في الشَّيْءِ» أي: أَرَادَهُ وَحَرِصَ عَلَيْهِ، أَوْ طَمِعَ فِيهِ.

ونَفْهَمُ مِنَ الإِطْنَابِ بِضَمِيرِ الْفَصْلِ ﴿أَنتَ﴾ أَنَّ الْغَرَضَ مِنْهُ إِشْعَارُ الْأَبِ ابْنَهُ إِبْرَاهِيم، بأَنَّهُ مِنَ المسْتَغْرَبِ مِنْهُ وَهُوَ البارُّ الْحَرِيصُ عَلَىٰ بِرِّ أبيهِ، أَنْ يَرْغَبَ عَنْ عِبَادَةِ آلِهَتِهِ، وَيَسْلُكَ سَبِيلاً غَيْرَ سَبِيلِهِ، أي: مِثْلُكَ أَنْتَ لَا يَفْعَلُ هٰذَا.

وكَانَ غَضَبُ الْأَب قَدْ بَلَغَ ذِرْوَتَهُ، فَقَالَ لِابْنه مُؤَكِّداً بالْقَسَم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾: أي: لَأَطْرُدَنَّكَ أَوْ لَأَقْتُلَنَّكَ رَجْماً بالْحِجَارَةِ إِنْ لَمْ تَنْتَهِ عَنْ دَعْوَتِكَ إِلَىٰ نَبْذِ عِبَادَةِ آلِهَتِي مِنَ الأَوْثَانِ.

وَيظْهَرُ أَنَّهُ بَعْدَ هٰذَا التَّهْدِيدِ بَرَدَ غَضَبُهُ، وأدْرَكَ أَنَّ ابْنَهُ لَنْ يَنْتَهِيَ عَمَّا

نَهَاهُ عَنْهُ، فَأَتْبَعَ كَلَامَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿... وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ أي: واهْجُرْنِي مُبْتَعِداً عَنِّي زَمَنًا طَوِيلاً.

وَشَعَرَ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِتَنَازُلِ حِدَّةِ غَضَبِ أبِيهِ، وَظَنَّ أَنَّهُ إِذَا اسْتَجَابَ لِطَلَبِهِ فَهَجَرَهُ مُدَّةً طَوِيلَةً مِنَ الزَّمَانِ، تَرَاجَعَ عَنْ إصْرَارِهِ وعِنَادِهِ، وَصَارَ أَلْيَنَ وَأَطْوَعَ وأَكْثَرَ تَقَبُّلاً لِلْحَقِّ، فَقَالَ لِأَبِيهِ مَا جَاءَ في الْبَيَانِ الْقُرْآنِيِّ التَّالِي:

﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾:

فِي هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ بَيَانُ أَرْبَعِ قَضَايا وَجَدَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام مُلَائِمَةً وَحَكِيمَةً في هٰذَا الموْقف:

الْقَضِيَّةُ الْأُولَىٰ: قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام لِأَبِيهِ ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ﴾: أي: أُعْلِنُ مُفَارَقَتِي لَكَ اسْتِجَابَةً لِأَمْرِكَ، فَأَقُولُ لَكَ: سَلَامٌ عَلَيْكَ مُكَرَّماً مُبَجَّلاً.

القَضِيَّةُ الثانية: قَوْلُ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَام لِأَبِيهِ: ﴿... سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾:

في هٰذِهِ العبارَةِ وَعْدٌ مِنْ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام لِأَبِيهِ، بأَنَّهُ سَيَسْأَلُ اللهَ رَبَّهُ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ.

وقَدْ وَفَّىٰ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِوَعْدِهِ لِأَبِيهِ، فَسَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ، إِذْ كَانَ يَرْجُو أَنْ يَلِينَ قَلْبُهُ، وَيَنْبذَ الشِّرْكَ، وَيُؤْمِنَ بالدِّينِ الحقّ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ أَبَاهُ مُقِيمٌ عَلى كُفْرِهِ بإصْرَارٍ وَعِنَادٍ، وَأَنَّهُ عَدُوٌّ للهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ، إِذْ لَا يَجُوزُ لِمُؤْمِنٍ باللهِ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لِمشْرِكٍ، وَلَوْ كَان ذَا قُرْبَىٰ.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾: أي: إِنَّ رَبِّي كَانَ لَطِيفاً بِي، مُكْرِماً لي، ذا عِنَايَةٍ خَاصَّةٍ بِتَحْقِيقِ مَطَالِبِي، والْإِحْسَانِ إِلَيَّ.

الْقَضِيَّة الثَّالِثَة: قَوْل إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَام لِأَبِيهِ، ولِلَّذِينَ مَعَهُ مِنْ أُسْرَتِهِ الملازِمِينَ لِشِرْكِهِمْ: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

أي: مَا دُمْتُمْ مُلَازِمِينَ لِشِرْكِكُمْ، غَيْرَ مُسْتَجِيبِينَ لِدَعْوَتِي، فَإِنَّ الْمَنْهَجَ الدَّعَوِيَّ يَقْتَضِي مِنِّي أَنْ أَعْتَزِلَكُمْ، وأَعْتَزِلَ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونَ اللهِ، بأَلْوَانٍ مِنْ الْعِبَادَاتِ، وَمِنْهَا العبادةُ بالدُّعَاءِ.

القَضِيَّة الرابعة: قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿... وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾:

أي: وَحِينَ أَعْتَزِلَكُم سَأُتَابِعُ مَعَ غَيْرِكُمْ عِبَادَةَ رَبِّي، بالدَّعْوَةِ إِلَىٰ دِينِهِ الحقِّ، ومُقَاوَمَةِ كُلِّ بَاطِلٍ وَكُفْرٍ وضَلَالٍ عَنْ سَبيلِ الْهُدَىٰ والرَّشاد، عَسىٰ أَنْ يَسْتَجِيبَ لِي مُسْتَجِيبُونَ مِن الذينَ أَدْعُوهم، وَعَسىٰ أَنْ لَا أَكُونَ خَائِباً فِي دَعْوَتِي.

❁ ❁ ❁

(٥) مَرْحَلَة أُخرىٰ من مَرَاحِلِ إِبْرَاهيم عَلَيْهِ السَّلَام الدَّعَوِيَّة:

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (الْأَنْعَام/٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ

ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَـٰهُمْ وَهَدَيْنَـٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾:

تَمْهيد:

في هَـٰذِهِ المرحلَةِ الدَّعوِيَّة، اشْتَدَّ إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَىٰ أَبِيهِ، فِي اسْتِنْكَارِهِ لِمَا يَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللهِ، بَعْدَ أَنْ كَانَ قَدْ تَلَطَّفَ بِهِ في المرحَلَةِ السَّابِقَةِ الّتِي جَاءَ بَيَانُهَا في سورة (مريم/ ٤٤ نزول).

وفِي هَـٰذِهِ المرحلَةِ الدَّعوِيَّةِ تَدَرَّجَ إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلام مَعَ قَوْمِهِ فِي إسْقَاطِ رُبُوبِيَّةِ أيّ كَوْكَبٍ أَوْ نَجمٍ في السَّمَاءِ، وفي إسْقَاطِ إلَهيَّتِهِ، إذْ كَانَ قَوْمُهُ يَتَوَهَّمُونَ أَنَّ بَعْضَ الكَوَاكِبِ والنُّجُوم لَهَا تَأْثِيرُ رُبُوبِيَّةٍ فِي أَحْدَاثِ الْأَرْضِ، فَيَتَّخِذُونَ لَهَا أَصْناماً عَلَىٰ هَيْئَاتٍ يَتَخَيَّلُونَهَا لَها، وَيَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللهِ، وَكَانَ مِنْ أَوْثَانِهِم: «إِلَهُ الْقَمَرِ نَانَار» وزَوْجَتُهُ «ننجال».

تَدَبُّرُ هـٰذَا النَّصّ:

قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾:

﴿ءَازَرَ﴾: يَدُلُّ ظَاهِرُ الآيَةِ على أَنَّ اسْمَ أبي إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لفظُ

«آزر» ويَبْدُو أَنَّهُ كَانَ هُوَ المعْرُوفُ بِهِ عِنْدَ الْعَرَبِ، وجاء في كُتُبِ الإسْرَائِيلِيّينَ أَنَّ اسْمَ أَبِيهِ «تَارَح».

وأقْرَبُ احْتِمَالَاتِ الْجَمْعِ أَنَّ أَصْلَ اسْمه: «تَارَح»، ولُقِّبَ بَعْدَ ذلك بِلَفظِ: «ءَازَر». ولمَّا دَعَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَا جَاءَ في هٰذَا النَّصّ، كَانَ اللَّفْظُ المشْهُورُ بِهِ بَيْنَ عَشِيرَتِهِ هو لفظ: «ءَازَر»، فاخْتَارَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ذِكْرَهُ بذلِكَ، وَيُؤَيِّدُ هٰذَا الْفَهْمَ قراءَةُ يَعْقُوب بِضَمِّ راء «ءَازرُ» عَلَىٰ أَنَّهُ مُنَادَىٰ مُفْرَد عَلَم.

والاستفهامُ في: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾؟! اسْتِفْهَامٌ إِنْكَارِيٌّ فِيهِ شِدَّة، لأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ في بدايَةِ دَعْوَتِهِ لِأَبِيهِ، بَلْ سَبَقَتْهُ دَعْوَةٌ مُشْبَعَةٌ بالتَّلَطُّفِ والتَّحَبُّبِ وخَفْضِ الْجَنَاحِ.

المعنى: وَضَعْ في ذَاكِرَتِكَ أَيُّهَا الْمُتَلَقِّي لِآيَاتِ الْقُرْآنِ المجيد، ما أَبَانَهُ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَبيه، إِذْ قَالَ له: أَتَصْنَعُ أَصْنَاماً بِيَدِكَ، مُتَّخِذاً إِيَّاهَا آلِهَةً تَعْبُدُهَا أَنْتَ وَقَوْمُكَ مِنْ دُونِ اللهِ، وَتَجْعَلُونَهَا شُرَكَاءَ للهِ في إِلٰهِيَّتِهِ؟!!

إِنَّ هٰذَا لَأَمْرٌ مُسْتَنْكَرٌ جدًّا، وَمُنَافٍ لِمَوَازِينِ الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ مِنَ الْخَلَلِ، الْمُجَافِيَةِ لِمَزَالِقِ الزَّلَلِ.

إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ الْمُشْرِكِينَ عُبَّادَ الأَوْثَانِ تَائِهِينَ فِي ضَلَالٍ وضَيَاعٍ مُبِين وَاضِحٍ، لِكُلِّ ذِي فِكْرٍ صَحِيحٍ، ونَظَرٍ سَلِيم.

قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾:

مَلَكُوت: صِيغَةٌ مِنَ الْمِلْكِ، وهِيَ مَصْدَرٌ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ التَّعْظِيمِ والتفْخِيم. **والْمِلْك**: يَسْتَلْزِمُ السُّلْطَانَ والعِزَّةَ والْقُدْرَةَ عَلَىٰ التَّصَرُّفِ الْكَامِلِ، والْأَمْرِ والنَّهْي.

الْمُوقِن: العالِمُ بالشَّيْءِ عِلْماً لَا شَكَّ فِيهِ.

المعنىٰ: وَكَذَلِكَ الْفَهْمِ الَّذِي فَهَّمْنَاهُ إِبراهِيمَ بِشَأْنِ بُطْلَانِ عَبادَةِ الْأَصْنَامِ، وأَنَّ عَابِدِيها في ضَلَالٍ مُبِينٍ، كُنَّا نُرِي بِتَتَابُعٍ مُتَجَدِّدٍ إبراهيم بِفِكْرِهِ مِلْكَنَا الْعَظِيمَ لِكُلِّ عَنَاصِرِ وَأَجْزَاءِ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، ونُرِيهِ سُلْطَانَنا وعِزَّتَنا وَقُدْرَتَنَا على التَّصَرُّفِ فِي كُلِّ شَيْءٍ فيهما، لِيَكُونَ ذَا حُجَجٍ بُرْهَانِيَّةٍ يُثْبِتُ بِهَا أَنَّهُ لَا رُبُوبِيَّةَ فِي الكَوْنِ إِلَّا لَنَا، وَلَا إِلَهِيَّةَ فِي الكَوْنِ إِلَّا لَنَا، وَلِيَكُونَ هُوَ فِي ذَاتِهِ مِنَ الْمُوقِنِينَ بِذَلِك، الْعَالِمِينَ عِلْماً لَا يُخَالِطُهُ وَلَا يَمَسُّهُ شَكٌّ.

تَدَرُّجُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِإِبْطَالِ عبادة الكواكِبِ والنُّجُومِ في دَعْوَتِهِ:

قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مُحَدِّثاً عَنْ أَسْلُوب إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام في دَعْوَتِه:

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾:

أي: فَحِينَمَا أَظْلَمَ عَلَىٰ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَام اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَباً في السَّمَاءِ، مِنَ الكواكِبِ الَّتِي يَعْتَقِدُ قَوْمُهُ أَنَّ لَهُ رُبُوبِيَّةً ما، فَيَعْبُدُونَهُ بسبب ذَلِكَ، وَيَتَّخِذُونَ لَهُ صُورَةً مِنَ الْأَوْثَانِ يَعْبُدُونها، قَالَ: هٰذَا رَبِّي. عَلَىٰ سَبِيلِ الطَّرْحِ الاحْتِمَالِي، لَا عَلَىٰ سَبِيلِ الاعْتِقَادِ الْجَازِم، فَهُوَ خَالِقُ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ وَرَبُّهُمَا، فَهُو رَبِّي الَّذِي تَجِبُ عَلَيَّ عِبادَتُهُ.

فَلَمَّا أَفَلَ (أي: غَاب) قَالَ: لَا أُحِبُّ اتِّخَاذَ رَبٍّ هُو مِنَ الآفِلِينَ، الَّذِينَ يَظْهَرُونَ وَيَغِيبُونَ وَلَا أُحِبُّ عِبادَةَ أَحَدٍ مِنْهُمْ.

ذَكَرَ الكَوَاكِبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِجَمْعِ الْعُقَلَاءِ، مُرَاعَاةً لاعْتِقَادِ مُشْرِكِي قَوْمِهِ، بِأَنَّ آلِهَتَهُمْ أَرْبَابٌ عَالِمَةٌ حَيَّةٌ، تَتَصَرَّفُ بِأَحْدَاثِ مَا فِي الإِنْسَانِ، وَفي سَائِرِ الْأَحْدَاثِ في الْأَرْضِ.

قَدَّمَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ دَلِيلاً عَلَىٰ عَدَم صِحَّةِ كَوْنِ شَيْءٍ مَا رَبًّا، أَنْ يَتَعَرَّضَ بَعْدَ ظُهُورِهِ وَمُشَاهَدَتِهِ لِلْأُفُولِ، وَإِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ رُبُوبِيَّةٌ فَلَا تَكُونُ لَهُ إِلَـٰهِيَّةٌ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوه، إِلَّا أَنْ يَأْمُرَ الرَّبُّ الْحَقُّ بِعِبَادَتِهِ، وَهـٰذَا لَمْ يَكُنْ فِي رِسَالَةٍ رَبَّانِيَّةٍ صَحِيحَة.

ونفهم من اسْتِدْلَالِ إِبْرَاهِيمَ هـٰذَا: أَنَّهُ يَقُولُ لِقَوْمِهِ: إِنَّ مَنْ يَحْضُرُ فَيُرَىٰ وَيَغِيبُ فَلا يُرَىٰ، إِمَّا أَنْ يَكُونَ حُضُورُهُ وغِيابُهِ بإرادَتِهِ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ بِغَيْرِ إِرَادَتِهِ.

فإِنْ كَانَ بإِرَادَتِهِ فَهُوَ إِنَّما يَحْضُرُ لِيُصَرِّفَ أَحْوَالَ مَرْبُوبِيهِ ذَوِي الحاجَةِ الدَّائِمَةِ لِرُبُوبِيَّتِهِ، لَكِنَّهُ إِذَا غَابَ لَمْ يَكُنْ لِمَرْبُوبِيهِ حَظٌّ مِنْ تَصَارِيفِ رُبُوبِيَّتِهِ، فَيَفْسُدُ بذَلِكَ نِظَامُ الْخَلْقِ، فَدَلَّ هـٰذَا عَلَىٰ أَنَّ الَّذِي يَغِيبُ بَعْدَ حُضُورٍ لَا يَصْلُحُ لِأَنْ يَكُونَ رَبًّا، فَهُوَ لَا يَصْلُحُ لِأَنْ يَكُونَ إِلَهاً يُعْبَدُ.

وإِنْ كَانَ حضُورُهُ وغيابُهُ بِغَيْرِ إِرَادَتِهِ فَهُوَ بالْبَداهَةِ لَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ رَبًّا وَلَا إِلَهاً، وهذا هُوَ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ نِظَامُ الكواكِبِ والنجومِ جميعاً في السَّمَاءِ، إِنَّهَا تَظْهَرُ وَتَغِيبُ بِغَيْرِ إِراداتٍ لَهَا، فَهِيَ جَمِيعُهَا مَرْبُوبَةٌ لِرَبٍّ واحِدٍ، يَخْضَعُ لِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ كُلُّ مَوْجُودٍ في السَّمَاوَاتِ والْأَرْض.

هـٰذَا الدَّلِيلُ نَفْسُهُ اسْتَخْدَمَهُ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام، حِينَ انْتَقَلَ فِي تَدَرُّجِهِ بَحْثاً عَنْ الرَّبِّ الْمُهَيْمِنِ عَلَىٰ الْوُجُودِ كُلِّهِ، إِلَىٰ رُؤْيَةِ الْقَمَرِ البازِغِ، فَرُؤْيَةِ الشَّمْسِ الْبَازِغَةِ، وهـٰذَا ما جاء بيانُهُ في قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بشَأْنِهِ:

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّي هَـٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾:

البازغ: الَّذِي بَدَأَ طُلُوعُهُ.

أي: فَلَمَّا غابَ الْقَمَرُ قَالَ مِثْلَما قَالَ حِينَمَا غابَ الكَوْكَبُ الَّذِي رَآهُ في لَيْلَةٍ سَابِقَةٍ، وأَتْبَعَ هٰذَا بقولِهِ: لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي إِلَىٰ الحقيقَةِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ أُؤمِنَ بِهَا، لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ الضَّائِعِينَ عَنْ إِدْرَاكِ الْحَقِّ بِشَأْنِ الرَّبِّ الَّذِي يَجِبُ أَنْ أُومِنَ بِهِ، وأَنْ أَعْبُدَهُ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ شيئاً.

وَحِينَمَا غابَتِ الشَّمْسِ أَعْلَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَوْمَهُ بأَنَّ كُلَّ مَعْبُودَاتِهِمْ مِنَ الكواكِبِ والنُّجُومِ ومِنْهَا الشَّمْسُ والْقَمَرُ، لَا يَصْلُحُ شَيْءٌ مِنْهَا أَنْ يَكُونَ رَبًّا وَلَا إِلَهاً.

وقال لَهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَجْعَلُونَ شُرَكَاءَ للهِ في رُبُوبِيَّتِهِ، أو في إِلَهِيَّتِهِ.

وقال لَهُمْ عَلَيْهِ السَّلَام، مَا جَاءَ بَيَانُهُ في الآية التَّالِيَة:

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩)﴾:

أي: أُأَكِّدُ لَكُمْ أَنِّي جَعَلْتُ وَجْهِي في إيمَانِي وَفِي عِبَادَتِي للهِ، الَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ كُلَّها وَفَطَرَ الْأَرْضَ، حَالَةَ كَوْنِي مَائِلاً عَنْ كُلِّ انْحِرَافَاتِ المشْرِكِين، إِلَىٰ الالْتِزَام بِصِرَاطِ الحقِّ المسْتَقِيمِ الْقَائِمِ عَلَىٰ تَوْحِيدِ اللهِ في رُبُوبِيَّتِهِ وإِلَهِيَّتِهِ، وأقُولُ لَكُم: مَا أَنَا مِنَ الْمشْرِكِين.

عندئذٍ بَدَأَ الْمُجَادِلُونَ مِنْ قَوْمِهِ يُجَادِلُونَهُ وَيُحَاجُّونَهُ رَغْبَةً فِي إِثْبَاتِ صِحَّةِ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ شِرْكٍ.

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ۚ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ۚ ... (٨٠)﴾:

الْمُحَاجَّةُ: المجادَلَةُ، يُقَالُ لغة: «حَاجَّهُ، يُحَاجُّهُ، مُحَاجَّةً، وَحِجَاجاً» أي: جادَلَهُ.

أي: أَتُحَاجُّونِّي في اللهِ الَّذِي تُؤْمِنُونَ أَنْتُمْ بِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ بِهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ به سُلْطاناً، وَقَدْ هَدَانِي بالدَّلِيلِ الْبُرْهَانِي إلى أَنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَلَا فِي إِلَهِيَّتِهِ؟؟!.

فَلَجَؤُوا إِلَىٰ تَخْوِيفِهِ مِنْ آلِهَتِهِمْ أَنْ يُنْزِلُوا بِهِ ضُرّاً، فقال لهم:

﴿... وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔاۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

أي: وَمَهْمَا خَوَّفْتُمُونِي بِضُرٍّ يَأْتِينِي مِنْ آلِهَتِكُمْ الَّتِي جَعَلْتُموهَا شُرَكَاءَ للهِ؛ فَإِنَّنِي لَا أَخَافُ أَنْ يَنْزِلَ بِي ضُرٌّ أَوْ أذىً مِنْ جِهَتِهَا.

إِنَّهُ لَا يَأْتِينِي ضُرٌّ أَوْ أذىً إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبِّي شيئاً مِن ذلك، وَمَشِيئَتُهُ لَا تُفَارِقُ حِكْمَتَهُ، وَقَدْ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً، فَلَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَمْرٌ.

﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: أَفَلَا يُؤَثِّرُ فِيكُمْ هٰذَا التَّذْكِيرُ لَكُمْ بالْحَقِّ، الموجود في أَعْمَاقِ قُلُوبِكُمْ عَنِ اللهِ رَبِّكُمْ، فَيَدْفَعَكُمْ إلى نَبْذِ مَا أَنْتُمْ مُنْغَمِسُونَ فِيهِ مِنْ شِرْكٍ، وإِلَىٰ الْبُعْدِ عَنْ كُلِّ مُجَادَلَةٍ بالبَاطِلِ، وَيُحَرِّضُكُمْ عَلَىٰ الإيمانِ باللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ له، وأَنَّهُ لَا ضَارَّ فِي الوجُودِ وَلَا نَافِعَ إِلَّا هو.

وقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُمْ أيضاً باسْتِفْهَامٍ تَعَجُّبِيٍّ مِنْ تَخْوِيفِهِمْ لَهُ:

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًاۚ ... ﴿٨١﴾﴾؟؟!.

أي: وفي أَيَّةِ حَالَةٍ مِنَ الْأَحْوَالِ أَخَافُ ضُرّاً أَوْ أذىً يَنْزِلُ بِي مِن قِبَلِ أَرْبَابٍ وآلِهَةٍ جَعَلْتُمُوهَا شُرَكَاءَ للهِ زُوراً وَكَذِباً، وهِيَ لَا حَقِيقَةَ لَهَا فِي رُبُوبِيَّةٍ وَلَا إِلَهِيَّة، وَأَنْتُمْ لَا تَخَافُونَ عَذَابَ اللهِ رَبِّكُمْ الَّذِي جَعَلْتُمْ لَهُ

شُرَكَاءَ، دُونَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْكُمْ حُجَّةً تَحْتَجُّونَ بِهَا عِنْدَه، حِينَما يُحَاسِبُكُمْ يَوْمَ الدِّينِ عَلَىٰ مَا قَدَّمْتُمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ؟؟!.

وبَعْدَ هٰذَا الاسْتِفْهَامِ التَّعَجُّبِيِّ مِنْ أَمْرِهِمْ، قَالَ لَهُمْ عَلَيْهِ السَّلَام:

﴿... فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾:

أي: فَأَخْبِرُونِي يَا قَوْم: أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَنَا أَمْ أَنْتُمْ؛ أَكْثَرُ اسْتِحْقَاقاً للظَّفَرِ بالأَمْنِ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ؟؟. أَوْ إِنْ كُنْتُمْ حَرِيصِينَ عَلَىٰ أَنْ تَعْلَمُوا الحقّ، وَتَتَخَلَّصُوا مِنْ بَاطِلِكُمُ الَّذِي أَنْتُمْ مُنْغَمِسونَ فِيهِ.

وَأَخيراً أَبَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ أَنَّ الَّذِينَ لَهُمُ الأَمْنُ بِفَضْلِ اللهِ رَبِّهِمْ؛ هُمُ المهتدُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَخْلِطُوا إِيمانَهُمْ بِشِرْكٍ، فقال لهم:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾:

أي: إِنّ الأَحَقَّ بالأَمْنِ هُمُ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً صَحِيحاً صَادِقاً باللهِ رَبِّهِمْ ذَاتاً وَصِفَاتٍ، وَلَمْ يَخْلِطُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ مِنْ دَرَكَةِ الكُفْر، كالشِّرْكِ باللهِ، إِذِ الشِّرْكُ ظُلْمٌ عظيم، أَوْ مِنْ درَكَةِ كَبَائِرِ الإِثْمِ كالْقَتْلِ بغَيْرِ حَقٍّ.

أولَئِكَ الَّذِينَ هُمْ رَفِيعُوا المكانَةِ عِنْدَ رَبِّهِمْ، هُمُ الَّذِينَ يَحْصُلُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الأَمْنُ مِنْ مَخَاوِفِ عَذَابِ النَّارِ، بِتَسْلِيمِ اللهِ لَهُمْ، وَحِفْظِهِمْ وَرِعَايَتِهِمْ والْعَفْوِ عَنْ ذُنُوبِهِمْ، وَزَحْزَحَتِهِمْ عَنِ النَّارِ، وإِدْخَالِهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ، وهُمْ مُهْتَدُونَ مَحْكُومٌ لَهُمْ بالْهِدَايَةِ فِي مَحْكَمَةِ الْعَدْلِ والْفَضْلِ الرَّبَّانِيَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَة.

وأَثْنَىٰ اللهُ عَزَّ وَجلَّ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام بِقُوَّةِ الْحُجَّةِ الدَّامِغَةِ، وبارْتِفَاعِ دَرَجَاتِهِ الَّتِي جَعَلَتْهُ مُتَمَيِّزاً في تَارِيخ الْبَشر، وإِمَاماً للنَّاسِ في الفضائِلِ الفكْرِيَّةِ والنَّفْسِيَّةِ والخُلُقِيَّةِ والسُّلُوكِيَّةِ، وقَدْ رَفَعَهُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ هٰذِهِ الدَّرَجاتِ لِعِلْمِهِ بِهِ، وَحِكْمَتِهِ في وَضْعِ الأَشْيَاءِ في مَوَاضِعِها، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ:

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾.

وأبانَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ ما وَهَبَهُ مِنْ ذُرِّيَّةٍ صَالِحَةٍ مُحْسِنَةٍ، هُمْ مِنَ الرُّسُلِ الصَّالِحِينَ المتَمَيِّزِينَ، فقال اللهُ عَزَّ وَجلَّ:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾.

(٦) مَرْحَلَةُ دَعْوَةِ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مَلِكَ قَوْمِهِ الطَّاغِيَةَ نُمْرود:

قالَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾:

أي: ألم تَرَ نَاظِراً بِفِكْرِكَ إِلَىٰ هذا الملكِ الكافِرِ الجبّارِ المراوغ المغالط.

﴿ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾: قيل في نَسَبِهِ: هو نِمْرُودُ بْنُ كُوش، وإنَّ جَدَّهُ الأَعْلَىٰ حَام بنُ نُوح عَلَيْهِ السَّلَام[1]. وقيل: هو صَيَّادٌ جبَّارٌ، ومَلِكٌ قديرٌ، وهو مُؤَسّس الأُسْرَةِ الحاكِمَةِ في «بَابل» و«أَرَكَ» و«أَكَّدَ» و«كَلْنَة» فِي أَرْض «شِنْعَار».

(١) انظر سِفر التكوين (١٠).

دَلَّتْ هَـٰذِهِ الآيَةُ عَلَىٰ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام دَخَلَ عَلَىٰ مَلِكِ قَوْمِهِ «نِمْرُودْ» الجبَّار، وَدَعَاهُ إِلَىٰ الإيمانِ باللهِ رَبِّهِ وَرَبِّ العالَمِينَ، وإِلَىٰ نَبْذِ الْوَثَنِيَّةِ الَّتِي هِيَ مِيرَاثُ مِلَّةِ قَوْمِهِ، فَرَفَضَ الاسْتِجَابَةَ لِدَعْوَةِ رَسُولِ اللهِ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَام، واتَّخَذَ وَسِيلَةَ المغَالَطَةِ حِينَ قَالَ «نِمْرُودُ» لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟.

قَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾: أي: هُوَ الَّذِي يَخْلُقُ نَفْساً مِنْ مَادَّةٍ لا حَيَاةَ لَهَا، فَيَنْفُخُ فِيهَا الرُّوحَ، فَتَكُونُ بِخَلْقِ اللهِ نَفْساً ذَاتَ حَيَاةٍ، بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً، وهُوَ الَّذِي يُمِيتُ الْأَحْيَاءَ عِنْدَ انْتِهَاءِ آجَالِهِمْ، بِنَزْعِ الْأَرْوَاحِ الَّتِي كانُوا بِهَا أَحْيَاء.

فاتَّخَذَ «نِمْرُودُ» أُسْلُوب الْمُغَالَطَةِ خَارِجاً عَنْ أَصْلِ معْنَىٰ الإحياء والإمَاتَةِ في بيانِ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام، فقال نِمْرُود:

﴿أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾: أي: أُحْضِرُ إِنْسَاناً حَيًّا، فَأَضْرِبُ رَقَبَتَهُ بالسَّيْفِ فَأُمِيتُهُ، وأُحْضِرُ إِنْسَاناً مَحْكُوماً عَلَيْهِ بالْمَوْتِ لِجُرْمٍ ارْتَكَبَهُ، فَأَعْفُو عَنْهُ وأُطْلِقُ سَرَاحَهُ، فَأَكُونُ بِهـٰذَا قَدْ أَحْيَيْتُهُ.

فَأَدْرَكَ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ يُرَاوِغُ عَنِ الحقيقة، لِيُقْنِعَ مَنْ حَوْلَهُ فِي مَجْلِسِهِ الْمَلَكِيِّ، أَنَّهُ انْتَصَرَ عَلَىٰ الرَّسُولِ الَّذِي يَدْعُو إِلَىٰ اللهِ وإِلى صِرَاطِهِ المسْتَقِيم.

فَلَمْ يَشَأْ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِحِكْمَتِهِ أَنْ يَكْشِفَ حِيلَةَ «نِمْرُودَ» فِي مُرَاوَغَتِهِ، حَذَرَ أَنْ يُتَابِعَ «نِمْرُودُ» التَّهَرُّبَ مِنْ مَسَالِكَ فِكْرِيَّةٍ في قَضِيَّةِ تَحْدِيدِ الْمَعْنَىٰ المقْصُودِ بالْحَيَاةِ والْمَوْت، فَانْتَقَلَ إِلَىٰ ظَاهِرَةٍ هِيَ مِنْ خَلْقِ اللهِ، وَلَا يَسْتَطِيعُ «نِمْرُودُ» أَنْ يُرَاوِغَ فيها.

فقال لَهُ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾:

أي: فإِنَّ اللهَ الَّذِي هُوَ الرَّبُّ الْخَالِقُ مِنْ نِظَامِهِ في الخَلْقِ أَنْ يَأْتِي بالشَّمْسِ صَبَاحاً مِنَ المشْرِقِ، فَإِنْ كُنْتَ يا «نِمْرُودُ» رَبّاً قَادِراً عَلَىٰ أَنْ

تَتَصَرَّفَ فِي الْكَوْنِ تَصرُّفَ خَالِقِ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، فاجْعَلِ الشَّمْسَ تُشْرِقُ صَبَاحاً مِنَ المَغْرِبِ بَدَلَ أَنْ تَبْزُغَ صَبَاحاً مِنَ المشْرِق.

• ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾: أي: دُهِشَ واحْتَارَ، وانْقَطَعَ عَنْ مُتَابَعَةِ الْحِوَار، وَظَهَرَ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ غَلَبَهُ في المناظَرَةِ.

• ﴿... وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾: أي: واللهُ لَا يَـهْـدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ الظَّالِمِينَ، لِلْخَلَاصِ مِنَ المآزِقِ الَّتِي تُحِيطُ بِهِم، إذْ يُقَاوِمُونَ دِينَهُ الْحَقَّ، سَوَاءٌ أكانَتْ مآزِقَ فِكْرِيَّةً، أم مَآزِقَ مَادِّيَّةً.

ولا بُدَّ أَنْ يَكُونَ «نِمْرُودُ» قَدْ حَقَدَ على إبراهيم، وَوَضَعَ في نَفْسِهِ تَدْبِيرَ خُطَّةِ التَّخلُّصِ مِنْهُ بالقَتْل، كَشأْنِ كُلِّ كافِرٍ طاغِيَةٍ جَبَّارٍ.

ودلَّتْ عِبَارَةُ: ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ عَلَىٰ أَنَّهُ قَدْ كَانَ من الواجِبِ عَلَيْهِ أَنْ يَشْكُرَ نِعْمَةِ اللهِ عليه بالملْكِ فَيُؤْمِنَ، لَا أن يَكُونَ كفَّاراً جحوداً عَنِيداً. ودلَّتْ عَلَىٰ أَنَّ الملْكَ عَطَاءٌ من اللهِ لِبَعْضِ عِبادِه.

❁ ❁ ❁

الفصل الخامس

حِرصُ إبراهيم عَلَيهِ السّلَام على أن يَصِلَ إلَىٰ كَمالِ اليَقِين لِيَطمَئِنَّ قَلبُهُ فِي قَضِيَّةِ إحيَاءِ المَوتَىٰ

قال الله عَزَّ وَجَلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾:

• ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾: أي: أَمِلْهُنَّ إِلَيْكَ، وَقَرِّبْهُنَّ إِلَيْكَ، ويُفْهَمُ مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ ما يَلِي:

ثُمَّ اذْبَحْهُنَّ وَجَزِّئْهُنَّ أَجْزَاءً صُغْرَىٰ، واخْلِطْ هَـٰذِهِ الْأَجْزَاءَ خَلْطاً كَامِلاً، حَتَّى تَكُونَ بِمَثَابَةِ عَجِينَةٍ وَاحِدَة، ثُمَّ قَسِّمْ هَـٰذِهِ الْعَجِينَةَ الْمُخْتَلِطَة إِلَىٰ أَجْزَاء، ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْ حَوْلِ الْوَادِي الَّذِي أَنْتَ فِيهِ جُزْءاً، ثُمَّ ارْجِعْ إِلَىٰ مَكَانٍ مَا مِنْ بَطْنِ الْوَادِي، ثُمَّ ادْعُ الطُّيُورَ الَّتِي ذَبَحْتَهَا وَجَزَّأْتَهَا، وَخَلَطْتَ أجْزَاءَهَا وَجَعَلْتَهَا بِمَثَابَةِ عَجِينَةٍ واحِدة، فإِنَّهُنَّ يَأْتِينَك سَعْياً، كُلُّ طَيْرٍ مِنْهَا يَأْتِيكَ بِكَامِلِ وَصْفِهِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ، قَبْلَ أَنْ تَذْبَحَهُ وَتُجَزِّئَهُ، وَتَخْلِطَهُ مَعَ أَجْزَاءِ الطُّيُورِ الْأُخْرىٰ.

ويَظْهَرُ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ أَجْرَىٰ التَّجْرِبَةَ، واطْمَأَنَّ قَلْبُهُ طُمَأْنِينَةً تَامَّةً.

دلَّتِ النُّصُوصُ الْقُرْآنِيَّة عَلَىٰ أَنَّ الْعِلْمَ لَهُ ثَلاثُ مَرَاتب:

المرتبَةُ الدُّنْيَا: مَرْتَبَةُ عِلْمِ الْيَقِين، وهَـٰذِهِ الْمَرْتَبَةُ تَكْفِي لِتَحقُّقِ الإيمَانِ الصَّحِيحِ المقبولِ عِنْدَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وعِلْمُ الْيَقِينِ هُو الْقَائِمُ عَلَىٰ الدَّلِيلِ الْعَقْلِي، أو الْخَبَر الصَّادِقِ الْقَطْعِيِّ.

المرْتَبَةُ الْوُسْطَىٰ: مرْتَبَةُ عَيْنِ الْيَقِينِ، وَهَـٰذِهِ الْمَرْتَبَةُ تَقُومُ عَلَىٰ الشُّهُودِ والْمُعَايَنَةِ، بَعْدَ الدَّلِيلِ الْعَقْلِي، أَوِ الْخَبَرِ الصَّادِقِ الْقَطْعِيّ، فَاشْتَرَكَتِ الْمُشَاهَدَةُ بالْعَيْنِ، مَعَ الدَّلِيلِ الْعَقْلِيّ الْكَافِي لِلعِلْمِ، أو مع الْخَبَرِ الصَّادِقِ الْقَطْعِيّ، أَوْ مَعَهُمَا.

والعِلْمُ الْقَائِمُ عَلَىٰ عَيْنِ الْيَقِينِ أَشَدُّ قُوَّةً وَثَبَاتاً؛ مِن الْعِلْمِ الْقَائِمِ عَلَىٰ مُجَرَّدِ الْيَقِينِ بالدَّلِيلِ العقليّ أَوِ الْخَبَرِ الصَّادِقِ الْقَطْعِيّ.

الْمَرْتَبَةُ الْعُلْيَا: مَرْتَبَةُ حَقِّ الْيَقِينِ، وهَـٰذِهِ الْمَرْتَبَةُ تَقُومُ عَلَىٰ اشْتِرَاكِ الإِدْرَاكِ الْعَقْلِي؛ والإِدْرَاكِ الْحِسِّيّ ذِي الأَثَرِ الْمَادِّيّ فِي الْجَسَد.

فالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بالنَّارِ دَارِ عَذَابِ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَ الدِّينِ، تَصْدِيقاً لِلأَخْبَارِ الدِّينيَّةِ الصَّحِيحَةِ الصَّادِقَة؛ لَدَيْهِمْ عِلْمُ اليقين.

والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِهَا بَعْدَ أَنْ يَشَاهِدُوهَا بِأَعْيُنِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ لَدَيْهِم عَيْنُ الْيَقِينِ.

والَّذِينَ يَدْخُلُونَهَا وَيُعَذَّبُونَ بَعَذَابِهَا يَوْمَ الدِّينِ، وَيذُوقُونَ آلامَ عَذَابِهَا؛ لَدَيهِمْ حَقَّ الْيَقِين.

وقَدْ كَانَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُؤْمِناً إِيمَاناً رَاسِخاً بِأَنَّ اللهَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ، وَكَانَ إِيمَانُهُ مُسْتَنِداً إلى مَرْتَبَةِ: «عِلْمِ الْيَقِينِ» تَصْدِيقاً لِخَبَرِ الْوَحْي.

وأَرَادَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَكُونَ إيمانُهُ مُسْتَنِداً إِلَىٰ عَيْنِ الْيَقِينِ، فَيُشَاهِدَ بِعَيْنَيْهِ حَدَثاً وَاقِعِيًّا يَكُونُ فِيهِ إِحْيَاءٌ لِلْمَوْتَىٰ.

فَقَالَ لِرَبِّهِ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ وكان طَلَبُهُ هٰذَا لَيْسَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُؤْمِنَ، إِذْ كَانَ مُؤْمِناً كَامِلَ الإيمانِ المطلوب مِنْه، بالاسْتِنَادِ إلى عِلْمِ الْيَقِينِ الَّذِي لَدَيهِ، وَلَمْ تكُنْ لَدَيْهِ مَرْتَبَةُ عَيْنِ الْيَقِين.

فَسَأَلَهُ رَبَّهُ وَهُوَ الْخَبِيرُ بِمَا فِي نَفْسِهِ: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾؟: أي: أَلَمْ تَعْلَمْ عِلْماً كَافِياً لِلْإِيمانِ، وَلَمْ تُؤْمِنْ بِأَنِّي أُحْيِي الموتَى؟، ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾: أي: بَلَىٰ لَقَدْ عَلِمْتُ عِلْماً مِنْ مَرْتَبَةِ «عِلْمِ الْيَقِينِ»، وَآمَنْتُ إِيمَاناً عَلَىٰ مِقْدَارِ «عِلْمِ الْيَقِينِ» الَّذِي لَدَيّ، وأُرِيدُ أَنْ أَرْتَقِيَ إِلَىٰ مَرْتَبَةِ «عَيْنِ الْيَقِينِ» لِيَزْدَادَ إيماني، ويَصِلَ قَلْبِي إلى الطُّمَأْنِينَةِ، وَهِيَ السُّكُونُ الْمُرْتَخِي الَّذِي لَا يُصَاحِبُهُ تَوَفُّزٌ، ضِمْنَ قَاعِدَةِ زِيَادَةِ الإيمانِ وَنَقْصِهِ، وَلَوْ كَانَ إِيمَانَ الأَنْبِيَاءِ والْمُرْسَلِين.

فأجابَ اللهُ طَلَبَهُ: ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً﴾ أي: مُخْتَلِفَةَ الأَنْوَاعِ أَوِ الأَشْكَالِ ﴿مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ ثُمَّ اذْبَحْهُنَّ وَجَزِّئْهُنَّ وَاخْلِطْ هَٰذِهِ الأَجْزَاءَ خَلْطاً كَامِلاً ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾.

وَأَجْرَىٰ التَّجْرِبَةَ، وَدَعَا الطُّيُورَ الَّتِي ذَبَحها، فَأَقْبَلْنَ إِلَيْهِ مُسْرِعَةً تَسْعَىٰ.

﴿... وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾: أي: واعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَوِيٌّ غَالِبٌ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ يُرِيدُهُ، وَحَكِيمٌ في اخْتِيَارَاتِهِ، لَا يَخْتَارُ إِلَّا مَا هُوَ حَكِيمٌ.

❁ ❁ ❁

الفصل السّادس

عزمُ إبراهيم عَلَيهِ السّلامُ أَن يُحطِّمَ أَصْنَامَ قومِهِ فِي مَكَانٍ جامِعٍ لها ثُمّ تنفِيذُهُ مَا عَزَمَ عَلَيه

كَانَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُنْذُ مَرَاحِلِ دَعْوَتِهِ الْوسْطَىٰ؛ قَدْ عَزَمَ في نَفْسِهِ أَنْ يُحَطِّمَ أَصْنَامَ قَوْمِهِ فِي مَكَانٍ جَامِعٍ لَهَا، وصَارَ مع مُتَابَعَةِ دَعْوَتِهِ إِلَىٰ دِينِ اللهِ الحقِّ يَتَرَقَّبُ الْفُرْصَةَ الْمُوَاتِيَةَ، الَّتِي يَكُونُ فِيهَا قَوْمُهُ خَارِجَ مَدِينَتِهِمُ الَّتِي فِيهَا بَيْتُ أَصْنَامِهِمُ الأَكْبَرُ.

دَلَّ على هٰذَا الْعَزْمِ مِنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ حِكَايَةً لِمَا دَار في نَفْسِهِ مِنْ فِكْرَةٍ عَزَمَ عَلَىٰ تَنْفِيذِهَا، حِينَما يَجِدُ الْفُرْصَةَ السَّانِحَةَ، بَعْدَ حِوَارٍ جَرَىٰ بَيْنَهُ وبَيْنَ أبيهِ وَقَوْمِهِ، في سورة (الأَنْبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾:

الكيد: التَّدْبيرُ الَّذِي فِيهِ مَكْرُوهٌ لِمَنْ دُبِّرَ ضِدَّهُ، ويطْلَقُ على الحرْب، وعلى إعْدَادِ وَسَائِلِها، وَعَلَىٰ الحيلة.

وَكَانَ مَا دَبَّرَهُ وَعَزَمَ عَلَيْهِ فِي نَفْسِهِ، تَحْطِيمَ أَصْنَامِهِمْ في المَكَانِ الكَبِيرِ الجامع لأنْوَاعها.

﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ﴾: أي: في الْيَوْم الَّذي تَكُونُونَ فِيهِ بَعِيدِينَ عَنْ مَدِينَتِكُمْ، وَخارِجِينَ مُدْبِرِينَ مُبْتَعِدِينَ عَنْ أَسْوَارِهَا، أو عَمَّا حَوْلَهَا مِنْ مَزَارِع، إِذْ تَكُونُ مَدِينتكُمْ خَالِيَةً مِمَّن يُرَاقِبُ مَا يَجْرِي فِي بَيْتِ أَصْنَامِكُمْ.

وَكَانَ لَهُمْ يَوْمُ عِيدٍ يَخْرُجُونَ فِيهِ مِنْ مَدِينَتِهِمْ إِلَىٰ مَكَانٍ واسِعٍ جَامِعٍ، بَعِيدٍ عَنْ حُدُودِها، يَفْعَلُونَ فِيهِ مَا يَفْعَلُ النَّاسُ فِي أَعْيَادِهِمْ مِنْ لَهْوٍ ولَعِبٍ وَزِينَةٍ وأَكْلٍ وَشُرْبٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وسَنَحَتْ لَهُ الْفُرْصَةُ فِي لَيْلَةٍ مِنْ اللَّيَالِي، الَّتِي يَكُونُ بَعْدَهَا يَوْمٌ مِنْ أَيَّامِ أَعْيَادِهِمُ الْكُبْرَىٰ، الَّتِي يَخْرُجُ فِيهَا كُلُّ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لِلْمُشَارَكَةِ فِي هٰذَا الْعِيد.

فَأَقَامَ حِواراً بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِيهِ وَقَومِهِ، وَنَظَرَ بَعْدَهُ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنِّي سَقِيمٌ لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَخْرُجَ مَعَكُمْ إِلَىٰ عِيدِكُمْ وَالْمُشَارَكَةِ فِيهِ.

دَلَّ عَلَىٰ هٰذَا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الصَّافَّاتِ/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾:

أي: ضَعْ فِي ذَاكِرَتِكَ أَيُّهَا المتَلَقِّي جِهَادَ إِبْرَاهِيمَ الدَّعَوِيَّ، حِينَ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مُسْتَنْكِراً وَمُنْتَقِداً بِشِدَّةٍ عِبَادَتَهُمْ أَوْثَاناً هُمْ يَنْحِتُونَهَا أَوْ يَصْنَعُونَها بِأَيْدِيهِم، وهِيَ لَا تَسْمَعُ وَلَا تَرَىٰ وَلَا تُجِيبُ وَلَا تَعْقِلُ، وَلَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ.

- ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾: مَا الَّذِي تَعْبُدُونَه، وهٰذَا الاسْتِفْهَامُ إِنْكَارِيٌّ تَثْرِيبِيٌّ، مَعَ مَا فِيهِ مِنْ إِظْهَارِ الْعَجَبِ الشَّدِيدِ مِنْ سَفَاهَتِهِمْ وَنَقْصِ عُقُولِهِم.

- ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾﴾؟!:

الإفْكُ: الإفْكُ الكَذِبُ قولاً كَانَ أَمْ عَمَلاً، فمنْ صَنَعَ صَنَماً وَجَعَلَهُ إلَهاً يَعْبُدُهُ، فَقَدْ عَمِلَ كَذِباً، لِأَنَّهُ جَعَلَ مَا لَيْسَ لَهُ مِنَ الرُّبُوبِيَّةِ شَيْءٌ، وَلَا مِنَ الإلَهِيَّةِ شَيْءٌ، إلَهاً يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ.

فالمعْنَىٰ: أَتَتَّخِذُونَ أَصْنَاماً وَتَجْعَلُونَهَا آلِهَةً تُعْبَدُ إفْكاً وكَذِباً عَلَىٰ الله، الَّذِي لَهُ وَحْدَهُ فِي كُلِّ الْوُجُودِ الرُّبُوبِيَّة، فَلَهُ وَحْدَهُ الإلَهِيَّةَ، وتُرِيدُونَ بِعِبَادَتِكُمْ لَهَا أَنْ تَجْلُبَ لَكُمْ نفعاً، أَوْ تَدْفَعَ عَنْكُمْ ضُرًّا.

• ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾:

أي: فَمَا ظَنُّكُمْ الَّذِي تَظُنُّونَهُ بِرَبِّكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ جَمِيعاً؟؟. أَتَظُنُّونَ أَنَّهُ سَيَغْفِرُ لَكُمْ عِبَادَتَكُمْ لِغَيْرِهِ، وأَنْ تَجْعَلُوا لَهُ شَرِيكاً مِمَّا خَلَقَ؟!.

أَتَظُنُّونَ أَنَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ غَيْرُ عَالِمٍ بِمَا تَصْنَعُونَ، وَبِمَا فِي نُفُوسِكُمْ تُضْمِرُونَ؟؟!.

أَتَظُنُّونَ أَنَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ لَا يُحْصِي عَلَيْكُمْ أَعْمَالَكُمُ الإرادِيَّة الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَة، وَلَا يُحَاسِبُكُمْ وَلَا يُجَازِيكُمْ عَلَيْهَا يَوْمَ الدِّين؟!.

اسْتَعْمَلَ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلام التعْبِيرَ بالظَّنِّ هُنَا، لِأَنَّ قَوْمَهُ لَا يَمْلِكُونَ ظَنًّا مُؤَيَّداً بِدَلِيلٍ ما، يُخَالِفُ مَا يَدْعُوهُمْ إلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ، وَنَبْذِ الشِّرْكِ، والْتِزَامِ صِرَاطِ الله المستقيم.

أَمَّا عِبَادَتُهُمْ لآلِهَتِهِمْ فَهِيَ مَبْنِيَّةٌ عَلَىٰ عَقَائِدَ خُرَافِيَّةٍ تَقْلِيدِيَّةٍ، لَا يُزَيِّنُهَا ظَنٌّ مَقْبُولٌ فِي أَذْهَانِ الْعُقَلَاءِ، بَلْ هِيَ أَوْهَامٌ صَارَتْ عَقَائِدَ بالتَّقْلِيدِ الأَعْمَىٰ.

وبَعْدَ أَنْ جَاهَدَ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَبَاهُ وَقَوْمَهُ جِهَاداً دَعَوِيًّا فِيهِ شِدَّةٌ وشَيْءٌ مِنَ الْعُنْفِ التَّلْوِيمِيِّ؛ تَحَرَّكَتْ فِيهِ عَزِيمَتُهُ أَنْ يُحَطِّمَ أَصْنَامَهُمْ، وَقَدْ سَنَحَتْ لَهُ الْفُرْصَةُ الَّتِي يَتَرَقَّبُهَا.

• ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ۝ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ۝﴾:

حَرَكَةٌ ذَكِيَّةٌ بَارِعَةٌ، أَوْهَمَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَنْ حَوْلَهُ مِنْ عَشِيرَتِهِ؛ أَنَّهُ عَلَىٰ طَرِيقَتِهِمْ فِي النَّظَرِ إِلَىٰ حَرَكَاتِ النُّجُومِ، دُونَ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ: إِنِّي أَسْتَطْلِعُ حَرَكَاتِها، وَأَتْبَعَ هَـٰذِهِ الْحَرَكَةَ بِقَوْلِهِ لَهُمْ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾: أي: مَرِيض، وَمَرَضِي يَمْنَعُنِي مِنْ أَنْ أَخْرُجَ مَعَكُمْ فِي يَوْمِ عِيدِكُمْ.

فَتَوَهَّمُوا أَنَّهُ اسْتَطْلَعَ مِنَ النَّظَرِ إِلَىٰ النُّجُومِ أَنَّهُ سَيَكُونُ غداً مَرِيضاً سَقِيماً، يَمْنَعُهُ سَقَمُهُ مِنْ أَنْ يَخْرُجَ مَعَهُمْ لِيَلْهُوَ ويَلْعَبَ وَيُشَارِكَ قَوْمَهُ فِي يَوْمِ عِيدِهِمْ.

قَولُهُ عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ إِحْدَىٰ الكَذِبَاتِ الثَّلَاثِ اللَّائِي احْتَسَبَهَا عَلَىٰ نَفْسِهِ، كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ الشفاعَةِ الَّذِي رواه البخاري وَمُسْلِمٌ[1]. مَعَ أَنَّ ثِنْتَيْنِ مِنْهَا كَانَتَا فِي ذَاتِ اللهِ، وهما قَوْلُهُ: «إِنِّي سقيمٌ»، وقوله: «بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرهُمْ هَذَا»، أَمَّا الثالِثَةُ فَقَولُهُ لِلْمَلِكِ الْجَبَّارِ حِينَ أَرَادَ امْرَأَتَهُ «سَارَة» هِيَ أُخْتِي، يَعْنِي أُخْتَهُ فِي الإِسْلَامِ، إِذْ مِنْ عَادَةِ هـٰذَا الْمَلِكِ أَنْ يَقْتُلَ أَزْوَاجَ مَنْ تُعْجِبُهُ مِنَ النِّسَاءِ.

فَقَبِلَتْ عَشِيرَتُهُ عُذْرَهُ، وَخَرَجُوا مَع النَّاسِ إِلَى عِيدِهِمْ، وَبَقِيَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام في الْمَدِينَةِ لَا يُرَاقِبُهُ فِيهَا أَحَدٌ.

• ﴿... فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ۝﴾:

أي: فَخَرَجَ أَهْلُهُ وَعَشِيرَتُهُ نَائِينَ عَنِ المكانِ الذي كَانَ هُوَ فِيهِ دَاخِلَ الْمَدِينَةِ، جَاعِلِينَ وُجُوهَهُمْ إِلَىٰ جِهَةِ مَكَانِ الْعِيدِ، وَجَاعِلِينَ أَدْبَارَهُمْ، أي ظُهُورَهُمْ؛ إِلَىٰ جِهَةِ الْمَدِينَةِ.

---

(١) انظر حديث الشفاعة في الصفحات (٤١٤ ـ ٤١٦)، من المجلّد (٨)، الملحق الثاني «حَوْل الشفاعَة يَوْم الدين وأنواعِها».

فَلَمَّا فَرَغَتِ الْمَدِينَةُ مِنْ مُرَاقِبي بَيْتِ أصْنَامِ قَوْمِهِ تَوَجَّهَ بِعَزِيمَةٍ قَوِيَّة، لِتَنْفِيذِ تَحْطِيمِ الْأَصْنَام.

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾:

﴿فَرَاغَ﴾: أي: فَأَسْرَعَ بِخِفَّةٍ وَنَشَاطٍ يَسِيرُ يَمِيناً وَشِمالاً، وَيَحْذَرُ أَنْ يَرَاهُ أَحَدٌ، حَتَّىٰ وَصَلَ إِلَىٰ بَيْتِ الْأَصْنَام.

فَقَدَّمَ لِلْأَصْنَامِ طَعَاماً، وَرُبَّمَا وَجَدَهُ عَنْدَهُمْ، فَقَالَ لَهُمْ: أَلَا تَأْكُلُون؟. خاطبَ الْأَصْنَامَ بِخِطَابِ الْجَمَاعَةِ الذُّكُور، إِذْ هِي عَلَىٰ صُورِ ذُكُور، وَيَعْتَقِدُ عُبَّادُهَا أَنَّهَا تُدْرِكُ عِبَادَة عُبَّادِهَا لَهَا، وَتَعْلَمُ نِيَّاتِهِمْ.

وَحَادَثَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْأَصْنَامَ فَلَمْ تُجِبْهُ، فَقَالَ لَهُمْ: مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُون؟.

إِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بأسْئِلَتِهِ لِلْأَصْنَامِ يَسْخَرُ مِنْهَا، وَيَهْزَأُ بِهَا، مُحْتَقِراً لَها، إِذْ هُوَ يَعْلَمُ أَنَّهَا حِجارَةٌ أَوْ أَخْشَابٌ لَا حَيَاةَ لَهَا فَهِيَ لَا تَتَكَلَّمُ، وَإِنَّمَا نَحَتَهَا السُّفَهَاءُ عَلَىٰ صُوَرِ أَحْيَاءٍ، وَصَارُوا يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللهِ.

وَهُنَا ثَارَ غَضَبُ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لِرَبِّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَعَزَمَ عَلَىٰ تَحْطِيمِها، بأداةٍ أَوْ بِغَيْرِ أَداة:

- ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾:

أيْ: فَأَسْرَعَ بِخِفَّةٍ وَحِدَّةٍ وَنَشَاطٍ يَضْرِبُهَا ضَرْباً قَوِيًّا بِيَدِهِ الْيُمْنَىٰ، فَهِيَ الْيَدُ الْأَقْوَىٰ عِنْدَهُ، وهِيَ الْيَدُ الَّتِي يَسْتَعْمِلُهَا فِي الْأُمُورِ الشَّرِيفة، فَكَسَّرَهَا إِلَّا وَثَناً كَبِيراً فيها، فَجَعَلَهَا جُذَاذاً، أي: قِطَعاً مُكَسَّرَة.

وَهُنَا يَأْتِي مَوْقِعُ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الْأَنْبِياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۝٥٨﴾:

الْجُذَاذُ: المقطَّعُ الْمُكَسَّرُ.

أي: فَجَعَلَ الْأَصْنَامَ قِطَعاً مُكَسَّرَةً باسْتِثْنَاءِ أَكْبَرِهَا، لَمْ يُكَسِّرْهُ، رَغْبَةً فِي أَنْ يَرْجِعُوا إِلَيْهِ فَيَسْأَلُوهُ: مَنْ كَسَّرَ سَائِرَ الْأَصْنَامِ؟، فَلَا يَجِدُوا عِنْدَهُ جَوَاباً، فَيَعْلَمُوا أَنَّهُمْ عَلَىٰ بَاطِلٍ، بِدَلِيلٍ عَمَلِيٍّ إِذْ لَمْ يَسْتَطِعْ كَبِيرُ الْأَصْنَامِ الَّتِي يَعْبُدُونَها مُتَوَهِّمِينَ أَنَّهَا تجلُبُ نفعاً أَوْ تَدْفَعُ ضُرّاً؛ أَنْ يُعْلِمَهُمْ بِمَنْ كَسَّرَ وَحَطَّمَ سَائِرَ الأَصْنَامِ، فَضْلاً عَنْ أَنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُدَافِعَ عَنْهَا، وَيَحْمِيَهَا مِنَ التَّحْطِيم والتَّكْسِير.

وحِينَ عَادَ قَوْمُهُ مِنْ عِيدِهِمْ وَجَدُوا أَصْنَامَهُمْ فِي الْبَيْتِ الكَبِيرِ لَهَا جُذَاذاً، باسْتِثْنَاءِ أكْبَرِهَا حَجْماً، أَوْ أَكْبَرِهَا فِي الإِلَـٰهِيَّة، فَاشْتَدَّ غَضَبُهُمْ عَلَىٰ مَنْ كَسَّرَ وحَطَّمَ آلِهَتَهُمُ الَّتِي يَعْبُدُونَها مِنْ دُونِ الله، فَتَسَاءَلُوا فِيما بَيْنَهُمْ: مَنْ فَعلَ هـٰذَا بآلِهَتِنا؟.

وَهُنَا يَأْتِي مَوْقِعُ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سُورَةِ (الْأَنْبِيَاءِ) أَيْضاً:

﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٥٩ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ۝٦٠ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۝٦١﴾:

أي: فَاجْتَمَعَ عِلْيَةُ الْقَوْمِ وَكُبَرَاؤُهُمْ بَعْدَ أَنْ شَهِدُوا أَصْنامَهُمْ مُحَطَّمَةً، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَنْ فَعَل هـٰذَا التَّحْطِيمَ بآلِهَتِنا؟، إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ المتجاوِزِينَ حُدُودَ الْحَقِّ والْوَاجِبِ، فَأَكَّدُوا قَوْلَهُم بـ: «إِنَّ ـ والجملة الاسميَّة ـ واللَّامِ المزحْلَقَة».

فَقَالَ بَعْضُهُمْ: سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ بِسُوءٍ، وأَنَّهَا آلِهةٌ بَاطِلَةٌ، يُقَالُ لَهُ: إِبْرَاهِيم.

قَالَ قَادَةُ قَوْمِهِ: فَأْتُوا بِهِ، وأَحْضِرُوهُ عَلَىٰ أعْيُنِ النَّاسِ الَّذِينَ تَجْمَعُونَهُمْ لِهٰذَا الْغَرَضِ، لِيَشْهَدُوا مُسَاءَلَتَنَا لَهُ، وَمَا نَحْكُمُ بِهِ عَلَيْهِ، إِذَا ثَبَتَ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي حَطَّمَ أَصْنَامَهُمْ.

وَهُنَا يأتي مَوْقِعُ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (الصَّافَات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾﴾:

أي: فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ الْمَأْمُورُونَ بإحْضَارِهِ يُسْرِعُونَ، يُقَالُ لغة: «زَفَّ، يَزِفُّ، زَفًّا، وَزُفُوفاً، وَزَفِيفاً» أي: أَسْرَعَ.

فَأَحْضَرُوهُ لِيُسَائِلُوهُ بِحُضُورِ جَمْعٍ مِنَ النَّاسِ، فإذَا ثَبَتَ أَنَّهُ هُوَ الْفَاعِلِ؛ حَكَمُوا عَلَيْهِ بِمَا يَشَاءُونَ مِنْ حُكْمٍ شَدِيدِ الْقَسْوَة.

وهُنَا يَأْتِي مَوْقِعُ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾:

أَيْ: قَالَ قَوْمُ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُ بِلِسَانِ مَنْ يَتَحَدَّثُ عَنْهُمْ مِنْ كُبَرَائِهِمْ وَقَادَتِهِمْ: أَأَنْتَ فَعَلْتَ هٰذَا التَّحْطِيمَ والتَّكْسِيرَ بآلِهَتِنَا مِنَ الأَصْنَامِ يَا إِبْرَاهِيمُ؟؟.

قَالَ مُسْتَهْزِئاً بِهِمْ وَمُسْتَخِفًّا بِعُقُولِهِمْ: لَا، بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هٰذَا الَّذِي لَمْ يَمَسَّهُ تَكْسِيرٌ وَلَا تَحْطِيمٌ، فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ.

لَقَدْ هَزَّ عُقُولَهُمْ وَأَجْهِزَةَ الإِدْرَاكِ فِيهِمْ هَزّاً عَنِيفاً بِهٰذِهِ الإجَابَةِ، وَلَا سِيما قَوْلُهُ لهم: فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ.

فَرَجَعُوا إِلَىٰ عُمْقِ أَنْفُسِهِمْ يُحَاكِمُونَهَا، إِذِ اكْتَشَفُوا أَنَّ آلِهَتَهُمْ لَا تَتَكَلَّمُ، وَلَا تُجِيبُ عَلَىٰ أَسْئِلَةِ عَابِدِيها، وَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَدْفَعَ عَنْ أَنْفُسِهَا التَّكْسِيرَ والتَّحْطِيمَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، أَوْ قَالُوا لِأَنْفُسِهِمْ فِي مُحَاكَمَةٍ دَاخِلِيَّةٍ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَنْفُسِهِمْ: إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ باتِّخَاذِ آلِهَةٍ لَا تَسْمَعُ وَلَا تُبْصِرُ وَلَا تَنْطِقُ، وَلَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَحْمِيَ أَنْفُسَهَا، مِمَّنْ يُرِيدُ تَكْسِيرَهَا وَتَحْطِيمَها.

لَكِنَّهُمْ بَعْدَ هٰذِهِ الْمُحَاكَمَةِ الدَّاخِلِيَّةِ لِأَنْفُسِهِمْ؛ رَجَعَتْ عَوامِلُ كِبْرِهِمْ، وانْتِصَارِهِمْ لِسَوَابِقِ اخْتِيَارَاتِهِمْ وَتَقَالِيدِهِمْ؛ تَنْفُخُ فِي صُدُورِهِمْ، فَانْقَلَبَتْ مَفَاهِيمُهُمُ الَّتِي قَوَّمَهَا التَّنْبِيهُ الإِبْرَاهِيمِيُّ، فَنُكِسُوا عَلَىٰ رؤوسِهِمْ.

وَهُنَا يَأْتِي مَوْقِعُ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) أَيْضاً:

﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾:

أُطْلِقَتْ عِبَارَة: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ عَلَىٰ سَبِيلِ الاسْتِعَارَةِ، لِلدَّلَالَةِ بِهَا عَلَىٰ انْقِلَابِ مَفَاهِيمِهِمْ إِلَىٰ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ، قَبْلَ أَنْ يُقَوِّمَهَا وَيَجْعَلَهَا سَوِيَّةً مُعْتَدِلَةً غَيْرَ مُنَكَّسَةٍ؛ تَنْبِيهُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهَا.

التَّنْكِيسُ: قَلْبُ الشَّيْءِ، وجَعْلُ أَعْلَاهُ أَسْفَلَهُ، أَوْ جَعْلُهُ يَمِيل شَيْئاً فَشَيْئاً إِلَىٰ أَسْفَلِهِ.

نُكِسُوا عَلَىٰ رُؤُوسِهِمْ: أي: قُلِبُوا فَجُعِلَتْ رُؤُوسُهُمْ فِي مَوَاضِعِ أَقْدَامِهِمْ، وَجُعِلَتْ أَقْدَامُهُمْ غايَةَ ارْتِفَاعِ أَجْسَادِهِمْ إِلَىٰ الأَعْلَىٰ، عَلَى عَكْسِ الْوَضْعِ الطَّبِيعِيِّ لِلأَجْسَادِ.

شُبِّهَ انْقِلَابُ مَفَاهِيمِهِمْ إِلَىٰ الْبَاطِلِ بِحَالَةِ تَنْكِيسِهِمْ عَلَىٰ رُؤُوسِهِمْ، وَاسْتُعِيرَ هٰذَا التَّنْكِيسُ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ انْقِلَابِ مَفَاهِيمِهِمْ إِلَىٰ الْبَاطل.

ودَلَّ العطْفُ بِحَرْف العطف «ثُمَّ» عَلَىٰ أَنَّهُمْ بَقُوا مُدَّةً عَلَىٰ حالَةِ

الرُّشْدِ الَّتِي أَوْصَلَهُمْ إِلَيْهَا التَّنْبِيهُ الإبْرَاهِيمِيُّ، لَكِنَّهُمْ بَعْدَ هَـٰذِهِ المدَّةِ رَجَعُوا إِلَىٰ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ بَاطِلٍ شِرْكِيٍّ وَثَنِيٍّ.

وَقَالُوا لإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾: أي: فَكَيْفَ تُطَالِبُنَا أَنْ نَسْأَلَهُمْ؟!!، أَتَسْخَرُ مِنَّا وَتَسْتَهْزِئ بِنَا وَنَحْنُ كُبَرَاءُ قَوْمِكَ؟؟.

وَهُنَا يَأْتِي مَوْقِعُ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الصَّافَات/ ٣٧ مُصْحَف/ ٥٦ نزول) في حِكَايَةِ مَا قَالَهُ إبراهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ:

﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾:

أي: قَالَ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمه مُجَاهِداً جِهَاداً دَعَوِيًّا بِشَجَاعَةٍ تَامَّةٍ، وبأسْلُوب الاسْتِفْهَام الاسْتِنْكَارِيِّ التَّلْويمِيّ الَّذِي فِيهِ تَسْفِيهٌ لِعُقُولِهم: أَتَعْبُدُونَ حِجَارَةً وَصُخُوراً أَنْتُمْ تَنْحِتُونَهَا وَتُصَوِّرُونَهَا عَلَىٰ صُوَرِ أَحْيَاءٍ، وَتَجْعَلُونَهَا شَرِيكَةً للهِ فِي إلَٰهِيَّتِهِ، مَعَ أَنَّهُ خَلَقَكُمْ وَخَلَقَ كُلَّ مَا تَعْمَلُونَ، وَمِمَّا تَعْمَلُونَ أَصْنَامُكُمُ الَّتِي تَنْحِتُونَهَا بأَيْدِيكُمْ، وَأَيْدِيكُمْ لَا تَعْمَلُ إِلَّا بالْقُوَّةِ الَّتِي يُمِدُّكُمْ بِهَا، وَفِي حُدُودِ الْمِنَحِ الَّتِي يَهَبُكُمْ إِيَّاهَا.

أَفَتَعْبُدُونَ الْمَخْلُوقَ الَّذِي لَا رُبُوبِيَّة لَهُ، وَتَجْعَلُونَهُ شَرِيكاً للهِ فِي إلَٰهِيَّتِهِ؟!!!.

إِنَّ عِبَادَتَكُمْ لِأَصْنَامِكُمْ سَفَاهَةٌ مَا دُونَهَا سَفَاهَة.

وَهُنَا يَأْتِي مَوْقِعُ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سُورَةِ (الْأَنْبِيَاء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) مُتَمِّماً مَا قَالَهُ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ:

﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾:

«**أُفٍّ**»: كَلِمَةُ تَضَجُّرٍ وَتَكَرُّهٍ، وَهِيَ اسْم فِعْلٍ مُضَارعٍ بِمَعْنَىٰ أَتَضَجَّر، أَيْ: أَتَضَجَّرُ مِنْ شِدَّةِ تَقَذُّرِ نَفْسِي طَرِيقَتَكُم الْبَاطِلَةَ، الدَّالَة عَلَىٰ سَفَاهَةِ المسْتَمْسِكِينَ بِهَا.

وكَلِمَةُ «أُفٍّ» أُوَجِّهُهَا لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُون مِنْ دُونِ الله.

المعنى: قَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلَّذِينَ يُسَائِلُونَهُ فِي مَجْلِسِ مُسَاءَلَتِهِ وَمُحَاكَمَتِهِ، بَعْدَ أَنْ ثَبَتَ لَدَيهِمْ أَنَّهُ هُوَ مُحَطِّم أَصْنَامِهِمْ:

أَبَلَغَتْ سَفَاهَتُكُمْ وَغَبَاوَتُكُمْ وَحَمَاقَتُكُمْ غايَاتِهَا، فأَنْتُم تَعْبُدُونَ مِنْ دُون اللهِ المهيْمنِ عَلَيْكُمْ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ مَا لَا يَنْفَعكُمْ نَفْعاً أَقلَّ نَفْعٍ، وَلَوْ كَانَ شيئاً حَقِيراً، وَلَا يَضُرُّكُمْ أَقَلَّ ضُرٍّ، فَأَنْتُم تعْبُدُونَ أصْنَامَكُمْ لِيَنْفَعُوكُمْ بِشَيْءٍ تَرْغَبُونَ فِيهِ، أَوْ لِيَدْفَعُوا عَنْكُمْ ضُرّاً تَحْذَرُونَهُ، وَهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ جَلْبَ نَفْعٍ وَلَا دَفْعَ ضُرٍّ.

أُفٍّ أُوَجِّهُهَا لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ، فَقَدْ أَضْجَرْتُمُونِي مِنْ قَذَارَةِ أَعْمَالِكُمْ، وَقَذَارَةِ أَصْنَامِكُمْ الَّتِي اتَّخَذْتُمُوهَا آلِهَةً تَعْبُدُونها.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: أي: أَنْطَمَسَتْ بَصَائِرُكُمْ، وَذَهَبَتْ مِنْ رُؤوسِكُمْ عُقُولُكُمْ، فَأَنْتُمْ لَا تَعْقِلُونَ، لَا عَقْلاً عِلْمِيًّا، وَلَا عَقْلاً إِرَادِيًّا؟!.

فَبَلَغَ الْغَضَبُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ يُسَائِلُونَهُ وَيُحَاكِمُونَهُ مَبْلَغَهُ الْأَقْصَىٰ، فَطَالَبَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً أَنْ يُحَرِّقُوهُ.

﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾:

أي: إِنْ كُنْتُمْ عَازِمِينَ عَلَىٰ أَنْ تُعَاقِبُوهُ مُعَاقَبَةً رَادِعَةً لِكُلِّ مَنْ يُخَالِفُ دِينَكُمْ وَدِينَ آبَائِكُمْ، وَتُسَوِّلُ لَهُ نَفْسُهُ أَنْ يَفْعَلَ مِثْلَمَا فَعَلَ إِبْرَاهِيم.

وَهُنَا يَأْتِي مَوْقِعُ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَة (الصَّافَات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾﴾:

دَلَّ هَـٰذَا البيانُ عَلَىٰ أَنَّ رَأيَهُمْ قَدِ اسْتَقَرَّ بَعْدَ التَّشَاوُرِ عَلَىٰ تَحْرِيقِهِ، وَأَنْ يَكُونَ هـٰذَا التَّحْرِيقُ ضِمْنَ بُنْيَانٍ يَبْنُونَهُ لِهـٰذَا الْغَرَضِ، كَجِدَارٍ دَائِرِيٍّ يُرَىٰ مِنْ أَعْلاَهُ كَبِئْرٍ مَطْوِيَّة، وَأَنْ يَمْلَؤُوهُ حَطباً، وَيُوقِدُوا هـٰذَا الحطَبَ، حَتَّىٰ يَكُونَ جَمْراً وَنَاراً مُلْتَهِبَةً، وأَنْ يُلْقُوهُ فِيها بِحضُورِ جُمْهُورٍ مِنْ قَوْمِهِ، لِيَكُونَ عِبْرَةً لِمَنْ يَعْتَبِرُ، فَفَعلُوا.

الْجَحِيم: كُلُّ نَارٍ عَظِيمَةٍ فِي مَهْوَاةٍ فَهِيَ جَحِيمٌ.

وقَدْ فَعَلُوا مَا اسْتَقَرَّ رَأيُهُمْ عَلَيْهِ فَقَذَفُوهُ أَمَامَ جُمْهُورٍ من قَوْمِهِ، وأَلْقَوْهُ فِي الْجَحِيمِ الَّتِي صَنَعُوها.

وَهُنَا يَأْتِي مَوْقِعُ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سُورَة (الْأَنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نُزُول):

﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾:

أي: فَلَمَّا قَذَفُوهُ وَكَادَ يَصِلُ جَسَدُهُ إِلَىٰ الْجَحِيم، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَـٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ فَتَحَوَّلَتْ بِأَمْرِ اللهِ التَّكْوِينيِّ مِنْ نَارٍ مُحْرِقَةٍ قَاتِلَةٍ ضَارَّةٍ أَوْ مُؤْذِيَةٍ؛ إِلَىٰ مِثْلِ نُورٍ بَارِدٍ لَا حَرَارَةَ فِيهِ، وَهَبَطَ إِلَىٰ بَاطِنِ الْجَحِيم في الصُّورَةِ مَحْمُولاً بِقُدْرَةِ اللهِ عَلَىٰ أَلْيَنِ وأَنْعَم مَا يُحْمَلُ عَلَيْهِ جَسَدٌ، فَوَصَلَ إِلَىٰ الْمَكَانِ الَّذِي قَذَفُوهُ إِلَيْهِ سَالِماً لَمْ يَنَلْهُ ضُرٌّ وَلَا أَذىً.

وهُنَا يَأْتِي مَوْقِعُ قَوْلِ اللهِ في سورة (الصَّافَاتِ/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿فَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾:

أي: فَأَرَادَ كُبَرَاءُ قَوْمِهِ، وَذَوُو السُّلْطَانِ فِيهِمْ؛ كَيْداً يَنْزِلُ بِهِ، عُقُوبَةً

لَهُ عَلَىٰ تَكْسِيرِ أَصْنامِهِمْ وَتَحْطِيمِهَا، لِيُحَافِظُوا عَلَىٰ مَكَانَاتِهِمْ فِي قَوْمِهِمْ، وَأَنَّهُمْ هُمُ الأَعْلَوْنَ، الَّذِينَ لَا يَسْمَحُونَ بِأَنْ يَعْلُوَ أَحَدٌ مِنْ قَوْمِهِمْ عَلَيْهِم.

فَلَمَّا أَجْرَىٰ اللهُ الْخَارِقَةَ الْعُظْمَىٰ بِجَعْلِ النَّارِ بَرْداً وَسَلَاماً عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام انْتَصَرَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام عَلَىٰ كُبَرَاءِ قَوْمِهِ وَذَوِي السُّلْطَانِ فِيهِمْ، وَظَهَرَ لِلْجَمِيعِ أَنَّهُ عَلَىٰ حَقٍّ، وأَنَّهُ هُوَ الأَعْلَىٰ، وَأَنَّ قَوْمَهُ الْمُشْرِكِينَ عَلَىٰ بَاطِلٍ، وَأَنَّ ذَوِي السُّلْطَانِ والْقُوَّةِ فِيهِمُ الأَسْفَلُونَ لَا الأَعْلَوْنَ، إِذْ خَابَ كَيْدُهُمْ، وارْتَدَّ بالْهَزِيمَةِ إِلَىٰ عُقُولِهِمْ وَعَقَائِدِهِمْ وَمِلَّتِهِمُ الْبَاطِلَةِ.

وَخَرَجَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ النَّارِ يَمْشِي بَيْنَ قَوْمِهِ مُنْتَصِراً، مُعْتَزّاً بِرَبِّهِ، لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مِنْ مُشْرِكِي قَوْمِهِ الْكَافِرِينَ ـ مَهْمَا عَلَتْ مَكَانَتُهُ ـ أَنْ يَمَسَّهُ بِسُوءٍ.

وَتَحَدَّثَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ هَـٰذِهِ النَّتِيجَةِ المخْزِيَةِ لِقَوْمِهِ المشركين، بِقَولِهِ تَعَالَىٰ في سورة (الأَنْبِيَاء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾:

فَأَبَانَ النَّصُّ هـٰذَا أَنَّ اللهَ جَعَلَ الَّذِينَ كَادُوا إِبْرَاهِيمَ لِيُحَرِّقُوهُ: الأَخْسَرِينَ مِنْ كُلِّ قَوْمِهِمْ، وَدُونَهُمْ في الْخَسَارَةِ المشْرِكُونَ مِنْ عَامَّتِهِمُ الَّذِينَ لَا يَمْلِكُونَ إِصْدَارَ قَرَارِ التَّحْرِيقِ.

وَأَبَانَ النَّصُّ السَّابِقُ الَّذِي جاء في سُورَةِ (الصَّافَات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول) أَنَّ اللهَ جَعَلَهُمُ الأَسْفَلِين، ومِنَ الْجَمْعِ بَيْنَ النَّصَّيْنِ نَفْهَمُ أَنَّ مُصْدِرِي قَرَارِ تَحْرِيقِ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلام هُمُ الأَعْلَوْنَ فِي قَوْمِهِ فَجَعَلَهُمُ اللهُ الأَسْفَلِينَ، وَأَرَادُوا أَنْ يَرْبَحُوا بِتَحْرِيقِهِ زِيَادَةَ رِفْعَةٍ فِي مُجْتَمَعِهِمْ، فَجَعَلَهُمُ اللهُ الأَخْسَرِين، فَتَكَامَلَ النَّصَّانِ فِي الدَّلَالَةِ عَلَىٰ مَا أُرِيدَ بَيَانُهُ.

وَلَمَّا أَتَمَّ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَأْدِيَةَ رِسَالَتِهِ فِي قَوْمِهِ، أَتَاهُ الْوَحْيُ بِأَنْ يُهَاجِرَ إِلَىٰ أَرْضٍ غَيْرِ أَرْضِ قَوْمِهِ.

وهُنَا يَأْتِي مَوْقِعُ قَوْل اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سُورَةِ (الصَّافّات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾:

أي: وَقَالَ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلاَمُ لِعَشِيرَتِهِ الْأَقْرَبِينَ؛ إِنِّي ذَاهِبٌ إلى أَرْضٍ غَيْرِ أَرْضِكُمْ أُهَاجِرُ إِلَيْها، يَخْتَارُهَا لِي رَبِّي.

قَالُوا: هَلْ تَعْرِفُهَا؟، قَالَ: سَيَهْدِينِي رَبِّي الَّذِي أَمَرَنِي بالْهِجْرَةِ، أَوْ أَذِنَ لِي بِهَا.

وَيَبْدُو أَنّ «نُمْرُودَ» وأَرْكَانَ سُلْطَانِهِ عَزَمُوا عَلَى قَتْلِهِ غِيلَةً وفي الخفاء، بَعْدَ أَنْ هُزِمُوا فِي تَدْبِيرِ قَتْلِهِ تَحْرِيقاً وَعَلاَنِيَةً عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاس، فَنَجَّاهُ اللهُ، وَيَسَّرَ لَهُ أَمْرَ الْهِجْرَة، دُونَ أَنْ يَنَالَهُ مِنْ أَعْدَاءِ اللهِ سُوء.

❁ ❁ ❁

وكان لا بُدَّ أَنْ يُعْلِنَ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلام تَبَرُّأَهُ مِنْ شِرْكِيَّاتِ قَوْمِهِ، ولوازِمِهَا في السُّلُوك، وَيُوصِيَ بِهَا ذُرِّيَّتَهُ، وَيَجْعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبه.

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (الزُّخْرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

بَراء: مَصْدَرٌ يُخْبَرُ بِهِ، ويُوصَفُ بِهِ، مِثْل: «بَرِيء».

الْبَرِيء: هُو المبتعِدُ كُلَّ الْبُعْدِ، الطَّاهِرُ غَايَة الطَّهارَة مِمَّا تَبَرَّأَ مِنْه.

والشِّرْكُ مِنْ أَشْنَعِ النَجاسَاتِ المعنويَّة، فالمؤمِنُ الحريصُ على نجاتِهِ وفَوْزِهِ، يَتَبَرَّؤُ مِنَ الشِّرْكِ وَمِنْ آلِهَةِ المشْرِكِين.

أي: واذْكُرُوا يَا أَبْنَاءَ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إبراهيم عَلَيْهِما السَّلَام حِينَ قَالَ

إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام جَدُّكُمْ لِأَبِيهِ وَقَوْمِه: إِنَّنِي بَرَاءٌ مِنْ كُلِّ مَا تَعْبُدُونَ، إلَّا مِن عِبَادَةِ الَّذِي فَطَرَنِي، فَخَلَقَنِي بَعْدَ أَنْ لَمْ أَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً، وإِذْ هَدَانِي إِلَىٰ الإيمانِ بِهِ رَبّاً لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِي طوالَ مَسِيرتِي في حَيَاتِي إِلَىٰ مَا فِيهِ سَعَادَتِي العاجِلَةِ والآجِلَةِ.

وَجَعَلَ هَـٰذِهِ الْكَلِمَةَ، وَهِيَ كَلِمَةُ الْبَرَاءَةِ مِمَّا يَعْبُدُ المشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللهِ؛ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ، أي: في ذُرِّيَّتِهِ، فَأَوْصَى أَوْلَادَهُ بِهَا، وكَلَّفَهُمْ أَنْ يُوصُوا بِهَا ذُرِّيَّاتِهِمْ، جِيلاً بَعْدَ جِيلٍ، وأَنْ يَلْتَزِمُوا بِمَضْمُونها، وأَنْ تَكُونَ وَسِيلَةً تَهْدِي إِلَىٰ الرُّجُوعِ إِلَيْهَا مَنْ خَرَجَ عَنْ صِرَاطِ اللهِ إِلَىٰ شَيءٍ مِنَ الشِّرْكِيَّاتِ، أَوْ كَبَائِرِ الإِثْمِ.



الفصل السّابع

هجرة إبراهيم عَلَيهِ السَّلَام إلى الأرض المقدسة في فلسطين

جاء عند مؤرخي أَهْلِ الكتاب أَنَّ هِجْرَةَ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام مِنْ بلادِ قَوْمِه «مَا بَيْنَ النَّهْرَين» كانَتْ عَلَىٰ مَرَاحِلٍ.

لَكِنَّ الْقُرْآنَ قفزَ عَنِ المراحِلِ، ليتَحَدَّثَ عَنِ المقْصُودِ بيَانُهُ، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾:

لَقَدْ هاجَرَ مَعَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِهِ وعَشِيرَتِهِ، وَمِنْهُمْ أَبُوهُ الْكَافِرُ، الَّذِي مَات في «حَارَان» إحْدَىٰ الْبُلْدَانِ الَّتِي كَانَتْ لإبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيهَا إِقَامَةٌ مُدَّةً مِنَ الزَّمن.

وَلَكِنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ أبرزَ في هَـٰذِهِ الآيَةِ أَنَّهُ نَجَّاهُ وَلُوطاً عَلَيْهِما السَّلام، للدَّلَالَةِ عَلى أَنَّهُمَا كَانَا مَقْصُودَيْنِ بالْقَتْلِ غِيلَةً وَفِي السِّرِّ، مِنْ قِبَلِ «نُمْرُودَ»

وأَرْكَانِ سُلْطَانِهِ، وَدَلَّ هٰذَا البيانُ عَلَىٰ أَنَّ ابْنَ أخِيهِ «لُوطاً» عَلَيْهِ السَّلَام كَانَ مُعْلِناً إيمانَهُ بِعَمِّهِ إبراهيم عَلَيْهِمَا السَّلَام، وَكَانَ مُعْلِناً مُنَاصَرَتَهُ لَهُ ودِفَاعَهُ عَنْهُ وَعَنْ أَعْمَالِهِ، وَلَمْ يَكُنْ قَدْ نُبِّئَ حِينَئِذٍ فِيما يَظْهَرُ، بَلْ جَاءَتْهُ النُّبُوَّةُ بَعْدَ ذَلِكَ حِينَما اسْتَقَرَّ فِي الْأَرْضِ المقَدَّسَةِ مَعَ عَمِّهِ.

وَالْأَرْضُ الَّتِي بَارَكَ اللهُ فِيها هِيَ بِلَادُ الشَّامِ حَوْلَ المسْجِدِ الْأَقْصَىٰ.

وطُوِيَتْ فِي نَصِّ الْآيَةِ مَرَاحِلُ رِحْلَةِ الْهِجْرَة، لِأَنَّهَا بِمَثَابَةِ الطَّرِيقِ الْمُوصِلِ إِلَىٰ المقْصُودِ مِنَ الْهِجْرَةِ، وهو الاسْتِقْرَارُ في أَرْضِ الْبِلَادِ المقَدَّسَة، لِنَشْرِ الدَّعْوَةِ الرَّبَّانِيَّةِ فيها وفِيمَا حَوْلَها.

ولَمَّا اسْتَقَرَّ «إِبْرَاهِيمُ» وابْنُ أَخِيهِ «لُوطٌ» عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فِي الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةُ، سَأَلَ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَام رَبَّهُ أَنْ يَهَبَهُ وَلَداً مِنَ الصَّالِحِينَ، إِذْ كَانَتْ زَوْجَتُهُ «سَارَة» امرأَةً عَجوزاً وَعَاقِراً لَمْ تُنْجِبْ لَهُ وَلَداً، وَقَدْ تَجَاوَزَتِ السَّبْعِينَ مِنْ عُمْرِها.

❋ ❋ ❋

الفصل الثامن

هِبَةُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِإِبرَاهِيمَ عَلَيهِ السَّلَام الذُّرِّيَّةَ في شَيخُوخَتِهِ

لَمَّا وَصَلَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ومَنْ مَعَهُ، إِلَىٰ الْأَرْضِ المقَدَّسَةِ في بِلَادِ الشَّام، دَعَا رَبَّهُ أَنْ يَهَبَهُ وَلَداً مِنَ الصَّالِحِينَ، فَوَهَبَهُ مِنْ أَمَتِهِ الْمِصْرِيَّةِ «هَاجَرَ» وَلَداً سَمَّاه «إِسْمَاعِيل» وَكَانَ عُمْرُ «إِبْرَاهِيمَ» عَلَيْهِ السَّلَام عَلَىٰ مَا ذَكَرَ الإِسْرَائِيلِيُّون (٨٦) سَنَة، وَبَعْدَ أَنِ اسْتَقَرَّ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ بِعَشْرِ سنين.

وَدَلَّ البيانُ القرآني عَلَى أَنَّ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَام؛ دَعَا رَبَّهُ بأَنْ يَهَبَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ، بَعْدَ أَنِ اسْتَقَرَّ فِي الْأَرْضِ الَّتِي هَدَاهُ اللهُ إليها، وهِيَ الْأَرْضُ الْمُبَارَكَةُ حَوْلَ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَىٰ، الذي أُسِّسَ فيما بَعْدُ.

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في سُورَةِ (الصَّافَاتِ/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول) حِكَايَةً لِدُعَاءِ «إبراهيم» عَلَيْهِ السَّلَامُ، واسْتِجَابَةِ اللهِ دُعَاءَه:

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١)﴾:

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠)﴾: أي: رَبِّ هَبْ لِي وَلَداً مِنْ ذُرِّيَّتِي يَكُونُ صَالِحاً مِنَ الصَّالِحِينَ.

فَجَرَتْ أَحْدَاثٌ في رِحْلَاتِهِ، وَمِنْهَا أَنَّهُ مَرَّ عَلَىٰ أَرْضٍ فيها مَلِكٌ جَبَّارٌ، إِذَا أَبْلَغَهُ جُنُودُهُ بامْرَأَةٍ حَسْنَاءَ اصْطَفَاهَا لِنَفْسِهِ، وَقَتَلَ زَوْجَهَا إِذَا كَانَ لَهَا زَوْج.

فَأَبْلَغَهُ جُنُودُهُ بُوجُودِ امْرَأَةٍ حَسْنَاءَ في أَرْضِهِ هِي «سَارَة» زَوْجَةُ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام، فاسْتَدْعَاهُمَا الْمَلِكُ الْجَبَّارُ إِلَىٰ قَصْرِهِ، فَقَالَ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَام لَهَا: إِذَا سَأَلَكِ عَنِّي فَقُولِي: هو أَخِي، وأَنَا أَيْضاً أَقُولُ إِذَا سَأَلَنِي عَنْكِ: هِيَ أُخْتِي. فَلَمَّا الْتَقَاهُمَا ذَكَرَا لِلْمَلِكَ مَا اتَّفَقَا عَلَيْهِ.

فأَدْخَلَ الْمَلِكُ «سَارَةَ» إِلَىٰ حَيْثُ يَبْتَغِي بِهَا أَنْ يُعَاشِرَهَا مُعَاشَرَة الْأَزْوَاجِ للزَّوجات، وَقَامَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام يُصَلِّي، وَيَدْعُو رَبَّهُ أَنْ يَعْصِمَهَا مِنْه.

فَلَمَّا أَرَادَ الْمَلِكُ الْجَبَّارُ أَنْ يَمَسَّهَا عَصَمَهَا اللهُ مِنْهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ بِعِلَلٍ نَزَلَتْ كَادَتْ تَقْتُلُهُ، فَسَأَلَهَا أَنْ تَدْعُو لَهُ وَهُوَ يَكُفُّ عَنْهَا، فَدَعَتْ لَهُ، فَكَشَفَ اللهُ عَنْهُ مَا نَزَلَ بِهِ، وَأَهْدَاهَا هَدَايا، وَصَرَفَهَا، وَكَانَ مِمَّا أَهْدَاهَا

جاريةٌ مِصْرِيَّةٌ، اسْمُهَا «هَاجَرُ»، ثُمَّ أَهْدَتْهَا «سَارَةُ» لِزَوْجِهَا «إِبْرَاهِيمَ» عَلَيْهِ السَّلَامُ، لِينْجِبَ مِنْهَا وَلَداً.

فَدَخَلَ بِهَا عَلَيْهِ السَّلَام، فَبَشَّرَهُ اللهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ مِنها، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾: أي: فَبَشَّرَهُ اللهُ عَنْ طَرِيق الوحْي؛ بأَنَّ هَاجَرَ سَتَلِدُ لَهُ غُلَاماً، مِنْ صِفَاته الْخُلُقِيَّةِ أَنَّهُ إِنْسَانٌ حَلِيمٌ.

وقَدْ حَقَّقَ اللهُ لَهُ مَا بَشَّرَهُ بِهِ، فَلَمَّا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ «هَاجَرُ» سَمَّاهُ «إِسْمَاعِيلَ»، وهو اسْمٌ عِبْرِيٌّ مَعْنَاهُ: «يَسْمَعُ الله». وَكَانَ أَوَّلَ ذُرِّيَّتِهِ بَعْدَ أَنْ بَلَغَ (٨٦) سَنَةَ، وَهُوَ سِنٌّ شَيْخُوخَةٍ مُتَقَدِّمَةٍ، لَكِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ كَانَ رَجُلاً قَوِيًّا عَاشَ (١٧٥) سَنَةَ.

وأَنْجَبَ عِدَّةَ أَوْلَادٍ وَكَانَ عُمْرُهُ أَكْثَرَ مِن (١٠٠) عام من زَوْجَةٍ تَزَوَّجَهَا بَعْدَ «سَارَة» اسْمُهَا «قَطُّورَة»، أَحَدُهم «مَدْيَان» جدُّ أَهْلِ مَدين.

وَجَرَتْ أَحْدَاثٌ نَقَلَ فِيهَا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام بأَمْرِ رَبِّهِ «إِسْمَاعِيلَ» عَلَيْهِ السَّلَام مع أُمِّهِ «هَاجَرَ» إِلَىٰ أَرْضِ مَكَّة، وَكَانَتَ وَادِياً لَا زَرْعَ فِيهِ، وبأَمْرِ اللهِ تركَ الطِّفْلَ وَأُمَّهُ عِنْدَ مَكَانِ بَيْتِ اللهِ الحرام، وَسَيأْتِي إِنْ شَاءَ اللهُ تَفْصِيلُ هٰذَا فِيمَا صَحَّ عَنِ النبيِّ ﷺ مِنْ أَحَادِيث.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾:

أي: فوهَبْنَاهُ الْغُلَامَ الَّذِي بَشَّرْنَاه بِهِ، وَنَشأَ الْغُلَامُ «إسماعيل» عَلَيْهِ السَّلَام نَشْأَةً صَالِحَةً فِي مَكَّة عِنْدَ بَيْتِ اللهِ الحرام، وَكَانَ أبوه «إبراهيم» عَلَيْهِ السَّلَامُ يَتَعَهَّدُ زِيَارَتَه حيناً ثُمَّ حِيناً.

وَلَمَّا بَلَغَ «إِسْمَاعيل» عَلَيْهِ السَّلَام السِّنّ الَّتِي يَسْتَطِيعُ فِيهَا أَنْ يَسْعَىٰ

مع أَبِيهِ «إبراهيم» عَلَيْهِ السَّلَام مُجَاهِدَيْنِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَىٰ دِينِ اللهِ الْحَقّ، وَتَعْلِيمِ النَّاسِ فِي الأَرْضِ الَّتِي نَشَأَ فِيهَا إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام أُسُسَ الإيمان، وأَحْكام السُّلُوكِ، وَفَضَائِلَ الأَخْلَاقِ والآدَاب.

أَصْلُ السَّعْي: الْعَدْوُ، وهُوَ فَوْقَ المشْي الْعَادِي، ويُفِيد معْنَىٰ الْهِمَّةِ فِي الْعَمَلِ بِجِدٍّ وَنَشَاطٍ.

لَمَّا بَلَغَ «إِسْمَاعِيلُ» عَلَيْهِ السَّلَامُ هَـٰذِهِ السِّنَّ، وكانَ أَبُوهُ عِنْدَهُ فِي مَكَّةَ فِي إِحْدَىٰ زِيَارَاتِهِ لَهُ، قَالَ لَهُ: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ﴾:

بُنَيّ: تَصْغِيرُ لفظ «ابْني»، وهو مِنْ تَصْغِيرِ التَّحَبُّبِ.

أي: يا بُنَيَّ الْحَبِيبَ لِقَلْبِي؛ إِنَّ رُؤْيَا تَتَكَرَّرُ عَلَيَّ، فِيهَا دَلَالَةٌ عَلَىٰ أَنَّنِي مَأْمُورٌ مِنَ اللهِ رَبِّي وَرَبِّكَ بِأَنْ أَذْبَحكَ.

دلّ على تكرار الرُّؤيا اسْتِعْمَالُ الْفِعْلِ المضارِعِ «أَرىٰ»، ولَوْ كَانَتْ رُؤْيا واحِدَةً لجاء التعْبيرُ: إِنِّي رَأَيْتُ.

﴿فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾، وفي القراءة الأُخرى: [**فَانْظُرْ مَاذَا تُرِي**]:

أي: فَانْظُرْ مَا الَّذِي تَراهُ أَنْتَ لِنَفْسِكَ، وانْظُرْ مَا الَّذِي تُقَدِّمُهُ لِي مِنْ رَأْيٍ.

فَأَسْرَعَ «إِسْمَاعِيلُ» عَلَيْهِ السَّلَامُ مُبَيِّناً لِأَبِيهِ «إبراهيم» عَلَيْهِ السَّلَام مَا رَآهُ لِنَفْسِهِ وَمَا يُرِيهِ لِأَبِيهِ:

﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

فَهِم «إِسْمَاعِيلُ» عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ الرُّؤيَا الَّتِي رَآها أبوه عِدَّةَ مَرَّاتٍ، تَتَضَمَّنُ تَكْلِيفاً رَبَّانِيًا يَأْمُرُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ «إِبْراهيم» عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَذْبَحَ وَلَدَهُ «إِسْمَاعِيلَ» عَلَيْهِ السَّلَام، الَّذِي صَارَ قَادِراً عَلَىٰ أَنْ يَسْعَىٰ مُجَاهِداً مع أَبِيهِ للدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ، وَتَبْلِيغ الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ لِعِبادِهِ، فَقَالَ لِأَبِيهِ مُتَذَلِّلاً

خَاضِعاً: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾، وَطَمْأَنَ الابْنُ أبَاهُ بِأَنَّهُ سَيَكُونُ طَائِعاً مُسْتَسْلِماً مُسْتَجِيباً لِأَمْرِ اللهِ، وَبِأَنَّهُ سَيَكُونُ صَابِراً مِنْ أَهْلِ الإِحْسَانِ الصَّابِرين، إذْ كانَ قَدْ أَحَسَّ مِنْ نَفْسِهِ الاسْتِعْدَادَ للاسْتِسْلَام التَّامّ، وَلَكِنْ عَلَّقَ أَمْرَ صَبْرِهِ عَلَىٰ مَشِيئَةِ اللهِ، الْتِزَاماً بالْوَاجِبِ الدِّينيّ فِي الْوَعْدِ بِعَمَلٍ مُسْتَقْبَلِيٍّ، واسْتِعَانَةً باللهِ، وَتَوَكُّلاً عَلَيْهِ، حَتَّىٰ يُمِدَّهُ بالصَّبْرِ المطْلُوبِ فِي مِثْلِ هٰذَا الموقِفِ الْعَصِيبِ، فَقَالَ لِأَبِيهِ: ﴿... سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾، وقَدَّمَ التَّعْلِيقَ عَلَىٰ مَشِيئَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَىٰ الْوَعْدِ بالصَّبْرِ لِأَنَّ التعْلِيقَ عَلَى مَشيئَةِ اللهِ مُرْتَبِطٌ مُبَاشَرَةً بالْإِيمَانِ، أَمَّا الصَّبْرُ فَهُوَ مَطْلُوبٌ فِي السُّلُوكِ مِنْ مَرْتَبَةِ الْإِحْسَانِ.

وَحِينَ اطْمَأَنَّ الأَبُ «إِبْرَاهِيمُ» إلى أَنَّ الابْنَ «إِسْمَاعِيلَ» عَلَيْهِما السَّلَام سَيَكُونُ مُسْتَسْلِماً كَامِلَ الاسْتِسْلَامِ لِقِيَامِ أَبِيهِ بِذَبْحِهِ طَاعَةً لِأَمْرِ الله، وأَسْلَمَ «إِبْرَاهِيمُ» عَلَيْهِ السَّلَام أَمْرَهُ لِرَبِّهِ، كَابحاً كُلَّ عَوَاطِفِهِ نَحْوَ وَلَدِهِ، حِينئِذٍ أَقْدَمَ الْأَبُ لِلقِيَامِ بِذَبْحِ وَلَدِهِ، واسْتَجَابَ الابْنُ لِلْأَمْر، وَبَاشَرَ كُلٌّ مِنهما مَا هُوَ مَطْلُوبٌ مِنْهُ، عِنْدَ هَـٰذِهِ اللَّحْظَةِ الْحَرِجَةِ جَاءَ الْأَمْرُ الرَّبَّانِيُّ بالتَّوَقُّفِ عَنِ التَّنفِيذ، قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾:

أي: فحِينَ أَسْلَمَ الْأَبُ والابْنُ أَمْرَهُمَا للهِ عَزَّ وَجلَّ، طَاعَةً لَهُ، وامْتِثالاً لِأَمْرِهِ.

وتَلَّهُ لِلْجَبِينِ: أي: وأَلْقَىٰ الْأَبُ ابْنَهُ عَلَىٰ عُنُقِهِ وَخَدِّهِ بشِدَّةٍ، وجَعَلَ جَبِينَهُ، أي: أَحَدَ جَانِبَيْ جَبْهَتِهِ؛ عَلَىٰ الْأَرْضِ، وَقَبَضَ عَلَىٰ مَقْبِضِ سِكِّينِهِ لِيَذْبَحَهُ.

وإِذْ أَتَمَّا امْتِحَانَهُمَا بِنَجَاحٍ بَاهِرٍ؛ كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ الرَّبَّانِيَّة أَنْ يُوقِفَ اللهُ التَّنْفِيذَ، فَلَمْ يَكُنْ فِي تَقْدِيرِ اللهِ وَقَضَائِهِ أَنْ يَذْبَحَ إبراهيم وَلَدَهُ

إسْمَاعِيل عَلَيْهِما السَّلام، إِنَّمَا كَانَ الْغَرَضُ امْتِحَانَهُمَا، وَقَدْ نَجَحَا في الامْتِحَانِ نجاحاً مِنَ الدَّرَجَةِ الْقُصْوَىٰ، قال الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾:

إِنَّ إيقَافَ تَنْفِيذِ الذَّبحِ بِأَمْرٍ رَبَّانِيٍّ، رُبما كَانَ مُوَجّهاً مِنْ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلام، تَبِعَهُ نِداءٌ تَفْسِيرُهُ: يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤيا، أي: إِنَّ التَّكْلِيفَ فِي الرُّؤيَا كَانَ ذَا حَدٍّ يَقِفُ قَبْلَ تَنْفِيذِ الذَّبْحِ بِإِدْخَالِ حَدِّ السِّكِّينِ فِي المذْبَحِ مِنَ الرَّقَبَةِ، وَقَدْ طَابَقَ مَا فَعَلَهُ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا جَاءَ فِي الرُّؤْيَا التَّكْلِيفِيَّةِ فَصَدَّقَهُ، وَبِهـٰذَا انْتَهَتْ حُدُودُ التَّكْلِيفِ، وقد كان هو وابْنُهُ مِنَ الْمُحْسِنِينَ تَسْلِيماً للهِ، وانْتَهَتْ بِمَا فَعَلا حُدُودُ التَّكْلِيفِ.

﴿... إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾: أي: قَدَّرْنَا وَقَضَيْنَا وَأَمَرْنَا بإيقافِ عَمَلِيَّةِ الذَّبحِ جَزَاءً مُرضِياً لِلأَبِ وابنِهِ، وسَارًّا لِقُلُوبِهِمَا، وَكَذَلِكَ الْجَزَاءِ السَّامِي الَّذِي أَنْعَمْنَا بِهِ عَلَيْهِمَا؛ نَجزِي سَائِرَ الْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ يُحْسِنُونَ مِثْل إِحْسَانِهِمَا.

﴿إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾: أي: إِنَّ هـٰذَا الامْتِحَانَ الْقَاسِيَ الَّذِي امْتَحَنَّا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وإِسْماعِيلَ؛ لَهُوَ الامْتِحَانُ الْجَلِيُّ الظَّاهِرُ، الَّذِي اجْتَازَهُ كُلٌّ مِنْهُمَا بِنَجاحٍ باهِرٍ.

جاء وَصْفُ البَلاءِ بأَنَّهُ مُبِينٌ، للدَّلالَةِ عَلَىٰ أَنَّهُ لا يَخْفَىٰ عَلَىٰ أَحَدٍ ذِي فِكر.

﴿وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾: أي: وفَدَيْنَا إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلام إِذْ أَوْقَفْنَا الذَّبحَ عِنْدَ بِدايَتِهِ؛ بِذِبْحٍ عَظِيم، أي: بِمَذْبُوحٍ عَظِيم.

رُوِيَ عَنْ عَلِيّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: بِكَبْشٍ أَبْيَض أَعْيَنَ أَقْرَنَ قَدْ

رُبِط بِسَمُرَةٍ، أَيْ: بِشَجَرَةٍ مِنْ أَشْجَارِ السَّمُر[١].

وَيَظْهَرُ أَنَّهُ أُمِرَ بِأَنْ يَذْبَحَ هٰذَا الكَبْشَ الْعَظِيمَ الجُثَّة بَيْنَ الكِبَاشِ، وَأَنْ يَجْعَلَهُ فِدَاءً لِذَبْحِ وَلَدِهِ، فَأَخَذَ الكَبْشَ مِنْ مَرْبَطِهِ وَذَبَحَهُ عَلَيْهِ السَّلَام.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾﴾:

هٰذَا السَّلَامُ عَلَىٰ إبراهيمَ هو تَحِيَّةٌ يَدْعُو بِهَا المرْسَلونَ وأَتْبَاعُهُمْ، وَقَدْ أَوْصَىٰ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بالسَّلَام عَلَىٰ كُلِّ الْمُرْسَلِينَ، فِي نُصُوصٍ مُتَعَدِّدَةٍ، لِأَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ مَرَتَبَةِ الإحْسَانِ، وَللدَّاعِي بِهذا الدُّعَاءِ لِمَنْ أوصَىٰ اللهُ بالسَّلامِ عَلَيْهِم أَجْرٌ يُضَاعِفُهُ اللهُ بِفَضْلِهِ.

وَوَصَفَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ بِأَنَّهُ مِنَ المؤمِنِينَ كَامِلِي الإيمان، مِنْ عِبَادِهِ المشَرَّفِينَ بِعُبُودِيَّتِهِمُ الكَامِلَةِ لَهُ.

ثُمَّ بَشَّرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ زَوْجَتِهِ «سَارَةَ» الْعَجُوزِ الْعَقِيم بِوَلَدٍ يُسَمِّيهِ «إِسْحَاق»، وَبِأَنَّهُ سَيَكُونَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ.

فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في آخِرِ هٰذَا النَّصِّ الَّذِي مِنْ سُورَةِ (الصَّافَّات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نُزُول):

﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾:

نَبِيًّا: أي: يُصْطَفَىٰ لِلنُّبُوَّة.

مِنَ الصَّالِحِين: أي: مِنْ أَهْلِ كَمَالِ الإيمانِ والْعَمَلِ الصَّالح.

الْبَرَكَة: الكَثْرَةُ مِن كُلِّ خَيْر.

---

(١) **السَّمُر**: نَوْعٌ مِنْ أنواعِ شَجَرِ الطَّلْحِ، تَرْعَاهُ الإبل.

وَوَصَفَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا تَنَاسَلَ مِنْ ذُرِّيَّاتِهِمَا بِأَنَّهُمْ عَلَىٰ دَرَجَاتٍ أَوْ دَرَكَاتٍ، فَأَفْضَلُهُمْ مُحْسِنٌ مِنْ أَهْلِ مَرْتَبَةِ الإِحْسَانِ. وأَحَطُّهُمْ دَرَكَةً ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ واضِحٌ فِي انْحِطَاطِهِ إِلَىٰ أَسْفَلِ سَافِلِينَ، وسائِرُهُمْ على دَرَجَاتٍ أَوْ دَرَكَاتٍ، بَيْنَ الأَعْلَيْنِ والأَسْفَلِين.

وَجَاءَ فِي آخِرِ النَّصِّ الَّذِي مِنْ سُورَة (الأَنْبِيَاء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) قَولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾:

أي: وَوَهَبْنَا لَهُ بَعْدَ أَنْ بَلَغَ «إسْماعِيلُ» مَعَهُ السَّعيَ «إِسْحَاقَ» مِنْ زَوْجَتِهِ «سَارَة» الْعَجُوزِ الْعَقِيمِ بِخَارِقَةٍ لِلْعَادَة، ثُمَّ وَهَبْنَا لَهُ «يَعْقُوب» حَفِيداً لَهُ مِنْ وَلَدِهِ «إِسْحَاقَ» بَعْدَ أَنْ كَبِرَ «إِسْحَاقُ» وَتَزَوَّجَ، فَكَانَ نَافِلَةً زَائِدَةً عَلَىٰ الْبُشْرَىٰ لَهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ، فَكَانَ «يَعْقُوبُ» نَبِيًّا مِن الصَّالِحِينَ ـ عَلَيْهِم السَّلَام ـ.

﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾﴾: أي: وكُـلًّا مِـنْ إبـراهـيـم، ولُـوطٍ، وإِسْحَاقَ، ويَعْقُوبَ ـ عَلَيْهِم السَّلَام ـ، جَعَلْنَا بِتَوفِيقِنَا وعِصْمَتِنَا صَالِحِينَ؛ لاسْتِحقَاقِهِمْ هَـٰذِهِ المرتبَةَ الرفيعَةَ.

ومِنْ مِنَّةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ جَعَلَهُمْ أَئِمَّةً يُؤْتَمُّ بِهِمْ، إِذْ جَعَلَهُمْ رُسُلاً يُوحَىٰ إِلَيْهِمْ بِوَصْفِ كَوْنِهِمْ رُسُلاً، يَهْدُونَ النَّاسَ إِلَىٰ دِينِ اللهِ الْحَقِّ بِأَمْرِهِ، ومِمَّا أَوحَىٰ بِهِ إِلَيْهِمْ: الأَمْرُ بِفِعْلِ الْخَيْرَاتِ، وهِيَ الأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ الَّتِي يُحِبُّ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ يَعْمَلُوهَا، فِي السُّلُوكِ النَّفْسِيِّ وَفِي السُّلُوكِ الظاهِرِ، والأَمْرُ بإِقَامَةِ الصَّلَاةِ للهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ والأَمْرُ بإِيتاءِ الزَّكَاةِ.

وَوَصَفَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بأَنَّهُمْ كَانُوا لِعَظَمَةِ رُبُوبِيَّتِهِ وإِلَٰهِيَّتِهِ عَابِدِينَ.

وَفِي آخِرِ النَّصِّ الَّذِي جَاءَ فِي سُورَةِ (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول) المتضمِّنِ عَرْضَ مَرْحَلَةٍ مِنْ مَرَاحِلِ دَعْوَةِ «إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ» قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾:

أَيْ: فَلَمَّا هَاجَرَ «إبراهيم» عَلَيْهِ السَّلَام مِنْ أَرْضِ مَا بَيْنَ النَّهْرَيْنِ، وَوَصَلَ إِلى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكَ اللهُ فِيها، وهي مِنْ أَرْضِ الكَنْعَانِيِّينَ «فلسطين» وَبَعْدَ أَنِ اسْتَقَرَّ فِيها؛ وَهَبَ اللهُ لَهُ «إِسْحَاقَ» مِنْ زَوْجَتِهِ «سَارَة» بِخَارِقَةٍ لِلْعَادَةِ، ثُمَّ وَهَبَ لَهُ حَفِيداً مِنْ وَلَدِهِ «إِسْحَاق» هُوَ «يَعْقُوب»، وَقَدْ جَعَلَهُمَا اللهُ نبيَّيْنِ، وَجَعَلَ لَهُمَا ثَنَاءً حَسَناً عَلِيًّا، تَتَحَدَّثُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ الصَّادِقَةُ.

بُشْرَىٰ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِإِسْحَاق عَلَيْهِ السَّلَام مِنْ زَوْجَتِهِ «سَارَة»:

جَاءَ بَيَانُ هَـٰذِهِ الْبُشْرَىٰ فِي أَرْبَعَةِ نُصُوصٍ مِنَ الْقُرْآنِ المجيد، مُتَكَامِلَةٍ فِيمَا بَيْنَهَا، وهي في سورةِ (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول)، وفي سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول)، وفي سورة (الذَّاريات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول)، وفي سورة (الْعَنْكَبُوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول).

- قول الله عَزَّ وَجَلَّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ ... ﴿٦٩﴾﴾:

فعل «جاء» يُستَعْمَلُ لازماً مثل «جاءَ الرَّجُل»، ويستَعْمَل مُتَعدِّياً، مِثْل: «جَاءَ النَّبأُ الرَّجُلَ»، وَعلى هـٰذا جاءَ هُنَا قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ، فلفظ «إبراهيم» هُنَا مَفْعُولٌ بِهِ للفِعْلِ في ﴿جَآءَتْ﴾.

والْمُرَادُ بعِبَارَةِ ﴿رُسُلُنَا﴾ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمُ اللهُ تَعالَىٰ لِتَبْشِيرِ «إبراهيمَ» عَلَيْهِ السَّلام وزَوْجَتِهِ الْعَقِيم «سَارَة» بِوَلَدٍ مِنْهُمَا اسْمُهُ «إِسْحَاقَ» ـ عَلَيْهِ السَّلام ـ.

وقَدْ جَاءُوه عَلى صُوَرِ رِجَالٍ بَشَرٍ لَا يَعْرِفُهُمْ، فالملائكة قادِرُونَ علَىٰ التَّشكُّلِ بأشكالٍ جسمانية.

﴿قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾: بَدَؤُوه بالتَّحِيَّةِ قَائِلِينَ لَه: «سلاماً»، أي: نُسَلِّمُ عَلَيْكَ سَلاماً. فلفظ «سَلاماً» مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ لِفِعْلٍ مَحْذُوف.

قال: «سَلَامٌ» أي: تَحِيَّتِي لَكُمْ: «سَلَامٌ».

قال البلاغِيُّون: «سَلامٌ» جُمْلَةٌ اسْمِيَّةٌ مع المُبْتَدأ المحذوف المقَدَّرِ ذهْناً، و«سَلاماً» جُمْلَةٌ فِعْلِيَّةٌ مَعَ الْعَامِلِ المحذوف، والجملَةُ الاسْمِيَّةُ أقْوىٰ وآكَدُ مِنَ الْجُمْلَةِ الْفِعْلِيَّةِ، لِأَنَّ في خَبَرِ الْجُمْلَةِ الاسْمِيَّةِ ضَمِيراً يَعُودُ على المبْتَدأ، فَفِيهَا إسْنَادان، وعلَىٰ هٰذَا فَقَدْ كَانَ رَدُّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلامُ التَّحِيَّةَ بأحْسَنَ مِنْهَا.

وَهُنَا يَأْتِي مَا جَاءَ في سُورَةِ (الذَّارِيَات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول) بإضَافَةِ كَوْنِ الرُّسُلِ عَلَيْهِم السَّلام قَدْ جَاءُوا إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلام عَلَىٰ أَنَّهُمْ ضُيُوفٌ مُكْرَمُون، وأَنَّ إبراهِيمَ عَلَيْهِ السَّلام قَالَ لَهُمْ ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾، قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فيها:

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾:

الاستِفْهَام بـ «هل» هُنَا يُفِيدُ مَعْنَىٰ: خُذْ أَيُّهَا المتَلَقِّي حديث ضَيْفِ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام.

«ضَيْف»: يُطْلَقُ على الواحد والاثْنَيْن فأكثر، والمراد عَدَدٌ مِنَ الملائِكَةِ أرْسَلَهُمُ اللهُ عَلَىٰ شَكْلِ ضُيُوفٍ مِنَ البشر، ووَصَفَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنَّهُمْ مُكْرَمُونَ، إشَارَةً إِلَىٰ أَنَّهُمْ لَيْسُوا بشراً، بَلْ هم مَلَائِكَة، إِذْ جَاءَ وَصْفُ الْمَلَائِكَةِ في الآية (٢٦) من سورة (الْأَنْبِيَاء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) بأَنَّهُمْ عِبَادٌ مُكْرَمُون، وَرُبَّما كَانَتْ ثِيَابُهُمْ حِينَ دَخَلُوا عَلَيْهِ على صُورَةِ ثِيَابِ قَوْمٍ ذَوِي كَرَامَةٍ في قَوْمِهِمْ.

﴿... قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾: أي: أَنْتُمْ قَوْمٌ لا أَعْرَفُ أَشْخَاصَكُمْ، وَلَا أَعْرِفُ مِنْ أَيْنَ أَنْتُمْ، وَلَكِنْ لَكُمْ عَلَيَّ حَقُّ ضِيَافَتِكُمْ.

قالَ اللهُ تَعَالَىٰ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿... فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾﴾:

أي: فَذَهَبَ بِخِفَّةٍ وسُرْعَةٍ لِضِيَافَتِهِمْ، وهو يَجْهَلُ كَوْنَهُمْ مَلائِكَةً، وَلَمْ يَظْهَرْ بِحَرَكَتِهِ عَلَامَاتُ إِرَادَة إِكْرَامِهِمْ، فَمَا أَبْطَأَ عَنْ مَجِيئِهِ بِعِجْلٍ مَشْوِيٍّ بالدَّسِّ فِي النَّارِ، أَوْ فِي حجارَةٍ مُحَمَّاةٍ بالنَّار.

المرادُ بنَفي اللُّبْث هُنَا: عَدَمُ الإبْطَاءِ، حَتَّىٰ كَأَنَّهُ لَمْ يَلْبَثْ مُطْلَقاً، مِنْ شِدَّةِ سُرْعَةِ إِحْضَارِهِ ضِيَافَته.

اللُّبْث: فِي اللُّغَةِ: الإقَامَةُ في المكان.

حنيذ: أي: مَشْوِيٌّ بالدَّسِّ في النَّار، أو في حِجَارَةٍ مُحَمَّاةٍ بالنَّار.

وَجاء في سورة (الذَّارِيَات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول) قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾:

﴿فَرَاغَ﴾ أي: فذهَبَ بخِفَّةٍ وسُرْعَةٍ لِضِيَافَتِهِمْ وإِكْرَامِهِمْ، دُون أنْ يُظْهِرَ عَلَامَاتِ إِرَادَةِ إِكْرَامِهِمْ، مِنْ بَالِغِ مَا لَدَيْهِ مِنْ جُودٍ وَسَخَاءِ نَفْس.

﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾﴾: جَاءَ وصْفُ الْعِجلِ هُنَا بأَنَّهُ سَمِينٌ، وسبق في سورة (هود/ ٥٢ نزول) بَيَانُ أَنَّهُ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ، فَتَكَامَلَ النَّصَّانِ في بَيَانِ أَنَّ الْعِجْلَ سَمِينٌ ومَشْوِيٌّ.

﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾:

عَرْضٌ بِصِيغَةِ الاسْتِفْهَامِ أَنْ يَأْكُلُوا مِنَ الْعِجْلِ السَّمِينِ المشْوِي، الَّذِي قَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ، وَجَعَلَهُ قَرِيباً مِنْ مَكَانِ جُلُوسِهِمْ.

دلَّ هٰذَا عَلَىٰ أَنَّ مِنْ فَضَائِلِ الْمُضِيفِ وَكَرَمِهِ فِي الضِّيَافَةِ؛ أَنْ يُقَرِّبَ لِضُيُوفِهِ مَا يَأْكُلُونَهُ وَيَشْرَبُونَهُ، وَقَدْ كَانَ هٰذَا مِنْ عَادَاتِ الكُرَمَاء، قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَ النَّاسُ الْخِوَانَ الكَبِيرَ الَّذِي تُوضَعُ حَوْلَهُ الكراسِي، ويَصْعُبُ تَقْرِيبُهُ للضُّيُوف.

وَهُنَا يَأْتِي مَا جَاءَ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾.

ويأتي هُنَا أَيْضاً قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (الْحِجْر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾﴾.

فَأَضَافَ النَّصُّ الَّذِي مِنْ سُورَةِ (هود/ ٥٢ نزول) أَنَّ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَأَىٰ أَيْدِي الضُّيُوفِ لَا تَصِلُ إِلى الْعِجْلِ الْحَنِيذِ السَّمِينِ، وَلَا يَأْكُلُونَ مِنْهُ فَنَكِرَهُمْ، أَي: اسْتَنْكَرَ تَصَرُّفَهُمُ الَّذِي هُوَ عَلَىٰ غَيْرِ عَادَةِ الضُّيُوف، بَلْ هُوَ عَادَةُ الَّذِينَ يَأْتُونَ بَشَرٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ في بالِهِ ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ أَنَّهُمْ مَلَائِكَةٌ لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ، إِذْ كَانَ مَظْهَرُهُمْ لَا يُشْعِرُ بِذَلِكَ.

﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾: أي: وأَحَسَّ فِي نَفْسِهِ خَوْفاً مِنْ غَرَضِهِم، الَّذِي جَاءُوا مِنْ أَجْلِهِ، إِذْ هُمْ بَشَرٌ بِحَسَبِ الظَّاهِر.

وَقَالَ لَهُمْ أخذاً ممّا جَاءَ فِي سُورَة (الحجر/ ٥٤ نزول): ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾﴾.

فأجَابُوهُ: أخذاً ممّا جاءَ في سُورة (هود/ ٥٢ نزول): ﴿... قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾.

وجَاءَ فِي سُورَة (الذاريات/ ٦٧ نزول) ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾:

يُلاحَظُ فِي هَـٰذِهِ النُّصُوصِ: أَنَّ مَا طُوِيَ فِي نَصٍّ مِنْهَا ذُكِرَ فِي نَصٍّ آخَرَ، فهِيَ فِيما بَيْنَهَا مُتَكَامِلَةٌ غَيْرُ مُكَرَّرَةٍ تَكْرِيراً تَطَابُقِيًّا، وَهـٰذَا مِنْ إبداعَاتِ الْقُرْآنِ الْبَيَانِيَّةِ.

وجاء في سُورَة (الحِجْر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾:

أي: إنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَام عَلِيم يَأتِيكَ مِنْ زَوْجِكَ «سَارَة»، فَنَحْنُ مَلائِكَةٌ، رُسُلٌ مُرْسَلُونَ مِنْ رَبِّكَ، لِنُقَدِّمَ لَكَ هَـٰذِهِ الْبِشَارَة.

قال مُسْتَفْهِماً مِنْ أَمْرِ هَـٰذِهِ الْبِشَارَةِ: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ والشَّيْخُوخَةُ مُضْعِفَةٌ عَادَةً عَنِ الإنجاب. «على» هنا بمنى «مع».

أي: أَبَشّرْتُمُوني وَقَدْ صَارَ بَيْنِي وَبَيْنَ الْكِبَرِ تَمَاسٌّ، ولم يَقُلْ أصَابَنِي الكِبَرُ، إِذْ مَا زَالَتْ لَدَيْهِ قُوَّةٌ وَقُدْرَةٌ عَلَى الإنْجَاب.

ويَظْهَرُ أَنَّ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يُرِدْ أَنْ يَجْرَحَ مَشَاعِرَ زَوْجَتِهِ الْوَاقِفَةِ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ تَتَسَمَّعُ الْحِوَارَ، بأنّ السَّبَبَ فِي عَدَمِ الإنْجَابِ مِنْهَا وَلَيْسَ مِنْهُ، فهي عَجُوزٌ عَقِيم.

ورُبما وَقَعَ في ظَنِّهِ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ سَيأْمُرُهُ بأَنْ يَتَزَوَّجَ امْرَأَةً ذَاتَ اسْتِعْدَادٍ للإنْجَاب، ومِثْلُ هـٰذَا الظّنّ وقَعَ في نَفْسِ زَوجَتِهِ «سَارَة».

﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾؟. أي: فَبِأَيِّ سَبَبٍ لَدَيَّ أَمْلِكُهُ يَكُونُ مِنْ آثَارِهِ أَنْ أُنجِبَ؟.

فَلَمْ يُجِيبُوهُ عَنِ السَّبَبِ، وإِنَّمَا أجابُوهُ عَلَىٰ ظاهِرِ عِبَارَتِهِ، لَا عَلَىٰ مُرَادِهِ مِنْهَا:

﴿قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾﴾:

أي: بَشَّرْنَاكَ بِخَبَرٍ عَنِ اللهِ مُتَّصِفٍ بالْحَقِّ الَّذِي سَيَتَحَقَّقُ حَتْماً، فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ الْيَائِسِينَ.

﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾؟:

أي: لَا يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ الجاهِلُونَ بِقُدْرَةِ الله عَلَىٰ فِعْلِ مَا يَشَاءُ وَخَلْقِ مَا يَشَاءَ. يُراد بالاستفهام هنا النفي.

وَهُنَا يَأْتِي مَوْقِعُ قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾:

أي: وامْرَأَتُهُ «سَارَةُ» قَائِمَةٌ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ تَتَسَمَّعُ الْحِوَارَ، فَضَحِكَتْ لَمَّا عَلِمَتْ مَا جَاءَ فِي الْبُشْرَىٰ لِزَوْجها «إبراهيم» عَلَيْهِ السَّلَام.

وَبَعْدَ ضَحِكِهَا الَّذِي كَانَ ضَحِكَ اسْتِغْرَابٍ وَتَعَجُّبٍ، وَخَوْفٍ مِنْ أن يَكُونَ الْمُبَشَّرُ بِهِ مِن امْرأَةٍ غَيْرِهَا؛ يَأْتِي قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَة (الذَّارِيَات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول):

﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾:

أي: فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ «سَارَةُ» من وراءِ الْحِجَابِ، إِذْ كَانَتْ تَتَسَمَّعُ مَا يَجْرِي، وَدَخَلَتْ عَلَيْهِمْ في «صَرَّةٍ» أي: فِي صَيْحَةٍ وَضَجَّةٍ، وأصْوَاتٍ وَكَلِمَاتٍ مُخْتَلِطَاتٍ كَعَادَةِ النِّسَاءِ اللَّوَاتِي في طِبَاعِهِنَّ حِدَّةٌ، إِذَا أَثَارَهُنَّ أَمْرٌ جَلَلٌ يَمَسُّهُنَّ.

﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾: أي: فَضَرَبَتْ وَجْهَهَا بِكَفَّيْهَا عَلَىٰ عَادَةِ النِّسَاءِ.

﴿... وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾: أي: كَيْفَ تُبَشِّرُونَ زَوجي إبْرَاهِيمَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ، وَأَنَا عَجُوزٌ عَقِيمٌ لَا أَلِدُ.

فَأَعْلَمَهَا الرُّسُلُ أَنَّ الْغُلَامَ الْعَلِيمَ وَلَدٌ لَهَا، وَهُنَا يأتي مَوْقِعُ قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (هود/ ٥٢ نزول):

﴿... فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾:

هٰذَا بَيَانٌ صَادِرٌ عَن اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، اسْتُعْمِلَ فِيهِ ضَمِيرُ المتكلِّم العظيم الَّذِي يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، ويَخْلُقُ مَا يُرِيدِ، للإِشْعَارِ بأنَّ بِشَارَة الملائِكَةِ لَهَا، إِنَّمَا كَانَتْ بِأَمْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَهِيَ بِشَارَةٌ مِنْهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، إِذِ الْقَضَاءُ قَضَاؤُهُ والأَمْرُ أَمْرُهُ.

﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾:

﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾: أصْلُها: «يَا وَيْلَتِي» قُلِبَتْ كَسْرَةُ التَّاءِ فَتْحَةً، وقُلِبَتِ الياءُ أَلِفاً، وهٰذَا أَحَدُ الوجوه العربيّة في المنادى المضَافِ إِلَىٰ يَاء المتكلّم.

وكلمة «وَيْلٍ» هُنَا مُسْتَعْمَلَةٌ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ التَّعَجُّبِ، أي: يَا عَجَباً عظيماً.

أي: يَا عَجَباً أَأَلِدُ وَأَنَا امْرَأَةٌ عَجوزٌ، وَهٰذَا بَعْلِي إبراهيمُ حَالَةَ كَوْنِهِ شَيْخاً؟!!.

وَقَالَتْ كَمَا جَاءَ في سُورَةِ (الذَّارِيَات/ ٦٧ نزول): ﴿... عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾.

وَجَاءَ في هَٰذِهِ السُّورَة أنَّ الرُّسُلَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ قَالُوا لها مَا جاء في البيان التالي:

﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾:

وَجَاءَ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ٧٣﴾:

أي: قَالُوا: كَذَلِكَ الَّذِي بَشَّرْنَاكُمَا بِهِ قَالَ رَبُّكِ، وقولُهُ حَقٌّ، فالْبِشَارَةُ لَيْسَتْ مِنْ عِنْدِنَا، وَلَيْسَتْ مِنْ أمرِنا، وإِنَّمَا هِيَ مِنْ عِنْدِ رَبِّكِ وَمِنْ أَمْرِهِ، فَلَا تَعْجَبِي مِنْ أَمْرِ اللهِ، إِنَّ رَبَّكَ الَّذِي هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ هُوَ وَحْدَهُ الَّذِي لَهُ الْحِكْمَةُ الْكَامِلَةُ فِي اخْتِيَارَاتِهِ، فَهُوَ الْحَكِيم، وهُوَ وَحْدَهُ ذُو الْعِلْمِ الشَّامِلِ الْكَامِلِ الْمُحِيطِ بِكُلِّ شَيْءٍ، فَهُوَ الْعَلِيمُ وَحْدَهُ.

وقالوا لَهَا أيضاً: ﴿أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ وأَنْتِ امْرَأَةٌ فَاضِلَةٌ وَزَوْجَةُ نَبِيٍّ وَرَسُولٍ، وعِشْتِ فِي بَيْتِ نُبُوَّةٍ زَمَناً مَدِيداً، وَتَلَقَّيْتِ مَفَاهِيمَ الْإِيمَانِ طَوَالَ هَـٰذِهِ المدَّةِ، فَكَيْفَ تَعْجَبِينَ مِنْ حُدُوثِ شيءٍ هُوَ مِنْ شَأْنِ اللهِ، قَدَّرَهُ وَقَضَاهُ، وأصْدَرَ بِهِ أَمْرَهُ، عَلَىٰ أَنْ يُنَفَّذَ في حِينِهِ، وَأَنْتِ تُؤْمِنِينَ بأنَّ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِذَا أَرَادَ شيئاً فإنَّمَا يَقُولُ لَهُ: «كُنْ» فَهُوَ يَكُونُ عَلَىٰ وَفْقِ أَمْرِ اللهِ التَّكْوِينِي.

واعْلَمِي أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ أَنْ يَخْرِقَ سُنَّتَهُ إكْراماً لَكُم يَا أَهْلَ بَيْتِ «إبراهيم» شَيْخِ الْأَنْبِيَاءِ والْمُرْسَلِينَ مِنْ بَعْدِهِ، فَأَفَاضَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَبَرَكَاتِهِ.

﴿... إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ٧٣﴾: فِي هَـٰذِهِ العِبَارَةِ ثَنَاءٌ عَلَىٰ اللهِ ـ جلَّ جَلَالُهُ ـ بِصِفَتَيْنِ مُلَائِمَتَيْنِ لِفُيُوضِ عَطَاءَاتِ رَحْمَتِهِ، وَمَا يَمْنَحُهُ بَعْضَ عِبَادِهِ مِنْ زِيَادَاتِ الخيرِ.

حَمِيد: أي: كَثِير الْحَمْدِ لِأَهْلِ طاعَتِهِ والتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِمَحَابِّهِ. والْمَحْمُودُ كثيراً بِصِفَاتِ ذَاتِهِ، وبصفات أفعالِهِ، في السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ.

مَجِيد: أي: كَرِيمٌ شَرِيفٌ عَلِيٌّ عَظِيمٌ ذُو خَيْرٍ كَثِير.

■ وبَعْدَ أَنِ انْتَهَتْ أَحْدَاثُ الْبُشْرَىٰ، لَاحَظَ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلام من

حَرَكَاتِ وَوُجُوهِ الرُّسُلِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِم السَّلَام؛ أَنَّ عَلَيْهِمْ وَظِيفَةً رَبَّانِيَّةً يُرِيدُونَ الانْصِرَافَ لِتَأْدِيَتِها.

وهُنَا يأتي مَوْقِعُ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سُورَةِ (الذَّاريات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول) حِكَايَةً لِمَا قَالَهُ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَام ولِمَا أَجَابَهُ به الرُّسُل من الملائكة:

﴿۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

وموقع قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سُورَةِ (الْعَنْكَبُوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾:

مِنَ الغابِرِين: الغابر: الماكث الَّذِي لَا يَتَحَوَّل، أي: مِنَ الْمُهْلَكِين مع قَوْمِهَا. **والغابر**: الذَّاهِبُ الماضِي الذي لَا يَبْقَىٰ لَهُ وُجود، أي: مِنَ الماضِينَ الْمُهْلَكِينَ مع قَوْمِها.

فالمعنيان يَنْطَبِقَانِ عَلَيْهَا، والمقْصُودُ مِنْ دَلَالَتَيْهِمَا وَاحِدَة.

وَمَوْقِعُ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾:

وَمَوْقِعُ قول الله عَزَّ وَجَلَّ في سُورَةِ (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾:

فمَا جَاءَ في سورة (الذَّارِيَات/ ٦٧ نزول):

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾﴾؟؟:

أي: قَالَ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلام للرُّسُلِ مِنَ الملائِكَةِ عَلَيْهِم السَّلَام: فَمَا أَمْرُكُم وَمَا شَأْنُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ؟؟، إِذْ أَدْرَكَ أَنَّ أَمْراً جَلَلاً عَلَيْهِمْ أَنْ يَقُومُوا بِهِ.

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾﴾:

أي: قَالُوا: إِنَّا أُرسِلْنَا مِنْ رَبِّنَا إِلَىٰ إِهْلَاكِ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ وَتَعْذِيبِهِمْ، وهُمْ قَوْمُ لُوط عَلَيْهِ السَّلام، وبِسَبَبِ كَوْنِهِمْ مُجْرِمِينَ من الدَّرَكَةِ الْقُصْوىٰ في الانْحِطَاطِ الإجْرَامِي، يَسْتَحِقُّونَ التَّعْذِيبَ والإهْلَاكِ الشَّامل.

وَمِنْ وَسَائِلِ تَعْذِيبنَا لَهُمْ وَإِهْلَاكِنَا إِيَّاهُمْ أَنْ نُرْسِلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ، أي: حجارَةً كَانَ أَصْلُهَا طِيناً فَتَحَجَّرَ، وَلَعَلَّ تَحَجُّرَهَا كَانَ بِسَبَبِ إِحْمَائِهَا بالنَّار، حَالَة كَوْنِ هَـٰذِهِ الْحِجَارَةِ مُعَلَّمَةً بِعَلَامَاتٍ تَخصُّ الْمُهْلَكِينَ الْمُسْرِفِين، الْغُلَاةِ الْمُتَوَغِّلِينَ فِي الضَّلَالِ وفِعْل الْجَرائِمِ والآثَامِ وَكَبَائِرِ الْفَوَاحِشِ والمنْكَرات.

ومَا جَاءَ فِي سُورة (الْعَنْكَبُوت/ ٨٥ نزول):

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾:

أي: وَحِينَ انْتَهَىٰ مَوْضُوع الْبُشْرى بإسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوب ـ عَلَيْهِما السَّلَام ـ، وَسَأَلَهُمْ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلام عَنْ خَطْبِهِمْ؛ قَالُوا إِنَّا

مُهْلِكُو أَهْلِ هَـٰذِهِ الْقَرْيَةِ الْجَامِعَةِ لِقُرَىٰ قَوْمِ لُوط ـ عَلَيْهِ السَّلَام ـ، إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا حَتَّىٰ هَـٰذِهِ السَّاعَةِ ظَالِمِينَ ظُلْماً يَسْتَحِقُّونَ عَلَيْهِ الإهْلَاكَ والتَّعْذِيب.

قال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ فِيهَا لُوطاً، وهُوَ نبيٌّ ورسُولٌ.

قالُوا: نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا، لَنُنَجِّينَّهُ وأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ فإِنَّهَا عَلَىٰ مَذْهَبِ وَمِلَّةِ قَوْمِهَا، فَسَيَشْمَلُهَا الإهْلَاكُ، وَسَتَكُونُ مِنَ الذَّاهِبِينَ بالإهْلَاكِ، وَمِنَ الْبَاقِينَ في أرْضِ الْعَذَابِ والإهلاك، فَلَا تَخْشَ عَلَىٰ لُوطٍ والمؤمنِينَ الْمُسْلِمِينَ مَعَهُ.

وَمَا جَاء في سورة (الحجر/ ٥٤ نزول):

﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٥٨ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٩ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٦٠﴾:

أي: إِلَّا لُوطاً وآلَهُ فإِنَّنَا لَا نُهْلِكُهُمْ، بَلْ نُنَجِّيهِمْ أجْمَعِينَ، مِنَ الْعَذَابِ والْهَلَاكِ، إِلَّا امْرأَتَهُ لِأَنَّهَا عَلَىٰ مِلَّةِ قَوْمِهَا.

﴿قَدَّرْنَآ﴾ يَظْهَرُ أَنَّهُ بَيَانٌ صَادِرٌ عَنِ الله تَعالى، أي: قَدَّرْنَا وَقَضَيْنَا أَنْ تَكُونَ امْرَأَتُهُ مِنَ الْغَابِرِينَ الْمُهْلَكِينَ مَعَ قَوْمِهَا لِأَنَّهَا كَافِرَةٌ وَعَلَىٰ هَوَىٰ قَوْمِهَا.

وَبدأ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام يَتَوَسَّطُ بِتَأْجِيلِ إِهْلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَام رَجَاءَ أَنْ يُؤْمِنُوا.

وَمعا جعاءَ فِي سُورَةِ (هود/ ٥٢ نزول):

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ۝٧٤ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ۝٧٥ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ۝٧٦﴾:

﴿ٱلرَّوْعُ﴾: الْفَزَعُ، وهو الْخَوْفُ الَّذِي تَظْهَرُ لَهُ آثَارُ نُفُورٍ فِي حَرَكَاتِ الْجِسْمِ، واسْتِعْدَادٌ لِدَفْعِ المفزوع مِنْه.

أي: فحِينَما ذَهَبَ عَنْ إبْراهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام الْخَوْفُ الَّذِي أَثَارَهُ أَنَّ ضُيُوفَهُ لَمْ يَأْكُلُوا مِنْ طَعَامِهِ، وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ هُوَ وزَوْجَتُهُ «سَارة»، وَتَلَقَّىٰ نَبَأَ إِهْلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَام، وَكَانَتْ نَفْسُهُ قَدْ هَدَأَتْ؛ شَرَعَ يُجَادِلُ رُسَلَنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَام، لِرَفْعِ الْعَذَاب والإهْلَاكِ عَنْهُمْ وَلَو إِلَىٰ حِينٍ.

سَمَّىٰ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ حِوَارَ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام للرُّسُلِ مِن الملائِكَةِ بِشَأْنِ قَوْمِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَام وَرَغْبَتِهِ فِي تَأْخِيرِ تَعْذِيبِهِمْ وإهْلَاكِهِمْ: مُجَادَلَةً لَهُ سُبْحَانَهُ، لِأَنَّهُ هو الّذِي أَرْسَلَهُمْ، وَكَلَّفَهُمُ الْقِيَامَ بِتَعْذِيبِهِمْ وإِهْلَاكِهِمْ، وَلَا نَعْلَمُ عَنِ المعْصُومِ كَيْفَ كَانَتْ مُجَادَلَةُ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ للرُّسُلِ مِن الْمَلَائِكَةِ.

وقَدْ أَثْنَىٰ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَىٰ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَام، بِثَلَاثِ صِفَاتٍ جَلِيلات فَقَالَ تبارَكَ وَتَعَالَىٰ مُؤَكّداً بِثَلَاث أَدَوَاتِ تَوْكيد:

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾:

حلِيم: أي: ذو أَنَاةٍ، قادِرٌ عَلَىٰ ضَبْطِ نَفْسِهِ عِنْدَ الْغَضَب، أو عِنْدَ حُلُولِ مَكْرُوه، يَعْقِلُ بإرَادَةٍ قَوِيَّةٍ نَوازِعَ نَفْسِهِ، ويَعْفُو وَيَصْفَحُ.

أَوَّاه: أي: رَحِيمٌ، رَقِيقُ الْقَلْبِ، كَثِيرُ الْحُزْنِ، كَثِيرُ التَّضَرُّعِ إِلَىٰ اللهِ، والْمُحَافَظَةِ عَلَىٰ طَاعَتِهِ.

مُنِيب: أي: ذُو رُجُوعٍ إِلَىٰ اللهِ دَواماً، بِقَلْبِهِ وَنَفْسِهِ وَفِكْرِهِ.

﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾:

أي: يا إبْرَاهِيمُ أعْطِ لِهَٰذَا الأَمْرِ الَّذِي تَوَجَّهَتْ نَفْسُكَ لَهُ، شَفَقَةً عَلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ: عَارِضَك (أي: جَانِبَ وَجْهِكَ)، فَشَفَاعَتُكَ فِيهِمْ غَيْرُ مُسْتَجَابَة.

وَنُؤَكِّدُ لَكَ أَنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ لَنَا بِتَنْفِيذِ التَّعْذِيبِ والْإِهلَاكِ، وَهَٰذَا أَمْرٌ نَازِلٌ بِهِمْ لَا مَحالَة، وهو غَيْرُ مَرْدُودٍ، إذْ لَا رَادَّ لِقَضَاءِ اللهِ الْمُبْرَم.

الفصل التاسع
تأسِيسُ إبراهيمَ عَلَيهِ السَّلَام شَعباً مُؤمِناً فِي مكّة بِوَلَدِه إسماعيل عَلَيهِ السَّلَام

لَمَّا وَلَدَتْ «هَاجَرُ» ابْنَهَا «إِسْمَاعِيل» عَلَيْهِ السَّلَام وَكَانَ أَوَّلَ ذُرِّيَّةِ «إِبْرَاهِيم» عَلَيْهِ السَّلَام؛ رَأَتْ «سَارَةُ» زَوْجَةُ «إبراهيمَ» عَلَيْهِ السَّلَام تَعَلُّقَ الأبِ بابْنِهِ الوحيدِ مِنْ «هَاجَرَ» الَّتِي كانَتْ أَمَتَهَا، فَوَهَبَتْهَا لِزَوْجِهَا لِيُنْجِبَ مِنْهَا وَلَداً، إِذْ كَانَتْ هِيَ عَجُوزاً عقيماً، فَثَارَتْ غَيْرَتُهَا، وَطَلَبَتْ مِنْ زَوْجِهَا أَنْ يُبْعِدَ الْوَلَدَ وأُمَّهُ إِبْعَاداً كُلِّيًّا عَنِ الْأَرْضِ الَّتِي يَعِيشُونَ فِيهَا.

فَاسْتَفْتَىٰ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام رَبَّهُ فَأَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْهِ أَنْ يَأْخُذَهُمَا إِلَى وَادِي مَكَّةَ، حَيْثُ مَكَانُ بَيْتِ اللهِ الْحَرَام، أَوَّلِ بَيْتٍ وُضِعَ للنَّاسِ في الأَرْضِ، مُنْذُ عَهْدِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَام، وَقَدْ عَفَتْ آثَارُهُ مُنْذُ قُرُونٍ، وَصَارَ قِطْعَةً مَجْهُولَةً فِي بَطْنِ وَادِي مَكَّة عَلَىٰ شَكْلِ تَلَّةٍ مِنَ التراب.

فَأَخَذَهُمَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام وَسَافَرَ بِهِمَا مِنْ أَرْض كَنْعَان (= فِلِسطين) بأمْرِ رَبِّهِ، وَهِدَايَةٍ مِنَ اللهِ لَهُ عَنْ طَرِيق الْوَحْي، حَتَّىٰ وَصَلُوا إِلَىٰ الْوَادِي الَّذِي لَا زَرْعَ فِيهِ وَلَا مَاءَ، وَفِيهِ مَكَانُ بَيْتِ اللهِ المحرَّم.

مكّة والبيت الحرام فيها:

(١) جاء في الْأَخْبَارِ أَنَّ الْبَيْتَ الْحَرَامَ وَمَكَّةَ أَوَّلُ مَا بَرَدَ مِنْ قِشْرَةِ الْأَرْضِ، بَعْدَ أَنْ كَانَتِ الْأَرْضُ كُلُّهَا كُتْلَةً نَارِيَّةً مُلْتَهِبَةً كالشَّمْسِ، فَمَكَّةُ هِيَ بِمَثَابَةِ سُرَّةِ الْأَرْضِ.

وصَوَّرَ الجغرافيُّونَ المسلِمُونَ الْبَيْتَ المحرَّم ومكَّةَ في وَسَطِ المعْمُورِ مِنَ الْأَرْض، واعتَبَرُوا مكَّة سُرَّةَ الْأَرْضِ.

(٢) وأجْرَىٰ المعْهَدُ القومي لِلْبُحُوثِ الْفَلَكِيَّة والْجُيُوفِيزِيقيَّة بالْقَاهِرَةِ؛

دراسَاتٍ مُوسَّعَةً، فَتَبَيَّنَ لَهُمْ أنَّ الكَعْبَةَ المشَرَّفَةَ تُمَثِّلُ مَرْكَزَ الْأَرْض.

وأَوْضَحَتِ الدِّرَاسَةُ الَّتِي أشْرَفَ عَلَيْهَا الدكتور «مسلم شَلْتوت» الأستاذُ بالمعْهَد، ونَشَرَتْهَا صَحِيفَةُ الْأَهْرَام المِصْرِيَّة؛ أَنَّ مَكَّةَ المكرَّمَةَ، وكَعْبَتَهَا المشَرَّفَةَ: هُمَا مَرْكَزٌ لِدَائِرَةٍ نِصْفَ قُطْرِهَا (٨٠٠٠ ك م) تَمُرُّ بأَطْرَافِ الْقَارَّاتِ القديمَة: «آسْيَا، وأَفْرِيقيا، وأَوْرُبَّا». كَمَا أَنَّهَا أَيْضاً مَرْكَزٌ لِدَائِرَةٍ نِصْفُ قُطْرِهَا (١٣٠٠٠ك م) تَمُرُّ بأَطْرَافِ الْقَارَّاتِ الْجَدِيدَة: «أَمْرِيكَا الشَّمَالِيّة، وأَمْرِيكَا الْجَنُوبِيَّة، وأَسْترالْيا، والمتَجَمِّدَةِ الجنوبيّة».

وأشَارَتِ الدِّرَاسَةُ إِلَىٰ أَنَّهُ مِنَ المحْتَمل أَنْ تَكُونَ مَكَّةُ المكرَّمَةُ مَرْكَزَ الْيَابِسَةِ قَبْلَ تَزَحْزُحِ الْقَارَّاتِ وانْفِصَالِ بَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ فِي الْعُصُورِ الْجُيُولُوجِيَّةِ السَّحِيقَةِ.

(٣) وأبان اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في القرآن المجيد أَنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ للنَّاسِ فِي الْأَرْضِ لِعِبَادَتِهِ بَيْتُ اللهِ المحرَّم فِي مَكَّة المكَرَّمَة، وهُو الكَعْبَة المشرّفة، قال الله عَزَّ وَجَلَّ في سُورَةِ (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

ورَوى البخاري ومُسْلِمٌ عَنْ عَبد اللهِ بن عَبَّاسٍ رَضي الله عنهما قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

«إِنَّ هـٰذَا الْبَيْتَ حَرَّمَهُ اللهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضَ، فَهِيَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللهِ إِلَىٰ يَوْم الْقِيَامَةِ».

ورُوِي أَنَّ أَوَّلَ بِناءٍ لَهُ كَانَ مِنْ قِبَلِ مَلَائِكَةٍ أُمِرُوا بِبنَائِهِ.

ورُوِي أَنَّ أَوَّلَ مَنْ أَسَّسَهُ ورَفَعَ قواعِدَهُ وَصَلَّىٰ فِيهِ، وطاف حَوْلَهُ: آدَمُ عَلَيْهِ السَّلام، حَتَّىٰ بَعَثَ اللهُ الطُّوفَانَ، فَصَارَ مَكَانُ الْبَيْتِ دَارِساً لَا تَظْهَرُ فِيهِ أَيُّ آثارٍ تَدُلُّ عَلَيْهِ، وَهـٰذِهِ الروايَةُ أرجَحُ فيما أرىٰ.

ثُمَّ أَعْلَمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام بمكانِهِ عَنْ طَرِيق الْوَحْي، وأَمَرَهُ بِرَفْعِ قَواعِدِهِ مَعَ وَلَدِهِ إِسْماعِيلَ عَلَيْهِ السلام، وهـٰذَا مَا ثَبَتَ في القرآنِ الْمَجِيدِ والسُّنَّةِ المطَهَّرَة.

تدبُّر النصوص القرآنية:

أولاً: قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾:

• ﴿بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾: أي: أَنْزَلْنَاهُ فِيهِ، بَعْدَ أَنْ هَيَّأْنَاهُ لَهُ، وأَعْلَمْنَاهُ بِهِ وَبِحُدُودِهِ مِنْ كُلِّ جِهَاتِهِ، وهو مَكَانُ الكَعْبَةِ المُشَرَّفَةِ بَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ.

• ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾: أي: وقِفْ رَافِعاً صَوْتَكَ مُنَادِياً، فِي النَّاسِ الْمَوْجُودِينَ فِي زَمَنِ نِدَائِكَ، والَّذِينَ سَيَتَتَابَعُونَ أَجْيَالاً، جِيلاً بَعْدَ جِيلٍ إِلَىٰ أَنْ تَقُومَ السَّاعَة، فإِنَّ رَبَّكَ سَيُوصِلُ أَثَرَ نِدَائِكَ فِي أذَانِكَ إِلَىٰ قُلُوبِ المؤْمِنِينَ، فَيُحَرِّكُهَا إِلَىٰ تَلْبِيَةِ النِّدَاءِ، فَيَحُجُّونَ إِلَىٰ هـٰذَا الْبَيْتِ، فَيَطُوفُونَ حَوْلَهُ، وَيُصَلُّونَ عِنْدَهُ، وَيُؤَدُّونَ مَنَاسِكَهُمُ الَّتِي شَرَعَهَا رَبُّكَ لِعِبَادَتِهِ فِي مَكَّةَ وَمَا حَوْلَهَا.

• ﴿رِجَالًا﴾: أي: مُشَاةً عَلَىٰ أَرْجُلِهِمْ.

• ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾: أي: وَعَلَىٰ كُلِّ مَرْكُوبٍ ضَامِرٍ قَلِيلِ اللَّحْم مِنْ طُولِ السَّفَرِ، يُقَالُ: «جَمَلٌ ضامِرٌ، وناقَةٌ ضَامِرٌ وضَامِرَة».

• ﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾: **الْفَجُّ**: الطَّرِيقُ الواسِعُ. **عَمِيق**: أي: بَعِيدُ الْمَسَافَةِ، طَوِيل.

المعنى: وَضَعْ في ذَاكِرَتِكَ أَيُّهَا المتلقِّي لبيانِ رَبِّكَ في القرآن؛ حين هَيَّأْنَا لإبْرَاهيم ـ عَلَيْهِ السَّلام ـ مَكَانَ الْبَيْتِ المحرَّم، وأعْلَمْنَاهُ بِهِ، وأنْزَلْنَاهُ فِيهِ، لِيُؤَسِّسَ في مَكَّةَ أُمَّةً مُؤْمِنَةً تَعْبُدُ رَبَّهَا وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شيئاً، جَدُّهَا وَلَدُهُ إِسْمَاعِيلُ ـ عَلَيْهِ السَّلام ـ الَّذِي تَرَكَهُ عِنْدَ مَكَانِ البيْتِ المحرّم، هُوَ وأُمُّهُ «هَاجر» بوحْيٍ من الله.

وأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ حِينَ أَمْرَنَاهُ بِرَفْعِ قواعِدِ الْبَيْتِ مَعَ وَلَدِهِ إِسْمَاعِيل ـ عَلَيْهِما السَّلام ـ، أَنْ لا تُشْرِكَ بِي شَيْئاً، فَلَا تَتَّخِذ عِنْدَ الْبَيْتِ أثراً يُمْكِنُ أَنْ يُتَذَرَّعَ بِهِ لِعِبَادَةِ مَعْبُودٍ مِنْ دُوني، كَصُورَةِ إِنْسَانٍ أو مَلَكٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ.

وأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ: أَنْ طَهِّرْ بَيْتِيَ مِنْ كُلِّ رِجْسٍ مَادِّيٍّ أَوْ مَعْنَوِيٍّ، لِلطَّائِفِينَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَنِي بالطَّوَافِ حَوْلَ بَيْتِي، والَّذِينَ يَعْبُدُونَني بالصَّلَاةِ فِيهِ أَوْ عِنْدَه، الْقَائِمِينَ والرُّكَّعِ السُّجُودِ.

القَائِمُونَ: هُمُ الَّذِينَ يَقُومُونَ فِي الصَّلاةِ، إذ القيام أَحَدُ أرْكانها.

الرُّكَّعُ: جَمْعُ «رَاكِع»، وهم الَّذِينَ يَرْكَعُونَ في الصَّلَاة، إِذِ الرُّكُوعُ أَحَدُ أَرْكَانِها.

السُّجُود: جمْعُ «ساجد»، وهم الَّذِينَ يَسْجُدُونَ في الصلاة، إذ السُّجُودُ أَحَدُ أَرْكَانها، ويَكُونُ السُّجُودُ بِوَضْعِ الْجَبْهَةِ على الْأَرْضِ، وأصل السُّجُودِ في اللُّغَة: الْخُضُوعُ والتَطَامُنُ، وغَايَتُهُ وَضْعُ الْجَبْهَةِ عَلَىٰ الْأَرْضِ.

وَأَمَرَهُ اللهُ بِأَنْ يُؤَذِّنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ، وهٰذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ وَقَفَ على مُرْتَفعٍ مِنَ الْأَرْضِ وَنَادَىٰ بأَعْلَىٰ صَوْتِهِ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ الله كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ إِلَىٰ بَيْتِهِ فَحُجُّوا، فَأَوْصَلَ اللهُ أَثَرَ نِدائِهِ إِلَىٰ قَلْبِ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ، فَيُحَرِّكُهَا إِلَىٰ تَلْبِيَةِ نِدَاءِ اللهِ الَّذِي نَادَاهُ إِبْرَاهِيمُ بأمْرِ اللهِ، فيقول: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، فيأْتُونَ مُشَاةً رَاجِلِينَ أَوْ رُكْبَاناً، لِيُؤَدُّوا مَنَاسِكَهُمْ عِنْدَ بَيْتِ اللهِ الحرام.

ثانياً: وقال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول):

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٦) رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ (٣٨) ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ (٣٩) رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ (٤٠) رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ (٤١)﴾:

تَمْهيد:

ظَهَرَ لِي أَنّ هَـٰذِهِ الآيَاتِ اشْتَمَلَتْ عَلَىٰ عَرْضِ أَدْعِيَةٍ دَعَا بِهَا إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلامُ رَبَّهُ في مُنَاسَبَاتٍ وأَزْمِنَةٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَقَدْ تَكُونُ مُتَبَاعِدَةً أيضاً، تَذْكِيراً لِلْمُعَالَجِينَ فِي سِبَاقِ السُّورَةِ وَسِيَاقِهَا مِنْ أَهْلِ مَكَّة، بِمَا كَانَ عَلَيْهِ أَبُوهُمْ إِبْرَاهِيمُ وابْنُهُ إسْمَاعِيلُ عَلَيْهِمَا السَّلامُ، مِنْ نَبْذٍ للأَصْنَامِ وَمُقَاوَمَةٍ لها.

وَبَعْضُ هَـٰذِهِ الْأَدْعِيَةِ الَّتِي دَعَا بِهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلامُ؛ قَدْ جَاءَ مُتَأَخِّراً في تَرْتِيب هَـٰذِهِ الآيَاتِ، مَعَ أَنَّهَا مُتَقَدِّمَةٌ زَمَناً عَلَىٰ أدْعِيَةٍ جَاءَتْ بِحِكْمَةِ اللهِ مُتَقَدِّمَةً، إذْ رُوعِيَ فِي التَّرْتِيبِ تَقْدِيمُ مَا هُوَ الأَوْلَىٰ بالتَّقْدِيم، بالنِّسْبَةِ إلى المضْمُونِ الْفِكْرِيِّ الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْه الآيَات، فَمَا يَتَعَلَّقُ بِقَضَايا الدِّينِ الكُبْرَىٰ قُدِّمَتِ الآيَاتُ الدالَّاتُ عَلَيْهَا، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِشَخْصِ إبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلام وخُصُوصِ ذُرِّيَّتِهِ وَوَالِدَيْهِ والمؤمنين أُخِّرَتِ الآيَاتُ الدَّالَّاتُ عَلَيْهَا.

التدبّر التحليلي:

قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ (٣٥)﴾:

أي: وَضَعْ في ذَاكِرَتِكِ أَيُّهَا الْمُتَلَقِّي لِكَلَامِ رَبِّكَ أَدْعِيَة إِبْرَاهِيمَ حِينَ قَال فيها، مُشِيراً إِلَىٰ مَكَّةَ إِذْ كَانَ فِيها عِنْدَ ابْنِهِ إِسْمَاعِيلَ:

(١) ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾: فَدَعَا لِمَكَّةَ بِالْأَمْنِ، وَقَد اسْتَجَابَ اللهُ دُعَاءَ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَام، فَجَعَلَ مَكَّةَ بَلَداً آمِناً بِحُكْمِ الشَّرْعِ، وَآمِناً مِنَ الكوارِث الكُبْرَىٰ، كالزَّلَازِلِ، والْبَرَاكِينِ، ونحوهما، وحِينَ أَرَادَ أَبَرَهَةُ بِمَكَّةَ شَرّاً أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ وبِجَيْشِهِ بَلَاءً عظيماً، وإِهْلَاكاً شنيعاً، إِذْ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أبابِيلَ، تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سَجِّيلٍ، فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُول.

(٢) ﴿... وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾: أي: وَنَحِّنِي وأَبْعِدْنِيْ، وَنَحِّ بَنِيَّ وَأَبْعِدْهُمْ عَنْ أَنْ نعْبُدَ الأَصْنَام.

وَقَدْ اسْتَجَابَ اللهُ دُعَاءَهُ فِي إِسْمَاعِيلَ وإِسْحَاقَ عَلَيْهِما السَّلَام، فكانَا نَبِيَّيْنِ وَرَسُولَيْن، وَلَمْ يُعْلَمْ أَنَّ أحداً مِنْ أَبْنَائِهِ مِنْ «قَطُورَة» في مَدْين قَدْ كَانَ مُشْرِكاً.

أَمَّا مَنِ انْحدَرَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ بَعْدَ أَبْنَائِهِ فَقَدْ ظَهَرَ فيهم الشِّرْكُ، فَظَهَرَ أَنَّ المرادَ بِأَبْنَائِهِ أَبْنَاؤُهُ الْمُبَاشِرُونَ، لَا كُلُّ ذُرِّيَّاتِهِ الذُّكور.

(٣) ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾:

أي: رَبِّ إِنَّ الأصْنَامَ والْفِتْنَةَ بِمَا تَرْمُزُ إِلَيْهِ؛ضَلَلْنَ كَثيراً مِنَ النَّاس، فَافْتُتِنُوا بِعِبَادَتِها، تَوَهُّماً مِنْهُمْ أَنَّ عِبادَتَها تَنْفَعُهُمْ فِي مَطَالِبِ دُنْيَاهُمْ، أَوْ تَدْفَعُ عَنْهُمْ ضُرّاً.

رَبِّ فَمَنْ تَبِعَنِي عَلَىٰ التوحِيدِ، والْإِيمانِ الصَّحِيحِ، واتَّبَعَنِي في الْأَعْمَال الصالِحَة الَّتِي تُرْضِيكَ مِنْ عِبادِكَ؛ فإِنَّهُ مِنْ جَمَاعَتِي ومِنْ أُمَّتِي المسْتَجِيبِينَ لِدَعْوَتِي. وَمَنْ عَصَانِي فَكَفَرَ، أَوْ عَصَانِي بما هُوَ دُونَ الكُفْرِ؛

فإنَّكَ غفورٌ رَحِيمٌ لِمَنْ تعْلَمُ أَنَّ حِكْمَتَكَ تَقْتَضِي أَنْ تَغْفِرَ لَهُ، وَإِنَّكَ تُعاقِبُ بِعَدْلِكَ مَنْ كَفَرَ بالشِّرْكِ أَوْ بِغَيْرِهِ، إِذْ تَقْتَضِي حِكْمَتُكَ بِأَنْ تُنْزِلَ بِهِ عِقَابَكَ.

طَوَىٰ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَام في اللَّفْظِ مَا يُشيرُ إلى العقاب، لِعِلْمِهِ بأنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، ويَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ.

(٤) ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾:

دَلَّتْ عبارة ﴿رَبَّنَا﴾ عَلَىٰ أَنَّ هـٰذَا الدُّعَاء كَانَ مَعَ إبراهيم فِيهِ وَلَدُهُ إِسْمَاعِيلُ عليهما السَّلام، ورُبَّما بَعْضُ أَوْلَادِ وَلَدِه.

• إِنِّي أَسْكَنْتُ بَعْضَ ذُرِّيَّتِي مِنْ إِسْمَاعِيلَ، بوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ، هُوَ وَادِي مَكَّةَ، إِذْ كَانَ خَالِياً مِنْ زَرْعٍ وأشجار كثيرة، عِنْدَ بَيْتِكَ المحرَّمِ ذِي الْحُرْمَةِ والمكانَةِ الرَّفِيعَة، والممنوع مِمَّنْ يُرِيدُ بِهِ شرًّا.

رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ هُنَا بَعْضَ ذُرِّيَّتِي لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ، وَلِيَكُونوا الْقُدْوَةَ لِلنَّاسِ في إِقَامَةِ الصَّلاةِ، وَعِبَادَتِكَ عَلَىٰ مَا يُرْضِيكَ.

فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَمِيلُ إِلَىٰ حُضُورِ بَلَدِهِمْ بِقُوَّةٍ كَمَا يَهْوِي شَيْءٌ مَا مِنْ عُلْوٍ إلى سُفْلٍ، وَقَدْ حَقَّقَ اللهُ هذا الدُّعاء.

وارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ، بِأَنْ تُجْلَبَ إِلَىٰ بَلَدِهِمْ مِنْ أنواعِ الثمرات، الَّتِي تُنْتَجُ في الْبِلَادِ ذَاتِ الزُّرُوعِ والثمرَاتِ الْوَفِيرات، وقد اسْتَجَابَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هـٰذَا الدُّعاء.

﴿لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾: أي: راجياً أَوْ رَاغِباً أَنْ يَشْكُروا نِعَمَكَ الكَثِيرَة عليهم، بالإيمان، والإسلام، والأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الَّتِي تُرْضِيكَ عَنْهم.

(٥) ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾﴾:

يُثْنِي إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ على رَبِّهِ عَزَّ وَجلَّ بِهَـٰذِهِ الْآيَةِ، لِيَسْتَدِرَّ عَفْوَهُ وَغُفرَانَهُ، لِنَفْسِهِ وَلِمُشَارِكِيهِ في الدُّعَاءِ، أي: فَاغْفِرْ لَنَا خَطَايَانَا الَّتِي نُخْفِيهَا وَخَطَايَانَا الَّتِي نُعْلِنُهَا، فَعِلْمُكَ رَبَّنَا مُحِيطٌ بِكُلِّ شيءٍ فِي الْأَرْضِ وَفِي السَّمَاءِ.

(٦) ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾:

حَمِدَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بهـٰذَا الدَّعَاءِ اللهَ عَزَّ وَجلَّ، الَّذِي وَهَبَ لَهُ مَعَ الْكِبَرِ وَلَدَهُ إِسْمَاعِيلَ، وَوَلَدَهُ إِسْحَاقَ عَلَيْهِما السَّلَام، استجابَةً لِدُعَاءِ دَعَاهُ إِيَّاه، وَأَثْنَىٰ علـى اللهِ بـقـولـه: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾: أي: فَـإِذَا شَـاءَ رَبِّي بِحِكْمَتِهِ أَنْ يُجِيب دَعْوَةَ مَنْ دَعَاهُ أجَابَهُ، وَقَدْ أَجَابَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ دُعَائي.

وذَكَرَ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إسْمَاعِيلَ أَوَّلاً، لِأَنَّهُ أَسْبَقُ مِيلَاداً مِن إِسْحَاقَ عَلَيْهِما السَّلَام، وجاء عند الإِسْرَائِيلِيينَ أَنَّ «إِسْحَاقَ» وُلِدَ لإبراهيم عَلَيْهِما السَّلَام من زَوْجَتِهِ «سَارَةِ» وَكَانَ عُمْرُ «إبراهيم» ـ عَلَيْهِ السَّلَام ـ (١٠٠ سنة) وَكَانَ عُمْرُ «سَارَة» (٩٠ سنة). أَمَّا «إِسْمَاعِيل» فَقَدْ وُلِدَ لإبراهيم عَلَيْهِما السَّلَام بَعْدَ أَنْ صَارَ عُمْرُهُ (٨٦ سنة)، فإِسْمَاعِيلُ أَكْبَرُ مِنْ إِسْحَاقَ عَلَيْهِما السَّلَام بنحو (١٥ سنة).

(٧) ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ﴾:

دَعَا إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَبَّهُ لِنَفْسِهِ بِأَنْ يَجْعَلَهُ مُقِيمَ الصَّلَاةِ المطلوبَةِ مِنْهُ إِلْزاماً أَوْ تَرْغِيباً، وَدَعَا مِثْلَ ذَلِكَ لِبَعْضِ ذُرِّيَّتِهِ، أي: للمؤْمِنِينَ المسلمين المتقين منهم.

إقامَة الصَّلاة: المداومَةُ والمواظبَةُ عَلَيْهَا في أَوْقَاتِهَا مع الوفَاءِ بِحُقُوقِهَا.

(٨) ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾﴾: أي: رَبَّنَا واجْعَلْ دُعَائِي مَقْبُولاً عِنْدَكَ، تَسْتَجِيبُ مِنْهُ مَا تَشَاءُ بِحِكْمَتِكَ السَّنِيَّةِ.

(٩) ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾:

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾: أي: يَوْمَ تُحاسِبُ عِبادَكَ يَوْمَ القيامة.

وقَدْ دَعَا لِأَبِيه بالمغْفِرَةِ قَبْلَ أَنْ يَتَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للهِ بِمَوْتِهِ كَافراً، فَلَمَّا تبيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للهِ تَبرّأَ مِنْهُ، كما سَيأْتِي تفصيلهُ إِنْ شَاءَ الله تَعالى.

ثالثاً: وَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا

وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾:

قول اللهِ تَعالَىٰ:

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ . . . ﴿١٢٥﴾﴾: وقرأ نافع، وابْنُ عامِرٍ: **[وَاتَّخَذُوا]**.

المَثَابَةُ: الْمَوْضِعُ الَّذِي يُثَابُ إِلَيْهِ، أي: يُرْجَعُ إِلَيْهِ مَرَّةً فَمَرَّة.

وأَمْناً: أيْ: وَمَكَانَ أَمْنٍ لِمَنْ زارَهُ أو لجأ إِلَيْهِ، والْمُرَادُ الكَعْبَةُ وَكُلُّ الْحَرَمِ المكيِّ مِنْ حَوْلِهَا.

أي: وَضَعُوا فِي ذَاكِرَاتِكُمْ أَيُّهَا الْمُتَلَقُّونَ لِبَيَانِ رَبِّكُمْ؛ حِينَ جَعَلْنَا بِسُلْطَانِ رُبُوبِيَّتِنَا الْبَيْتَ الْحَرَامَ (= الكَعْبَةَ المشرَّفَة) مَوْضِعاً يَرْجِعُ النَّاسُ الْمُؤْمِنُونَ إِلَيْهِ، لِعِبادَتِنَا عِنْدَهُ بالطَّوَافِ والصَّلَاةِ والاعْتِكَافِ وَسَائِرِ صُوَرِ الذِّكْرِ لِصِفَاتِنَا وَأَسْمَائِنَا وَأَفْعَالِنَا الْحَكِيمَة، وآيَاتِنَا المنزَّلاتِ، وَآيَاتِنَا فِي كَوْنِنَا الَّذِي أَتْقَنَّا فِيهِ كُلَّ شَيْءٍ صُنْعاً.

وضَعُوا فِي ذَاكِرَاتِكُمْ؛ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ وَكُلَّ حَرَمِ مَكَّةَ مِنْ حَوْلِهِ مَكَانَ أَمْنٍ لِكُلِّ زَائِرِيهِ وَقَاصِدِيهِ والمقِيمِينَ فِيهِ.

واتَّخِذُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ الْمُسْلِمُونَ المقِيمُونَ فِي مَكَّةَ والزَّائِرُونَ، مِنْ قُرْبٍ وَوَرَاءِ مَقَامِ إِبْراهِيمَ ـ عَلَيْهِ السَّلَام ـ الَّذِي كَانَ يَقِفُ عَلَيْهِ حِينَ ارْتَفَعَ بِنَاءُ الكَعْبَةِ عَنْ طُولِ قَامَتِهِ، وهُوَ حَجَرٌ مُنَاسِبٌ جَلَبَهُ إِسْمَاعِيلُ لِأَبِيهِ ـ عَلَيْهِما السَّلام ـ لِيَقِفَ عليه؛ اتّخذوه مُصَلّىٰ، ولَمَّا كَانَ هـٰذَا الْحَجَرُ لَا يَصْلُحُ لِأَنْ يَكُونَ حَجْمُهُ مُصَلَّىٰ؛ كَانَ عَلَيْنَا أَنْ نَفْهَمَ بِأَذْهَانِنَا مِنَ اتِّخَاذِهِ مُصَلَّىٰ أَنْ نُصَلِّيَ وَرَاءَهُ أَوْ فِي مَكَانٍ نُشَاهِدُهُ فِيهِ، لِنَتَذَكَّرَ بَعْدَ الطَّوافِ شَيْخَ الْمُرْسَلِينَ، وَإِمَامَ الصَّالِحِينَ مِنْ بَعْدِهِ، وعَمَلَهُ الْمَجِيدَ الَّذِي بَنَىٰ بِهِ

بَيْتَ اللهِ الْحَرَامَ، ونُسَلِّمَ عَلَيْهِ، وَنَقْتَدِيَ به في صَالحاتِ أَعْمَالِهِ، فَمِلَّةُ الإِسْلَامِ هِيَ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام، إِذْ كَانَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ المشْرِكِين. وفي القراءة الأُخْرَىٰ: [**واتَّخَذُوا**]: أي: ونَفَّذَ بَعْضُ المؤمنين المسْلِمِينَ هٰذَا الأمْرَ، فاتَّخَذُوا مِنْ مَقَامِ إبراهيم مُصَلَّىٰ.

قول اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿... وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾:

﴿وَعَهِدْنَآ﴾: يُطْلَقُ الْعَهْدُ عَلَىٰ كُلِّ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَوْ نَهَىٰ عَنْه، ويُطْلَقُ على الوصِيَّة، وعلى غَيْرِ ذَلِكَ، والمعْنَىٰ هُنَا: ووصَّيْنَا وأَمَرْنَا إِبْرَاهِيمَ وإِسْمَاعِيلَ - عَلَيْهِما السَّلَام - بِأَمْرٍ، تفْسِيرُهُ: طَهِّرا بَيْتِيَ الْمُحَرَّمَ في مكَّة مِنَ الْأَرْجَاسِ الْمَعْنَوِيَّةِ كالشِّرْكِ وَظَوَاهِرِهِ ولوازِمِهِ وكُلِّ مَا يُوصِلُ إِلَيْهِ أَوْ يَكُونُ دَلِيلاً عَلَيْه، وَمِنَ الْأَرْجَاسِ المادِّيَّةِ، وهِيَ النَّجَاسَاتُ والْأَقْذَارُ وَكُلُّ مَا تَشْمَئِزُّ مِنْهُ النُّفُوسُ مِنَ الْأَوْسَاخِ، لِئَلَّا يَتَأَثَّرَ بالشِّرْكِيَّاتِ وَبالْقَذَاراتِ والنجاسَاتِ الطَّائِفُونَ حَوْلَ الْبَيْتِ عِبَادَةً لِرَبِّهِمْ بالطَّوَافِ، والْعَاكِفُونَ الْمُلَازِمُونَ الْإِقَامَةَ حَوْلَ الْبَيْتِ، يَتَأَمَّلُونَ آلاءَ رَبِّهِمْ وَيَذْكُرُونَهُ وَيَتْلُونَ آياتِهِ. والرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ.

الرُّكَّع: جَمْعُ «الرَّاكِع»، وَهُوَ الَّذِي يُحْنِي ظَهْرَهُ عِبَادَةً لِرَبِّهِ تعالى.

السُّجُود: جَمْعُ «السَّاجد»، وهو الَّذِي يضَعُ رُكْبَتَيْهِ ويَدَيْهِ وَجَبْهَتَهُ عَلَىٰ الْأَرْضِ عِبَادَةً لِرَبِّهِ تَعالى.

وهٰذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ عِبَادَاتِ الطَّوَافِ والاعْتِكَافِ والصَّلَاةِ الْمُشْتَمِلَةِ عَلَىٰ الْقِيَامِ والرُّكُوعِ والسُّجُودِ؛ مِنَ الْعِبَادَاتِ الْمَعْرُوفَةِ في الرِّسَالَاتِ الربانِيَّةِ السَّابِقَةِ لِرِسَالَةِ الإسلام.

قول اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾:

سَبَقَ في النّصّ الَّذي من سورة (إبراهيم/ ٧٢ نزول) أنَّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام دَعَا رَبَّهُ لِأَهْلِ مَكَّةَ الْبَلَدِ الحرَامِ بِأَنْ يَرْزُقَهُمْ مِن الثمرات، دُونَ أنْ يَجْعَلَ هٰذَا الرِّزْقَ خَاصًّا بِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ باللهِ والْيَوْمِ الْآخِرِ.

أمّا في هٰذَا الدُّعَاء فَقَدْ جَاءَ فِيهِ: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ﴾.

فَدَلَّ عَلَىٰ أنَّ هٰذَا الدُّعَاءَ قَدْ جَاءَ مُتَأَخِّراً زَمَناً عَنِ الدُّعَاء السَّابِق، إذْ رَأَىٰ أَنْ لَا يَدْعُوَ لِلْكَافِرِينَ بالرِّزْقِ من الثمرات.

فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام عن طَرِيق الوحْي: وأَرْزُقُ مِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ، لِأَنَّهُ فِي حَيَاةِ الابْتِلَاء، وأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً مُدَّةَ حَيَاتِهِ المقَدَّرَةِ الْمَقْضِيَّةِ لَه، ثُمَّ أَجْعَلُهُ بالْقَهْرِ والْجَبْرِ يَوْمَ الدِّينِ مَسُوقاً إلى عَذَابِ النَّارِ، وَبِئْسَ هٰذَا الْمَصِيرُ الَّذِي سَوْفَ يَصِيرُ إِلَيْهِ.

أَمَّا الدُّعَاءُ لِمَكَّةَ الْبَلَدِ الْحَرَامِ بالْأَمْنِ فَقَدْ كَرَّرَهُ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَكْرِيراً تَطَابُقِيًّا.

﴿أَضْطَرُّهُۥٓ﴾: أي: أُلْجِئُهُ بِالْجبْرِ والْقَهْر.

قول اللهِ تَعالَىٰ:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾:

﴿ٱلْقَوَاعِدَ﴾: جمع «القاعِدَة»، وهِي من البناء أَسَاسُهُ. ورَفْعُ القواعِدِ

تَطْوِيلُهَا بالْبِنَاءِ عَلَيْهَا حَتَّىٰ يَكُونَ مَا فَوْقَهَا جِدَاراً أَوْ جُدُراً مُتَطَاوِلَةً إِلَىٰ الْأَعْلَىٰ.

أي: وَضَعُوا فِي ذَاكِرَاتِكُمْ أَيُّهَا المتَلَقُّونَ لآيَاتِ رَبِّكُمُ الْبَيَانِيَّة؛ وَقْتاً كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَرْفَعُ فِيهِ هُوَ وَوَلَدُهُ إِسْمَاعِيلُ ـ عَلَيْهِما السَّلَام ـ بِأَمْرِ اللهِ؛ بِنَاءَ الكَعْبَةِ المشَرَّفَةِ عَلَىٰ الْأُسُسِ الْقَدِيمَةِ، الَّتِي كَانَ الْبِنَاءُ الْقَدِيمُ مَبْنِيًّا عَلَيْهَا قَبْلَ انْدِثَارِهِ بِالطُّوفَانِ أَوْ بِغَيْرِهِ مِنَ الْعَوَارِضِ الَّتِي تَنْهَدِمُ بها الْمَبَانِي، وَتَخْتَفِي بِهَا آثَارُهَا.

وَمَعَ قِيامِهِمَا بِبنَاءِ الكَعْبَةِ بانِياً لِجُدْرانِهَا، وَجَالِباً للحجارَةِ وَمُعَاوِناً فِي أَعْمَالِ الْبِنَاءِ، كَانَا يَدْعُوانِ اللهَ رَبَّهُمَا قَائِلَيْن: رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا مَا نَقُومُ بِهِ مِنْ طَاعَتِك فِي بِنَاءِ بَيْتِكِ الْمُحَرَّم، وَفِي غَيْرِهِ مِن الطَّاعَات، وَتَقَبَّلْ مِنَّا مَا نَدْعُوكَ مِنْ دَعَوَاتٍ، وَمَا نَذْكُرُكَ بِهِ مِن أَذْكَارٍ وَتَأَمُّلاتٍ بالْقُلُوبِ والْأَفْكَارِ، إِنَّكَ أَنْتَ وَحْدَكَ السَّمِيعُ دَواماً لِكُلِّ مَا يُسْمَعُ، وَإِنَّكَ أَنتَ وَحْدَكَ الْعَلِيمُ دَوَاماً لِكُلِّ مَا يُعْلَمُ، ومِنْ ذَلِكَ كُلُّ أَقْوَالِنَا مَهْمَا كَانَتْ خَفِيَّة، وكُلُّ أَعْمَالِنَا الظَّاهِرَةِ والْبَاطِنَةِ مَهْمَا كَانَتْ خَفِيَّةً.

رَبَّنَا واجْعَلْنَا بِتَوْفِيقِكَ لَنَا، وَهِدَايَتِكَ لِلْمُؤَثِّرَاتِ عَلَىٰ اخْتِيَارَاتِنَا؛ مُسْلِمَيْنَ مُسْتَسْلِمَيْنِ لَكَ، نُطِيعُكَ بِفِعْلِ مَا تَأْمُرُنَا بِهِ، وَتَرْكِ مَا تَنْهَانَا عَنْهُ، وَنُؤَدِّي مَا تُحِبُّ مِنْهَا بِرَغْبَةٍ وَحُبٍّ لِمَا نُؤَدِّيهِ، فَقَدْ آمَنَّا بِكَ وَبالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا أَعْدَدْتَ لِلْمُطِيعِينَ الْمُسْلِمِينَ فِيهِ مِنْ ثَوَابٍ جَزِيلٍ، وَمَا أَعْدَدْتَ فِيهِ لِلْعُصَاةِ الْمُذْنِبِينَ مِنْ عِقَابٍ بِالْعَدْلِ.

رَبَّنَا وَاجْعَلْ بَعْضَ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ، مِمَّنْ يُؤْمِنُونَ بِمَا أَوْجَبْتَ عَلَىٰ عِبَادِكَ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ، بتَحْبِيبِكَ الإِسْلَامَ إِلَىٰ قُلُوبِهِمْ، وَبِتَزْيِينِهِ فِي نُفُوسِهِمْ.

رَبَّنَا وَأَرِنَا مَنَاسِكِنَا وَهِيَ أَعْمَالُ عِبَادَتِنَا لَكَ عِنْدَ بَيْتِكَ المحَرَّمِ، بِحَجٍّ

أَوْ عُمْرَةٍ أَوْ غَيْرِهِمَا، رُؤْيَةً بَصَرِيَّةً حَتَّىٰ نُشَاهِدَهَا وَنُقَلِّدَهَا، فالإِرَاءَةُ الْبَصَرِيَّةُ أَيْسَرُ طُرُقِ الْمَعْرِفَةِ لِلْأَشْيَاءِ الْعَمَلِيَّة، ولهٰذَا جَاءَ فِي البيان النَّبَوِيّ: «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي - خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ».

الْمَنَاسِكُ: الْعِبَادَاتُ جمع «مَنْسَك»، واشْتَهَرَ إِطْلَاقُ المناسِكِ علىٰ العبادات الخاصَّةِ بالْحَجِّ والْعُمْرَةِ، ومِنْهَا الذَّبَائِحُ الَّتِي يُتَقَرَّبُ بِهَا إلىٰ الله، لِيَأْكُلَ مِنْهَا الفقراءُ والمسَاكِينُ وخَدَمُ الْقَوْمِ، وغَيْرُهُمْ.

رَبَّنَا: وَتُبْ عَلَيْنَا بالْعَفْوِ والْغُفْرَانِ وفُيُوضِ عَطَاءَاتِكَ.

تَابَ: هُوَ في اللُّغَةِ بِمَعْنَىٰ «رَجَعَ»، فَتَوْبَةُ الْعَبْدِ تَكُونُ بِعَزْمِهِ على الرُّجُوعِ إلى طَاعَةِ رَبِّهِ، وَتَوْبَةُ اللهِ عَلَىٰ عبْدِهِ تَكُونُ بِقَبُولِ تَوْبَةِ عَبْدِهِ وَرُجُوعِهِ إلى فُيُوضِ عَطَاءَاتِهِ، وإِعَادَة عَبْدِهِ إلى مَنَازِلِ القرب.

﴿... إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾: أي: إِنَّكَ رَبَّنَا أَنْتَ وَحْدَكَ كَثِيرُ التَّوْبَةِ عَلَىٰ عِبَادِكَ، كَثِير الرَّحْمَةِ بِهِمْ.

قول الله تَعَالَىٰ يُتَابِعُ بَيَانَ دُعَاءِ إِبْرَاهِيمَ وإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وهُمَا يَرْفَعَانِ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ:

﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾:

أدْرَكَا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ أَنَّ المجتمَعَ الْمَكِّيَّ الَّذِي يَأْخُذُ عَنْهُمَا تَعَالِيمَ دِينِ اللهِ الَّذِي اصْطَفَاهُ اللهُ لِعِبَادِهِ، عَقَائِدَهُ وقواعِدَهُ وَمَا يَجِبُ فعله أو يُسْتَحْسَنُ، وَمَا يَجِبُ تَرْكُهُ أَوْ يُسْتَحْسَنُ؛ لَا يَكْفِي لِنَقْله والْمُحَافَظَةِ عَلَيْهِ وتَتَابُعِ تَبْلِيغِهِ لِلأَجْيَالِ، وَتَرْبِيَتِهِمْ عَلَىٰ الْعَمَلِ به.

فَقَالَا في دُعَائِهِما: رَبَّنَا وابْعَثْ فِي الْأُمَّةِ الْكَبِيرَةِ الَّتِي سَوْفَ تَعْظُمُ فِي الْأَرْضِ الْعَرَبِيَّةِ، قَاعِدَتُهَا ذُرِّيَّةُ إِسْمَاعِيل عَلَيْهِ السَّلَام؛ رَسُولاً مِنْهُمْ، وَهٰذَا

الرَّسُولُ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِ كِتَابِكَ الَّذِي سَتُنْزِلُهُ عَلَيْهِ، بِحَسَبِ سُنَّتِكَ فِي جَمِيعِ رُسُلِكَ، وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ الَّذِي سَتُنْزِلُهُ، لِيَحْفَظُوهُ، وَيُحْسِنُوا آدَاءَهُ، وَلِيَفْهَمُوا مِنْهُ مَا يَتَعَلَّقُ بِعَقَائِدِهِمْ وَسُلُوكِهِمْ، وَلِيَكْتُبُوهُ، وَلِيَنْقُلَهُ جِيلٌ إِلَىٰ جِيلٍ من بَعْدِهِ.

ويُعَلِّمُهُمُ الحِكْمَةَ: وهِيَ كُلُّ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ مِنْ قَوْلٍ، وفِعْلٍ، وَخُلِقٍ، وإقْرَارٍ. وأَصْلُ الْحِكْمَةِ وَضْعُ الأشياء في مَوَاضِعِهَا الْمُلَائِمَةِ لها.

وَيُزَكِّيهِمْ بِوَسَائِلِ التَّرْبِيَةِ تَزْكِيَةً تُطَهِّرُهُمْ مِنَ الْأَرْجَاسِ النَّفْسِيَّة والأَرْجَاسِ السُّلُوكِيَّة، وَتَزْكِيَةً تُنَمِّيهِمْ بالْعَمَلِ بِمَرَاضِي اللهِ تعالى، وبالْتِزَامِ فَضَائِلِ الْأَخْلَاقِ والنِّيَّاتِ والْأَعْمَال الصالحة الظاهِرَةَ والْبَاطِنَة.

وفي آخِرِ دُعَائِهِمَا أثْنَيَا عَلَىٰ رَبِّهِما بِقَوْلِهِما:

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾: أي: إِنَّكَ أَنْتَ وَحْدَكَ رَبَّنَا الْقَدِيرُ عَلَىٰ مَا تَشَاءُ، الْغَالِبُ لِكُلِّ قُوَّةٍ مُضَادَّةٍ أَوْ مُعَارِضَةٍ، الْحَكِيمُ فِي اخْتِيَارَاتِكَ فِي كُلِّ مَا تُقَدِّرُهُ وَتَقْضِيهِ، فَنَحْنُ نَدْعُوكَ وَنُفَوِّضُ لَكَ لِتَخْتَارَ بِحِكْمَتِكَ مَا تَشَاءُ.

وَقَدْ حَقَّقَ اللهُ دُعَاءَهُمَا فَبَعَثَ مُحَمّداً ﷺ، مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ ـ عليهما السلام ـ، فِي مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ، وأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ الْمَجِيدَ، وَجَعَلَهُ خاتم الْأَنْبِيَاءِ والْمُرْسَلِين، وَرَسُولاً لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ.

قول الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾:

رَغِبَ عَنِ الشيء: أي: تَرَكَهُ زَاهِداً فِيهِ أَو كَارِهاً لَهُ، أَوْ مُنْكِراً، ضِدُّ: رَغِبَ فِي الشَّيْءِ، أَيْ: أَرَادَهُ مُحِبًّا له، أَوْ مُعْجَباً بِهِ.

سَفِهَ نَفْسَهُ: أي: حَمَلَهَا عَلَىٰ السَّفَهِ (وهُو نُقْصَانُ الْعَقْلِ والطَّيْشُ)، بِاتِّبَاعِ الْأَهْوَاءِ، والتقالِيدِ الْعَمْيَاء، أو عَلَىٰ تَضْمِينِ فِعْلِ «سَفِهَ» مَعْنَىٰ فِعْلِ «خَسِرَ»، والتَّقْدِير: سَفِهَ خَاسِراً نَفْسِهِ.

فالمعْنَىٰ: وَمَنْ يَتْرُكُ كَارِهاً أَوْ مُنْكِراً مِلَّةَ إبراهيم الْقَائِمَةَ عَلَىٰ التَّوْحِيدِ وَنَبْذِ الشِّرْكِ، وفِعْلِ الْخَيْرَاتِ والْتِزَام الْفَضَائِلِ؛ إِلَّا مَنْ حَمَلَ نَفْسَهُ عَلَىٰ «السَّفَاهَةِ باتِّبَاعِهِ أَهْوَاءَ نَفْسِهِ وَتَقَالِيدَهُ الْعَمْيَاء؟!!.

اسْتِفْهَامٌ تَعْجِيبِيٌّ مِنْ هٰذَا الإنْسَانِ الطَّائِشِ نَاقِصِ الْعَقْلِ الَّذِي يَخْتَارُ بِإِرَادَتِهِ الحُرَّةِ أَنْ يَكُونَ سَفِيهاً.

وأَثْنَىٰ اللهُ عَلَى إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بأَنَّهُ - جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ - اصْطَفَاهُ بالنُّبُوَّة والرِّسَالَةِ لِصِفَاتِهِ الكَمَالِيَّةِ الَّتِي تَسْتَحِقُّ هٰذَا الاصْطِفَاء وجَعَلَهُ إمَاماً، وجَعَلَهُ فِي الآخِرَةِ مِنَ الصَّالِحِينَ الْكَامِلِينَ فِي صِفَاتِ الصَّلاح.

قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مُتَابِعاً الحديثَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام:

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾:

الْإِسْلَام: الانْقِيَادُ والْخُضُوعُ والطَّاعَةُ لِلْأَوامِرِ والنواهي.

أي: وَضَعُوا في ذَاكِرَاتِكُمْ أَيُّهَا الْمُبَلَّغُونَ بَيَانَاتِ رَبِّكُمْ فِي آيَاتِ كِتَابه جَوَابَ إِبْرَاهِيمَ حِينَ قَالَ لَهُ رَبُّهُ: «أَسْلِمْ». فَكَانَ جَوَابُهُ السَّرِيعُ دُونَ انْتِظَارٍ وَلَا تَأَخُّرٍ: «أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ» مُنْقَاداً خاضِعاً مُطِيعاً لِأَوَامِره وَنَوَاهِيهِ.

وفي هٰذَا تَوْجِيهٌ لِلَّذِينَ يَتَفَاخَرُونَ بِأَنَّهُمْ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، ولِلَّذِينَ يَعْتَزُّونَ بِأَنَّهُمْ عَلَىٰ مِلَّتِهِ، أَنْ يَتَّبِعُوهُ فَيُسْلِمُوا للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، مُنْقَادِينَ، خَاضِعِينَ، مُطِيعِينَ لِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، الَّتِي يُبَلِّغُهُمْ إِيَّاهَا رَسُولُ اللهِ مُحَمَّدٌ ﷺ خاتم رُسُلِهِ للنَّاسِ أَجْمَعِينَ، الَّذِي هُو مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام، وَالَّذِي

بَعَثَهُ اللهُ بِحِكْمَتِهِ، واسْتَجابَ بِبَعْثَتِهِ الدُّعاءَ الَّذي دَعَا به إِبْراهِيمُ وإِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِما السَّلَام، الَّذي قَالَا فِيهِ: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾.

وسَبَقَ تَدَبُّرُ هَـٰذِهِ الآيَةِ آنِفاً.

قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً الحديث عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام:

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾:

في هاتَيْنِ الآيَتَيْنِ بَيَانُ وَصِيَّةِ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام لِبَنِيهِ بِأَنْ يُسْلِمُوا للهِ رَبِّ الْعَالَمِين، وَوَصِيَّةِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَام لِبَنِيهِ بِأَنْ لا يُشْرِكُوا باللهِ في عباداتِهِمْ إلَـهاً آخر، وبأَنْ يَكُونُوا للهِ وَحْدَهُ مُسْلِمِينَ مُنْقَادِينَ خاضِعِينَ مُطِيعينَ.

أي: وَوَصَّىٰ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَنِيهِ بِأَنْ يُسْلِمُوا للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فالضَّميرُ في ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ يَعُودُ عَلَىٰ الْقَضِيَّةِ في عبارَة: ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، فَهِيَ الْقَضِيَّةُ الْعُظْمَىٰ مِنْ قَضَايا السُّلُوكِ الدِّيني في رحْلَةِ امْتِحَانِ اللهِ النَّاسَ في الحياةِ الدُّنْيا.

فَقَالَ كُلٌّ مِنْ إبراهِيمَ وَيَعْقُوبَ عَلَيْهِما السَّلَام لِبَنِيهِ: ﴿يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾:

أي: يَا أَبْنَائِي إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ اخْتَارَ لَكُمْ ولِجَمِيعِ النَّاسِ بالاصْطِفَاءِ؛ عَقَائِدَ الإيمَانِ وأَرْكَانَ الإسْلام وَسَائِرَ التَّكَالِيفِ مِنَ الأَوَامِرِ والنَّوَاهِي، فَآمِنُوا بِمَا أَوْجَبَ عَلَيْكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا، وأَسْلِمُوا لَهُ مُنْقَادِينَ، خَاضِعِينَ، مُطِيعِينَ لأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، واسْتَمِرُّوا عَلَىٰ إِيمَانِكُمْ وإِسْلَامِكُمْ

طَوَالَ حَيَاتِكُمْ، فَلَا تُبدِّلُوا وَلَا تُغيِّرُوا مَا دَامَتْ لَكُمْ أَنْفَاسٌ تَتَنَفَّسُونَها فِي الْحَيَاةِ الدنْيا، وَبِذَلِكَ لَا تَمُوتُونَ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُؤْمِنُونَ مُسْلِمُون.

جَاءَتِ الْكِنَايَةُ عَنْ هٰذَا بِعِبَارَةِ: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾: أي: فَلَا تَجْعَلُوا الْمَوْتَ يَنْزِلُ بِكُمْ إِلَّا فِي حَالَةِ كَوْنِكُمْ مُسْلِمِينَ، وَقَدْ جَاءَ الاسْتِغْنَاءُ بِعِبارَةِ: ﴿وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ عَنِ التَّصْرِيح بِأَنْ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ مُسْلِمِينَ، لِأَنَّ الإِسْلَامَ الصَّحِيحَ المقْبُولَ عِنْدَ اللهِ، لَا يَكُونُ إِلَّا عَلَىٰ قَاعِدَةِ إِيمَانٍ صَادِقٍ صَحِيح.

واسْتَوْثَقَ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ أَبْنائِهِ عَنْ طَرِيق السُّؤَالِ مِنْهُ والجوابِ مِنْهُمْ، بَعْدَ أَنْ وصَّاهُمْ:

قال يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِبَنِيه: مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي ولِمَنْ تُسْلِمُونَ؟.

قالُوا: نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ رَبَّ الْعَالَمِينَ، وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وإِسْمَاعِيلَ وإِسْحَاقَ إِلَٰهاً واحِداً لَا شَرِيكَ لَهُ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ مُنْقَادُونَ خَاضِعُونَ مُطِيعُون.

وأَدْخَلُوا إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ضِمْنَ آبَائِهِ مَعَ أَنَّهُ عَمُّهُ لِكَثْرَةِ إطلاقِ لفظة «الأَب» عَلَىٰ الْعَمّ احْتِراماً وَتَوْقِيراً، وَلِدُخُولِهِ ضِمْنَ عُمُومِ الآبَاءِ مِنْ بَابِ التَّغْلِيبِ.

وَلِلتَّنْويعِ في الْأُسْلُوبِ الْبَيَانِي جَاءَ التَّعْبِيرُ: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾، بَعْدَ أَنْ كَانَ الْأُسْلُوب: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾، أي: بَلْ مَا كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ـ عَلَيْهِ السَّلام ـ الْمَوْتُ، وَشَعَرَ بِأَنَّهُ فِي السَّاعَاتِ الْأَخِيرَةِ مِنْ عُمْرِهِ، فَاسْتَوْثَقَ مِنْ بَنِيهِ عَمَّنْ يَعْبُدُونَ بَعْدَ وَفَاتِهِ، فَأَبَانُوا لَهُ أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ مُوَحِّدُونَ مُسْلِمُونَ للهِ رَبّ الْعَالَمِينَ.

«أم» بمعنى «بل» مع استفهام، والمراد بالاستفهامِ النفي مع التوبيخ على الافتراء.

وَفِي بَيَانِ هَـٰذِهِ الحادِثَةِ تَوْبِيخٌ ضِمْنِيٌّ لِلْيَهُودِ المفْتَرِينَ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وإِسْمَاعِيل وإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ والْأَسْبَاط عَلَيْهِم السَّلام كَانُوا يَهُوداً. وللنَّصَارَىٰ المفْتَرِينَ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّ هَٰؤُلَاءِ كَانُوا نَصَارَىٰ.

هَـٰذِهِ فِرْيَةٌ يُكَذِّبُهَا التَّارِيخُ، ويُكَذِّبُهَا الْوَاقِعُ، فالْيَهُودِيَّةُ والنَّصْرَانِيَّةُ لَمْ تَكُنْ إِلَّا بَعْدَهُمْ بِقُرُون كَثِيرةٍ، فَكَيْفَ تَهُونُ عَلَيْهِمُ الوقاحَةُ الْمَفْضُوحَةُ فَيَزْعُمُونَ أَنَّ هَـٰؤُلَاء كَانُوا هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ؟!!.

قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يُخَاطِبُ مُعَاصِرِي التَّنْزِيلِ مِنَ الْيَهُودِ والنَّصَارَىٰ، بِشَأْنِ افْتِرَائِهِمْ عَلَىٰ مَنْ سَبَقَ مِن رُسُلِ اللهِ، الَّذِينَ كَانُوا في التَّارِيخِ الْبَشَرِي قَبْلَ الْيَهُودِيَّةِ والنَّصْرَانِيَّة:

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾:

أي: تِلْكَ الْجَمَاعَةُ مِنَ الرُّسُلِ الصَّالِحِينَ أُمَّةٌ قَدْ مَضَتْ وَذَهَبَتْ مَعَ انقضاءِ الْقُرُونِ الَّتِي كَانَتْ فيها، وهَـٰذِهِ الأُمَّةُ الصَّالِحَةُ الْفَاضِلَةُ المصْطَفَاةُ لَا يَنْفَعُكُمُ الانْتِمَاءُ إِلَيْهَا مَا لَمْ تَعْمَلُوا مِثْلَ أَعْمَالِهَا، أَوْ تَقْتَدُوا بها، أَوْ تُسْلِمُوا مِثْلَ إِسْلَامِهَا، وتُؤْمِنُوا مِثْلَ إيمانها.

هَـٰذِهِ الْأُمَّةُ الَّتِي سَلَفَتْ فِي تَارِيخِ النَّاسِ، لَهَا مَا كَسَبَتْ مِنْ خَيْرٍ وعَمَلٍ صَالح وجِهادٍ في سَبِيلِ رَبِّها، وأَنْتُم أَيُّهَا المنْتَمُونَ إِلَيْهِمْ، والمفتَخِرُونَ بِهِمْ، والمفْتَرُونَ عَلَيْهِم؛ لَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ مِنْ أَعْمالٍ صَالِحَةٍ وأَعْمَالٍ سَيِّئَة، وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ يَوْمَ الدِّينِ في مَوْقِفِ الحسَابِ وفَصْلِ الْقَضَاءِ؛ عَنْ أَعْمَالِكُمْ أَنْتُمْ، وتُحَاسَبُونَ عَلَيْهَا، لِأَنَّ المسْؤُولِيَّةَ عِنْدَ رَبِّكُمْ مَسْؤُولِيَّةٌ شَخْصِيَّة، وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ، فَلَا تَنْفَعُكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ صَالِحَاتُ أَعْمَالِهِمْ، فَاطْرَحُوا الْأَوْهَامَ، واعْلَمُوا حُدُودَ مَسْؤُولِيَّاتِكُمْ واعْمَلُوا ضِمْنَ حُدُودِ دَوَائِرِها.

قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابِعُ الْحَدِيث عَنْ افْتِرَاءَاتِ الْيَهُودِ والنَّصَارَىٰ:

﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ

وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾:

أي: وقَصَرَ الْيَهُودُ الْهِدَايَةَ عَلَىٰ اتِّبَاعِ الْيَهُودِيَّةِ الْمُحَرَّفَةِ الَّتِي وَصَلَتْ إِلَيْهِ إِبَّانَ تَنْزِيلِ الْقُرْآنِ، فَقَالُوا لِغَيْرِ الْيَهُودِ مِنْ عَرَبٍ وغَيْرِ عَرَبٍ: كُونُوا هُوداً تَهْتَدُوا.

هُود: جَمْعٌ، مُفْرَدُهُ «هَائِد»، أي: كُونُوا يَهُوداً.

وقَصَرَ النَّصَارَىٰ الْهِدَايَةَ عَلَىٰ اتِّبَاعِ النَّصْرَانِيَّةِ الْمُحَرَّفَةِ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِ إِبَّانَ تَنْزِيلِ الْقُرْآن، فقالوا لِغَيْرِ النَّصَارَىٰ مِنْ عَرَبٍ وغَيْرِ عَرَبٍ: كُونُوا نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا.

فادَّعَىٰ كُلٌّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ أَنَّهُ عَلَىٰ الْحَقّ، وأَنَّ الْهِدَايَةَ مُنْحَصِرَةٌ باتِّبَاعِ الْمِلَّةِ الَّتِي هُو عَلَيْهَا، مَعَ أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا مُحَرَّفٌ دَخَلَ فِيهِ بَاطِلٌ كَثِيرٌ جدّاً، وَلَمْ يَبْقَ كَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ مُوسَىٰ والنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ عَلَيْهِم السَّلام، وَلَا كَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ عِيسَىٰ عَبْدِ اللهِ وَرَسُوله عَلَيْهِ السَّلام في آخِرِ عُهُودِ بَنِي إِسْرَائِيل.

فجاء التكليفُ الرَّبَّانِيُّ للرَّسُول مُحمَّد ﷺ، ولِكُلِّ دَاعٍ إِلَىٰ اللهِ وَدِينِ اللهِ الحقِّ مِنْ أُمَّتِهِ؛ بِقَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿... قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾:

أي: قُلْ يَا مُحمَّدُ وَيَا كُلَّ دَاعٍ مِنْ أُمَّتِهِ إِلَى دِينِ اللهِ الْحَقِّ خَاتِمَةِ رِسَالَات اللهِ للنَّاسِ أَجْمَعِينَ: لَا نَكُونُ يَهُوداً وَلَا نَكُونُ نَصَارَىٰ عَلَىٰ مَا فِي هَاتَيْنِ الملَّتَيْن مِنْ تَحْرِيفٍ وتبدِيلٍ دَخَلَ إِلَيْهِمَا، وَلَمْ يَبْقَيَا عَلَىٰ أُصُولِهِمَا الصَّحِيحَةِ الْمُنَزَّلَةِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، بَلْ نَكُونُ مُتَّبِعِينَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ ـ عَلَيْهِ السَّلَام ـ حَالَةَ كَوْنِهِ حَنِيفاً مَائِلاً عَنْ كُلِّ الْأَدْيَانِ الْعَوْجَاءِ الْمُجَافِيَةِ لِصِرَاطِ الحقِّ والرُّشْدِ والْهُدَىٰ، ومُلْتَزِماً صِرَاطَ اللهِ المسْتَقِيم، وَمَا كَانَ

إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ المشْرِكِينَ ذَوِي أخفِّ دَرَكاتِ الشِّرْكِ في رُبُوبِيَّةِ اللهِ وَلَا فِي إلَهِيَّتِهِ.

إنَّ الْمِلَلَ الْمُحَرَّفَةَ عَنْ أُصولِها الصَّحِيحَةِ قَدْ صَارَتْ بالتَّحْرِيفِ باطِلَةً، وَهِيَ لَا تَخْلُو مِنْ شِرْكٍ في إلَهِيَّةِ اللهِ، بِمَا دَخَلَ فِيها مِنِ افْتِرَاءٍ عَلَىٰ اللهِ في الْأَحْكَامِ، وَأَمَّا الْمِلَلُ الْوَضْعِيَّةُ فَالشِّرْكُ فِيهَا وَاضِحٌ فِي رُبُوبِيَّةِ اللهِ أَوْ فِي إلَهِيَّتِهِ بِعِبَادَةِ غَيْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، أَوْ بِطَاعَةِ غَيْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَجَاءَ التَّكْلِيفُ الرَّبَّانِيُّ لِسَائِرِ المسْلِمِينَ بِقَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾:

إنَّهُ لَا يَتَحَقَّقُ الْإِيمَانُ الْحَقُّ باللهِ عَزَّ وَجَلَّ وبأَسْمَائِهِ الحسْنَىٰ وَصِفَاتِهِ الْعُلْيَا؛ مَا لَمْ يَقْتَرِنْ بِالْإِيمَانِ بِكُلِّ مَا أَنْزَلَ عَلَىٰ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ الصادقين عَلَيْهِم السَّلَام، وَجَاءَ فِي هَـٰذِهِ الْآيَةِ ذِكْرُ بَعْضِ الرُّسُلِ الَّذِينَ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْهِمْ كُتُباً أَوْ صُحُفاً وَتَعَالِيمَ وَبَيَانَاتٍ، وَجَاءَ فِيها ذِكْرُ سَائِرِ النَّبِيِّينَ إجْمَالاً.

وجاء في الآيَة التَّنْويعُ في التَّعْبِير في «وَمَا أُنْزِلَ» و«مَا أُوتي» بِفَنِّيَّةٍ بَلاغِيَّةٍ لإثَارَةِ الانْتِباه، والمؤدَّىٰ واحِدٌ، فَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وعيسَىٰ والنَّبِيُّونَ عَلَيْهِم السَّلَام قَدْ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ لَدُنِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ الحكِيمِ.

وأَرَىٰ أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾: الْأَنبِيَاءُ الَّذِينَ هُمْ مِنْ أَوْلَادِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وأَوْلَادِ أَوْلَادِهِ تَسلْسُلاً مع الْأَجْيَال، فَقَدْ قَطَّعَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً، وَكَانَ فِيهِمْ رُسُلٌ وأَنْبِيَاء، فَقَدْ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِهِمْ في سورة (الْأَعْرَاف/٧ مصحف/٣٩ نزول):

﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ ... ﴿١٦٠﴾﴾.

ولَا أَرَىٰ أَنَّ اسْمَ «الْأَسْبَاطِ» خَاصٌّ بأوْلَادِ يَعْقُوبَ الاثْنَي عَشَرَ، فَقَدْ أَوْقَعَ هَـٰذَا التَّخْصِيصُ فِي وَهْمِ أَنَّ كُلَّ هَـٰؤُلَاءِ الْأَوْلَادِ أَنْبِيَاءٌ، وَلَا دَلِيلَ عَلَىٰ نُبُوَّةِ غَيْرِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْهُمْ، فَهُوَ نَبِيٌّ وَرَسُول.

قولُهُ تَعالَىٰ: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: لَا نُفرِّقُ بَيْنَ أَحدٍ وَغَيْرِهِ مِنْهُمْ، طُوِيَتْ عبارة: «وَغَيْرِهِ» إيجازاً، لِسُهُولَةِ اسْتِخْرَاجِهَا بِقَلِيلٍ مِنَ التَّأَمُّلِ، إِذْ لَفْظُ «أَحَدٍ» مُفْرَدٌ غَيْرُ قَابِلٍ للتَّفْرِيقِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ.

والْمُرَادُ بِنَفْيِ التَّفْرِيقِ: نَفْيُ التَّفْرِيق في الإيمَانِ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْإِيمَانُ بِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مُسَاوِياً لِلْإِيمَانِ بِغَيْرِهِ مِنْهُمْ، إِذْ كُلُّ وَاحِدٍ مُصْطَفَى مِنَ اللهِ.

أَمَّا فِي التَّفْضِيلِ فَقَدْ فَضَّلَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ بَعْضَ الرُّسُلِ وَبَعْضَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَىٰ بَعْض، وَكَذَلِكَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأُمُورِ، وَمِنْهَا الاتِّبَاعُ في الشَّرَائِعِ والْأَحْكَام، إِذْ نَحْنُ مُكَلَّفُونَ أَنْ نَتَّبِعَ آخِرَ تَنْزِيلٍ رَبَّانِيٍّ، وَهُوَ مَا أُنْزِلَ عَلَىٰ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ والمرسَلِينَ ﷺ، إِذَا كَانَ مَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مُخَالِفاً لِمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ رَسُولٍ قَبْلِهِ، فَمَا عَلَيْنَا إِلّا أَنْ نُؤْمِنَ بِذَلِكَ الرَّسُول إيماناً اعْتِقَادِيًّا، وأَنْ نَعْمَلَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ الرَّسُولِ الْخَاتَمِ لِرُسُلِ اللهِ وأَنْبِيائِهِ ﷺ.

وَجَاءَ التَّعْلِيقُ الرَّبَّانِيُّ عَلَىٰ مَا جَاءَ في الآيَتَيْنِ (١٣٥) و(١٣٦) بِقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾:

أي: فَإِنْ آمَنَ الْمَقْصُودُونَ بالْعِلَاجِ في هَـٰذِهِ الْآيَاتِ بِمِثْلِ مَا أَعْلَنْتُمُ الإِيمَانَ بِهِ كَمَا عَلَّمْنَاكُمْ؛ فَقَدِ اهْتَدُوْا، إذ اخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ دُخُولَ أَوَّلِ أَبْوابِ الْهِدَايَةِ، وَهُوَ بَابُ الْإِيمانِ الصَّادِقِ الصَّحيح.

وإِنْ تَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ مُبْتَعِدِينَ غَيْرَ مُسْتَجِيبينَ لِدَعْوَةِ الإيمان، فَمَا هُمْ إِلَّا فِي شِقَاقٍ.

الشِّقَاقُ: الْعَدَاوَةُ والْخِلَافُ، ويَلْزَمُ عَنْهُمَا تَدْبِيرُ الْمَكَايِدِ الْحَرْبِيَّة. يُقَالُ لغة: «شَاقَّهُ، مُشَاقَّةً، وشِقَاقاً»، أي: خالَفَهُ وعَادَاه.

قَال الزَّجَّاج: الشِّقَاقُ: العداوة بَيْنَ فَرِيقَيْنِ، والْخِلَافُ بَيْنَ اثْنَيْنِ، سُمِّيَ ذَلِكَ شِقَاقاً: لِأَنَّ كُلَّ فَرِيقٍ مِنْ فِرْقَتَي الْعَدَاوَة قَصَدَ شِقًّا، أي: نَاحِيَةً غَيْرَ شِقِّ صَاحِبِهِ.

ولَمَّا كَانَ مِنْ لَوَازِمِ الشِّقَاقِ في الْعَلَاقَاتِ الْبَشَرِيَّةِ تَدْبِيرُ المَكَايِدِ؛ وَعَدَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ المؤمِنِينَ بِأَنَّهُ سَيَكْفِيهِمْ مَكَايِدَ أَعْدَائِهِمْ وشُرُورَهُمْ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿... فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾، أي: السَّمِيعُ لِمَا يَتَنَاجَوْنَ بِهِ ضِدَّكُمْ، الْعَلِيمُ بِمَا يُدَبِّرُونَ مِنْ أَعْمَالٍ يَقْصِدُونَ بِهَا الإِضْرَارَ بِكُمْ، وَمُقَاوَمَة دَعْوَتِكُمْ إِلَىٰ دِينِ اللهِ رَبِّكُمْ، وإلى صِرَاطِهِ المسْتَقِيم. والسَّمِيعُ لِدُعَائِكُمْ أَنْ يَكْفِيَكُمْ مَكَايِدَهُمْ وَشُرُورَهُمْ، والْعَلِيمُ بِمَا تَقُومُونَ بِهِ مِنْ أَعْمَالٍ تُرْضِيهِ، ومِنْهَا مُجَاهَدَتُكُمْ فِي الدَّعْوَةِ إلى دينِهِ الحقّ، وإِلَىٰ صِرَاطِهِ المسْتَقِيم.

وجاء في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) نَظِيرُ مَا جَاءَ في الآيَة (١٣٦) مِنْ سورة (البقرة/ ٨٧ نزول) وسَبَقَ تدَبُّرها، أَمَّا التعليق الرَّبَّانِيُّ فِي سُورَة (آل عمران/ ٨٩ نزول) فَهُوَ قول اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾:

ومعلومٌ أنَّ الإسْلَامَ للهِ مِلَّةُ إبْرَاهيم عَلَيْهِ السَّلَام، وهُو الَّذِي أَمَرَ الله بِهِ أَتْبَاعَ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

الفَصلُ العَاشر

أَهلُ الكِتَاب ومَزَاعِمُهُم بِشَأنِ إبراهيم عَلَيهِ السَّلَام

زَعَمَ الْيَهُودُ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَهُودِيّاً، وَزَعَمَ النَّصَارَىٰ أَنَّهُ كَانَ نَصْرَانِيًّا، وَهُمَا زَعْمَانِ بَاطِلَانِ سَاقِطَانِ مُنَاقِضَانِ للواقِعِ التَّارِيخيّ، فالْيَهُودِيَّة مَنْسُوبَةٌ إِلَىٰ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام، وإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام سَابِقٌ لَهُ فِي التَّارِيخِ بأكْثَرَ مِنْ (٤٠٠ سنة)، والنصرانِيَّةُ مَنْسُوبَةٌ إِلَىٰ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام، وإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ سَابِقٌ لَهُ فِي التَّارِيخِ بأَكْثَرَ من (١٨٠٠ سنة)، ومَدُّوا أكْذُوبَتَهُمْ هَـٰذِهِ إِلَىٰ إِسْمَاعِيلَ، وَإِسْحَاقَ، وَيَعْقُوبَ، والأسْباط عَلَيْهِم السَّلَام.

أَفَيُنْسَبُ السَّابِقُ فِي تَارِيخِ الوجودِ إِلَى اللَّاحِقِ؟!!. إِنَّ هَـٰذَا لَأَمْرٌ مِنْ أَعْجَبِ الْعَجَبِ، يَشْتَمِلُ عَلَىٰ بَاطِلٍ مَفْضُوحٍ وَوَقَاحَةٍ لَا تَكُونُ إِلَّا مِنْ أخَسِّ النَّاسِ وأَرَاذِلِهِمْ.

■ وَقَدْ خَاطَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الْيَهُودَ والنّصَارَىٰ فِي هَـٰذَا الشَّأنِ بِقَولِهِ تَعَالَىٰ في سُورَة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾:

فَعَلَّمَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ رَسُولَه ﷺ وَكُلَّ دَاعٍ إلى اللهِ مِنْ أمَّتِهِ إِقْنَاعَهُمْ بأمْرَيْنِ:

الأمْرُ الأوَّل: أَنَّ اللهَ أبَانَ فِيمَا أَنْزَلَ فِي الْقرآنِ عَلَىٰ خاتم رُسُلِهِ ﷺ؛ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ مِنْ شيعَةِ نُوحٍ عَلَيْهِما السَّلَام، وَكَانَ أُمَّةً وَحْدَهُ، وَكَانَ حَنِيفاً مَائِلاً عَنْ كُلِّ الْمِلَلِ الباطِلَةِ، وَمَا كَانَ مِنَ المشْرِكِينَ في يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ حَيَاتِهِ، بَلْ كَانَ مُسْلِماً للهِ فِي كُلِّ أُمُورِهِ، مُنْقَاداً لِرَبِّهِ تَعالى، خاضِعاً لَهُ، مُطِيعاً لَهُ فِي كُلِّ أَوَامِرِهِ وَنَواهِيهِ.

فَهَلْ أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ مَا أَنْزَلَهُ فِي

كِتَابِهِ بِشَأْنِهِ، وَبِشَأْنِ الْيَهُودِ والنَّصَارَىٰ، وَمِلَّتَيْهِمَا، أَم اللهُ الْعَلِيمُ بِكُلِّ مَا كَانَ وَمَا هُوَ كائِنٌ وَمَا سَيَكُونُ، والْمُحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً؟؟.

الْأَمْرُ الثَّانِي: إِنَّكُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ وُجُودُه فِي التَّارِيخِ؛ أَسْبَقَ مِنْ وُجُودِ الْيَهُودِ، وَمِنْ وُجُودِ مِلَّةٍ تُسَمَّىٰ الْيَهُودِيَّة، وأَكْثَرَ سَبْقاً مِنْ وُجُودِ النَّصَارَىٰ، ومِنْ وُجُودِ مِلَّةٍ تُسَمَّىٰ النَّصْرَانِيّة، فَكَتَمْتُمُ الشَّهَادَةَ بِهٰذِهِ الحقيقَةِ الَّتِي لَا تَخْفَىٰ، وادَّعَيْتُمْ نَقِيضَهَا، فَزَعَمْتُمْ أَنَّ إبراهيمَ ـ عَلَيْهِ السَّلَام ـ السَّابِقَ فِي الْوُجُودِ تَابِعٌ مِنْ أَتْبَاعِ الْيَهُودِ، أَوْ تَابِعٌ مِنْ أَتْبَاعِ النَّصَارَىٰ، فَأَنْتُمْ بِهٰذَا قَدِ ارْتَكَبْتُمْ كَبِيرَةً مِنْ كَبَائِرِ الظُّلْم، الَّذِي هُوَ مِنْ أَظْلَمِ الظُّلْم، لِمَا فِيهِ مِنِ افْتِرَاءٍ عَلَىٰ اللهِ سبحانه، وَكَتْمِ شَهَادَةٍ هِيَ عِنْدَكُم مِنَ اللهِ رَبِّكُمْ فِيمَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ كُتُبٍ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾؟، إِنَّهُ قَدْ يُوجدُ مُشَارِكٌ لَهُ فِي دَرَكَةِ الظُّلْم، وَلَكِنْ لَا يُوجَدُ أَظْلَمُ مِنْهُ، فالظُّلْمُ المتعَلِّقُ بِحُقُوقِ ذَاتِ اللهِ أَوْ صِفَاتِهِ أَوْ أَفْعَالِهِ أَوْ أَخْبَارِهِ أَوْ بَيَانَاتِهِ؛ مِنْ دَرَكَةٍ سَحِيقَةٍ سَوَاء.

﴿... وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾: أي: فَتَرَقَّبُوا عِقَابَهُ الشَّدِيدَ عَلَىٰ ظُلْمِكُمُ الَّذِي هُوَ مِنْ أَظْلَمِ الظُّلْم، وَقَدِ ادَّخَرَهُ لَكُمْ فَهُوَ نَازِلٌ بِكُمْ لَا مَحَالَةَ يَوْمَ الدِّين، إِلَّا إِذَا تُبْتُمْ، وآمَنْتُمْ بالْحَقِّ، وَسَأَلْتُمْ رَبَّكُمْ أَنْ يَغْفِرَ لَكُمْ.

■ ولمَّا اسْتَمَرَّ الْيَهُودُ والنَّصَارَىٰ يُرَدِّدُون أُكْذُوبَتَهُمْ بِشَأْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام، فالْيَهُودُ اسْتَمَرُّوا عَلَىٰ تَرْدِيدِ أَنَّهُ كَانَ يَهُودِيًّا، والنصارَىٰ اسْتَمَرُّوا عَلَىٰ تَرْدِيدِ أَنَّهُ كَانَ نَصْرَانِيًّا؛ أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ قَوْلَهُ فِي سُورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) يُعَلِّمُ رَسُولَهُ ﷺ وكُلَّ داعٍ إلى اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ أَنْ يَقُولَ لِأَهْلِ الكِتَاب:

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا

مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: نِداءٌ يُوجَّهُ لِلْيَهُودِ ولِلنَّصارىٰ، فَهُمُ الْمَعْرُوفُونَ فِي النَّاسِ قَبْلَ بِعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ بأَنَّهُمْ أَهْلُ الكِتَاب.

﴿لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ﴾؟:

أي: لِمَ تُجَادِلُونَ فِي إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلام - مُقَدِّمِينَ فِي جِدَالِكُمُ الْحُجَجَ الْبَاطِلَة السَّاقِطَةَ، إِذْ يَزْعُمُ الْيَهُودُ مِنْكُمْ أَنَّهُ كَانَ يَهُودِيًا، وَيَزْعُمُ النَّصارىٰ مِنْكُمْ أَنَّهُ كَانَ نَصْرَانِيًّا، والحالُ أَنَّ التَّوْرَاةَ الَّتِي يَعْتَبِرُهَا الْيَهُودُ مَصْدَرَ الْيَهُودِيَّة، والإِنْجِيلَ الَّذِي هُوَ الْمَصْدَرُ الأَوَّلُ للنَّصرانِيَّة؛ لَمْ يُنْزِلْهُمَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ بِزَمَنٍ طَوِيلٍ؟!، فَمَا قِيمَةُ مُجَادَلَتِكُمْ وَمُحَاجَّتِكُمْ بالْحُجَجِ الْبَاطِلَةِ السَّاقِطَةِ؟!.

كُفُّوا يا أَهْلَ الكِتَابِ عَنْ هٰذَا الْهُرَاءِ، وَدَعُوا هٰذِهِ السَّفَاهَة.

﴿... أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾: أي: أَفَتُصِرُّونَ عَلَىٰ الْبُهْتَانِ الْمُبِينِ المفْضُوحِ، فَلَا تَعْقِلُونَ عَقْلاً عِلْمِيًّا حَقِيقَةَ مَا أَنْتُمْ تَفْتَرُونَهُ، وَلَا تَعْقِلُونَ عَقْلاً إِرَادِيًّا نُفُوسَكُمْ عَنِ اتِّباعِ الْهَوَىٰ، والمكابَرَةِ في الباطِلِ بِعنادٍ وَوَقَاحَةٍ وَسَفَاهَة؟!!.

﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾:

﴿هَٰٓأَنتُمۡ﴾: «ها» حَرْفُ تَنْبِيهٍ. «أَنْتُمْ» مُبتدأ.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾: «ها» حَرْفُ تَنْبِيهٍ. «أُولاءِ» اسْمُ إِشَارَةٍ خَبَرٌ لِلْمُبْتَدأ.

﴿حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ﴾: أي: جادَلْتُمْ جِدالاً بِالْبَاطِلِ فِيمَا لَكُمْ بِهِ أصْلُ عِلْمٍ يُسَوِّغُ لَكُمْ أَنْ تُجادِلُوا بِشَأْنِهِ، مُتَّخِذِينَ ذَرَائِعَ تُمَكِّنُكُمْ مِنْ أَنْ تُرَاوِغُوا بِهَا، مُبْتَعِدِينَ عَنِ الْحَقِّ، وأَنْ تَضَعُوا عَلَيْهَا طِلاءً مِنْ زُخْرُفِ الْقَوْلِ، وأَنْ تُؤَوِّلُوا بِهَا نُصُوصَ التَّوْرَاةِ والإنْجِيلِ كما يَحْلُو لَكُمْ وَيُحَقِّقُ لَكُمْ مَا تُرِيدُونَ مِنْ مَتَاعَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيا، وزِينَتِهَا.

﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ﴾؟!: أي: فَلِمَ تَتَّخِذُونَ الْجِدَالَ وَتَقْدِيمَ الْحُجَجِ الْبَاطِلَةِ دَيْدَنَكُمْ، حَتَّىٰ فِي الْقَضَايَا الَّتِي تَجْهَلُونَهَا وَلَيْسَ لَكُمْ بِهَا عِلْمٌ مُطْلَقاً، وَهِيَ بَعِيدَةٌ عَمَّا يُهِمُّكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ، فَصَارَ الْجِدَالُ والاحْتِجَاجُ بِالْبَاطِلِ صِفَةً مِنَ الصِّفَاتِ الملَازِمَةِ لَكُمْ، وعادَةً مِنَ الْعَادَاتِ الَّتِي تَجِدُونَ فِي مُمَارَسَتِهَا لَذَّةً مِنْ لَذَّاتِكُمْ، فَأَنْتُم تَلْهُونَ بالْجِدَالِ وَتَلْعَبُونَ، لَا تَقْصِدُونَ بِهِ إحْقَاقَ حَقٍّ وَلَا إبْطَالَ بَاطِلٍ، بَلْ قَدْ يَسُرُّكُمْ بِهِ أَنْ تُبْطِلُوا حَقًّا، وأَنْ تُحِقُّوا بَاطِلاً؟!!. إِنَّكُمْ تَجْعَلُونَ الْمُحَاجَجَةَ بالْبَاطِلِ مَلْهَاةً مِنْ مَلَاهِيكُمْ، عَلَىٰ خِلَافِ مَا عَلَيْهِ أَهْلُ الْعَقْلِ والرُّشْدِ والْفَضْلِ والْحِكْمَةَ.

﴿... وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾: أي: واللهُ يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ، فَيَعْلَمُ مَا تُضْمِرُهُ نُفُوسُكُمْ، وَمَا تَسْتَخْفُونَ بِهِ عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ، وَمَا تَقْصِدُونَهُ مِنْ جَدَلِيَّاتِكُمْ بِالْبَاطِلِ، وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ مِقْدَارَ مَا أَخْفَاهُ لَكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ، يُنْزِلُهُ بِكُمْ يَوْمَ الدِّينِ جَزَاءَ كُفْرِكم.

وبَعْدَ هٰذَا الْبَيَانِ التَّعْلِيمِيِّ للرَّسُولِ ﷺ وَلِكُلِّ دَاعٍ إلى اللهِ مِنْ أمتِهِ، تَوجَّهَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْمُصِرِّينَ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ:

﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾:

أي: إِنَّ اللهَ رَبَّكُمْ الْمُحِيطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً يُنَبِّئُكُمْ بأنَّ إبْرَاهِيمَ ـ عَلَيْهِ السَّلَام ـ الَّذِي اجْتَبَاهُ واصْطَفَاهُ، وجَعَلَ فِي ذُرِّيَّتِهِ مِنْ بَعْدِهِ النُّبُوَّةَ

والْكِتَاب؛ لَمْ يَكُنْ يَهُودِيًّا كما يَزْعُمْ الْيَهُودُ، وَلَا نَصْرَانيًّا كَمَا يَزْعُمُ النَّصارَىٰ، وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مَائِلاً عَنْ كُلِّ الْمِلَلِ الْبَاطِلَةِ، ومُلْتَزِماً صِرَاطَ رَبِّهِ المستقيم، وَكَانَ مُسْلِماً لِرَبِّهِ إِسْلَاماً كَامِلاً، مُنْقَاداً، خاضِعاً، مُطِيعاً طَاعَةً تَامَّةً لِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ. وَمَا كَانَ مِنَ المشْرِكِينَ أيَّ شِرْكٍ فِي رُبُوبِيَّةِ اللهِ وإِلَٰهِيَّتِهِ.

وَقَالَ تَبارَكَ وَتَعَالَىٰ لَهُمْ:

﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾:

أيْ: إنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِالانْتِمَاءِ إِلَىٰ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام، والافْتِخَارِ بِهِ، وَمُوالَاتِهِ، وَمُنَاصَرَةِ مِلَّتِهِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا؛ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ مِنَ الرُّسُلِ والْأَنْبِيَاءِ كإِسْمَاعِيلَ وإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَيُوسُفَ عَلَيْهِمُ السَّلَام، وكالْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَإِنَّ أَوْلَىٰ النَّاسِ بِوِلَايَةِ إبراهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام بَعْدَ بِعْثَةِ مُحَمَّدٍ خَاتَمَ الأَنْبِيَاءِ والْمُرْسَلِينَ ﷺ، هٰذَا النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوهُ، ولْيَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ وَلِيُّهُمْ يَشْمَلُهُمْ بِوِلايَتِهِ، إِذْ هُوَ - جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ - وَلِيُّ جَمِيعِ المؤمِنِينَ الصَّادِقِينَ.

أَمَّا الْكَافِرُونَ فَلَيْسَ لَهُمْ وَلِيٌّ يَنْصُرُهُمْ أَوْ يَدْفَعُ عَنْهُمْ شرّاً.

الْوَلِيّ: الناصِرُ، والْمُحِبُّ، والْمُعِينُ، والسَّيِّدُ، والمنْعِمُ.



الفَصلُ الحادي عشر

الإسلَامُ امتِدَادٌ لِمِلَّةِ إِبرَاهِيم عَلَيهِ السَّلَام

أولاً: تَكْلِيفُ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ خاتم الأَنْبِياء والمرْسَلِينَ بأنْ يَقُولَ مُعْلِناً أَنَّهُ امْتِدَادٌ لِمَلَّةِ إِبْرَاهيم عَلَيْهِ السَّلَام.

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في سُورَةِ (الأَنْعَامِ/ ٥ مصحف/ ٥٥ نزول) خِطَاباً لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ:

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٦١﴾:

أي: قُلْ يَا مُحَمَّدُ يَا مَنْ جَعَلْنَاكَ خَاتِمَ الْمُرْسَلِينَ، وَرَسُولاً لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ: إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ لَا عِوَجَ فِيهِ وَلَا الْتِوَاء، حالَة كَوْنِهِ دِيناً مُشْتَمِلاً عَلَىٰ مَبَادِئَ وَحَقَائِقَ وَفَضَائِلَ وَمَحَاسِنَ، وَضَوَابِطَ لِلسُّلُوكِ النَّفْسِيِّ وَالْجَسَدِيِّ قَيِّمَةٍ، أي: مُسْتَقِيمَةٍ اسْتِقَامَةً تَامَّةً، وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا قَيِّمَةٌ فَذَّةٌ، تُقَوِّمُ بِهَا مَا يَقْتَرِحُهُ النَّاسُ مِنْ بَدَائِلَ، فَتَكْشِفُ مَا فِيهَا مِنْ نَقْصٍ وعُيُوبٍ ومُخَالَفَاتٍ لِمَا تَقْتَضِيهِ سَعَادَةُ النَّاسِ فِي الْعَاجِلَةِ والآجِلَة، وَجَمِيعُهَا قِيَمٌ عَظِيمَةٌ مُتَّصِفَةٌ بِالْحَقِّ والْخَيْرِ والْحُسْنِ والْجَمَالِ والْكَمَالِ. وحَالَةَ كَوْنه مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

وكَوْنُ مَا جَاءَ بِهِ خَاتَمُ الْمُرْسَلِينَ ﷺ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هو باعْتِبَارِ أَنَّ دِينَ اللهِ لعباده وَاحِدٌ فِي أُصُولِهِ وَعَقَائِدِهِ وأَخْلَاقِهِ وكُلِّيَاتِهِ السُّلُوكِيّة.

وَفِي هٰذَا إِعْلَامٌ لِمُشْرِكِي الْعَرَبِ بِأَنَّ مَا هُمْ عَلَيْهِ مُخَالِفٌ لِمَا وَرِثَهُ أَجْدَادُهُمُ الْأَقْدَمُون، مِنْ دِينِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

ثانياً: تَكْلِيفُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ رسُولَهُ ﷺ أَنْ يَدْعُو أَهْلَ الكِتَابِ إلى اتِّبَاعِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَام، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٩٥﴾.

ثالثاً: أَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْمُسْلِمِينَ أتْبَاعِ الرِّسَالَةِ الرَّبَّانِيَّة الْخَاتِمَة، بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ في سُورَة (الشُّورى/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول):

﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى

ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾:

فَأَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ الَّذِي شرعَهُ مِنَ الدِّينِ لِلْمُؤْمِنِينَ المسلمين في الرِّسَالَةِ الْخَاتِمَة؛ شامِلٌ مَا وَصَّىٰ به نُوحاً عَلَيْهِ السَّلام، وَمَا وَصَّىٰ بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وعِيسَىٰ عَلَيْهِمُ السَّلام، وَلَكِنْ أضافَ إِلَىٰ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً عَلَيْهِ السَّلام مَا أَوْحَاهُ إِلَىٰ محمَّدٍ خَاتَمِ الْمُرْسَلِين ﷺ، فَخَصَّهُ فِيهِ بزِيَادَاتٍ عَلَىٰ ما أوصَىٰ بِهِ نوحاً عَلَيْهِ السَّلَام، مَعَ شُمُولِهِ ما وصَّىٰ بِهِ إبراهيمَ ومُوسَىٰ وعيسَىٰ عَلَيْهِم السَّلام، ويَظْهَرُ أَنَّ اللهَ قَدْ خَصَّ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وعِيسَىٰ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بالذِّكْرِ، إِذْ خَصَّ كُلًّا مِنْهُمْ بِوَصَايَا فِيها زِيَاداتٌ عَلَىٰ مَا جَاءَ عِنْدَ غَيْرِهِ مِنَ الرُّسُلِ عَلَيْهِم السَّلَام. أَمَّا رَسُولُ اللهِ مُحَمَّدٌ ﷺ فَقَدْ جَمَعَ اللهُ لَهُ كُلَّ مَا أَوْصَىٰ بِهِ رُسُلَهُ عَلَيْهِم السَّلام، وَزَادَهُ مَا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيْهِ عَلَىٰ وَجْهِ الْخُصُوص.

ونُوصِيكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ في الرِّسَالَةِ الْخَاتِمَةِ بِأَنْ تُقِيمُوا الدِّينَ بالمواظَبَةِ عَلَىٰ مَا أَمَرَكُمْ رَبُّكُمْ فِيهِ، وأَنْ تَجْعَلُوهُ مُسْتَقِيماً عَلَىٰ صِرَاطِ رَبِّكُمْ، وَنُوصِيكُمْ بِأَنْ لَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ إلى أَحْزَابٍ وفِرَقٍ وَمَذَاهِبَ.

﴿... كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ...﴾: أي: كَبُرَ عَلَىٰ نُفُوسِ قَومِكَ يا مُحَمَّدُ أَنْ يَسْتَجِيبُوا لِمَا تَدْعُوهُمْ إِليه، وشَقَّ وَثَقُلَ عَلَيْهِمْ تَحَمُّلُهُ إِذْ رَأَوْهُ شَيْئاً كَبِيراً.

﴿... ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ ...﴾: أي: اللهُ يصْطَفِي مُقَرَّباً إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبادِهِ، ومعلومٌ أَنَّ مَشيئَتَهُ لا تُفارِقُ حِكْمَتَهُ، فَمَنْ يَعْتَرِضُ من المشْرِكِين عَلَىٰ اجتِبَاءِ اللهِ رَسُولَهُ محمّداً ﷺ فَهُو جاهِلٌ بِحِكْمَةِ رَبِّهِ أَوْ جَاحِدٌ لَهَا.

﴿... وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾: أي: وَيَهْدِي إِلى سُلُوكِ السَّبِيلِ الموصل إلى رِضوانِهِ وَمَنَازِلِ الْقُرْبِ إِلَيْهِ مَنْ يَرْجِعُ إلى طَاعَتِهِ والخضُوعِ لَهُ آناً فآناً.

رابعاً: خَاطَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ المؤمنين بِرِسَالَة محمَّدٍ ﷺ بِقَوْلِهِ تعَالَىٰ في سورة (الممتحنة/ ٦٠ مصحف/ ٩١ نزول):

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾﴾:

- قرأ عاصم: [**أُسْوَةٌ**] بِضَمِّ الهمزة. وَقَرَأَهَا باقي القراء العشرة: [**إِسْوَةٌ**] بِكَسْرِ الْهَمْزَة. وهُمَا لُغَتَان.

الأُسْوَةُ: الْقُدْوَةُ الَّذِي يُقْتَدَىٰ بِهِ.

لمَّا بَلَغَ الْخِلَافُ والصِّرَاعُ بَيْنَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ والَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مِنْ جِهَةٍ، وَبَيْنَ قومِهِ المشْرِكِينَ ذِرْوتَهُ مِنْ جهةٍ أخْرَىٰ، وصَارَ التعايشُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ أَمْراً صَعْباً، وَتَوَجَّهُ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَام لِلْهِجْرَةِ وَمُفَارقَةِ قَوْمِهِ وَبِلَادِهِمْ وجَمِيعِ أَرْضِهِمْ، وَرُبَّمَا قَالَ لَهُ قَوْمُهُ: أَتُهَاجِرُ يا إِبْراهِيمَ أَنْتَ والَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ بَلَدِكَ وَتُفَارِقُ قَوْمَكَ؛ فَقَالَ لَهُمْ هُو والَّذِينَ مَعَهُ: إِنَّا بُرَءَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ.

﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾: أي: كَفَرْنَا بِأَنَّنَا مِنْكُمْ وَبِأَنَّكُم مِنَّا، فَلَا وِلَايَةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، وَكَفَرْنَا بِأَنَّ لَكُم عَلَيْنَا حَقَّ الْقَوْمِيَّةِ أَوْ حَقَّ الْقَرَابَةِ أَوْ حَقَّ الْمُوَاطَنَة، وَكَفَرْنَا بِمَا تُؤْمِنُونَ بِهِ مِنْ باطِلٍ.

﴿... وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ...﴾:

أي: فَنَحْنُ أَعْدَاؤُكُم وَأَنْتُمْ أَعْدَاءٌ لَنَا، وَنَحْنُ نُبْغِضُكُم بُغْضاً أَبَدِيًّا، حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا باللهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنْتُم تُبْغِضُونَنَا لِأَنَّنَا نُقَاوِمُ شِرْكَكُمْ، وَنُحَطِّمُ أَصْنَامَكُمْ.

هٰذَا الْمَوْقِفُ الْإِيمَانِيُّ الْعَظِيمُ، مِنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ومِن الَّذِينَ مَعَهُ، المَقْرُوْنُ بِصَلَابَةٍ جِهَادِيَّةٍ وَقُوَّةِ عَزِيمَةٍ؛ مَوْقِفٌ يَسْتَحِقُّ أَنْ يَجْعَلَ المتَّصِفِينَ بِهِ قُدْوَةً حَسَنَةً لِكُلِّ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ. فَأَوْصَىٰ اللهُ المؤمنينَ الْمُسْلِمينَ فِي الرِّسَالَةِ الْخَاتِمَةِ بِأَنْ يَتَّخِذُوا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام والَّذِينَ مَعَهُ أُسْوَةً حَسَنَةً لَهُمْ فِي هٰذَا الموقِفِ الإيمانيّ الْجِهَادِيّ الْعَظِيم. وَكَانَ هٰذَا بَعْدَ أَنْ هَاجَرَ الرَّسُولُ ﷺ إلى المدينَةَ، وَبَدَتْ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَبَيْنَ مُشْرِكِي مَكَّةَ الْعَدَاوَةُ والْبَغْضَاء، وَقَامَتْ بَيْنَهُمْ حُرُوبٌ وغَزَواتٌ، وَصَارَتْ لِلْمُسْلِمِينَ دَوْلَةٌ بِقِيادَة رَسُولِ اللهِ ﷺ، ولَمْ يَكُنْ ذٰلك حِينَ كَانَ الْمُسْلِمُونَ فِي مَكَّةَ ضُعَفَاء وَتَحْتَ سَطْوَةِ قُوَّةِ الْمُشْرِكِينَ، واضْطِّهَادِهِمْ لَهُمْ.

وَلِئَلَّا يَقْتَدِيَ الْمُسْلِمُونَ بالْخَطَإِ الَّذِي وَقَعَ بِهِ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، إِذْ وَعَدَ أَبَاهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُ مَعَ أَنَّ أَبَاهُ كَانَ كافِراً لَمْ يَسْتَجِبْ لِدَعْوَةِ وَلَدِهِ لَهُ أَنْ يَنْبِذَ الشِّرْكَ والأَصْنَامَ، ويُؤْمِنَ باللهِ وحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَلَا فِي إِلَهِيَّتِهِ؛ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ:

﴿... إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ...﴾: أي: فَلَا تَقْتَدُوا بِهِ فِي هَـٰذِهِ أَخْذاً بِعُمُومِ تَوْصِيَتِنَا لَكُمْ بالاقْتِدَاءِ بِهِ، فَنَحْنُ لَا نُبِيحُ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لِكَافِرٍ.

وفي النَّصِّ عَلَىٰ هٰذَا الْحُكْمِ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾:

أي: مَا كَانَ مُبَاحاً للنَّبِيِّ وَلَوْ كَانَ نَبِيًّا، وَمَا كَانَ مُبَاحاً لِلَّذِينَ آمَنُوا،

فِي كُلِّ مَا أَنْزَلْنَا مِنْ أَحْكَام الدِّينِ عَلَىٰ رُسُلِنَا؛ أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْكَافِرِينَ أَعْدَاءِنَا مِنْ دَرَكَةِ أَهْوَنِ الشِّرْكِ الَّذِي هُوَ أَوَّلُ دَرَكَاتِ الكُفْرِ، وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ، كَأَبَائِهِمْ وَأُمَّهَاتِهِمْ، وَأَبْنَائِهِمْ وَبَنَاتِهِمْ، مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ بِالْمَوْتِ أَوْ بِالإِصْرَارِ الْعَنِيدِ عَلَىٰ الكُفْرِ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ، بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ.

وَأَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عُذْرَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي اسْتِغْفَارِهِ لِأَبِيهِ المشْرِكِ؛ بِأَنَّهُ كَانَ بِسَبَبِ مَوْعِدَةٍ سَبَقَ أَنْ وَعَدَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام لِأَبِيهِ بِأَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُ، طَمَعاً مِنْهُ فِي أَنْ يُؤْمِنَ وَيُسْلِمَ بَعْدَ طُولِ مُعَالَجَةٍ وَمُعَاشَرَةٍ بِالْمَعْرُوفِ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ، وَلَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيمَا فَعَلَ مُخَالِفاً حُكْماً شَرْعِيًّا كَانَ قَدْ تَبَلَّغَهُ عَنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ، وَمَا فَعَلَهُ كَانَ اجْتِهَاداً مِنْهُ لَمْ يُوافِقْ فِيهِ وَجْهَ الصّواب.

وأخيراً أَكَّدَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الثَّنَاءَ عَلَىٰ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَام بأَنَّهُ أَوَّاهٌ حَلِيمٌ.

الأَوَّاهُ: أي: الرحيم، الرقيق القلب، الكَثِيرُ الحُزْن الَّذِي يَتَأَوَّهُ كَثِيراً مِنَ الشفقة، أو عند الخوف من اللهِ، ويُلازِمُ هَـٰذِهِ الصِّفَاتِ كثرة التَّضَرُّعِ للهِ، والمحافظة على طاعته، والتَّقَرُّب إِلَيْهِ بمَحابِّهِ.

حَلِيم: أي: كثير الْحِلْمِ والأَنَاةِ، بطيءُ الغَضَب، وهَـٰذِهِ الصِّفَةِ هِيَ من صِفَاتِ عُظَمَاءِ الرِّجَالِ.

خامساً: وَخَاطَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الَّذِينَ آمَنُوا وأَسْلَمُوا أَتْبَاعَ الرَّسُولِ محمَّدٍ ﷺ بِقَوْلِهِ في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نُزُول):

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ

وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾:

فَأَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ لِأَتْبَاعِ الرَّسَالَةِ الرَّبَّانِيَّةِ الْخَاتِمَةِ؛ أَنَّهُ مَا جَعَلَ عَلَيْهِمْ فِي الدِّينِ الَّذي يُبَلِّغُهُمْ إِيَّاهُ خَاتَمُ رُسُلِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ مِنْ حَرَجٍ مَا، أي: مِنْ ضِيقٍ وَشِدَّةٍ فِي التَّكالِيف، بَلْ فِيهِ فُسْحَةٌ وَيُسْرٌ.

وَأَبَان اللهُ عَزَّ وَجلَّ لَهُمْ أَنَّ هٰذَا الدِّينَ الَّذِي لا حَرَجَ فِيهِ هُوَ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام.

وَأَبَانَ لَهُمْ أَنَّهُ هُو سَمَّاهُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ، فَقَدْ سَبَقَ أَنْ دَعَا رَبَّهُ عَزَّ وَجلَّ قَائِلاً، كَمَا جَاءَ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾:

فالإِسْمَاعِيلِيُّونَ مِنَ الْعَرَبِ هُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ وإِسْماعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلام، فإذَا أَضَفْنَا إِلَىٰ هٰذَا قَوْلَهُمَا فِي دُعَائِهِما عَقِبَ الآيَتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ:

﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾.

وَقَدْ جَاءَ هٰذَا الرَّسُولُ رَسُولاً لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ، كَانَ عَلَيْنَا أَنْ نَفْهَمَ أَنَّ اسْمَ الْمُسْلِمِينَ تَسْمِيَةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ لِكُلِّ مُتَّبِعِي الرِّسالَةِ الْخَاتِمَةِ الَّتِي بَعَثَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ بِهَا مُحَمّداً ﷺ.

أَمَّا كَوْنُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ أَباً لِكُلِّ الَّذِينَ آمَنُوا وأَسْلَمُوا أَتْبَاعِ الرَّسُولِ الخاتِمِ ﷺ، فَهُوَ مِنْ بَابِ التَّغْلِيبِ، فالْعَرَبُ المسْتَعْرِبَةُ هم ذُرِّيَّةُ إِسْمَاعِيلَ، فَأَبُوهُمْ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِما السَّلام، وذُرِّيَّةُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أَبُوهُمْ إِبْرَاهِيمُ

عَلَيْهِم السَّلَام، وَبَقَايَا أَهْلِ مَدْيَنِ أَبُوهُمْ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَام، وَكُلُّ مَنْ آمَنَ وأَسْلَمَ مِنْ سَائِرِ شُعُوبِ الأَرْضِ يُعْتَبَرُ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَثَابَةِ أَبٍ لَهُمْ يَقْتَدُونَ بِهِ وَيَتَّبِعُونَ مِلَّتَهُ، وَقَدْ كَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَرِيصاً عَلَىٰ تَخْلِيصِ النَّاسِ جَمِيعاً مِنَ الشِّرْكِ ومِنْ كُلِّ صُوَرِ الكُفْرِ، وَعَلَىٰ نَجَاتِهِمْ مِنْ عَذَابِ النَّار يَوْمَ الدِّين.

التدبّر السّريع للنصّ:

قَوْلُ اللهِ تَعَالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾:

الرُّكُوعُ والسُّجُودُ أَبْرَزُ الأَركانِ الْعَمَلِيَّةِ في الصَّلَاةِ، فَجَاءَ الاقْتِصَارُ عَلَىٰ ذِكْرِهِمَا، والْمَقْصُودُ سَائِرُ أَعْمَالِ الصَّلَاةِ الْقَوْلِيَّةِ، والْقَلْبِيَّةِ، والْجَسَدِيَّة.

﴿وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ﴾: أي: واخْضَعُوا لِرَبِّكُمْ وأَطِيعُوهُ وَتَقَرَّبُوا إِلَيْهِ بِكُلِّ مَا يُرْضِيهِ مِنْ عباداتٍ، واجِبَات أَوْ مَنْدُوبَاتٍ، في سُلُوكِكُمُ النفْسِيِّ والْفِكْرِيِّ والْجَسَدِي والْمَالِيّ، واجْعَلُوا عِبَادَتَكُمْ لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ له.

﴿وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ﴾: أي: وافْعَلُوا مَا هُوَ خَيْرٌ تَتَّفِقُ الْعُقُولُ عَلَىٰ أَنَّهُ خَيْرٌ، وَلَوْ لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ بَيَانٌ خَاصٌّ مِنْ رَبِّكُمْ، كَإِقَامَةِ المسْتَشْفَيَاتِ، وَتَذْلِيلِ الطُّرُقَاتِ وَشَقِّهَا، وبِنَاءِ الْجُسُورِ، وَمَشَارِيعِ الْمِيَاهِ والرَّيِّ النَّافِعَةِ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَكَادُ يُحصَىٰ، وَتَتَّفِقُ الْعُقُولُ السَّلِيمَةُ عَلَىٰ أَنَّهُ مِنَ الخير.

﴿... لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾﴾: أي: رَغْبَةً مِنَّا في أَنْ تُفْلِحُوا، وَرَجَاءً مِنْكُمْ في أَنْ تُفْلِحُوا فِي دُنْيَاكُمْ وآخِرَتِكُمْ.

الْفَلَاحُ: الظّفَرُ بِمَا هُوَ مَحْبُوبٌ مَرْغُوبٌ فِيهِ، والْفَوْزُ بِنَعِيمِ الآخِرَةِ، وأَصْلُ الْفَلَاحِ الْبَقَاءُ في النَّعِيم والْخَيْر.

قولُ الله تعالى:

﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ

مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨)﴾:

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾: أي: وَجَاهَدُوا فِي الْعَمَلِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ تَعالى، قَائِمِينَ بِمَا يَجِبُ عَلَيْكُم مِنْ أَعْمَالٍ ظاهِرَةٍ وَباطِنَةٍ، الْجِهَادَ الصَّادِقَ الْمُخْلِصَ الْمُحَقِّقَ لِمَا يَطْلُبُهُ اللهُ مِنْكُمْ مِنْ مُجَاهَدَةٍ، فَهٰذَا هُوَ حَقُّ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ ابْتِغَاءِ مَرْضَاةِ اللهِ تَعالى.

الجهادُ: بَذْلُ غَايَةِ الطَّاقَةِ لَدَىٰ الْقِيَامِ بِعَمَلٍ مَا، كَأَنَّ الْعَمَلَ واقِعٌ بَيْنَ مُتَصَارِعَيْنِ مُتَغَالِبَيْنِ.

حَقُّ الْجِهادِ: أي: الْجِهَادُ الْحَقُّ، فَهُوَ مِنْ إِضَافَةِ الصِّفَةِ إِلى المَوصُوفِ، والجهادُ الحَقُّ: هُوَ الصَّادِقُ المخْلِصُ الَّذِي تُبْذَلُ فِيهِ غَايَةُ الطَّاقَة.

﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾: أي: اللهُ هُوَ الَّذِي اصْطَفَاكُمْ واخْتَارَكُمْ، يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ أَتْبَاعُ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ - ﷺ - الرِّسَالَةِ الْخَاتِمَةِ، فَجَعَلَكُمْ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الأُمَمِ السَّابِقَةِ لَكُمْ الأُمَّةَ المصْطَفَاةَ، المكَلَّفَةَ أَنْ تَحْمِلُوا رِسَالَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَتُبَلِّغُوها لِلنَّاسِ، كَمَا أَنْزَلَهَا الله عَلَىٰ رَسُولِهِ ﷺ.

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾: سَبَقَ آنِفاً تَدَبُّرُ هٰذَا الْبَيَان.

﴿وَفِي هَٰذَا﴾: أي: وَفِي هٰذَا الدِّينِ الْخَاتِمِ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ بِتَسْمِيَةِ اللهِ رَبِّكُمْ لَكُمْ.

﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾: أي: اجْتَبَىٰ رَسُولَكُمْ ﷺ لِلنُّبُوَّةِ والرِّسَالَةِ الْخَاتِمَة؛ لِيَكُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَهِيداً عَلَىٰ مَنْ تَبَلَّغَ مِنْكُمْ مَا أُمِرَ ﷺ بِتَبْلِيغِهِ لِلنَّاسِ مِنْ آيَاتِ كِتَابِ اللهِ، وَقَضَايَا دِينِ اللهِ

لِعِبَادِهِ، وَلِتُبَلِّغُوا أَنْتُمْ مَا تَبَلَّغْتُمُوهُ مِنْ رَسُولِكُمْ ﷺ، أو تَبَلَّغْتُمُوهُ بالأَخْبَارِ الصَّادِقَةِ عَنْهُ ﷺ، جِيلاً فجِيلاً، وَلِتَكُونُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُهَدَاءَ عَلَىٰ النَّاس فِيمَا بَلَّغْتُمُوهُمْ إِيَّاهُ، فَقَدْ جَعَلَكُمُ اللهُ باجْتِبَائِهِ لَكُمْ شُهُوداً عُدُولاً، تُقْبَلُ شَهَادَتُكُمْ عَلَىٰ النَّاسِ عِنْدَ رَبِّكُمْ، فِيمَا أَدَّيْتُمُوهُ مِنْ بَلَاغ.

وهٰذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ تَهَاوُنَ الْأُمَّةِ الإسْلَامِيَّةِ بِتَبْلِيغِ دِينِ رَبِّهَا تَعالى للنَّاسِ؛ مَعْصِيَةٌ جَمَاعِيَّةٌ بِتَرْكِ فَرْضٍ مِنْ فُرُوضِ الكِفَايَةِ عَلَيْهَا.

﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: هٰذَانِ الرُّكْنَانِ مِنْ أَرْكَانِ الإِسْلَامِ قَدْ أَوْلَاهُمَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عِنَايَةً عَظِيمَةً بِتَكْرِيرِ الْأَمْرِ بِهِمَا فِي كِتابِه.

﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾: أي: والْتَجِئُوا إِلَىٰ اللهِ مُتَّحِدِين، واحْتَمُوا بِحِمَاهُ بالإيمانِ بِهِ، والإِسْلَامِ له، والْعَمَلِ بمراضِيهِ مع كَمَال التوحيد، لِيَعْصِمَكُمْ وَيَحْفَظَكُمْ.

﴿... هُوَ مَوْلَىٰكُمْۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ۝٧٨﴾: أي: هو الذي يَحْمِيكُمْ بِوِلايَتِهِ، وَيُفِيضُ عَلَيْكُمْ فُيُوضَ عَطاءاتِه، فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ الَّذِي يُحِيطُكُمْ بِوِلَايَتِهِ لَكُمْ، ونِعْمَ النَّصِيرُ لَكُمْ.

سَادِساً: وَوَجَّهَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الخطاب بِصِفَةٍ عَامَّةٍ صَالِحَةٍ لِأَنْ يُراد بها النَّاسُ جَمِيعاً، فقال تَعَالَىٰ في سُورَةِ (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ۝١٢٥﴾:

اسْتِفْهَامٌ بـ «مَنْ» الاسْتِفْهَامِيَّةِ وَيُرَادُ بِهِ النَّفْيُ هُنَا، أي: لَا يُوجَدُ أَحْسَنُ دِيناً مِنْ عَبْدٍ أَسْلَمَ قِيادَةَ وَجْهِهِ للهِ فَانْقَادَ لَهُ مُطِيعاً خَاضِعاً، يَأْتَمِرُ بِمَا أَمَرَ اللهُ بِهِ، وَيَنْتَهِي عَمَّا نَهَىٰ اللهُ عَنْهُ، والْحَالُ أَنَّهُ مُحْسِنٌ مِنْ أَهْلِ مَرْتَبَةِ الإِحْسَانِ، يَعْبُدُ اللهَ كَأَنَّهُ يراهُ، واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلام حَنِيفاً مَائِلاً عَنْ كُلِّ مِلَلِ النَّاسِ الكُفْرِيَّة، ومُلْتَزِماً صِراطَ اللهِ المستقيم.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام قَدْ جَاءَ بَيَانُ أُصُولِهَا، وَقَوَاعِدِهَا، وأنْوَاعِ سُلُوكِهَا الظاهِرِ والْبَاطِنِ، فِيمَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ الْخَاتِمِ مُحَمَّدٍ ﷺ، مع زِيَادَةِ تَفْرِيعَاتٍ وَتَفْصِيلاَتٍ لَا تَخْرُجُ عَنِ الأُصُول الْكُلِّيَّةِ الْعَامَّةِ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهَا مِلَّةُ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام.

وَأَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي هَـٰذِهِ الآيَةِ أَنَّهُ اتَّخَذَ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام خَلِيلاً، أي: عبْداً نَالَ مِنْ مَحَبَّةِ اللهِ مَرْتَبَةَ الْخُلَّةِ، وهي أَعْلَىٰ مَرَاتِبِ مَحَبَّةِ اللهِ لِعِبَادِهِ المُحْسِنِين.

وَلِرَسُولِ اللهِ محمَّد ﷺ مِنْ هَـٰذِهِ الْمَرْتَبَةِ أعْظَمُ الدَّرَجَاتِ، إِذْ خَصَّهُ اللهُ بالشَّفَاعَةِ العظْمَىٰ يَوْمَ الدِّينِ، مِنْ دُونِ سَائِرِ الْمُرْسَلِينَ.



الفصلُ الثاني عشر
مُتفرّقَات فيها بيَانٌ مَا عَن إبراهيم عَلَيهِ السَّلَام

أولاً: قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي بَيَانِ اصْطِفَائِهِ بَعْضَ عباده في التَّارِيخِ الْبَشَرِي، في سُورَة (آلِ عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾:

فِي هـٰذَا النَّصِّ بَيَانٌ لِمَفَاصِلَ كُبْرَىٰ مِنْ شَجَرَةِ المصْطَفَيْن الأخيار من الأنبياء والْمُرْسَلِين عَلَيْهِم السَّلَام.

- **فالْمُصْطَفَىٰ الأوّل**: آدمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومِنْ سُلَالَتِهِ عَدَدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ والْمُرْسَلِين عَلَيهِم السَّلَام، مِنْهم شيث، وإدْريس عليهما السلام.

- **والمصْطَفَى الثَّانِي**: نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَام، ومِنْ سَلَالَتِهِ عَدَدٌ من الأنبياءِ والْمُرْسَلِين، مِنْهُمْ هُود، وصَالح عليهم السَّلام، وأنبياء ورُسُلٌ كَثِيرُونَ لَمْ يَقْصُصِ اللهُ عَلَيْنَا شيئاً مِنْ قَصَصِهِم.

• **والمصْطَفى الثالِث**: إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلام، ويُلْحَقُ بِهِ آلُهُ، ومِنْهُمْ إسْمَاعِيلُ، وإِسْحَاق، ويَعْقُوب عَلَيْهِم السَّلام، وجاء التَّعْبِيرُ بعبارة: ﴿وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ﴾: لِلْعِلْم بأنَّ إِبْرَاهِيمَ إِمَامُ الْأَنْبِيَاءِ والْمُرْسَلِينَ مِنْ بَعْدِهِ عَلَيْهِم السَّلام، فَنَابَتْ هَٰذِهِ العبارةُ عَنْ عِبَارَة: «وَإِبْرَاهِيمَ وآلِهِ»، ومُحَمَّدٌ ﷺ مِنْ آلِ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام.

• **والمصْطَفى الرابع**: «مُوسَىٰ» عَلَيْهِ السَّلَامُ ومَعَهُ أَخُوهُ «هَارُون» عَلَيْهِ السَّلَام، ومِنْ ذُرِّيَّةِ أَبِيهِمَا «عِمْرَانَ = عِمْرام» كُلُّ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرائِيلَ مِنْ بَعْدِهِ عَلَيْهِم السَّلَام، فَجَمَعَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ تَحْتَ عُنْوان: «آل عِمْران».

﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: أي: على النَّاسِ أَجْمَعِينَ، أي: اصْطَفَاهُمْ وَفَضَّلَهُمْ على سَائِرِ النَّاسِ، لِعِلْمِهِ بِهِمْ عَلَيْهِمُ السَّلام.

وَأَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ شَجَرَة المصْطَفينَ مِنَ الأَنْبِيَاءِ والْمُرْسَلِينَ عَلَيْهِم السَّلام هُمْ ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ بَعْدَ آدَمَ كُلُّهُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدم عَلَيْهِ السَّلام، ومَنْ بَعْدَ نُوحٍ كُلُّهُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ نُوح عَلَيْهِ السَّلام، وَفَرْعٌ عَظِيمٌ مِنْ بَعْدِ إبراهيم كُلُّهُمْ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ عَلَيْهِ السَّلام.

وقَدْ سَبَقَ في تَدَبُّرِ سُورة (مريم/ ٤٤ نزول) عِنْدَ تَدَبُّرِ الآيَةِ (٥٨) مِنها؛ أَنَّنِي ذَكَرتُ أَنَّ كُلَّ الأَنْبِيَاءِ من بَعْدِ إبراهيم ولوط عليهما السَّلام هُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلام، لكِنْ بَدَا لِيَ الآنَ احْتِمَالُ وُجُود أنبياء ورُسُلٍ من غير فَرْعِ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلام، مَعَهُ وبَعْدَهُ، وهُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ نوح عَلَيْهِ السَّلام.

فَمِنَ المحتمل أَنَّهُ وُجِدَ أنبياءُ ورسُلٌ لَمْ يُذْكَرُوا فِي الْقُرْآنِ، هُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلام، في أُمَمٍ وَشعُوبٍ، في حَيَاةِ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلامُ أَوْ بَعْدَ حَيَاتِهِ وقَبْلَ خاتم النبيِّينَ ﷺ، دُونَ أَنْ يَكُونُوا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ عَلَيْهِ السَّلام.

هَٰذَا مَا فَهِمْتُهُ الآن مِنْ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ نُوحٍ وإبراهيم عَلَيْهِمَا السَّلامُ في سُورَةِ (الْحَدِيد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾ والله أعلم.

فَوُجودُ أنْبياء ورُسُلٍ في شُعُوبٍ وَأُمَمٍ مُخْتَلِفَةٍ، في زَمَنِ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلام أَوْ بَعْدَ زَمَنِ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ، وقَبْلَ خاتَمِ الْمُرْسَلِينَ ﷺ، مِنْ غَيْرِ ذُرِّيَّةِ إبْراهيم عَلَيْهِ السَّلام؛ لَا يَتَعارَضُ مَعَ هَـٰذِهِ الآيَةِ، لِأَنَّهُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلام، وَلَا تَدُلُّ الآيَةُ عَلَىٰ قَصْرِ الْأَنْبِياءِ والْمُرْسَلِينَ بَعْدَ إبْراهِيمَ عَلَيْهِ السَّلام عَلَىٰ أَنَّهُمْ جَمِيعاً مِنْ ذُرِّيَّةِ إبْراهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام.

ثانياً: أبانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَدَداً مِنَ الرُّسُلِ عَلَيْهِم السَّلام في سورة (مَرْيم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول)، ومِنْهُمْ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلام، وقَالَ بِشَأْنِهِمْ:

﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا۩ ﴿٥٨﴾﴾:

سبق تَدَبُّر هَـٰذِهِ الآيَةِ في مَوْضِعِهَا مِنْ سُورَةِ (مريم/ ٤٤ نزول) فلْيُرْجَعْ إليه.

ثالثاً: أبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ أَوْحَىٰ إلى رَسُولِهِ محمَّدٍ ﷺ كَما أَوْحَىٰ إلى الرُّسُلِ مِنْ قَبْلِهِ، لِلْإِعْلام بِأَنَّهُ لَيْسَ بِدْعاً مِن الرُّسُل، فقال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ خطاباً لَهُ في سُورَةِ (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) بضَمِير المتكلّم العظيم:

﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾:

ولِحِكْمَةٍ يَذْكُرُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في بَعْضِ النُّصُوصِ أسْماءَ بَعْضِ الرُّسُلِ، ويَطْوِي ذِكْرَ آخرِينَ، وَقَدْ يَكُونُونَ مِنَ الْبَارِزِينَ مِنْهُمْ وَمِنْ أُولِي الْعَزْمِ، وَلَعَلَّ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يَرْتَبِطَ المتدبِّرُ مَعَ كُلِّ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ حَوْلَ مَوْضُوعٍ واحِدٍ، لِيَفْهَمَهَا فَهْماً تَكامُلِيًّا، وَلِئَلَّا تَكُونَ النُّصُوصُ فِي مواضِعِها مُكَرَّرَاتٍ تَكْرِيراً تَطابُقِيًّا.

رَابعاً: وأبانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِه مُحمّدٍ ﷺ لِيُسَلِّيَه؛ أَنَّ أَقْوامَ الرُّسُلِ عَلَيْهِم السَّلام مِنْ قَبْلِهِ قَدْ كَذَّبُوهُمْ، ومِنْهُمْ قَوْمُ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَام، فَقَال تَعَالَىٰ لَهُ في سورة (الحجّ/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾﴾.

خامساً: وأبانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ أَخَذَ مِنَ النَّبِيِّينَ عَلَيْهِم السَّلام مِيثَاقَهُمْ، وذَكَرَ بالتفصيلِ بَعْضَهُمْ وَمِنْهُمْ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام، فقال تَعَالَىٰ في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول) خطاباً لِرَسُولِهِ ﷺ بِضَمِيرِ المتكلّم العظيم:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾:

الميثَاقُ: هو الْعَهْدُ المؤكَّدُ الْمُوَثَّقُ المثبَّتُ بِمَا يمْنَعُهُ مِن التَّفَلُّت. والميثاق الغليظ: هُوَ المقوَّىٰ المشَدَّدُ.

ويَظْهَرُ أَنَّ الميثَاقَ الَّذِي أَخَذَهُ اللهُ مِنَ النبيِّيْنَ عَلَيْهِم السَّلام عُمُوماً، ومِنْهُمْ رَسُولُ اللهِ محمّد ﷺ؛ هُوَ مَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي الآياتِ الثَّلاثِ من أوّلِ سورة الأحزاب:

(١) أنْ يَتَّقُوْا اللهَ.

(٢) أَنْ لَا يُطِيعُوا الْكَافِرِينَ والمنَافِقِينَ فِي شَيْءٍ يخالِفُ مَا أمرهم اللهُ به، أَوْ نَهَاهُمْ عَنْه.

(٣) أَنْ يَتَّبِعُوا مَا يُوحَىٰ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ.

(٤) أَنْ يَتَوَكَّلُوا عَلَىٰ اللهِ فِي كُلِّ أُمُورِهِم.

وجَاء في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) قَولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ

جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾:

إصْرِي: أي: عَهْدِي الموثّق المشدّد.

فَدلَّتْ هٰذِهِ الآيَةُ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ أَخَذَ الْمِيثَاقَ مِنَ النَّبِيِّين عَلَيْهِم السَّلَام، ويُلْحَقُ بِهِم الَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ؛ أَنْ يُؤْمِنُوا بالرَّسُولِ محمد ﷺ، إِذَا بَعَثَهُ اللهُ وَهُمْ أَحْيَاء، وأَنْ يَنْصُرُوه، ويَكُونُوا مِنْ أَتْبَاعِهِ.

سَادِساً: حَسَدَ بَنُو إِسْرَائِيلَ الْعَرَبَ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَام، لِأَنَّ اللهَ بَعَثَ مِنْهُمْ خَاتَمَ المرسَلِينَ محمّد بن عبد اللهِ ﷺ، وأَنْزَلَ عَلَيْهِ الكِتَابَ العظيمَ الْقُرْآنَ المجيد، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ قَوْلَهُ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) بِشَأْنِهِمْ:

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾:

أي: بَلْ أَيَحْسُدُونَ النَّاسَ أَبْنَاءَ عَمِّهِمْ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَنَّ اللهَ بَعَثَ مِنْهُمُ الرَّسُولَ الخاتِمَ - ﷺ - لِلأَنْبِياء والْمُرْسَلِينَ عَلَيْهِم السَّلَام، وأَنْزَلَ عَلَيْهِ الكتابَ الْمَجِيدَ، أَعْظَمَ كُتُبِهِ؟؟. استفهام فِيهِ مَعْنَىٰ التوبيخِ، لاعتراضِهِمْ على حِكْمَةِ اللهِ في عَطَاءَاتِهِ لِبَعْضِ عباده.

فقد آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام مِنْ فَرْعِ إِسْحَاقَ ويَعْقُوبَ عَلَيْهِما السَّلَام الكِتَابَ الشَّامِلَ للتَّوراةِ والزَّبُورِ والْإِنْجِيلِ، وآتَيْنَاهُمُ الْحِكْمَةَ وَهِيَ مَا أُوتِيَهُ أَنْبِيَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَيْهِم السَّلَام مِنْ عِلْم وَهِدَايَةٍ وَحَقَائِقَ زَائِدَةٍ عَلَىٰ مَا أَنْزَلَ فِي التَّوْرَاةِ والزَّبُورِ والإِنْجِيل، وآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً، وهُوَ مَا آتَىٰ اللهُ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَذُيولَ مُلْكِهِمَا مِنْ بَعْدِهِمَا.

فَمِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَنْ آمَنَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وبِمَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ، ومِنْهُمْ مَنْ

أَعْرَضَ عَنْهُ ونَأَىٰ، أَوْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ، كَافِراً حَسَداً وجُحُوداً، وهَؤُلَاءِ لَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ عَذَابٌ فِي جَهَنَّمَ، وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ نَاراً مُتَوَقِّدَةً شَدِيدَةَ اللَّهَبِ لِتَعْذِيبِ الْكَافِرِينَ دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ عُذْرٌ فِي كُفْرِهِمْ.

سابعاً: وَأَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمَرْتَبَةَ الرَّفِيعَةِ الَّتِي ارتَقَىٰ إلَيْهَا كُلٌّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ، وإِسْحَاقَ، ويَعْقُوبَ عَلَيْهِم السَّلَام، لِأَنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ هِيَ الْمَالِئَةَ دَواماً لِسَاحَةِ ذِكْرَاهُمْ وَتَصَوُّرَاتِهِمْ، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾.

ثامناً: وَذَكَّرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمُنَافِقِينَ والمنافِقَاتِ وَسَائِرَ الكُفَّارِ بالْعُقُوبَاتِ الَّتِي أَنْزَلَهَا بِكُفَّارِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ، ومِنْهُمْ قَوْمُ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَام، فَقَالَ تَعَالَىٰ فِي سُورَةِ (التَّوْبَة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾:

الْمُؤْتَفِكَات: أي: المنْقَلِبَات، وهِيَ قُرَىٰ قَوْمِ لُوط، الَّتِي جَعَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَالِيَهَا سَافِلَهَا.

تاسعاً: لَمَّا رَأَىٰ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ الرُّؤيَا وَهُوَ طِفْلٌ، وقَصَّهَا على أَبِيهِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَام؛ بَشَّرَهُ بِبُشْرَيَاتٍ، مِنْهَا: أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ سَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِ، كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وإِسْحَاقَ عَلَيْهِما السَّلَام مِنْ قَبْلُ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في سُورَةِ (يوسف/ ١٢ مصحف/ ٥٣ نزول):

﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ

نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾.

عَاشراً: وحِينَ قَامَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِنَشَاطٍ دَعَوِيٍّ إِلَىٰ دِينِ اللهِ الْحَقِّ، وَهُوَ فِي السِّجْنِ فِي مِصْرَ؛ قَالَ لِصَاحِبَيْهِ فِي السِّجْنِ:

﴿... إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾:

فَذَكَرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي دَعْوَتِهِ اسْمَ جَدِّهِ إبراهيم، وأَتْبَعَهُ بِجَدِّهِ إِسْحَاق، وأَبِيهِ يَعْقُوب عَلَيْهِم السَّلَام.

حادِيَ عشر: قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مُبَيِّناً أَنَّ مَا جَاءَ فِي سُورَة (الأعْلَىٰ/ ٨٧ مصحف/٨ نزول)، أَوْ بَعْضَ مَا جَاءَ فِيهَا مِمَّا يُدْرِكُ الْعَقْلُ أَنَّهُ مِمَّا تَشْتَرِكُ بِبيانِهِ الرِّسَالَاتُ الرَّبَّانِيَّةُ كُلُّها:

﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾.

ثاني عشر: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ الَّذِي أَقْبَلَ فَأَسْلَمَ إِسْلاماً ضَعِيفاً ثُمَّ تَرَاجَعَ بِمُؤَثِّرٍ يَسِيرٍ عَلَىٰ نَفْسِهِ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُتَمَكِّناً فِي مَوْقِفِهِ مِنَ الإِسْلَام، فَكَفَرَ:

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾.

❁ ❁ ❁

الباب الثاني
بعض مَا جَاءَ فِي السُّنَّةِ بِشَأْنِ إبراهيم عَلَيهِ السَّلَام

جاء في السُّنَّةِ النَّبويَّةِ ذِكْرُ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي عِدَّةِ أَحَادِيثَ وَرِوَايَاتٍ، اخْتَرْتُ مِنْهَا مَا يلي:

الحديث الأوَّل:

رَوَىٰ البخاريُّ ومُسْلم عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَّا ثَلَاثَ كَذِبَات، ثِنْتَيْنِ مِنْهُنَّ فِي ذَاتِ الله عَزَّ وَجَلَّ: قَولَهُ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾. وَقَوْلَهُ: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾. وَقَالَ: «بَيْنَا هُو ذَاتَ يَوْمٍ وَسَارَةُ، إِذْ أَتَىٰ عَلَىٰ جَبَّارٍ مِنَ الْجَبَابِرَة، فَقِيلَ لَهُ إِنَّ هَا هُنَا رَجُلاً مَعَهُ امْرَأَةٌ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَسَأَلَهُ عَنْهَا، فَقَالَ: مَنْ هَٰذِهِ؟. قَالَ: أُخْتِي، فَأَتَىٰ سَارَةَ فَقَالَ: يَا سَارَةُ لَيْسَ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ مُؤْمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرُكِ، وإِنَّ هَٰذَا سَأَلَنِي فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّكِ أُخْتِي، فَلَا تُكَذِّبِينِي، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا، فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ ذَهَبَ يَتَنَاوَلُهَا بِيَدِهِ فَأُخِذَ، فَقَالَ: ٱدْعِي اللهَ وَلَا أَضُرُّكِ، فَدَعَتِ الله فَأُطْلِقَ. ثُمَّ تَنَاوَلَهَا الثَّانِيَةَ فَأُخِذَ مِثْلَهَا أَوْ أَشَدَّ، فَقَالَ: ٱدْعِي اللهَ لِي وَلَا أَضُرُّكِ، فَدَعَتْ فَأُطْلِقَ، فَدَعَا بَعْضَ حَجَبَتِهِ فَقَال: إِنَّكُمْ لَمْ تَأْتُونِي بإِنْسَان، وَإِنَّمَا أَتَيْتُمُونِي بِشَيْطَانٍ، فَأَخْدَمَهَا هَاجَرَ، فَأَتَتْهُ وهُوَ يُصَلِّي، فَأَوْمَأَ بِيَدِهِ، مَهْيَا؟، قَالَتْ: رَدَّ اللهُ كَيْدَ الْكَافِرِ، أَوْ الْفَاجِرِ، فِي نَحْرِهِ، وَأَخْدَمَ هَاجَر».

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنهُ ـ: تِلْكَ أُمُّكُمْ يَا بَنِي مَاءِ السَّمَاءِ. (يُرِيد العربَ المستعربة).

وجاء في رِوَايةٍ لِلْبُخَارِيّ:

«... فَأُرْسِلَ بِهَا إِلَيْهِ، فَقَامَ إِلَيْهَا، فَقَامَتْ تَوَضَّأُ (أي: تَتَوَضَّأُ) وتُصَلِّي، فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ آمَنْتُ بِكَ وَبِرَسُولِكَ وَأَحْصَنْتُ فَرْجِي إِلَّا

عَلَىٰ زَوْجِي، فَلَا تُسَلِّطْ عَلَيَّ الْكَافِرَ، فَغُطَّ حَتَّىٰ رَكَضَ بِرِجْلِهِ[١].

قَالَتْ: اللَّهُمَّ إِنْ يَمُتْ يُقَالُ: هِيَ قَتَلَتْهُ، فَأُرْسِلَ، ثُمَّ قَامَ إِلَيْهَا، فَقَامَتْ تَوَضَّأُ وَتُصَلِّي، وَتَقُول: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ آمَنْتُ بِكَ وَبِرَسُولِكَ وأحْصَنْتُ فَرْجِي إِلَّا عَلَىٰ زَوْجِي، فَلَا تُسَلِّطْ عَلَيَّ هٰذَا الْكَافِرَ، فَغُطَّ حَتَّىٰ رَكَضَ بِرِجْلِهِ[١].

فقالَت: اللَّهُمَّ إِنْ يَمُتْ فَيُقَالُ: هِيَ قَتَلَتْهُ، فَأُرْسِلَ فِي الثَّانِيَةِ أَوْ فِي الثَّالِثَة.

فَقَالَ: وَاللهِ مَا أَرْسَلْتُمْ إِلَيَّ إِلَّا شَيْطَاناً، أَرْجِعُوهَا إِلى إِبْرَاهِيمَ وَأَعْطُوهَا آجَرَ (أي: هَاجَرَ).

فَرَجَعَتْ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَتْ: أَشَعَرْتَ أَنّ اللهَ كَبَتَ الْكَافِرَ وأَخْدَمَ وَلِيدَةً»[٢].

الحديث الثاني:

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رَضِي اللهُ عَنْهُ قال: قَالَ رَسُولَ الله ﷺ:

«اخْتَتَنَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ ابْنُ ثَمَانِينَ سَنَةً بالْقَدُّومِ».

وفي رِوايَةٍ: «بالْقَدُومِ»، أيْ: بآلَةِ «القَدُّومِ»، المعروفة عنْد النَّجَّارِين.

الحديث الثالث:

روى البخاريُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا قَالَ:

---

(١) أي: صَارَ يُصَوِّتُ ويُرَدِّدُ النَّفَس فِي خَيَاشِيمِهِ كالمخْنُوق، وصَارَ يَضْرِبُ بِرِجْلِهِ مَا هُوَ قَرِيبٌ مِنها، بِحَرَكَاتٍ غَيْرِ إرَادِيَّة.

(٢) كَبَتَ الكافر: أي: غاظَهُ وأذلَّهُ وأخزاه. والوَلِيدَة: الأمَة، أي: وأعطاني أمَةً تَخْدُمُني.

«أَوَّلُ مَا اتَّخَذَ النِّسَاءُ المِنْطَقَ[١] مِنْ قِبَلِ أُمّ إسْمَاعِيلَ اتَّخَذَتْ مِنْطَقاً لِتُعَفِّي أَثَرَهَا عَلَىٰ سَارَةَ.

ثُمَّ جَاءَ بِهَا إبْرَاهِيمُ وَبابْنِهَا إسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُرْضِعُهُ، حَتَّىٰ وَضَعَهَا عِنْدَ الْبَيْتِ، عِنْدَ دَوْحَةٍ[٢] فَوْقَ زَمْزَمَ في أعْلَىٰ الْمَسْجِدِ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ، وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ، فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِراباً مِنْ تَمْرٍ، وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ، ثُمَّ قَفَّىٰ إبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقاً، فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إسْمَاعِيلَ، فَقَالَتْ: يَا إبْرَاهِيمُ، أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهٰذَا الْوَادِي، الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إنْسٌ وَلَا شَيْءٌ، فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِراراً، وجَعَلَ لَا يَلْتَفِتُ إلَيْهَا.

فَقَالَتْ لَهُ: آللهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهٰذَا؟. قَالَ: نَعَمْ. قَالَتْ: إذَنْ لَا يُضَيِّعُنَا، ثُمَّ رَجَعَتْ.

فَانْطَلَقَ حَتَّىٰ إذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ[٣] حَيْثُ لَا يَرَوْنَهُ، اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ الْبَيْتَ، ثُمَّ دَعَا بِهَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ:

﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ من سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف).

وجَعَلَتْ أُمُّ إسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إسْمَاعِيلَ وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ الماء، حَتَّىٰ إذَا نَفِدَ مَا فِي السِّقَاء عَطِشَتْ وَعَطِشَ ابْنُهَا، وجَعَلَتْ تَنْظُرُ إلَيْهِ يَتَلَوَّىٰ، أو قال يَتَلَبَّطُ[٤]، فانْطَلَقَتْ كَرَاهِيَةَ أَنْ تَنْظُرَ إلَيْهِ، فَوَجَدَتِ الصَّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ مِنَ الْأَرْضِ يَلِيهَا، فَقَامَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَتِ الوادِيَ تَنْظُرُ، هَلْ تَرَىٰ

---

(١) **المِنْطَقُ**: مَا يُشَدُّ به الْوَسَطُ، ويَظْهَرُ أَنَّهَا كَانَتْ تُعَلِّقُ عَلَيْهِ قُمَاشاً طَوِيلاً يَجُرُّ وَرَاءَهَا عَلَىٰ الأَرْضِ، فَيُعَفِّي أَثَرَ خَطْوِهَا عَلَىٰ سَارَة.

(٢) **الدَّوْحَة**: الشَّجَرَةُ الكبيرة.

(٣) **الثَّنِيَّةُ**: الطَّرِيقُ فِي الجَبَل.

(٤) **يَتَلَبَّطُ**: أي: يَضطَرِبُ على الأرضِ مِنْ شِدَّةِ ظَمَئِهِ.

أَحداً، فَلَمْ تَرَ أحداً، فَهَبَطَتْ مِنَ الصَّفَا، حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَتِ الْوَادِيَ رَفَعَتْ طَرَفَ دِرْعِهَا[١]، ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ الإنْسَانِ الْمَجْهُودِ، حَتَّىٰ جَاوَزَتِ الْوَادِيَ، ثُمَّ أَتَتِ الْمَرْوَةَ، فَقَامَتْ عَلَيْهَا وَنَظَرَتْ هَلْ تَرَىٰ أَحداً، فَلَمْ تَرَ أَحَداً، فَفَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَذَلِكَ سَعْيُ النَّاسِ بَيْنَهُمَا».

فَلَمَّا أَشْرَفَتْ عَلَىٰ الْمَرْوَةِ سَمِعَتْ صَوْتاً، فَقَالَتْ: صَهٍ (تُرِيدُ نَفْسَها). ثُمَّ تَسَمَّعَتْ، فَسَمِعَتْ أَيْضاً، فَقَالَتْ: قَدْ أَسْمَعْتَ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ غَوَاثٌ، (أي: مَا تُغِيثُنَا به).

فإِذَا هِيَ بالملَكِ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَم، فَبَحَثَ بِعَقِبِهِ، أو قَالَ بِجَنَاحِهِ، حَتَّىٰ ظَهَرَ الْمَاءُ، فَجَعَلَتْ تُحَوِّضُهُ، وَتَقُولُ بِيَدِهَا هَكَذَا، وَجَعَلَتْ تَغْرِفُ مِنَ الْمَاءِ فِي سِقَائِهَا، وهُوَ يَفُورُ بَعْدَمَا تَغْرِف.

قال ابْنُ عباس - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: قَالَ النبيُّ ﷺ:

«يَرْحَمُ اللهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ، لَوْ تَرَكَتْ زَمْزَمَ، أو قال: لَوْ لَمْ تَغْرِفْ مِنَ الْمَاءِ، لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْناً مَعِيناً»[٢].

قال: فَشَرِبَتْ، وَأَرْضَعَتْ وَلَدَهَا، فَقالَ لَهَا الْمَلَكُ، لا تَخَافُوا الضَّيْعَةَ، فَإِنَّ هَا هُنَا بَيْتَ اللهِ يَبْنِي هَـٰذَا الْغُلَامُ وَأَبُوهُ، وإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَهْلَهُ.

وَكَانَ الْبَيْتُ مُرْتَفِعاً مِنَ الأَرْضِ كالرَّابِيَةِ، تَأْتِيهِ السُّيُولُ، فَتَأْخُذُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ.

فَكَانَتْ كَذَلِكَ حَتَّىٰ مَرَّتْ بِهِمْ رُفْقَةٌ مِنْ جُرْهُمْ، أو أَهْلُ بَيْتٍ مِنْ

(١) الدِّرْع: قَمِيصُ المرْأَة، أَوْ ثَوْبُهَا.
(٢) أي: لكانَتْ زَمْزَمُ عَيْنَ مَاءٍ جارٍ عَلَىٰ وجْهِ الأرْض.

جُرْهُمْ، مُقْبِلِينَ مِنْ طَرِيقِ كَدَاءٍ، فَنَزَلُوا فِي أَسْفَلِ مَكَّة، فَرَأوا طَيْراً عَائفاً[(١)]، فَقَالُوا: إِنَّ هٰذَا الطَّائِرَ لَيَدُورُ عَلَىٰ مَاءٍ، لَعَهْدُنَا بِهٰذَا الْوَادِي وَمَا فِيهِ مَاءٌ، فَأَرْسَلُوا جَرِيًّا أَوْ جَرِيَّيْنِ[(٢)]، فإِذَا هُمْ بالْمَاءِ، فَرَجَعُوا فَأَخْبَرُوهُمْ بالْمَاءِ فَأَقْبَلُوا.

قال: وأُمُّ إسْمَاعِيلَ عِنْدَ الماء، فقَالُوا: أَتَأْذَنِينَ لَنَا أَنْ نَنْزِلَ عِنْدَكِ؟.

فَقَالَتْ: نَعَمْ، ولَكِنْ لَا حَقَّ لَكُمْ في الماء. قَالُوا: نَعَم.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

«فَأَلْفَىٰ ذَلِكَ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُحِبُّ الْأُنْسَ».

فَنَزَلُوا وَأَرْسَلُوا إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ فَنَزَلُوا مَعَهُمْ، حَتَّىٰ إِذَا كَانَ بِهَا أَهْلُ أَبْيَاتٍ مِنْهُمْ، وَشَبَّ الْغُلَامُ وَتَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ مِنْهُمْ، وَأَنْفَسَهُمْ[(٣)] وأَعْجَبَهُمْ حِينَ شَبَّ، فَلَمَّا أَدْرَكَ زَوَّجُوهُ امْرَأَةً مِنْهُمْ، وَمَاتَتْ أُمُّ إسْمَاعِيلَ.

فَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ بَعْدَمَا تَزَوَّجَ إسْمَاعِيلُ يُطَالِعُ تَرِكَتَهُ، فَلَمْ يَجِدْ إسْمَاعِيلَ، فَسَأَلَ امْرَأَتَهُ عَنْهُ، فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا، ثُمَّ سَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ، فَقَالَتْ: نَحْنُ بَشَرٌ، نَحْنُ فِي ضِيقٍ وَشِدَّةٍ، فَشَكَتْ إِلَيْهِ. قَالَ: فإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ، فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلَامَ، وقُولِي لَهُ يُغَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِهِ.

فَلَمَّا جَاءَ إسْمَاعِيلُ كَأَنَّهُ آنَسَ شيئاً، فَقَالَ: هَلْ جَاءَكُمْ مِنْ أَحدٍ؟. قَالَتْ: نعم، جاءَنَا شَيْخٌ كَذَا وَكَذَا، فَسَأَلَنَا عَنْكَ، فَأَخْبَرْتُهُ، وسَأَلَنِي: كَيْفَ عَيْشُنَا، فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا فِي جَهْدٍ وَشِدَّةٍ، قَالَ: فَهَلْ أَوْصَاكِ بِشَيْءٍ؟. قَالَتْ: نَعَمْ، أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ السَّلَامَ، ويَقُولُ: غَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِكَ. قَالَ: ذَاكَ

---

(١) **الطير العائف**: هُو الَّذِي يَحُومُ حَوْلَ الْمَاء.

(٢) **جَرِيًّا أو جَرِيَّيْنِ**: أي: رَسُولاً أو رسُولَيْن.

(٣) **وأَنْفَسَهُمْ**: أي: وَصَارَ أَكْثَرَهُمْ نَفَاسَةً واعْظَمَهُمْ قَدْراً.

أَبِي، وَقَدْ أَمَرَنِي أَنْ أُفَارِقَكِ، الْحَقِي بِأَهْلِكِ، فَطَلَّقَهَا، وَتَزَوَّجَ مِنْهُمْ أُخْرَىٰ.

فَلَبِثَ عَنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ أَتَاهُمْ بَعْدُ، فَلَمْ يَجِدْهُ، فَدَخَلَ عَلَىٰ امْرَأَتِهِ، فَسَأَلَهَا عَنْهُ، فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا. قَالَ: كَيْفَ أَنْتُمْ؟، وسَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ. فَقَالَتْ: نَحْنُ بِخَيْرٍ وَسَعَةٍ، وَأَثْنَتْ عَلَىٰ اللهِ. فَقَالَ: مَا طَعَامُكُمْ؟، قَالَتِ: اللَّحم. قَالَ: فَمَا شَرَابُكُمْ؟، قَالَتِ: الْمَاءُ. قَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ في اللَّحْمِ والماء.

قَالَ النبيُّ ﷺ:

«وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ حَبٌّ، وَلَوْ كَانَ لَهُمْ دَعَا لَهُمْ فِيهِ».

قال: فَهُمَا لَا يَخْلُو عَلَيْهِمَا أَحَدٌ بِغَيْرِ مَكَّةَ إِلَّا لَمْ يُوَافِقَاهُ.

قَالَ: فإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلَامَ، ومُرِيهِ يُثْبِتُ عَتَبَةَ بَابِهِ.

فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ قَالَ: هَلْ أَتَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟. قَالَتْ: نَعَمْ، أَتَانَا شَيْخٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ، وأَثْنَتْ عَلَيْهِ، فَسَأَلَنِي عَنْكَ، فَأَخْبَرْتُهُ، فَسَأَلَنِي: كَيْفَ عَيْشُنَا، فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا بِخَيْرٍ. قَالَ: فَأَوْصَاكِ بِشَيْءٍ؟، قَالَتْ: نَعَمْ، هُوَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامُ، وَيَأْمُرُكَ أَنْ تُثَبِّتَ عَتَبَةَ بَابِكَ. قَالَ: ذَاكَ أَبِي، وَأَنْتِ الْعَتَبَةُ، أَمَرَنِي أَنْ أُمْسِكَكِ.

ثُمَّ لَبِثَ عَنْهُمْ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ، وإِسْمَاعِيلُ يَبْرِي نَبْلاً لَهُ تَحت دَوْحَةٍ قَرِيباً مِنْ زَمْزَم، فَلَمَّا رآهُ قَامَ إِلَيْهِ، فَصَنَعَا كَمَا يَصْنَعُ الْوَالِدُ بالْوَلَدِ، والْوَلَدُ بالوالِدِ.

ثُمَّ قَالَ: يَا إِسْمَاعِيلُ، إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ، قَالَ: فَاصْنَعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ. قَالَ: وَتُعِينُنِي؟، قَالَ: وأُعِينُكَ. قَالَ: فَإِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِي هَا

هُنَا بَيْتاً، وأشارَ إِلَىٰ أكَمَةٍ[١] مُرْتَفِعَةٍ عَلَىٰ مَا حَوْلَهَا.

قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْت، فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بالْحِجَارَة، وإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي، حَتَّىٰ إِذَا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ، جَاءَ بِهَٰذَا الْحَجَرِ فَوَضَعَهُ لَهُ، فَقَامَ عَلَيْهِ، وَهُوَ يَبْنِي، وإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَة، وهُمَا يَقُولَانِ: ﴿... رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾[٢].

قَالَ: فَجَعَلَا يَبْنِيَانِ حَتَّىٰ يَدُورَا حَوْلَ الْبَيْتِ وهُمَا يَقُولَانِ:

﴿... رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾.

الحديث الرابع:

رَوى مُسْلِمٌ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا خَيْرَ الْبَرِيَّة. فَقَالَ رسُول الله ﷺ: «ذَاكَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ».

الحديث الخامس:

روى البخاري عن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِي اللهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿... كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾[٣]. وأَوَّلُ مَنْ يُكْسَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيم، وَإِنَّ أُنَاساً مِنْ أَصْحَابِي يُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ، فَأَقُولُ: أَصْحَابِي أَصْحَابِي، فَيَقُولُ: إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَىٰ أعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ، فَأَقُولُ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ[٤]: ﴿... وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾.

---

(١) **الأَكَمَة**: تَلَّةٌ مُرْتَفِعَة.

(٢) (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول).

(٣) (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول).

(٤) وهو عيسى عليه السلام (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول).

الحديث السادس:

رَوَىٰ البخاري عن ابن عباسٍ رضي اللهُ عَنْهما قَالَ: «كَانَ آخِرَ قَوْلِ إبْرَاهِيم حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّار: حَسْبِيَ اللهُ ونِعْمَ الْوَكِيلُ».

الحديث السّابع:

روى الإمام أحمدُ في مُسْنَدِه عَن ابْنِ عبَّاسٍ رضي اللهُ عَنْهُمَا، أنْ رسُول الله ﷺ قَالَ:

«إنَّ جِبْرِيلَ ذَهَبَ بِإبْرَاهِيمَ إلَىٰ جَمْرَةِ الْعَقَبَةِ، فَعَرَضَ لَهُ الشَّيْطَانُ، فَرَمَاهُ بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ فَسَاخَ، ثُمَّ أَتَىٰ الْجَمْرَةَ الْوُسْطَىٰ، فَعَرَضَ لَهُ الشَّيْطَانُ، فَرَمَاهُ بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ فَسَاخ، ثُمَّ أَتَىٰ الْجَمْرَة الْقُصْوَىٰ، فَعَرَضَ لَهُ الشَّيْطَانُ، فَرَمَاهُ بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ فَسَاخ».

الحديث الثامن:

روى البخاريُّ عَنْ أبي هريرة رضي اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِي ﷺ، قَالَ:

«يَلْقَىٰ إبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَعَلَىٰ وَجْهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وغَبَرَةٌ، فَيَقُولُ لَهُ إبْرَاهِيمُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لَا تَعْصِنِي، فَيَقُولُ أَبُوهُ: فَالْيَوْمَ لَا أَعْصِيكَ، فَيَقُولُ إبْرَاهِيمُ: يَا رَبِّ إنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لَا تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَىٰ مِنْ أَبِي الأَبْعَدِ، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: إنِّي حَرَّمْتُ الْجَنَّةَ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ.

ثُمَّ يُقَالُ: يَا إبْرَاهِيمُ، مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ؟، فَيَنْظُرُ، فإذا هُوَ بِذِيخٍ مُلْتَطِخٍ، فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَىٰ فِي النَّارِ».

أي: فإذا بِأَبِيهِ قَدْ مُسِخَ فَصَارَ عَلَىٰ صُورَةِ ذَكَرِ ضَبُعٍ مُلْتَطِخٍ بالنجاسَةِ والْقَذارة.

الحديث التاسع:

روى مسلم عن جُنْدُبٍ رَضي اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ النّبِيَّ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ وَهُوَ يَقُول:

«إِنِّي أَبْرَأ إلى اللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ، فإنَّ اللهَ قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلاً، كَمَا اتَّخَذَ إبراهيمَ خَلِيلاً، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً مِنْ أُمَّتِي خَلِيلاً لاَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً».



سُورَة الأنبياء

٢١ مصحف ٧٣ نزول

وهي سورة مَكّيّة



(١)

نص السُّورة وما فيها مِنْ فَرْشِ القراءات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ

---

٢ - ● قرأ ورش، والسُّوسي، وأبو جَعْفر: [مَا يَاتِيهِمْ]، وكذلك قرأها حَمْزَة فِي الوقف.
وقرأها يَعْقُوب: [مَا يَأْتِيهُمْ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [مَا يَأْتِيهِمْ].

٣ - ● قرأ ورش، والسُّوسي، وأبو جعفر: [أَفَتَاتُونَ]، وكذلك قرأها حَمْزَةُ في الوقف.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [أَفَتَأْتُونَ].

٤ - ● قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: [قَالَ رَبِّي].
وقرأها باقي القراء العشرة: [قُلْ رَبِّي].

٥ - ● قرأ ورش، والسّوسي، وأبو جعفر: [فَلْيَاتِنَا]، وكذلك قرأها حمْزَة في الوقف. وقرأها باقي القراء العشرة: [فَلْيَأْتِنَا].

أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ

٧ ـ • قرأ حفص: [نُوحِي إِلَيْهِمْ].
وقرأها حمزة، ويَعْقُوبُ: [يُوحَىٰ إِلَيْهُمْ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [يُوحَىٰ إِلَيْهِمْ].

٧ ـ • قرأ ٱبْن كثير، والكِسَائي، وخلَف: [فَسَلُوا].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [فَاسْأَلُوا].

١٢ ـ • قرأ السوسي، وأبو جعفر: [بَاسَنَا]، وكذَلِكَ قَرَأَهَا حمزة في الوقف.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [بَأْسَنَا].

عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِىۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى

٢٤ ـ • قرأ حفص: [مَنْ مَعِيَ] بفتح ياء المتكلّم.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بإسْكَانِ ياء المتكلّم.

٢٥ ـ • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: [نُوحِي إِلَيْهِ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [يُوحَىٰ إِلَيْهِ].

٢٥ ـ • قرأ يعقوب: [فَاعْبُدُونِي] بإثبات ياء المتكلم، وصلاً ووقفاً.
وقرأها باقي القراء العشرة: [فَاعْبُدُوْنِ] بحذف ياء المتكلم.

٢٨ ـ • قرأ يعقوب: [أَيْدِيهُمْ] بضمّ هاء الضمير.
وقرأها بَاقِي القراء العَشَرَةِ: [أَيْدِيهِمْ] بِكَسْرِ هَاءِ الضَّمِيرِ.

٢٩ ـ • قرأ نافع، وأَبُو عَمْرو، وأبو جعفر: [إِنِّيَ إِلَهٌ] بفَتْحِ يَاءِ المتكلّم.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بإسْكان ياء المتكلم.

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ

٣٠ ـ • قرأ ٱبْن كثير: [أَلَمْ يَرَ] بدون الواو العاطفة بَعْدَ همزَة الاستفهام.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [أَوَ لَمْ يَرَ] بإثبات الواو العاطفة.

٣٠ ـ • قرأ ورش، والسُّوسي، وأبو جَعْفر: [يُومِنُون]، وكذلك قرأها حمزة في الوقف. وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [يُؤْمِنُونَ].

٣٤ ـ • قرأ ابن كثير، وأبو عمْرو، وابْنُ عَامِر، وشعبَة، وأبو جعفر، ويعقوب: [مُتَّ] بضمّ الميم، وهو لغة.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [مِتَّ] بِكَسر الميم، وهو لغة.

٣٥ ـ • قرأ يعقوب: [تَرْجِعُوْنَ] بالمبني للمعلوم.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [تُرْجَعُوْنَ].
أي: يُرْجعكُمُ اللهُ إلى الحياة فَأَنْتُمْ تَرْجِعُون بالجبر.

٣٦ ـ • قرأ حفص: [إِلَّا هُزُواً].
وقرأها حمزة، وخلف: [إِلَّا هُزْءاً].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [إِلَّا هُزُءاً].

كَـٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَـٰنِۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَـٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُۗ أَفَلَا يَرَوْنَ

٣٧ ـ • قرأ يعقوب: [فَلَا تَسْتَعْجِلُونِي] بإثبات ياء المتكلم في الوصل والوقف.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ] بحذف ياء المتكلم.

٣٩ ـ • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [عَنْ وُجُوهِهُمُ النَّار] بضم هاء الضمير.
وقرأها أبو عمرو، ويعقوب: [عَنْ وُجُوهِهِمِ النَّارَ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ] بِكَسْر هاء الضمير.
وهذا كلّه عند الوصل، وأما عند الوقف فالجميع على كَسْرِ الهاء وإسْكان الميم.

٤١ ـ • قرأ أَبو عَمْرو، وعَاصم، وحمزة، ويعقوب: [وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ]. بكسر دال «لقد».
وقرأها أبو جعفر وَصْلاً: [وَلَقَدُ اسْتُهْزِيَ]، ووقف بإسكان الياء.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [وَلَقَدُ اسْتُهْزِئَ] بضم دال «لقد».
ووقف حمزة وهشام بإبدال الهمزة يَاءً ساكنَةً.

٤٤ ـ • قرأ أبو عمرو: [عَلَيْهِمِ الْعُمُرُ] بكسر الميم من «عليهم» وكسر الهاء.
وقرأها حمزة، والكِسَائي، ويعقوبُ، وخلف: [عَلَيْهُمُ الْعُمُرُ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ] بكسر الهاء وضم الميم من «عليهم». وهذا كله عند الوصْل، وأمّا عند الوقف: فحمزة ويعقوب بضم الهاء وإسكان الميم، ووقف الباقون بكسر الهاء وإسكان الميم.

أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾

---

٤٥ ـ • قرأ ابن عامر: [وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ].

٤٧ ـ • قرأ نافع، وأبو جعفر: [مِثْقَالُ] بالرفع.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [مِثْقَالَ] بالنَّصب.

٤٨ ـ • قرأ قُنْبُل: [وَضِئَاءً].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [وَضِيَاءً].

فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا

٥٨ ـ • قرأ الكسائي: [جِذَاذاً].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [جُذَاذاً] وهما لغتان.

٦٣ ـ • قرأ ابْنُ كثير، والكِسَائي، وخلف: [فَسَلُوهُمْ]. وكذٰلك قرأها حمزة في الوقف.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [فَاسْأَلُوهُمْ].

٦٧ ـ • قرأ نَافع، وحفص، وأبو جعفر: [أُفٍّ].
وقرأها ابْنُ كثير، وابْنُ عَامر، ويعقوب: [أُفَّ].
وقَرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [أُفِّ].

صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً

٧٣ - • قرأ يعقوب، وحمزة: [إِلَيْهُمْ] بضمّ الهاء.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [إِلَيْهِمْ] بِكَسْرِ الهاء.

٨٠ - • قرأ ابْن عامر، وحفص، وأبو جعفر: [لِتُحْصِنَكُمْ].
وقرأها شعبة، ورُويس: [لِنُحْصِنَكُمْ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [لِيُحْصِنَكُمْ].

٨٠ - • قرأ السّوسي، وأبُو جَعْفر: [بَاسِكُمْ]. وكذلِكَ قرأها حمزة في الْوَقْف.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [بَأْسِكُمْ].

٨١ - • قرأ أبُو جَعْفَر: [الرِّيَاحَ] بالجمع، للدّلَالة على الأنواع.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [الرِّيحَ] بالإفراد، على أنّه اسم جنس، وهُوَ يَشْمَلُ أنواع الرّياح.

تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِي رَحْمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي

٨٣ ـ • قرأ حمزة: [مَسَّنِيْ الضُّرُّ] بإسكان ياء المتكلِّم.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [مَسَّنِيَ الضُّرُّ] بفَتحِ ياء المتكلّم.

٨٧ ـ • قرأ يَعْقُوب: [يُقْدَرَ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [نَقْدِرَ].

٨٨ ـ • قرأ ابن عامر، وشعبة: [نُجِّي المؤمنين].
وقرأ بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [نُنْجِي المؤمنِينَ].

٨٩ ـ • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: [وَزَكَرِيَّا إِذْ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [وَزَكَرِيَّاءَ إِذْ]، وسَهَّل الهمزة الثانية نافع، وابنُ كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، ورُوَيس.
وقرأها بالتحقيق: ابْنُ عَامر، وشُعْبَة، وَرَوْح.

فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ

٩٢ ـ • قرأ يعقوب: [فَاعْبُدُونِي] بإثبات ياء المتكلّم، وصلاً ووقفاً.
وَقرَأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [فَاعْبُدُونِ] بحذفِ ياء المتكلّم.

٩٥ ـ • قرأ شُعْبَة، وحمزة، وخلف، [وَحِرْمٌ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [وَحَرَامٌ].

٩٦ ـ • قرأ ابن عامر، وأبو جعفر، ويعقوب: [فُتِّحَتْ] بتشديدِ التاء.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [فُتِحَتْ].

٩٦ ـ • قرأ عاصِمٌ: [يَأْجُوجُ ومَأْجُوجُ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [يَاجُوجُ وَمَاجُوجُ].

هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥۚ وَعْدًا عَلَيْنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً

---

١٠٣ ـ • قرأ أبو جعفر: [لَا يُحْزِنُهُمُ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [لَا يَحْزُنُهُمُ].
١٠٤ ـ • قرأ أبو جعفر: [تُطْوَىٰ السَّمَاءُ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [نَطْوِي السَّمَاءَ].
١٠٤ ـ • قرأ حفص، وحمزة، والكِسائي، وخلف: [لِلْكُتُبِ] بالجمع.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [لِلْكِتَابِ] بالإفراد.
والمؤدَّىٰ واحد.
١٠٤ ـ • قرأ السُّوسي، وأبو جعفر، والأصبهاني عن وَرْش: [بَدَانا] وصلاً ووقفاً.
وكذلِكَ قرأها حمزة في الوقف.
وقرأها باقِي الْقُرَّاء العَشَرَةِ: [بَدَأْنَا].
١٠٥ ـ • قرأ حمزة، وخلف: [في الزُّبُور].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [في الزَّبُورِ].
١٠٥ ـ • قرأ حمزة وَصْلاً: [عِبَادِيْ الصَّالِحُونَ] بإسْكان ياء المتكلم.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بفتح ياء المتكلم.

لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

١١٢ ـ • قرأ حفص: [قَالَ رَبِّ احْكُمْ].
وقرأها أبو جعفر: [قُلْ رَبُّ احْكُمْ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [قُلْ رَبِّ احْكُمْ].
١١٢ ـ • قرأ ابن ذكوان بخلف عنه: [يَصِفُونَ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [تَصِفُونَ].

(٢)
مما وَرَدَ في السنة بشأن سورة (الأنبياء)

روى البخاريُّ وغَيْرُهُ عَنْ عبد الله بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عنهُ قَال:
«بنو إسْرائيل (أي: الإسراء)، والكهفُ، ومَرْيمُ، وطه، والأنْبِيَاءُ، هُنَّ مِنَ الْعِتَاقِ الأُوَلِ، وهُنَّ مِنْ تِلَادِي».

مِنَ الْعِتَاقِ الأُوَل: أي: من الكرام الأول.

التِّلَاد: المالُ الأصْلِيُّ الْقَدِيم، والمراد من عبارة «مِنْ تِلَادِي»: مِنْ نَفِيسِي الْقَدِيمِ الَّذِي أمْتَلِكُهُ.

(٣)
موضوع سورة (الأنبِيَاء)

يَدُور مَوْضُوعُ هَـٰذِهِ السُّورَة حَوْلَ بَيَانِ واقِع حَالِ كُفَّارِ مَكَّة ومَنْ

حَوْلَهَا إِبَّانَ التَّنْزِيل، بِشَأْنِ القرآن، والرَّسُول ﷺ، والْيَوْمِ الآخِرِ وجزائِهِ الْأكبر، وبِشَأْنِ الجزاء المعَجَّل الْمَوْعُودِ به.

ويَدُورُ حَوْلَ مُعَالَجَتِهِمْ بِمُخْتَلِفِ وَسَائِلِ الْعِلَاجِ التَّرْبَوي، القائم عَلَىٰ البيان المقرون بالْحُجَّةِ والبرهان، والإقناعِ العقْلِيّ بالحقّ، والترغيب والترهيب، والحِوار الْجِدَالِيّ بالَّتِي هِي أَحْسَنُ، ومَطالَبَةِ الْكَافِرِينَ المكَذِّبِينَ بِمَا جَاءَ في رِسَالَةِ الرَّسُولِ ﷺ بِتَقْدِيم بُرْهَانِهِمْ، إذا كان لَدَيهم بُرْهَانٌ يَدُلُّ على صِحَّة مَا يَعْتَقِدُونَ.

ويَدُورُ حَوْلَ التعريف بحَقَائِقَ فِكْرِيَّةٍ عِلْمِيَّةٍ هي مِنْ مَفْهُومَاتِ الدِّينِ، وتقديم حقائق كَوْنِيَّةٍ تَدُلُّ عَلَىٰ أن القرآن حَقٌّ، وظَواهِرَ كونية تَشْهَدُ بأَنْ هٰذَا الدينَ حَقٌّ.

وفي السورة عَرْضُ لمحَاتٍ مُوجَزَاتٍ عن طَائِفَة من المرسلين عَلَيْهِم السَّلام، تُبيِّنُ أَنَّهُمْ قَدْ حَمَلُوا رِسَالَةً ربَّانِيَّةً، ذَاتَ أُصُولٍ وقواعِدَ كليَّةٍ واحِدَةٍ، وأنَّ أمَّتَهُمْ أُمَّةٌ واحِدَةٌ.

(٤)
دروس سورة (الأنبياء)

ظهر لي إمْكانُ تَقْسِيم هَـٰذِهِ السُّورَةِ إِلَىٰ (٢٤) دَرْساً.

الدرس الأول: الآيات من (١ ـ ٩).

وفي آيات هـٰذَا الدّرس إنْذَارٌ لِأَئِمَةِ كُفَّارِ مَكَّةَ وَمَا حَوْلَهَا، بِأَنَّهُ قَدِ اقْتَرَبَ حِسَابُهُمْ وَعِقَابُهُمْ، وهم غَافِلُونَ لاعِبُونَ، لَاهُونَ، دُعَاة للتَّنْفِيرِ مِن الاستجابةِ لِدَعْوَةِ الرَّسُولِ محمَّدٍ ﷺ، بِمُخْتَلِفِ الْوَسَائِلِ الدِّعَائِيَّةِ الإغْرَائِيَّة الإيهامِيَّةِ الزُّخْرُفِيّة.

وَفِيهَا تَوصِيَة الرَّسُولِ ﷺ بأَنْ يَقُولَ لَهُمْ: رَبِّي يَعْلَمُ مَا تَقُولُونَ،

وَسَيُجَازِيكُمْ عَلَيْهِ عِقَاباً شَدِيداً لافترائِكُمْ عَلى الحق الَّذِي بَعَثَ الله بِهِ رَسُولَهُ ﷺ.

وفيها بيانٌ رَبَّانِيٌّ عَنْ حَالَتِهِمُ الَّتِي بَلَغُوا بِها الدَّرَكَةَ الْمَيْؤُوسَ من إصْلاحِهِمْ مَعَهَا عن طَرِيقِ إرَادَاتِهِمْ الحرَّة. وبيان عَنْ كَوْنِ الرَّسُولِ مُحمَّدٍ ﷺ مِثْلَ الرُّسُلِ مِنْ قَبْلِهِ في الْوَحْيِ إلَيْهِ، وفي بَشَرِيَّته، وَكَيْفَ نَصَرَ اللهُ رُسُلَهُ عَلَيْهِم السَّلَام وأَهْلَكَ الكَفَرَةَ الْمُسْرِفِين في كُفْرِهِمْ وعِنَادِهم.

الدَّرس الثاني: الآيات من (١٠ ـ ١٥).

وَفِي آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ خِطَابٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلْكَافِرِينَ بأَنَّهُ أَنْزَلَ إلَيْهِمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُهُم، مَعَ حَثِّهِمْ عَلَىٰ أَنْ يَعْقِلُوا.

وفيها إنْذَارٌ لَهُمْ بإهْلَاكِهِمْ إِذَا أَصَرُّوا عَلَىٰ مَا هُمْ فِيهِ، كَمَا فَعَلَ رَبُّهُمْ بِكُفَّارِ الْقُرُونِ السَّابِقَة.

الدرس الثالث: الآيَات من (١٦ ـ ٢٤).

وفي آيات هٰذَا الدَّرْس بَيَانٌ مَقْرُونٌ بِحُجَّةٍ عَقْلِيَّةٍ؛ بأَنَّ خَلْقَ السَّمَاءِ والْأَرْضِ لَيْسَ لَعِباً ولَا لَهْواً، بَلْ هُوَ لِغَايَةٍ حَكِيمَةٍ، هِيَ امْتِحَانُ النَّاسِ فِي ظُرُوفِ الحَياةِ الدُّنْيَا، وهٰذَا الامْتِحَانُ يَسْتَتْبِعُ الجَزَاء الْأَكْبَرَ يوم الدين.

وفيها مُنَاقَشَةُ المشركين في شِرْكِيَّاتِهِمْ، وَمَا يَفْتَرُونَهُ مِنْ بَاطل على اللهِ بَارِئهم، والمهيمن عليهم دواماً بِصِفَاتِ رُبُوبيته.

وفيها تَعْلِيمُ الرَّسُولِ ﷺ وكُلَّ دَاعٍ إلى اللهِ من أُمَّتِهِ أَنْ يُطَالِبَهُمْ بِبُرْهَانِهِمْ عَلَىٰ مَا يَفْتَرُونَ مِنْ شِرْكِيَّاتٍ، مِنْ دَلِيلٍ عَقْلِي أَوْ دَلِيلٍ نَقْلِيّ عَنْ رَسُولٍ مِنْ رُسُلِ اللهِ السَّابِقين.

الدَّرْس الرابع: الآيات من (٢٥ ـ ٢٩).

وفي آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ خِطابٌ من اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُوله ﷺ بأَنَّ

وَحْيَ اللهِ إِلَيْهِ نظير وَحْيِهِ إلى الرُّسُلِ مِنْ قَبْلِهِ، لإِسْمَاعِ المكَذِّبين هَـٰذِهِ الحقيقة دُونَ مُخَاطَبَتِهِمْ بها.

وفيها عَرْضُ قَوْلِ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ الله اتَّخَذَ وَلَداً، افْتِرَاءً عَلَىٰ اللهِ، وذٰلك بادِّعائِهم أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللهِ، مَعَ بَيَانِ واقع حَالِ الملائِكَةِ عَلَيْهِم السَّلَام.

الدَّرس الخامس: الآيات من (٣٠ ـ ٣٣).

وفِي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ ذِكْرُ حقيقةٍ عِلْمِيَّةٍ كَوْنِيَّةٍ كبرىٰ، هَلْ تَوصَّلَ عُلَمَاءُ الكَوْنِيَّاتِ إلى مَعْرِفَتِهَا، أَمْ لَمْ يَتَوَصَّلُوا إِلَىٰ مَعْرِفَتِهَا حَتَّىٰ الآنَ؟، وَهِيَ أَنَّ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضَ كَانَتَا كُتْلَةً واحِدَةً عُظْمَىٰ فَجزَّأَهَا اللهُ إِلَىٰ أَجْزَاء، وَجَعَلَ مِنْهَا نُجُوماً وَجَعَلَ مِنْهَا كَوَاكِبَ، وَمَجَرَّاتٍ.

وفيها بيان أَنَّهُ جَعَلَ مِنَ الماء كُلَّ شَيْءٍ حَيّ، مع بيان ظَواهِرَ كَوْنِيَّة أُخْرَىٰ، فيها دَلَالَةٌ عَلَىٰ كمالِ حِكْمَةِ اللهِ الدالَّة عَلَىٰ أن الله خَلَق الناس لِيَبْلُوَهُمْ فِي ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا.

الدرس السادس: الآيات من (٣٤ ـ ٤١).

وفي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ مُعَالَجَةُ أئِمَّةِ المشْرِكِينَ، الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ مَوْتَ الرَّسُولِ ﷺ للتَّخَلُّصِ مِنْ دَعْوَتِهِ، بأُسْلُوبِ خِطَابِ الرَّسُول ﷺ مع الإعْرَاضِ عَنْهُمْ وإِسْمَاعِهِمْ بأَسْلُوبٍ غَيْرِ مُبَاشر، وإعْلَامِ الرسول ﷺ بأَنَّ الله بِسُلْطَانِهِ الْقَاهِرِ لَمْ يَجْعَلْ لِبَشرٍ مِنْ قَبْلِهِ الْخُلْدَ في الحياة الدُّنيا، ويَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ له: ﴿... أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

وفِيهَا بيانُ أَنَّ كُلَّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ فِي هَـٰذِهِ الحياة الدُّنيا، وأَنَّ الحَيَاةَ الدُّنيا رِحْلَةُ امْتِحَانٍ بما يَرَاهُ النَّاس شَرًّا وبِمَا يَرَوْنَهُ خَيْراً، وأَنَّ بَعْدَ الْمَوْتِ بَعْثاً إِلَىٰ الحياة الأُخرى، تَرْجِعُ فِيهِ الْخَلَائِقُ إلى رَبِّها، لِلْحِسَاب، وَفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيذِ الجزاء.

وفِيهَا بَيَانُ مَوْقِفِ أَئِمَّةَ الكُفْرِ والشِّرْكِ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ مِنْ إِنْذَارَاتِ الرَّسُولِ ﷺ لهم، وهُوَ مَوْقِفُ الاسْتِهْزَاءِ بِهَا وبالرَّسُول ﷺ الَّذِي يُنْذِرُهُمْ، مَعَ طَلَبِهِمْ تَعْجِيلَ تَحْقِيقِها تَعْبِيراً عَنْ تَكْذِيبِهِمُ الرَّسُولَ ﷺ بها.

وفيها بيان أَنَّ الإنْسَانَ خُلِقَ مِنْ عَجَلٍ.

وفيها مُعَالَجَتُهُمْ بالتَّرْهِيبِ، وبقياسِهِمْ عَلَىٰ مَنْ سَبَقَهُمْ مِنْ كُفَّارِ الْقُرونِ السَّابِقَة.

الدرس السابع: الآيات من (٤٢ ـ ٤٧).

وفي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ تَعْلِيمٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ فَلِكُلِّ دَاعٍ إِلَىٰ الله مِنْ أُمَّتِهِ؛ أَسْلُوبَ حِوارٍ إِقْنَاعِيّ، بِشَأْنِ رُبُوبِيَّةِ اللهِ الَّتِي لَا يُشَارِكُهُ فِيهَا أَحَدٌ في الوجُودِ كُلّه، وَبِشَأْنِ آلِهَةِ الْمُشْرِكِينَ الَّتِي لَا تَجْلُبُ لَهُمْ نَفْعاً، وَلَا تَدْفَعُ عَنْهُمْ ضُرّاً.

وفيها بَيَانُ وَاقِعِ حَالِ المشْرِكِينَ، إِذْ طَالَتْ مُدَّةُ إِمْهَالِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ، مَعَ لَفْتِ نَظَرِهِمْ إِلَىٰ بَعْضِ أَدِلَّةِ اللهِ الْكَوْنِيَّةِ، الَّتِي تَكْشِفُ لِأَهْلِ الْعَقْلِ والرُّشْدِ عَظَمَةَ اللهِ في تَصَارِيفِهِ لِكَوْنِهِ.

وفِيها تَعْلِيم الرَّسُول ﷺ أَنْ يَقُول لَهُمْ: إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بالْوَحْي مِنْ رَبِّي، وَلَا أُنْذِرُكُمْ مِنْ عِنْدِي، مع بيان اللهِ بأَنَّهُمْ بِمَثَابَةِ الصُّمِّ تُجاهَ إِنْذَارَاتِ رَبِّهِمْ لهم.

وفيها عَرْضُ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ القيامَة يُرْهِبُ أُولي الْأَلْبَاب.

الدرس الثامن: الآيات من (٤٨ ـ ٥٠).

وفي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ لقْطَةٍ مُخْتَارَةٍ مِنْ قِصَّة مُوسَىٰ وهارون عليهما السلام بِشَأْن الكتاب الذي آتاهُمَا اللهُ إِيَّاهُ، وبَيَانُ أَنَّ القرآنَ ذِكْرٌ مُبَارَكٌ.

الدَّرْس التاسع: الآيَات من (٥١ ـ ٧٣).

وفي آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ عَرْضُ لَقَطَاتٍ مِنْ قِصَّةِ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام، وَهِي تَتَعَلَّقُ بِفَصْلٍ مِنْ فُصُولِ دَعْوَتِهِ إلى دِينِ اللهِ الْحَقِّ فِي قَوْمِهِ.

الدَّرْس العاشر: الآيتان (٧٤) و(٧٥).

وفيهما عرض لقطة من قصة لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَام.

الدرس الحادي عشر: الآيتان (٧٦) و(٧٧).

وفيهما عَرْض لقطة من قِصَّةِ نُوح عَلَيْهِ السَّلَام.

الدرس الثاني عشر: الآيات من (٧٨ ـ ٨٢).

وفي آيَاتِ هَـٰذَا الدَّرْسِ عَرْضُ لقْطَاتٍ مِنْ قِصّتَي دَاود وسليمان عليهما السلام.

الدَّرْس الثالث عشر: الآيتان (٨٣) و(٨٤).

وفيهما عَرْضُ لقْطَةٍ مِنْ قِصَّةِ أيوب عليه السلام.

الدَّرْس الرابع عشر: الآيتان (٨٥) و(٨٦).

وفيهما ذِكْرُ إسْمَاعِيل، وإدْرِيسَ، وذِي الكِفْلِ، مع بيان موجز عنهم عليهم السَّلام.

الدرس الخامس عشر: الآيتان (٨٧) و(٨٨).

وفيهما لقطة مُوجَزَةٌ مِنْ قِصَّةِ ذِي النون (= يُونس عَلَيْهِ السَّلَام).

الدرس السادس عشر: الآيتان (٨٩) و(٩٠).

وفيهما ذِكْرُ زَكَريا عَلَيْهِ السَّلَام، واسْتِجَابَةِ دُعَائِهِ.

الدَّرسُ السابع عشر: الآية (٩١).

وفيها ذِكْرُ مَرْيَمَ عليها السلام، ولمحة من قصَّة حَمْلِها بعِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام.

الدرس الثامن عشر: الآيات من (٩٢ ـ ٩٤).

وفيها بيان أنَّ أُمَمَ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أُمَّةٌ واحِدة، لَكِنَّ النَّاسَ تَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ علىٰ خِلَافِ مَا أَمَرَهُمُ اللهُ به.

وفيها بيان عاقِبَةِ كُلِّ عَامِلٍ بِحَسَبِ عَمَلِهِ وكَسْبِهِ.

الدرس التاسع عشر: الآية (٩٥).

وفيها بيان عَنْ حَالَةِ الْقُرَىٰ الْمُهْلَكَة، إِذْ لَمْ تُهْلَكْ إِلَّا بَعْدَ أَنْ وَصَلَتْ إلى حَالَةٍ مَيْؤُوسٍ مَعَهَا مِنْ إِصْلَاحِهِمْ عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِهِم الْحُرَّة.

الدرس العشرون: الآيتان (٩٦) و(٩٧).

وفيهما بيان عَنْ فَتْحِ يَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ، واقْتِرَابِ الوعْدِ الحق.

الدرس الحادي والعشرون: الآيات من (٩٨ ـ ١٠٠).

وفيها خطابٌ مِن اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلْمُشْرِكِينَ بِأَنَّهُمْ مَعَ مَعْبُودَاتِهِمْ حَصَبُ جَهَنَّم.

وفيها عَرْضُ مَشْهَدٍ مِن مَشَاهِدِ تَعْذِيبِهِمْ يَوْمَ الدِّين.

الدرس الثاني والعشرون: الآيات من (١٠١ ـ ١٠٤).

وفيها بَيَانٌ بِشَأْنِ المؤمِنِينَ النَّاجِينَ يومَ الدّين، يَوْمَ يَطْوِي اللهُ السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجل لِلْكُتب.

الدرس الثالث والعشرون: الآيتان (١٠٥) و(١٠٦).

وفيها بَيَانُ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عبادُ اللهِ الصَّالِحُونَ.

الدرس الرابع والعشرون: الآيات من (١٠٧ ـ ١١٢) آخر السورة.

وفيها خطابٌ للرَّسول ﷺ، ويُلْحَقُ بِهِ في بَعْضِهَا كُلُّ دَاعٍ إلى اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ، وَفِي هٰذَا الْخِطَاب تَعْلِيمٌ دَعَوِيّ، يُنَاسِبُ المرحَلَةَ الّتِي نزلَتْ فيها السُّورة.

❁ ❁ ❁

(٥)
التدبّر التحليلي للدّرس الأول من دُروس سورة (الأنبياء)
الآيات من (١ ـ ٩)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:



﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾﴾.

القراءات:

(٢) • قرأ ورش، والسُّوسي، وأبو جَعْفر: **[مَا يَاتِيهِمْ]** وكذلك قرأها حمزة في الوقف.

وقرأها يعقوب: **[مَا يَأْتِيهُمْ]** بالهمزةِ المحقّقة مع ضمّ هاء الضمير.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[مَا يَأْتِيهِمْ]** بالهمزة مع كَسْرِ هاء الضمير.

(٣) • قرأ ورْش، والسُّوسِيّ، وأبو جَعْفر: [أَفَتَاتُونَ] وكذلِكَ قرأها حمزة في الوقف.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [أَفَتَأْتُونَ].

(٤) • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: [قَالَ رَبِّي].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [قُلْ رَبِّي].

وبينهما تكامُلٌ في أداء المعنى المراد.

(٥) • قرأ ورش، والسُّوسي، وأبو جعفر: [فَلْيَاتِنَا]، وكذلك قرأها حمزة في الوقف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [فَلْيَأْتِنَا].

(٧) • قرأ حفص: [نُوحِي إِلَيْهِمْ].

وقرأها حمزة، ويعقوب: [يُوحَىٰ إِلَيْهُمْ].

وقرأهَا باقي القرّاء العشرة: [يُوحَىٰ إِلَيْهِمْ].

(٧) • قرأ ابْن كثير، والكسائي، وخلف: [فَسَلُوا].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [فَاسْأَلُوا].

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ إِنْذَارٌ لِأَئِمَّةِ كُفَّارِ مَكَّةَ وَمَا حَوْلَهَا إِبَّانَ التَّنْزيل، بِأَنَّهُ قَدِ اقْتَرَبَ حِسَابُهُمْ وعقابُهُمْ وهُمْ غَافِلُون لَاعِبُونَ، لَاهُونَ، دُعَاةٌ للتَّنْفِير من الاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَةِ الرَّسُول محمَّدٍ ﷺ، بمخْتَلِفِ الْوَسَائِلِ الدِّعَائِيَّة الإِغْرَائِيّة الإيهَامِيّة الزُّخْرُفِية.

وفيها تَوْصِيَةُ الرَّسُولِ ﷺ بأنْ يَقُولَ لَهُمْ: رَبِّي يَعْلَمُ مَا تَقُولُونَ، وسَيُجَازِيكُم عَلَيْهِ عِقَاباً شَدِيداً، لافْتِرَائِكُمْ على الحقّ الّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ رَسُولَهُ ﷺ، وأنْزَلَ بِهِ كِتَابَهُ.

وفِيهَا بَيَانٌ رَبَّانِيٌّ عَنْ حَالَتِهِمْ الَّتِي بَلَغُوا بِهَا الدَّرَكَةَ الميْؤُوسِ مِنْ إصْلَاحِهِمْ مَعَها عن طَرِيقِ إرَادَاتِهِمْ الحرَّة، وبَيَانٌ عَنْ كَوْنِ الرَّسُولِ محمَّدٍ ﷺ مِثْلَ الرُّسُلِ مِنْ قَبْلِهِ في الْوَحْيِ إلَيْهِ، وفي بَشَرِيَّتِهِ، وأَنَّ اللهَ سَيَنْصُرُهُ كَما نَصَرَ رُسُلَهُ عَلَيْهِم السَّلَام مِنْ قَبْلِهِ، وأَهْلَكَ الكَفَرَة الْمُسْرِفِينَ في كُفْرِهِمْ وعِنَادِهم.

التدبر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ۝١﴾:

المراد بالنَّاس في هَـٰذِهِ الآيَةِ فيما يَظْهَرُ: أئِمَّةُ الكُفْرِ والشِّرْكِ في مَكَّة إبَّانَ التَّنْزِيلِ، بِدَلِيلِ وصْفِهِمْ في هَـٰذِهِ الآيَةِ وفي الآيَتَيْنِ بَعْدَهَا؛ بأوْصَافٍ تَكْشِفُ أَنَّهُمْ هُمُ الْمُرَادُونَ.

والْمُرَادُ باقْتِرَابَ حِسَابِهِمْ فِيمَا ظَهَرَ لِي؛ اقْتِرَابُ تَنْفِيذِ مُحَاسَبَتِهِمْ عَلَىٰ جَرَائِمِهِمْ، وإصْرَارِهِمْ بعِنَادٍ على الكُفْرِ وجُحُودِ الْحَقِّ، وتَنْفِيذِ مَا يَتْبَعُ مُحَاسَبَتَهُمْ مِنَ القَضَاءِ بِتَعْذِيبِهِمْ وإِهْلَاكِهِمْ، لِبُلُوغِهِمْ دَرَكَةً لَا يَسْتَجِيبُونَ مَعَهَا لِدَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّةِ عَنْ طَرِيقِ إرَادَاتِهِمُ الْحُرَّةِ مَهْمَا أُمْهِلُوا، فَقَدْ أُمْهِلُوا إمْهَالاً طَوِيلاً مُنْذُ بَدْءِ الْبَعْثَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ حَتَّىٰ نُزُولِ هَـٰذِهِ السُّورة، فَكَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ إنْذَارُهُم باقْتِرَابَ حِسَابِهِمْ والْحُكْم عَلَيْهِمْ بالتَّعْذِيبِ والإهْلَاكِ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَقَدْ تَحقَّقَ هـٰذَا فِعْلاً فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ الَّتِي قُتِلَ فِيهَا صَنَادِيدُ أَئِمَّةِ الشِّرْكِ والكُفْرِ الْعِنَادِيِّ الْجُحُودِي لِلْحَقِّ، على الرُّغْم مِنْ ظُهُورِ أدِلَّتِهِ، وَوُضُوحِ بَرَاهِينِهِ، وسُقُوط ذَرَائِعِ المشْرِكِينَ، وافْتِضَاحِ إصْرَارِهِم عَلَىٰ الْبَاطِلِ.

وقَدْ وَصَفَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ حَالَ هَـٰؤُلَاءِ الْمَعْنِيِّينَ بِعُنْوَانِ النَّاسِ بِعِدَّةِ صِفَاتٍ، أَوَّلُهَا: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿... وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ۝١﴾: أي: اقْتَرَبَ لِهَؤُلَاءِ حِسَابُهُمْ وَلَوَاحِقُهُ، باقْتِرَابِ الزَّمَنِ الَّذِي يَتَحَقَّقُ فِيهِ، فَهُمْ إبَّانَ

نُزُولِ هَـٰذِهِ السُّورَةِ في نَحْوِ الْخُمُسِ الأَخِيرِ مِنَ الْعَهْدِ الْمَكِيِّ، وَكَانَتْ غَزْوَةُ بَدْرٍ الْكُبْرَىٰ فِي أَوَائِلِ الْعَهْدِ الْمَدَنِيِّ مِنْ حَيَاةِ الرَّسُولِ ﷺ.

اقْتِرَابُ الشَّيْءِ: دُنُوُّهُ، بِتَنَاقُصِ الْمَسَافَةِ الْفَاصِلَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا اقْتَرَبَ لَهُ، أو قِلَّتِهَا، وهَـٰذِهِ الْمَسَافَةُ قَدْ تَكُونُ زَمَانِيَّةً وَقَدْ تَكُونُ مَكَانِيَّةً، فَاقْتِرَابُ مَوْسِمٍ مِنَ الْمَوَاسِمِ كَمَوْسِمِ الْحَجِّ؛ يَكُونُ بِقِلَّةِ الزَّمَنِ الْبَاقِي لَهُ. واقْتِرَابُ السَّفِينَةِ لِلْمِينَاء يَكُونُ بِقِلَّةِ الْفَاصِلِ الْمَكَانِيِّ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الميناء.

﴿فِي غَفْلَةٍ﴾: أي: مُنْغَمِسُونَ في غَفْلَةٍ، ومُحَاطُونَ بِهَا. **الْغَفْلَة**: هِيَ انْصِرَاف الذِّهْنِ عَنْ مُلَاحَظَةِ الشَّيْءِ مَعَ وُجُودِهِ فِي مَجَالِ الإِدْرَاكِ، أَوْ وُجُودِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ.

﴿مُّعْرِضُونَ﴾: أي: يُعْطُونَ لاقْتِرَابِ حِسَابِهِمْ عَارِضَهُمْ، أي: جانِبَهُمْ، وهو مَنْزِلَةٌ وُسْطَىٰ بَيْنَ الإِقْبَالِ والإِدْبَار. **والإِعْرَاضُ عَنِ الشيء**: يُكَنَّىٰ بِهِ عَنْ عَدَمِ تَوْجِيهِ الْحَوَاسِّ لإِدْرَاكِهِ، مَرْئِيًّا أَوْ مَسْمُوعاً أَوْ مَلْمُوساً.

وَجَاءَ في الآيَتَيْنِ التَّالِيَتَيْنِ مُتَابَعَةُ تَفْصِيلِ حَالِهِمْ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣﴾:

الصِّفَةُ الثَّانِيَةُ الَّتِي حَالُهُمْ عَلَيْهَا وقَدِ اقْتَرَبَ حِسَابُهُمْ ولَوَاحِقُهُ، هِيَ: أَنَّهُمْ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ بَيَانٍ قُرْآنِيٍّ مُحْدَثِ التَّنْزِيلِ، تَلَاهُ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ محمَّدٌ ﷺ؛ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ مُنْصَرِفَةً أَذْهَانُهُم عَنْ فَهْمِ مَعَانِيهِ ومَرَامِيه.

اللَّعِبُ: ضِدُّ الْجِدِّ، ويُقَالُ لِكُلِّ مَنْ يَعْمَلُ عَمَلاً لَا يُقَدِّمُ لَهُ نَفْعاً:

إِنَّمَا أَنْتَ لَاعِبٌ، وكَذَلِكَ الَّذِي يَشْغَلُ نَفْسَهُ بِعَمَلٍ ذي نَفْعٍ ضَئِيلٍ، تَارِكاً عَمَلاً مُيَسَّراً لَهُ ذَا نَفْعٍ عَظِيمٍ كَثِيرٍ.

كَلِمَةُ ﴿ذِكْرٍ﴾ جاءَتْ فِي الْقُرآنِ لِلدَّلَالَةِ بِهَا عَلَىٰ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْمَجِيد، لِأَنَّ المطْلُوبَ بَعْدَ تَلَقِّي الْقُرْآنِ وتَفَهُّمِ مَعَانِيهِ؛ أَنْ يَبْقَىٰ فِي النَّفْسِ ذِكْراً يُسْتَدْعَىٰ عِنْدَ كُلِّ مُنَاسَبَةٍ دَاعِيَةٍ إلى سَاحَةِ التَّذَكُّرِ الْحَاضِرِ، أَوْ تُسْتَدْعَىٰ المعاني الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا.

فَحَالُ هَؤُلَاءِ المعنيّين؛ أَنَّهُمْ كُلَّمَا جاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ قُرْآنٌ مُحْدَثُ التَّنْزِيلِ تَلَاهُ عَلَيْهِمُ الرَّسُولُ ﷺ؛ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ بِمَا لَا نَفْعَ فِيهِ، أَوْ نَفْعُهُ قَلِيلٌ ضَئِيلٌ، دُونَ أَنْ يَصِلَ مَا اسْتَمَعُوهُ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَىٰ مَرَاكِزِ التَّفْكِيرِ لَدَيْهِمْ، اسْتِهَانَةً بِهِ، وانْصِرَافاً كُلِّيًّا عَنْهُ، غَيْرَ عَابِئِينَ بالْمَعَانِي الَّتِي دَلَّ أَوْ يَدُلُّ عَلَيْهَا، وسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ قُلُوبَهُمْ تَكُونُ لَاهِيَةً بِمَتَاعَاتِ الحياة الدُّنْيَا، وَمَطَالِبِ نُفُوسِهِمْ مِنْ زِينَاتِهَا وَلَذَّاتِهَا. فَهُمْ في حَالَةِ لَهْوِهِمْ بِهَـٰذِهِ الأُمُور تَكُونُ تَصَرُّفَاتُهُمْ لَعِباً.

أو هم فعلاً مَشْغُولون باللَّعِبِ، كالنَّرْدِ، وَنَحْوِه.

الصِّفَة الثالِثَة الَّتِي حَالُهُمْ عَلَيْهَا وَقَدِ اقْتَرَبَ حِسَابُهُمْ وَلَوَاحِقُه، هِيَ: أَنَّ الظَّالِمِينَ مِنْهُمْ ظُلماً شَنِيعاً؛ يَتَنَاجَوْنَ فِيمَا بَيْنَهُمْ سِرّاً، بِقَضِيَّتَيْنِ لِنَشْرِهِمَا نَشْراً إِعْلَامِيًّا.

الْقَضِيَّةُ الْأُولَى: هَلْ مُحَمَّدٌ ـ ﷺ ـ هـٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلكُمْ؟، وإِذَا كَانَ بَشَراً مِثْلَكُمْ فَلِمَاذَا اسْتَكْبَرَ عَلَيْكُم بِأَنَّهُ نَبِيُّ اللهِ وَرَسُولُهُ، ويُرِيدُ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْآمِرَ والنَّاهِي لَكُمْ باسْمِ الدِّينِ الَّذِي يَقُولُ: إِنَّهُ يَتَلَقَّاهُ عَنْ رَبِّكُم رَبِّ الْعَالَمِينَ.

ولِتَغْلِبُوهُ فِكْرِيًّا أَشِيعُوا بَيْنَ جَمَاهِيرِكُم أَنَّهُ بَشَرٌ مِثْلُ سَائِرِ الْبَشَرِ، وَلَيْسَ لَهُ مِيزَةٌ خَاصَّةٌ تُؤَهِّلُهُ لِأَنْ يَكُونَ نَبِيًّا مِنْ أَنْبِيَاءِ اللهِ، وَرَسُولاً مِنْ رُسُلِهِ، دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ الْقَضِيَّةِ: ﴿هَلْ هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾؟؟.

الْقَضِيَّةُ الثَّانِية: إِنَّ مَا يَتْلُوهُ مِنْ كَلَامٍ ذِي تَأْثِيرٍ عَلَى الْقُلُوبِ والنفوس بِبَلاغَتِهِ ومَعَانِيهِ وأَسَالِيبِهِ الْعَجِيبَةِ، ويَقُولُ: هـٰذَا الكَلَامُ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ يُوحَىٰ بِهِ إِلَيْهِ؛ لَا سَبِيلَ لِصَرْفِ جَمَاهِيرِكُمْ عَنْهُ إِلَّا أَنْ تَقُولُوا: هـٰذَا نَوْعٌ مِنْ أَنْواعِ السِّحْرِ يؤَثِّرُ بِهِ عَلَيْكُمْ، وأَنْ تَقُولُوا لِجَمَاهِيرِكُمْ: أَتَأْتُونَ محمّداً ـ ﷺ ـ لتَسْمَعُوا مِنْهُ مَا يَسْحَرُكُمْ بِهِ مِنْ كَلَامٍ، وأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ أَنَّهُ لَيْسَ لَدَيْهِ مِنَ المُعْجِزَاتِ والْخَوارِقِ الْعُظْمَىٰ مَا يُثْبِتُ أَنَّهُ نَبِيٌّ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللهِ وَرَسُولٌ مِنْ رُسُلِهِ، هـٰذَا مِنْكُمْ سَفَاهَةٌ وَنُقْصَانُ عَقْلٍ، وبهـٰذَا تَصُدُّونَ جَمَاهِيرَ قَوْمِكُمْ عَنِ الذَّهَابِ إِلَيْهِ والاسْتِمَاعِ إلى الْكَلَامِ الَّذِي يَتْلُوهُ عَلَيْهِمْ.

دل على هَـٰذِهِ الْقَضِيَّةِ: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾؟؟.

أي: أَفَقَدْتُمْ عُقُولَكُمْ وتَقْدِيرَكُمْ لِلْأُمُورِ حَقَّ قَدْرِهَا فَأَنْتُمْ تَأْتُونَ محمّداً ـ ﷺ ـ لِتَسْمَعُوا مِنْهُ مَا يَسْحَرُكُمْ بِهِ مِنْ كَلَامٍ، وأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ أَنَّهُ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ.

النَّجْوَىٰ: الإِسْرَارُ بالْحَدِيث. ويُطْلَقُ لفظ «النَّجْوَىٰ» على المتناجين، وهو من الوصْفِ بالمصْدَرِ.

وإِسْرَارُهُمْ بالنَّجْوَىٰ؛ يَدُلُّ عَلَىٰ شِدَّةِ إخفاء الظَّالِمِينَ مِنْ أَئِمَّةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ تَنَاجِيَهُمْ، حَتَّىٰ لَا يَفْتَضِحُوا بَيْنَ جَماهِيرِهِمْ بالتَّآمُرِ عَلَىٰ دَعْوَةِ الرَّسُولِ ﷺ ظُلْماً وَعُدْواناً، وحتَّىٰ لَا تُدْرِكَ جماهيرهم مَبْلَغ مَكْرِهِمْ، فَلَا يَسْتَجِيبُوا لِدِعَايَاتِهِمُ الْبَاطِلَةِ الْفَاجِرَة.

و﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بَدَلٌ من واو الجماعةِ في ﴿وَأَسَرُّوا﴾.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾﴾:

في قراءة حفص، وحمزة، والكِسَائي، وخلف.

وفي قراءة باقي القرّاء العشرة: [**قُلْ رَبِّي يَعْلَمُ** .... ﴿٤﴾]:

وبَيْنَ الْقِراءَتَيْنِ تَكَامُلٌ فِي أَدَاءِ المعنَىٰ الْمُرَاد، أي: قَالَ اللهُ لِرَسُولِهِ ﷺ: [قُلْ: رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ...] الآية. فاسْتَجابَ الرَّسُول ﷺ لِأَمْرِ رَبِّهِ، وإِذِ اسْتَجَابَ [قَالَ: رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ...] الآية.

فِي هٰذَا التَّعْلِيم الرَّبَّانِيِّ الَّذِي نَفَّذَهُ الرَّسُول محمَّدٌ ﷺ؛ إِنْذارٌ لِأَئِمَّةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ، بأَنَّ اللهَ رَبَّهُ سَيُعَاقِبُهُمْ عَلَىٰ مَوْقِفِهِمْ مِنْهُ، وَمِنْ دَعْوَتِهِ وَمِنَ الْقُرْآنِ الَّذِي يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ، فَهُوَ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ يَعْلَمُ كُلَّ قَوْلٍ يُقَالُ في السَّمَاءِ والأَرْضِ، وهُوَ وَحْدَهُ السَّمِيعُ لِكُلِّ مَا يُسْمَعُ، الْعَلِيمُ بِكُلِّ مَا يُعْلَمُ، وَمِمَّا يَسْمَعُهُ أَقْوالُهُمْ، وَمِمَّا يَعْلَمُهُ أَعْمالُهُمُ الكَيْدِيَّةُ لِدِينِهِ وكتابِهِ وَرَسُولِهِ ﷺ والمؤمِنِينَ.

فَلْيَنْتَظِرُوا نِقْمَتَهُ، فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ مَا يَشَاءُ قَدِيرٌ، وهو الْحَكَمُ الْعَدْلُ الْحَكِيمُ فِي اخْتِيَارَاتِهِ، وَهٰذِهِ تُفْهَمُ باللُّزُومِ الْفِكْرِيِّ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابِعُ بَيَان أقوالِهِمُ المعبِّرَةِ عَنْ تَكْذِيبِهِمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْقُرْآنِ المجيد:

● ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٥﴾:

إِنَّ أئمَّةَ الكُفْرِ والشِّرْكِ لَمْ يَقْتَصِرُوْا فِي مَجْمُوعِهِمْ عَلَىٰ الطَّعْنِ في القرآنِ بأَنَّهُ مِنْ قَبِيلِ السِّحْرِ؛ بَلْ أَضَافُوا إِلَيْهِ الطَّعْنَ بثَلاثِ شَتَائِمَ وجَّهُوهَا لَهُ.

الشَّتِيمَةُ الْأُولَى: أَنَّهُ أضغَاثُ أَحْلَامٍ، وأَضْغَاثُ الْأَحْلَام: مَا كَانَ مِنْهَا مُلْتبساً مضطرباً مُخْتَلِطاً بَعْضُهُ بِبَعْض. وأَصْلُ الضِّغْثِ: قَبْضَةٌ مُخْتَلِطَةٌ من حشيش وأَعْوَادٍ.

أي: بعضُ مَا يَتْلُوهُ مُحَمَّدٌ ـ ﷺ ـ وَيَقُولُ هُوَ كَلَامٌ أَوْحَىٰ اللهُ بِهِ إِلَيْهِ؛ يُشْبِهُ الْأَحْلَامَ الملْتَبِسَةَ المخْتَلِطَةَ، الَّتِي لَا يُفْهَمُ لَهَا تَعْبِيرٌ وَلَا تَأْوِيل.

وغَرَضُهُمْ مِنْ هٰذَا صَرْفُ جَمَاهِيرِهِمْ عَنْ تَفَهُّم آيَاتِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، زَاعِمِينَ أَنَّهَا كَالأَحْلَامِ الملْتَبِسَةِ الَّتِي اخْتَلَطَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، فَلَا يَصِحُّ إِشْغَالُ الأَذْهَانِ بِتَفَهُّمِ الْمُرَادِ بِهَا، والْبَحْثِ عَنِ المَعَانِي الَّتِي تَدُلُّ عَلَيْهَا، وهٰذَا يَقُولُونَهُ لِلَّذِينَ لَا يُحْسِنُونَ تَفَهُّمَ الْكَلَامِ الْبَلِيغ، وإِدْرَاكَ الرَّوابِطِ الذِّهْنِيَّةِ بَيْنَ جُمَلِهِ.

الشَّتِيمَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ مُحَمّداً ـ ﷺ ـ يَأْتِي بِهٰذَا الكَلَامِ الَّذِي يَتْلُوهُ: مِنْ عِنْدِهِ، أو بِالتَّعَاوُنِ مَعَ غَيْرِهِ، أو بِالنَّقْلِ عَنْ كُتُبٍ سَابِقَةٍ، ويَزْعُمُ كَذِباً أَنَّ اللهَ يُوحِي بِهِ إِلَيْهِ.

الافْتِرَاء: اخْتِلَاقُ الْكَذِبِ واصْطِنَاعُهُ عَنْ عَمْد.

الشتيمة الثالِثَة: أَنَّ مُحَمّداً ـ ﷺ ـ شَاعِرٌ، فَالأَقْوَالُ المؤثِّرَةُ فِي نُفُوسِ بَعْضِ مُسْتَمِعِي مَا يَتْلُوهُ عَلَىٰ النَّاسِ؛ هِيَ مِنْ أَنْوَاعِ الشِّعْرِ الَّذِي أُوتِيَ مَوْهِبَتَهُ، ويَبْتَعِدُ فِيهِ عَنْ نِظَامِ الشِّعْرِ وأَوْزَانِهِ، لِغَايَةٍ فِي نَفْسِهِ يُرِيدُ تَحْقِيقَها بَيْنَ قَوْمِهِ، وبَيْنَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ.

ولِإِقْنَاعِ جَمَاهِيرِهِمْ بِأَنَّ مُحَمَّداً ـ ﷺ ـ يَفْتَرِي عَلَىٰ رَبِّهِ، وبِأَنَّهُ لَيْسَ نَبِيًّا وَلَا رَسُولاً؛ قَالُوا: إِنْ كَانَ رَسُولاً حَقًّا للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ خَارِقَةٍ عَظِيمَةٍ مُعْجِزَةٍ، كَمَا أُرْسِلَ الرُّسُلُ السَّابِقُونَ مُؤَيَّدِينَ بالمعجزات الكِبَارِ، كَعَصَا مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام، وَنَاقَةِ صَالحٍ عَلَيْهِ السَّلَام، وإِحْيَاءِ الْمَوْتَىٰ لِعِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام، وإِبْرَاءِ الأَكْمَهِ والأَبْرَصِ له عَلَيْهِ السَّلَام.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُومِئُ إِلَىٰ أَنَّ المعْنِيِّينَ بالْعِلَاجِ؛ قَدْ وَصَلُوا أَوْ كَادُوا يَصِلُونَ إِلَىٰ الدَّرَكَةِ الَّتِي تَقْضِي الْحِكْمَةُ بِتَعْذِيبِهِمْ وإِهْلَاكِهِمْ، فَلْيَرْتَقِبُوا تَحْقِيقَ مَا أُنْذِرُوا بِهِ، وَلَو اسْتَجَبْنَا لِمَا اقْتَرَحُوهُ مِنْ آيَاتٍ كِبَارٍ فَلَنْ يُؤْمِنُوا كَمَا فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ:

﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾:

أي: مَا آمَنَ قَبْلَهُمْ مِنْ أَهْلِ قَرْيَةٍ كَافِرَةٍ؛ طَلَبُوا مِنْ رَسُولِهِمْ آيَةً عَظِيمَةً، فَأَجْرَيْنَاهَا لِرَسُولِنَا كَمَا طَلَبُوا، فَعَذَّبْنَاهُمْ وَأَهْلَكْنَاهُمْ إِهْلَاكَ اسْتِئْصَالٍ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا مَعَ إِجْرَائِنَا الآيَةَ العُظْمَىٰ.

أَفَهَؤُلَاءِ الْمَعْنِيُّونَ بالْعِلَاجِ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ سَيُؤْمِنُونَ إنْ آتَيْنَا رَسُولَنَا مُحَمّداً ـ ﷺ ـ آيَةً عظْمَىٰ كَمَا طَلَبُوا؟!، إِنَّ التَّجْرِبَةَ لِكُفَّارِ الْقُرَىٰ السَّابِقِينَ، الَّذِينَ كَانَ كُفْرُهُمْ كُفراً جُحُودِيًّا عِنَادِيًّا؛ تَدُلُّ عَلَىٰ أنَّ هَـٰؤُلَاءِ الْمُعَالَجِينَ الْمُشَابِهِينَ لِلسَّابِقِينَ فِي كُفْرِهِمُ الجحوديّ الْعِنَادِيّ؛ لَنْ يُؤْمِنُوا وَلَوْ آتينَا رَسُولَنَا ـ ﷺ ـ آيَةً عُظْمَىٰ، فإجْرَاؤُهَا عَبَثٌ يَسْتَدْعِي إِهْلَاكَهُمْ كَمَا أَهْلَكْنَا عَاداً وَثَمُودَ وفِرْعَوْنَ وآلَهُ وَجَيْشَهُ.

هَـٰذِهِ سُنَّةُ اللهِ فِي عِبَادِهِ، أَمَّا أَئِمَّةُ الكُفْرِ والشِّرْكِ المعانِدُونَ الْجَاحِدُونَ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ؛ فَسَيَكُونُ إِهْلَاكُهُمُ انْتِقَائِيًّا، إِذْ مَا زَالَ غَيْرُهُمْ مُسْتَعِدِّينَ لِلْإِيمانِ، وَسَيُؤْمِنُونَ مَتَىٰ زَالَتْ ضَوَاغِطُ الزَّعَامَاتِ الكافِرَةِ الْفَاجِرَةِ الطَّاغِيَةِ عَنْ رُؤُوسِهِمْ، وَهـٰذَا مَا تَحقَّقَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ، إِذْ دَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً.

«مِنْ» في: ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾: مَزِيدَةٌ لِتَوْكِيدِ عُمُومِ النَّفْي واسْتِغْرَاقِهِ كُلَّ الْقُرَىٰ الْكافِرَة.

وأُطْلِقَ لفظ «قَرْيَةٍ» والمرادُ أَهْلُها، وهـٰذَا مِنْ إِطْلَاقِ المحَلّ وإرادَةِ الْحَالِّ بِهِ، فَهُوَ مِنَ المَجَازِ المُرْسَلِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابعاً مُعَالَجَةَ المعنيّين بالْعِلَاجِ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ، بأُسْلُوبِ خِطَابِ الرَّسُول ﷺ:

● ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ۝٨ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٩﴾:

سَبَقَ فِي الآيَةِ (٣) بيانُ أَنَّ المعنيِّينَ بالْعِلَاجِ قَالُوا لِجَمَاهِيرِهِمْ لصَدِّهِمْ عَنِ الرَّسُولِ محمّد ﷺ: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْۖ﴾؟!، فرَدَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِمْ بأسْلُوبِ خِطَاب الرَّسُولِ ﷺ أَوَّلاً فَبِخِطَابِهِمْ عقِبَ ذَلِكَ، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْۖ﴾، وفي الْقِرَاءَة الأُخْرَىٰ: [يُوحَىٰ إِلَيْهِمْ]، أي: نُكَلِّف رُسُلَ الوَحْي مِنَ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِم السَّلَام بِأَمْرِنَا؛ أَنْ يُوحُوا إِلَيْهِم مَا نَأْمُرُهُمْ بِهِ.

والْمَعْنَىٰ: وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ يَا مُحَمَّدُ إِلَّا بَشَراً رِجَالاً، نُكَلِّفُ رُسُلَ الْوَحْيِ مِنْ مَلَائِكَتِنَا؛ أَنْ يُوحُوا إِلَيْهِمْ مَا نُرِيدُ إِبْلَاغَهُمْ إِيَّاهُ.

فَلَسْتَ يَا مُحَمَّدُ بِدْعاً بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ والرُّسُلِ، حَتَّىٰ يَتَعَلَّلَ المعانِدُونَ الجاحِدُونَ بِبَشَرِيَّتِكَ، وَبِأَنَّكَ تَأْكُلُ الطَّعَامَ، وتَمْشِي في الْأَسْوَاقِ لِاكْتِسَابِ رِزْقِكَ.

وَتَوَجَّهَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْمُعَانِدِينَ الْجَاحِدِينَ الصَّادِّينَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَنْ يَسْتَجِيبُ لَهُمْ مِنْ جَمَاهِيرِهِمْ؛ فَقَالَ لَهم: ﴿... فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧﴾: أي: فَاسْأَلُوا أَهْلَ الْعِلْم بِتَارِيخِ الْأَنْبِيَاءِ والرُّسُلِ عَلَيْهِم السَّلَام عَنْ بَشَرِيَّتِهِمْ، إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ كَانُوا بَشَراً رِجَالاً، فَضَّلَهُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ بالْوَحْيِ إِلَيْهِمْ لِعِلْمِهِ بِهِمْ.

وفي اسْتِعْمَال «إِنْ» الشَّرْطِيَّةِ إِشَارَةٌ إِلَىٰ أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ الرُّسُلَ السَّابِقِينَ عَلَيْهِم السَّلَام كَانُوا بَشراً رِجَالاً، ولَكِنَّهُمْ يَتَّخِذُونَ بَشَرِيَّة مُحَمَّدٍ ﷺ تَعِلَّةً يَخْدَعُونَ بِهَا ويُغَرِّرُونَ الْجَهَلَةَ مِنْ جَمَاهِيرِهِمْ.

وَقَولُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ الرُّسُلِ عَلَيْهِم السَّلَام: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾: دَلَّ عَلَىٰ أَنَّ أئِمَّة الكُفْرِ والشِّرْكِ فِي مَكَّةَ مَا زَالُوا يُرَدِّدُونَ مَقَالَتَهُمُ الَّتِي حكَاهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهُمْ في سُورَةِ (الْفُرْقَانِ/ ٤٢ نزول) بقوله: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ ... ۝٧﴾.

فَرَدَّ اللهُ عَزَّ وَجلَّ عَلَيْهِم بِبَيَانَ أَنَّ كُلَّ رُسُلِهِ السَّابِقِينَ عَلَيْهِم السَّلام كَانُوا يَأْكُلُونَ الطَّعَام.

أي: وَمَا جَعَلْنَا الرُّسُلَ السَّابِقِينَ وَفْقَ نِظَامِ جَسَدٍ حَيٍّ لَهُ صِفَاتُ الْأَحْيَاءِ، وَهُمْ لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ؛ بَلْ كَانُوا أَجْسَاداً حَيَّةً لَهَا صِفَاتُ الْأَجْسَادِ الْحَيَّةِ، وَكَانُوا يَأْكُلُونَ الطَّعَام، فَهُمْ بَشَرٌ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَتَزَوَّجُون النِّسَاء، ولهم سائر صفات البشر.

الجَسَدُ: الجِسْمُ، وهُوَ مَالَهُ طُولٌ وعَرْضٌ وعُمْقٌ، ومِنْهُ ما هُو ذُو حَيَاة، ومِنْهُ مَا هُوَ غَيْرُ ذِي حَياةٍ كَجِسْمِ الْوَثَنِ.

وتقتَضِي بِشَرِيَّتُهُمْ أَنْ يَمُوتُوا فِي ظُرُوف الحياة الدنيا، وأنْ لَا يَكُونُوا فِيها خَالِدِينَ، فَقَالَ تَعالَى: ﴿... وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾﴾: أي: وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ فِي الحياةِ الدُّنْيا، وهٰذَا يَنْطَبِقُ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ.

وطَمْأَن اللهُ عَزَّ وَجلَّ رَسُولَهُ ﷺ والمؤمِنِينَ؛ بِأَنَّهُ سَيُهْلِكُ أَعْدَاءَهُمْ، وَسَيُحَقِّقُ مَا وَعَدَهُمْ مِنْ نَصْرٍ وَنَجاةٍ مِنْ كَيْدِ أَعْدَائِهِمْ لَهُمْ، بأسْلُوب بَيَانِ سُنَّتِهِ الَّتِي حقَّقَها لِرُسُلِهِ السَّابِقِينَ عَلَيْهِم السَّلَام، ولِأَعْدَائِهِم الْكَافِرِينَ الْمُسْرِفين في كُفرِهِمْ وعِدَائِهِم لِلْحَقِّ ودُعَاتِهِ والمؤمنين به، فَقَالَ تعالَىٰ:

﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾﴾:

أي: وَبَعْدَ مُدَّةِ إِمْهَالٍ كَافِيَةٍ لِلْكَافِرِينَ المسْرِفِينَ؛ صَدَقْنا رُسُلَنا ـ عَلَيْهِم السَّلام ـ الْوَعْدَ، بِتَحْقِيقِ مَا كُنَّا وَعَدْنَاهُمْ، فَأَنْجَيْنَاهُمْ مِنْ كَيْدِ أَعْدَائِهِمْ وَمَا دَبَّرُوه مِنْ شَرّ، وَأَنْجَيْنَا مَنْ نَشَاءُ وهم المؤمِنُونَ أَتْبَاعُ الرُّسُل ـ عَلَيْهِم السَّلَام ـ، ومَنْ قَضَتْ حِكْمَتُنَا بأَنَّهُمْ لَا يَسْتَحِقُّونَ الإِهْلَاكَ، وأهْلَكْنَا بِوَسَائِلِنَا الكَفَرَةَ الْمُسْرِفِين.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الأَوَّل من دُرُوس سورة (الأنبياء).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

❀ ❀ ❀

(٦)
التدبر التحليلي للدّرس الثاني من دُروس سورة (الأنبياء)
الآيات من (١٠ ـ ١٥)

■ قَال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾:

القراءات:

(١٢) • قرأ السُّوسِي، وأبو جعْفر: [بَاسَنَا] بإِبْدَال الهمزة ألفاً.

وكذلك قرأها حمزة في الوقف.

وقَرَأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [بَأْسَنَا].

تَمْهيد:

فِي آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ خِطَابٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلْكَافِرِينَ بأَنَّهُ أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُهُمْ، مَعَ حَثِّهِمْ عَلَىٰ أَنْ يَعْقِلُوا.

وفيها إِنْذَارٌ لَهُمْ بالتَّعْذِيبِ والإِهْلَاكِ إِذَا أَصَرُّوا عَلَىٰ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ كُفْرٍ عِنَادِيٍّ جُحُودِي، وعِدَاءٍ لِدِينِ اللهِ وَلِرَسُوله ﷺ وِلِلْمُؤْمِنِين، كَمَا فَعَلَ رَبُّهُمْ بِكُفَّارِ الْقُرُونِ السَّابِقَةِ.

التدبّر التحليلي:

■ قول اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِلْكَافِرِينَ الَّذِينَ كَذَّبُوا الرَّسُولَ ﷺ، وَكَذَّبُوا

بِالْقُرْآنِ الَّذِي يُوحِي اللهُ بِهِ إِلَيْهِ، وجَحَدُوا الْحَقَّ الْجَلِيَّ الَّذِي اشْتَمَلَ عَلَيْهِ دِينُ اللهِ لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ:

• ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾:

أي: أُقْسِمُ لَكُمْ مُحقِّقاً أَنَّ الْكِتَابَ الَّذِي نُوحِي بآيَاتِهِ وسُوَرِهِ إِلَىٰ رَسُولِنَا مُحَمَّدٍ ـ ﷺ ـ؛ هو آيَةٌ عُظْمَىٰ أَجَلُّ مِنَ الآيَاتِ الْمَادِّيَّةِ الَّتِي تُطَالِبُونَ بِأَنْ يُؤْتَىٰ مُحَمَّدٌ ـ ﷺ ـ مِثْلَهَا. فُهِمَ هٰذَا مِنَ الرَّبْط بَيْنَ هٰذِهِ الآيَةِ وبَعْضِ مَا جَاءَ فِي الدَّرْسِ الأَوَّل من السّورة.

وأُقْسِمُ لَكُمْ مُحقِّقاً أَنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكُمْ لِخَيْرِكُمْ فَفِيهِ ذِكْرُكُمْ، أي: فِيهِ مِنَ الْحَقَائِقِ وَالْهِدَايَةِ إِلَىٰ سَعَادَةِ النَّاسِ مَا يُوجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَتَدَبَّرُوه، وتَحْفَظُوا مَعَانِيَهُ فِي ذَاكِرَاتِكُمْ، وَتَسْتَدْعُوا مِنْهَا عِنْدَ كُلِّ مُنَاسَبَةٍ مَا يُلَائِمُهَا لِلْعَمَلِ بِهِ، والاهْتِدَاءِ بَهَدْيِهِ. وَفِيهِ شَرَفٌ عَظِيمٌ لَكُمْ، إِذْ أُنْزِلَ بِلُغَتِكُمْ وَعَلَىٰ رَسُولٍ هُوَ مِنْكُمْ، لُغَةً وَنَسَباً، فَهُوَ مِنْ قُرَيْشٍ، فَلِمَاذَا لَا تَفْتَخِرُونَ بِهِ وبالكِتَاب الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ؟.

• ﴿... أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾: أي: أَغَلَبَتْكُم أَهْوَاؤُكُمْ، وَدَوافِعُ كِبْرِكُمْ، وَتَقَالِيدُكُمُ الْعَمْيَاءُ، وَنُفُورُكُمْ مِنَ الالْتِزَام بِدِينِ اللهِ الَّذِي اصْطَفَاهُ لعبادِهِ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، فَجَعَلَكُمْ ذَلِكَ لَا تَعْقِلُونَ عَقْلاً عِلْمِيًّا حَقَائِقَ هٰذَا الدِّينِ، وَلَا تَعْقِلُونَ نُفُوسَكُم عَقْلاً إِرَادِيًّا عَنِ اتِّبَاعِ أَهْوَائِهَا وَشَهَوَاتِهَا وكِبْرِهَا وَتَقَالِيدِهَا الْعَمْيَاء.

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُلَوِّحُ بِإِنْذَارِ الْمُعَالَجِينَ بِتَعْذِيبِهِمْ وإهْلَاكِهم:

• ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾:

«كَمْ» هُنَا خَبَرِيَّة تَدُلُّ عَلَىٰ عَدَدٍ كثيرٍ مُبْهَم الْقَدْرِ والْجِنْس، ولِذَلِكَ فَهِيَ تَحْتَاج إلى تَمْييزٍ، وتمْييزُهَا هُنَا: ﴿مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾.

﴿قَصَمْنَا﴾: أصْلُ الْقَصْمِ: الكَسْرُ الَّذِي يَحْصُلُ فِيهِ انْفِصَال، وَيُسْتَعْمَلُ الْقَصَمُ بِمَعْنَىٰ الإهْلاَكِ، وهَٰذَا المعْنَىٰ هُوَ المُرَادُ هُنَا.

والمرادُ بـ ﴿قَرْيَةٍ﴾: أهْلُهَا وَسُكَّانُها، وهو مَجَازٌ مُرْسَلٌ مِنْ إطْلاَقِ المَحَلِّ وإرادَةِ الْحَالّ بِهِ.

أي: وعَدَداً كثيراً مِنَ الْقُرَىٰ قَصَمْنَاهَا قَصْمَ تَعْذِيبٍ وإهْلاَكٍ مُسْتَأْصِلٍ، وهَٰذِهِ الْقُرَىٰ كَانَتْ ظَالِمَةً ظُلْماً شَنِيعاً مِنْ دَرَكَةِ الكُفْرِ الْعِنَادِيِّ الْجُحُودِي، المصْحُوبِ بالكَيْدِ الشَّدِيدِ ضِدَّ دَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّة، وضِدَّ رُسُلِ اللهِ عَلَيْهِم السَّلاَم والْمُؤْمِنِينَ بِهِمْ، كَحَالِ كُفَّارِ مَكَّةَ وَمَا حَوْلَهَا إِبَّانَ التَّنْزِيلِ، الْمَعْنِيِّينَ بالْعِلاَجِ في السُّورَة.

وبَعْدَ أَنْ أَهْلَكْنَا هَٰذِهِ الْقُرَىٰ إِهْلاَكَ اسْتِئْصَالٍ؛ أَنْشَأْنَا قَوْماً آخَرِينَ، حَلُّوا أَمَاكِنَ الْمُهْلَكِينَ، مِنْ سُلاَلاَتِ أَقْوَامٍ لَمْ يُهْلَكُوا، إِذْ لَمْ تَدْعُ الْحِكْمَةُ إِهْلاَكَهُمْ.

الإنْشاءُ: الإحْدَاثُ المصْحُوبُ بالتَّكَامُلِ المتَدَرِّج غَالِباً.

أَمَّا الكُفَّارُ سُكَّانُ الْقُرَىٰ الَّتِي صَدَرَ الأَمْرُ الرَّبَّانِيُّ بِتَعْذِيبِهِمْ وإهْلاَكِهِمْ، فَإِنَّهُمْ لَمَّا أَحَسُّوا بِأَنَّ عَذَابَ اللهِ الشَّدِيدِ تُقْبِلُ وَسَائِلُهُ نَحوهُمْ، وَنَحْوَ قُرَاهُمْ، صَارُوا يركُضُونَ هَرَباً مِنْ قُرَاهُمْ وَمَسَاكِنِهِمْ في كُلِّ اتِّجَاهٍ، خَوْفاً مِنْ أَنْ تَحِلَّ عَلَيْهِمُ الْمُعَذِّبَاتُ المهْلِكَات، وَكَانَ هَرَبُهُمْ هَٰذَا مُفَاجِئاً.

الْبَأْس: شِدَّةُ الْعَذَابِ، والْحَرْبُ.

الإحْسَاسُ: الإدْراك بالْحَوَاسِّ أَوْ بَعْضِهَا، وهي حَوَاسُّ الْبَصَرِ والسَّمْعِ، واللَّمْسِ، والشَّمّ، والذَّوْق.

فَيُقَالُ لَهُمْ بِلِسَانِ حَالِ القَدَرِ والْقَضَاء، الَّذِي يَجْرِي تَنْفِيذُهُ بالْقَهْرِ الرَّبَّانِيِّ: لَا تَرْكُضُوا هَرَباً مِنْ عَذَابِ رَبِّكُمْ وَإِهْلَاكِهِ لَكُمْ، فَأَنْتُمْ هَالِكُونَ لَا مَحَالَةَ.

وَيُقَال لَهُمْ أَيْضاً عَلَىٰ سَبِيلِ التَّهكُّم: ﴿وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ﴾: أي: وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا إِذَا نَزَلَ بِكُم عَذَابُ رَبِّكُمْ وإهْلَاكَهُ لَكُمْ، أَنْ تَرْجِعُوا لِأَنَّكُمْ سَتَكُونُونَ هَلْكَىٰ.

الْمُتْرَف: الكثيرُ الاسْتِمْتَاعِ بِمَا أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْهِ مِنْ مَتَاعَات الحياة الدُّنْيَا.

﴿... لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾﴾: اسْتِكْمَالٌ لِعِبَارَةِ التَّهَكُّم، أي: وَلَنْ تُسْأَلُوا عَنْ سَبَبَ مَا نَزَلَ بِكُمْ مِنْ تَعْذِيبٍ لَكُمْ، وَتَدْمِيرٍ لِمَسَاكِنِكُمْ ولِكُلِّ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ، لِأَنَّكُمْ واقِعُونَ فِي قَبْضَةِ التَّعْذِيب والإهْلَاكِ الرَّبَّانِيَّةِ، فَلَا تُسْأَلُونَ عَنْ شَيْءٍ وَلَا تُجِيبُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ.

ويَكُونُ قَوْلُكُمْ الَّذِي تُرَدِّدُونَهُ اعْتِرَافاً بِجَرَائِمِكُمْ: إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ، وبِسَبَبِ ظُلْمِنَا الشَّدِيدِ، مِنْ دَرَكَةِ الكُفْرِ الْعَنِيد؛ يُعَاقِبُنَا اللهُ جَل جَلَالُهُ بِتَعْذِيبِ وإهْلَاكٍ مُسْتَأْصِلٍ.

﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾:

﴿يَٰوَيْلَنَآ﴾: عِبَارَةٌ نُدْبَةٍ تَحْمِلُ مَعْنَىٰ التَّفَجُّعِ، والتَّحَسُّرِ، والْحُزْنِ، والتَّوَجُّعِ، كأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: يَا عَذَابَنَا الشَّدِيدَ؛ هَلْ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ تَنْصَرِفَ عَنَا، إِذَا اعْتَرَفْنَا بِجَرائِمِنَا قَائِلِينَ: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾.

﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ﴾: أي: فَمَا زَالَتْ عِبارة: ﴿يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ دُعَاءَهُمُ الَّذِي يُكَرِّرُونَهُ، يَسْتَعْطِفُونَ بِهِ رَبَّهُمْ أَنْ يَرْفَعَ مَا أَنْزَلَ بِهِمْ بِاعْتِرَافِهِمْ بِأَنَّهُمْ كَانُوا ظَالِمِينَ، ولَكِنْ بَعْدَ بَدْءِ نُزُولِ العِقَابِ الرَّبَّانِيِّ لَا يَرْفَعُ عِقَابَهُ الدُّعَاءُ.

الدَّعْوَىٰ: مَصْدَرٌ كَالدُّعَاءِ، مِنْ فعل: «دَعَا يَدْعُو».

• ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا﴾: أي: حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ كالزَّرْعِ الْمَحْصُودِ بالمنْجَلِ ونَحْوه، مُترامِينَ هَلْكَىٰ عَلَىٰ الْأَرْض.

الْحَصِيدُ: الْمَحْصُودُ مِنَ الزَّرْعِ بالمنْجَلِ ونَحْوِهِ.

خَامِدِين: أي: قَتْلَىٰ كَجَمْرٍ كَانَ مُلْتَهِباً فَأُطْفِئَ فَصَارَ فَحْماً خَامِداً بَارِداً، أو صار رَماداً.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الثّاني من دُرُوس سورة (الأنبياء).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(٧)
التّدبُّر التحليلي للدرس الثالث من دُروس سورة (الأنبياء) الآيات من (١٦ ـ ٢٤)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾:

القراءات:

(٢٤) • قرأ حفص: [مَن مَّعِيَ] بِفَتْحِ ياء المتكلّم.

وقرأهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بإسْكانِ ياء المتكلّم.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانٌ مَقْرُونٌ بِحُجَّةٍ عَقْلِيَّةٍ؛ بِأَنَّ خَلْقَ السَّمَاءِ والْأَرْضِ لَيْسَ لَعِباً وَلَا لَهْواً، بَلْ هُوَ لِغَايَةٍ حَكِيمَةٍ، هِيَ امْتِحَانُ النَّاسِ في ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وهـٰذَا الامْتِحَانُ يَسْتَتْبِعُ الْجَزَاءَ الْأَكْبَرَ يَوْمَ الدِّين.

وفيها مُنَاقَشَةُ الْمُشْرِكِينَ فِي شِرْكِيَّاتِهِم، وما يَفْتَرُونَ مِنْ بَاطِلٍ عَلَىٰ اللهِ بَارِئِهِمْ، والْمُهَيْمِنِ عَلَيْهِمْ دَواماً بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ.

وفيها تَعْلِيمُ الرَّسُولِ ﷺ وَكُلِّ دَاعٍ إلى اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ؛ أَنْ يُطَالِبَهُمْ بِبُرْهَانِهِم عَلَىٰ مَا يَفْتَرُونَهُ مِنْ شِرْكِيَّاتٍ، مِنْ دَلِيلٍ عَقْلِيٍّ، أَوْ دَلِيلٍ نَقْلِيٍّ عَنْ رَسُولٍ مِنْ رُسُلِ اللهِ السَّابِقِين عَلَيْهِم السَّلَام.

التدبُّر التحليلي:

▪ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مُبَيِّناً أَنَّ حِكْمَةَ اللهِ تَأْبَىٰ أَنْ يَخْلُقَ الإنْسَ والْجِنَّ ذَوِي إرَادَاتٍ حُرَّةٍ، يَخْتَارُونَ بِهَا خَيْراً أَوْ شَرّاً، في ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيا؛ دُونَ أَنْ يَكُونَ بَعْدَ هَـٰذِهِ الْحَيَاةِ حَيَاةٌ أُخْرَىٰ يَكُونُ فِيهَا حِسَابٌ، وفَصْلُ قَضَاءٍ، وَتَنْفِيذُ جَزَاء، وإلَّا كَانَ هـٰذَا الْخَلْقُ لَعِباً وَلَهْواً، وَقَدْ تَنَزَّهَ الْبَارِي ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ عَنِ اللَّعِب واللَّهْو:

• ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾:

أي: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ والْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ أَحْيَاءٍ وَمِنْهَا الإنْسُ والْجِنُّ ذَوُو الإرَادَاتِ الْحُرَّةِ، الْمُمَكَّنُونَ مِنْ فِعْلِ الْخَيْرِ والشَّرّ، والإيمَانِ

والكُفرِ، والنَّفعِ والضُّرِّ، والظُّلمِ والعُدْوانِ، والبَغْيِ والطُّغْيَانِ، وقتْلِ وَتَعْذِيبِ الأَبْرِيَاءِ، وأكْلِ حُقُوقِ النَّاسِ بالْبَاطِلِ، وبَذْلِ العَوْنِ والعَطَاءِ، وإنْفَاقِ الْمَالِ فِي نَفْعِ النَّاسِ، والإصْلَاحِ، إلَىٰ سَائِرِ الْمُتَضَادَّاتِ والمُتَنَاقِضَات؛ مَا خَلَقْنَا ذَلِكَ لَاعِبِينَ وَلَا لَاهِين، دُونَ أَنْ يَكُونَ هَـٰذَا الْخَلْقُ لامْتِحَانِ ذَوِي الإرَادَاتِ الْحُرَّة، ودُونَ أَنْ يَسْتَتْبِعَ هَـٰذَا الامْتِحَانُ الْحِسَابَ، وفَصْلَ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيذَ الجزاء.

اللّعِب: ضِدُّ الْجِدّ، وَيُقَالُ لِكُلٍّ مَنْ يَعْمَلُ عملاً دُونَ هَدَفٍ يَقْصِدُهُ أَهْلُ الْعَقْلِ والرُّشْدِ والكمَالِ: إِنَّمَا أَنْتَ لَاعِبٌ، وكَذَلِكَ مَنْ يَشْغَلُ نَفْسَهُ بِعَمَلٍ ذِي نَفْعٍ ضَئِيلٍ حَقِير، وهو قادِرٌ في الْوَقْت نَفْسِهِ عَلَىٰ أَنْ يَقُومَ بِعَمَلٍ ذِي نَفْعٍ جَلِيلٍ كَبِيرٍ؛ يُقَالُ لَهُ: إِنَّمَا أَنْتَ لَاعِبٌ.

اللَّهْوُ: الاشْتِغَالُ بضَئِيلِ الْقِيمَةِ انْصِرَافاً عَمَّا يَجِبُ تَوْجِيهُ الْجَهْدِ والْعَمَلِ لَهُ.

إِنَّ الْخَالِقَ الْمُبْدِعَ الْعَظِيمَ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ صُنْعاً، وهُوَ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً، وَحَكِيمٌ فِي كُلِّ اخْتِيَارَاتِهِ؛ مِنَ المسْتَحِيلِ عَقْلاً أَنْ يَخْلُقَ الْإِنْسَ والْجِنَّ عَبَثاً، وَأَنْ يَكُونَ لَاعِباً أَوْ لَاهِياً بِخَلْقِهِ لَهُمَا، دُونَ قَصْدِ امْتِحَانِهِمَا فِي رِحْلَةِ الْحَيَاةِ الدنْيا، وإتْبَاعِ هَـٰذَا الامْتِحَانِ بالْجَزَاءِ بالْعَدْلِ أَوْ بالْفَضْلِ، فَكَيْفَ تُنْكِرُونَ أَيُّهَا الكَفَرَةُ المشْرِكُونَ الآخِرَةَ والجزاءَ؟!.

وَيُبَيِّنُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ لَوْ أَرَادَ بِعَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ أَنْ يَتَّخِذَ لَهْواً أَوْ لَعِباً، (ولَنْ يُرِيدَ)؛ لَمَا فَعَلَ ذَلِكَ فِي عِبَادٍ يَفْرَحُونَ وَيَحْزَنُونَ، وَيَتَأَلَّمُونَ وَيُسَرُّونَ، وَيَغْضَبُونَ وَيَرْضَوْنَ، وَيَسْعَدُونَ وَيَشْقَوْنَ، إلَىٰ سَائِرِ الْمَشَاعِرِ المتناقِضَةِ والمتَضَادَّة، الَّتِي يَتَعَرَّضُونَ لَهَا فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ، دُونَ غَايَةٍ حَكِيمَة، بَلْ لو شَاءَ أَنْ يَفْعَلَهُ لَفَعَلَهُ بِمَخْلُوقَاتٍ عِنْدَهُ لا أَحَاسِيسَ لَهَا وَلَا مَشَاعِرَ وَلَا حَيَاةَ، وَلَيْسَ لَهَا صِفَاتُ الإنْسِ والْجِنّ، فَكَيْفَ تَغْفُلُونَ عَنْ هَـٰذِهِ الحقيقة؟!!.

• ﴿... إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾: أي: إنْ كُنَّا فَاعِلِينَ عَلَىٰ سَبِيلِ الافْتِرَاضِ الاحْتِمَالِيِّ الَّذِي نَتَنَزَّهُ عَنْهُ، وَلَا نَفْعَلُهُ أيضاً.

اسْتُعْمِلَتْ «إنْ» الشَّرْطِية للدَّلَالَة عَلَىٰ أَنَّ هَـٰذَا الاحْتِمَالَ مَرْفُوضٌ أيْضاً، لأنَّهُ يَتَنَافَىٰ مَعَ كَمَالِ صِفَاتِ الرَّبِّ الْأَزَلِيِّ الْأَبَدِيِّ، فَهُوَ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ وَسَمَتْ حِكْمَتُهُ؛ لَا يَلْهُو وَلَا يَلْعَبُ وَلَا يَعْبَثُ، بَلْ كُلُّ أفْعَالِهِ حَكِيمَةٌ ذَواتُ غَايَاتٍ سَامِيَاتٍ.

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ تَعْقِيباً عَلَىٰ الْحُجَّةِ الدَّامِغَةِ السَّابِقَةِ فِي الآيَتَيْنِ (١٦) و(١٧):

• ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾:

الْقَذْفُ: رَمْيُ شَيْءٍ ثَقِيلٍ كَحَجَرٍ، أَوْ حَدِيدَة، بقُوَّةٍ مِن الْقَاذِفِ، وَقَد اسْتُعِيرَ الْقَذْفُ هُنَا لِتَقْدِيمِ الْحُجَّةِ الحقِّ بِقُوَّةٍ تُزْهِقُ الْبَاطِلَ، وَتَكْشِفُ أَنَّهُ بَاطِلٌ لَا ثَبَاتَ لَهُ.

• ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: أي: بِبَيَانِ الْحَقِّ حُجَّةً لِإزَالَةِ الْبَاطِلِ وجَعْلِهِ مضْمَحلًّا بِسُرْعَةٍ، فالْعُقُولُ الَّتِي تُدْرِكُ الْحَقَّ وَلَدَيْهَا الاسْتِعْدَادُ لِلْإيمانِ به؛ تَطْرُدُ الْبَاطِلَ عَنْهَا بِسُرْعَةٍ فَائِقَةٍ.

• ﴿فَيَدْمَغُهُۥ﴾: أي: فَيَشُجُّهُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ دِمَاغَهُ وَيُخْرِجَهُ مِنْ رَأْسِهِ. وَهَـٰذَا عَلَىٰ سَبِيلِ الاسْتِعَارَةِ، إذْ شُبِّهَ انْتِصَارُ الْحَقِّ عَلَىٰ الْبَاطِلِ؛ بِمَنْ يَقْتُلُ خَصْمَهُ بِأُسْلُوبِ شَجِّهِ، وإِخْرَاجِ دِمَاغِهِ مِنْ رَأْسِهِ.

• ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ﴾: أي: فَإِذَا الْبَاطِلُ زَائِلٌ بِسُرْعَةٍ، دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهُ ثَبَاتٌ أَوْ قُدْرَةٌ عَلَىٰ الْمُقَاوَمَةِ.

• ﴿... وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾: أي: وَلَكُمْ أَيُّهَا الكَفَرَةُ

الَّذِينَ تُنْكِرُونَ الْبَعْثَ والْيَوْمَ الآخِرَ الْعَذَابُ الشَّدِيدُ، مِنْ أَجْلِ مَا تَصِفُونَ رَبَّكُمْ بِهِ مِمَّا هُوَ مُنَزَّهٌ عَنْهُ.

المعْنَىٰ: لَا نَدَعُ الْبَاطِلَ الَّذِي تُرَوِّجُونَهُ أَيُّهَا المبْطِلُونَ بِزُخْرُفِ الْقَوْلِ، وَهُوَ مُضَادٌّ أَوْ مُنَاقِضٌ لِلْحَقِّ الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ في الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَيْنَاهُ لِعِبَادِنَا؛ لَا نَدَعُهُ يَنْتَشِرُ دُونَ أَنْ نُزْهِقَهُ بالْبُرْهَانِ الدامِغِ، بَلْ نَقْذِفُ بِبَرَاهِينِ الْحَقِّ عَلَىٰ رَأْسِهِ ذِي الدِّمَاغِ الْفَاسِدِ، فَيَكْسِرُ رَأْسَهُ، وَيُخْرِجُ دِمَاغَهُ، وَيَجْعَلُهُ قَتِيلاً زَاهِقاً زَائِلاً بِسُرْعَةٍ، فَلَا يَقْبَلُهُ إِلَّا الْفَاسِدُونَ الْمُجْرِمُونَ الكَفَرَةُ بِالْحَقِّ الْجَلِيِّ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِأَنَّهُ مَالِكُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وأَنَّ مَنْ عِنْدَه وهم الْمَلَائِكَة لَا يَفْتُرُون عَنْ عِبَادَتِهِ:

• ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾:

«مَنْ» اسْمٌ مَوْصُولٍ خاصٌّ بِذِي الحياة والْعِلْمِ غالباً، فَمَنْ في السَّمَاوَاتِ: الملائكة، ومَنْ في الْأَرْضِ: الإنْسُ والْجِنُّ وقسْمٌ مِنَ الملائِكَةِ، ومَنْ عِنْدَ اللهِ: هُمْ أَهْلُ الْمَلأِ الْأَعْلَىٰ مِنَ الْمَلَائِكَة، كَجِبْرِيلَ، وإِسْرَافِيلَ، ومِيكَائِيل، ومَلَكِ الْمَوْت، ونَحْوِهِمْ.

﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾: أي: لَا يَتْعَبُونَ، وَلَا يَمَلُّون.

﴿لَا يَفْتُرُونَ﴾: أي: لَا يَنْقَطِعُونَ عَنْ تَسْبِيحِهِمْ، وَلَا يَسْكُنُ نَشَاطُهُمْ بِفُتُورٍ يَعْرِضُ لَهُمْ.

المعنى: ولله مِلْكُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ مِن الْأَحْيَاءِ ذوي العلم، وَلَهُ مِلْكُ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنَ الأَحْيَاءِ ذوي العلم، وجاء في نُصُوصٍ أخرىٰ أَنَّ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ والْأَرْض مِنْ أَحْيَاء وأشياء.

ومَنْ عِنْدَهُ مِنْ أَهْلِ الْمَلأ الأَعْلَىٰ لَا يَسْتَكْبِرُونَ مُمْتَنِعِينَ عَنْ عِبَادَتِهِ بِمَا يُرْضِيهِ مِنْ عِبَادَات، وَلَا يَتْعَبُونَ وَلَا يَمَلُّونَ، فَهُمْ يُسَبِّحُونَ اللهَ دَواماً فِي كُلِّ أَجْزَاءِ دَوْرَةِ الزَّمنِ، وَلَا يَنْقَطِعُونَ عَنْ تَسْبِيحِهِمْ، وَلَا يَسْكُنُ نَشَاطُهُمْ بِفُتُورٍ يَعْرِضُ لَهُمْ، فَقَدْ مَنَحَهُمُ اللهُ فِي تكوينِهِم الْقُدْرَةَ عَلَىٰ التَّسْبِيحِ الدَّائِمِ، والرَّغْبَةَ الدَّائِمَةَ فِيهِ، كَمَا مَنَحَ النَّاسَ الرَّغْبَةَ فِي التَّنَفُّسِ الدَّائِمِ، لارْتِبَاطِ الحياة بِهِ.

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يُحَاوِر المشْرِكِين لإِقْنَاعِهِمْ بِفَسَادِ شِرْكِهِمْ:

• ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ ۖ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾:

• ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾﴾:

«أم» هَـٰذِهِ مُنْقَطِعَة، وَمَعْنَاهَا يَنْحَلُّ إلى استفهام مع إضْرَاب انْتِقَالِيٍّ، والاسْتِفْهَامُ هُنَا اسْتِفْهَامٌ إنْكَارِيٌّ، يُنْكِرُ الْمَوْلَىٰ عليهم بِهِ أَنْ يَتَّخِذُوا آلِهَةً مِنْ دُونِ اللهِ.

• ﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾: أي: هُمْ يُحْيُونَ الْمَوْتَىٰ، يُقَالُ لغة: «نَشَرَ اللهُ الْمَيّتَ، يَنْشُرُهُ، نَشراً، ونُشُوراً، وأنْشَرَهُ إنْشاراً» أي: أَحْيَاهُ بَعْدَ الْمَوْتِ.

أي: إضْرَاباً عَنْ مَقَالَاتِ المشْرِكِينَ السَّابِقَةِ، وعَنْ مَوَاقِفِهِمُ الضَّالَّة مِنَ الْقُرآنِ ومِنَ الرَّسُولِ ـ ﷺ ـ؛ أَتَّخَذَ الْمُشْرِكُونَ آلِهَةً مِنَ الأَرْضِ هُمْ قَادِرُونَ عَلَىٰ إحْيَاءِ الْمَوْتَىٰ؟!.

إِنَّ آلِهَتَهُمُ الَّتِي يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللهِ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ، فَهَلْ أَحْيَا شَيْءٌ مِنْهَا مَيِّتاً، وبَعَثَهُ إِلَىٰ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْت؟!.

لَكِنَّ اللهَ خَالَقَ الكَونِ كُلِّهِ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ، فَقَدْ مَكَّنَ رَسُولاً مِنْ رُسُلِهِ وهو عيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ أَنْ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ بإِذْنِ رَبِّهِ، وَأَحْيَا قَتِيلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِيُخْبِرَ عَنْ قَاتِلِهِ، وَأَحْيَا الْعُزَيرَ بَعْدَ أَنْ أَمَاتَهُ مِئَةَ عَامٍ، وَأَحْيَا حِمَارَهُ وَأَرَاهُ كَيْفَ يُحْيي الْمَوْتَى، وأَحْيَا لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام الطُّيُورَ الْأَرْبَعَةَ الَّتِي ذَبَحَهَا وَخَلَطَ بَعْضَهَا بِبَعْضٍ، وجَعَلَ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً، ثُمَّ دَعَاهُنَّ فَجِئْنَ إِلَيْهِ سَعْياً.

وَجَاءَ في نُصُوصٍ كَثِيرَةٍ بَيَانُ أَنَّ آلِهَةَ المشْرِكِينَ لَا تَمْلِكُ شَيْئاً وَلَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وهُنَا جَاءَ بَيَانُ أَنَّهَا لَا تُحْيِي الْمَوْتَىٰ، لِقَطْعِ كُلِّ طَرِيقٍ عَلَىٰ دَعَاوَىٰ المشْرِكِينَ بِشَأْنِ آلِهَتِهِمْ.

وَجَاءَ التَّوْكِيدُ بِضَمِيرِ الْفَصْلِ «هُمْ» في عِبَارَةِ: ﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾، وهُوَ تَوْكِيدٌ لِنَفْي قُدْرَتِهِمْ عَلَىٰ إِحْيَاءِ الموتَىٰ، إِذْ جَاءَ تَحْتَ عُمُومِ الاسْتِفْهَامِ الإِنْكَارِيِّ.

• ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا . . . ﴿٢٢﴾﴾:

أي: لَوْ كَانَ فِي السَّمَاءِ والْأَرْضِ آلِهَةٌ حَقِيقِيَّةٌ يَصِحُّ أَنْ تُعْبَدَ، إِذْ هِيَ أَرْبَابٌ أَوْ لَهَا رُبُوبِيَّاتُ خَلْقٍ أَوْ تَصَارِيفُ في الْكَوْنِ؛ لَفَسدَتِ السَّمَاءُ والأَرْضُ، وَلَمْ تَبْقَيَا عَلَىٰ صَلَاحِهِمَا الدَّائِمِ المسْتَمِرِّ، وَنِظَامِهِمَا الضَّابِطِ لِكُلِّ أَصْغَرِ جُزْءٍ مِنْهُمَا مَوْقِعاً، وَحَرَكَةً، وَتَأَثُّراً وَتَأْثِيراً.

والسَّبَبُ المؤدِّي لِهَـٰذَا الْفَسَادِ أَنَّ الْآلِهَةَ الْأَرْبَابَ، الَّتِي لَهَا قُدُرَاتٌ عَلَىٰ أَنْ تَتَصَرَّفَ بِمَرْبُوبِيهَا بإِرَادَاتٍ حُرَّةٍ غَيرِ مَجْبُورَةٍ بِمُقْتَضَىٰ رُبُوبِيَّاتِهَا الَّتِي لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ فِي صِفَاتِها إِرَادَاتٌ ذَوَاتُ حُرِّيَاتٍ لَا حَجْرَ عَلَيْهَا وَلَا مُجْبِرَ لَهَا؛ مِنْ غَيرِ الْمُمْكِنِ عَقْلاً أَنْ تَتَّفِقَ إِرَادَاتُها الْحُرَّةُ عَلَىٰ أَنْ تَتَصَرَّفَ بِمَا لَهَا رُبُوبِيَّةٌ عَلَيْهِ؛ تَصَرُّفَاتٍ مُتَطَابِقَاتٍ في كُلِّ شيءٍ.

فَإِذَا أَرَادَ أَحَدُ الآلِهَةِ الْأَرْبَابِ إِنْقَاذَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِفَلْقِ الْبَحْرِ لِمُوسَىٰ

عَلَيْهِ السَّلَام بِمُعْجِزَةِ الْعَصَا، وإِغْرَاقَ فِرْعَوْنَ وآلِهِ وجَيْشه فِي مَكَانِ الْفَرْقِ؛ وَلَمْ يُرِدْ هٰذَا إِلَهٌ رَبٌّ آخَرُ، وَهُمَا مُتَكَافِئَانِ في الرُّبُوبِيَّةِ، فَأَيُّ الرَّبَّيْنِ تتحَقَّقُ إرَادَتُهُ؟!.

هُنَا لَا بُدَّ أَنْ يَظْهَرَ فَسَادٌ عَظِيمٌ نَتِيجَةَ تَضَارُبِ وَتَعَارُضِ الإِرادَتَيْنِ لِلرَّبَّيْن، وَيَتَفَاقَمُ الأَمْرُ إِذَا كَانُوا آلِهَةً أَرْبَاباً.

وهٰذَا مِثَالٌ لِحَدَثٍ جُزْئِيٍّ فِي مَكَانٍ مِنَ الكَوْن، مع الْعِلْمِ بِأَنَّ الكَوْنَ كُلَّهُ وَحْدَةٌ مُتَرابِطَةٌ، فَكَيْفَ إِذَا تَصَوَّرْنَا مَا لَا نِهَايَةَ لَهُ مِنَ احْتِمَالَاتِ التَّعَارُضِ والتَّنَاقُضِ بَيْنَ إِرَادَاتِ الْآلِهَةِ الأَرْبَابِ، ذَوِي الْقُوىٰ المتكافِئَةِ فِي رُبُوبِيَّاتِها، والْقُدْرَةِ عَلَىٰ تَنْفِيذِ مُرَادَاتِها؟!.

• ﴿... فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾:

أي: فتَنَزَّهَ اللهُ الْجَلِيلُ الْعَظِيمُ رَبُّ الْعَرْشِ الَّذِي هُوَ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وأعْظَمُ مِنْهَا، عَمَّا يَصِفُ المشرِكُونَ مِنْ أنَّ لَهُ شُرَكَاءَ فِي رُبُوبِيَّتِهِ أَوْ فِي إِلَهِيَّتِهِ، وهُوَ الّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ فِي أيِّ وَصْفٍ مِنْهُمَا.

ومِنْ صِفَاتِهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ أَنَّهُ لَا أَحَدَ يَسْأَلُهُ لِيُحَاسِبَهُ عَمَّا يَفْعَلُ، فَهُو الْقَهَّارُ الْجَبَّارُ الَّذِي يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ، دُونَ خَوْفٍ مِنْ سُؤَالٍ وَحِسَابٍ وَجَزَاءٍ، ولكنَّ كُلَّ أفْعَالِهِ حَكِيمَةٌ مُطَابِقَةٌ لِلْعَدْلِ أو الْفَضْلِ وَالْإِنْعَامِ والإِكْرَام، والْجُود والإحسان.

الْعَرْشُ: مَخْلُوقٌ أعْظَمُ مِن السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَهُوَ فَوْقها وَمُحِيطٌ بِها، وهُوَ خاضِعٌ لِرُبُوبِيَّةِ اللهِ تَعالى.

• ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

أي: لَا أَحَدَ يَسْأَلُ اللهَ رَبَّ الْعَرْشِ عَمَّا يَفْعَلُ مُحَاسِباً لَهُ على أفْعَالِهِ واختياراته، ﴿وَهُمْ﴾: أي: وكُلُّ ذَوِي الْإِرَادَاتِ الْحُرَّةِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ مَا

يَفْعَلُونَ؛ يُسْأَلُونَ عَمَّا يَفْعَلُونَ بِإِرَادَاتِهِمْ، ويُحَاسَبُونَ عَلَيْهِ، ويُحْكَمُ عَلَيْهِمْ بِهِ، لِمُجَازَاتِهِمْ، مَا لم يَغْفِرِ اللهُ لَهُمْ أَوْ يَعْفُ عَنْهُمْ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ ﷺ فَكُلَّ دَاعٍ إِلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ أَنْ يُطَالِبَ المخَالِفِينَ بِبُرْهَانِهِمْ عَلَىٰ مَا يَدَّعُونَ:

● ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْۖ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِىۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾:

«أمْ» هُنَا مُنْقَطِعَةٌ نَظِيرُ سَابِقَتِهَا.

أي: إِضْرَاباً عَنِ اتِّخَاذِ الْمُشْرِكِينَ آلِهَةً أرْبَاباً؛ أَتَّخَذُوا آلِهَةً لَيْسُوا أَرْبَاباً، ولَكِنْ أَمَرَ الرَّبُّ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ بِعِبَادَتِهِمْ أَوْ أَذِنَ بِعِبَادَتِهِمْ لِيُقَرِّبُوهُمْ إِلَىٰ اللهِ زُلْفَىٰ، إِذْ لَا يَصِحُّ عِبادَةُ مَنْ لَيْسَ رَبًّا إِلَّا بإِذْنٍ مِنَ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ.

إذا كانَتْ هَـٰذِهِ دَعْوَاهُمْ؛ فَقُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّد أَوْ يَا دَاعِياً إِلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ: هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ؛ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ الرَّبَّ الَّذِي لَا رَبَّ في الوجود سُواه؛ أَمَرَكُمْ بِعِبَادَةِ آلِهَتِكُمْ فِي كِتَابٍ مُنَزَّلٍ أَو أَذِنَ لَكُمْ به.

هـٰذَا الْقُرْآنُ ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ حَتَّىٰ آخِرِ حَيَاةِ النَّاسِ فِي الأرض، وَهـٰذَا عِنْدَ أَهْلِ الكِتَابِ ذِكْرُ مَنْ قَبْلِي، فَهَلْ فِي كِتَابٍ مِنْ كُتُبِ اللهِ الصَّحِيحَةِ النِّسْبَةِ إِلَىٰ اللهِ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الله أَمَرَ أَوْ أَذِنَ بِعِبَادَةِ آلِهَةٍ مِنْ دُونِهِ؟. إِنَّهُمْ لَنْ يَجِدُوا، وبهـٰذَا تَسْقُطُ ذَرَائِعُهُمْ كُلُّهَا.

وجاء التعليقُ الرَّبَّانِيّ بِبَيَانِ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يُحِبُّونَ أَنْ يَعْلَمُوا الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ لَا يُرِيدُونَ اسْتِمَاعَ براهين الْحَقّ.

وبهـٰذَا انتهىٰ تَدَبُّر الدّرس الثالث من دُرُوس سورة (الأنبياء).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

❀ ❀ ❀

(٨)

التدبّر التحليلي للدّرس الرابع من دُروس سورة (الأنبياء) الآيات من (٢٥ ـ ٢٩)

قال اللهُ عَزَّ وَجلَّ:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾:

القراءات:

(٢٥) • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: [**نُوحِي إِلَيْهِ**].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**يُوحَىٰ إِلِيهِ**] بالبناء لما لم يُسَمَّ فاعله.

(٢٥) • قرأ يَعْقُوب: [**فَاعْبُدُونِي**] بإِثْبَاتِ يَاءِ المتكلِّم وصْلاً ووقفاً.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**فَاعْبُدُونِ**] بِحَذْفِ يَاءِ المتكلِّم.

(٢٨) • قرأ يَعْقُوب: [**أَيْدِيهُمْ**] بضَمّ هَاءِ الضّمير.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**أَيْدِيهِمْ**] بِكَسْرِ هَاءِ الضمير.

(٢٩) • قرأ نافع، وأبو عمرو، وأبو جعْفَر: [**إِنِّيَ إِلَهٌ**] بِفَتْحِ يَاء المتكلّم.

وقرأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بإسكانِ ياءِ المتكلم.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ خِطَابٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجلَّ لِرَسُوله ﷺ؛ بِأَنَّ

وَحْيَ الله إِلَيْهِ نَظِيرُ وحْيِهِ إِلَىٰ الرُّسُلِ مِنْ قَبْلِهِ، لإسْمَاعِ المكذِّبِينَ هَـٰذِهِ الحقيقة دُونَ مُخَاطَبَتِهِمْ بِهَا.

وفيها عرضُ قَوْلِ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ اللهَ اتَّخَذَ وَلَداً، افتراءً عَلَىٰ اللهِ بِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللهِ، مَعَ بَيَانِ وَاقِعِ حَالِ الْمَلَائِكَة.

التدبُّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِرَسُوله محمّد ﷺ بِضَمِير المتكلّم العظيم:

● ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾. وفي القراءة الأخرى: **[إِلَّا يُوحَىٰ إِلَيْهِ]** بالبناء لما لم يسمّ فاعله، أي: يُوحَىٰ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ أَوْ بأمْرِ رَبّه.

«مِنْ» في: ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ مَزِيدَةٌ لِتَوْكِيدِ عُمُومِ النفي.

بَعْدَ نَفْي وُجُودِ آلِهَةٍ غَيْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في الآية (٢٤)، ومُطَالَبَةِ المشْرِكِينَ بِتَقْدِيمِ بُرْهَانِهِمْ على مَا يَزْعُمُونَ، وهم عاجِزُونَ عَنْ تَقْدِيم بُرْهَانٍ ما؛ أَبَان اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مُخَاطِباً رَسُولَهُ ﷺ بِضَمِيرِ المتكلّم العظيم؛ أَنَّهُ مَا أَرْسَلَ رَسُولاً مَا مِنْ قَبْلِهِ بِعَظَمَةِ رُبُوبِيَّتِهِ إِلَّا كَانَ يُوحِي إِلَيْهِ عَنْ طَرِيقِ رَسُولِ الْوَحْي أَوْ عَنْ غَيْرِ طَرِيقِ رَسُولِ الْوَحْي مِنَ الْمَلَائِكَةِ قَضِيَّتَيْنِ:

الْقَضِيَّةُ الْأُولَىٰ: أَنَّهُ لَا إِلَهَ يُعْبَدُ بِحَقٍّ إِلَّا هُوَ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾.

الْقَضِيَّةُ الثَّانِيَة: الْأَمْرُ بِعِبَادَتِهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ: ﴿فَٱعْبُدُونِ﴾.

والظاهر أَنَّ الْغَرَضَ مِنْ هـٰذَا الْبَيَانِ إِسْمَاعُ الكَفَرَةِ المكَذِّبِينَ بِأُسْلُوب خطاب الرسُول ﷺ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ فِرْيَةِ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ اتَّخَذَ وَلَداً وَزَعَمُوا أَنَّ الْملَائِكَةَ عَلَيْهِم السَّلَام بَنَاتُ اللهِ تعالى:

﴿وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾:

هٰذَا النَّصُّ يُبيِّنُ أَنَّ بَعضَ النَّاس زَعَمُوا أَنَّ الْمَلائِكَةَ عَلَيْهِم السَّلام بَنَاتُ الله، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ، أَوْ أَنْ تَكُونَ لَهُ صَاحِبَةٌ تُنجِبُ مِنْهُ أَوْلاداً، فالرَّبُّ الْأَزَلِيُّ الْأَبَدِيُّ يَسْتَحِيلُ عَقْلاً أَنْ يَكُونَ لَهُ كُفُؤاً أَحَدٌ، أَو أَنْ يَتَّخِذَ لِنَفْسِهِ مِمَا خَلَقَ زَوْجَةً أَوْ وَلَداً. **الْوَلد**: يُطْلَقُ عَلَىٰ الذَّكَرِ والْأُنْثَىٰ.

وَقَدْ ذَكَرُوا أَنَّ قَبِيلَةَ خُزَاعَةَ (مِنْ سُكَّانِ ضَواحِي مَكَّةَ) كانَتْ تَزْعُمُ أَنَّ الْمَلائِكَةَ عَلَيْهِم السَّلام بَنَاتُ اللهِ، أُمَّهَاتُهُنَّ مِنْ سَرَوات الْجِنّ، أَيْ: مِنْ أَشْرَافِ الْجِنّ، وذَوِي الْمَكَانَةِ الرَّفِيعَةِ فيهِمْ.

وَكَانَ عَلَىٰ اعْتِقَادِهِمْ الْبَاطِلِ هٰذَا بَعْضُ الْعَرَب، ومِنْهُمْ بَعْضُ الْقُرَشِيِّينَ.

- ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾: أَيْ: تَنَزَّهَ جَلَّ جَلالُهُ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ ولد.

وَأَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ أَنَّ الْمَلائِكَةَ عَلَيْهِم السَّلام لَيْسُوا أَوْلاداً للهِ فقال تَعَالَىٰ:

﴿... بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾: أي: لَيْسُوا أَوْلاداً للهِ جَلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ، وَتَنزَّهَتْ ذَاتُهُ وَصِفَاتُهُ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ، بَل الْمَلائِكَةُ عَلَيْهِم السَّلام عِبَادٌ مِنْ عِبَادِ اللهِ، فَهُمْ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، وَمَمْلُوكُونَ لَهُ، وَقَدْ جَعَلَهُمْ مُكْرَمِينَ، أَي: ذَوِي مَكَانَةٍ رَفِيعَةٍ، وَمُنَزَّهِينَ عَنْ مَعْصِيَةِ اللهِ بَارِئِهِمْ، إِذْ فَطَرَهُمْ عَلَىٰ طَاعَتِهِ، فَهُمْ لَا يَعْصُونَهُ، وَبِأَمْرِهِ ـ جل جَلالُهُ ـ يَفْعَلُونَ أَفْعَالَهُمْ فِي كَوْنِهِ.

يُقَالُ لُغَةً: «أَكْرَمَ فُلَانٌ فُلَاناً» أي: رَفَعَ مِقْدَارَهُ، وأَعْظَمَهُ، وَجَعَلَ لَهُ مِيزَةً ذَاتَ فَضْل.

• ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾: أي: لَا يَقُولُونَ قَوْلاً إِلَّا إِذَا أَمَرَهُمُ اللهُ بِأَنْ يَقُولُوهُ، وإذا كَانُوا لَا يَقُولُونَ قولاً مَا إِلَّا بِأَمْرِهِ؛ فَهُمْ لَا يَعْمَلُونَ عَمَلاً مَا إِلَّا بِأَمْرِهِ، جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ، من بابِ أَوْلَىٰ.

• ﴿... وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾: أي: وَكُلُّ عَمَلٍ يَعْمَلُهُ الْمَلَائِكَةُ عَلَيْهِم السَّلَام فإِنَّهُمْ يَعْمَلُونَهُ بِأَمْرِهِ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

جاء في هَـٰذِهِ العِبَارَةِ التَّصْرِيحُ بِمَا فُهِمَ مِنَ العِبَارَةِ السَّابِقَةِ مِنْ بَابِ أَوْلَىٰ.

• ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ...﴾: أي: يَعْلَمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَاضِيَ كُلِّ شَيْءٍ، لِكُلِّ زَمَنٍ مِنْ أَزْمَانِ وُجُودِ كُلِّ واحِدٍ مِنْهم، فَهُوَ الْوَاقِعُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، ويَعْلَمُ مُسْتَقْبَلَ كلِّ شَيْءٍ، لِكُلِّ زَمَنٍ مِنْ أَزْمَانِ وُجُودِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهم، فَهُوَ الْوَاقِعُ خَلْفَهُمْ إِذْ هُوَ غَيْبٌ عَنْهُم.

• ﴿... وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ...﴾: أي: وَلَا يَشْفَعُ أَحَدٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِم السَّلَام، لِأَحَدٍ مِنَ الْعُصَاةِ الموضُوعِينَ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ؛ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ اللهُ أَنْ يَشْفَعُوا لَهُ.

وجاء في نُصُوصٍ أُخْرَىٰ؛ أَنَّ الشَّفَاعَةَ عِنْدَ اللهِ لِأَحَدٍ لَا تَكُونُ إِلَّا بإِذْنِهِ، وَمِنَ الْجَمْعِ بَيْنَ الدَّلَالَتَيْنِ نَفْهَمُ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَقْبَلُ شَفَاعَةَ أَحَدٍ لِأَحَدٍ؛ مَا لَمْ يَكُنِ المشْفُوعُ لَهُ قَدِ ارْتَضَىٰ تَعالى أَنْ يُشْفَعَ لَهُ، وَمَا لَمْ يَكُنْ قَدْ أَذِنَ لِلشَّافِعِ بِأَنْ يَشْفَعَ لَهُ، فَهُمَا شَرْطَانَ.

وفِي هـٰذَا تيْئِيسٌ لِمُؤَلِّهِي الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِم السَّلَام، مِنِ اتِّخَاذِ عِبَادَتِهِمْ ذَرِيعَةً للانْتِفَاعِ بِشَفَاعَتِهِمْ، إِذْ هُمْ لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا بإِذْنِ رَبِّهِمْ، وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ اللهُ أَنْ يَشْفَعُوا له.

• ﴿... وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

الْخَشْيَةُ مِنَ اللهِ: خوفٌ مَصْحُوبٌ بِتَعْظِيمٍ وَمَهَابَةٍ، وَقَدْ يَقْتَرِنُ بها الحبُّ والإجلال.

مُشْفِقُون: أي: خَائِفُونَ حَذِرُونَ.

أي: والملَائِكَةُ مِنْ إجْلَالِ رَبِّهِمْ وَتَعْظِيمِهِمْ لَهُ، وَمَهَابَتِهِمْ مِنْهُ، وَحُبِّهِمْ لَهُ، وَخَوْفِهِمْ مِنْ سُلْطَانِهِ وَجَبَرُوتِهِ وَقُدْرَتِهِ؛ خَائِفُونَ حَذِرُونَ.

• ﴿۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾:

أي: وَمَنْ يَقُلْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِ اللهِ لِيَعْبُدَهُ مَنْ يَنْخَدِعُ بِقَوْلِهِ، فَذَلِكَ المنْحَطُّ فِي دَرَكَاتِ الْإِثْمِ نَجْزِيهِ عَذَاباً فِي جَهَنَّمَ خَالِداً فِيها أَبداً.

كَذَلِكَ الْجَزَاءِ الأليمِ الْخَالِدِ في جَهَنَّمَ نَجْزِي كُلَّ الظَّالِمِينَ، مِنْ دَرَكَةِ هٰذَا الظُّلْمِ الشَّنِيعِ الَّذِي يَدَّعي فِيهِ الظَّالِمُ أَنَّهُ إِلَهٌ مِنْ دُونِ اللهِ، مَهْمَا كَانَ قَبْلَ ادّعَائِهِ ذَا مَنْزِلَةٍ رَفِيعَةٍ مُفَضَّلَةٍ عِنْدَ رَبِّهِ، مَلَكاً، أَوْ نَبِيًّا، أَوْ رَسُولاً، ولَكِنَّ هَٰؤُلَاءِ مَعْصُومُونَ بِعِصْمَةِ اللهِ عَنْ ارْتِكَابِ مِثْلِ هٰذَا الظُّلْمِ الشَّنِيعِ.

وبهٰذَا انتهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الرابعِ من دُرُوس سورة (الأنبياء).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(٩)
التدبّر التحليليّ للدّرس الخامس من دُروس سورة (الأنبياء) الآيات من (٣٠ ـ ٣٣)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا

مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾:

القراءات:

(٣٠) • قرأ ابْنُ كثير: [**أَلَمْ يرَ**] بِدُون الواو العاطفة بَعْدَ هَمْزَةِ الاستفهام.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**أَوَ لَمْ يَرَ**] بإثبات الواو العاطفة.

(٣٠) • قرأ ورش، والسُّوسي، وأَبُو جَعْفر: [**يُومِنُونَ**]، وكذلِكَ قَرَأَهَا حَمْزَة في الوقف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**يُؤْمِنُونَ**].

تَمْهيد:

فِي آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ ذِكْرُ حَقِيقَةٍ عِلْمِيَّةٍ كَوْنِيَّة كُبْرَىٰ: هَلْ تَوَصَّلَ عُلَمَاءُ الكَوْنِيَّاتِ إِلَىٰ مَعْرِفَتِهَا، أَمْ لَمْ يَتَوَصَّلُوا إِلَىٰ مَعْرِفَتِهَا حَتَّى الآن؟، وَهِيَ أَنَّ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضَ كَانَتَا كُتْلَةً واحِدَةً عُظْمَىٰ، فَجَزَّأَهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَىٰ أَجْزَاءٍ، وَجَعَلَ مِنْهَا مَجَرَّاتٍ، وَنُجُوماً، وكواكب.

وفيها بَيَانَ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ مِنَ الماء كُلَّ شيءٍ حَيٍّ، مع بيانِ ظَوَاهِرَ كَوْنِيَّةٍ أُخْرَىٰ، فِيهَا دَلَالَةٌ عَلَىٰ كَمَالِ حِكْمَةِ اللهِ الدَّالَّةِ علَىٰ أَنَّ الله خَلَقَ النَّاسَ لِيَبْلُوَهُمْ فِي ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا.

التدبّر التحليلي:

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيّناً حَقِيقَةً مِنَ الحقائق الكَوْنِيَّةِ، وَمُنبِّهاً عُلَمَاءَ الْكَوْنِيَّاتِ عَلَيْهَا رَغْبَةً فِي أَنْ تَدْفَعَهُمْ إلى الإيمان:

• ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾:

﴿رَتْقًا﴾: **الرَّتْقُ في اللُّغَة**: إلْصاقُ عَناصِرِ الشَّيْءِ بَعْضِهَا بِبَعْض، حَتَّىٰ لَا يَكُونَ بَيْنَهَا خَلَلٌ يُفْسِدُ التَّماسُكَ بَيْنَها، وَوَحْدَتَها الْكُلِّيَّةَ.

يُقَالُ لُغَة: «رَتَقَ الشَّيْءَ، يَرْتِقُهُ، ويَرْتُقُهُ، رَتْقاً» أي: سَدَّ الْخَلَلَ بَيْنَ عَناصِرِهِ، وَجعَلَها مُلْتَئِمَةً. ويقالُ: «رَتِقَ الشَّيْءُ، يَرْتَقُ، رَتَقاً» أي: انْسَدَّ والْتَأَمَ.

﴿كَانَتَا رَتْقًا﴾: أي: كَانَتَا مَرْتُوقَتَيْنِ مُجْتَمِعَتَيْنِ كُتْلَةً عَظِيمَةً غَيْرَ مُقَسَّمَةٍ وَلَا مُفَصَّلَة، أُطْلِقَ المصْدَرُ بِمَعْنَىٰ اسْم المفعول.

والْفَتْقُ: ضِدُّ الرَّتْقِ، ومِنْ صُوَرِ الْفَتْقِ تَجْزِئَةُ الشَّيْءِ الْمُجْتَمِعِ، وَتَقْسِيمُهُ إلَىٰ أَقْسَامٍ وأجْزَاء مُتَفَاصِلَةٍ مُتَباعِدَةٍ.

أي: أمَا زَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ عُلَمَاءِ الْكَوْنِيَّاتِ؛ بَعِيدِينَ عَنْ إدْرَاكِ أدِلَّةِ أَنَّ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ كَانَتَا كُتْلَةً واحِدَةً مُجْتَمِعَةً، فَفَتَقْنَاهُمَا وَقَسَّمْنَاهُمَا إلَىٰ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ، وَمَجَرَّاتٍ كَثِيرَاتٍ فِيهَا بَلَايِينُ النُّجُومِ والْكَواكِب، ومِنْهَا الْأَرْضُ، وَلَمْ يَرَوْهَا رُؤْيَةً فِكْرِيَّةً عِلْمِيَّةً، تَهْدِيهِمْ إلَىٰ الإيمانِ بِرُبوبِيَّة اللهِ وإلَهِيَّتِهِ، وإلَىٰ الإيمانِ بأَنَّ محمّداً ـ ﷺ ـ عَبْدُ اللهِ وَنَبِيُّهُ وَرَسُولُهُ، وإلَىٰ الإيمانِ بِأَنَّ الْقُرْآنَ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الحكيم.

ولَسْتُ أَدْرِي هَلْ وَصَلَ عُلَمَاءُ الكَوْنِيَّاتِ إلَىٰ مَعْرِفَةِ هَـٰذِهِ الحقيقَةِ الكَوْنية، أَمْ لَمْ يَصِلُوا بَعْدُ إلَىٰ مَعْرِفَتِها؟؟.

وفي القراءة الأُخرى: [**أَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا**...] دون حرف عطف بَعْدَ همزة الاستفهام.

هَـٰذِهِ القراءَةُ يُقْصَدُ بِهَا الَّذِينَ وَصَلُوا إلَى أَدِلَّةٍ يُدْرِكُونَ بِهَا أَنَّ

السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ كَانَتَا كُتْلَةً وَاحِدَةً مُجْتَمِعَةً، فَقَسَّمَهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إلى مَجرَّاتٍ وَنُجُومٍ وكواكب. والاسْتِفْهَامُ فيها اسْتِفْهَامٌ إنْكَارِيٌّ عَلَىٰ الَّذِينَ أَدْرَكُوا هَـٰذِهِ الحقيقة ولَمْ تَهْدِهِمْ إِلَىٰ الإيمان باللهِ وكتابِهِ ورَسُولِهِ ﷺ.

• ﴿... وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ...﴾:

ثَبَتَ بالنَّصِّ الصَّرِيحِ الْجَلِيِّ أَنَّ آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ خَلَقَهُ اللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَتْ قُدْرَتُهُ ـ مِنَ الطِّينِ، أي مِنَ الْمَاءِ والتُّرَابِ، وهُوَ حَيٌّ مُمْتَازٌ مِنَ الْأَحْيَاءِ، ويَدْخلُ فِي عُمُومِ: ﴿كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾.

وَهـٰذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ المرادَ بِالْعِبَارَةِ هُنَا أَنَّ الماءَ هُوَ المادَّةُ الْأَكْثَرُ فِي بِنَاءِ كُلِّ ذِي حَياةٍ، حتَّىٰ النَّبَاتِ الْحَيِّ النَّامي، وأَنَّهُ لَا حَيَاةَ بِدُونِ مَاءٍ، وَلَا يَدْخُلُ فِي عُمُومِ: ﴿كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ الْمَلَائِكَةُ والْجِنُّ، فالْمَلَائِكَةُ خُلِقُوا مِنْ نُورٍ، والْجِنُّ خُلِقُوا مِنْ نَارٍ، وقَدْ ثَبَتَ هـٰذَا فِي نُصُوصِ القرآنِ والسنة. فالمرادُ كُلُّ شَيْءٍ حَيٍّ مِنَ المشْهُودِ للنَّاسِ في الأرض.

وقَدْ ذَكَرَ عُلَمَاءُ الكَوْنِيَّاتِ أَنَّ ثُلُثَيْ جِسْمِ الإنْسَانِ مُكَوَّنٌ مِنَ الماء، وأنَّ كُلَّ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ تَتَكَوَّنُ غَالِباً مِنَ الْمَاءِ، وأنّ بَعْضَ الثمراتِ فيها مِنَ الْمَاءِ بِنِسْبَةِ (٨٠٪).

فَوُجُودُ الْمَاءِ بِنِسْبَةٍ عُظْمَىٰ في الْكَائِنَاتِ الحيَّةِ يُلائِمُهُ أنْ يُقَالَ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾، ونَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ الْأَحْيَاء مَتَىٰ فَقَدَتْ مِيَاهَهَا فَقَدَتْ حَيَاتَها، فالماءُ فِيها شَرْطٌ مِنْ شُرُوطِ حَيَاتِها.

• ﴿... أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٠﴾: اسْتِفْهَامٌ فِيهِ تَلْوِيمٌ لِلّذِينَ كَفَرُوا وَلَمْ يُؤْمِنُوا إذا عَرَفُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقَهُمَا اللهُ، وَعَرَفُوا أَنَّ اللهَ جَعَلَ مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ نَفَخَ فِيهِ روحَ الْحَيَاةِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بَيَانَ بَعْضِ آيَاتِهِ فِي كَوْنِهِ بضمير المتكلّم العظيم:

• ﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾:

في هَـٰذِهِ الآيَاتِ بيانُ خَمْسِ آياتٍ مِنْ آياتِ اللهِ في كَوْنِهِ:

الآية الكونيّة الأولى: دَلَّ عَلَيْهَا قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾:

سبَقَ أنْ جَاءَ التَّنْبيهُ عَلَىٰ هَـٰذِهِ الآيةِ مِنْ آيَاتِ اللهِ الكَوْنِيَّةِ في السّور التالية: «المرسلات/ ٣٣ الآية (٢٧) ـ ق/ ٣٤ الآية (٧) ـ النمل/ ٤٨ الآية (٦١) ـ لقمان/ ٥٧ الآية (١٠) ـ فصلت/ ٦١ الآية (١٠) ـ النحل/ ٧٠ الآية (١٥)».

أي: وَجَعَلْنَا بِقُدْرَتِنَا الْعَظِيمَةِ وَحِكْمَتِنَا السَّامِيَة فِي الْأَرْضِ جِبَالاً رَوَاسِيَ ثَابِتَاتٍ رَاسِخَاتٍ، مَنْعَ أَنْ تَتَحَرَّكَ الْأَرْضُ مِنْ تَحْتِهِمْ وَتَضْطرِبَ بِهِم.

يقال لُغَةً: «مَادَ الشيْءُ، يَمِيدُ، مَيْداً، وَمَيَداناً» أي: تَحَرَّكَ واضطَرَبَ.

الآيَةُ الكونيّةُ الثانية: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْل اللهِ تَعالَىٰ: ﴿... وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾:

فِجَاجاً: جَمْعُ «فَجٍّ»، وهو الطَّرِيقِ الواسِعُ بَيْنَ جَبلَيْنِ.

سُبُلاً: جمْعُ «سَبِيلِ»، وهو ما وَضَحَ مِنَ الطَّرِيق وصَلَحَ لِلْعُبُورِ عَلَيه.

أي: وجَعَلْنَا في الأرض طُرُقاً واسِعَةً بَيْنَ الجبالِ، وهَـٰذِهِ الفِجَاجُ تَصْلُحُ أَنْ تَكُونَ سُبُلاً يَتَّخِذُهَا النَّاسُ لِسُلُوكِهَا، ورغْبَةً فِي أَنْ يَهْتَدُوا إلى الأمَاكِنِ الَّتِي يَقْصِدُونَ الوصُولَ إِلَيْهَا.

الآية الكونيَّة الثالثة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ الله تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾:

تَرَجَّح لَدَيَّ أَنَّ الْمُرَادَ بِالسَّمَاءِ هُنَا الْغِلَافُ الغازي حَوْلَ الأَرْضِ، لِأَنَّ كُلَّ مَا عَلَا فَأَظَلَّ يُسَمَّىٰ في اللُّغَةِ سَمَاءً.

وَيَنْطَبِقُ عَلَىٰ الْغِلَافِ الغازي حَوْلَ الأَرْضِ أَنَّهُ كالسَّقْفِ، وَهَـٰذَا السَّقْفُ مَحْفُوظٌ مِمَّا يُفْسِدُه وَيُغَيِّرُ نِظَامَهُ مِنَ الْقُوَىٰ الكَوْنِيَّةِ الكُبْرَىٰ، وَهُوَ حَافِظٌ لِلْأَرْضِ مِنْ أَشِعَّةٍ ضَارَّةٍ تَأْتي من الشَّمْسِ وغَيْرِهَا مِنَ النُّجُوم، وَحَافِظٌ لِلْأَرْضِ مِنَ النَّيَازِكِ والأَجْرَام الَّتِي تَنْجَذِبُ إِلَيْهَا، إِذْ تَحْتَرِقُ وَهِيَ هَاوِيَةٌ، فَتَتَجَزَّأُ فتَتَلاشَىٰ أَوْ تَصِلُ إِلَىٰ الأَرْضِ غَيْرَ ذَاتِ أَثَرٍ مُدَمِّر.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا مُعْرِضُونَ عَنْ الاسْتِفَادَةِ مِنْ آيَاتِ اللهِ في السَّمَاء، لِلْإِيمانِ بأَنَّ اللهَ الْعَزِيزَ الْعَلِيمَ الْحَكِيمَ قَدْ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ صُنْعاً، وامْتَنَّ عَلَىٰ عِبَادِهِ فِي الأَرْضِ، إِذْ جَعَلَ حَوْلَ دَارِ إِقَامَتِهِمْ فِي الأَرْضِ سَقْفاً مَحْفُوظاً، وَحَافِظاً لَهُمْ مِمَّا تُطْلِقُهُ الأَجْرَامُ الكَوْنِيَّةُ مِنْ قَوَاتِلَ وَمُهْلِكَاتٍ وَضَارَّاتٍ وَمُؤْذِيَاتٍ.

الآية الكونيَّة الرابعة: دَلَّ عَلَيْهَا قولُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾:

فَأَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ أَنَّ التَّدْبِيرَ الرَّبَّانِيَّ الَّذِي نَتَجَ عَنْهُ ظَاهِرِيًّا اللَّيلُ والنَّهَارُ؛ هُوَ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ الله فِي كَوْنِهِ.

وقد سبَقَ في نجوم التَّنْزِيلِ التَّنْبِيهُ على هَـٰذِهِ الآيَة الكَوْنِيَّةِ فِي عِدَّةِ نُصُوص، وسبق بيانُ مَا فَتَحَ اللهُ بِهِ بِشَأْنِهَا.

الآية الكونية الخامسة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾:

أي: وهُوَ الَّذي خَلَقَ بِقُدْرَتِهِ المقْرُونَةِ بحِكْمَتِهِ وعظيم رَحْمَتِهِ لِعِبَادِهِ، وعِلْمِهِ الَّذِي أحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ؛ الشَّمْسَ والْقَمَرَ.

وقَدْ سَبَقَ فِي نُجُوم التَّنْزِيلِ التَّنْبِيهُ عَلَىٰ آيَتي الشَّمْسِ والقمر، في عِدَّةِ نُصُوصٍ، وسَبَقَ بَيَانُ مَا فَتَحَ اللهُ بِهِ بِشَأْنِهِمَا.

وذكَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ صِفَاتِ الشَّمْسِ والْقَمَرِ؛ أَنَّهُمَا يَدُورَانِ سَبْحاً فِي أَفْلَاكٍ مُحَدَّدَةٍ لَهُمَا فِي السَّمَاء.

وقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَسْبَحُونَ﴾ بِضَمِيرِ مَنْ يَعْلَمُ ويَعْقِلُ، لِأَنَّ ضَبْطَ سَبْحِهِمَا في أَفْلَاكِهِمَا عَبْرَ الدُّهور، دُونَ أَنْ يَتَعَرَّضَا لِخَلَلٍ يُخْرِجُهُمَا عَنِ النِّظَام المقدَّرِ المقْضِيّ لَهُمَا؛ إِنَّمَا هُوَ بِخَلْقِ الْعَلِيم الحكِيم الْقَدِيرِ، فانْضِبَاطُ سَبْحِهِمَا دُونَ خَلَلٍ يُشْبِهُ انْضِبَاطَ ذوي الْعِلْم والْعَقْلِ، مَعَ أَنَّ الْفَاعِلَ لِذَلِكَ فِيهِمَا هُوَ الرَّبُّ الْخَالِقُ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ، لَكِنَّهُ مِنْ حَيْثُ الظَّاهِرُ يُشْبِهُ أفْعَالَ ذوي الإِرَادَاتِ الْحُرَّةِ الْعُلَمَاءِ الْعُقَلَاءِ الضَّابِطِينَ.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الخامس من دُرُوس سورة (الأنبياء).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(١٠)
التَّدبر التحليلي للدَّرسِ السادس من دُرُوس سورة (الأنبياء)
الآيات من (٣٤ ـ ٤١)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ خِطَاباً لِرَسُولِهِ ﷺ فَلِلنَّاسِ بضمير المتكلّم العظيم:

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم

بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾﴾:

القراءات:

(٣٤) • قرأ ابْنُ كثير، وأَبُو عَمْرو، وابْنُ عَامِر، وشعبة، وأبو جَعْفر، ويعقوب: [**مُتَّ**] بضَمّ الميم، وهو لغة مطابقَةٌ للقياس.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**مِتَّ**] بِكَسْرِ الميم، وهو لغة سماعيّة.

(٣٥) • قرأ يعْقُوب: [**تَرْجِعُونَ**] بالمبني للمعْلُوم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**تُرْجَعُونَ**].

أي يُرْجِعُكُم اللهُ إلى الحياة فأنْتُم تَرْجِعُونَ بالْجَبْرِ.

(٣٦) • قرأ حفص: [**إِلَّا هُزُواً**].

وقرأهَا حمزة وخلف: [**إِلَّا هُزْءاً**].

وقَرَأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**إِلَّا هُزُءاً**].

(٣٧) • قرأ يَعْقُوبُ: [**فَلَا تَسْتَعْجِلُونِي**] بإثْبَاتِ ياء المتكلّمِ في الوصْل والوقف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ**] بحذف ياء المتكلّم.

(٣٩) • قرأ حمزَةُ، والكِسَائِي، وخَلَف: [**عَنْ وُجُوهِهُمُ النَّارَ**] بضم هاء الضَّمِير.

وقرأها أبو عمر، ويعقوب: [**عَنْ وُجُوهِهِمِ النَّارَ**].

وقرأهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ] بِكَسْرِ هَاءِ الضمير.

وهَٰذا كلّه عِنْد الوَصْل، وأمَّا عِندَ الوقْفِ فَالجميعُ على كَسْرِ الهاء وإِسْكَان الميم.

(٤١) ● قرأ أَبُو عَمْرو، وعاصم، وحمزة، وَيعقوب: [وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ]. بِكَسْرِ دال «لَقَد».

وقرأهَا أَبُو جَعْفر وَصْلاً: [وَلَقَدُ اسْتُهْزِيَ]: بالياء بدل الهمزة.

وقرأهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [وَلَقَدُ اسْتُهْزِئَ] بضمِّ دالِ «لَقَدْ».

ووقف حمزة، وهِشَامٌ، بإبْدَالِ الهمزة يَاءً سَاكِنَةً.

تَمْهيد:

فِي آيَاتِ هَٰذَا الدَّرْسِ مُعَالَجَةُ أَئِمَّةِ المشْرِكِينَ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ مَوْتَ الرَّسُولِ ﷺ، للتَّخلُّصِ مِنْ دَعْوَتِهِ، بأُسْلُوبِ خِطَابِ الرَّسُولِ ﷺ مَعَ الإعْرَاضِ عَنْهُم، وإسْمَاعِهِمْ بأسْلُوبٍ غَيْرِ مُبَاشِرٍ، مَعَ إعْلَامِ الرَّسُولِ ﷺ بأنَّ اللهَ بِسُلْطَانِهِ الْقَاهِرِ لَمْ يَجْعَلْ لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِهِ الْخُلْدَ فِي الحياة الدُّنْيَا، ويقُولُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ: ﴿... أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

وَفِيهَا بَيَانُ أَنَّ كُلَّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الموْتِ في هَٰذِهِ الْحَيَاة الدنيا، وأَنَّ الحياة الدُّنْيَا رِحْلَةُ امْتِحَانٍ بِمَا يَرَاهُ النَّاسُ شَرًّا، وبِمَا يَرَوْنَهُ خَيْراً، وأنَّ بَعْدَ الموتِ بَعْثاً إلى الحياةِ الأُخْرَىٰ، تَرْجِعُ فيها الْخَلَائِقُ إلى رَبِّهَا، لِلْحِسَابِ، وفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيذِ الجَزَاء.

وفيها بَيَانُ مَوْقِفِ أئِمَّةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ إبَّانَ التَّنْزِيلِ مِنْ إنْذَارَاتِ الرَّسُولِ ﷺ لَهُمْ، وَهُوَ مَوْقِفُ الاسْتِهْزَاءِ بِهَا وبالرَّسُولِ ﷺ الَّذِي يُنْذِرُهُمْ، مع طَلَبِهِمْ تَعْجِيلَ تَحْقِيقِهَا تَعْبِيراً عَنْ تَكْذِيبِهِمُ الرَّسُولَ ﷺ بها.

وَفِيها بَيَانُ أَنَّ الإنْسَانَ خُلِقَ مِنْ عَجَلٍ.

وفيها مُعَالَجَتُهُمْ بالتَّرْهِيبِ، وَبِقِيَاسِهِمْ عَلَىٰ مَنْ سَبَقَهُمْ مِنْ كُفَّارِ الْقُرُونِ الْمَاضِية.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِرَسُوله ﷺ وإسْمَاعاً لمتربّصِي موته من أئِمَّة المشْرِكِينَ إبَّانَ التَّنْزِيل بضَمِيرِ المتكلّم العظيم:

• ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾. وفي قِرَاءَة يعقوب: [تَرْجِعُونَ].

دلَّ مَا جَاءَ فِي الآيَةِ (٣٤) على أَنَّ أَعْدَاءَ الرَّسُولِ ﷺ، مِنْ أَئِمَّةِ أَهْلِ الشِّرْكِ والكُفْرِ في مَكَّةَ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ؛ صَارَتْ نُفُوسُهُم تُحَدِّثُهُم بِأَنْ يَنْتَظِرُوا مَوْتَهُ، فَإِذَا مَاتَ تَخَلَّصُوا مِنْ دَعْوَتِهِ، ومِنَ الدِّينِ الْجَدِيدِ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ، وَفَرَّقَ بِهِ اجْتِمَاعَهُمْ عَلَىٰ الشِّرْكِ وَلَوَازِمِ الشِّرْكِ فِي السُّلُوكِ.

فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَـٰذِهِ الآيَةَ كَاشِفَةً لَهُمْ ولِلْمُسْلِمِينَ مَا تُحَدِّثُهُمْ بِهِ نُفُوسُهُم، مع الْعِلَاجِ المناسِبِ لِهَـٰذِهِ الحالَةِ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا إِبَّانَ تَنْزِيلِ سُورَة (الأنْبِيَاء/ ٧٣).

ثُمَّ صَارُوا يَتَحَدَّثُونَ صَرَاحَةً بِهَـٰذِهِ الْأُمْنِيَةِ إِبَّانَ نُزُول سورة (الطور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول)، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فيها قَوْلَهُ:

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾.

وقد جَاءَ الْعِلَاجُ في سُورَةِ (الْأَنْبِيَاء/ ٧٣ نزول) بِبَيَانِ أَنَّ الرَّبَّ بِحِكْمَتِهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ قَضَىٰ أَنْ يَجْعَلَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لِلامْتِحَان، وَأَنْ تَكُونَ قَصِيرَةً لِلْمُمْتَحَنِينَ، وأَنْ تَنْتَهِيَ بالْمَوْتِ، وأَنْ تَكُونَ بَعْدَهَا رَجْعَةٌ إِلَىٰ حَيَاةِ الْخُلُودِ، وفي هَـٰذِهِ الْحَيَاةِ الْأُخْرَىٰ يَكُونُ الْحِسَابُ، وَفَصْلُ الْقَضَاءِ وَتَحْقِيقُ الْجزاء، على مَا قَدَّمَ الْمُمْتَحَنُونَ في الحياة الدُّنْيَا مِن عَمَلٍ صَالِحٍ فِيه طاعَةٌ للهِ، أَوْ عَمَلٍ فَاسِدٍ فِيهِ مَعْصِيَةٌ للهِ.

فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ:

• ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾: أي: وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مُنْذُ عَهْدِ أَوَّلِ الْبَشَرِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَام، حَتَّىٰ زَمَنِكَ الَّذِي تَعِيشُهُ؛ الْخُلْدَ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَكُلُّ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِنَ النَّاسِ قَدِ اسْتَوْفَىٰ نَصِيبَهُ الْمُقَدَّرَ لَهُ مِنَ الْحَيَاةِ هَـٰذِهِ، حَيَاةِ الابْتِلَاءِ، وبانْتِهَاءِ أَجَلِهِ فِيهَا أَمَتْنَاه، لِنَبْعَثَهُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ مَعَ سَائِرِ المبْعُوثِينَ.

وَقَالَ لِرَسُولِهِ ﷺ مُتَحَدِّثاً عَنْ مُنْتَظِرِي مَوْتِهِ مِنْ أَئِمَّةِ الشِّرْكِ:

• ﴿... أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾: أي: أَفَإِنْ مِتَّ يَا مُحَمَّدُ عَقِبَ انْتِهَاءِ أَجَلِكَ المقَدَّرِ لَكَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا؛ أَفَهُمْ وَحْدَهُمْ الْخَالِدُونَ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فِي الحياةِ الدُّنيا، دُونَ سَائِرِ الْبَشَرِ المقْضِيِّ عَلَيْهِمْ بالْمَوْتِ؟.

استفهامٌ يُرَادُ بِهِ النَّفْيُ، أي: إِنَّهُمْ كَسَائِرِ الْبَشَرِ سَيَمُوتُونَ في آجَالِهِمُ المقَدَّرَةِ لَهُمْ، وَسَوْفَ يُبْعَثُونَ إلى الحياة الأُخرىٰ مَعَ سَائِرِ الْمَبْعُوثِين، فَلَا يَطْمَعْ طَامِعٌ مِنْهُمْ بِأَنْ يَكُونَ خالِداً في ظُرُوفِ هَـٰذِهِ الحياة الدُّنيا.

وَجَاءَ الْعِلَاجُ في سورة (الطور/ ٧٦ نزول) بتَعْلِيم الرسُولِ ﷺ أَنْ يقولَ لَهُمْ: ﴿تَرَبَّصُواْ﴾: أي: انْتَظِرُوا إِنِي مَعَكُمْ مِنَ المنتظِرِينَ مَا يَقْضِي اللهُ لَنا.

رَيْبُ المنُون: حوادِثُ الدَّهر المميتَةُ.

وأتبعَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ البَيَانَ فِي سُورَةِ (الأنبياء/ ٧٣) بقولِهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ... ﴿٣٥﴾﴾:

هـٰذَا بَيَانُ قَانُونٍ رَبَّانِيٍّ عَامٍّ، تَمَّ بِهِ تَقْدِيرُ اللهِ وَقَضَاؤُه، فَجَعَلَ بِهِ كُلَّ النُّفُوسِ فِي هَـٰذِهِ الْحَيَاةِ الأُولَىٰ؛ لَا بُدَّ أَنْ تَذُوقَ الْمَوْتَ بَعْدَ انْتِهَاءِ آجَالِهَا المقَدَّرَةِ المقضيَّةِ بِتَقْدِيرِ اللهِ وقَضَائِهِ.

النَّفْس: هِيَ الطَّبْعَةُ المقدَّرَةُ المقضيَّةُ لِكُلِّ مَخْلُوقٍ قَضَىٰ اللهُ أَنْ يَجْعَلَهُ حَيًّا، وفِيهَا خَرِيطَةُ تَكْوِينِهِ، وكُلُّ صِفَاتِهِ الَّتِي سَيَكونُ عَلَيْهَا وهُوَ حَيٌّ، فَإِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يَجْعَلَ النَّفْس ذَاتَ حَيَاةٍ نَفَخَ فِيها الرُّوحَ، والروحُ مَخْلُوقٌ رَبَّانِيٌّ يَكُونُ بأَمْرِ اللهِ التَّكْويني، ومَتَىٰ اتَّصَلَ بالنَّفْسِ كَانَتِ النَّفْسُ كائِناً حَيًّا، فالرُّوحُ بِمَثَابَةِ الطَّاقَةِ الَّتِي يَعْمَلُ بِهَا جِهَازُ النَّفْسِ أَعْمَالَهُ وفْقَ خَرِيطَةِ تَكْوِينِهِ، وحِينَ تَنْفَصِلُ هَـٰذِهِ الطَّاقَةُ عَنِ النَّفْسِ تَذُوقُ النَّفْسُ الْمَوْتَ.

ولِكُلِّ المخْلُوقَاتِ الحيَّةِ مِنْ أَعْلَىٰ الْمَرَاتِبِ إِلَىٰ أَدْنَاهَا نُفُوسٌ بِحَسَبِهَا، كُلُّ مَلَكٍ لَهُ نَفْسٌ، ويَكُونُ حَيًّا باتّصَالِهَا بالرُّوح الَّتِي يَخْلُقُهَا اللهُ لَهُ بأَمْرِ التَّكْوِينِ مُبَاشَرَةً، وتَذُوقُ الْمَوْتَ بانْفِصَالِ الرُّوحِ عَنْهَا. وكَذَلِكَ كُلُّ إِنْسَانٍ، وكُلُّ جِنِّيٍّ، وكُلُّ ذِي حياة حَتَّىٰ الحشَرَاتُ والميكْرُوبَاتُ والْفَيْرُوسَات، وَمَا دُونَ ذَلِكَ إِنْ وُجِدَ.

فالأَحْيَاءُ الدُّنْيَا، وَمَا فَوْقَهَا مِنَ الْمَرَاتِبِ، حَتَّىٰ أَحْيَاءُ الملأ الأَعْلَىٰ مِنَ الملائِكَةِ، كإِسْرَافِيل، ومِيكَائِيل، وجِبْرَائِيلَ؛ لِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُمْ نَفْسٌ خَاصَّةٌ بِهِ، وَلَا بُدَّ أَنْ تَذُوقَ هَـٰذِهِ النَّفْسُ الْمَوْتَ بانْفِصَالِ الرُّوحِ عَنْهَا عِنْدَ انْتِهَاءِ أَجَلِ حَيَاتِهَا الأُولَىٰ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ الْخَلَائِقُ يَوْمَ الْقِيَامَة، وهِيَ حَيَاةُ خُلُودٍ لِبَعْضِ الأَحْيَاءِ، ولا سيما مَنْ كَانَ مَوْضُوعاً في الحياة الدُّنْيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ.

وبَعْدَ هـٰذَا خَاطَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ذَوِي الْإِرَادَاتِ الحرَّةِ الموضوعِينَ في الحياةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿... وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾:
- ﴿وَنَبْلُوكُم﴾: أي: وَنَخْتَبِرُكُمْ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، إِذْ أَنْتُم فِيهَا مَوْضُوعُونَ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ.
- ﴿بِٱلشَّرِّ﴾: أي: بِمَا تَرَوْنَهُ شَرّاً مِمَّا تَكْرَهُونَ كالْمَرَضِ، والْفَقْرِ،

والذُّلّ، وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ والأَنْفُسِ والثَّمراتِ، وكَمَوْتِ مَنْ هُوَ عَزِيزٌ ويُعْتَبَرُ مَوْتُهُ مُصِيبَةً لَكُمْ، وَمَا تَرَوْنَهُ شَرّاً هُوَ فِي تَقْدِيرِنَا وقضائِنَا خَيْرٌ، لِأَنَّ الامْتِحَانَ يَقْتَضِي اخْتِبَارَ الممتَحَنِ بِمَا يَسُوؤُهُ، وهٰذَا فِي الحقِيقَةِ خَيْرٌ، لِأَنَّهُ يُوصِلُ إِلَىٰ كَشْفِ نَفْسِ الْمُمْتَحَنِ، فَهُوَ فِي مَقَايِيس الامْتِحَانِ خَيْرٌ.

• ﴿وَٱلْخَيْرِ﴾: أي: وَنَبْلُوكُم بِمَا تَرَوْنَهُ خَيْراً مِمَّا تُحِبُّونَ، كالصِّحَّةِ، والْقُوَّةِ، والغِنَىٰ، والْعِزّ، والاسْتِمْتَاعِ باللَّذَّاتِ والسَّارَّات.

• ﴿فِتْنَةً﴾: أَيْ: ابْتِلَاءً، فَهُوَ مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ مِنْ مَعْنَىٰ الْفِعْلِ، لِتَوْكِيدِ مَعْنَىٰ الابْتِلَاء.

فالابْتِلَاءُ بالْمَكَارِهِ هو لاخْتِبَارِ الصَّبْرِ والرِّضا عَنِ اللهِ والالْتِجَاءِ إِلَىٰ اللهِ بالدُّعاء.

والابْتِلَاءُ بالمحَابّ والسَّارَّاتِ هو لاخْتِبَارِ الشُّكْرِ، والثَّنَاءِ عَلَىٰ اللهِ بالْمَحَامِدِ، والإيمانِ الْعَمِيقِ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي أَنْعَمَ بالإيجادِ والإِمْدَادِ، والحياةِ، وفَضَّلَ بالإنْسَانِيَّة، ورزَقَ، وعافَىٰ وأَمْتَعَ، وابْتَلَىٰ لِيَمْتَحِنَ.

• ﴿... وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾: أي: وسَنُمِيتُكم، ثُمَّ نَبْعَثُكُمْ، وإِلَىٰ حِسَابِنَا، وفَصْل قَضَائِنَا، وَتَنْفِيذِ جَزَائِنَا؛ نُرْجِعُكُمْ بِالْبَعْثِ، فَتَرْجِعُونَ بالْجَبْرِ، فَلَا تَمْلِكُونَ عِناداً وَلَا قُدْرَةً عَلَىٰ الْمُمَانَعَةِ.

وكانَ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي الْبَيَانِ الْعَوْدُ إِلَىٰ خِطَابِ الرَّسُولِ ﷺ، لِيُعْلِمَهُ بأَنَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ بِمَا يُؤْذِيهِ به أَئِمَّةُ الكُفْرِ والشِّرْكِ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ: فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ:

• ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾:

أي: وَإِذَا رَءَاكَ أَئِمَّةُ الَّذِينَ كَفَرُوا يا رَسُولَنَا يا مُحَمَّدُ؛ مَا يَتَّخِذُونَكَ

إِلَّا إِنْسَاناً مُسْتَهْزَأً بِهِ، قَائِلِينَ لِأَتْبَاعِهِم: أَهَذَا الَّذِي لَا مَالَ لَهُ وَلَا قُوَّةَ؛ يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا كَمَا كَانَ آبَاؤُكُمْ يَعْبُدُونَهَا بِسُوءٍ، وَيَلُومُكُمْ عَلَىٰ عِبَادَتِهَا، وهِيَ مِيرَاثُ قَوْمِكُمْ الدِّينِي.

«إِنْ» حَرْفُ نَفْيٍ بِمَعْنَىٰ «مَا».

والاسْتِفْهَامُ في ﴿أَهَـٰذَا ٱلَّذِى . . .﴾؟: اسْتِفْهَامُ اسْتِهْزَاءٍ وسُخْرِيَةٍ.

• ﴿. . . وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾: أي: والْحَالُ أَنَّهُمْ بالذِّكْرِ الْمُنَزَّلِ مِنَ الرَّحْمٰنِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الكِتَابِ الْمُعْجِزِ الَّذِي هُو هُدًى ونُورٌ؛ هُمْ كَافِرُونَ.

إِنَّهُمْ يَسْتَهْزِئُونَ بالرَّسُولِ ﷺ، لِأَنَّهُ يَذْكُرُ أَوْثَانَهُمُ الَّتِي لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ بِسُوءٍ، في حَالِ أَنَّهُمْ يَكْفُرُونَ بالْحَقِّ الْجَلِيِّ الواضِحِ، الْهَادِي إِلَىٰ كُلِّ خَيْرٍ وَسَعَادَةٍ، والْمُنَزَّلِ مِنَ رَبِّ الْعَالَمِينَ الْعَزِيزِ الحكيمِ الرَّحْمٰن.

ضَمِيرُ الْفَصْلُ فِي: ﴿هُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ جِيءَ بِهِ لِتَوْكِيدِ كُفْرِهِمْ بِالْحَقِّ الَّذِي يَجِبُ عَلَىٰ كُلِّ عَاقِلٍ أَنْ لَا يَكْفُرَ بِهِ، وفي هـٰذَا تَلْوِيمُ شَدِيدٌ ضِمْنِيٌّ لَهُمْ، وإِيماءٌ إلى سَفَاهَتِهِمْ وقِلَّةِ عُقُولهم.

وانْتَقَلَ الْبَيَانُ فِي هـٰذَا الدَّرْس إِلَىٰ الْحَدِيثِ عَنِ اسْتِعْجَالِ أئِمَّةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ مَا أُنْذِرُوا بِهِ، فقال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾:

بَدَأَتْ هَـٰذِهِ الآيَاتِ بِبَيَانِ أَنَّ نَفْس الإنْسَانِ خُلِقَتْ مِنْ عَجَلٍ، فَهُوَ عَجُولٌ بِفِطْرَتِهِ.

الْعَجَلُ: السُّرْعَةُ، وهِيَ خِلَافُ الْبُطْءِ.

وَمَا فِي الإنْسَانِ مِنْ فِطْرَةِ السُّرْعَةِ؛ تَجْعَلُهُ يَسْتَعْجِلُ الشَّيءَ قَبْلَ أَوَانِهِ، وَتَحْرِمُهُ مِنْ فَضِيلَةِ الْأَنَاةِ والْحِلْمِ، ومِنْ فَضِيلَةِ إِتْقَانِ أَعْمَالِهِ الَّتي يَحْتَاجُ إِتْقَانُهَا إِلَىٰ زَمَنٍ طَويلٍ، وهو باسْتِعْجَالِهِ يُرِيدُ اخْتِصَارَ هٰذَا الزَّمَنِ، فَتَأْتِي أَعْمَالُهُ نَاقِصَةً وَغَيْرَ مُتْقَنَة.

وَجَاءَ في سورة (الْإِسْرَاء/ ٥٠ نزول) بَيَانُ أَنَّ الْإِنسَانَ عَجُول، فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ فيها:

﴿... وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾.

وَمَا جَاء في سُورَةِ (الأنبياء/ ٧٣) الجاري تَدَبُّرُهَا؛ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَىٰ أَنَّ الْعَجَلَةَ فِي نَفْسِ الإنْسَانِ، كالْمَاءِ والتُّرَابِ فِي جَسَدِهِ، فَهِيَ مِنَ الْعَنَاصِرِ الْمُحَرِّكَةِ لمطَالِبِهِ وأَعْمَالِهِ.

إِنَّ الإنْسَانَ مَخْلُوقٌ مِنْ جَسَدٍ ونَفْس، أَمَّا الْجَسَدُ فَقَدْ أَبَانَ اللهُ أَنَّ عُنْصُرَهُ مَخْلُوقٌ مِنَ الْمَاءِ والتُّرَابِ، وأَمَّا النَّفْسُ فَدَلَّ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ﴾ عَلَىٰ أَنَّ السُّرْعَةَ مِنَ الْعَنَاصِرِ الكُبْرَىٰ الَّتِي كُوِّنَتْ نَفْسُ الإنْسَانِ مِنها، لِأَنَّ السُّرْعَةَ من صِفَاتِ النَّفْسِ لا مِنْ صِفَاتِ الْجَسَدِ.

على أنَّ صِفَاتِ النَّفْسِ الَّتِي كُوِّنَتْ مِنْهَا كثيرة، مِنها أَنَّ الْإِنْسَانَ ضَعِيفٌ، ومِنْهَا أَنَّ الإنْسَانَ قَتُورٌ، ومِنْهَا أَنّ الإنْسَانَ كَفُورٌ جَحُودٌ، ومِنْهَا أَنَّهُ هَلُوع.

وهَـٰذِهِ صِفَاتٌ غَالِبَاتٌ عَلَىٰ مُعْظَم النّاس، وهُمْ مطالبون بضَبْطِ نُفُوسِهِم بِمَا وَهبهم الله مِن إراداتٍ حرَّة قادرةٍ عل الضبط المطلوبِ من ذوي العقل والرأي السديد والإيمان الصادق.

وقَدْ جَاءَ بيانُ أَنَّ الإنْسَانَ خُلِق مِن عَجلٍ تَوْطِئَةً لِبَيَانِ اسْتِعْجَالِ أَئِمَّةِ

الكُفرِ والشِّرْكِ تَحقِيقَ مَا أُنذِرُوا بِهِ فِي كِتَابِ اللهِ، وعلَىٰ لِسَانِ رَسُول اللهِ ﷺ، فقال اللهُ عَزَّ وَجلَّ:

• ﴿... سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾﴾: أي: سَأُرِيكُمْ آياتي الجزائِيَّة المؤجَّلَ مِنْهَا إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ، والْمُعَجَّلَ مِنْهَا فِي الدُّنْيَا.

وَغُلوّاً فِي تَعَلُّلِهِمْ للتَّكْذِيبِ بِمَا أُنْذِرُوا بِهِ؛ صَارُوا يُكَرِّرُونَ سُؤَالَهُمْ عَنِ الزَّمَنِ الَّذِي يَتحقَّقُ فِيهِ وَاقِعاً، مَا وُعِدُوا خَبراً بِأَنَّهُ سَيَتَحَقَّقُ مُسْتَقْبلاً، دَلَّ عَلَىٰ هٰذَا قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ:

• ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾: أي: وَيَقُولُونَ لِلرَّسُولِ ﷺ ولِلْمُؤْمِنِينَ كُلَّمَا أَخبَرُوهُم بِمَا أَنْذَرَهُمْ بِهِ اللهُ وَرَسُولُهُ ﷺ: في أيِّ زَمَنٍ يَتحقَّقُ هٰذَا الْوَعْدُ، إِنْ كَانَ مَا تُخْبِرُونَ بِهِ خَبراً صَادِقاً؟!.

إِنَّهُمْ مِنْ حَمَاقَتِهِمْ يَجْعَلُونَ صِدْقَ الْوَعِيدِ مُرْتَبِطاً بِالتَّعْرِيفِ بِوَقْتِ تَنْفِيذِهِ، مَعَ عِلْمِهِمْ بِأَنَّ مَنْ يَعِدُ بِعِقَابٍ مِنَ الْبَشَرِ إِنَّمَا يُنَفِّذُهُ فَجْأَةً وَمُبَاغَتَةً، وَلَا يُخْبِرُ عَنِ الزَّمَنِ الَّذِي يُحقِّقُ فِيهِ عِقَابَهُ وانْتِقَامَهُ، فَمَا بَالُهُمْ يَجعَلُونَ هٰذَا السُّؤَالَ الَّذِي يُكَرِّرُونَهُ تَعِلَّةً لِلتَّكْذِيبِ بِمَا أُنْذِرُوا بِهِ؟!!.

وَبَدَأَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ عِلَاجَهُمْ بِتَقْدِيمِ لَقْطَةٍ مِنْ واقِعِ تَعْذِيبِهِمْ الَّذِي سَوْفَ يُلَاقُونَهُ يَوْمَ الدِّينِ، فَقَالَ تَعالَىٰ:

• ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾﴾:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُخْبَرُونَ خَبراً صَادِقاً، وَلَكِنَّهُمْ يُكَذِّبُونَ وَلَا يُرِيدُونَ أَنْ يَعْلَمُوا صِدْقَ الْخَبَرِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مُصَدِّقِينَ مَا سَوْفَ يَحْصُلُ لَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ، حِينَ يُلْقَوْنَ في النَّارِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَكُفُّوا عَنْ وُجُوهِهِمْ لَهَبَ النَّارِ، فَضْلاً عَنْ سَائِرِ مُقَدَّمِ أَجْسَادِهِمْ، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَكُفُّوا عَنْ ظُهُورِهِمْ لَهَبَ النَّارِ، فَضْلاً عَنْ سَائِرِ مُؤَخَّرِ أَجْسَادِهِمْ.

وكَفُّ النَّارِ عَنْهُمْ يَكُونُ بِجَعْلِهَا تَنْصَرِفُ عَنْهُمْ فَلَا تَمَسُّهُمْ، كَكَفِّ الْأَيْدِي عَنْ قِتَالِ الأعْدَاءِ يَكُونُ بِضَمِّهَا وَإِبْعَادِهَا عَنْ أَنْ تَمْتَدَّ إِلَيْهِمْ بأذَى أَوْ بِمَا يَسْتَثِيرُهُمْ للقيامِ بأعْمَالٍ قِتَالِيَّةٍ.

فَهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ صَرْفَ عَذَابِ النَّارِ عَنْهُمْ، وإِذَا أَرَادُوا الاسْتِنْصَارَ بِمَنْ يَتَوَهَّمُونَ أَنَّهُ يَنْصُرُهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ لَا يُنْصَرُونَ، إِذْ لَا يُوجَدُ مَنْ يَنْصُرُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ.

وبَعْدَ تقديم لَقْطَةٍ سَرِيعَةٍ مِنْ عَذَابِ اللهِ يَوْمَ الدِّينَ؛ تَحَدَّثَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ عَمَّا أُنْذِرُوا بِهِ مِنْ مُعَجَّلِ الْعِقَابِ فِي الدُّنْيَا فَقَالَ تَعَالَىٰ:

﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾:

أي: ولْيَعْلَمُوا أَنَّ عُقُوبَاتِنَا الْمُعَجَّلَةَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لَا نُعْلِمُهُمْ بِزَمَنِ وُقُوعها، بَلْ تَأْتِيهِمْ مُفَاجَأَةً دُونَ إِشْعَارٍ سَابِقٍ، فَتَبْهَتُهُمْ، إِذْ يَسْكُتُونَ مُنْقَطِعِينَ مُتَحَيِّرِينَ مُنْدَهِشِينَ، لَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا عَنْهُمْ، وَيَدْعُونَ رَبَّهُمْ أنْ يُنْظِرَهُمْ وَيُؤَخِّرَ عِقَابَهُمْ لِيُؤْمِنُوا، فَلَا يُسْتَجَابُ لهم.

﴿بَغْتَةً﴾: أي: مُفَاجَأَةً دُونَ إشعارٍ سَابق، يُقال لغة: «بَغَتَهُ، يَبْغَتُهُ، بَغْتاً، وبَغْتَةً» أي: فَجَأَهُ، وبَهَتَهُ.

﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾: يَقَال لغة: «بُهِتَ فُلان» أي: نَزَلَ بِهِ مَا يُسْكِتُهُ وَيَجْعَلُهُ مُتَحَيِّراً مُنْدَهِشاً.

وبَعْدَ هٰذَا خَاطَبَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ رَسُولَهُ ﷺ مُسَلِّياً لَهُ، وَمُطَمْئِناً لَهُ بِأَنَّ اللهَ نَاصِرُهُ وَمُنْزِلٌ بِأَعْدَائِهِ السَّاخِرِينَ بِهِ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ، وفي هٰذَا إِسْمَاعٌ لِلَّذِينَ كَفروا بِأَنَّ اللهَ سَيُعَاقِبُهُمْ عِقَاباً مُعَجَّلاً:

- ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾﴾:

جاء تَوْكِيدُ هٰذَا الْبَيَانِ بِلَامِ الْقَسَمِ، و«قَدْ» الدَّالَّةِ عَلَىٰ التَّحْقِيقِ، مُرَاعَاةً لِحَالِ أئِمَّةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِالْإِنْذَارَاتِ، اسْتِهْزَاءً يُشْعِرُ بِأَنَّهُمْ يُكَذِّبُونَ بها.

• ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾: أيْ: وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ كَثِيرِينَ مِنْ قَبْلِكَ، مِنْ قِبَلِ أَقْوَامِهِمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَهُمْ بِمَا أَنْذَرُوهُمْ بِهِ بَلَاغاً عَنْ رَبِّهِمْ.

• ﴿... فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾﴾:

يُقَالُ لُغَةً: «حَاقَ بِهِ الشَّيْءُ» أي: أَصَابَهُ وَأَحَاطَ بِهِ. و«حَاقَ بِهِ الْأَمْرُ» أي: لَزِمَهُ، وَوَجَبَ عَلَيْه، «حَاقَ، يَحِيقُ، حَيْقاً، وحُيُوقاً، وَحَيَقَاناً».

المعنَىٰ: فَبَعْدَ الإمْهَالِ الطَّوِيلِ الَّذِي قَضَتْ بِهِ حِكْمَةُ اللهِ؛ أَصَابَ الَّذِينَ سَخِرُوا بِرُسُلِ رَبِّهِمْ ـ مُحِيطاً بِهِمْ ـ الْعِقَابُ الَّذِي أُنْذِرُوا بِهِ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ رُسُلِ رَبِّهِمْ عَلَيْهِم السَّلَام، والَّذي كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ تَكْذِيباً بِهِ، وهُوَ الْعِقَابُ الْأَلِيمُ الْمُهْلِكُ.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس السادس من دُرُوس سورة (الأنبياء).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(١١)
التدبّر التحليلي للدّرس السابع من دُروس سورة (الأنبياء)
الآيات من (٤٢ ـ ٤٧)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُۗ

أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾:

القراءات:

(٤٤) • قرأ أبو عمرو: [**عَلَيْهِمِ الْعُمُرُ**] بِكَسْرِ الهاء والميم من «عَلَيْهِمِ».

وقرأها حمزة، والكِسَائِيُّ، ويَعْقُوبُ، وخَلَف: [**عَلَيْهُمُ الْعُمُرُ**] بضم الهاء والميم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ**] بِكَسْرِ الْهَاءِ وضَمّ الميم من «عليهم».

وهَـٰذا كلّه عِنْدَ الوَصْل، وأمّا عِنْدَ الوَقْف: فحمزة، ويعقوب بضم الهاء وإِسْكانِ الميم، وَوَقَفَ البَاقُون: بكسر الهاء وإسكان الميم.

(٤٥) • قرأ ابْن عامر: [**وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ**].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ**].

(٤٧) • قرأ نَافِعٌ، وأبو جَعْفَر: [**مِثْقَالُ**] بالرَّفع، على أنّ «كان» تامَّة.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**مِثْقَالَ**] بالنَّصْبِ، على أن «كَانَ» نَاقِصة.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هَـٰذَا الدَّرْس تَعليمٌ من الله عَزَّ وَجلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ فَلِكُلِّ دَاعٍ إلى اللهِ مِنْ أمَّتِهِ؛ أُسْلُوبَ حِوارٍ إِقْنَاعِيٍّ، بِشَأْنِ رُبُوبِيَّةِ اللهِ الَّتِي لَا يُشَارِكُهُ فيها أَحَدٌ فِي الوجُودِ كُلِّهِ. وبِشَأْنِ آلِهَةِ المشْرِكِينَ الَّتِي لَا تَجْلُبُ لَهُمْ نَفْعاً، وَلَا تَدْفَعُ عَنْهُمْ ضُرّاً.

وفيها بيانُ واقع حالِ المشْرِكِينَ، إذْ طَالَتْ مُدَّةُ إمْهَالِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ، مَعَ لَفْتِ نَظَرِهِمْ إِلَىٰ بَعْضِ أَدِلَّةِ اللهِ الكَوْنِيَّة، الَّتِي تَكْشِفُ لِأَهْلِ الْعَقْلِ والرُّشْدِ عَظَمَةَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي تَصاريفِهِ لِكَوْنِهِ.

وفيها تَعْلِيمٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ؛ أَنْ يَقُولَ لِأَئِمَةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ الَّذِينَ طَالَ إمْهَالُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لهم: إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بالْوَحْيِ مِنْ رَبِّي، وَلَا أُنْذِرُكُمْ مِنْ عِنْدِي، مع بَيَانِ اللهِ لَهُمْ بِأَنَّهُمْ بِمَثَابَةِ الصُّمِّ تُجَاهَ إِنْذَارَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ.

وفيها عَرْضُ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ يُرْهِبُ أُولِي الأَلْبَاب.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ فَلِكُلِّ حَامِلِ رِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ ﷺ:

● ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾﴾:

﴿مَن يَكْلَؤُكُم﴾؟: أي: مَنْ يَحْفَظُكُمْ؟.

﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾: أي: وَلَا هُمْ مِنَّا يُحْفَظُونَ أو يُجَارُونَ.

المعنى: قُلْ لِلْكَفَرَةِ المشْرِكِينَ المكَذِّبِينَ بِهَٰذَا الدِّينِ: مَنْ يَحْفَظُكُمْ بالْلَّيْلِ والنَّهَارِ مِنْ حَوَادِثِ رَبِّكُمُ الرَّحْمَنِ، إِذَا أَرَادَ أَنْ يُنْزِلَ بِكُمْ مَا تَكْرَهُونَ مِنْ مَصَائِبَ في أجسَامِكُمْ، أَوْ فِي أَهْلِكُمْ أَو أَوْلَادِكُمْ، أَو فِيمَنْ تُحِبُّونَ مِنَ النَّاسِ، أَوْ فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ فِي أَمْوَالِكُمْ، أَوْ في غَيْرِ ذَلِكَ؟.

إِنَّهُمْ لَنْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يُجِيبُوا عَلَىٰ هَٰذَا السُّؤَالِ، بِأَنَّ أَحَداً يَحْفَظُهُمْ باللَّيْلِ والنَّهَارِ مِنْ حَوَادِثِ رَبِّهِم الرَّحْمٰنِ إذَا أَرَادَ أَنْ يُنْزِلَ بِهِمْ مَا يَكْرَهُونَ.

● ﴿. . . بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾﴾: أي: إِنَّهُمْ لَا

يَكْتَرِثُونَ، وَلَا يُبَالُونَ بِمَا يُطْرَحُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُؤَالٍ يُذَكِّرُهُمْ باللهِ وسُلْطَانِهِ عَلَىٰ كَوْنِهِ، وَتَصَارِيفِهِ، فَيُعْرِضُونَ عَنْ الإجَابَةِ على السُّؤَالِ السَّابِقِ، لِأَنَّهُمْ دَوَاماً عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ، لَا يَشْغَلُونَ أَفْكَارَهُمْ ونُفُوسَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ بِشَيْءٍ يَتَعَلَّقُ بِصِفَاتِ اللهِ وآيَاتِهِ في كَوْنِهِ.

الإعْرَاض: حَالَةٌ وُسْطَىٰ بَيْنَ الْإِقْبَالِ والْإِدْبَار، ويَكُونُ مَعَهَا انْصِرَافُ النَّفْسِ انْصِرَافاً كُلِّيًّا عَمَّا أَعْرَضَ الإنْسَانُ عَنْهُ.

• ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾﴾:

«أَمْ» هِي للإضْرَاب الانْتِقَالِيِّ مُضَمَّنَةً مَعْنَىٰ الاسْتِفْهام. أي: بَلْ، أَلَهُمْ آلِهَةٌ مِنْ دُونِ رُبُوبِيَّتِنَا الْمُهَيْمِنَةِ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ في الوجُود، وهَـٰذِهِ الآلِهَةُ تَمْنَعُهُمْ مِنْ أَنْ نُنْزِلَ بِهِمْ مَا يَكْرَهُونَ مِنْ مصائِبَ ونَكَباتٍ؟، وهِيَ لَا تَسْتَطِيعُ نَصْرَ أَنْفُسِهَا مِنَّا، إنْ أَرَدْنَا إِبَادَتَهَا أَو إِهْلَاكَها، ولَيْسَ لَهَا مِنَّا حَافِظٌ يَحْفَظُهَا، وَلَا مُجِيرٌ يُجِيرُها.

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ مُبَيِّناً عِلَّتَهُمُ النَّفْسِيَّةَ، وَمُقَدِّماً شَاهِداً كَوْنِيًّا عَلَىٰ فَسَادِ تَصَوُّرَاتِهِمْ:

• ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾:

يَتَحَدَّثُ رَبُّنَا بِضَمِيرِ المتكلِّم العظيم مُصَدِّراً بَيانَهُ بإضْرَابٍ انْتقالِيٍّ بِحَرْفِ «بل»، فَيُبَيِّنُ أَنَّ عِلَّةَ المعالَجِينَ النَّفْسِيَّةَ؛ أَنَّهُمْ اغْتَرُّوا بِطُولِ الْمُدَّةِ الَّتِي مَتَّعْنَاهُمْ فِيهَا ومَتَّعْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ آبَاءَهُمْ دُونَ أَنْ نَسْلُبَ مِنْهُمُ النِّعْمَةَ، ونُنْزِلَ بِهِمُ النِّقْمَةَ، مع الْتِزَامِهِمْ بِشِرْكِهِمْ وَلَوَازِمِهِ فِي السُّلُوكِ، فَزَعَمُوا أَنَّ طُولَ الزَّمَنِ وهُمْ مُعَافَوْنَ مِنْ نِقْمَتِنَا وشَدِيدِ عَذَابِنَا إِمْهَالاً لَهُمْ بِمُقْتَضَىٰ حِكْمَتِنَا؛ دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ حَالَهُمْ سَيَسْتَمِرُّ فِي عَافِيَةٍ، وَسَيَبْقَىٰ لَهُمْ وَاقِعُ التَّفَوُّقِ

على الرَّسُولِ ﷺ وعَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ في الْأَمْوَالِ وَفِي الْقُوَّةِ الْقِتَالِيَّةِ، فإذَا اضطرُّوا إِلَىٰ مُحَارَبَةِ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ بِمُقْتَضَىٰ تفَوُّقِهِمْ.

لَا يَغْتَرُّوا بِطُولِ مُدَّةِ عَافِيَتِهِمْ إِمْهَالاً لَهُمْ حَتَّىٰ بُلُوغِهِمْ دَرَكَةَ الْيَأْسِ مِنْ إِيمَانِهِمْ عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمُ الحرَّةِ، فَإِنَّ مِنْ سُنَّتِنَا فِي كَوْنِنَا أَنْ نَجْعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ أَجلاً، مَهْمَا طَالَتْ مُدَّةُ هٰذَا الْأَجَلِ.

ومِنَ الْأَمْثِلَةِ عَلَىٰ هَـٰذِهِ السُّنَّةِ؛ حَرَكَةُ أَمْوَاجِ الْبَحْرِ الَّتِي تَضْرِبُ الْيَابِسَةَ عِنْدَ الشَّوَاطِئِ، وبِمُرُورِ الزَّمَنِ الطَّوِيلِ يَمْتَدُّ الْبَحْرُ عَلَىٰ الْأَرْضِ الْيَابِسَةِ، فَيَظْهَرُ لِلْمُلَاحِظِينَ ذَوي الْفِكْرِ الْعِلْمِيِّ؛ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَنْقُصُ الْأَرْضَ الْيَابِسَةَ مِنْ أَطْرَافِهَا الَّتِي تَصْطَدِمُ بِهَا أَمْوَاجُ الْبَحْرِ، وَهَـٰذِهِ الظَّاهِرَةُ الكَوْنِيَّةُ لَا تَظْهَرُ بِمُرُور عَشَراتِ السِّنِينَ للنَّاسِ الْعَادِيِّينَ، بَلْ تَحْتَاجُ أَجْيَالاً وقُرُوناً، فَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿... أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ...﴾؟!:

دَعْوَةٌ لِأَذْكِيَاءِ الْغَافِلِينَ مِنْ أَهْلِ الْبَحْثِ فِي الكَوْنِيَّاتِ؛ أَنْ يُلَاحِظُوا آجَالَ مَا يَحْدُثُ فِي الكَوْنِ مِنْ أَحْدَاثٍ جِسَامٍ ضِمْنَ سُنَّةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي كَوْنِهِ، لِيُدْرِكُوا أَنَّ إِمْهَالَ مُسْتَحِقِّي عَذَابَ اللهِ وعِقَابِهِ مُتَّسِقٌ مَعَ سُنَّةِ اللهِ فِي الْآجَالِ، فَلَا يَغْتَرُّوا بِطُولِ مُدَّةِ الإمْهَال.

فالمعْنَىٰ: أَمَا زَالَ المؤهَّلُونَ لِإِدْرَاكِ حِكْمَتِنَا السَّامِية فِي الآجَالِ غارقين فِي غفَلَاتِهِمْ، فَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ الْيَابِسَةَ مِنْ أَطْرَافِهَا الْمُلَاصِقَةِ لِلبِحَارِ، فَنَضْرِبُهَا بِأَمْوَاجِ الْبِحَارِ، وحَرَكَةِ الْمَدِّ والْجَزْرِ في أَزْمَانٍ طَوِيلَةٍ، فَنَنْقُصُ الْأَرْضَ الْيَابِسَةَ مِنْ أَطْرَافِهَا، فَيَتَّسِعُ سَطْحُ الْبَحْرِ أَخْذاً مِنْ مَسَاحَةِ سَطْحِ الْيَابِسَةِ عِنْدَ الشَّوَاطِئِ.

فَطُولُ مُدَّةِ الزَّمَنِ جُزْءٌ مِنْ أَعْمَالِ هٰذَا النَّقْصِ المتتابع، ولَكِنْ لَا يَظهَرُ هٰذَا النَّقْصُ لِلنَّاسِ إِلَّا بَعْدَ قُرُون.

• ﴿... أَفَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾: أي: إذَا كَانَ لِكُلِّ حَدَثٍ في سُنَّتِنَا أَجَلٌ قَدْ يَطُولُ وَقَدْ يَقْصُرُ، وقَدْ قَدَّرْنَا أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ ﷺ والْمُسْلِمِين مَعَهُ؛ هُمُ الْغَالِبِينَ لِأَئِمَّةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ في مَكَّة وفيما حَوْلَهَا.

أفَبَعْدَ هـٰذَا التَّقْدِيرِ المقْضِيِّ مِنَّا يَتَصَوَّرُ الكَفَرَةُ الْمُشْرِكُونَ أَنْ يَكُونُوا هُمُ الْغَالَبِينَ لِرَسُولِنَا ـ ﷺ ـ ولِلْمُسْلِمِينَ؟!. إِنَّهُمْ وَاهِمُونَ مَغْرُورُونَ جاهِلُونَ بِسُنَّتِنَا فِي كَوْنِنَا، وَلَا يَقْبَلُونَ مَعْرِفَة الْحَقِيقَةِ مِنْ بَيَانَاتِنَا الَّتِي بَلَّغَهُمْ إِيَّاهَا رَسُولُنَا المؤيَّدُ مِنَّا بِمُعْجِزَاتِنَا وآيَاتِنَا الْبَاهِرَات.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ ﷺ مَا يَقُولُهُ لِلْمُعَالَجِينَ الْمُعَانِدِينَ المكَذِّبين، مَعَ بَيَانِ إِصَابَةِ أَسْمَاعِهِمْ بالصَّمَم بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ مَا يَتَعَلَّقُ بِقَضَايَا الدِّينِ، والإِنْذَارِ بِعِقَابِ اللهِ للمسْتَحِقِّينَ عِقَاباً وعَذَاباً مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ المنْتَقِمِ الْجَبَّارِ:

• ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾:

وفي قراءة ابن عامر: [**وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ**].

أي: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِلْمُعَالَجِينَ مِنْ أَئِمَّةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ وأَتْبَاعِهِمْ: إِنِّي لَا أُنْذِرُكُمْ مِنْ عِنْدِي، فَأَنَا لَا أَمْلِكُ إِنْذَارَكُمْ، إِنَّمَا أُنْذِرُكُم بِمَا أَتَلَقَّاهُ مِنَ الْوَحْيِ عَنْ رَبِّي رَبِّ الْعَالَمِينَ، الَّذِي بِيَدِهِ فِعْلُ مَا يَشَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ، وخَلْقُ مَا يَشَاءُ، وإِهْلَاكُ مَنْ يَشَاء، ومُعَاقَبَةُ مَنْ يَشَاءُ، وَمُكَافَأَةُ مَنْ يَشَاءُ، وَنَصْرُ مَنْ يَشَاءُ، وخَذْلُ مَنْ يَشَاءُ.

ولكنْ لَا يَسْمَعُ نِدَاءَكَ وَدُعَاءَكَ الْمُصَابُونَ بِدَاءِ الصَّمَمِ عَنْ سَمَاعِ دُعَاءِ مَنْ يُنْذِرُهُمْ بِعِقَابِ اللهِ وَعَذَابِهِ، لِأَنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِمَسَائِلِ الدِّينِ وَقَضَايَاهُ، وهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ، وللدِّينِ كُلِّهِ مُكَذِّبُونَ، إِذْ هُمْ مَفْتُونُونَ بِمَتَاعَاتِ الحياةِ الدُّنْيَا وزِينَتِهَا، وتَحقِيقِ لَذَّاتِهِمْ وأَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ مِنْهَا.

وأُقْسِمُ لَئِنْ مَسَّتْهُمْ مَسًّا غَيْرَ شَدِيدٍ؛ نَفْحَةٌ خَفِيفَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ أَيُّهَا المتَلَقِّي لِهٰذَا الْبَيَانِ؛ لَيَقُولُنَّ شَاكِينَ تَعَاسَتَهُمْ ومُعْتَرِفِينَ بِذُنُوبِهِمْ: يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ.

الْإِنْذَارُ: الْإِخْبَارُ بِعَاقِبَةٍ فِيها شَرٌّ لِمَنْ يُوَجَّهُ له.

الدُّعَاء: النِّدَاءُ ورَفْعُ الصَّوْتِ بأمْرٍ مَا.

الْمَسُّ: تَوْصِيلُ شَيْءٍ إِلَىٰ جِسْمٍ بِلَا شِدَّةٍ، وبه يَحْصُلُ إحْساسٌ خَفِيف.

نَفْحَةٌ: نَسْمَةٌ قَلِيلَةٌ، أَوْ مِقْدَارُهَا مِنْ أَيِّ شيءٍ.

يَا وَيْلَنَا: أي: يَا حُزْنَنَا الشَّدِيدَ، ويَا تَوَجُّعَنَا ويَا تَفَجُّعَنَا مِمَّا نَزَلَ بِنا مِنْ عَذَابٍ.

﴿... إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾: أي: إِنَّا نَسْتَحِقُّ عَذَابَ رَبِّنَا لِأَنَّنَا كُنَّا ظَالِمِينَ ظُلْماً مِنْ دَرَكَةِ الْكُفْرِ بِمَا يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيّناً لَقْطَةً مِنْ لَقَطَاتِ مَوْقِفِ الْحِسَابُ وفَصْلِ القضاء يَوْمَ الدِّين، ومُتَحَدِّثاً بِضَمِير المتكلِّم الْعَظِيم:

• ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾:

وفي قراءة نافع، وأبي جَعْفر: [وَإِن كَانَ مِثْقَالُ] بالرَّفْع، عَلَىٰ أَنَّ «كَانَ» تَامَّةٌ، ولفظ «مِثْقَال» فاعل.

سبَقَ في الملْحَق الثالثِ مِنْ مَلَاحِق تَدَبُّر سورة (الأعراف/ ٣٩ نزول) بَيَانُ مَا يَكْفِي حَوْل الْوَزْنِ فِي مَحْكَمَةِ الْعَدْلِ الرَّبَّانِيَّةِ يَوْمَ الدين.

وَضْعُ الْمَوَازِينِ: إحْضَارُهَا وإيجادُهَا في مَحْكَمَةِ الْعَدْلِ الرَّبَّانِيَّة.

الْمَوَازِينَ: جَمْعُ الْمِيزَان، وأَفْهَمُ مِنْ دَلَالَةِ الْجَمْعِ تَعَدُّدَ أَفْرَادِهَا، وَتَعَدُّدَ أَنْواعِهَا، فَلِلْأَعْمَالِ الْجَسَدِيَّة مَوَازِينُ بِحَسَبِ أنواعِهَا، ولِلْأَعْمَالِ الْفِكْرِيَّةِ مَوَازِين بِحَسَبِ أَنْوَاعِهَا، وللنِّيَّاتِ والْإِرَادَاتِ وسَائِرِ أَعْمَالِ النَّفْسِ مَوازِينُ بِحَسَبِ أنواعِهَا، ولِقُوَّةِ الإيمانِ وضَعْفِهِ وَكَثَافَتِهِ وَرِقَّتِهِ مَوَازِين.

وكُلُّ ذَلِكَ لِإِظْهَارِ كَمَالِ الْعَدْلِ الرَّبَّانِيِّ لِلْعِبَادِ الَّذِينَ يُحَاسَبُونَ ويُفْصَلُ الْقَضَاءُ بِشَأْنِهِمْ.

الْقِسْط: الْعَدْل، وهو مِن المصَادِرِ الَّتِي يُوصَفُ بها الواحد والجمع، وقَدْ وَصَفَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الموازِينَ الَّتِي يَضَعُهَا لِحِسَابِ النَّاسِ فِي مَحْكَمَةِ الْعَدْلِ يَوْمَ الدِّينِ بِأَنَّهَا مَوَازِينُ عَادِلَةٌ تُحَقِّقُ كَمَالَ الْعَدْلِ لِكُلِّ مَنْ يُوزَن له.

المعْنَىٰ: ونَضَعُ بِمَا لَنَا مِنْ رُبُوبِيَّةٍ عَظِيمَةٍ يَوْمَ القيامَة المَوازِينَ الْعَادِلَة لِحِسَابِ الَّذِينَ كَانُوا فِي الْحياةِ الدُّنْيَا مَوْضُوعِينَ مَوْضِعَ الامْتِحَان، فَلَا تُظْلَمُ يَوْمَئِذٍ نَفْسٌ شَيْئاً بالنَّقْصِ مِنْ حَسَنَاتِها، أَوِ الزِّيَادَةِ فِي سَيِّئَاتِها، وإِنْ كانَتِ الزِّيَادَةُ في السَّيِّئَاتِ أو النَّقْصُ من الحسناتِ شَيْئاً قَلِيلاً جِدّاً، فَكُلُّ مِثْقَالِ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ نَأْتِي بِهِ وَنَزِنُهُ بالْمِيزَانِ الْمُلَائِمِ لِنَوْعِهِ.

وَبَعْدَ ذَلِكَ نُحَاسِبُ كُلَّ إِنْسَانٍ بِحَسَبِ مَا قَدَّمَ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ، ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾: أي: وكَفَىٰ بِنَا عَادِّينَ، ومُحْصِينَ، ومُقَدِّرِينَ لِكُلِّ شَيْءٍ كَبِيراً كَانَ أَمْ صَغِيراً وَدَقِيقاً.

الباء في ﴿بِنَا﴾: حَرْفُ جَرٍّ زَائِدٍ في الفاعِلِ الْمُظْهَر، وهَـٰذِهِ الزِّيَادَةُ تأتي كثيراً بَعْدَ «كَفَىٰ». أي: ونَحْنُ نَكْفِي عَنْ كُلِّ حَاسِبٍ، حَالَةَ كَوْنِنَا حَاسِبِينَ، بالْجَمْعِ، مُرَاعَاةً لِضَمِير المتكلِّمِ الْعَظِيم.

وبهـٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس السَّابعِ من دُرُوس سورة (الأَنْبِيَاءِ).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

❁ ❁ ❁

(١٢)
التدبُّر التحليلي للدَّرس الثامن من دُروس سورة (الأنبياء) الآيات من (٤٨ ـ ٥٠)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾:

القراءات:

(٤٨) • قَرَأَ قُنْبُل: [وَضِئَاءً] وَهي لهْجَةٌ مِنَ اللَّهَجات.

• وَقَرأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [وَضِيَاءً]، وهو مصْدَرٌ لِفِعْلِ «ضَاءَ» بمَعْنَىٰ: أَنَارَ وأشْرَقَ.

تَمْهيد:

في آياتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ لَقْطَةٍ مُخْتَارَةٍ مِنْ قِصَّةِ مُوسَىٰ وهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلامُ بِشَأْنِ الكِتَابِ الَّذِي آتاهُمَا اللهُ إِيَّاه، تَمْهِيداً لِبَيَانِ أَنَّ الْقُرْآنَ ذِكْرٌ مُبارَكٌ أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَىٰ خَاتَمَ أنبيائِهِ ورُسُلِهِ ﷺ، ويُخَاطِبُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيها المكذِّبينَ بقوله: ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾؟، بِأُسْلُوب الاسْتِفْهَامِ الإِنْكَارِيِّ التَّلْوِيمِيّ.

التدبُّر التحليلي:

يوجِّهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الْخِطابَ بِضَمِيرِ المتَحدِّثِ العظيم، لِمُعَالَجَةِ مُكَذِّبِي الرَّسُولِ ﷺ والمكذِّبينَ بالذِّكْرِ الرَّبَّانِيِّ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَيْهِ، وهو القرآن المجيد، فَيُؤَكِّدُ لَهُمْ بالْقَسَمِ المنوِيِّ، وبـ «قَدْ» أَنَّهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ آتَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ عَلَيْهِما السَّلام الْفُرْقَانَ وضِيَاءً وذِكْراً

لِلْمُتَّقِينَ، وكَذَلِكَ أَنْزَلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ الْقُرْآنَ ذِكْراً مُبارَكاً ثَرَّ الْمَعَانِي والدَّلَالَاتِ، وخَاطَبَ المكَذِّبِينَ الكَفَرَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿... أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾؟!: دُونَ أَنْ يَكُونَ لَكُمْ عُذْرٌ فِي هٰذَا الإِنْكارِ، وقَدْ سَبَقَهُ التوراةُ الَّتِي أَنزَلَهَا عَلَىٰ مُوسَىٰ ـ عَلَيْهِ السَّلَام ـ، وأَنْتُمْ مُعْتَرِفُونَ بِهٰذِهِ الْحَقِيقَةِ، وتَذْكُرُونَ أَنَّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ـ عَلَيْهِما السَّلَام ـ رَسُولَانِ أَرْسَلَهُمَا اللهُ إِلى بَنِي إِسْرَائِيل، وأَنْزَلَ عَلَيْهِمَا كِتَاباً فِيهِ التَّعَالِيمُ الدِّينيَّةُ، وَفِيهِ مَا يَجِبُ عَلَىٰ المؤمنين بموسَىٰ وَهَارُونَ ـ عَلَيْهِما السَّلَام ـ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ، وأَنْ يَعْمَلُوا بِهِ طَاعَةً لِرَبِّهِمْ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾:

• ﴿وَلَقَدْ﴾: الْوَاوُ عَاطِفَةٌ مَوْضُوعٍ عَلَىٰ مَوْضُوعٍ، و«اللَّام» واقِعَةٌ فِي جوابِ قَسَمٍ مَنْوِي، و«قَدْ» حَرْفُ تَحْقِيقٍ، وهٰذَا التوكِيدُ يُلَائِمُ حَالَ مُكَذِّبِي الرَّسُولِ ﷺ، المكَذِّبِينَ بِمَا أَنْزَل اللهُ عَلَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ المجيد.

• ﴿ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ﴾: أَي: آتَيْنَاهُمَا بِعَظَمَةِ رُبُوبِيَّتِنَا عَنْ طَرِيقِ الْوَحْي.

• ﴿... ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾، ذَكَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ كِتَابَ التَّوْرَاةِ بِأَوْصَافٍ وَصَفَهُ بِها، وهِي هُنَا ثَلَاثَةُ أَوْصَافٍ:

الصِّفَةُ الْأُولَىٰ: أَنَّهُ «فُرْقَان»، وهٰذَا اللَّفْظُ مَصْدَرُ «فَرَقَ»، يُقَالُ لُغَةً: «فَرَقَ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ أَوِ الْأَشْيَاءِ، يَفْرُقُ، فَرْقاً، وفُرْقاناً» أي: فَصَل مُمَيِّزاً بَيْنَهُمَا. ويُقَال: «فَرَقَ بَيْنَ الْخَصْمَيْنِ» أَيْ: حَكَمَ وفَصَلَ.

وقَدْ وَصَفَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ كِتَابَ التوراة بأَنَّهُ فُرْقَان، لِأَنَّهُ يَفْرِقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، والْخَيْرِ والشَّرّ، والْهُدَىٰ والضَّلَال، والرَّشَادِ والْغَيّ، والْحَلَالِ والْحَرَامِ، وسَائِرِ أَحْكَامِ دِينِ اللهِ لِعِبَادِهِ الْمُطَالَبِينَ بالْعَمَلِ بِمَا جَاءَ فِيهِ.

الصِّفَةُ الثَّانِيَة: أَنَّهُ «ضِيَاءٌ»، أي: لَهُ نُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ في ظُلُماتِ الْجَهْلِ والْغَوَايَةِ، لِمَعْرِفَةِ صِرَاطِ اللهِ المسْتَقِيم.

ونَسْتَفِيدُ مِنْ كَوْنِهِ ضِيَاءً أَنَّ فِيهِ أَنْوَارَ عِلْم تَهْدِي إِلَىٰ الحقِّ وصراطِ اللهِ المسْتَقِيم، وأَنَّ فِيهِ حَرَارَةَ إِنْذَارٍ بِعَذَابِ اللهِ الأَلِيم، لِلْكَفَرَةِ المكَذِّبِينَ الْمُعْرِضِينَ. فالضِّيَاءُ فِيهِ نُورٌ وَحَرَارَةٌ، ولِهٰذَا سَمَّىٰ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الشَّمْسَ ضِيَاءً، وسَمَّىٰ الْقَمَرَ نُوراً.

الصِّفَةُ الثَّالِثَة: أَنَّهُ «ذِكْرٌ»، أي: يَجِبُ أَنْ يَتَبَلَّغَهُ الْمَأْمُورُونَ بِأَنْ يَحْمِلُوهُ ويَأْخُذُوهُ بِقُوَّةٍ، وأَنْ يَتَفَهَّمُوا مَعَانِيَهُ وَيَتَدَبَّرُوهَا، وأَنْ يَضَعُوهَا فِي ذَاكِرَاتِهِمْ، وَأَنْ يَتَذَكَّرُوا مِنْهَا فِي كُلِّ مُنَاسَبَةٍ مَا يَلَائِمُها، لِلْعَمَلِ بِهَا طَاعَةً للهِ، وَسَعْياً لِنَيْلِ رِضْوَانِهِ.

وَأَبَانَ الله عَزَّ وَجلَّ أَنَّ الَّذِينَ اسْتَفَادُوا مِنْ كَوْنِ كِتَابِ التوراةِ فُرْقَاناً، وضِيَاءً وذِكْراً؛ هُمُ المتَّقُونَ، فَقَالَ تَعَالَىٰ:

• ﴿... لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾:

المتَّقُونَ: هُمُ الَّذِينَ يَجعَلُونَ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ عِقَابِ اللهِ وعَذَابِهِ وِقَايَةً مِنَ الْإِيمَانِ والإِسْلَام والطَّاعَة، بِفِعْلِ مَا أَمَرَ اللهُ به وتَرْكِ ما نَهَىٰ اللهُ عَنْهُ، فَيَقِيهِمُ اللهُ عِقَابَهُ وَعَذَابَهُ، ويَجْزِيهِمْ بالْخُلُودِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ سُعَدَاءَ مُنَعَّمِينَ.

• ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾: هُمُ الَّذِينَ يَخَافُونَ عِقَابَ رَبِّهِمْ وعَذَابَهُ وهُوَ بالغيب بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ حَوَاسِّهِمُ الظَّاهِرَة، لَكِنَّهُمْ مُوقِنُونَ بِذَاتِهِ وَبِصِفَاتِهِ الحسْنَىٰ، مِنْ أَدِلَّةِ الْفِكْرِ السَّدِيدِ، والْعَقْلِ الرَّشِيد، وَخَوْفُهُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ وعِقَابِهِ مَمْزُوجٌ بإِجْلَالِهِ وإِعْظَامِهِ وإِكْبَارِهِ وَحُبِّهِ، فالْخَشْيَةُ مِنَ اللهِ فِي الاسْتِعْمَالِ الْقُرْآنِيِّ فِيهَا الدَّلَالَةُ عَلَىٰ هٰذِهِ المَعَانِي.

وعَالَمُ الْغَيْبِ: هُوَ كُلُّ مَا غَابَ عَنْ الْحَوَاسِّ الظَّاهِرَةِ لِلْمَخْلُوقَاتِ، وَلَهُ وُجُودٌ قَابِلٌ لِأَنْ يُدْرَكَ بِالْحَوَاسِّ الظَّاهِرَة لَوْ أُوتِيَتِ الْقُدْرَةَ عَلَىٰ إِدْرَاكِهَا.

أَمَّا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فَكُلُّ مَا فِي الكَوْنِ مَشْهُودٌ لَهُ، جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

• ﴿... وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾: أيْ: وهُمْ مُؤْمِنُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ، وبالْحَيَاةِ الْأُخْرَىٰ وَمَا فِيهَا مِنْ جَزَاءٍ وَخُلُودٍ، وَيَوْمُ الدِّينِ وَمَا فِيهِ يَكُونَ بَدْؤُهُ بِسَاعَةِ الْبَعْثِ، الَّتِي يَقُومُ بِهَا الْمَوْتَىٰ بِخَلْقِ اللهِ وأَمْرِهِ التَّكْوِينِي، مِنَ الْأَمَاكِنِ الَّتِي لَمْ تَفْنَ فِيهَا آخِرُ حَافِظَةِ طَبْعَةِ نُفُوسِهِمْ، مِنْ ذَرَّاتِ أَجْسَادِهِمْ.

وبِمَا أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ بِهٰذَا الْيَوْمِ وَبِمَا يَجْرِي فِيهِ مِنْ جَزَاءٍ؛ فَإِنَّهُمْ مُشْفِقُونَ دَوَاماً، خَائِفُونَ مِن ارْتِكَابِ الْمَعَاصِي الَّتِي يَسْتَحِقُّونَ عِقَابَ اللهِ عَلَيْهَا، فَيُحَاوِلُونَ دَوَاماً الالْتِزَامَ بِطَاعَتِهِم لِرَبِّهِمْ عَلَىٰ مِقْدَارِ اسْتِطَاعَتِهِمْ.

السَّاعَة: يُرَادُ بِهَا هُنَا سَاعَةُ الْبَعْث.

مُشْفِقُونَ: أَيْ: خَائِفُونَ مِنَ الجزاءِ الْعِقَابِيِّ، الَّذِي تَجْرِي أَحْدَاثُهُ في الْيَوْمِ الَّذِي يَبْدَأُ بِسَاعَةِ بَعْثِ الموتَى، بَعْدَ إِنْهَاءِ ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ الْقُرْآنِ الَّذِي بَلَّغَهُ لِلنَّاسِ آخِرُ أنبياءِ اللهِ وَرُسُلِهِ ﷺ، خِطَاباً لِلْمُنْكِرِينَ المكذِّبينَ:

• ﴿وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾:

• ﴿وَهَـٰذَا﴾: أي: القرآنُ الَّذِي يُبَلِّغُهُ رَسُولُنَا مُحَمَّد ـ ﷺ ـ.

• ﴿ذِكْرٌ﴾: أي: يَجِبُ أَنْ تَتَبَلَّغُوهُ، وَتَتَفَهَّمُوا مَعَانِيَهُ وَتَتَدَبَّرُوا دَلَالَاتِهِ، وَأَنْ تَضَعُوهَا في ذَاكِرَاتِكُمْ، وَأَنْ تَتَذَكَّرُوا مِنْهَا فِي كُلِّ مُنَاسَبَةٍ مَا يُلَائِمُهَا، لِلْعَمَلِ بِهَا طَاعَةً لَنَا، وَسَعْياً لِنَيْلِ رِضْوَانِنَا.

• ﴿مُبَارَكٌ﴾: أي: ذُو بَرَكَةٍ زَائِدَةٍ عَلَىٰ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ كِتَابُ التَّوْرَاةِ. والْبَرَكَةُ: هِيَ النَّمَاءُ والزِّيَادَةُ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ فِي الْحِسِّيَّاتِ والْمَعْنَوِيَاتِ.

ومَعْنَىٰ كَوْنِ الْقُرْآنِ مُبَارَكاً أَنَّهُ لَا تَنْضَبُ فُيُوضُ مَعَانِيهِ، وأَنَّهُ ذُو خَيْرَاتٍ كَثِيراتٍ جِدًّا، فِكْرِيَّةٍ، ونَفْسِيَّةٍ، وشِفَائِيَّةٍ، وغَيْرِ ذَلِكَ.

• ﴿أَنزَلْنَهُ﴾: أي: أَنْزَلْنَاهُ عَلَى رَسُولِنَا مُحَمّدٍ ـ ﷺ ـ بِطَرِيقِ الْوَحْيِ.

• ﴿... أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾: أي: أَمْرُكُمْ أَيُّهَا الكَفَرَةُ الْمُشْرِكُونَ أَمْرٌ مُسْتَنْكَرٌ جِدّاً، فِيهِ بُعْدٌ كَثِيرٌ عَنِ الْحَقِّ والرُّشْدِ، أَمَا زِلْتُمْ على ضَلَالِكُم القديم، فَأَنْتُمْ تُنكِرُونَ القرآن، وتُكَذِّبُونَ الرَّسُولَ المبلّغَ لَهُ، مَعَ أَنَّ الْقُرْآنَ أَعْظَمُ مِنَ التَّوْرَاةِ، وأَكْثَرُ مِنْهُ بَرَكَةً وَخَيْراً، وأَنْتُمْ تَدَّعُونَ أَنَّكُمْ أَهْلُ عَقْلٍ وَرَأْيٍ سَدِيدٍ وَعَمَلٍ رَشِيد؟!!.

الاسْتِفْهَامُ هُنَا يَحْمِلُ مَعْنَىٰ الإنْكَارِ الشَّدِيدِ، والتَّوْبِيخ، والتثريبِ، والإشْعَارِ بأَنَّهُمْ مُسْتَحِقُّونَ الجزاءَ الْعِقَابِيَّ في الدُّنْيَا والآخِرَة.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الثامِنِ من دُرُوس سورة (الأنبياء).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(١٣)
التدبُّر التحليلي للدّرس التاسع من دُروس سورة (الأنبياء) الآيات من (٥١ ـ ٧٣)

قال الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا

بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ۖ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾:

القراءات:

(٥٨) • قرأ الكِسَائِي: [جِذَاذاً] بِكَسْرِ الجيم.

وقرأها بَاقِي القُرَّاءِ العَشَرَةِ: [جُذَاذاً] بضمّ الجيم.

وهُمَا لُغتَان.

(٦٣) • قرأ ابْنُ كَثِير، والكِسَائِي، وخَلَف: [فَسَلُوهُمْ]. وكذلك قرأها حمزة في الوقف.

وقرأها بَاقِي القُرَّاءِ العَشَرَةِ: [فَاسْأَلُوهُمْ].

وهُمَا لغتان.

(٦٧) • قرأ نَافِعٌ، وحَفْص، وأَبُو جَعْفر: [**أُفٍّ**].

وقرأها ابن كثير، وابن عامر، ويَعْقُوب: [**أُفَّ**].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**أُفِّ**].

وهي لُغَاتٌ مِنْ أَصْلِ لُغَاتٍ عَشْرٍ لَهَا.

(٧٣) • قرأ يَعْقُوب، وحمزة: [**إِلَيْهُمْ**] بضَمّ الهاء.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**إِلَيْهِمْ**] بِكَسْرِ الهاء.

تَمْهيد:

فِي آيَاتِ هَـٰذَا الدَّرْسِ عَرْضُ لَقَطَاتٍ مِنْ قِصَّةِ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَام، وهِيَ تَتَعَلَّقُ بِفَصْلٍ مِنْ فُصُولِ دَعْوَتِهِ إِلَىٰ دِينِ اللهِ الْحَقِّ فِي قَوْمِهِ.

وقَدْ سَبَقَ تَدَبُّرُ آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ تَدَبُّراً تَكَامُلِيًّا مَعَ سَائِرِ النُّصُوصِ القرآنِيَّةِ المتَعَلِّقَةِ بِقِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام، في الملْحَقِ الثّانِي مِنْ مَلَاحِقِ تَدَبُّرِ سُورَةِ (إبراهيم/ ٧٢ نزول).

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾:

الرُّشْدُ: السُّلُوكُ الْفِكْرِيُّ، والنَّفْسِيُّ، والْخُلُقِيُّ، والْعَمَلِيُّ؛ الموافِقُ لِلْحَقِّ والصَّوَاب، أَوْ لِمَا هُوَ الأَفْضَلُ والأحْسَنُ والأَكْثَرُ نَفْعاً، والأَبْعَدُ عَنِ الضَّرَرِ.

أَيْ: وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ ـ عَلَيْهِ السَّلَام ـ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلِ إِرْسَالِ مُحَمَّدٍ ـ ﷺ ـ وإِنْزَالِ الْقُرْآنِ عَلَيْهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيّناً مَرْحَلَةً مِنْ مَرَاحِلِ مسيرة إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الدَّعَوِيَّة:

• ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾:

بَدَأَ بِدَعْوَةِ أَبِيهِ قَبْلَ دَعْوَةِ سَائِرِ قَوْمِهِ، عَمَلاً بالمنْهَجِ الدَّعَوِيِّ الأَمْثَل، الَّذِي يَسْتَدْعِي دَعْوَةَ الأَقْرَبِينَ مِنْ أَهْلِهِ قَبْلَ غَيْرِهم.

• ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ﴾؟: أي: مَا حَقِيقَةُ هَٰذِهِ التَّمَاثِيل مِن الأَصْنَامِ والأَوْثَانِ، الَّتِي تَنْحِتُونَهَا مِنَ الْحِجَارَةِ، أَوْ تَصْنَعُونَهَا مِنْ غَيْرِ الْحِجَارَة، حَتَّىٰ تَسْتَحِقَّ مِنْكُمْ أَنْ تَعْبُدُوها بأَلْوَانٍ مِنَ الْعِبَادَاتِ، كالْمُلَازَمَةِ، والطَّوَافِ، والدُّعَاءِ، والرُّكُوعِ، وتَقْدِيمِ الْقَرَابِين.

• ﴿ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾: أي: الَّتِي أَنْتُمْ لِأَجْلِ عِبَادَتِهَا مُقِيمُونَ عِنْدَها، وَمُلَازِمُونَ الْمَكَانَ الَّذي تَضَعُونَهَا فِيهِ.

يُقَالُ لُغَة: «عَكَفَ في المكان يَعْكُفُ، ويَعْكِفُ، عَكْفاً، وعُكُوفاً» أي: أقامَ فِيهِ ولَزِمَهُ، وَلَا يُشْتَرَطُ في الْعُكُوفِ أَنْ يَكُونَ لِلْعِبَادَةِ لغةً.

وقَدْ صَارَ الْعُكُوفُ شَكْلاً مِنْ أَشْكالِ الْعِبَادَةِ للهِ أَوْ لِغَيْرِهِ.

• ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾: أي: قال أَبُو إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَام وَمَنْ وَجَّهَ لَهُمُ السُّؤَال مِنْ قَوْمِه: نَحْنُ نَعْبُدُهَا بِهَٰذَا الْعُكُوفِ تَقْلِيداً لِآبَائِنا، إِذْ وَجَدْنَاهُمْ لَهَا عَابِدِين.

• ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾: أي: قَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ الَّذِينَ أَجْرَىٰ هَٰذَا الْحِوَارَ مَعَهُمْ: لَقَدْ كُنْتُمْ

أَنْتُمْ بِعبادَةِ هَـٰذِهِ التَماثِيلِ، وَكَانَ آبَاؤُكُم مِنْ قَبْلِكُمْ بِعِبادَتِهَا؛ في ضَيَاعٍ عَنْ صِرَاطِ الْحَقِّ والْخَيْرِ والْهُدَىٰ، واضِحٍ جَلِيٍّ، إِذْ لَيْسَ لِهَـٰذِهِ التَّمَاثِيلِ رُبُوبِيَّةٌ وَلَا إِلَهِيَّة.

فَدَهِشَ أَبُوهُ وَقَوْمُهُ مِنْ مُوَاجَهَتِهِ لَهُمْ بِحَزْمٍ وَثِقَةٍ مِمَّا قَالَ لَهُمْ، إِذْ وَصَفَهُمْ بِأَنَّهُمْ مُنْغَمِسُون فِي ضَلَالٍ وَضَيَاعٍ عَنْ صِرَاطِ الْحَقِّ والْخَيْرِ والْهُدَىٰ، وَهـٰذَا الضَّلَالُ مُبين، أي: جَلِيٌّ وَوَاضِحٌ.

• ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾﴾: أي: قَالُوا لَه مُتَعَجِّبِينَ مِنْ طَرِيقَتِهِ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَأَنْتَ جَادٌّ فِيمَا قُلْتَ، أَمْ قُلْتَ مَا قُلْتَ عَلَىٰ سَبِيلِ الْمُزَاحِ تُرِيدُ أَنْ تَلْعَبَ بأعْصَابِنَا، وتُرِيدُ أَنْ تَسْتَثِيرَ انْفِعَالَنَا؟. أجِئْتَنَا بالْحَقِّ الَّذِي تُؤْمِنُ بِهِ؟.

• ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾: أي: قَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلام لَهُمْ: أَنَا لَسْتُ مِنَ اللَّاعِبِينَ، بَلْ أَنَا جَادٌّ، وَقَدْ جِئْتُكُم بالْحَقِّ، فَرَبُّكُمُ الَّذِي يَرْزُقُكُمْ، ويُهَيْمِنُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ فِيكُمْ، وَيُجْري تَصَارِيفَهُ بِكُمْ، بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ، وَيُؤْتِيكُمْ مِمَّا تَسْأَلُونَهُ، هُو رَبُّ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، المتَصَرِّفُ دَوَاماً فيهما بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ، والمهَيْمِنُ دواماً عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ فيهما. وهُوَ الَّذِي خَلَقَهُمَا إِبْدَاعاً وَفْقَ نِظَامِ الْفَطْرِ مِنَ الْبَاطِنِ، الَّذِي هُوَ في الحقيقةِ خَلْقٌ مِنَ العَدَمِ، لِأَنَّ مَا بَعْدَ عُمْقِ بَاطِنِ كُلِّ شَيْءٍ هُوَ الْعَدَمُ لَا مَحَالَة.

• ﴿... وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾: أي: وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمُ الَّذِي قُلْتُهُ لَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ شُهُوداً فِكْرِيًّا مَقْرُوناً بالْحُجَجِ الْبُرْهَانِيَّة، وَمِنَ المؤمِنِينَ بِهِ الَّذِينَ يُعْلِنُونَ شَهَادَتَهُمْ بِهِ، شَهَادَةً باللِّسَانِ مُطَابِقَةً لِمَا فِي الْفُؤَادِ مِنْ إيمانٍ، رَاسِخِ الأَرْكَانِ، ثَابِتِ الْبُنْيَانِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يَحْكِي مَا حَدَّثَ بِهِ إبراهِيمُ عَلَيْهِ السَّلامُ نَفْسَهُ فِيما

أَرَىٰ، دُونَ أَنْ يُسْمِعَ مُحَاوِرِيهِ مَا عَزَمَ عَلَيْهِ مِنْ تَحْطِيمِ أَصْنَامِهِمْ:

• ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ۝٥٧﴾:

تَاللهِ: قَسَمٌ بِحَرْف «التَّاء»، وهو خاصٌّ بالدُّخُول على لَفْظِ الجلالَة.

الكَيْدُ: التَّدْبِيرُ الَّذِي فِيهِ مَكْرُوهٌ لِمَنْ دُبِّرَ ضِدَّهُ، ويُطْلَقُ الكَيْدُ عَلَىٰ الحرب، وعلَىٰ إعداد وَسَائِلِهَا، وعلَىٰ الْحِيلَةِ.

وكَانَ مَا عَزَمَ عليه إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي نَفْسِهِ، وَدَبَّرَهُ بَعْدَ ذَلِكَ؛ أَنْ يُحَطِّمَ أَصْنَامَهُمْ في الْمَكَانِ الكَبِيرِ الْجَامِعِ لأنْوَاعِهَا.

• ﴿... بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ۝٥٧﴾: أي: في الْيَوْمِ الَّذِي تَكُونُونَ فِيهِ بَعِيدِينَ عَنْ مَدِينَتِكُمْ، وخَارِجِينَ مُدْبِرِينَ مُبْتَعِدِينَ عَنْ أَسْوَارِهَا، أَوْ عَمَّا حَوْلَهَا مِنْ مَزَارِعَ، إِذْ تَكُونُ مَدِينَتُكُمْ خَالِيَةً مِمَّنْ يُرَاقِبُ مَا يَجْرِي فِي بَيْتِ أَصْنَامِكُمْ.

وكان لَهُمْ يَوْمُ عِيدٍ يَخْرُجُونَ فِيهِ مِنْ مَدِينَتِهِمْ إِلَىٰ مَكَانٍ واسِعٍ جامِعٍ، بَعِيدٍ عَنْ حُدُودِهَا، يَفْعَلُونَ فِيهِ مَا يَفْعَلُ النَّاسُ في أَعْيَادِهِمْ مِنْ لَهْوٍ ولَعِبٍ وَزِينَةٍ وأَكْلٍ وشُرْبٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وسَنَحَتْ لإبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلام الْفُرْصَةُ فِي لَيْلَةٍ مِنَ اللَّيَالِي الَّتِي يَكُونُ بَعْدَهَا يَوْمٌ مِنْ أَيَّام أعْيَادِهِمُ الكُبْرَىٰ، الَّتِي يَخْرُجُ فيها كُلُّ أَهْلِ المدينَةِ لِلْمُشَارَكَةِ فِي هٰذَا العيد، فَنَظَرَ نَظْرَةً في النُّجُومِ فَقَالَ: إِنِّي سَأَكُونُ غَداً سَقِيماً لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أُشارِكَ فِي هٰذَا الْعِيدِ الْقَوْمِي.

فَأَسْرَعَ في اليوم الَّذِي خَرَجَ فِيهِ أَهْلُ الْمَدِينَةِ إِلَىٰ عِيدِهِمْ، فَلَمَّا رَأَىٰ الْمَدِينَةَ خَالِيَةً مِنْ أَيِّ رَقِيبٍ يُرَاقِبُ حَرَكَتَهُ؛ ذَهَبَ إِلَىٰ بَيْتِ أَصْنَامِهِمْ، فَدَخَلَهُ دُونَ أَنْ يَشْعُرَ بِهِ أَحَدٌ، وَجَعَلَ يُحَطِّمُ الْأَصْنَامَ باسْتِثْنَاءِ أَكْبَرِهِمْ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً مَا فَعَلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بأَوْثَانِهِمْ:

• ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۝٥٨﴾:

[**الْجُذَاذُ**]: المقَطَّعُ الْمُكَسَّرُ. وكذلك [**الْجِذَاذُ**] بكسر الجيم.

أي: فَجَعَلَ الأصْنَامَ قِطَعاً مكَسَّرَةً، باسْتِثْنَاءِ أَكْبَرِهَا، لَمْ يُكَسِّرْهُ، رَغْبَةً فِي أَنْ يَرْجِعُوا إِلَيْهِ فَيَسْأَلُوه: مَنْ كَسَّرَ سَائِرَ الأصْنَامِ، فَلَا يَجِدُوا عِنْدَهُ جَوَاباً، فَيَعْلَمُوا أَنَّهُمْ عَلىٰ بَاطِلٍ، بِدَلِيلٍ عَمَلِيٍّ، إِذْ لَمْ يَسْتَطِعْ كَبِيرُ الْأَصْنَامِ الَّتِي يَعْبُدُونَهَا مُتَوَهِّمِينَ أَنَّهَا تَجْلُب نَفْعاً أَوْ تَدْفَعُ ضُرّاً؛ أَنْ يُعْلِمَهُمْ بِمَنْ حَطَّمَ سَائِرَ الأصْنَامِ، فَضْلاً عَنْ أَنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُدَافِعَ عَنْهَا، وَيَحْمِيَهَا مِنَ التَّحْطِيمِ والتَّكْسِيرِ.

وَحِينَ عَادَ قَوْمُهُ مِنْ عِيدِهِمْ وَجَدُوا أَصْنَامَهُمْ فِي الْبَيْتِ الكَبِيرِ لَهَا جُذَاذاً، باسْتِثْنَاءِ أَكْبَرِهَا حَجْماً، أَوْ أَكْبَرِهَا فِي الإِلَٰهِيَّةِ، فَاشْتَدَّ غَضَبُهُمْ عَلَىٰ مَنْ كَسَّرَ وَحَطَّمَ أَصْنَامَهُمُ الَّتِي يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللهِ تَعالى، فَتَسَاءَلُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ: مَنْ فَعَلَ هـٰذَا بِآلِهَتِنَا؟.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٩ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ۝٦٠ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۝٦١﴾:

أي: فَاجْتَمَعَ عِلْيَةُ قَوْم إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَكُبَرَاؤُهُمْ، بَعْدَ أَنْ شَاهَدُوا أَصْنَامهمْ مُحَطَّمَةً، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَنْ فَعَلَ هـٰذَا التَّحْطِيمَ وَالتَّكْسِيرَ بِآلِهَتِنَا؟، ﴿... إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٩﴾: أي: المتجاوِزِينَ حُدُودَ الْحَقِّ والْوَاجِبِ الَّذِي يُؤْمِنُ قَوْمُنَا بِهِ. فأكَّدُوا قَوْلَهُمْ بالمؤكّدات: «إِنَّ ـ والْجُمْلَة الاسْمِيَّة ـ واللَّام المزحْلَقَة»، أي: بالمسَاوِيَاتِ لها في لُغَتِهِمْ.

فقال بَعْضُهُمْ: سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ بِسُوءٍ، وَيَقُول: إِنَّهَا آلِهَةٌ بَاطِلَة، وهـٰذَا الْفَتَىٰ يُقَالُ لَهُ: إِبْرَاهِيم.

قَالَ قَادَةُ قَوْمِهِ: فَأْتُوا بِهِ، وأحْضِرُوهُ عَلَىٰ أعْيُنِ النَّاسِ الَّذِينَ تَجْمَعُونَهُمْ لِهٰذَا الْغَرَضِ، لِيَشْهَدُوا مُسَاءَلَتَنَا له، وَمَا نَحْكُمُ بِهِ عَلَيْهِ، إِذَا ثَبَتَ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي حَطَّمَ أصْنَامَهُمْ.

فَأَحْضَرَهُ الجنودُ لِيَسْأَلَهُ الْقَادَةُ بِحُضُورِ جَمْعٍ مِنْ قَوْمِهِ، وكَانَ هٰذَا في بيتِ أصْنَامِهِمْ الَّذِي جَرَىٰ فِيهِ التَّحْطِيمُ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾:

أي: قَالَ قومُ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُ بِلِسَانِ مَنْ يَتَحَدَّثُ عَنْهُمْ مِنْ كُبَرَائِهِمْ وَقَادَتِهِمْ: أأنْتَ فَعَلْتَ هٰذَا التَّحْطِيمَ والتَّكْسِيرَ بآلِهَتِنَا مِنَ الأصْنَامِ يَا إِبْرَاهِيمُ؟؟.

قَالَ إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُسْتَهْزِئاً بِهِمْ وَمُسْتَخِفًّا بِعُقُولِهِمْ: لَا، بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هٰذَا الَّذِي لَمْ يَمَسَّهُ تَكْسِيرٌ وَلَا تَحْطِيمٌ، فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ.

لَقَد هَزَّ إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام عُقُولَهُمْ وَأَجْهِزَةَ الإدْرَاكِ فِيهِمْ هَزّاً عَنِيفاً بِهٰذِهِ الإجَابَةِ، وَلَا سِيمَا قَوْلُهُ لَهُمْ: فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ.

تَحَدَّثَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ أصْنَامِهِمْ كَأَنَّهَا عُقَلَاءُ مُرَاعَاةً لاعْتِقَادِ قَوْمِهِ فيها.

فَرَجَعُوا إِلَىٰ عُمْقِ أَنْفُسِهِمْ يُحَاكِمُونَهَا، إِذْ كَشَفُوا أَنَّ آلِهَتَهُمْ لَا تَتَكَلَّمُ وَلَا تُجِيبُ عَلَىٰ أَسْئِلَةِ عَابِدِيهَا، وَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَدْفَعَ عَنْ أَنْفُسِهَا التَّكْسِيرَ والتَّحْطِيمَ. فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، أَوْ قَالُوا لِأَنْفُسِهِمْ فِي مُحَاكَمَةٍ دَاخِلِيَّةٍ

بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَنْفُسِهِمْ: إِنَّكُم أَنْتُمْ الظَّالِمُونَ باتِّخاذِ آلِهَةٍ لَا تَسْمَعُ وَلَا تُبْصِرُ وَلَا تَنْطِقُ، وَلَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَحْمِيَ أَنْفُسَهَا مِمَّنْ يُرِيدُ تَكْسِيْرَهَا وَتَحْطِيمَهَا.

لكنَّهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ رَجَعَتْ عَوَامِلُ كِبْرِهِمْ، وانْتِصَارِهِمْ لِسَوَابِقِ اخْتِيَارَاتِهِمْ وَتَقَالِيدِهِمْ، تَنْفُخُ في صُدُورِهِمْ، فَانْقَلَبَتْ مَفَاهِيمُهُمُ الَّتِي قَوَّمَهَا التَّنْبِيهُ الإِبْرَاهِيمِيُّ، فَنُكِسُوا عَلَىٰ رُؤوسِهِم، إِذْ صَارَ أَعْلَاهُمْ وَهُوَ مَوْضِعُ جِهَازِ الْعِلْمِ فيهم؛ في مَوْضِعِ أَقْدَامِهِمْ، وهٰذَا انْتكاسٌ جَعَلَهم أَضلَّ من الأَنْعَام.

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

جَاءَ إِطْلَاقُ عبارةِ: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ عَلَىٰ سَبِيلِ الاسْتِعَارَة، للدَّلَالَةِ بِهَا عَلَىٰ انْقِلَاب مَفَاهِيمهمْ إِلَىٰ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ، قَبْلَ أَنْ يُقَوِّمَهَا وَيَجْعَلَهَا سَوِيَّةً مُعْتَدِلَةً غَيْرَ مُنَكَّسةٍ؛ تَنْبِيهُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهَا.

التَّنْكِيسُ: قَلْبُ الشَّيْءِ، وجَعْلُ أَعْلَاهُ أَسْفَلَهُ، أَوْ جَعْلُ أَعْلَاهُ يَمِيلُ شَيْئاً فَشَيْئاً إِلَىٰ أَسْفَلِهِ.

نُكِسُوا عَلَىٰ رُؤُوسِهِمْ: أي: قُلِبُوا فَجُعِلَتْ رُؤوسُهُمْ فِي مَوَاضِعِ أَقْدَامِهِمْ، وَجُعِلَتْ أَقْدَامُهُمْ في مَوَاضِعِ رُؤُوسِهِمْ، عَلَىٰ عَكْسِ الْوَضْعِ الطبيعيِّ للنَّاس.

شُبِّهَ انْقِلَابُ مَفَاهِيمِهِمْ إِلَىٰ الْبَاطِلِ؛ بِحَالَةِ تَنْكِيسِ رُؤُوسِهِمْ، واسْتُعِيرَ هٰذَا التَّنْكِيسُ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ انْقِلَابِ مَفَاهِيمهمْ إِلَىٰ الْبَاطِلِ.

ودَلَّ الْعطْفُ بِحَرْفِ العطْفِ «ثُمَّ» عَلَىٰ أَنَّهُمْ اسْتَمَرُّوا مُدَّةً مُتراخِيَةً

عَلَىٰ حَالَةِ الرُّشْدِ الَّتِي أَوْصَلَهُمْ إليها التَّنبيهُ الإبْرَاهِيمِيُّ، لَكِنَّهُمْ بَعْدَ هَـٰذِهِ المدَّةِ رَجعُوا إِلَىٰ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ بَاطِلٍ شِرْكِيٍّ وَثَنِيٍّ، مُحَافَظَةً عَلَىٰ مَرَاكِزِ زَعَامَاتِهِمْ فِي قَوْمِهِمْ، وَقِيَادَتِهِمْ لهم.

وقَالُوا لإبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام:

• ﴿... لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾: أي: فَكَيْفَ تُطَالِبُنَا بِأَنْ نَسْأَلَهُمْ؟!، أَتَسْخَرُ مِنَّا وَتَسْتَهْزِئُ بِنَا وَنَحْنُ كُبَرَاءُ قَوْمِكَ وَسَادَاتُهُمْ وَذَوُو السُّلْطَانِ فيهم؟؟.

• ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

فَأَعْلَنَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ اسْتِنْكَارَهُ الشديدَ لِعِبَادَتِهِم مَعْبُودَاتٍ لَا تَنْفَعُهُمْ شَيْئاً، وَلَا تَضُرُّهُمْ شَيْئاً، بِأُسْلُوبِ الاسْتِفْهَامِ الإنْكَارِي.

وأَتْبَعَهُ بِكَلِمَةِ التَّضَجُّرِ والتَّكَرُّهِ يُوَجِّهُهَا لَهُمْ وَلِمَا يَعْبُدونَ.

«أُفٍّ»: كَلِمَةُ تَضَجُّرٍ وَتَكَرُّهٍ، وهي اسْمُ فِعْلٍ مُضَارِعٍ بِمَعْنَىٰ أَتَضَجَّر، أي: أَتَضَجَّرُ مِنْ شِدَّةِ تَقَذُّرِ نَفْسِي طَرِيقَتَكُمُ الْبَاطِلَةَ، الدَّالَّةِ عَلَىٰ سَفَاهَةِ المسْتَمْسِكِينَ بها، وهَـٰذِهِ الْكَلِمَةُ «أُفٍّ» أُوَجِّهُهَا لَكُم ولِكُلِّ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ.

فالمعْنَىٰ: قَالَ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلَّذِينَ يُسَائِلُونَهُ في مَجْلِسِ مُحَاكَمَتِهِ، بَعْدَ أَنْ ثَبَتَ لَدَيْهِمْ أَنَّهُ هُوَ مُحَطِّمُ أَصْنَامِهِمْ: أَبَلَغَتْ سَفَاهَتُكُمْ وَغَبَاوَتُكُمْ وَحَمَاقَتُكُمْ غَايَاتِهَا الْمُنْكَرَةَ؟!.

فَأَنْتُم تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ الْمُهَيْمِنِ عَلَيْكُمْ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ أَقَلَّ نَفْعٍ، وَلَا يَضُرُّكُم أَقَلَّ ضُرٍّ.

إِنَّكُمْ تَعْبُدُونَ أَوْثَاناً عَلَىٰ تَوَهُّمِ أَنَّهَا تَجْلُبُ لَكُم نَفعاً ما، أَوْ تَدْفَعُ

عَنْكُمْ ضُرّاً ما، وَهِيَ لا تَسْتَطِيعُ جَلْبَ نَفْعٍ وَلَا دَفْعَ ضُرّ.

«أُفٍّ» أُوَجِّهُهَا لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ، فَقَدْ أَضْجَرْتُمُونِي مِنْ قَذَارَةِ أَعْمَالِكُمْ، وَقَذَارَةِ وَحَقَارَةِ أَصْنَامِكُمْ الَّتِي اتَّخَذْتُمُوها آلِهَةً تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللهِ.

• ﴿... أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾: أي: انْطَمَسَتْ بَصَائِرُكُمْ عَنْ إِدْرَاكِ الحقِّ الْجَلِيِّ، وَذَهَبَتْ مِنْ رُؤُوسِكُمْ عُقُولُكُمْ، فَأَنْتُمْ لَا تَعْقِلُونَ، لَا عَقْلاً عِلْمِيًّا، وَلَا عَقْلاً إرَادِيًّا.

فَبَلَغَ الْغَضَبُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ يُسَائِلُونَهُ وَيُحَاكِمُونَهُ مَبْلَغَهُ الْأَقصَىٰ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِهِمْ:

• ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾:

أي: قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ حَرِّقُوهُ، وانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ الَّتِي حَطَّمَهَا ظُلْماً وَعُدْواناً، إِنْ كُنْتُم عَازِمِينَ عَلَىٰ أَنْ تُعَاقِبُوهُ مُعَاقَبَةً رَادِعَةً لِكُلِّ مَنْ يُخَالِفُ دِينَكُمْ وَدِينَ آبَائِكُمْ، وَتُسَوِّلُ لَهُ نَفْسُهُ أَنْ يَفْعَلَ مِثْلَمَا فَعَلَ إِبْرَاهِيمُ.

وأَعَدُّوا مَا يَلْزَمُ لِتَحْرِيقِهِ، وَقَامُوا بالتَّنْفِيذِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبيِّناً كَيْفَ حَمَىٰ نَبِيَّهُ وَرَسُولَهُ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام:

• ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾:

أي: فَلَمَّا قَذَفُوهُ إِلى النَّارِ الَّتِي أَعَدُّوهَا لَهُ، وَكَادَ يَصِلُ جَسَدُهُ إِلَىٰ الْجَحِيمِ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾، فَتَحَوَّلَتْ بِأَمْرِ اللهِ التَّكْوِينِيِّ مِنْ نَارٍ مُحْرِقَةٍ قَاتِلَةٍ ضَارَّةٍ أَوْ مُؤْذِيَةٍ؛ إِلَىٰ مِثْلِ نُورٍ بَارِدٍ لَا حَرَارَةَ فِيهِ، وَهَبَطَ إِلَىٰ بَاطِنِ الْجَحِيمِ في الصُّورَةِ، مَحْمُولاً بِقُدْرَةِ اللهِ عَلَىٰ أَلْيَنِ وأَنْعَمِ مَا

يُحمَلُ عَلَيْهِ جسَدٌ، فَوَصَلَ إِلَىٰ المكَانِ الَّذِي قَذَفُوهُ إِلَيْهِ سَالِماً، لَمْ يَنَلْهُ ضُرٌّ وَلَا أَذًى.

وانْتَصَرَ إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ عَلَىٰ كُبَرَاءِ قَوْمِهِ وَذَوِي السُّلْطَانِ فِيهِمْ، وظَهَرَ لِلْجَمِيعِ أَنَّهُ عَلَىٰ حَقٍّ، وَأَنَّهُ هُوَ الْأَعْلَىٰ، وأَنَّ قَوْمَهُ المشْرِكِينَ علَىٰ بَاطِلٍ، وَأَنَّ ذَوِي السُّلْطَانِ والْقُوَّةِ فيهم هُمُ الْأَسْفَلُون.

وخَرَجَ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ النَّارِ يَمْشِي بَيْنَ قَوْمِهِ مُنْتَصِراً، مُعْتَزّاً بِرَبِّهِ، لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مِنْ مُشْرِكِي قَوْمِهِ الْكَافِرِينَ أَنْ يَمَسَّهُ بِسُوءٍ، مَهْمَا عَلَتْ مَكَانَتُهُ.

■ وَتَحَدَّثَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ هَـٰذِهِ النَّتِيجَةِ المخْزِيَةِ لِقَوْمِهِ المشركين، بقوله تَعالَىٰ:

• ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾: أي: فَجَعَلْنَا مَنْ أَرَادَ بِهِ كيداً بالتَّحْرِيقِ، وَهُمْ كُبَرَاءُ قَوْمِهِ وقَادَتُهُمْ؛ الْأَخْسَرِين، ودُونَهُمْ فِي الْخَسَارَةِ سَائِرُ مُشْرِكِي قَوْمِهِ، الَّذِينَ لَا يَمْلِكُونَ بِشأْنِ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام إِصْدَارَ قَرَارِ التَّحْرِيق.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَـٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾:

يَظْهَرُ أَنَّ «نُمْرُودَ» وَأَرْكَانَ سُلْطَانِهِ عَزَمُوا عَلَىٰ قَتْلِ إبراهيمَ ولُوطٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ غِيلَةً، وفي الخفَاء، بَعْدَ أَنْ هُزِمُوا فِي قَتْلِ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام تَحْرِيقاً وَعَلَانِيَةً عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ، وأَمَّا لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَدْ كَانَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ به والمجاهِرِينَ بِنُصْرَتِهِ، وهُوَ ابْنُ أخيهِ.

وَيَظْهَرُ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَوْحَىٰ لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام بِأَنْ يُهَاجِرَ هُوَ وَلُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَىٰ الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكَ فِيهَا، وهِيَ أَرْضُ فِلِسْطِينَ، وَمَعَهُمَا مَنْ يُرِيدُ مُصَاحَبَتَهُمَا، فَقَدِ انْتَهَتْ وَظِيفَةُ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام فِي بِلَادِهِ، بَعْدَ أَنْ جَرَتْ أَحْدَاثُ عَزْمِ قَوْمِهِ عَلَىٰ تَحْرِيقِهِ، ونجاتِهِ بِمُعْجِزَةٍ رَبَّانِيَّةٍ خارِقة.

ولَمَّا عَزَمَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَىٰ تَنْفِيذِ الْهِجْرَةِ يَسَّرَ اللهُ لَهُ ولِلُوطٍ عَلَيْهِما السَّلَام سُبُلَ نَجَاةٍ، وَمَعَهُمَا مَنْ صَاحَبَهُمَا مِنْ عَشِيرَتِهِمَا.

وانْتَهَتِ الْهِجْرَةُ بَعْدَ سِنِينَ وَمَرَاحِلَ إِلَىٰ الاسْتِقْرَار في الْأَرْض التي بَارَكَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا لِلْعَالَمِينَ، وِهيَ بِلَادُ الشَّامِ حَوْل الْمَسْجِدِ الْأَقْصَىٰ.

وَوَهَبَ اللهُ لَهُ بَعْدَ «إسْمَاعِيلَ» عَلَيْهِ السَّلَام مِنَ الْأَمَةِ الْمِصْرِيَّةِ «هَاجَرَ» إِسْحَاقَ عَلَيْهِ السَّلَام، مِنْ زَوْجَتِهِ «سَارَة» الْعَجُوزِ الْعَقِيمِ بِخارِقَةٍ رَبَّانِيَّةٍ اسْتِجَابَةً لِدُعَائِهِ، ثُمَّ وَهَبَهُ حَفِيداً مِنِ ابْنِهِ «إسْحاق» هُوَ «يَعْقُوبُ» عَلَيْهِما السَّلَامُ، فَكَانَ نَافِلَةً زَائِدَةً عَلَىٰ الْبُشْرَىٰ لَهُ بإسْحَاقَ عَلَيْهِ السَّلَام نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ، كَمَا جَاءَ في الآية (١١٢) من سُورَةِ (الصَّافَّات/ ٥٦ نزول)، فَكَانَ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَام نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ أَيْضاً.

ومِنْ مِنَّةِ اللهِ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ جعَلَهُمْ أَئِمَّةً يُؤْتَمُّ بِهِمْ، إذْ جَعَلَهُمْ رُسُلاً يُوحَىٰ إِلَيْهِمْ بِوَصْفِ كَوْنِهِمْ رُسُلاً، يَهْدُونَ النَّاسَ إِلَىٰ دِينِ اللهِ الْحَقِّ بأَمْرِهِ.

ومِمَّا أَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْهِمْ:

(١) الْأَمْرُ بِفِعْلِ الْخَيْرَاتِ، وَهِيَ الأعْمَالُ الصَّالِحَةُ الَّتِي يُحِبُّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ يَعْمَلُوهَا، في السُّلُوكِ النَّفْسِيّ، والسُّلُوك الظَّاهر.

(٢) الأمْرُ بإقَامَةِ الصَّلَاةِ للهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ، والمرادُ بإقَامَةِ الصَّلَاةِ المدَاوَمَةُ والْمُوَاظَبَةُ عَلَيْهَا فِي أَوْقَاتِهَا المبيَّنَةِ في أحْكَامِ الشَّرِيعَة، وأَدَاؤُهَا عَلَىٰ الْوَجْهِ الشَّرْعِيِّ الْمَطْلُوبِ فيها، أي: جَعْلُهَا مُسْتَقِيمَةً، وَخَالِصَةً للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

(٣) الأمْرُ بإيتَاءِ الزَّكَاةِ، وهُوَ إنْفَاقُ مَا فَرَضَ اللهُ فِي الْأَمْوَالِ لِلْفُقَرَاءِ والْمَسَاكِينَ، وَلِنَشْرِ دِينِ اللهِ والْجِهَادِ في سَبِيلِهِ.

• ﴿... وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾: أي: وَكَانُوا في حَيَاتِهِمْ لَنَا وَحْدَنَا عَابِدِينَ، لَا يُشْرِكُونَ فِي عِبَادَتِنَا أحَداً وَلَا شَيْئاً يُفْسِدُ صَفَاءَ الإخْلَاصِ لَنَا فِي عِبَادَاتِهِم.

الْعِبَادَة: هِي الْخُضُوعُ، والطَّاعَةُ، وفِعْلُ مَا يُرْضِي الْمَعْبُودَ، وَتَرْكُ مَا لَا يُرْضِيهِ، ورَأْسُ الْعِبَادَةِ الدُّعَاءُ بِالْغَيْبِ، لِتَحْقِيقِ مَطَالِبِ الدُّنْيَا والآخِرَة.

والعبادة لَا تَكُونُ صَحِيحَةً إلَّا أَنْ تَكُونَ لِلرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ، فَهُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّهَا، لِأَنَّهُ هُوَ وَحْدَهُ الْخَالِقُ الْمَالِكُ، الْمُهَيْمِنُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ فِي الكَوْنِ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ.

وبهٰذَا انتهىٰ تَدَبُّرُ الدّرس التاسع من دُرُوس سورة (الْأَنْبياء).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(١٤)
التدبُّر التحليلي للدّرس العاشر من دُروس سورة (الأَنبياء) الآيتان (٧٤ و٧٥)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِي رَحْمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾:

تَمْهيد:

في آيَتَيْ هـٰذَا الدَّرْسِ لَقْطَةٌ مُوجَزَةٌ مِنْ قِصَّةِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَام فِي ذَاتِهِ وَمَعَ قَوْمِهِ، وَمَا أَثَابَهُ اللهُ بِهِ، وَمَا وَصَفَهُ به.

وقد سَبَقَ تَدَبُّرُ هـٰذَا النَّصِّ تَدَبُّراً تَكَامُلِيًّا مَعَ سَائِرِ النُّصُوصِ القرآنِيةِ المتعلِّقَة بِلُوطِ ابْنِ أخِي إبراهيم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، في الْمُلْحَقِ الْخَامِسِ مِنْ مَلَاحِقِ تَدَبُّرِ سُورَةِ (الأعراف/ ٣٩ نزول)، بعنوان: «دراسة تَكَامُلِيَّةٌ للنُّصُوصِ بِشَأْنِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ في القرآن».

التدبّر التحليلي:

يَتَحدَّثُ رَبُّنَا بِضَمِيرِ المتَكَلِّمِ الْعَظِيم فَيَذْكُرُ فِي هـٰذَا الدَّرْسِ خَمْسَ قَضَايَا:

القضيّة الأولَىٰ: أَنَّهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ آتَىٰ لُوطاً عَلَيْهِ السَّلَامُ حُكْماً.

الْحُكْمُ: هُوَ فِقْهُ الأُمُور، وَمَعْرِفَةُ الْحَقِّ والْبَاطِلِ وحُدُودِهِمَا، وَمَعْرِفَةُ الْخَيْرِ والشَّرِّ وَحُدُودِهِمَا، والْحَسَنِ والسَّيِّءِ وحُدُودِهِمَا، والْجَمِيلِ والْقَبِيحِ وَحُدُودِهِما.

وبناءً عَلَىٰ هـٰذَا يُصْدِرُ مَنْ أُوتِيَ الْحُكْمَ أَحْكَامَهُ الْعِلْمِيَّةَ والْقَضَائِيَّة.

القضيَّة الثَّانِيَة: أَنَّهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ آتَىٰ لوطاً عَلَيْهِ السَّلَام عِلْماً، أي: عِلْماً صَحِيحاً حَقًّا نَافِعاً للدُّنْيَا والآخِرَةِ، وأَعْظَمُ الْعِلْمِ مَا يَتَعَلَّقُ بِقَضَايَا الدِّينِ، وبالآخِرَةَ ذَاتِ الحياة الأَبَدِيَّةِ الَّتِي لَا نِهَايَةَ لَها.

ومِنَ الْعِلْم الَّذِي آتَاهُ إِيَّاهُ مَا أَوْحَىٰ بِهِ إِلَيْهِ مِنْ مَسَائِلِ الدِّينِ وَقَضَايَاهُ، فَهُوَ نَبِيٌّ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللهِ، وَرَسُولٌ مِنْ رُسُلِهِ عَلَيْهِم السَّلَام.

فَقَدْ كَانَ عَلَيْهِ السَّلَام رَسُولاً إِلَىٰ أَهْلِ سَدُوم، وكانَتْ قُرَاهُمْ في مَكَانِ الْبَحْرِ الميّتِ فِي فِلَسْطِين، قَبْلَ أَنْ يُهْلِكَهُمُ اللهُ وَيَقْلِبَ بِلَادَهُمْ عَالِيَهَا سَافِلَهَا.

القضيّة الثّالِثَة: أَنَّهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ نَجَّاهُ مِنْ أَهْلِ سَدُوم الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ الْخَبَائِثَ، وَمِنْهَا: أَنَّهُمْ كَانُوا يَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ، بِوَقَاحَةٍ مُتَنَاهِيَةٍ إِلَىٰ غَايَتِهَا، وبِنِسْبَةٍ لَمْ يَسْبِقْ لَهَا نَظِيرٌ فِي تَارِيخِ النَّاسِ.

وَوَصَفَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَهْلَ سَدُوم بِقَوْلِهِ: ﴿... إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾﴾:

السُّوء: كُلُّ مَا هُوَ قَبِيحٌ وَمُسْتَنْكَر.

الْفِسْقُ: الْعِصْيَانُ والْخُرُوجُ عَنِ الْحَقِّ والْوَاجِب وَأَوَامِرِ اللهِ وَنَوَاهِيهِ. وَهُوَ مُصْطَلَحٌ إسْلَامِيٌّ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِ الْعَرَب: «فَسَقَتِ الرُّطَبَةُ» أي: خَرَجَتْ مِنْ قِشْرَتِهَا، وَمَعْلُومٌ أَنَّهَا إِذَا خَرَجَتْ مِنْ قِشْرَتِهَا تَعَرَّضَتْ لِلْفَسَادِ السَّرِيع.

الْقَضِيَّة الرَّابِعَة: أَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَثَابَ لُوطاً عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَأَدْخَلَهُ فِي رَحْمَتِهِ، فَهُوَ مَشْمُولٌ بِهَا مِنْ كُلِّ جِهَاتِ أَجْزَائِهِ الكُبْرَىٰ والصُّغْرَىٰ، المادِّيَّةِ والْمَعْنوِيَّةِ، ومِنْ آثَارِ رَحْمَتِهِ جَنَّتُهُ، جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

القضِيَّة الْخامِسة: ثَنَاءُ اللهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ على لُوط عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَنَّهُ مِن الصَّالِحِينَ عِنْدَه.

لفظ «**الصَّالِحِينَ**» جاءَ في القرآنِ وصْفاً لِلْأَنْبِيَاء والْمُرْسَلِين عَلَيْهِم السَّلَام، وَوَصْفاً لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَأْمُرُون بالْمَعْرُوفِ ويَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ، وَأَدْخَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في الصَّالِحِينَ الْأَوَّابِين، الَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا بَعْضَ الْمَعَاصِي والْمُخَالَفَاتِ رَجَعُوا إلى رَبِّهِمْ بالتَّوْبَةِ والاسْتِغْفَارِ عَلَىٰ وَجْهِ السُّرْعَةِ، وَلَوْ تَكَرَّرَ مِنْهُمْ ذَلِكَ.

وبهـٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس العاشر من دُرُوس سورة (الْأَنْبياء).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

❋ ❋ ❋

(١٥)
التدبُّر التحليلي للدّرس الحادي عشر من دُروس سورة (الأنبياء) الآيتان (٧٦ و٧٧)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾:

تَمْهيد:

في آيَتَيْ هٰذَا الدَّرْسِ عَرْضُ لَقْطة مِنْ قِصَّةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَام مَعَ قَوْمِهِ في التَّارِيخ.

والدِّرَاسَة الشَّامِلَة التَّكامُلِيَّة للنُّصُوصِ القرآنِيَّة المتعلِّقَةُ بنوحٍ عَلَيْهِ السَّلَام وقَوْمِهِ؛ قَدْ آتَانِي اللهُ كِتَابَتَهَا فِي كِتَابٍ خاص، بِعُنْوَان: «نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ وقَوْمُهُ في الْقُرآنِ الكَرِيم» فَلْيُرْجَعْ إِلَيْهِ.

التدبّر التحليلي:

﴿وَنُوحًا﴾ بالنَّصب، عَطْفاً عَلَىٰ: ﴿وَلُوطًا﴾، في أوّلِ الدَّرْس السَّابِقِ.

أي: وَضَعْ في ذَاكِرَتِكَ هٰذَا الْمُوجزَ من قِصَّةِ نُوح عَلَيْهِ السَّلام مَعَ قَوْمِهِ أَيُّهَا المتَلَقِّي، حِينَ نَادَانَا دَاعِياً مِنْ قَبْلِ مَنْ سَبَقَ أَنْ ذَكَرْنَا مِنَ الرُّسُلِ عَلَيْهِم السَّلَام؛ أَنْ نُنْجِيَهُ وَنُنْجِيَ أَهْلَهُ مِنَ الكَرْبِ الْعَظِيم الَّذِي أَنْزَلَهُمْ بِهِ قَوْمُهُمْ بِالْقَتْلِ، وَحَذَّرُوا نُوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ مُتَابَعَةِ دَعْوَتِهِ إِلَىٰ دِينِ اللهِ تَعالى فيهم.

الكَرْب: الحزنُ والْغَمُّ يَأْخُذُ بالنَّفسِ، كَأَنَّ حَبْلاً أُبرِمَ عَلَيْهَا وَشُدَّ شَدًّا مُؤْلِماً، وَوَصَفَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هٰذَا الكَرْبَ بِأَنَّهُ عَظِيمٌ، إِذْ كَانَ قَوْمُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلام قَدْ شَدَّدُوا الضَّغْطَ عَلَيْهِ وعَلَىٰ أَهْلِهِ.

فَاسْتَجْبَنَا لَهُ دُعَاءَهُ، فَنَجَّيْنَاهُ وَنَجَّيْنَا أَهْلَهُ مِنْ كَيْدِ قَوْمِهِمْ أَنْ يَتَخَلَّصُوا مِنْهُمْ، بِأَلْطَافِنَا الْخَفِيَّة، وَنَصَرْنَاهُ حَامِينَ لَهُ مِنَ الْقَوْم الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا الإعْجَازِيَّةِ، وآيَاتِنَا الْبَيَانِيَّةِ الَّتِي أَنْزَلْنَاهَا عَلَيْهِ، وَهُمْ قَوْمُهُ عَلَيْهِ السَّلام الَّذِينَ لَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسَينَ عاماً، واسْتَمَرَّ مُنْذُ بِعْثَتِهِ حَتَّىٰ أَوَاخِرِ إقَامَتِهِ فِيهِمْ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ دِينِ اللهِ الْحَقّ، ونَبْذِ الشِّرْكِ وعِبَادَةِ الأَوْثَانِ، فَلَمْ يَسْتَجِبْ لَهُ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ، ومِنَ المسْتَجِيبِينَ لَهُ أَهْلُهُ باسْتِثْنَاءِ وَاحِدٍ مِنْ أَبْنائِه عَلَيْهِ السَّلَام، فإِنَّهُ كَانَ كَافِراً مُعْتَزِلاً، فَقَالَ اللهُ لَهُ بِشَأْنِهِ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ، حِينَ قَالَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَام لِرَبِّهِ: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾. وبِاسْتِثْنَاءِ زَوْجَتِهِ أَيْضاً، الَّتِي مَاتَتْ كَافِرَة.

وَوَصَفَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ قَوْمَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِقَوْلِهِ:

• ﴿... إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ... ﴿٧٧﴾﴾:

السُّوء: كُلُّ مَا هُوَ قبيحٌ مِنْ فِكْرٍ، أو اعْتِقَادٍ، أَوْ خُلُقٍ، أَوْ عَمَلٍ، أَوْ شيءٍ مَادِّيٍّ كَرِيهٍ.

وإضَافَة لفظ «قَوْمِ» إلى لفظ «سُوءٍ» يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ كُلَّ حَرَكَاتِهِم الاخْتِيَارِيَّةِ الظَّاهِرَةِ والْبَاطِنَةِ تَكَادُ تَنْحَصِرُ بِمَا هُوَ قبيحٌ، فَلَا خَيْرَ فِيهِم، وَلَا عِلَاجَ لَهُمْ إِلَّا الإهْلَاكُ والإِبَادَةُ الْعَامَّة، وَلِهَذَا أَهْلَكَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَأَبَادَهُمْ بالطُّوفَان الْعَامّ، فَقَالَ بِشَأْنِهِمْ:

• ﴿... فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾ أي: بِغَيْرِ اسْتِثْنَاءِ أَحَدٍ مِنْهُمْ.

أَجْمَعِينَ: حالَ من أغْرقْنَاهُمْ.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الحادِي عشر من دُرُوس سورة (الأنبياء).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

❁ ❁ ❁

(١٦)
التدبُّر التحليلي للدّرس الثاني عشر من دُروس سورة (الأنبياء) الآيات من (٧٨ ـ ٨٢)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ۝٧٨ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ۝٧٩ وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ۝٨٠ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ ۝٨١ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ۝٨٢﴾:

القراءات:

(٨٠) • قرأ ابْن عَامر، وَحفص، وأَبُو جَعْفر: [**لِتُحْصِنَكُمْ**].

وقرأها شُعْبة، وَرُوَيْسٌ: [**لِنُحْصِنَكُمْ**].

وَقَرأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**لِيُحْصِنَكُمْ**].

وفي هَـٰذِهِ الْقِرَاءَات تَكَامُلٌ في الْأَدَاءِ البياني مع تَفَنُّنٍ في التَّعْبير.

(٨٠) • قرأ السُّوسي، وأبو جعْفر: [**بَاسِكُمْ**]. وكذلِكَ قَرَأَهَا حمزة في الْوَقف.

وقرأها بَاقِي القراء العشرة: [**بَأْسِكُمْ**].

(٨١) • قرأ أبو جَعْفرٍ: [**الرِّيَاحَ**]، بالْجَمْعِ للدَّلَالَة عَلَىٰ الأنْواع.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**الرِّيحَ**]، بالإفراد على أَنَّهُ اسْمُ جِنْسٍ، وهو يَشْمَلُ أَنْواعَ الرِّيَاح.

تَمْهيد:

في آيات هـٰذَا الدَّرسِ عَرْضُ لَقَطاتٍ مُوجَزاتٍ من قِصَّتِيْ دَاوُد وسُلَيْمان عَلَيْهِمَا السَّلام في حَيَاتَيْهِما.

وقَدْ سَبَقَ تَدبُّر الآيَات من: (٧٨ ـ ٨٠) مِنْ هذا الدَّرْسِ تَدبُّراً تَكامُلِيًّا في الْمُلْحَقِ الثَّالِثِ مِنْ مَلَاحِقِ تَدَبُّر سورة: (ص/٣٨ نزول):

التدبُّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ عَطْفاً عَلَىٰ مَنْ سَبَقَ ذِكْرُهُمْ في السُّورَةِ من رُسُل عَلَيْهِم السَّلَام:

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾:

في هَـٰذِهِ الآيَاتِ بيانُ ثَلَاثِ قَضَايَا:

الْقَضِيَّةُ الأُولَى: حُكْمُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ في حَادِثَةِ تَعَدٍّ مِنْ غَنَم بَعْضِ الْقَوْمِ عَلَىٰ حَرْثِ آخَرِينَ فَأَفْسَدَتْهُ كُلَّهُ، فَعَلِمَ ابْنُهُ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِحُكْمِ أَبِيهِ، فَرَأَىٰ رَأْياً آخَرَ، فَأَقَرَّهُ أَبُوهُ عَلَيْهِ، ورَجَعَ عَنْ حُكْمِهِ.

الْقَضِيَّةُ الثَّانِيَة: بَيَانُ تَسْخِيرِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ الْجِبَالَ وَالطَّيْرَ مَعَ دَاوُد عَلَيْهِ السَّلَامُ يُسَبِّحْنَ، بِقَضَاءٍ سَابِقٍ وَتَنْفِيذٍ لَاحِقٍ.

القضيَّة الثالِثَة: امْتِنَانُ اللهِ عَلَىٰ النَّاسِ بِتَعْلِيمِهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلام صِنَاعَةَ الدُّرُوع الواقِيَاتِ في الحَرْب، من السُّيُوفِ والرِّمَاحِ والسِّهَام ونَحْوِهَا، وَهـٰذَا العِلْمُ قَدْ أَخَذَهُ النَّاسُ عَنْهُ فَانْتَفَعُوا بِهِ، فَوَجَبَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَشْكُرُوا اللهَ عَلَيْهِ.

● **أَمَّا الْقَضِيَّةُ الأولى**: فَقِصَّتُهَا جَمْعاً مِمَّا روى الطَّبَرِيُّ بأَسَانِيدِهِ عَن

ابْنِ مسعودٍ وابن عَبّاس رضي اللهُ عَنْهُمَا في رِوَايَاتٍ مُتَعَدِّداتٍ؛ أَنَّ أَصْحَابَ غَنَمٍ تَرَكُوا غَنَمَهُمْ لَيْلاً دُونَ حِراسَةٍ وَلَا رِعَايَةٍ، فَدَخَلَتْ هَٰذِهِ الْغَنَمُ فِي أَرْضٍ مَحْرُوثَةٍ مَبْذُورة قَدْ نَبَتَ زَرْعُهَا، فَأَكَلَتْ مَا أَكَلَتْ مِنَ الزَّرْعِ وأَفْسَدَتْ سَائِرَهُ.

فَتَرَافَعَ الْخَصْمَانِ بِقَضِيَّتِهِمَا إِلَىٰ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَتَحَقَّقَ مِنْ وُقُوعِ الْحَادِثَةِ، وَيَظْهَرُ أَنَّهُ رَأَىٰ أَنَّ قِيمَةَ الْغَنَمِ تُسَاوِي قيمَةَ مَا أَكَلَتِ الْغَنَمُ وأفْسَدَتْ مِنَ الزَّرْعِ.

فحَكَمَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَام بِدَفْعِ الْغَنَم كُلِّهَا لِأَصْحَابِ الزَّرْعِ تَعْويضاً لَهُم، بِسَبَبِ أَنَّ أَصْحَابَ الْغَنَم تَرَكُوا غَنَمَهُمْ لَيْلاً دُونَ حِمَايَةٍ وَلَا رِعَايَةٍ، حَتَّىٰ كَانَ مِنْهَا عُدْوَانٌ عَلَىٰ زَرْعِ أَصْحَابِ الحرْث، فأَكَلَتْ مِنْهُ مَا أَكَلَتْ، وأَفْسَدَتْ سَائِرَهُ.

وَعَلِمَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَام بِحُكْم أَبِيهِ وَكَانَ فَتًى يَافِعاً مُلْهَماً ذَا فَهْم وحِكْمَةٍ، فَقَالَ لأبِيهِ: أَرَىٰ أَنْ يَكُونَ الْقَضَاءُ غَيْرَ الَّذِي قَضَيْتَ. فقال داوُدُ عَلَيْهِ السَّلَام: كَيْفَ؟.

قَالَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ الْحَرْثَ لَا يَخْفَىٰ على صَاحِبِهِ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ فِي كُلِّ عَامٍ، فَلَهُ مِنْ صَاحِبِ الْغَنَم أَنْ يَبِيعَ مِنْ أَوْلَادِهَا وَأَصْوَافِهَا وأَشْعَارِهَا، حَتَّىٰ يَسْتَوْفِيَ ثَمَنَ الْحَرْث، فإِنَّ الْغَنَمَ لَهَا نَسْلٌ في كُلِّ عام.

وَجَاءَ فِي رِوَايَةٍ أخرَىٰ أَنَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلام قَالَ: تُدْفَعُ الْغَنَمُ لِأَهْلِ الزَّرْعِ، يَسْتَثْمِرُونَ أَلْبَانَهَا وأَصْوَافَهَا وأَوْلَادَها، وتُدْفَعُ الْأَرْضُ لِأَهْلِ الْغَنَم، يَبْذُرُنَ لِأَهْلِ الحرْثِ مِثْلَ حَرْثِهِمْ، فَإِذَا بَلَغَ الْحَرْثُ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ؛ أَخَذَ أَصْحَابُ الْحَرْثِ حَرْثَهُمْ، وَرَدُّوا الْغَنَمَ إِلَىٰ أَصْحَابِهَا.

فَقَالَ دَاوُدُ لابْنِهِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِمَا السَّلَام: قَدْ أَصَبْتَ، الْقَضَاءُ كَمَا قَضَيْتَ.

فألْغَىٰ دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلام قَضَاءَهُ الْأَوَّلَ، وَحَكَمَ بِمَا قَضَىٰ بِهِ ابْنُهُ سُلَيْمان عَلَيْهِ السَّلَام، وَلَمْ يَجِدْ فِي نَفْسِهِ غَضَاضَةً أَنْ يَرْجِعَ إِلَىٰ مَا هُوَ الْأَقْرَبُ إِلَىٰ كَمَالِ الْعَدْل، عَلَىٰ الرُّغْمِ مِنْ حَدَاثَةِ سِنِّ وَلَدِهِ سُلَيْمَان عَلَيْهِ السَّلَام.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ ... ﴿٧٨﴾﴾:

أي: وَضَعْ في ذَاكِرَتِكَ أَيُّهَا المتَلَقِّي قِصَّةَ دَاوُدَ وسُلَيْمَانَ عَلَيْهما السَّلَام الَّتِي كَانَتْ وَقْتَ حُكْمِهِمَا فِي قَضِيَّةِ الْحَرْثِ.

الحرث: هُوَ الْعَمَلُ فِي الْأَرْضِ لاسْتِنْبَاتِ زَرْعِهَا، أَوْ غَرْسِ شَجَرِهَا، وَيُطْلَقُ الْحَرثُ أَيْضاً عَلَىٰ الزَّرْعِ النَّابِتِ نَفْسِهِ، كَمَا ذَكَرَ الزَّجَّاج.

قال الأزْهَرِي: **الْحَرْثُ**: قَذْفُكَ الْحَبَّ فِي الْأَرْضِ لازْدِرَاعٍ، **والْحَرْثُ**: الزَّرْعُ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿... إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ ... ﴿٧٨﴾﴾:

أي: يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ فِي قِصَّةٍ حَدَثَتْ حِينَ نَفَشَتْ فِي الْحَرْثِ غَنَمُ الْقَوْمِ. (ال) في: [**الْقَوْمِ**] للدَّلَالَةِ عَلَىٰ الْجِنْسِ فقط.

﴿نَفَشَتْ﴾: أي: رَعَتْ لَيْلاً دُونَ راعٍ، يُقَالُ لُغَةً: «نَفَشَتِ الإبِلُ، أو الْغَنَم، أَوْ نَحْوُهُما، تَنْفُشُ، وَتَنْفِشُ، نَفْشاً، ونُفُوشاً» أي: انتَشَرَتْ لَيْلاً فَرَعَتْ دُونَ رَاعٍ، والواحِدُ منها «نَافِش».

ويقالُ لغة: «أنْفَشَ الراعِي مَاشِيَتَهُ» أي: أَرْسَلَهَا لَيْلاً تَرْعَىٰ وَنَامَ عَنْها.

فإذَا فَعَلَتِ الْمَاشِيَةُ مِثْلَ ذَلِكَ نَهاراً قَالَ الْعَرَبُ: «هَمَلَتْ»، ولَا يَقُولُونَ: «نَفَشَت».

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بضَمِيرِ المتكلِّم العظيم:

• ﴿... وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾﴾:

فِي هَـٰذِهِ الْجُمْلَةِ بَيَانٌ لِإحْدَىٰ مُفْرَدَاتِ قَضِيَّةٍ كُلِّيَّةٍ عامَّةٍ، مِنَ الْقَضَايَا الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِصِفَاتِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ، وهِيَ شُهُودُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ لِكُلِّ شَيْءٍ، ولِكُلِّ حَدَثٍ يَحْدُثُ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ.

الشَّاهِدُ: الحاضِرُ الْعَالِمُ بالمشْهُودِ.

وهَـٰذِهِ الْقَضِيَّةُ الْكُلِّيَّةُ الْعَامَّةُ قَدْ جَاءَ بَيَانُهَا فِي عِدَّةِ نُصُوصٍ قُرْآنِيَّةٍ، مِنْهَا قولُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ في سُورَة (الْبُرُوج/٢٧ نزول):

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾﴾:

وشُهُودُ اللهِ هُو حُضُورُهُ مُحِيطاً بِعِلْمِهِ ومُرَاقَبَتِهِ عَلَىٰ أَكْمَلِ وَجْهٍ وأَتَمِّه.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ... ﴿٧٩﴾﴾:

أي: فَفَهَّمْنَا الْقَضِيَّةَ والْحُكْمَ الأَقْرَبَ لِكَمَالِ الْعَدْلِ فِيها سُلَيْمَانَ ـ عَلَيْهِ السَّلَام ـ، وهـٰذَا التَّفْهِيمُ مِنَ اللهِ لِسُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَام قَدْ كَانَ عَلَىٰ سَبِيلِ الْإِلْهَامِ الرَّبَّانِيِّ، بِمَعُونَةٍ غَيْرِ مُدْرَكَةٍ بالْحِسِّ، لَكِنْ يَظْهَرُ أَثَرُهَا بِحُصُولِ الْفَهْم.

الْإِلْهَامُ: شَيْءٌ خَفِيٌّ غَيْرُ الْوَحْيِ الْمَعْرُوفِ لِلأَنْبِيَاءِ والرُّسُل عَلَيْهِم السَّلَام.

فَقَدَّمَ سُلَيْمَانُ رَأْيَهُ فِي ذَلِكَ لِأَبِيهِ دَاوُدَ عليهما السلام، فَقَبِلَهُ وقَضَىٰ بِهِ، عَلَىٰ مَا سَبَقَ بَيَانُهُ.

وأَثْنَىٰ اللهُ عَلَيْهِمَا بِقَوْلِهِ: ﴿... وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ... ﴿٧٩﴾﴾:

سبق آنفاً فِي تَدَبُّرِ الآية (٧٤) بِشَأْن لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَيَانُ مَعْنَىٰ الْحُكْمِ والْعِلْم، وأقولُ هُنَا: أَبْرَزُ مَعَانِي الْحُكْم فِقْهُ الأمور، وحُسْنُ الإِدَارَة، والْقَضَاءُ بالْعَدْل، وأَمَّا الْعِلْمُ فَهُوَ سُلَّمٌ لَا نِهَايَةَ لَهُ مِنَ الْمَعْرِفَةِ، قَابِلٌ لِأَنْ يَتَنَامَىٰ دَواماً.

وَجاءَ التَّنْكِيرُ فِي كَلِمَتَيْ: ﴿حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ لِلْإِشْعَارِ بأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ آتاهُمَا مِقْداراً مَا مِنَ الْحُكْمِ والْعِلْمِ، كَانَا فِيهِ مُتَفَوِّقَيْنِ عَلَىٰ نَظَرَائِهِمَا في زَمَانِهِمَا.

أَمَّا كَمَالُ الْحُكْم والْعِلْم فَهُوَ للهِ عَزَّ وَجَلَّ وَحْدَهُ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْبَشَرَ كُلَّهُمْ لَمْ يُؤْتَوْا مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً، وكَمَالُ الْحُكْمِ لَا بُدَّ أَنْ يَعْتَمِدَ عَلَىٰ شُمُولِ الْعِلْم.

- **وأَمَّا الْقَضِيَّةُ الثَّانِيَةُ** فَقَدْ جاءَ بَيَانُهَا فِي قَوْلِ اللهِ تعالى:
- ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾:

التَّسْخِيرُ: التَّذْلِيلُ لِعَمَلٍ مَا، أَوْ أَمْرٍ مَا، وجَعْلُ الشَّيْءِ مُطَاوِعاً لِمَا يُرَادُ مِنْهُ أَنْ يُؤَدِّيَهُ، ضِمْنَ قَانُونِ التَّسْخِير الرَّبَّاني له، بالطَّبْعِ والْفِطْرَةِ، أَو بالْقُوَّةِ والإِلْزَامِ والْقَهْر، أو بالاخْتِيَار الحرّ، لما في المطاوعَةِ مِنْ مَصْلَحَةٍ لِلْمُطَاوعِ.

وَمَسْأَلَةُ تَسْخِير الْجِبَالِ والطَّيْرِ مَعَ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ سَبَقَ بَيَانُهَا لَدَى تَدبُّر الآيَتَيْنِ (١٨) و(١٩) من سورة (ص/٣٨ نزول)، فَلْيُرْجَعْ إِلَيْه.

ويَدُلُّ قَوْلُ اللهِ في الآيَة: ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ عَلَىٰ تَنْفِيذِ مَا سَبَقَ أَنْ قَدَّرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وقَضَاهُ بالأَمْرِ التَّكْوِيني، فَتَحَقَّقَ في الْوَاقِعِ التنفيذُ على وَفْقِ سَابِقِ التَّقْدِيرِ والقضاء.

- **وأَمَّا الْقَضِيَّةُ الثَّالِثَةُ** فَقَدْ جاءَ بَيَانُهَا فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾:

اللَّبُوس: اسْمٌ يَقَعُ عَلَىٰ كُلِّ مَا يُلْبَسُ سَاتِراً لِكُلِّ الْجِسْمِ أَوْ بَعْضِهِ، وجَمْعُهُ «اللُّبُس». ويُطْلَقُ: «اللَّبُوس» عَلَىٰ الدِّرْعِ، وهُو المرادُ هُنَا.

﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾: **الْبَأْسُ**: الْحَرْبُ، والشِّدَّةُ فِيهِ، أي: لِتَقِيَكُمْ وَتَحْمِيَ أَجْسَادَكُمْ مِنْ ضَرَبَاتِ سُيُوفٍ ورِمَاحٍ وَسِهَامِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ فِي الْحَرْبِ، ورَغْبَةً فِي سَلَامَتِكُمْ.

فِي هَٰذِهِ الآيَةِ بَيَانُ ثَلَاثِ أَفْكَارٍ ذَاتِ شَأْنٍ:

الْفِكْرَة الْأُولَىٰ: أَنَّ صُنْعَ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ للدُّرُوعِ ذَاتِ الزَّرَدِ؛ قَدْ كَانَ بِتَعْلِيمٍ مِنَ اللهِ تَعَالى لَهُ، كَمَا عَلَّمَ نُوحاً عَلَيْهِ السَّلامُ صُنْعَ الْفُلْكِ.

الْفِكْرَةُ الثَّانِيَة: أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ يَمْتَنُّ عَلَىٰ عِبَادِهِ بِتَعْلِيمِهِمْ عَنْ طَرِيقِ رَسُولٍ مِنْ رُسُلِهِ عَلَيْهِم السَّلام؛ وَسِيلَةً مِنْ وَسَائِلِ إِحْصَانِهِمْ، مِنْ شُرُورِ حَرْبِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ، وَلَمْ يَذْكُرِ اللهُ أَنَّهُ عَلَّمَ عِبَادَهُ عَنْ طَرِيقِ الوحْيِ صِنَاعَةَ أدواتِ الْقِتَالِ، مَعَ أَنَّهُ هو الَّذِي خَلَقَ فِي عِبَادِهِ مَا يُوصِلُهُمْ إِلَىٰ صُنْعِ كُلِّ شَيْءٍ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ صُنْعِهِ بِمَا وَهَبَهُمْ.

الْفِكْرَةُ الثالِثَة: دَعْوَةُ اللهِ عِبَادَهُ أَنْ يَشْكُرُوهُ عَلَىٰ نِعْمَةِ هِدَايَتِهِمْ إِلَىٰ وَسَائِلِ سَلَامَتِهِمْ، فَقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿... فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾: اسْتِفْهَامٌ يُرَادُ بِه التَّرْغيب في الشُّكْرِ، والْحَثُّ عَلَيْهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بضمير المتكلّم العظيم إشعاراً بِمِيزَة ما آتىٰ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَام:

• ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾:

وفي قراءةِ أبي جَعْفر: [الرِّيَاحَ عَاصِفَةً]، للدَّلالَة على الأنواع، وبالإفرادِ: [الريحَ]: اسْمُ جنْسٍ شامل لكلِّ أنواعِهَا.

أي: وَسَخَّرْنَا لِسُلَيْمَانَ ـ عَلَيْهِ السَّلَام ـ الرِّيحَ والرِّيَاحَ حالَةَ كَوْنها عَاصِفَةً.

الرِّيح العاصِفَةُ: هِيَ الَّتِي اشْتَدَّ هُبُوبُهَا حَتَّىٰ صَارَتْ تَحْمِلُ الْعَصْفَ فَتَدُورُ بِهِ وَتَرْمِيهِ كَيْفَمَا اتَّفَقَ. **العَصْفُ**: نَبَاتُ الْأَرْضِ اليابِسُ، وَوَرَقُ الزَّرْع.

وَجَاءَ في سُورَة: (سَبأ/٥٨ نزول) بَيَانُ مِنَّةِ اللهِ عَلَىٰ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَام بأنَّهُ آتاهُ «الرِّيحَ»، وفي قراءةِ أبي جَعْفر: «الرِّياحَ»، غُدُوُّها شَهْرٌ وَرَواحُهَا شَهْرٌ، فقال تَعالَىٰ فيها:

- ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌۖ . . . ﴿١٢﴾﴾.

وَجَاءَ في سُورَة: (ص/٣٨ نزول) قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

- ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾:

وفي قراءَة أَبِي جَعْفَر: [الرِّيَاحَ].

فَمَا جَاءَ في سُورَة: (ص/٣٨ نزول) دَلَّ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ سَخَّرَ لِسُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَام أنواعَ الرِّيَاح، فَهِيَ تَجْرِي بأمْرِهِ لَيِّنَة حَيْثُ قَصَدَ وأراد.

رُخَاءً: أي: لَيِّنَةً غَيْرَ شَدِيدَة.

حَيْثُ أَصَابَ: أي: حَيْثَ قَصَدَ وَأراد.

وَمَا جَاء في سُورَة: (سَبأ/٥٨ نزول) دَلَّ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ ـ جَلَّ جَلالُهُ ـ سَخَّرَ لِسُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَام أنواعَ الرِّيَاح بِسُرْعَةٍ يُقَدَّرُ غُدُوُّهَا بِشَهْرٍ لِقَافِلَةِ الْمُسَافِرين، وَيُقَدَّرُ رَوَاحُهَا بِشَهْرٍ لِقَافِلَةِ الْمُسَافِرِين.

الْغُدُوُّ: الذَّهَابُ في وَقْتِ الْغُدْوَة، وهُوَ مَا بَيْنَ الْفَجْرِ وطُلُوعِ الشَّمْس.

الرَّواح: السَّيْرُ في الْعَشِيّ، وهُوَ في الْغَالِبِ مِنْ وَقْتِ الْعَصْرِ إلى الْغُرُوب.

ومَا جَاءَ في سُورَةِ: (الأنبياء/ ٧٣ نزول) دَلَّ عَلى أَنَّ اللهَ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ سَخَّرَ لِسُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَام الرِّيحَ الشَّدِيدَة الْعَاصِفَةَ، فَهِي تَجْرِي بأَمْرِهِ إِلَىٰ الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكَ اللهُ فِيها، وهي أَرْضُ الشَّام حَوْلَ مَكَانِ الْمسَجِدِ الأقْصَىٰ، أيْ: وتَجْرِي بأَمْرٍ مِنْ هَـٰذِهِ الْأَرْضِ إلى حَيْثُ أَرَادَ وَأَمَرَهَا أَنْ تَجرِيَ إِلَيْهِ.

فَكَانَ لسُلَيْمَان عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهـٰذَا التَّسْخير الرَّبَّانِي سُلْطَانٌ عَلَىٰ الرِّيَاحِ، فَهِيَ تَتَحَرَّكُ بأمْرِهِ في سُرْعَةٍ، غُدُوّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْر، إذَا أَرَادَ أَنْ تَكُونَ سَرِيعة، وتَجْرِي رُخَاءً بأمْرِهِ إذَا أَرَادَ أَنْ تَكُونَ لَيِّنَةً غَيْرَ شَدِيدَةٍ، وتَجْرِي قَوِيَّةً عَاصِفَةً حيثما يُرِيدُ أَنْ تَكُونَ عَاصِفَةً، وَيَظْهَرُ أَنَّهُ كَانَ يُرِيد أَنْ تَكُونَ عَاصِفَةً في وَجْهِ جَيْشِ الْأَعْدَاءِ فِي الْحَرْب، وكذَلِكَ في الْأَحْوَالِ الَّتِي يَحْسُنُ أَنْ تَكُونَ عَاصِفَةً شَدِيدة.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿... وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾: أَيْ: وَلَمْ يَكُنْ يَخْفَىٰ عَلَيْنَا أَيُّ تَصَرُّفٍ مِنْ تَصَرُّفَاتِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلام فِيمَا سَخَّرْنَا لَهُ، وهـٰذَا دَاخِلٌ فِي كُلِّيَّةٍ عَامَّةٍ هِيَ: «أَنَّنَا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ مِمَّا تَشْمَلُهُ دائِرَة العلم».

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾:

أيْ: وكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ بِسُلْطَانِنَا مِنْ أَنْ يَعْصُوهُ ويَخْرُجُوا عَنْ طَاعَتِهِ.

وجاء في سُورَة: (ص/ ٣٨ نزول) بَيَانُ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَهُ مِنَ الشَّيَاطِينِ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ، فَمَنْ عَصَاهُ مِنْهُمْ فَقَدْ جَعَلَ اللهُ لَهُ سُلْطاناً عَلَيْهِمْ أَنْ يَشُدَّهُمْ أَذِلَّاءَ بالسَّلَاسِلِ الْمُلَائِمَةِ لِطَبِيعَتِهِمْ، وأَنْ يَأْمُرَ بِتَعْذِيبِ مَنْ يَشَاءُ تَعْذِيبَهُ مِنْهم، فَقَالَ تَعَالَىٰ فيها:

﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾.

الشَّيَاطِينُ: هُمْ كَفَرَةُ الجِنّ، وهُمْ جُنُودُ إبْلِيسَ لَعَنَهُ اللهُ.

المعنى: وَمِنَ الشَّيَاطِينِ سَخَّرْنَا لِسُلَيْمَانَ ـ عَلَيْهِ السَّلام ـ بِسُلْطَانٍ جَعَلْنَاهُ لَهُ عَلَيْهِمْ، فَهُوَ يَسْتَخْدِمُ مِنْهُمْ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ فِي الْبِحَارِ لاسْتِخْرَاجِ مَا يَشَاءُ اسْتِخْرَاجَهُ مِنها. ويسْتَخْدِمُ مَنْ يَشَاءُ مِنْهُمْ فِي أَعْمَالِ البناء، والْحَمْلِ والنَّقْلِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ أَعْمَالٍ هِيَ أَقَلُّ مَشَقَّةً من الْغَوْصِ في البحار.

وَقَدْ جَعَلَ اللهُ لِسُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلام سُلْطَاناً عَلَىٰ مَنْ سَخَّرَهُمْ لَهُ مِنَ الشَّيَاطِينِ، فَمَنْ عَصَاهُ مِنْهُمْ قَيَّدَهُمْ فِي الأَصْفَادِ، وَأَدَّبَهُمْ بالإِذْلَالِ والتَّعْذِيب.

مُقَرَّنِين: أي: مَشْدُودِين.

في الأَصْفَادِ: أي: في السَّلاسِلِ والأَغْلَال، مُفْرَدُها: «الصَّفَد»، و«الصِفَاد».

وهكذا خَصَّ اللهُ سُلَيْمان عَلَيْهِ السَّلام بِمُلْكٍ عَظِيمٍ كَانَ لَهُ بِهِ سُلْطَانٌ مَا عَلَىٰ الرِّياح، وسُلْطَانٌ عَلَىٰ بَعْضِ شياطِينِ الجنّ.

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الثاني عشر من دُرُوس سورة (الأنبياء).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

❀ ❀ ❀

(١٧)
التدبُّر التحليليّ للدّرس الثالث عشر من دُروس سورة (الأنبياء)
الآيتان: (٨٣ و٨٤)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾:

القراءات:

(٨٣) • قرأ حمزة: **[مَسَّنِيْ الضُّرُّ]** بإسْكان ياء المتكلم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[مَسَّنِيَ الضُّرُّ]** بفَتْحِ ياءِ المتكلم.

تَمْهيد:

في آيَتَيْ هٰذَا الدَّرْسِ عَرْض لَقْطَةٍ مُوجَزَةٍ مِنْ قِصَّةِ أَيُّوب عَلَيْهِ السَّلَام.

وقد سَبَقَ في تدبّر سورة (ص/٣٨ نزول) في الصّفحات من (٥٧٦ ـ ٥٨٦)[١] تَدَبُّرُ مَا جاءَ في القرآن الْمَجِيدِ عَنْ أَيُّوب عَلَيْهِ السَّلَامُ تَدَبُّراً تكامُلِيًّا، فَلْيُرْجَعْ إِلَيْه.

التدبّر التحليلي:

لَقَدِ ابْتَلَىٰ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَام في جَسَدِهِ وَأَهْلِهِ وَمَالِهِ بَلَاءً عَظِيماً، وطَالَتْ مُدَّةُ بَلَائِهِ، وَجَعَلَ الشَّيْطَانُ يُوَسْوِسُ لَهُ دواماً لَيُخْرِجَهُ عَنْ صَبْرِهِ عَلَىٰ بَلَائِهِ، لكنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أفْرَغ عَلَيْهِ صَبْراً عَظِيماً اشْتَدَّ مِنْهُ غَيْظُ الشيطان.

---

(١) المجلّد الثالث.

ونَادَىٰ أيُّوبُ عَلَيْهِ السَّلام رَبَّهُ مُسْتعِيذاً بِهِ من الشيطان، فقال في دُعَائِهِ مَا جاء بَيَانُهُ في سُورَة (ص/٣٨ نزول) بِقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾:

النُّصْبُ: التَّعَبُ والمشقَّةُ والإعياء. والمرادُ بالْعَذَابِ: الْعَذَابُ النَّفْسِيُّ الَّذِي مَسَّهُ مِنْ وَسَاوِسِ الشَّيْطان.

ثُم نَادَى عَلَيْهِ السَّلَام رَبَّهُ لِيَرْفَعَ عَنْهُ بَلَاءَه، وقال في دُعَائِهِ مَا جَاء بيانُهُ في سُورَة (الأنبياء/ ٧٣ نزول) بقول اللهِ تعالىٰ:

• ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾:

أي: وَضَعْ في ذَاكِرَتِكَ أيُّهَا المتَلَقِّي لِبَيَانِ رَبِّكَ؛ مَا دَعَا بِهِ أَيُّوبُ - عَلَيْهِ السَّلَام - رَبَّهُ لِيَرْفَعَ عَنْهُ الضُّرَّ الَّذِي مَسَّهُ وَطَالَ أَمَدُهُ فِيهِ، حِينَ قَالَ في دُعائِهِ لِرَبِّهِ:

﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ بِفَتْحِ الهمزة مِنْ «أَنّي»، على تقدير حَذْف حرف الجرّ «الباء». وَتَأَدَّبَ مع رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ بعبارة: «مَسَّنِيَ الضُّرُّ»، ولَمْ يَقُلْ: «أَصَابَنِي الضُّرُّ»، معَ أَنَّه فَقَدَ أَهْلَهُ وَمَالَهُ وَصِحَّتَهُ. فالْمَسُّ يُعَبَّرُ بِهِ عَنِ الإحْسَاسِ الْخَفِيفِ بالشَّيْءِ الْمُلَاصِقِ.

وعبارَةُ: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ فِيهَا دَلَالَةٌ بالكِنَايَةِ عَنْ طَلَبِ رَفْعِ مَا نَزَلَ بِهِ مِنْ بَلَاءٍ وضُرٍّ.

فاسْتَجَابَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ دُعَاءَهُ، وزَادَهُ مِنْهُ فَضْلاً، وَقَالَ فِي بَيان هٰذَا بضمير المتكلِّم العظيم:

• ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾:

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾: أي: دُعَاءَهُ الَّذِي دَعَاهُ بأسْلُوبِ الكِنَايَةِ في اللفظ. ومَعْنَىٰ «اسْتَجَابَ لَهُ»: قَبِلَ تَحْقِيقَ مَا طَلَبَ في دُعائِهِ.

﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾: أي: فأزَلْنَا مَا نَزَلَ بِهِ من ضُرٍّ، وَهُوَ سُوءُ الْحَال في جَسَدِهِ.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾: أي: وَرَدَدْنَا وأَوْصَلْنَا إِلَيْهِ أَهْلَهُ الَّذِينَ كَانَ قَدْ سَلَبَهُمْ غُزَاةٌ، وَوَهَبْنَا لَهُ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ.

﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾: أي: رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا ذَاتَ أَثَرٍ في إيصالِ مَا وَهَبْنَاهُ إِلَيْهِ.

﴿... وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ۝٨٤﴾: الذِّكْرَى: اسْمٌ للتَّذْكِيرِ، أي: وَتَذْكِيراً مِنَّا لِلْعَابِدِينَ بالصَّبْرِ، بأَنَّ عَاقِبَتَهُمْ أَنْ نُزِيلَ عَنْهُمْ مَا أَنْزَلْنَا بِهِمْ مِنْ بَلَاءٍ، وَأَنْ نَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِنَا عَطَاءَاتٍ تُرْضِيهِمْ.

وَيُرْجَعُ في النَّظَرَاتِ التَّكَامُلِيَّةِ بَيْنَ نَصِّ سورة (الأنبياء/٧٣) ونَصِّ سورة (ص/٣٨) إلى مَا سَبَقَ بَيَانُهُ في سورة (ص/٣٨)، في المجلَّدِ الثالِثِ مِنْ هٰذَا الكتاب.

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّرُ الدّرس الثالث عشر من دُرُوس سورة (الأنبياء).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(١٨)
التدبُّر التحليلي للدّرس الرابع عشر من دُروس سورة (الأنبياء) الآيتان (٨٥ و٨٦)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٨٥ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٨٦﴾:

تَمْهيد:

فِي آيَتَي هٰذَا الدَّرْسِ بَيَانٌ مُوجَزٌ جدًّا عَنْ ثَلَاثَةِ رُسُلٍ تَجْمَعُهُمْ صِفَةُ الصَّبْرِ، وهم: «إِسْماعِيلُ» و«إِدْرِيسُ» و«ذُو الكِفل» عَلَيْهِ السَّلَام.

وَأَبَانَ اللهُ أَنَّهُ أَدْخَلَهُمْ فِي رَحْمَتِهِ، وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِمْ بأَنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ.

التدبّر التحليلي:

إِسْمَاعِيل عَلَيْهِ السَّلَام: هو الابْنُ الْبِكْرُ لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام، من هاجر المصريَّة، الَّتِي وَهَبَهَا فِرْعَوْنُ مِصْرَ لِسَارَةَ زَوْجَةِ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام، فَوَهَبَتْهَا سَارَةُ لِزَوْجِهَا إبراهيم، فوَلَدَتْ لَهُ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِما السَّلَام، وسَافَرَ بِهِمَا فَأَسْكَنَهُمَا بِمكَّة بأمْر اللهِ، ولمَّا كَبِرَ وبَلَغَ أَشُدَّه، اصْطَفَاهُ اللهُ فَجَعَلَهُ نَبِيًّا وَرَسُولاً.

إِدْرِيس عَلَيْهِ السَّلَام: ذكر المؤرخون عَنِ الإسْرَائِيلِيِّيْنَ: أَنَّ «إِدْرِيسَ عَلَيْهِ السَّلَام» هُوَ: أَخْنُوخُ بْنُ يَارِدَ بْنِ مَهْلَلْئِين بْنِ قَيْنَانَ بْنِ أَنُوش بْن «شِيثٍ» عَلَيْهِ السَّلَام بن آدم عَلَيْهِ السَّلَام، وذَكَرُوا أَنَّ شِيثاً كَانَ نَبِيًّا رَسُولاً، وأَنَّ اللهَ قَدْ أَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَاباً يُسَمَّىٰ «صُحُفَ شِيث» واللهُ أَعْلَم.

وذكر المؤرخُون أَنَّ أُمَّةَ السِّرْيَان أَقْدَمُ الْأُمَم، وأَنَّ مِلَّتَهُمْ هِيَ: مِلَّةُ الصَّابِئِينَ، نِسْبَةً إلى «صَابئ»، أحد أولاد «شيث» عَلَيْهِ السَّلَام.

وذَكَرَ الصَّابِئُونَ أَنَّهُمْ أَخَذُوا دِينَهُمْ عَنْ «شِيثٍ» و«إِدْرِيسَ» عَلَيْهِمَا السَّلَام، وأَنَّ لَهُمْ كِتَاباً يَعْزُونَهُ إِلىٰ «شِيثٍ»، ويُسَمُّونَهُ «صُحُفَ شِيثٍ».

قال المؤرخون: «إِدْرِيسُ» عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوَّلُ مَنْ خَطَّ بالْقَلَمِ، وأَوَّلُ من نظر في النجوم والحساب، وأَوَّلُ مَنْ خَاطَ الثياب[1].

ذو الكِفل عَلَيْهِ السَّلَام: قال أَهْلُ التاريخ: هو ابْنُ أَيُّوب عَلَيْهِ

---

(١) انظر بقيَّة البيان عن إدريس عَلَيْهِ السَّلَام في الصفحات من (٥٤٢ ـ ٥٤٨) من المجلّد السّابع، عند تدبر الآيتين (٥٦ و٥٧) من سورة (مريم/ ٤٤ نزول).

السَّلَام، واسْمُهُ فِي الْأَصْلِ «بِشْر»، وقَدْ بَعَثَهُ اللهُ بَعْدَ أيوب عَلَيْهِ السَّلَام، وسمَّاه «ذَا الْكِفْل»، وكَانَ مُقَامُهُ في الشَّام، وأَهْلُ دِمَشْقَ يَتَنَاقَلُون أَنَّ لَهُ قَبْراً في جَبَلِ قاسِيُونَ، واللهُ أعْلَم.

والقرآنُ المجيد لَمْ يَزِدْ عَلَىٰ ذِكْرِ اسْمِهِ في عِدادِ المرْسَلِينَ، ولَمْ أَقِفْ عَلَىٰ تَرْجَمَةٍ مَبْسُوطَةٍ له.

ورُوي عَنْ مُجَاهِدٍ: أَنَّه عَلَيْهِ السَّلام كَانَ قَدْ تَكَفَّلَ لِبَنِي قَوْمِهِ أَنْ يَكْفِيَهُمْ أَمْرَهُمْ، ويَقْضِي بَيْنَهُمْ بالْعَدْلِ، فَسُمِّيَ: «ذَا الْكِفْل».

وقد أبان اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ هَٰؤُلَاءُ الرُّسُلِ الثَّلاثَة عَلَيْهِم السَّلام مَا يلي:

(١) أَنَّهُمْ كَانُوا في حَيَوَاتِهِمْ مِنَ الصَّابِرِينَ في طاعاتهم، وعَلَىٰ مَا يَنْزِلُ بهم من أنواع بَلاءٍ.

(٢) أَنَّ اللهَ أَدْخَلَهُمْ فِي رَحْمَتِهِ الْعَظِيمَةِ، فَهُمْ سُعَدَاءُ في رحْمَتِهِ الْمُحِيطَةِ بِكُلِّ ذَرَّةٍ مِنْ ذَرَّاتِهِمْ.

(٣) أَنَّهُمْ مِن زُمْرَةِ الصَّالِحِين. وقَدْ سَبَقَ قَرِيباً شَرْحُ (الصَّالِحِينَ) في الاستعمالات القرآنية.

وبهذا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدَّرس الرابع عشر من دُروس سورة (الأنبياء).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(١٩)

التدبُّر التحليلي للدَّرس الخامس عشر من دُروس سورة (الأنبياء) الآيتان (٨٧ و٨٨)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾:

القراءات:

(٨٧) • قرأ يَعْقُوب: [لَنْ يُقْدَرَ عَلَيْهِ]، أي: لَنْ يُضَيَّقَ عَلَيْه.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ]، أي: لَنْ نُضَيِّقَ عَلَيْهِ.

(٨٨) • قرأ ابْنُ عَامر، وشُعْبَة: [نُجِّي الْمُؤْمِنِينَ].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ].

تَمْهيد:

فِي آيَتَيْ هـٰذَا الدَّرْسِ لَقْطَةٌ مُوجَزَةٌ مِنْ قِصَّةِ ذي النُّون (= يُونُسَ) عَلَيْهِ السَّلَام.

وقَدْ سَبَقَ في دَاخِلِ تَدَبُّر سورة (الصَّافَّات/٥٦ نزول) دراسَةٌ تَكَامُلِيّة للنُّصُوصِ القرآنِيَّةِ بِشَأْنِ يُونس عَلَيْهِ السَّلَام، عند تَدَبُّرُ الآيات من (١٣٩ - ١٤٨) من السُّورة، فَلْيُرْجَعْ إلَيْهَا.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧﴾:

أي: وَضَعْ في ذَاكِرَتِكَ أَيُّهَا المتَلَقِّي لِكَلَام رَبّكَ هـٰذَا الْمُوجزَ مِنْ قِصَّةِ ذي النُّون (وهو يُونُس عَلَيْهِ السَّلَام)، حِينَ ذَهَبَ تَارِكاً قَوْمَهُ «أَهْلَ نِينَوَىٰ» مُغَاضِباً لَهُمْ، إِذْ دَعَاهُمْ طَوِيلاً إِلَىٰ دِينِ اللهِ فما اسْتَجَابُوا لَهُ، فَأَنْذَرَهُمْ بِعَذَابٍ مِنَ اللهِ، وَفَارَقَهُمْ اجْتِهَاداً مِنْهُ، دُونَ أَنْ يَتَلَقَّىٰ مِنْ رَبِّهِ إِذْناً أو أمْراً بِمُفَارَقَتِهِمْ، ظَانًّا أَنَّ اللهَ لَنْ يُضَيِّقَ عَلَيْهِ، فَيُؤَاخِذَهُ عَلَىٰ مُفَارَقَتِهِ قَوْمَهُ دُونَ أَنْ يَأْذَنَ لَهُ بِهـٰذِهِ الْمُفَارَقَة.

ذَكَرَهُ اللهُ بعُنْوان: «ذَا النُّون»، أي: صَاحبَ النُونِ الَّذِي الْتَقَمَهُ في البحر.

النُّون: اسْمٌ مِنْ أسْمَاءِ الْحُوتِ، ولَعَلَّهُ صِنْفٌ خاصٌّ مِنْ أَصْنَافِ الْحِيتَانِ الْعُظْمَىٰ.

مُغَاضِباً: أي: هاجراً قَوْمَهُ، ومُتَبَاعِداً عَنْهم، أَوْ جَرىٰ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ مُجادَلَاتٌ شَدِيداتٌ أغْضَبَتْهُ مِنْهُمْ، وأغْضَبَتْهُمْ مِنْه.

• ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾: أي: فَظَنَّ باجْتِهَادٍ مِنْهُ أَنْ لَنْ نُضَيِّقَ عَلَيْهِ فَنَجْعَلَهُ مُلْزَماً بالأمْرِ أَو بالإذْنِ الصَّرِيحِ بِمُفَارَقَةِ قَوْمِهِ، باعْتِبَارِهِ نَبِيًّا رَسُولاً يُوحَىٰ إِلَيْهِ.

ولَمَّا ذَهَبَ عَنْ قَوْمِهِ مُغاضِباً لَهُمْ، تَوجَّهَ جِهَةَ سَاحِلِ الْبَحْرِ لِينْتَقِلِ إِلَىٰ بلدِهِ عَلَىٰ مَرْكَبَةٍ بَحْرِيَّةٍ، تُقَرِّبُهُ إِلَىٰ مَنَازِلِ أَهْلِهِ، فَوَجَدَ فُلْكاً مُناسِباً، فَتَفَاوَضَ مَعَ أَصْحَابِهِ عَلَىٰ أَنْ يُرْكِبُوهُ مَعَهُمْ، فوافَقُوه عَلَىٰ طَلَبِهِ فَأَرْكَبُوهُ.

وطَوَتِ النُّصُوصُ القرآنِيَّةُ بَيَانَ أَنَّ الْبَحْرَ هَاجَ وَمَاجَ، وأَنَّ أَصْحَابَ الْفُلْكِ وَرُكَّابَهَا خَافُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ مِنَ الْغَرَقِ، فَقَرَّرُوا أَنْ يُجْرُوا قُرْعَةً لإسْقَاطِ مَنْ تَقَعُ الْقُرْعَةُ عَلَيْهِ.

فَأَجْرَوا الْقُرْعَةَ فَخَرَجَ سَهْمُ «يُونُس عَلَيْهِ السَّلام» بأَنَّهُ هُوَ الرجُلُ الْمَحْكُومُ عَلَيْهِ بِأَنْ يُلْقَىٰ في الْبَحْر، دَلّ عَلى هٰذَا مَا جَاء في سورة (الصافات/ ٥٦ نزول).

فَأَرْسَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ حُوتاً عَظِيماً فَالْتَقَمَهُ، أي: فَجَعَلَهُ كَلُقْمَةٍ فِي جَوْفِ فَمِهِ.

وَحِينَ وَجَدَ يونُسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ بِمَثَابَةِ لُقْمَةٍ فِي فَم حُوْتٍ عَظِيم، وَوَجَدَ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَذْكُرَ اللهَ وَيُسَبِّحَهُ وَيدعُوَهُ؛ اسْتَغَلَّ قُدْرَتَهُ عَلَىٰ ذَلِكَ

بالتَّسْبيحِ والذِّكْرِ والدُّعاء والاعْتِرَافِ بِذَنْبِهِ، إِذْ فَارَقَ قَوْمَهُ دُونَ إِذْنٍ صَرِيحٍ مِنْ رَبِّهِ.

هُنَا يَأْتِي مَوْقِعُ قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سُورَةِ (الأنبياء/ ٧٣ نزول):

• ﴿... فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾:

أي: فَنَادَىٰ رَبَّهُ وَهُوَ مُحَاطٌ بِظُلْمَةِ جَوْفِ فَم الحوتِ، وظُلْمَةِ اللَّيلِ، وظُلْمَةِ الْغَيْمِ فَوْقَ سَطْحِ الْبَحْرِ، بالنّداءِ الذي يُفَسِّرُهُ مَا يلي:

(١) ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾: أي: رَبٌّ لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ في الْوُجُودِ كُلِّهِ؛ إِلَّا أنْتَ، فَأَنْتَ وَحْدَكَ الرَّبُّ الَّذِي تَسْتَحِقُّ أَنْ تُعْبَدَ وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ.

(٢) ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾: أي: تَنَزَّهْتَ عَنْ كُلِّ شَرِيك، وَتَنَزَّهْتَ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِرُبُوبِيَّتِكَ وإِلَهِيَّتِكَ، وَتَنَزَّهْتَ عَنْ أَنْ تُجْرِي مُقَادِيرَكَ دُونَ أَنْ تَكُونَ مُتَّصِفَةً بِكَمَالِ الْحِكْمَة.

(٣) ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: أي: أُؤَكِّدُ اعْتِرَافِي بِذَنْبِي، إِذْ ذَهَبْتُ مُغَاضِباً قَوْمِي الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِي، دُونَ أَنْ أَتَلَقَّىٰ أَمْراً أَوْ إِذْناً مِنْكَ بانْصِرَافِي عَنْهُمْ، وَقَدِ اخْتَرْتَنِي رَسُولاً لَهُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾:

أي: فَقَبِلْنَا أَنْ نُجِيبَ لَهُ دُعَاءَه، وَخَلَّصْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ الَّذِي كَانَ فِيهِ فِي جَوْفِ فَم الْحُوتِ، فَقَدَّرْنَا أَنْ يَلْفِظَهُ الْحُوتُ عَلَىٰ اليابِسَةِ قَرِيباً مِنْ شَاطِئِ الْبَحْرِ، فَفَعَلَ.

ومِثْلَ هٰذَا التَّخْلِيصِ مِنَ الْغَمِّ نُخَلِّصُ سَائِرَ الْمُؤْمِنِينَ، ضِمْنَ سُنَّتِنَا فِي تَصَارِيفِنَا بِعِبَادِنا.

وأحيل القارئ عَلَىٰ مَا جَاءَ في تَدَبُّر سُورَة (الصَّافَات/ ٥٦ نزول) بِشَأْنِ «يُونس عَلَيْهِ السَّلَام».

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الخامس عشر من دُرُوس سورة (الأنبياء).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(٢٠)
التدبُّر التحليلي للدّرس السادس عشر من دُروس سورة (الأنبياء) الآيتان (٨٩ و٩٠)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾:

القراءات:

(٨٩) • قرأ حفص، وحمزة، والكِسَائي، وخَلَف: [**وَزَكَرِيَّآ إِذْ**].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**وَزَكَرِيَّاء إِذْ**].

وسَهَّل الهمزة الثَّانِيَة: نافعٌ، وابْنُ كثير، وأبو عمرو، وأبو جَعْفر، ورُوَيس.

وقرأَهَا بالتَّحْقِيقِ: ابْنُ عامر، وشُعْبَةُ، ورَوْح.

تَمْهيد:

في آيَتَيْ هٰذَا الدَّرْسِ ذِكْرُ النبيّ الرَّسُولِ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَام، واسْتِجَابَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ دُعَاءَه بأنْ تَكُونَ لَهُ ذُرِّيَّة.

وقَدْ سَبَقَ في الآيات الأُولى من (٢ ـ ١٥) من سورة (مَرْيم/ ٤٤ نزول) بَيَانٌ مُفَصَّلٌ عَنْ دُعَاءِ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلام، واسْتِجَابَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ دُعَاءَهُ، مَعَ دِرَاسَةٍ تَكَامُلِيَّةٍ للنُّصُوصِ القرآنيَّة المتعلِّقَةِ بِهِ عَلَيْهِ السَّلام، فَلْيُرْجَعْ إليه[1] فَفِيه الاسْتِيعابُ المنْشُود.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾:

أي: وَضَعْ في ذَاكِرَتِكَ أَيُّهَا الْمُتَلَقِّي لكلام رَبِّكَ وَبَيَانَاتِهِ؛ قِصَّةَ النبيّ الرَّسُولِ «زَكَرِيَّا» ـ عَلَيْهِ السَّلام ـ حِينَ نَادَىٰ رَبَّهُ دَاعِياً طَالِباً أَنْ لَا يَتْرُكَهُ فَرْداً مُنْقَطِعاً، مَحْرُوماً مِنَ الذُّرِّيَّةِ في شَجَرَةِ نَسَبِهِ، كَفَرْعٍ انْتَهَىٰ الامْتِدَادُ مِنْ جِهَتِهِ عِنْدَهُ، فَصَارَ وَحِيداً فَرِيداً مُنْقَطِعاً، بَيْنَمَا تَمْتَدُّ الْفُرُوعُ الْأُخْرَىٰ في شَجَرَةِ النَّسَبِ بالذَّراري مِنْ كُلِّ جَوانب الشَّجَرَةِ.

ضَعْ هٰذَا في ذَاكِرَتِكَ لِتَسْتَفِيدَ مِنْهُ الْعِبْرَةَ والْعِظَةَ، وحِكْمَةَ اللهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ في تَلْبِيَةِ مَطَالِبِ عِبَادِهِ الصالِحِين.

وأثْنَىٰ زَكَرِيّا عَلَيْهِ السَّلَامُ في آخِرِ دُعَائِهِ على رَبِّهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾: أي: وأنْتَ خَيْرُ مَنْ تَرْجِعُ كُلُّ الأَشْيَاءِ والأَحْيَاءِ إلى مَحْضِ مُلْكِهِ، تَبَارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالَىٰ جَدُّك، وعَظُمَ سُلْطَانُكَ.

لفْظُ «الْوَارِثِ» اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ الحسْنَىٰ، وَهُوَ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ يَرْجِعُ إِلَىٰ مَحْضِ مِلْكِهِ كُلُّ شَيْءٍ جَعَلَ هُو لبَعْضِ عِبَاده تَمَلُّكاً صُورِيًّا له، وعَلَىٰ أَنَّهُ تَعُودُ إِلَيْهِ الأَشْيَاءُ الْمَمْلُوكَةُ هِيَ وَمَالِكُوهَا، مَعَ أَنَّ الحقيقَةَ أَنَّ مِلْكَ اللهِ لِلأَشْيَاءِ كُلِّهَا مُسْتَمِرٌّ لَا يَنْقَطِعُ، فَاللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ هُو

---

(١) انظر الصفحات من (٣٧٦ ـ ٤١٢) من المجلد السابع من هذا الكتاب.

الْأَزَلِيُّ الْأَبَدِيُّ الْبَاقِي، الَّذِي يَرْجِعُ إلى مَحْضِ مِلْكِهِ وَتَصَرُّفِهِ كُلُّ شَيْءٍ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بضمير المتكلّم العظيم:

• ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾:

أي: فَقَبِلْنَا أَنْ نُحَقِّقَ لَهُ طَلَبَهُ في دُعَائِهِ، فَأَجْرَيْنَا المقادِيرَ الَّتِي تَحَقَّقَ بِها أَنْ وَهَبْنَا لَهُ وَلَداً ذَكَراً سَمَّيْنَاهُ يَحْيَىٰ، وَكَانَتْ زَوْجَتُهُ عَاقِراً فَأَصْلَحْنَاهَا لَهُ، وَجعَلْنَاهَا قَابِلَةً لِأَنْ تَحْمِلَ وَتَلِدَ.

وَأَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ سَبَبَ خَرْقِهِ لِلْعَادَةِ في إصْلاحِ زَوْجِهِ أَنَّهُمْ كَانُوا أُسْرَةً صَالِحَةً تَقِيَّةً نَقِيَّةً فَقَالَ تَعَالَىٰ:

(١) ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾: أي: إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي فِعْلِ الْخَيْرَاتِ مِنَ الْأَقْوَالِ والْأَفْعَالِ والنيّاتِ والْأَخْلَاقِ.

(٢) ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾: أي: وَيَدْعُونَنَا فِي حَالَتَيْ الرَّغَبِ والرَّهَبِ، فإِذَا رَغِبُوا دَعَوْنَا لِتَحْقِيقِ مَا رَغِبُوا فِيهِ، وإِذَا رَهِبُوا دَعَوْنَا لِنَحْمِيَهُمْ مِمَّا رَهِبُوا مِنْهُ.

أي: وَيَدْعُونَنَا رَاغِبِينَ وَرَاهِبِينَ.

(٣) ﴿... وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾: أي: وكانُوا لَنَا خَاضِعِين، خائِفين، سَاكِنِينَ فِي عِبَادَاتِهِمْ وَصَلواتِهِم.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس السادس عشر من دُرُوس سورة (الأنبياء).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

❀ ❀ ❀

(٢١)
التدبُّر التحليلي للدّرس السابع عشر من دُروس سورة (الأنبياء) الآية (٩١)

قال الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَٱلَّتِىٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾:

تَمْهيد:

في هَـٰذِهِ الآية حَدِيثٌ مُقْتَضَبٌ جدًّا عَنْ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السّلام، وحَمْلِهَا بِعِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام، بِخَارِقَةٍ للعادة دُونَ مُعَاشَرَةِ ذكر، إِذْ أَرْسَلَ اللهُ لَهَا فِي خَلْوَتِهَا جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَنَفَخَ في جَيْبِ صَدْرِهَا نَفْخَةً أَوْصَلَهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَىٰ رَحِمِهَا، وعَقَدَ فِيهِ خَلِيَّةَ الْجَنِينِ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام آيَةً مِنْ آيَاتِ اللهِ لِلْعَالَمِينَ، وبهَـٰذِهِ الْخَارِقَةِ لِلْعَادَة اكْتَمَلَتْ فِي خَلْقِ النَّاسِ الآيَاتُ كُلُّهَا، إِذْ خَلَقَ اللهُ آدم عَلَيْهِ السَّلام مِنَ الطِّينِ مُبَاشَرَةً مِنْ غَيْرِ ذَكَرٍ ولا أُنْثَىٰ، وخَلَقَ حَوَّاء مِنْ ذَكَرٍ دُون أُنْثَىٰ، وخَلَقَ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام مِنْ أُنْثَىٰ دُونَ ذَكَرٍ، وخَلَقَ ويَخْلُقُ سَائِرَ النَّاسِ ضِمْنَ نظامِ التَّزَاوُجِ بَيْنَ الذُّكُورِ والإِنَاث.

وقَدْ سَبَقَ تَدَبُّر الآيَات من (١٦ ـ ٤٠) من سورة (مَرْيم) بَيَانٌ مُفَصَّلٌ بِشَأْنِ مَرْيَمَ وَحَمْلِهَا بِعِيسَىٰ عَلَيْهِ السلام، مَعَ تَدَبُّرٍ تكَامُلِيٍّ للنُّصُوصِ الْقرآنِيَّةِ المتَعَدِّدَةِ الْوَارِدَةِ بِشَأْنِهَا فِي مُخْتَلِفِ السُّور، فَلْيُرْجَعْ إِلَيْه.

التَّدبُّر التحليلي:

• ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾: أي: وضَعْ في ذَاكِرَتِكَ أَيُّهَا المتَلَقِّي لِكَلَامِ رَبِّكَ هَـٰذِهِ اللَّقْطَةَ مِنْ قِصَّة مَرْيَمَ الَّتِي صَانَتْ فَرْجَهَا وحَفِظَتْهُ مِنِ ارْتِكَابِ الْفَوَاحِشِ والذُّنُوبِ، وهَـٰذِهِ شَهَادَةٌ مِنَ اللهِ لَهَا بِكَمَالِ عِفَّتِهَا،

وطَهَارَتِهَا، وحِفْظِهَا لِنَفْسِها مِنْ مُعَاشَرَةِ أيّ رَجُلٍ، وَلَوْ كَانَتْ مَخْطُوبَةً له.

• ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾: أي: فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا جِبْرِيلَ ـ عَلَيْهِ السَّلَام ـ كَمَا جَاءَ فِي نُصُوصٍ أُخْرَىٰ فَنَفَخَ فِيهَا، أي: في جَسَدِهَا مِنْ جَيْب دِرْعِها على صَدْرِها، أو مِنْ مَكَانٍ آخر، نَفْخَةً سَلَكَتْ بأمْرِ اللهِ طَرِيقها إلىٰ فَرْجِها فَمَكَانِ حَمْلِها، فَتَمَّ بِأَمْرِنَا وَخَلْقِنَا حَمْلُهَا بِعِيسىٰ ـ عَلَيْهِ السَّلَام ـ.

• ﴿... وَجَعَلْنَاهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾: أي: وجَعَلْنَا بِقُدْرَتِنَا عَلَىٰ مَا نَشَاءُ مَرْيَمَ إِذْ حَمَلَتْ بِغَيْرِ ذَكر، وابْنَهَا إِذِ انْعَقَدَ في بَطْنِ أُمِّهِ دُونَ أَبٍ، بِنَفْخَةٍ نَفَخَهَا مَلَكٌ مِنْ مَلَائِكَتِنَا فِي جَسَدِهَا بِأَمْرٍ مِنَّا، وبِتَقْدِيرٍ وَقَضَاءٍ مِنَّا، وجَعَلْنَا ابْنَهَا فِي حَيَاتِهِ بَعْدَ ذَلِكَ؛ آيَةً عَظِيمَةً مِنْ آيَاتِنَا لِلْعَالَمِين، حَتَّىٰ يَعْلَمُوا أَنَّنَا نَفْعَل في كَوْنِنَا مَا نَشَاء، فإذا شِئْنَا أَنْ نَخْرِقَ عَادَةً مِنْ عَادَاتِنَا خَرَقْنَاهَا، لِيَعْلَمَ الْعَالَمُونَ أَنَّا عَلَىٰ فِعْلِ مَا نَشَاءُ قَادِرُونَ.

وبهـٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس السابع عشر من دُرُوس سورة (الأنبياء).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(٢٢)
التدبُّر التحليلي للدَّرس الثامن عشر من دُروس سورة (الأنبياء) الآيات من (٩٢ ـ ٩٤)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَـٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾:

القراءات:

(٩٢) • قرأ يعْقُوب: **[فَاعْبُدُونِي]** بإثْبَاتِ يَاء المتكلّم وصلاً ووقْفاً.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[فَاعْبُدُونِ]** بِحَذْفِ ياء المتكلّم.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هَـٰذَا الدَّرسِ بيانُ أَنَّ أُمَّةَ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلامُ أُمَّةٌ واحِدَةٌ، ولَكِنَّ النَّاسَ تَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ عَلَىٰ خِلَافِ مَا أَمَرَهُمُ اللهُ بِهِ.

وفيها بيانُ أَنَّ عَاقِبَةَ كُلِّ عَامِلٍ تكون بِحَسَبِ عَمَلِهِ وَكَسْبِهِ.

التدبّر التحليلي:

بِمُنَاسَبَةِ ذِكْرِ (١٤) رسُولاً في السُّورَة مَعَ مُوجَزَاتٍ مُخْتَزَلَاتٍ مِنْ قِصَصِهِمْ؛ أبَانَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ في الآية (٩٢) مِنْ هـٰذَا الدَّرسِ؛ أَنَّهُ خَاطَبَهُمْ وَكَذَلِكَ سَائِرُ رُسُلِهِ عَلَيْهِم السَّلَام: بأَنَّهُمْ رُسُلُ أُمَّةٍ رَبَّانِيَّةٍ وَاحِدَةٍ، ولَيْس كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ رَسُولاً لِأُمَّةٍ خَاصَّةٍ بِهِ، مُنْفَصِلَةٍ عَنْ سَائِرِ الْأُمَمِ.

فالدِّينُ عِنْدَ اللهِ الإسْلَامُ، وكُلُّ مَوْضُوعِ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ في هَـٰذِهِ الحياة الدُّنْيَا مُطَالَبٌ مِن اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَنْ يَكُونَ مُسْلِماً، وأَنْ يَكُونَ وَاحِداً مِنَ الْأُمَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ، وهُمُ الْمُؤْمِنُونَ الْمُسْلِمُونَ.

وعَلَىٰ مَدَىٰ التَّاريخ الْبَشَرِيِّ وَظُرُوفِهِ المتَقَلِّبَة؛ اصْطَفَىٰ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ رُسُلاً، يُبَلِّغُونَ مِنْ دِينِ اللهِ الَّذِي اصْطَفَاهُ للنَّاسِ، وَهُوَ الإسْلَام؛ مَا يُلائِمُ تَطَوُّرَهُمْ الْبَشَرِيَّ، فِكْرِيًّا واجْتِمَاعِيًّا.

إنَّ الدِّينَ بأُسُسِهِ الْكُلِّيَّةِ وَاحِدٌ، وإنَّ الرَّبَّ الْمَعْبُودَ وَاحِدٌ، وَإِنَّ النَّاسَ جَمِيعاً سُلَالَةُ إِنْسَانٍ واحِدٍ هو «آدَمُ» عَلَيْهِ السَّلَام، وإِنَّ الْبعْثَ والْحِسَابَ وفَصْلَ الْقَضَاءِ الرَّبَّانِيِّ أمورٌ خَاضِعَةٌ لِنِظَام رَبَّانِيٍّ واحِدٍ، وفي الآخِرَة دَارَانِ، دَارُ نَعِيمٍ، وَدَارُ عَذَابٍ، والْمُمْتَحَنُونَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا يُجَازَوْنَ فِيهِما عَلَىٰ سواء.

وعَلَىٰ كُلِّ قَوْمٍ جاءَهُم رَسُولٌ؛ أَنْ يُؤْمِنُوا بِجَمِيعِ أَنْبِيَاءِ اللهِ ورسُلِهِ عَلَيْهِم السَّلَام، دُونَ تَفْرِيقٍ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وغَيْرِهِ، إِذْ هُمْ جَمِيعاً أَنْبِيَاءُ اللهِ ورُسُلُهُ الَّذِينَ اصْطَفَاهُمْ مِنْ خَلْقِهِ، للنُّبُوَّةِ، أو للنُّبُوَّةِ والرِّسَالَةِ.

فَخَاطَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رُسُلَهُ عَلَيْهِم السَّلَام جَمِيعاً بِقَوْلِهِ:

- ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾:

فَأَقْوَامُ الرُّسُلِ أُمَّةٌ رَبَّانِيَّةٌ واحِدَةٌ، ورَبُّهُمْ رَبٌّ واحِدٌ هو رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَهُمْ مُطَالَبُونَ بِعِبَادَتِهِ، مُسْتَسْلِمِينَ لِمَا يَأْمُرُهُمْ بِهِ، أَوْ يَنْهَاهُمْ عَنْهُ.

ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ قَوْلَهُ في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾:

النّداءُ في هَٰذِهِ الآيَةِ للرُّسُل عَلَيْهِم السَّلَام، ولِكُلِّ قَوْمٍ آمَنُوا بواحِدٍ منهم، وَوَجَّهَ اللهُ لَهُمُ الْأَمْرَ بِأَنْ يَأْكُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ، ويُفْهَمُ مِنْ وصْفِ مَا يَأْكُلُونَ مِنْهُ: بالطَّيِّبَاتِ؛ أَنْ يَجْتَنِبُوا الأَكْلَ مِنَ الْخَبَائِث. وَوَجَّهَ اللهُ لَهُمُ الْأَمْرَ بِأَنْ يَعْمَلُوا صَالِحاً، وَهُوَ كُلُّ شَيْءٍ أَمَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِعَمَلِهِ، كإِقَامِ الصّلاة، وإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَنَشْرِ دِينِ اللهِ والدَّعْوَةِ إِلَيْه، وَتَأْدِيَةِ النَّفَقَةِ الواجبَةِ لمستَحِقِّيها، وكُلُّ شيءٍ أمَرَ الله عَزَّ وَجَلَّ بتَرْكِهِ أَوْ نَهَىٰ عَنْ فِعْلِهِ، فَكَفُّ النَّفْسِ عَنْ فِعْلِ مَا نَهَىٰ اللهُ عَنْهُ عَمَلٌ صالحٌ، يُثِيبُ اللهُ عَلَيْهِ.

﴿. . . إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾: أي: إِنِّي بِكُلِّ مَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ، لَا يَخْفَىٰ عَلَيَّ مِنْ أعْمَالِكُمْ شَيْءٌ، سَوَاءٌ أَكَانَتْ مُمَارَسَاتٍ لِأَشْيَاءَ، أو كَانَتْ تُرُوكاً لأشْيَاءَ. فإِذَا كَانَتْ مِنَ الصَّالِحَاتِ فَلَكُمْ عِنْدِي ثَوابٌ عَلَيْهَا، يُلَائِمُ عَظَمَتِي وجَلَالِي وَجُودِي وَكَرَمِي.

وَإِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ مِنْ عَهْدِ آدم حَتَّىٰ بِعْثَةِ آخِرِ الْمُرْسَلِينَ عَلَيْهِم السَّلَام هِيَ أُمَّةٌ رَبَّانِيَّةٌ واحِدَةٌ، غَيْرُ مُتَفَاصِلَةٍ بالانْتِمَاءِ إِلَىٰ رُسُلِهَا، الَّذِينَ بَعَثْتُهُمْ لِتَبْلِيغ دِيني الَّذي اصْطَفَيْتُهُ للنَّاسِ أَجْمَعِين.

وَأَنَا رَبُّكُمْ جَمِيعاً فَاعْبُدُونِي، واتَّقُوا مَعْصِيَتِي وَمُخَالَفَتِي، فإذا عَبَدْتُمُونِي بما أَمَرْتُكُمْ بِهِ وَنَهَيْتُكُمْ عَنْهُ، أَدْخَلْتُكُمْ يَوْم الدِّينِ فِي جَنَّتِي وأَثَبْتُكُمْ ثَوَاباً عَظِيماً، وإِذَا عَصَيْتُمُونِي فَلَمْ تَتَّقُوا عِقَابِي عَاقَبْتُكُمْ عِقَاباً أَلِيماً، وجَعَلْتُ مُسْتَحِقِّي الْخُلُودِ في الْعَذَابِ الأَلِيم: خَالِدِينَ فِي النَّار.

لَكِنْ لَمْ يَسْتَجِبْ مُتَّبِعُوا الرُّسُلِ ـ عَلَيْهِم السَّلَام ـ الَّذِينَ حَرَّفُوا في دِينِ اللهِ؛ أَمْرَ اللهِ لَهُمْ بِأَنْ يَكُونُوا أُمَّةً رَبَّانِيَّةً واحِدَةً، يَعْمَلُونَ بِمَا يَأْتِي به الرَّسُولُ اللَّاحِقُ عَنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ مِنْ دِينِ اللهِ لَهُمْ.

فَتَعَصَّبَ الصَّابِئُونَ للدِّينِ الَّذِي يَنْسُبُونَهُ إِلَىٰ صَابئ، على مَا دَخَلَ فِيهِ مِنْ تَحْرِيفٍ وَنِسْيَانٍ، وَكَأَنَّ الدِّينَ دِينُ صابِئٍ، ولَيْسَ دِينَ اللهِ للنَّاس.

وتَعَصَّبَ الْيَهُودُ للدِّينِ الَّذِي يَنْسُبُونَهُ إلى مُوسَىٰ وهارون عَلَيْهِما السَّلَام، على مَا دَخَلَ فِيهِ مِنْ تَحْرِيفٍ وَنِسْيَان، وكأَنَّ الدِّينَ دِينُ مُوسى وهَارُونَ عَلَيْهِما السَّلَام، ولَيْسَ دِينَ اللهِ للنَّاسِ.

وَتَعَصَّبَ النَّصَارَىٰ للدِّينِ المحرَّفِ الَّذِي يَنْسُبُونَهُ إلى عيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام، وَكَأَنَّ الدِّينَ دِينُ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام، ولَيْسَ دِينَ اللهِ للنَّاس.

وَحَجَبَ الْمُتَعَصِّبِينَ مِنْ أَتْبَاعِ هَـٰذِهِ الأَدْيَانِ تَعَصُّبُهُمُ الْبَاطِلُ؛ عَنِ اتِّبَاعِ خَاتَمِ الأنبياء والْمُرْسَلِينَ ﷺ، الَّذِي بَعَثَهُ اللهُ رَسُولاً لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ، فَأَخْرَجُوا أَنْفُسَهُمْ مِنْ قَافِلَةِ الأُمَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ الْوَاحِدَة، الَّتِي بَدَأَتْ فِي عَهْدِ آدم عَلَيْهِ السَّلَام، واسْتَمرَّتْ حَتَّىٰ بِعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ خَاتَمِ الأَنْبِياءِ والْمُرْسَلِين، وَسَتَسْتَمِرُّ مَا دَامَ مُؤْمِنٌ مُسْلِمٌ عَلَىٰ وَجْهِ الأَرْضِ، يَتَّبِعُ دِينَ اللهِ الَّذِي بَلَّغَهُ عَنْ رَبِّهِ محمَّدُ بْنُ عَبْد الله، عَلَيْهِ أَفْضَل الصلاةِ وأَتَمُّ التَّسْلِيمِ، ويُؤْمِنُ

بِجَمِيعِ الْأَنْبِياءِ والْمُرْسَلِين، صَلَواتُ اللهِ وَسَلَامَاتُهُ عَلَيْهِمْ أجْمَعِينَ، لَا يُفَرِّقُ فِي الْإِيمانِ بَيْنَ أَحَدٍ وآخَرَ مِنْهم، وَلَكِنْ يَعْمَلُ بِمُقْتَضَىٰ آخِرِ تَنْزِيلٍ أَنْزَلَهُ اللهُ لِعِبَادِه، مُبَيِّناً تَعَالِيمَ الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ اللهُ للنَّاس.

وإيجازاً لِهٰذَا الْوَاقِعِ الَّذِي خَالَفَ به أَتْبَاعُ الْأَدْيَان أَمْرَ اللهِ بِأَنْ يَكُونُوا أُمَّةً رَبَّانِيَّةً واحِدَة؛ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (الأنبياء/ ٧٣ نزول):

• ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ... ﴿٩٣﴾﴾: أَيْ: وجَعَلُوا لِأَنْفُسِهِمْ وَلَاءَاتٍ لِأَدْيَانِهِمُ الْمُحَرَّفَةِ، وتَفَاصَلُوا فيما بَيْنَهُمْ أمَماً مُتَفَرِّقَة، وأحْزَاباً مُتَعَادِيَةً مُتَخَالِفَة، وَخَرَجُوا عَنْ صِرَاطِ الْأُمَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ الواحِدَة.

وَأَنْذَرَهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ أَلِيم يَوْمَ الدِّينِ بأُسْلُوبٍ كِنائِيٍّ فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿... كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

وَزَادَ الْأَمْرَ بَيَاناً في سُورَةِ (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) فَقَال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فيها:

﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾:

• ﴿زُبُرًا﴾: أي: قِطَعاً مُتَفَرِّقَةً خَارِجَةً عَنْ صِرَاطِ الْأُمَّةِ الرَّبَّانِيةِ الواحدة، أَيْ: قِطَعاً. **الزُّبْرَة**: القِطْعَةِ مِنَ الحَديدة، والجَمْع: زُبَر. **والزُّبُر**: جَمْعُ زَبُور وهو: الكتابُ المزْبور، أيْ: المَكتوب.

• ﴿كُلُّ حِزْبٍ﴾: **الحِزْبُ**: الْجَمَاعَةُ الْمُتَّفِقَةُ المتَنَاصِرَةُ عَلَىٰ أَمْرٍ مَا، والجماعَةُ الَّذِينَ تَشَاكَلَتْ مَبادِئُهُمْ وأَهْوَاؤُهُمْ.

• ﴿فِى غَمْرَتِهِمْ﴾: **الغَمْرَةُ**: الضَّلَالَةُ الَّتِي تَغْمُرُ صَاحِبَهَا.

أي: فَتَقَطَّعَ الْمُنْتَمُونَ إِلَىٰ الرُّسُلِ ـ عَلَيْهِم السَّلام ـ قَبْلَ بِعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ قِطَعاً مُتَفَرِّقَةً خَارِجَةً عَنِ الأُمَّةِ الواحدة، وَكَوَّنُوا أَحْزَاباً مُتَعَادِيَةً

مُتَخالِفَةٌ فِي مَبادِئِها وَأَهْوائِها، وكُلُّ حِزْبٍ مِنْهُمْ فَرِحُونَ بِمَا لَدَيْهِمْ مِنْ تَحْرِيفَاتٍ فِي دِينِ اللهِ، يُرْضُونَ بِهَا أَهْوَاءَهُمْ وشَهَوَاتِهِمْ، وتَجْعَلُ لِقَادَتِهِمْ الدِّيْنِيِّينَ زَعَامَاتٍ وَمَصَالِحَ وَمَنَافِعَ، لَيْسَ شَيْءٌ مِنْهَا هُوَ لَهُمْ فِي دِينِ اللهِ الْحَقِّ، قَبْلَ التَّحْرِيفِ الَّذِي غَيَّرُوا بِهِ دِينَ اللهِ لِعِبَادِهِ.

وتوجَّهَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ ولِكُلِّ داعٍ إلى اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ، بأسْلُوب الْخِطَاب الإفْرَادِي؛ فَقَالَ تَعَالَىٰ:

﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾﴾: أي: فاتْرُكْهُمْ في ضَلَالَتِهِمْ الْغَامِرَةِ لَهُمْ مِنْ كُلِّ جَوانِبِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ مِنَ الدَّهْرِ، تَسْقُطُ بالْفَتْحِ الإِسْلَامِيِّ فِيهِ عُرُوشُهُمْ، وَتَنْدَحِرُ جُيُوشُهُمْ، أو حَتَّىٰ حِينٍ مِنَ الدَّهْرِ تَنْتَهِي فِيهِ آجالُهُمْ، ويَلْقَوْنَ فِيهِ عَذَابَ رَبِّهِمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ.

وَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً غُرُورَهُمْ بِمَا يُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَتَاعَاتِ الحياة الدنيا، كالمال والْبَنِينَ، لِيَبْلُوَهُمْ فِيما آتاهم:

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ . . . ﴿٥٦﴾﴾؟؟:

أي: أيَتَوَهَّمُونَ أَنَّ مَا نُمِدُّهُمْ بِهِ في الحياة الدُّنْيَا مِنْ مَتَاعَاتٍ مُخْتَلِفَاتٍ، لِنَبْلُوَهُمْ بها، ومِنْهَا الْمَالُ والْبَنُونَ؛ أَيَتَوَهَّمُونَ أَنَّنَا نُسارِعُ فِي مَنْحِهِمْ مَا يُحِبُّونَ مِنْ خَيْرَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؛ إِكْرَاماً لَهُمْ وإِنْعَاماً، لِأَنَّهُمْ مُفَضَّلُونَ عِنْدَنَا؟!.

لَا يَتَوَهَّمُوا هٰذَا التَّوَهُّمَ الْبَاطِلَ، فَإِنَّ مِنْ حِكْمَتِنَا فِي دُنْيَا الامْتِحَانِ أَنْ نُمْلِيَ لِلظَّالِمِينَ، وَنُمِدَّهُمْ بِعَطَاءَاتِنَا، ثُمَّ نُعَاقِبَهُمْ عَلَىٰ جَرَائِمِهِمْ عِقَاباً أَلِيماً.

وَأَبَانَ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَزَّ سُلْطَانُهُ؛ أَنَّهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بِأَنَّ إِمْدَادَهُمْ بِمَتَاعَاتِ الحياة الدُّنْيَا؛ لَيْسَ دَلِيلاً عَلَىٰ إِكْرَامِنَا وإِنْعَامِنَا لَهُمْ، بَلْ هِيَ سُنَّتُنَا فِي امْتِحَانِنَا لِعِبَادِنَا، فَقَالَ تَعالى:

﴿... بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝٥٦﴾: **الشُّعُورُ**: أدْنَىٰ دَرَجَاتِ الْعِلْمِ بالشَّيْءِ، ونَفْيُ الشُّعُورِ بالشَّيْءِ نَفْيٌ لِلْعِلْمِ بأدْنَىٰ دَرَجاتِ المعْرِفَةِ بِهِ.

أَمَّا بَقِيَّةُ النَّصِّ الَّذِي جاء في سورة (الأنبياء/ ٧٣ نزول) فَهُوَ قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فيها:

• ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ۝٩٤﴾:

هَٰذِهِ الآيَةُ تَشْتَمِلُ عَلَىٰ بَعْض بُنُودِ قَانُونِ الجزاءِ الرَّبَّانِيِّ يَوْمَ الدِّينِ، أَيْ: فَمَنْ يَعْمَلْ فِي الحياةِ الدُّنْيا ـ حَيَاةِ الابْتِلَاءِ ـ شَيْئاً مِنَ الصَّالِحَاتِ، الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِعَمَلِهَا، أَوْ رَغَّبَ فِيهِ، بِشَرْطِ أَنْ يَكُونَ مُؤْمِناً مُسْتَوْفِياً شُرُوطَ الْإِيمانِ المنْجِي عِنْدَ اللهِ؛ فَهُوَ سَعْيٌ يَشْكُرُهُ اللهُ لَهُ، وَلَا يَكْفُرُ مِنْهُ شيئاً، وَهُوَ مَكْتُوبٌ فِي سِجلِّ أعماله، تكتُبُهُ الملائكة بأَمْرِ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الثامن عشر من دُرُوس سورة (الأنبياء).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(٢٣)
التدبُّر التحليلي للدَّرس التاسع عشر من دُروس سورة (الأنبياء) الآية (٩٥)

قال الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝٩٥﴾:

القراءات:

• قرأ شُعْبَةُ، وحمزَةُ، وخلف: [وَحِرْمٌ].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [وَحَرَامٌ].

حِرْمٌ وَحَرَامٌ كِلَاهُمَا بِمَعْنَىٰ: «المنع».

التَّدبُّر التَّحْلِيلِي:

عَلِمَ اللهُ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ الَّذِينَ قَضَىٰ أَنْ يُهْلِكَهُمْ؛ قَدْ وصَلُوا إِلَىٰ دَرَكَةٍ مِنَ الكُفْرِ الْعِنَادِيّ مَيْؤُوسٍ مَعَهَا مِن أَنْ يَرْجِعُوا عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمُ الْحُرَّةِ إِلَىٰ مُسْتَوىٰ الْمَطْمُوعِ في اسْتِجَابَتِهِمْ عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمُ الْحُرَّةِ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّة، فَكَانَ مِنَ الحِكْمَةِ الَّتِي لَا بُدَّ مِنْ تَنْفِيذِهَا ضِمْنَ سُنَّةِ اللهِ في تَصَارِيفِهِ بِعِبَادِه؛ أَنْ يُهْلِكَهُمْ، كَمَا أَهْلَكَ كُفَّارَ قَوْمِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَام، وَكُفَّارَ قَوْمِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكُفَّارَ قَوْمِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَام.

ضِمْنَ هـٰذَا المعْنَىٰ يَنْبَغِي أَنْ نَفْهَمَ هـٰذِهِ الآيَةَ الَّتِي هِي دَرْسٌ مُنْفَصِلٌ مِنْ دُرُوسِ هـٰذِهِ السُّورَة.

فالْمَعْنَىٰ: وَمَنْعٌ عَلَىٰ أَهْلِ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهُمْ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ، الميؤُوسِ مَعَهُ: مِنْ أَنْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَةِ الحقِّ، أَنْ لَا نُهْلِكَهُمْ ضِمْنَ سُنَّتِنَا فِي تَصَارِيفِنَا بِعِبَادِنَا، بِسَبَب أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ إِلَىٰ مُسْتَوَىٰ المطْمُوعِ في استجابتهم عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمُ الحرَّةِ، فَحَقَّ أَن نُهْلِكَهُمْ.

وبهـٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس التاسع عشر من دُرُوس سورة (الأنبياء).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(٢٤)
التدبُّر التحليلي للدَّرس العشرين من دُروس سورة (الأنبياء) الآيتان (٩٦ و٩٧)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾:

القراءات:

(٩٦) • قرأ ابْنُ عَامر، وأبو جعفر، ويَعْقُوبُ: **[فُتِّحَتْ]** بِتَشْدِيدِ التّاء.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[فُتِحَتْ]**.

يَظْهَرُ أَنَّ قِراءة «فُتِّحَتْ» رُوعي فيها حَال الَّذِينَ يُصَابُون بِبَلَاءٍ عَظِيمٍ مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، إِذَا انْسَاحُوا نَحْوَ الشُّعُوبِ الْأُخْرَىٰ بِشُرُورِهِمْ.

وأَنَّ قراءة «فُتِحَتْ» رُوعِي فيها حَالُ الَّذِينَ يَكُونُ مُصَابُهُمْ بِشُرُور يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ غَيْرَ ذِي شِدَّةٍ عَظِيمَة.

(٩٦) • قرأ عَاصِمٌ: **[يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ]** بهَمْزَةٍ سَاكِنَةٍ.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[يَاجُوجُ ومَاجُوجُ]**.

ويَظْهَرُ أَنَّهُمَا نُطْقَانِ مَعْرُوفَانِ عِنْدَ الْعَرَبِ لِهؤُلَاءِ الأقْوام.

تَمْهيد:

في آيَتَيْ هَـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانٌ عَنْ فَتْحِ يَأْجُوجَ ومأْجُوجَ، وعَنِ اقْتراب الْوَعْدِ الْحَقِّ، وهو قِيامُ سَاعَةِ إِمَاتَةِ الأحياء وتَغْيِيرِ نِظَام الْحَيَاة الدُّنيا.

التدبّر التحليلي:

سَبَقَ أَنْ جَاءَ في سورة (الكهف/ ٦٩ نزول) حَدِيثٌ عَنْ يأجُوجَ ومأجُوجَ، وإقامَةِ ذِي الْقَرْنَيْنِ السَّدَّ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ قَوْمٍ كَانُوا يُعَانُونَ أَشَدَّ الْمُعَانَاةِ مِنْ شُرُورِهِمْ وإِفْسَادِهِمْ فِي الْأَرْض.

وهُنَا في سُورَة (الْأَنْبِيَاء/ ٧٣ نزول) جاء حَدِيثٌ عَنْ يَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ وفَتْحِهِمْ، أي: فَتْح الْحَوَاجِزِ الرَّبَّانِيَّة الْقَائِمَةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ غَيْرِهِمْ مِنَ الْأَقْوَام، وعَنِ انْسِيَاحِهِمْ مُفْسِدِينَ فِي الأرض، وهـٰذَا يَكُونُ مِن عَلَامَات اقْتِرَابِ قِيَامِ الْقِيَامَةِ، الَّتِي يَكُونُ بِها إِنْهَاءُ ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا.

وجاء في هٰذِهِ السُّورَة بَيَانُ أَنَّهُمْ حِينَ يُفْتَحُونَ، وَيَنْسَاحُونَ فِي الْأَرْضِ خَارِجَ حُدُود بِلَادِهِمْ؛ يَنْسِلُونَ مِنْ كُلِّ حَدَب، فَقَالَ تَعَالَىٰ:

- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ۝٩٦﴾:

- ﴿حَتَّىٰٓ﴾: حَرْفٌ تَبْتَدِئُ بَعْدَهُ الْجُمَلُ الاسْمِيَّةُ والْفِعْلِيَّةُ، لَا عَمَلَ لَهُ، وَيُسَمَّى حَرْفَ ابْتِدَاء.

- ﴿إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾: فَتْحُ الْأَقْوَامِ يُشْبِهُ فَتْحَ حَوَاجِزِ الْأَنْهرِ، التَّي تَجْعَلُهَا تَتَدَفَّقُ سَيْلاً هَدَّاراً.

- ﴿... وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ۝٩٦﴾:

الْحَدَبُ: هُوَ مَا ارْتَفَعَ وَغَلُظَ مِنَ الْأَرْضِ.

﴿يَنسِلُونَ﴾: أي: يُسْرِعُون. **والنَّسَلَانُ**: مِشْيَةُ الذِّئْبِ إِذَا أَسْرَعَ. وهو الْإِسْرَاعُ في المشْي دُون السَّعْي.

أي: ويَأْجُوجُ ومَأْجُوجُ، حِينَ يُفْتَحُونَ وَيَنْسَاحُونَ خَارِجَ حُدُودِ بِلَادِهِمْ؛ يَكُونُونَ مُسْرِعِينَ للسَّلْبِ والنَّهْبِ والقَتْلِ والإفسادِ في الْأَرْضِ مِنْ كُلِّ مُرْتَفِعٍ مِنَ الْأَرْضِ، إِذْ يَنْصَبُّونَ لِلْقِيَامِ بِشُرُورِهم انْصِبَاباً.

وَبَعْدَ أَنْ يَنْسَاحَ هؤلَاءِ الْمُفْسِدُونَ الْهَمَجُ الْأَشْرَارُ، يَكُونُ الْوَعْدُ الْحَقُّ بقيام سَاعَةِ إِنْهَاءِ ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؛ قَدِ اقْتَرَب، فَفَتْحُ يَأجوجَ وَمَأْجُوجَ مِنْ أَمَارَاتِ اقْتِرَابِ هٰذِهِ السَّاعة.

وعِنْدَئِذٍ تَشْخَصُ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا ذُعْراً مِنْ قِيام السَّاعَة، وفي بيان هٰذَا قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

- ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ۝٩٧﴾:

- ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: يُقَالُ لُغَةً: شَخَصَ فُلَانٌ بِبَصَرِهِ، أي: فَتَحَ عَيْنَيْهِ وَلم يَطْرِفْ بهما دَهْشَةً أَوْ خَوْفاً.

• ﴿يَٰوَيْلَنَآ﴾: أي: يَقُولُونَ مُتَحَسِّرِينَ مُتَفَجِّعِينَ حَزِينِينَ، خَائِفِينَ مِنْ مَصِيرِهِمْ: يَا وَيْلَنَا، أي: مَا أَشَدَّ مُصِيبَتَنَا، وَمَا أَسْوَأَ مَصِيرنا.

• ﴿قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾: أي: قَدْ كُنَّا غَارِقِينَ في غَفْلَةٍ، نَافِرِينَ مِنْ أَحَادِيثِ السَّاعَةِ وَقِيَامِها، غَيْرَ مُصَدِّقِينَ أَخْبَارَ الْمُرْسَلِينَ عَنْهَا.

جَاءَتِ التَّعْدِيَةُ بحرف «مِنْ» على تَضْمِينِ الْغَفْلَةِ مَعْنَىٰ النُّفُور.

والْغَفْلَةُ عَنِ الشيْءِ: هي الانْصِرَافُ الْحِسِّيُّ والفِكْرِيُّ عَنْ مُلَاحَظَتِهِ وَمُرَاقَبَتِهِ، مَعَ وُجُودِهِ في مَجَالِ الإدْرَاكِ، أَوْ وُجُودِ أدِلَّتِهِ، وإمْكَانِ إدْرَاكِ ذَلِكَ لَوْلَا وُجُودُ الصَّارِفِ أَوِ السَّهْوِ الَّذِي هُوَ بِمَثَابَةِ إِطْبَاقِ الْجَفْنَيْنِ عَلَىٰ الْعَيْنَيْن، وَمَا تُطْلَبُ رُؤيَتُهُ حَاضِرٌ في مَجَال النظر.

والمعرضُ عَنِ الإيمانِ بقيام السّاعَة شَغَلَتْهُ أهواؤه وشهواتُه في الحياة الدُّنيا؛ عَنِ التَّبَصُّرِ بِمَصِيرِهِ، والجزاء الرَّبَّانِي الَّذِي سُوف يُلَاقِيهِ.

وَبَعْدَ رُجُوعِهِمْ إِلَىٰ عُمْقِ مَا فِي أَنْفُسِهِمْ يُدْرِكُونَ أَنَّهُمْ كَانُوا ظَالِمِينَ، جاحِدِينَ الْحَقَّ الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ بَرَاهِينُ الْعَقْل، والنُّصُوصُ المنزَّلَةُ في كِتَابِ رَبِّ الْعَالَمِين، للنَّاسِ أجْمَعِين، فَيَقُولُونَ مَا أَبَانَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٩٧﴾.

وأَوْلَىٰ مَا نَفْهَمُ بِهِ الْمُرَادَ مِنْ فَتْحِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَأَنَّهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ؛ مَا جَاءَ في الحديثِ الَّذِي رَواهُ مُسْلِمٌ عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سِمْعَان رَضِيَ اللهُ عَنهُ، وَفِيهِ ذِكْرٌ للدَّجَّال، ونُزُول عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ السَّمَاء، وقَتْلهِ لَهُ بِبَابِ لُدٍّ، وَفِيهِ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَوْحَىٰ إِلَىٰ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِشَأْنِ يَأْجُوجَ ومَأْجُوج، وفيما يلي المقْطَعُ المتعَلِّقُ بيأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ:

«فبينَمَا هُوَ (أي عيسى عَلَيْهِ السَّلَام) كَذَلِكَ، إِذْ أَوْحَىٰ اللهُ إلى عِيسَىٰ: إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَاداً لِي لَا يَدَانِ لِأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ، فَحرِّزْ[1] عِبَادِي، إِلَىٰ الطُّورِ.

(١) أي: فبالِغْ بِحِفْظِ عِبَادِي المؤمنين، وخُذْهُمْ إلىٰ الطّور.

وَيَبْعَثُ اللهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُون، فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَىٰ بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّة، فَيَشْرَبُونَ مَا فِيها، ويَمُرُّ أَوَاخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ: لَقَدْ كَانَ بِهَـٰذِهِ مَرَّةً ماء.

وَيُحْصَرُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَىٰ وأصْحَابُهُ، حَتَّىٰ يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لِأَحَدِهِمْ خَيْراً مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ لِأَحَدِكُم الْيَوْمَ.

فَيَرْغَبُ[١] نَبِيُّ اللهِ عِيسَىٰ وأصْحَابُهُ، فَيُرْسِلُ اللهُ عَلَيْهِمُ النَّغَفَ[٢] في رِقَابِهِمْ، فَيُصْبِحُونَ فَرْسَىٰ (أي: قَتْلَىٰ) كَمَوْتِ نَفْسٍ واحِدَة.

ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَىٰ وأصْحَابُهُ إِلَىٰ الأَرْض، فَلَا يَجِدُونَ فِي الْأَرْضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إِلَّا مَلَأَهُ زَهَمُهُمْ وَنَتْنُهُمْ.

فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللهِ عِيسىٰ وأصْحَابُهُ إِلَىٰ اللهِ، فَيُرْسِلُ اللهُ طَيْراً كَأَعْنَاقِ الْبُخْتِ[٣]، فَتَحْمِلُهُمْ، فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللهُ.

ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ مَطَراً لَا يَكُنُّ[٤] مِنْهُ بَيْتُ مَدَرٍ وَلَا وَبَر، فَيَغْسِلُ الْأَرْضَ، حَتَّىٰ يَتْرُكَهَا كالزَّلَفَةِ[٥].

ثُمَّ يُقَالُ لِلْأَرْضِ: أَنْبِتِي ثَمَرَتَكِ، وَرُدِّي بَرَكَتَكِ، فَيَوْمَئِذٍ تَأْكُلُ الْعِصَابَةُ مِنَ الرُّمَّانَةَ، ويَسْتَظِلُّونَ بِقِحْفِهَا[٦]، ويُبَارِكُ اللهُ فِي الرِّسْل (أي: في اللَّبَن)، حَتَّىٰ إِنَّ اللِّقْحَةَ مِنَ الإبلِ لَتَكْفِي الْفِئَامَ[٧] مِنَ النَّاسِ، واللِّقْحَةَ مِنَ الْبَقَرِ لَتَكْفِي الْقَبِيلَةَ مِنَ النَّاسِ، واللِّقْحَةَ مِنَ الْغَنَمِ لِتَكْفِي الْفَخِذَ مِنَ النَّاسِ.

---

(١) أي: فَيَدْعُو ويَدْعُوا أصْحَابُهُ مَعَه رَبَّهُمْ.
(٢) **النغف**: دُودٌ يَكُونُ فِي أنوف الإبِلِ والغنم.
(٣) **الْبُخْت**: الإبل الخُراسَانية، وهي طويلة الأعْنَاق.
(٤) **لَا يَكُنُّ مِنْهُ**: أي: لَا يَسْتُرُ وَلَا يمْنَعُ مِنْهُ.
(٥) **كالزَّلَفَة**: أي: كالْمِرْآة.
(٦) **بِقِحْفِهَا**: أي: بِنِصْفِ قِشْرَتها.
(٧) **الفئام من الناس**: أي: الجماعَةُ مِنْهُم. **واللِّقْحَة**: اللَّبُون.

فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللهُ رِيحاً طَيِّبَةً، فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ آبَاطِهِمْ، فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلم، ويَبْقَىٰ شِرَارُ النَّاس، يَتَهَارَجُونَ فيها تَهَارُجَ الْحُمُرِ، فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ».

وبهـٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس العشرين من دُرُوس سورة (الأنبياء).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(٢٥)
التدبُّر التحليلي للدّرس الحادي والعشرين من دُروس سورة (الأنبياء) الآيات من (٩٨ ـ ١٠٠)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾:

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ خِطَابٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلْمُشْرِكِينَ بِأَنَّهُمْ مَعَ مَعْبُودَاتِهِمْ حَصَبُ جهَنَّم.

وفيها عَرْضُ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ تَعْذِيبِهِمْ يَوْمَ الدِّين.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً للمشْرِكِينَ عُبَّادَ الأَصْنَامِ والأَوْثَان:

• ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾:

الْحَصَبُ: صِغَارُ الْحِجَارَةِ، والْحَطَبُ، وكُلُّ مَا يُلْقَىٰ في النَّار مِنْ وَقُود.

• ﴿إِنَّكُمْ﴾: أي: يَا أَيُّهَا المشْرِكُونَ عُبَّاد الْأَصْنَامِ.

• ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: أي: ممَّا لَا يَعْلَمُ وَلَا يَعْقِلُ، وهي الْأَصْنَامُ والْأَوْثَان، فلَفْظُ «مَا» اسْمُ مَوْصُولٍ مَوْضُوعٌ في الأصْل لِمَا لَا يَعْقِلُ، وقَدْ يُرَادُ بِهِ العاقِلُ مَعَ غَيْرِهِ تَغْلِيباً، ولكِنَّ المُرَادَ هُنَا مَا لَا يَعْقِل، أَمَّا مَنْ يَعْقِلُ لَا يَدْخُلُ جهَنَّمَ، إِلَّا إِذَا كَانَ رَاضِياً بِأَنْ يُعْبَدَ مِنْ دُونِ الله.

• ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾: أيْ: أَنْتُمْ وَقُودٌ مِنْ وَقُودِ جَهَنَّم، كلَّما نَضِجَتْ جُلُودُكُمْ تَتَجَدَّدُ، وهٰذَا الْوَقُودُ يَتَعَذَّبُ باحْتِرَاقِهِ واشْتِعَالِهِ، وأَصْنَامُكُمْ كَصِغَارِ الْحِجَارَةِ الَّتِي هِي مِنْ وَقُودِ جهَنَّم، أَمَّا كِبَارُ الْحِجارَةِ الَّتِي هِيَ مِنْ وَقُودِ جَهَنَّم كذٰلك، فَهِيَ صُخُورٌ عَظِيمَةٌ قَدْ تَكُونُ الصَّخْرَةُ الْوَاحِدَةُ مِنْهَا بِمَثَابَةِ جَبَل.

وَجَاءَ في سُورَةِ (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) قولُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً للكافِرِين:

﴿... فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

وَجَاءَ في سُورَةِ (التَّحْرِيم/ ٦٦ مصحف/ ١٠٧ نزول) خِطَاباً للَّذِين آمَنُوا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾.

وَجاء في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ الَّذِينَ كَفَرُوا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾﴾.

هَـٰذِهِ النُّصُوصُ مِنَ السُّورِ الّتِي سَبَقَ بَيَانُها؛ مُكَمِّلَةٌ لِمَا جَاءَ في الآيَة (٩٨) مِنْ سُورَة (الْأنبياء/ ٧٣ نزول):

• ﴿... أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾: وُرُودُ الْمَكَانِ: الإشْرَافُ عَلَيْه، وقَدْ يُصَاحِبُهُ الدُّخُولُ فيه، وَهُوَ الْمُرَادُ هُنَا، لِأَنَّ الْخِطَابَ مُوَجَّهٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ هُمْ حَصَبُ جهنَّم، يُقَالُ لُغَةً: «وَرَدَ الْمَكَانَ، وَوَرَدَ عَلَىٰ الْمَكَانِ» أي: أشْرَفَ عَلَيْهِ، دخَلَهُ أَوْ لَمْ يَدْخُلْه. يُقَالَ: «وَرَدَ، يَرِدُ، وُرُوداً» أي: حَضَر.

و﴿لَهَا﴾ مُتَعَلِّقٌ بـ ﴿وَارِدُونَ﴾، أَصْلُ العبارة: «أنْتُمْ وَارِدُونَـهَا»، ولِمُرَاعَاةِ رُؤُوسِ الآيَاتِ؛ قُدِّمَ الْمَعْمُولُ فَضَعُفَ عَمَلُ الْعَامِلِ «وارِدُونَ»، فجِيءَ بِلَامِ التقوية، وأدْخِلَتْ عَلَىٰ الضمِير «لَهَا».

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيّناً مَوْقِفاً مِنْ مَوَاقِفِ يَوْمِ الدِّينِ وَمَشْهَداً مِنَ مَشَاهِدِه، بَعْدَ إِدْخَالِ المشْرِكِينَ وأصْنَامِهِمْ فِي جَهَنَّم، وَهـٰذَا المشْهَدُ يُعَبِّرُ عَنْ نَفْسِهِ بِالْعِبَارَةِ الَّتِي جَاءَتْ في قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿لَوْ كَانَ هَـٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾﴾:

أي: لَوْ كَانَ هَـٰؤُلَاءِ الْأَصْنَامُ آلِهَةً حَقًّا مَا وَرَدُوا جَهَنَّمَ وَدَخلُوهَا حَصَباً، وَكَانُوا وَقُوداً مِنْ وَقُودِهَا.

وَجَاءَ التَّعْلِيقُ الرَّبَّانِيُّ عَلَىٰ المشْرِكِينَ وأصْنَامِهِمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾﴾: أي: وَكُلٌّ مِنَ المشْرِكِينَ وأَصْنَامِهِمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ المشْرِكِينَ وَهُمْ فِي جَهَنَّم:

• ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾:

الزَّفِيرُ: إِخْرَاجُ النَّفَسِ مِنَ الصَّدْرِ بِقُوَّةٍ حَتَّىٰ الغَايَةِ، بَعْدَ مَلْءِ الصَّدْرِ

بِهِ. وَضِدُّهُ: «الشَّهِيقُ»، فَهُوَ أخْذُ النَّفَسِ بِقُوَّةٍ إلى دَاخِلِ الصَّدْرِ، حَتَّىٰ امْتِلَاءِ الرِّئَتَيْنِ بِهِ.

وَلَا يَكُونُ زَفِيرٌ إلَّا وَيَعْقُبُهُ شَهِيق، وإيجازاً فِي التعبير جاء في الآيَةِ ذِكْرُ الزَّفِيرِ فقط، لِيَفْهَمَ المتَدَبِّرُ أنَّ المعَذَّبِينَ في نَار جَهَنَّمَ، وَمِنْهُمُ المشْرِكُونَ عُبَّادُ الأصْنَامِ؛ لَهُمْ فيها زَفِيرٌ وشَهِيقٌ.

والمطْوِيُّ هُنَا جَاءَ مُصَرَّحاً بِهِ فِي قَوْل اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (هود/ ٥٢ نزول):

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾﴾:

• ﴿... وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾: أي: وهِمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ مَا يُمْتِعُ وَيَسُرُّ مِنَ الأصْوَاتِ، أَمَّا مَا يَسْمَعُونَهُ مِنَ الْعَوِيلِ والصُّرَاخِ وَأصْوَاتِ قَذَائِفِ النَّارِ، وَتَفَجُّرَاتِ المتَفَجِّرَاتِ فِيها، ومِثْلِ قَوْلِ اللهِ لَهُمْ، وَهُوَ مَا جَاءَ في سُورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾؛ فَهُوَ مِمَّا يَزِيدُ في عَذَابِهِمْ، وَلَا يُحِبُّونَ أنْ يَسْمَعُوهُ، وَهُوَ لَدَىٰ التَّدْقِيقِ لَيْسَ سَمَاعاً.

وَنَظِيرُهُ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في سورة (طه/ ٤٥ نزول) بِشَأْنِ حَالِ الْمُجْرِمِ وَهُوَ يُعَذَّبُ في جَهَنَّم:

﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾﴾:

أي: لَا يَمُوتُ فِيهَا مَوْتاً مُرِيحاً مِنَ الْعَذَابِ، وَلَا يَحْيَا فِيهَا حَيَاةً ذَاتَ رَاحَةٍ مِنَ الْعَذَابِ، فَنَفْيُ الحياة عَنْهُ نَفْيُ حَيَاةٍ خَالِيَةٍ مِنْ الْعَذَاب.

وَكَذَلِكَ لَا يَسْمَعُونَ سَمَاعاً مُمْتِعاً أَوْ مُؤْنِساً، بَلْ يَسْمَعُونَ سَمَاعاً يَزِيدُ فِي عَذَابِهِمْ، وَهٰذَا لَيْسَ فِي الحقيقَةِ سَمَاعاً، بَلْ هُوَ تَعْذِيب.

وبهٰذَا انتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الحادي والْعِشْرِينَ من دُرُوس سورة (الأنبياء).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

❁ ❁ ❁

(٢٦)
التدبُّر التحليلي للدّرس الثاني والعشرين من دُروس سورة (الأنبياء) الآيات من (١٠١ ـ ١٠٤)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾:

القراءات:

(١٠٣) ● قَرأ أبو جَعْفر: [**لَا يُحْزِنُهُمْ**].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**لَا يَحْزُنُهُمُ**].

قال الجوهري: «حَزَنَهُ الأمرُ» لُغَةُ قُرَيش. و«أَحْزَنَهُ الأَمْر» لُغَةُ تميم، اهـ، والمعنى واحد، **الْحُزْنُ**: ضِدُّ الْفَرَحِ والسُّرُور.

(١٠٤) ● قرأ أبو جَعْفر: [**تُطْوَىٰ السَّمَاءُ**]، وهي على معنى أنَّ الله يَطْوِيها.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**نَطْوِي السَّمَاءَ**] بِضَمير المتكلّم العظيم.

(١٠٤) ● قرأ حفص، وحمزة، والكِسَائي، وخَلَف: [**لِلْكُتُبِ**] بالْجَمْع.

وَقَرَأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**لِلْكِتَابِ**] بالإفراد.

والمؤدَّىٰ واحد، لأن المراد بالكتاب الجنسُ.

(١٠٤) • قرأ السُّوسِي، وأبُو جَعْفر، والأصبهاني عن وَرْش: [بَدَانَا] وصلاً ووقفاً.

وكذلك قرأها حمزة في الوقف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [بَدَأْنَا].

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانٌ بِشَأْنِ المؤمنينَ النَّاجِينَ يَوْمَ الدِّين مِنْ دُخول النَّار، يَوْمَ يَطْوِي اللهُ السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجلِّ للْكُتب.

وقَدْ كَانَ المتبادر أَنْ أَجْعَلَ هـٰذَا الدَّرْسَ مُلْحقاً بالدَّرْسِ الحادي والْعِشْرِين، إلَّا أَنِّي آثَرْتُ هـٰذَا الْفَصْل، إذْ لَمْ أرْتَحْ إلَىٰ مَا وَسَّعَ فِيهِ بَعْضُ المفَسِّرِينَ مِنْ بَيَانِ سَبَبِ النُّزُولِ، ومجادَلَةِ «ابْنِ الزِّبَعْرَىٰ» الرَّسُولَ ﷺ حَوْلَ كَوْنِ بعضِ الْمَعْبُودِين مِن الملائِكَةِ، وبَعْضِ الْبَشَرِ الصَّالِحِينَ. إذْ هُمْ لَا يَدْخُلُونَ فِي: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، لِأَنَّ «مَا» لَا تَقَعُ عَلَىٰ ذِي الْعِلْمِ والْعَقْل، ومِثْلُ هـٰذَا لَا يَخْفَىٰ عَلَىٰ عَرَب الحجاز، وَلا سيما أَهْلُ مَكَّة.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ الَّذِينَ يَعْصِمُهُمُ اللهُ مِنْ عَذاب جَهَنَّمَ:

• ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾:

الْحَسِيسُ: مَصْدَرٌ لِفِعْلِ «حَسَّ الشَّيْءَ، وَحَسَّ بِهِ» أي: أَدْرَكَهُ بإحْدَىٰ حوَاسِّهِ. فَمَعْنَىٰ ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾: لَا يَسْمَعُون صَوْتاً مِنْهَا تُدْرِكُهُ فِي الْعَادَةِ حَاسَّةُ السَّمْعِ، بِسَبَبِ بُعْدِهِمُ الشَّاسع عَنْهَا، وَهُمْ يُنَعَّمُونَ في جَنَّاتِ النعيم.

والْمَعْنَىٰ فِيما أَرَى: إِنَّ المؤمِنِينَ الَّذِينَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَجاءَتْهُم

الْبِشَارَةُ عِنْدَ مَوْتِهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ، بِأَنَّهُمْ نَاجُونَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ وَلَا يَدْخُلُونَهَا، فَسَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْبِشَارَةُ الْحُسْنَىٰ بِهَـٰذَا، قَبْلَ الْحِسَاب، وَفَصْلِ الْقَضَاءِ، يَوْمَ الدِّينِ؛ أُولَٰئِكَ الْفُضَلَاءُ رَفِيعُو المنزلَةِ عِنْدَ رَبِّهِمْ؛ عَنْ جَهَنَّمَ مُبْعَدُونَ، وَفِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ يُنَعَّمُونَ، وَحِينَ يَكُونُونَ فِي جَنَّاتِ الْخُلْدِ يُنَعَّمُونَ؛ لَا يَطْرُقُ سَمْعَهُمْ صَوْتٌ مَا مِمَّا يُسْمَعُ عَادَةً مِنْ أَصْواتِ جَهَنَّمَ وَأَصْوَاتِ الْمُعَذَّبِينَ فِيها، لِئَلَّا يَتَكَدَّرُوا بِسَمَاعِ هَـٰذِهِ الْأَصْوَاتِ المزْعِجَةِ.

وهُمْ فيما اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ؛ مُنَعَّمُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، وَخَالِدُونَ خُلوداً أَبَدِيًّا فيها.

وَلَا يَتَعَارَضُ هـٰذَا مَعَ مَا جَاءَ في الآيَتَيْنِ (٧١ و٧٢) من سورة (مريم/ ٤٤ نُزُول) بِشَأْنِ وُرُودِ المؤمِنِينَ وَغَيْرِهِمْ عَلَىٰ جَهَنَّمَ، لِأَنَّ مَا جَاءَ فِيهِمَا هُوَ الْوُرُودُ عَلَىٰ الصِّرَاطِ، الَّذِي يُضْرَبُ عَلَىٰ وَسَطِ أَعْلَىٰ جَهَنَّمَ مِنْ حَافَّةٍ إِلَىٰ الْحَافَّةِ الْمُقَابِلَةِ لَهَا، فَهُو بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِن رَبِّهِمُ الحسْنَىٰ يَكُونُ وُرُودُهُمْ جهَنَّمَ وُرُودَ إِشْرَافٍ سَرِيعٍ قَبْلَ دُخُولِهِمُ الْجَنَّةَ، كَمَا سَبَقَ لَدَى تَدَبُّر هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ في سورة (مريم/ ٤٤ نزول)، وَلَا يُصَاحِبُهُ شَيْءٌ مِمَّا يُعَكِّرُ صَفْوَهُمْ أَوْ يُؤْذِيهِمْ.

• ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾: هـٰذَا البيانُ يَتَعَلَّقُ بِحَالِ المؤمنينَ الَّذِينَ كَانُوا قَدْ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ في الدُّنْيَا، بَعْدَ صُدُور الْحُكْمِ بِدُخُولِهِمُ الجنَّةَ، وَأَنَّهُمْ نَاجُونَ مِنَ الدُّخُولِ في دَارِ الْعَذَابِ النَّار.

هَـٰؤُلَاءِ الْفُضَلَاءُ ذَوُو المنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ عِنْدَ رَبِّهِمْ؛ قَدْ سَبَقَتْ لَهُمْ عِنْدَ مَوْتِهِمْ وبَعْدَ مَوْتِهِمْ الْبُشْرَىٰ الْحُسْنَىٰ، بِأَنَّهُمْ نَاجُونَ مِنَ الدُّخُولِ في النَّار، وبأَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ جَنَّاتِ النَّعِيمِ، وَقَدْ جَاءَ هـٰذَا فِي الصَّحِيحِ الْقَطْعِي مِنَ النُّصُوصِ الدِّينِيَّة، فَلَا مَجَالَ لِلْعُدُولِ عَنْه.

الْحُسْنَىٰ: وَصْفٌ لِذَاتِ صِفَةٍ هِي الأَحْسَنُ مِنْ غَيْرِهَا، وَأَوْلَىٰ مَا نُقَدِّرُه «الْبُشْرَىٰ»، أي: سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْبُشْرَىٰ الحسْنَىٰ.

• ﴿... أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾: أي: أولَـئِكَ الـفُـضَـلاءُ ذَوُو المنازِلِ الرَّفِيعَةِ عِنْدَنا عَنْ جَهَنَّمَ مُبْعَدُون إبْعاداً سَحِيقاً.

• ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾: أي: لَا يَسْمَعُونَ صَوْتاً مِنْهَا تُدْرِكُهُ في الْعَادَةِ حَاسَّةُ السَّمْعِ، لِئَلَّا تَشْمَئِزَّ نُفُوسُهُم مِنْ سَمَاعِ أَصْوَاتٍ كَرِيهَةٍ مِنْ جَهَنَّم.

• ﴿... وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾: أي: وهُـم خَالِدُونَ خُلُوداً أبَدِيًّا لا نِهَايَة لَهُ، فِي مُحِيطٍ بِهِمْ مِنْ كُلِّ مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ، مِنْ كُلِّ جِنْسٍ، وَكُلِّ نَوْعٍ، وَكُلِّ صِنْف.

▪ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ بِشَأْنِ هَـٰؤُلَاءِ الْفُضَلَاءِ ذَوِي المنازِلِ الرَّفِيعَةِ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَوْمَ الدِّين:

• ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾:

الْحُزْنُ: مَشَاعِرُ أَلَم في النَّفْسِ طَوِيلِ الأمَدِ، بِسَبِبِ مَحْبُوبٍ أَوْ مَرْغُوبٍ فِيهِ قَدْ فَاتَ، أَوْ بِسَبَبِ مَكْرُوهٍ نَازِلٍ أَوْ مُتَوقَّعِ النُّزُولِ، كالْحُزْنِ عَلَىٰ مَحْكُومٍ عَلَيْه بالْقَتْل.

الْفَزَعُ: الْخَوْفُ والذُّعْرُ الّذِي تَظْهَرُ لَهُ آثَارُ نُفُورٍ في حَرَكَاتِ الْجِسْمِ. والْفَزَعُ الأَكْبَرُ يَكُونُ عَقِبَ بَعْثِ النَّاسِ لِتَلَقِّي أَحْدَاثِ وَوَقَائِعِ يَوْمِ الدِّين، يَوْمِ الْجَزاءِ الأَكْبَرِ، فَالْكَافِرُونَ وَمُرْتَكِبُو كَبَائِرِ الإثم؛ يَفْزَعُونَ مِمَّا سَيُلَاقُونَ مِنْ جَزَاءٍ كَانُوا قَدْ أُنْذِرُوهُ. والمقَصِّرُونَ يَحْزَنُونَ إذْ يَنْجَلِي لَهُمْ بِوُضُوحٍ عِنْدَ مُشَاهَدَةِ بَعْضِ الأحْدَاثِ أَنَّهُمْ فَوَّتُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ ثَواباً عَظِيماً، كَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ السَّهْلِ عَلَيْهِمْ أَنْ يَظْفَرُوا بِهِ، لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا تَحَمَّلُوا مُخَالَفَةَ نُفُوسِهِمْ فِي تَرْكِ أَشْيَاءَ لَمْ يَكُنْ مِن الصَّعْبِ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتْرُكُوها، أَوْ في فِعْلِ أَشْيَاءَ لَمْ يَكُنْ مِنَ الصَّعْبِ عَلَيْهِمْ أَنْ يَفْعَلُوهَا.

أَمَّا الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْبُشْرَىٰ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ الْبُشْرَيَاتِ عِنْدَ مَوْتِهِمْ وَبَعْدَه؛ فَإِنَّهُمْ في أَمْنٍ نَفسيٍّ تَامٍّ، فَلَا تُفْزِعُهُمُ الْأَحْدَاثُ الْجَسِيمَاتُ المثِيرَاتُ لِلْفَزَعِ الْأَكْبَرِ في قُلُوبِ وَنُفوسِ الْكَافِرِينَ، وَلَا يَحْزُنُهُمْ أَنَّهُمْ فَوَّتُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَجراً عَظِيماً فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، فَقَدْ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ أَحْسَنُ الْبُشْرَيَاتِ بأَحْسَنِ الثَّوَابِ الْعَظِيمِ.

• ﴿... وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾:

• ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾: أي: وَتَلْقَاهُمْ مَلَائِكَةُ التَّكْرِيم، وَرُبَّمَا كَانُوا مِنْ أَهْلِ المَلأِ الْأَعْلَىٰ، بِحَفَاوَةٍ وَتَكْرِيم، عَامِدِينَ قَاصِدِينَ لِقَاءَهُمْ آناً فَآناً، أَخْذاً مِنْ صِيغَةِ «تفعَّلَ» الَّتِي تَدُلُّ عَلَىٰ التَّكَلُّفِ والتَّدَرُّج، وَتُحْمَلُ (ال) في «الْمَلَائِكَةِ» عَلَىٰ أَهْلِ الكَمَالِ فيهم.

• ﴿... هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾: أي: تَقُولُ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ حِينَ تَتَلَقَّاهُمْ: هٰذَا يَوْمُكُمُ الْعَظِيمُ الَّذِي سَتَكُونُونَ فِيهِ سُعَدَاءَ أبداً في جَنَّاتِ النَّعِيمِ، وَهُوَ الْيَوْمُ الَّذِي كُنْتُمْ في الدُّنْيَا تُوعَدُونَهُ.

وَهٰذَا التَّلَقِّي قَدْ يَكُونُ قَبْلَ دُخُولِهِم الجنَّة، وَيَكُونُ أَيْضاً عِنْدَ دُخُولِهِم الْجَنَّة، وَيَكُونُ أَيْضاً وَهُمْ فِيها زِيَادَةً في الإِينَاسِ والتَّكْرِيم.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُبَيِّنُ بَعْضَ بَيَانٍ عَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ بضمير المتكلّم العظيم:

• ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾:

• ﴿نَطْوِى﴾: الطَيُّ ضَمُّ بَعْضِ الشيء عَلَىٰ بَعْضٍ، أَوْ لَفُّ بَعْضِ الشَّيْءِ فَوْقَ بَعْض.

﴿ٱلسِّجِلِّ﴾: يطْلَقُ عَلَىٰ الْكَاتِبِ، وَعَلَىٰ الْكِتاب.

أَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ مِنَ الْأَحْدَاثِ الَّتِي تَكُونُ عِنْدَ قِيَامِ السَّاعَةِ الْأُولَىٰ، والَّتِي يَتِمُّ بِهَا إِنْهَاءُ ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؛ أَنْ يَطْوِي اللهُ - جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ - السَّمَاءَ كُلَّهَا، الشَّامِلَةَ لِلسَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَمَا فِي دَاخِلِهَا مِنْ أَشْيَاءَ، وَمِنْهَا كُرَةُ الْأَرْضِ، كَطَيِّ الْكَاتِبِ لِلْكِتَابِ أَوْ لِلْكُتُب، فَيَضُمُّ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْض، أَوْ يَلُفُّ بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ، وَيُنْهِي كُلَّ نِظَامِهَا الْقَائِمِ الآن.

وَبَعْدَ ذَلِكَ يُؤَسِّسُ اللهُ - جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ - كَوْناً جَدِيداً لِلْحَيَاةِ الْأُخْرَىٰ، فَيُعِيدُ بِنَاءَ الكَوْنِ الْجَدِيدِ لِهَـٰذِهِ الْحَيَاةِ، كَمَا بَدَأَ أَوَّلَ خَلْقٍ لِلْحَيَاةِ الْأُولَىٰ، وَلَا يَشْمَلُ هـٰذَا الجنَّة والنار.

وهـٰذَا الْأَمْرُ الَّذِي يُخْبِرُ به اللهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ جَعَلَهُ وَعْداً، عَلَيْهِ أَنْ يُحَقِّقَهُ لَا مَحَالَة، إِنَّهُ - عَظُمَ سُلْطَانُهُ - لَا يُخْلِفُ الْمِيعاد، وإِنَّهُ بِعَظَمَةِ رُبُوبِيَّتِهِ لَا بُدَّ أَنْ يَفْعَلَهُ حَتْماً.

﴿... إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾: أي: إِنَّا سَوْفَ نَكُونُ فَاعِلِينَ هـٰذَا مُسْتَقْبَلاً، فَفِعْلُ «كَانَ» مُسْتَعْمَلٌ هُنَا بِمَعْنَىٰ الاسْتِقْبَال، وهـٰذَا أَحَدُ اسْتِعْمَالَاتِ أَرْبَعَةٍ لِفِعْلِ «كان»، وهي: «الماضي، والْحَال، والاسْتِقْبَال، والاسْتِمْرَار».

وبهـٰذَا تَمَّ تَدَبُّرُ الدّرس الثاني والعشرين من دُرُوس سورة (الأنبياء).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

❁ ❁ ❁

(٢٧)
التدبُّر التحليلي للدَّرس الثالث والعشرين من دُروس سورة (الأنبياء) الآيتان (١٠٥ و١٠٦)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾:

القراءات:

(١٠٥) • قَرَأَ حمزَةُ، وخَلَف: [**فِي الزُّبُورِ**]، وهو جمعٌ مُفْرَدُهُ: «الزَّبْرُ»، وهُوَ المكْتُوب، فمعنى «الزُّبُور»: الكُتُب.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**فِي الزَّبُورِ**]، ومعناهُ في اللُّغَةِ: الكِتَابُ المزْبُور، يقال لغة: «زَبَرَ الكِتَابَ» أي: كَتَبَهُ، أو أَتْقَنَ كتابته. وغَلَبَ إطْلَاقُ لَفْظِ «الزَّبُور» عَلَىٰ الكتاب الّذِي آتاهُ اللهُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَام.

فبين القراءَتَيْنِ تَكَامُلٌ، أي: في كِتَابِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَام، وفي كُتُبٍ أُخْرَىٰ مِنْ كُتُبِ بَنِي إسْرَائيل.

(١٠٥) • قرأ حمزة وَصْلاً: [**عِبَادِيْ الصَّالِحُونَ**] بإسْكَانِ ياء المتكلّم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بِفَتْحِ يَاءِ المتكلّم.

تَمْهيد:

في آيَتَيْ هٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ أَنّ الأَرْض(وهيَ الأَرْضُ الْمُقَدَّسَة فِي الشَّام حَوْلَ الْمَسْجِدِ الأَقْصَىٰ = فِلِسْطِين) يَرِثُها عِبَادُ اللهِ الصَّالِحُونَ، المؤمِنُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاة، ويَعْمَلُونَ بأحْكَامِ شَرِيعَةِ اللهِ لِعِبَادِهِ، ويَعْبُدونَهُ لَا يُشْرِكُونَ بِعِبَادَتِهِ شيئاً.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيّناً خَبَراً تَارِيخيًّا سَيَأْتِي مَسْبُوقاً بِتَقْدِيرِهِ وقَضَائِهِ، فَهُوَ أَمْرٌ حَتْمِيٌّ التَّحْقيقِ:

• ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾:

• ﴿وَلَقَدْ﴾: اللّامُ وَاقِعَةٌ في جواب قَسَمٍ مَنْوِيٍّ، ولفظ «قَدْ» حَرْفُ تَحْقِيق، وهٰذَا التوكيد مُوَجَّهٌ للشَّاكِّينَ، والْمُنْكِرِينَ.

• ﴿كَتَبْنَا﴾: الكِتَابَةُ تَكُونُ لِمَعْلُوم سَابقٍ لَهَا، وهٰذَا الْمَعْلُومُ إِذَا كَانَ مُتَضَمِّناً خَبَراً عَمَا سَيَحْصُلُ أَوْ سَوْفَ يَحْصُلُ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مِنْ خَصَائِصِ الْعِلْم الرَّبَّانِيّ، وَقَدْ يَدْخُلُ فِيهِ مَا سَبَقَ أَنْ قَدَّرَهُ اللهُ وَقَضَاهُ، وَكُلُّ مَعْلُوم رَبَّانِيّ عَنِ المسْتَقْبَلِ لَا بُدَّ أَنْ يَتَحقَّقَ عَلَىٰ وَفْقِ مَا سَبَقَ بِهِ الْعِلْمِ.

• ﴿فِي ٱلزَّبُورِ﴾: أي: فِي الكِتَابِ الَّذِي آتَاهُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ دَاوُد عَلَيْهِ السَّلَام، أخذاً مِنْ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ في سورة (الإسراء/ ٥٠ نزول):

﴿... وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾.

وَقِرَاءَةُ: [فِي الزُّبُورِ]: أي: فِي كُتُبٍ أُخْرَىٰ مِنْ كُتُبِ بَنِي إِسْرائيل غير كتاب دَاوُد عَلَيْهِ السَّلام؛ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ هٰذَا المكْتُوبَ الْعِلْمِيَّ مَوْجُودٌ أَيْضاً فِيما يُنْسَبُ إِلَىٰ غَيْرِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلام مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ كُتُبٍ، غَيْر كتاب موسَىٰ وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَام.

• ﴿... مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾: أي: مِنْ بَعْدِ التَّوْرَاةِ الَّتِي كَتَبْنَا فِيهَا هٰذَا النَّبَأَ الْخَبَرِيَّ المسْتَقْبَلِيّ، فَقَدْ سَمَّىٰ اللهُ عَزَّ وَجلَّ التَّوْرَاةَ في القرآن: «ذِكْراً»، كَمَا سَمَّىٰ الْقُرْآنَ «ذِكْراً».

• ﴿... أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾:

مِنَ الْمُرَجَّحِ بِلَا شُبْهَةٍ أَنَّ الْمُرَادَ بالْأَرْضِ هِيَ الْأَرْضُ الْمُقَدَّسَة حَوْل الْمَسْجِدِ الْأَقْصَىٰ، وهِي فِلِسْطِينُ، وَهِيَ الْأَرْضُ الَّتِي كَانَ قَدْ وَعَدَ اللهُ بِهَا بَنِي إسْرائيل، وَلَكِنْ جَعَلَ مِيرَاثَهَا مِنْ بَعْدِ فَسَادِهِمْ لِعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ، وَيَدُلُّ عَلَىٰ وَعْدِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بأن يَمْنَحَهُمْ إيَّاهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي سُورَةِ (الْمَائِدَة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾:

فَهِيَ الْأَرْضُ الَّتِي يَعْتَنِي البيانُ الرَّبَّانِيُّ بِأَنْ يَكْتُبَهُ فِي التَّوراةِ، وفي الزَّبُور، وَفِي كُتُبٍ أُخرَىٰ مِنْ كُتُبِ أنبِيَاءِ بَنِي إسْرَائيل عَلَيْهِم السَّلَام، لِيُعْلِمَهُمْ أَنَّ عَطَاءَ الأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ لَهُمْ لَيْسَ عَطَاءً دَائِماً، إنَّما هُوَ عَطَاءٌ مَشْرُوطٌ بِأَنْ يَكُونُوا صَالِحِينَ لِإقَامَةِ دِينِ اللهِ، فإذَا فَسَدُوا سَلَبَهَا اللهُ مِنْهُمْ وَأَوْرَثَهَا عِباداً صَالِحِينَ غَيْرَهُمْ، لِإقَامَةِ دِينِ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

وَهـٰذَا هُوَ الَّذِي تَحَقَّقَ فِي تَارِيخ الْأَرْض الْمُقَدَّسَة، فَلَقَدْ مَنَحَهُمُ اللهُ إِيَّاهَا أَيَّام «طَالُوت»، واسْتَمَرَّتْ تَحْتَ سُلْطَانِهِمْ فِي عَهْدَي دَاوُدَ وسُلَيْمَانَ عَلَيْهِمَا السَّلَام، وَزَمَنٍ لَيْسَ بِطَوِيلٍ بَعْدَ سُلَيْمان عَلَيْهِ السَّلَام، فَلَمَّا فَسَدُوا سَلَبَهَا اللهُ مِنْهُمْ، ثُمَّ سَلَّمَهَا لِلنَّصَارَىٰ فَلَمْ يَكُونُوا صَالِحِينَ، ثُمَّ سَلَّمَهَا لِعبَادِه الصَّالِحِينَ الْمُسْلِمِينَ، فِي عَهْدِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وَبَعْدَ قُرُونٍ فَسَدَ حَالُ سُكَّانِهَا الْمُسْلِمِينَ، فَغَلَبَهُمُ النَّصَارَىٰ، وَبَعْدَ قَرْنٍ أَوْرَثَهَا اللهُ الْمُسْلِمِينَ فِي عَهْدِ صَلَاحِ الدِّينِ الأَيُّوبِي رَحِمَهُ الله وَجِهَادِهِ المظفر.

وَهَكَذَا يَبْقَىٰ مِيرَاثُ هـٰذِهِ الْأَرْضِ لِعِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ، مَهْمَا تَآمَرَ

الْعَالَمُ الْكَافِرُ عَلَىٰ انْتِزَاعِهَا مِنْهُمْ، وَيَكُونُ تَسْلِيطُ اللهِ غَيْرَ الْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ فِيها؛ بِسَبَبِ مَعَاصِيهِمْ وَخُرُوجِهِمْ عَنْ صِرَاطِ اللهِ المستقيم.

والْعِبَادُ الصَّالِحُونَ الْوَارِثُونَ لَهَا هُمُ الْمُؤْمِنُونَ الْمُسْلِمُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاة، وَيَعْمَلُونَ بأَحْكَامِ شَرِيعَةِ اللهِ لِعِبَادِهِ، ويَعْبُدُونه لَا يُشْرِكُونَ بِعِبَادَتِهِ شيئاً.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بَعْدَ بَيَانِ وَارِثِي الْأَرْضِ المقدَّسَة:

• ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾: أي: إِنَّ فِي هَٰذَا الْبَيَانِ بِشَأْنِ وَارِثِي الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ فِي بِلَادِ الشَّام؛ لَبَلَاغاً يَنْتَفِعُ بِدَلَالَتِهِ قَوْمٌ مُؤْمِنُونَ مُسْلِمُونَ حَرِيصُونَ عَلَىٰ أَنْ يَكُونُوا عَابِدِينَ لِرَبِّهِمْ، وَمُحَافِظِينَ عَلَىٰ عِبَادَتِهِمْ لَهُ بِمَا يُرْضِيهِ - جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ -، وَعِنْدَئِذٍ يَكُونُونَ مُؤَهَّلِينَ لِأَنْ يُورِثَهُمُ اللهُ الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ فِي بِلَادِ الشَّام. وحِينَ لَا يَكُونُونَ صَالِحِينَ وَعَابِدِينَ رَبَّهُمْ بِمَا يُرْضِيهِ؛ فَإِنَّ اللهَ يَسْلُبُهُمُ الميرَاثَ، وَيُمَكِّنُ أُمَماً أُخْرَىٰ مِنَ التَّسَلُّطِ عَلَيْهِمْ وَإِذْلَالِهِمْ وَطَرْدِهِمْ، كَمَا سَلَّطَ اللهُ «نَبُوخَذْ نَصر» عَلَىٰ الْيَهُودِ فَسَاقَهُمْ عَبِيداً إِلَىٰ بِلَادِهِ، وأَخْرَجَهُمْ مِنْ فِلِسْطِينَ كَقُطْعَانِ الْبَهَائِمِ مُعَذَّبِينَ.

ويَلْمَحُ المتدبِّرُ الْمُتَعَمِّقُ إِشْعَاراً ضِمْنِيّاً لِلْمُشْرِكِينَ في مَكَّةَ، بِأَنَّ عِبَادَ اللهِ الصَّالِحِينَ هُمُ الَّذِينَ سَيَكُونُون الوارثينَ لَهَا بَعْدَ حين.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الثَّالِثِ والعشرين من دُرُوس سورة (الأنبياء).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

❁ ❁ ❁

(٢٨)

التدبُّر التحليلي للدّرس الرابع والعشرين من دُروس سورة (الأنبياء) الآيات من (١٠٧ ـ ١١٢) آخِر السورة

قال الله عَزَّ وَجَلَّ خطاباً لِرَسُولِهِ محمّد ﷺ:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾:

القراءات:

(١١٢) ● قرأ حفصٌ: **[قَالَ رَبِّ احْكُمْ]**، بالفعل الماضي وكَسْرِ الباءِ المشدَّدَةِ.

وقرأها أبو جَعْفر: **[قُلْ رَبُّ احْكُمْ]**، بِفِعْلِ الأمر وضمّ الباءِ المشدَّدَةِ.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[قُلْ رَبِّ احْكُمْ]**، بِفِعْلِ الأمْر وكَسْرِ الباءِ المشَدَّدَة.

بَيْنَ «قَال» و«قُلْ» تكامُلٌ فِكْرِي، أي: قَالَ اللهُ لِرَسُولِهِ ﷺ «قُلْ»، فنفَّذَ الْأَمْرَ، فَ «قَالَ»، وهذه قراءَة حفص.

و«رَبِّ» و«رَبُّ» وَجْهَانِ عَرَبِيَّانِ جائِزَان.

● قَرَأَ ابنُ ذَكْوان بِخلف عَنْهُ: **[يَصِفُونَ]**.

وَقَرَأَهَا بَاقي القُرَّاء العَشَرةِ: **[تَصِفُونَ]**.

تَمْهيد:

في هَـٰذِهِ الآيَـاتِ مِنْ هـٰذَا الدَّرْسِ الَّذِي هُوَ آخِرُ دُرُوس السُّورة؛ خِطَابٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ، يَتَضَمَّنُ تَعْلِيماً دَعَوِيًّا يُنَاسِبُ الْمَرْحَلَةَ الَّتِي نَزَلَتْ فِيها هَـٰذِهِ السُّورة.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ خِطاباً لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ بضَمِير المتكلِّم العظيم:

• ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾:

أي: وَمَا اصْطفَيْنَاكَ نَبيًّا نُوْحِي إِلَيْكَ، ومَا اخْتَرْنَاكَ رَسُولاً لِلإنْسِ والْجِنِّ، وَخَاتماً لِلأَنْبِياءِ ولِلْمُرْسَلِين؛ إلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ.

كَلِمَةُ «رَحْمَةً» مَنْصُوبَةٌ عَلَىٰ أَنَّهَا حَال، وصَاحِبُ هَـٰذِهِ الحال إمَّا أَنْ يَكُونَ فَاعِلُ ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾، وَهو «نَا»، أو المفْعُول به وهو «كَ».

فَعَلَىٰ أَنَّ صَاحِبَ الْحَالِ «نَا» ضَمِيرُ المتكلِّم العظيم؛ فالْمَعْنَىٰ أَنَّ إِرْسَالَ اللهِ لِرَسُولِهِ محمَّدٍ ﷺ؛ لَمْ يَكُنْ إِلَّا أَثَراً مِنْ آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ لِلْعَالَمِين.

الرَّحْمَة: صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللهِ الْجَلِيلَة، وهي صِفَةٌ نَفْسِيَّةٌ نُثْبِتُهَا للهِ عَزَّ وَجلَّ عَلَىٰ مَا يليق بِجَلَالِهِ وعظيم صِفَاتِهِ الحسنى، ومِنْ آثَارِهَا الْعَطَاءُ، والمعُونَةُ، والتَّوْفِيقُ، وإِزَالَةُ الْبُؤْسِ، والإمْدَادُ بِمَا يَسُرُّ، إِلى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَحَابِّ الْعِبَادِ.

وَعَلَىٰ أَنَّ صَاحِبَ الحال «ك» ضَمِير الخطاب للرَّسُولِ ﷺ؛ فالمعنَىٰ أَنَّ رَسُولَ اللهِ محمّداً ﷺ هُوَ رَحْمَةٌ لِلْعَالَمِين، أي: راحِمٌ لَهُمْ رَحْمَةً مِنْ أَسْمَىٰ دَرَجَاتِهَا الْبَشَرِيَّة، بِسَبَبِ حِرْصِهِ الشَّدِيدِ عَلَىٰ أَنْ يُنْقِذَ الْعَالَمِينَ مِن شَقَاءِ الدُّنْيا، وَعَذَابِ اللهِ فِي دَارِ الْعَذَابِ يَوْمِ الدِّين، وعَلَىٰ أَنْ يَظْفَرُوا بالنَّعِيمِ الأبَدِيّ الْخَالِدِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيم يَوْمَ الدِّين.

وَهو أَيْضاً بِمَثَابَةِ رَحْمَةٍ لَهُمْ لِأَنَّهُ يَحْمِلُ لَهُمْ وَيُبَلِّغُهُمْ أَعْظَمَ دِينٍ، ذي هِدَايَةٍ مُثْلَىٰ تُنْجِيهِمْ إذَا اتَّبَعُوهَا وَعَمِلُوا بِمَا جَاءَ فِيها مِنْ شَقَاء الدُّنْيا

وَعَذَابِ الآخِرَة، وَتُظْفِرُهُمْ بالسَّعَادَةِ الأبَدِيَّةِ الخالِدَةِ في جَنَّاتِ النعيم يَوْمَ الدِّين.

• ﴿... لِلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾: أُطْلِقَ لَفظُ الْعَالَمِينَ في الْقُرآنِ عَلَىٰ كُلِّ مَا سِوَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وأُطْلِقُ على الملائكَةِ والْإِنْسِ والْجِنِّ فقط، وأُطْلِقَ عَلَىٰ الْإِنْسِ فقط، وأُطْلِقَ عَلَىٰ الإنسِ والْجِنّ، وَهـٰذَا الإطْلَاقُ الْأَخِيرُ هُوَ المناسِبُ هُنَا واللهُ أعْلَمُ، لِأَنَّهُ رَسُولٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجلَّ إِلَىٰ الإنْسِ والْجِنِّ مِنْ بَعْدِ بِعْثَتِهِ، ولا يُوجَدُ دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ رِسَالَتَهُ ﷺ تَزِيدُ على هذا الحد.

والقصر في الآية بالنفي والاستثناء قَصْرٌ إضَافِي عَلَىٰ مَا يَظهر.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُكَلِّفُ رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يُوَجِّهَ بَيَاناً دَعوِيًّا للإنس والجنّ:

• ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾:

أي: قُلْ لِمَنْ تُبَلِّغُهُمْ دِينَ اللهِ لَهُمْ بِشَأْنِ الإلَٰهِيَّة: مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي الَّذِي بَعَثَنِي رَسُولاً لِلْعَالَمِين، حَوْلَ مَوْضُوع الآلِهَةِ المتَعَدِّدَةِ والإلَٰهِ الْوَاحِدِ؛ مَا إِلَٰهُكُمُ الْحَقُّ الَّذِي هُوَ رَبٌّ لَكُمْ، وَلَا رَبَّ لَكُمْ غَيْرُهُ في الوجُودِ كُلِّهِ؛ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ هُوَ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

• ﴿... فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾: أي: فَهَلْ تُؤْمِنُونَ بِالْحَقِّ الرَّبَّانِي، وَهَلْ تُسْلِمُونَ للهِ رَبِّكُمْ، فَتَعْبُدُونَهُ وَحْدَهُ، وَلَا تُشْرِكُونَ بِعِبَادَتِهِ شيئاً.

فِي هَـٰذِهِ الْجُمْلَةِ دَعْوَةٌ إِلَىٰ الْإِيمانِ المطْوِيٌّ ضِمْنَ الدَّعْوَةِ إلى الإسْلَام، بِأَرَقِّ أَسْلُوبِ وَأَلْطَفِهِ، وَهُوَ أُسْلُوبُ الْعَرْضِ بالاسْتِفْهَامِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يتابعُ التَّعْلِيم الدَّعوِيَّ للرَّسُولِ ﷺ:

• ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾﴾:

• ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾: أي: فَإِنْ أَدَارُوا لِدَعْوَتِكَ ظُهُورَهُمْ وابْتَعَدُوا، وَلَمْ يَسْتَجِيبُوا وَأَصَرُّوا عَلَىٰ كُفْرِهِمْ وَشِرْكِيَّاتِهِمْ.

• ﴿فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾: **آذَنْتُكُمْ**: أي: أَعْلَمْتُكُمْ.

عَلَىٰ سَوَاءٍ: أي: عَلَىٰ أَمْرٍ هُوَ سَوَاءٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، أي: مُسْتَوٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، لَا نُعْطِيكُمْ فِيهِ إِلَّا مَا تُعْطُونَنَا أَنْتُمْ فِيهِ.

ولَدَىٰ التَّفَكُّرِ في هَـٰذِهِ الْمَرْحَلَةِ الَّتِي نَزَلَتْ فِيهَا السُّورَة، مِنْ مَرَاحِلِ الدَّعْوَةِ الْمَكيَّةِ الَّتِي قَارَبَتْ على الانْتِهاء؛ نُدْرِكُ أَنَّ الْأَمْرَ الَّذِي يَحْسُنُ أَنْ يُعْلَنَ بَيْنَ الرَّسُولِ ﷺ والْمُسْلِمِينَ مِنْ جِهَة، وبَيْنَ أئِمَّةِ الكُفْرِ والشِّرْك مِنَ الْجِهَةِ الْمُقَابِلَة، هُوَ الإعْلَامُ بالْمُقَاطَعَةِ والْمُفَاصَلَةِ والشِّقَاقِ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ، فَقَدِ اسْتَنْفَدَتْ دَعْوَةُ الْحَقِّ مُعْظَمَ وَسَائِلِهَا، وَلَمْ يَبْقَ لِلْمُلَايَنَةِ جَدْوَىٰ، وَصَارَ إعْلَانُ الْمُفَارَقَةِ والْمُفَاصَلَةِ والْمُقَاطَعَةِ، هو الأَمْرُ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُلْجَأَ إِلَيْهِ.

فالْمَعْنَىٰ: فَقُلْ يا مُحَمَّدُ لِأَئِمَّةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ في مَكَّة: لَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ بَعْدَ الْعِلَاجِ الطَّوِيلِ إِلَّا الإِدْبَارُ والابْتِعَادُ والْمُشَاقَّةُ، لِهَـٰذَا أعلَمْتُكُم بِشِدَّةِ أَنَّنَا وَإِيَّاكُمْ عَلَىٰ أَمْرٍ سَوَاءٍ مِنَ الْمُقَاطَعَةِ والْمُفَاصَلَةِ والشِّقَاقِ، فَلَا تَلَاقِيَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَنَا عَلَىٰ مَائِدَةٍ دَعَوِيَّةٍ، لَقَدِ اتَّخَذْتُمُونَا أَعْدَاءً، فَنَحْنُ نُعَامِلُكُمْ بالْمِثْلِ فَنَتَّخِذُكُم أَعْدَاءً.

• ﴿وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾﴾:

إِنَّ إعْلَانَ المفَاصَلَةِ والمقاطَعَةِ والشِّقَاقِ، بَيْنَ فِئَةِ المؤمنين المسْلِمِينَ، وبَيْنَ أئِمَّةِ الْكُفْرِ والشِّرْكِ فِي مَكَّةَ إِبَّانَ تَنْزِيلِ هَـٰذِهِ السُّورَة؛ يُحَرِّكُ نُفُوسَ أَئِمَّةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ أَنْ يَقُولوا لِلرَّسُولِ ﷺ: إِذَا كُنْتَ قَدْ يَئِسْتَ مِن اسْتِجَابَتِنَا لِدَعْوَتِكَ، وَأَعْلَنْتَ مُفَاصَلَتَنَا وَمُقَاطَعَتَنَا والإِعْرَاضَ عَنْ دَعْوَتِنَا؛ فَمَتَىٰ يَتَحقَّقُ مَا كُنْتَ تُنْذِرُنَا بِهِ مِنْ عِقَابِ اللهِ المعَجَّلِ فِي الدُّنْيَا، بَعْدَ أَنْ

أَنْهَيْتَ مُتَابَعَتَنَا بِدَعْوَتِكَ، والإلْحَاحَ عَلَيْنَا بِتَذْكِيرِكَ وَتَحْذِيرِكَ وإنْذَارِكَ وَفُنُونِ إقْنَاعَاتِكَ وَتَرْغِيباتِكَ وَتَرْهِيبَاتكَ؟؟.

فَعَلَّمَ اللهُ رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَقُولَ لهم:

﴿وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾﴾:

«إنْ» حَرْفُ نَفْيٍ، أي: ومَا أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُنْذَرُونَهُ مِنْ وَعِيدٍ بِعِقَابِ اللهِ لَكُمْ.

والمعْنَىٰ: لَسْتُ أَنَا الْمُنْذِرَ لَكُمْ بالْعِقَابِ، وإِنَّمَا الْمُنذِرُ لَكُمْ خَالِقُكُمْ وَرَازِقُكُمْ، رَبُّ الْعَالَمِينَ، وهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ فِي كِتَابِهِ الْوَعِيدَ بِعِقَابِكُمُ الْمُعَجَّلِ فِي الدُّنْيَا، فَلَا تَسْأَلُونِي عَنْ وَقْتِ تَنْفِيذِ هٰذَا الْعِقَابِ، لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يُعْلِمْنِي بِهِ.

• ﴿تُوعَدُونَ﴾: **الْوَعْدُ**: هُو الإخْبَارُ بِمَا تَمَّ الْعَزْمُ على فِعْلِهِ في المستقبل، يَكُونُ فِي الخير، وفي الشَّرِّ، يقالُ لُغَةً: «وَعَدَهُ بِنَفْعٍ وَوَعَدَهُ بِضُرٍّ».

أَمَّا الْوَعِيدَ والإيْعَادُ فَهُمَا فِي الشَّرِّ خَاصَّةً.

واعْلَمُوا أَنَّ اللهَ رَبَّكُمُ الَّذِي صَدَرَ عَنْهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ مَا تُوعَدُونَ؛ عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَمِنْهُ مَا تُعْلِنُونَهُ وَمَا تَكْتُمُونَهُ، فَقَالَ تَعَالَىٰ فِي التَّعْلِيم:

• ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾﴾:

الْجَهْرُ بالْقَوْلِ: رَفْعُ الصَّوْتِ بِهِ، فَيَسْمَعُهُ الْقَرِيبُ مِنْهُ، وضِدُّهُ كَتْمُ الْقَوْلِ.

المعنى: وَقُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ: إِنَّ اللهَ رَبَّكُمْ يَعْلَمُ الْقَوْلَ الَّذِي تَجْهَرُونَ بِهِ، فَتَرْفَعُونَ بِهِ أَصْوَاتَكُمْ، وَيَعْلَمُ الْقَوْلَ الَّذِي يَجْهَرُ بِهِ كُلُّ قَائِلٍ، وَيَعْلَمُ الْقَوْلَ الَّذِي تَكْتُمُونَهُ فِي نُفُوسِكُمْ وَلَا تُظْهِرُونَهُ، وَكُلَّ قَوْلٍ يَكْتُمُهُ كَاتِمٌ فِي نَفْسِهِ.

أي: يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وغَيْرَ الْمَجْهُورِ بِهِ، وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ وَكُلَّ مَا يَكْتُمهُ غَيْرُكُمْ، وَمَا يَكْتُمونَهُ هُوَ: تَسَاؤُلُهُمْ عَنْ عَدَمِ تَنْفِيذِ اللهِ مَا أَنْذَرهم به.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابِعُ التَّعْلِيم الدَّعَوِيّ لِلرَّسُول ﷺ:

● ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾﴾:

أي: وَمَا أَدْرِي لَعَلَّ إِمْهَالَ اللهِ لَكُمْ، وَتَأْخِير تَنْفِيذِ عِقَابه؛ هُوَ تَطْوِيلٌ لِمُدَّةِ امْتِحَانِكُمْ، وَمَتَاعٌ لَكُمْ إِلَىٰ حِينٍ، بِمَا قَسَمَ لَكُمْ أَنْ تَسْتَمْتِعُوا بِهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تُحِبُّونَهَا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

فِتْنَةٌ لَكُمْ: أي: امْتِحَانٌ لَكُمْ واخْتِبَارٌ.

وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِين: أي: وانْتِفَاعٌ بِلَذَّاتِ الحياةِ الدُّنيا إلى حِينِ انْتِهَاءَ آجالِكُمْ فِيها.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابِعُ تَعْلِيمَهُ لِرَسُولِهِ ﷺ:

● ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾:

هَـٰذِهِ قراءةُ حفص، وقرأها جُمْهُورُ الْقُرَّاء الْعَشَرَة: **[قُلْ]**، أي: قال اللهُ لَهُ: **[قُلْ]**، فَنَفَّذَ الْأَمْرَ الرَّبَّانِي، بِدَلَالَةِ قِرَاءَةِ حَفْصٍ: **[قَالَ]**.

● ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾: **احْكُمْ بالْحَقِّ**: أَيْ: اقْضِ بالحقِّ، فالْحُكْم بالشَّيْءِ عَلَىٰ الشَّيْءِ؛ هُوَ القضاءُ بِهِ عَلَيْهِ.

والمعنىٰ: رَبِّ احْكُمْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ أَئِمَّةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ من قَوْمِنَا بالْحَقِّ. ويَلْزَمُ مِنَ الْحُكْم بِالْحَقِّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؛ تَنْفِيذُ هـٰذَا الْحُكْم ضِمْنَ ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنيا، لِيَعْتَبِرَ بِهِ أُولُو العقُولِ، ولِتَرْتَفِعَ بِهِ رَايَةُ الإسْلام، وَيَعْلُوَ بِهِ المؤمِنُونَ الْمُسْلِمُون عَلَىٰ بَاطِلِ الكُفْرِ وَالْكَافِرِين، وَكُلُّ ذَلِكَ إِنَّمَا يَتَحَقَّقُ عَلَىٰ وفْقِ حِكْمَةِ اللهِ، بِتَقْدِيرِهِ وَقَضَائِهِ وخَلْقِهِ.

وقَدِ اسْتَجَابَ اللهُ دُعَاءَ رَسُوله ﷺ، فَنَصَرَ المؤمِنِينَ المسْلِمِينَ عَلَىٰ أئِمَّةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ فِي مَكَّة، بِمَعْرَكَةِ بَدْرِ الكُبْرَىٰ، ولَعَلَّهَا لَمْ تَمْضِ ثَلَاثُ سِنِينَ أَوْ أَقلّ على دُعَاءِ الرَّسُولِ ﷺ بِقَوْلِهِ: ﴿رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾.

وعَلَّمَ اللهُ رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَقُولَ لِلْمُشْرِكِينَ بِشَأْنِ عَقَائِدِهِمُ الشِّرْكِيَّةِ والكُفْرِيَّةِ خِتَاماً لِلْحديثِ مَعَهُمْ:

• ﴿... وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾:

أي: وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الَّذِي بَلَغَتْ رَحْمَتُهُ غَايَةَ مَا يُتَصَوَّرُ مِنْ رَحْمَةٍ؛ الْمُسْتَعَانُ على مَحْوِ إبْطَالِ مَا تَصِفُونَهُ مِنْ بَاطِلٍ، بادِّعَاءِ أَنَّ لَهُ شُرَكَاءَ فِي رُبُوبِيّتِهِ أَوْ فِي إلَهِيَّتِهِ، وبادِّعَاءَاتٍ أُخْرَىٰ بَاطِلات، إذْ تُحِلُّون بَعْضَ مَا حَرَّمَ اللهُ، وَتُحَرِّمُونَ بَعْضَ مَا أَحَلَّ، وَتُشَارِكُونَهُ في رُبُوبِيَّتِهِ.

يُقَالُ لُغَةً: «اسْتَعَانَ فُلَانٌ فُلَاناً، واسْتَعَانَ بِهِ»: أَي: طَلَبَ عَوْنَهُ.

• ﴿... عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾: أي: عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ اللهَ رَبَّكُمْ بِهِ مِنْ صِفَاتٍ بَاطِلَاتٍ، لَا دَلِيلَ عَلَيْهَا مِن الْعَقْلِ، وَلَا مِنْ تَنْزِيلٍ رَبَّانِي.

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الرابع والعشرين مِنْ دُرُوس سورة (الأنبياء) وهو الدرس الْأَخير مِنْ دُرُوسِ السُّورَةِ.

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(٢٩)
ملحق: مُستَخرَجَات بَلَاغِيّة مِن سورة (الأنبياء)

تُوجَدُ في سُورَةِ (الأنبياء/ ٧٣ نزول) اختيارات بَلَاغِيَّةٌ مُتَعَدِّدَةٌ، وَقَدْ فَتَحَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيَّ باسْتِخْرَاجِ مَا يلي منها:

أوّلاً: مِنَ الإيجاز بِالحذْفِ الأمْثِلَةُ التالية:

المثَالُ الأول: قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾:

(الواو) في ﴿أَوَلَمْ﴾ عاطِفَةٌ عَلَىٰ مَحْذُوفٍ مَطْوِي يُمْكِنُ اسْتِخْرَاجُهُ ذهْنا. والتقدير: أَمَا زَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ عُلَماءِ الكَوْنِيَّاتِ؛ بَعِيدِينَ عَنْ إِدْرَاكِ أَدِلَّةِ أَنَّ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ كانتَا كُتْلَةً واحِدَةً مُجْتَمِعَةً، فَفَتَقْنَاهُمَا وَقَسَّمْنَاهُما إِلَىٰ سَبْع سَمَاوات، ومَجَرَّاتٍ كَثِيراتٍ فِيها بَلَايينُ النُّجُومِ والكَوَاكب ومِنْهَا الأَرض، وَلَمْ يَرَوْهَا رُؤيَةً فِكْرِيَّةً عِلْمِيَّةً تَهْدِيهِمْ إِلَىٰ الْإِيمَانِ بِرُبُوبِيَّةِ اللهِ وإلَهِيَّتِهِ، وأَنَّ القرآنَ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ المُحيطِ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً.

المثال الثاني: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ... ﴿٣١﴾﴾:

أي: وَجعَلْنَا فِي الْأَرْضِ جبالاً رَوَاسِيَ مَنْعَ أَنْ تَمِيد بِكُمْ.

المثال الثالث: قول الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾:

أي: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أَخبِرُونا ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

المثال الرابع: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾﴾:

أي: ﴿قُلْ﴾ يا مُحَمَّد لِلْمُشْرِكين: ﴿مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ﴾

أَحْدَاثٍ يُرِيدُ ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ أَنْ يَبْتَلِيَكُمْ بِهَا، لَكِنَّهُمْ لَا يُبالُونَ بِأَنْ يُجِيبُوا عَلَىٰ هٰذَا السُّؤال ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ دَواماً، لَا يَشْغَلُونَ أَفْكَارَهُمْ بِشَيْءٍ يَتَعَلَّقُ بِصِفَاتِهِ وَآيَاتِهِ فِي كَوْنِهِ.

المثال الخامس: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ الْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾:

الفاءُ فِي ﴿أَفَلَا﴾ تَعْطِفُ عَلى محذوفٍ مَطْوِيٍّ من السَّهْلِ إِدْرَاكُهُ وَتَقْدِيرُه، أي: أَمَا زَالَ المؤَهَّلُونَ لإِدْرَاكِ حِكْمَتِنَا السَّامِيَةِ فِي الآجَالِ غَارِقِينَ فِي غفَلَاتِهِمْ، فَلَا يَرْوَنَ أَنَّا نَأْتِي الأرضَ اليابِسَةَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرَافِهَا الْمُلَاصِقَةِ لِلْبِحَارِ، فَنَضْرِبُهَا بِأَمْوَاجِ البحار وحَرَكَةِ المدِّ والْجَزْرِ في أَزْمَانٍ طويلة، فَتَنْقُصُ الْأَرْضَ اليابِسَةَ مِنْ أَطْرَافِهَا، فَيَتَّسِعُ سَطْحُ الْبَحْر.

المثال السادس: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ حِكَايَة لِقَوْلِ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام:

﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾﴾:

أي: أَبَلَغَتْ سَفَاهَتُكُمْ وَغَبَاوَتُكُمْ وَحَمَاقَتُكُمْ غَايَاتِها، فَأَنْتُمْ تَعْبُدون مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ.

المثال السابع: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ حِكَايَةً لِقَوْلِ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام لقومه:

﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

الفاء في: ﴿أَفَلَا﴾ تَعْطِفُ على محذوف مَطْوِيّ، والتقدير: أَنْطَمَسَتْ بَصَائِرُكُمْ عَنْ إِدْرَاكِ الحقِّ الْجَلِيِّ، وذَهَبَتْ مِنْ رُؤوسِكُمْ عُقُولُكُمْ، فَأَنْتُمْ لَا تَعْقِلُونَ عَقْلاً عِلْمِيًّا، وَلَا عَقْلاً إرادِيًّا.

المثال الثامن: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ الْكَافِرِينَ وهِمْ يُعَذَّبُونَ في جَهَنَّم:

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾:

أي: لَهُمْ فِيها زَفيرٌ وشَهِيقٌ، لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ زفِيرٌ إلَّا ويتْبَعُهُ شَهِيقٌ.

ثانياً: مِنَ المجازِ الْمُرْسل:

قول الله تَعَالَىٰ:

﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾.

وقول للهِ تَعَالَىٰ:

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾﴾:

جَاءَ في هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ إطْلَاقُ لفظ «القرية»، والمرادُ أَهْلُهَا، وهـٰذا مِنْ إطْلاقِ المحَلِّ وإِرَادَةِ الْحَالِّ فِيهِ، فَهُوَ مِن المجازِ المرسَل.

ثالثاً: من الاسْتِعَارَة:

المثال الأوّل: قول الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ... ﴿١٨﴾﴾:

فِي هَـٰذِهِ الآيَةِ اسْتُعِيرَ فِعْلُ «نَقْذِفُ»: لِتَوْجِيهِ بَيَانِ الْحَقِّ، فِي حِوَارٍ جِدَالِي، وفِعْلُ «يَدْمَغُهُ» أي: يَكْسِرُ رَأسَهُ ويُخْرِجُ دِمَاغَهُ: لإِبْطَالِ الْبَاطِلِ بِبُرْهَانِ الْحَقّ.

والاسْتِعَارَتَانِ قَائِمَتَانِ عَلَىٰ تَشبيهِ حُجَّةِ الْحَقِّ بِقَذِيفَة قَاتِلَة، وَتَشْبِيهِ الْبَاطِلِ بِرَأْسِ حَيوانٍ خَبِيثٍ إِذَا أَصَابَتْهُ قَذِيفَةٌ قَاتِلَةٌ كَسَرَتْهُ وَأَخْرَجَتْ دِمَاغَهُ، وَجَعلَتِ الْحَيوان صَرِيعاً.

المثال الثاني: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ مُحَاوِرِي إبْرَاهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ عِلْيَةِ قَوْمِهِ:

﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾:

لَقَدْ جَعَلَهُمْ بَيَانُ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام يُدْرِكُونَ أَنَّهُمْ هُمُ الظَّالِمُونَ، بَعْدَ أَنْ هَزَّ عُقُولَهُمْ هَزّاً عَنِيفاً.

لَكِنَّهُمْ لَمْ يَسْتَمِرُّوا عَلَىٰ سَوَائِهِمْ، بَلِ رَجَعُوا إِلَىٰ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِن شِرْكٍ عِنَادِي، فَشَبَّهَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ حَالَهُمْ بالَّذِينَ انْقَلَبُوا فَصَارَتْ رُؤُوسُهُمْ في مَوَاضِعِ أَقْدَامِهِمْ، وَصَارَتْ أَقْدَامُهُمْ فِي مَوَاضِعِ رُؤُوسِهِمْ.

وجَاءَتِ اسْتِعَارَة عبارَةِ: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ لِلدَّلَالَةِ عَلَىٰ رُجُوعِهِم إلى مَا كانُوا عَلَيْهِ مِن بَاطِلٍ، وإصْرَارِ عَلَيْه بِعِنَاد، وعلى انْقِلَاب مَفَاهِيمِهِمْ إِلَىٰ الباطل.

رابعاً: مِنَ القصر:

المثال الأوّل: قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ أئِمَّةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ في مَكَّةَ إِبَّانَ التنزيل، إذا اسْتَمَعُوا مَا يَنْزِلُ مِن آياتٍ قُرْآنِيَّةٍ:

﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾﴾:

في هَـٰذِهِ الآية قَصْرُ اسْتِمَاعِ أَئِمَّةِ الكُفْرِ لِمَا يَنْزِلُ مِنَ القرآنِ؛ عَلَىٰ اسْتِمَاعِهِمْ لَهُ في حَالَةِ كَوْنِهِمْ يَلْعَبُونَ.

وهو قَصْرٌ حقيقيٌّ بِالنَّفْي والاسْتِثْنَاء.

المثال الثاني: قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خطاباً لِرَسُولِهِ ﷺ بِضَمِير المتكلّم العظيم فَلِلْمشركِين:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧﴾:

في هٰذِهِ الآيَةِ بَيَانُ قَصْرِ إِرْسَالِ الرُّسُلِ السَّابِقِينِ لِخاتَم المرْسَلِينَ عَلَيْهِم السَّلام عَلَىٰ كَوْنِهِمْ رِجالاً.

وهو قَصْرٌ حَقِيقيٌّ بالنَّفْي والاسْتِثْناء.

المثال الثالث: قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطاباً لِرَسُولِهِ ﷺ بِضَمِيرِ المتكلِّمِ العظيم:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾:

فِي هٰذِهِ الآيَةِ بَيَانُ قَصْر إِرْسَالِ الرُّسُلِ السَّابِقِينَ لِخَاتَم الْمُرْسَلِينَ عَلَيْهِم السَّلَام عَلَىٰ كَوْنِ الْمُوحَىٰ إِلَيْهِمْ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾.

وهو قَصْرٌ إضَافِيٌّ، أي: بالإضَافَةِ إلى ادّعَاءَاتِ المشْرِكِين. وهو قَصْرٌ بالنفي والاسْتِثْناءِ.

المثال الرابع: قول الله تَعَالَىٰ خِطاباً لِرَسُوله ﷺ:

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ... ٣٦﴾:

أي: مَا يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا مَهْزُوءاً بِهِ، وهُوَ قَصْرٌ إضَافِيٌّ بالنفي والاسْتِثْنَاء.

المثال الخامس: قول الله تَعَالَىٰ خِطاباً لرسُولِهِ ﷺ بضمير المتكلّم العظيم:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾:

فِي هٰذِهِ الآية بَيَانُ قَصْرِ إرْسَالِ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَىٰ كَوْنِهِ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ.

ويظهَرُ أَنَّهُ مِنْ قبيلِ الْقَصْرِ الإضَافِيّ، إِلَّا إِذَا كَانَ مَفْهُومُ الرَّحْمَةِ يَشْمَلُ كُلَّ وَظَائِفِ الرَّسُولِ وَمَا هُوَ مَطْلُوبٌ مِنْهُ في رِسَالَتِهِ.

المثال السادس: قول الله تَعَالَىٰ خِطاباً لِرَسُولِهِ ﷺ:

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾:

أي: مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّهُ لَا إِلَهَ لَكُمْ إِلَّا إِلَهٌ واحِدٌ، هَذَانِ قَصْرَانِ، أوّلُهُمَا قَصْرٌ إِضَافِيّ، والْقَصْرُ الثَّانِي قَصْرٌ حَقِيقِيٌّ.

خامساً: مِنْ خُرُوجِ الاسْتِفْهَامِ عَنْ أَصْلِ دَلَالَتِهِ:

المثال الأوّل: قَوْلُ اللهِ تعالَىٰ حِكَايَةً لِقَوْلِ أئمّة الكُفْرِ والشِّرْكِ طَعْناً فِي رسالَةِ الرَّسُول ﷺ:

﴿... هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾﴾:

فِي هٰذَا الْقَوْلِ اسْتِفْهَامانِ:

الاستفهامُ الْأَوّلُ: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، هٰذَا الاسْتِفْهَامُ يُرَادُ بِهِ النَّفْي، أي: فَلَا يَصِحُّ عقلاً أن يكون رسولاً لله رب العالمين.

الاستفهامُ الثاني: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾، هذا الاستفهامُ تَحْذِيرِيٌّ وتَلْوِيميٌّ من قِبَلِ أئمة الكُفْرِ لجماهيرِهم.

المثال الثاني: قول اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾؟:

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟: اسْتِفْهَامٌ، يُرَادُ بِهِ التَّلْوِيمُ والتَّثْرِيبُ والْحَثُّ على أنْ يَعْقِلُوا.

المثال الثالث: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ المشركين:

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾﴾؟:

الاستفهامُ في «أم» استفهامٌ إنكاريٌّ تَوْبيخي.

ونَظِيرُهُ قول الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ ... ﴿٢٤﴾﴾؟.

المثال الرابع: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يَحْكِي قَوْلَ المشركينَ اسْتِهْزَاءً بالرَّسُولِ ﷺ:

﴿... أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ ...﴾؟:

الاسْتِفْهَامُ فِي هَٰذِهِ الْعِبَارَةِ اسْتِفْهَامُ اسْتِهْزَاءٍ وسُخْرِيَةٍ.

المثال الخامس: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ الَّذِينَ كَفَرُوا:

﴿... أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾؟:

اسْتِفْهَامٌ يُرَادُ بِهِ النَّفْيُ، أي: لَنْ يَكُونُوا هُمُ الْغَالِبِينَ.

المثال السَّادِس: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾؟:

الاسْتِفْهَامُ فِي هَٰذِهِ الآيَةِ اسْتفهامٌ إنْكَارِيٌّ تَلْوِيمِيٌّ.

المثال السابع: قولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ حِكَايَةً لِقَوْلِ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام لِقَوْمِهِ فِي حِوَارٍ دَعَوِيّ:

﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾؟:

الاسْتِفْهَامَانِ في هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ اسْتِفْهَامٌ إنْكَارِيٌّ تَلْوِيمي.

المثال الثامن: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في بَيَانِ بَعْضِ صفاتِ داوُد عَلَيْهِ السَّلَام:

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ۝٨٠﴾؟: استِفْهَامٌ يرادُ بِهِ التَّرْغِيبُ في الشُّكْرِ والْحَثُّ عَلَيْهِ.

المثال التاسع: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خِطَاباً تَعْلِيميًّا لِرَسُولِهِ ﷺ:

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٠٨﴾؟:

عبارة: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾؟ عَرْضٌ بِلُطْفٍ ورِفْقٍ بأسْلُوب الاسْتِفْهَام.

وأَكْتَفِي بِهٰذِهِ المسْتَخْرَجَات، مَعَ وُجُودِ كثيرٍ غيرِها في السورة.

وَبِهٰذَا انْتَهَىٰ هٰذَا الْمُلْحَق والحمدُ للهِ على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



سُورَة المؤمنون

٢٣ مصحف ٧٤ نزول

وهي سورة مَكِّيَّةٌ كُلُّها



(١)

نص السورة وما فيها من فرش القراءات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ

٨ ـ ● قرأ ابن كثير: [لِأَمَانَتِهِمْ] بالإفراد.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [لِأَمَانَاتِهِمْ] بالجمع.
والمؤدّى واحد.

٩ ـ ● قرأ حمزة، والكِسَائِي، وخلف: [صَلَاتِهِمْ] بالإفراد.
وقَرَأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [صَلَوَاتِهِمْ] بالْجَمْع.

١٤ ـ ● قرأ ابْن عَامِرٍ، وشُعْبَة: [عَظْماً] بالإفراد، و[الْعَظْمَ] بالإفراد.
وقَرَأَهُمَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [عِظَاماً] بالجمع، و[الْعِظَامَ] بالْجَمْع.

أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ

٢٠ - • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [سِينَاء] بكسرِ السين.
وقرأها بَاقِي القُرَّاءِ العَشَرَةِ: [سَيْنَاء] بفتح السين.

٢٠ - • قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ورُوَيس: [تُنْبِتُ] من فعل «أنبتَ» وقرأها بَاقِي القُرَّاءِ العَشَرَةِ: [تَنْبُتُ] مَنْ فعل «نبتَ».

٢١ - • قرأ نافع، وابن عامر، وشعبة، ويعقوب: [نَسْقِيكُمْ].
وقرأها أبو جعفر: [تَسْقِيكُمْ]، وقرأها بَاقِي القُرَّاءِ العَشَرَةِ: [نُسْقِيكُمْ].
وفي هذه القراءات تَفَنُّنٌ.
والمؤدّى وَاحد.

٢٣ - • قرأ الكِسَائِي، وأبو جعفر: [مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ].
وقرأها بَاقِي القُرَّاءِ العَشَرَةِ: [مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ].

شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ

٢٦ ـ • قرأ يَعْقُوب: [كَذَّبُونِي] بإثْبَات ياء المتكلم في الوصل والوقف.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [كَذَّبُونِ] بحذف ياء المتكلم مع ملاحظتها ذِهْناً.

٢٧ ـ • قرأ حَفْصٌ: [مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ] بِتَنْوين لام «كلٍّ»، وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ].

٢٩ ـ • قَرَأَ شعبة: [مَنْزِلاً].
وقَرَأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [مُنْزَلاً].

٣٢ ـ • قرأ يَعْقُوب: [فِيهُمْ] بضمّ الهاء.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [فِيهِمْ] بكسر الهاء.

٣٢ ـ • قرأ أبو عمرو، وعاصم، وحمزة، ويَعْقوب: [أَنِ اعْبُدُوا] بكَسْرِ النون.
وقرأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [أَنُ اعْبُدُوا] بضمّ النون.

٣٢ ـ • قرأ الكِسائي، وأبو جعفر: [مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ].

مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ

٣٥ ـ • قرأ نَافِع، وحفص، وحمزة، والكِسَائي، وخلف: [مِتُّمْ].
وقرأها بَاقِي القُرَّاءِ الْعشرَةِ: [مُتُّمْ].
وهما وجهان عَربيان.

٣٦ ـ • قرأ أبو جعْفَر: [هَيْهَاتِ هَيْهَاتِ] بِكَسْر التاءِ فيهما.
وقرأهُمَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ] بفَتْح التّاء فيهما.

٣٩ ـ • قرأ يعقوبُ: [كَذَّبُونِي] بإثبات ياء المتكلّم في الوصل والوقف.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [كذّبُونِ] بحذف ياء المتكلّم مع ملاحظتِها ذهْناً.

٤٤ ـ • قرأ أبو عَمْرو: [رُسْلَنا] بإسكان السين.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [رُسُلَنا] بضمِّ السّين.

٤٤ ـ • قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [تَتْراً] بالتّنوِيْنِ وصلاً، وبإبْدالِهِ ألِفاً وقْفاً.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [تتْرَا] وصْلاً ووقْفاً.

مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ

٥٠ ـ • قرأ ابن عامر، وعاصم: [رَبْوَةٍ] بفتح الراء.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [رُبْوَةٍ] بِضَمِّ الراء.

٥٢ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو: [وأنَّ هَٰذِهِ] بفتح همزة «أنَّ». وقرأها ابنُ عامر: [وأنْ هَٰذِهِ] بفتح الهمزة وإسكان النون.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [وَإِنَّ هَٰذِهِ].

٥٢ ـ • قرأ يعقوب: [فَاتَّقُونِي] بإثبات ياء المتكلّم.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [فَاتَّقُونِ] بحذف ياء المتكلّم مع مُلاحَظَتِها ذِهْناً.

٥٣ ـ • قرأ يعقوب، وحمزة: [لَدَيْهُمْ] بضمّ الهاء.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [لَدَيْهِمْ] بِكَسْرِ الهاء.
وهُما لغتان.

٥٥ ـ • قرأ ابن عامر، وعاصم، وحمزة، وأبو جعفر: [أَيَحْسَبُونَ] بِفَتْحِ السّين.
وقرأهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [أَيَحْسِبُونَ] بِكَسْرِ السين.
وهُما لغتان.

وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾

---

٦٤ ـ • قرأ يعقوب: [مُتْرَفِهُمْ]، بضم الهاء.
وقرأها بَاقِي الرَّاءِ الْعَشرَةِ: [مُتْرَفِيهِمْ]، بكسر الهاء

٦٧ ـ • قرأ نافع: [تُهْجِرُونَ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعشرَةِ: [تَهْجُرُونَ].

٧١ ـ • قرأ يعقوب: [فِيهُنَّ] بضمّ الهاء، ووقف عَلَيْهَا بِهَاءِ السَّكْتِ بخُلْفٍ عَنْه.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشرَةِ: [فِيهِنَّ] بِكَسْرِ الهاء.
وهُمَا لُغَتَان.

أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ

٧٢ ـ • قرأ ابْنُ عامر: [خَرْجاً فَخَرْجُ].
وقرأها حمزة، والكِسَائِيُّ، وخلف: [خَرَاجاً فَخَرَاجُ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [خَرْجاً فَخَرَاجُ].

٧٢ ـ • قرأ قَالون، وأبو عمرو، والكِسَائِيُّ، وأبُو جَعْفر: [وَهْوَ] بإسْكان الهاء.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَهُوَ] بضَمِّ الهاء.
وهما لغتان.

٧٣ و٧٤ • قرأ قنبل بخلفٍ عنه، ورُويس: [إِلَىٰ سِرَاطٍ] وَ [عَنِ السِّرَاطِ]. وقرأ الأولى خلفٌ عن حمزة: بإشْمَام الصَّادِ صَوْتَ الزَّاي. وقرأ الثَّانية بإشمامِ الصاد صوت الزاي: حمزة بخلف عن خلاد.
وقرأهما بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [إِلَىٰ صِرَاطٍ] و[عَنِ الصِّرَاطِ]. وهو الثاني لقنبل، ولخلاد.

٧٧ ـ • قرأ حمزة، ويعقوب: [عَلَيْهُمْ] بضم الهاء.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ:[عَلَيْهِمْ] بكسر الهاء.

٨٢ ـ • قرأ نافع، وحفص، وحمزة، والكِسَائي، وخَلف: [مِتْنَا].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [مُتْنَا].

وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾

---

٨٥ ـ • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: [تَذَكَّرُونَ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [تَذَّكَّرُونَ]، أصْلُهَا «تتذكّرون».

٨٧ ـ • قرأ أبو عَمرو، ويعقوب: [سَيَقُولُونَ اللهُ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [سَيَقُولُونَ للهِ].

٨٩ ـ • قرأ أبو عمْرو، ويعقوبُ: [سَيَقُولُونَ اللهُ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [سَيَقُولون للهِ].

٩٢ ـ • قرأ نَافع، وشُعْبَة، وحَمْزة، والكِسَائِي، وأبو جعفر، وخلف: [عَالِمُ الْغَيْبِ] برفع «عالم».
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [عَالِمِ الْغَيبِ] بِجَرِّ «عالم».
وهما وجهانِ نَحْوِيّانِ جائزان.

وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ

٩٨ ـ • قرأ يعقوب: [يَحْضُرُونِي] بإثبات يَاء المُتَكلِّم وصلاً ووقفاً.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [يَحْضُرُونِ] بحذف ياء المتكلِّم مع مُلَاحَظَتِهَا ذِهْناً.

٩٩ ـ • قرأ يعقوب: [ارْجِعُونِي] بإثبات ياء المتكلّم وصْلاً ووقفاً.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [ارْجِعُونِ] بحذف ياء المتكلم مع ملاحَظَتِها ذهْناً.

١٠٠ ـ • قرأ نَافع، وابْنُ كثير، وأَبُو عمْرو، وابْنُ عَامر، وأبو جعفر: [لَعَلِّيَ أعْمَلُ] بفتح ياء المتكلّم.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بإسْكانِ ياء المتكلّم.

١٠٦ ـ • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [شَقَاوَتُنَا].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [شِقْوَتُنَا]، وهُمَا لغتان.

١٠٨ ـ • قرأ يعقوب: [وَلَا تُكَلِّمُونِي] بإثبات ياء المتكلّم وَصْلاً ووقفاً.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [وَلَا تُكَلِّمُونِ] بحذف ياء المتكلّم مع مُلَاحَظَتِها ذهْناً.

فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾

---

١١٠ ـ • قرأ نافع، وحمزة، والكِسَائي، وأبو جعفر، وخلف: [**سُخْرِيًّا**] بضمّ السين.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**سِخْرِيًّا**] بِكَسْرِ السين.

١١١ ـ • قرأ حمزة، والكسائي: [**إِنَّهُمْ هُمُ**] بِكَسْرِ همزة «إنَّ».
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**أَنَّهُمْ هُمُ**] بفتح همْزَة «أنَّ»، وبَيْنَهُمَا تكامل.

١١٢ ـ • قرأ ابن كثير، وحمزة، والكِسَائي: [**قُلْ كَمْ لبِثْتُمْ**].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ**].

١١٣ ـ • قرأ ابنُ كثير، والكِسَائيّ، وخَلفٌ، ووقفًا حمزة: [**فَسَلِ**].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**فَاسْأَلِ**]، وهُمَا وَجْهَان عَرَبيان.

١١٤ ـ • قرأ حمزة، والكِسَائي: [**قُلْ إِنْ لَبِثْتُمْ**].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ**].

١١٥ ـ • قرأ حمزة، والكِسَائيُّ، ويعقوب، وخلف: [**لَا تَرْجِعُونَ**] بفتح التاء وكَسْرِ الجيم.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**لَا تُرْجَعُونَ**] بضمّ التاء وفتح الجيم.

(٢)
ممّا وَرَدَ في السُنّة بِشَأنِ سورة (المؤمنون)

روى الْبَيْهَقِيُّ وَغَيْرُه مِنْ حَدِيث أنَسٍ عن النبيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:
«لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْجَنَّةَ قال: تَكَلَّمِي، فَقَالَت: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ».

(٣)
مَوضُوع سُورَةِ (المؤمِنُون)

ظَهَرَ لِي أَنّ بُؤْرَةَ مَوْضُوعِ هَـٰذِهِ السُّورَةِ بَيَانُ الْغَرَضِ مِنْ خَلْقِ الإنسان، مَعَ وَصْفِ بَعْضِ مَرَاحِلِ خَلْقِهِ، وَمَسِيرَتِهِ فِي رِحْلَتِهِ الأبديَّة باختياره الحرّ، إلَىٰ سَعَادَتِهِ، أَوْ شَقَاوَتِه، ومَعْلُومٌ أَنَّ الْغَايَةَ مِنْ خَلْقِهِ ابْتِلَاؤُهُ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ مَجَازَاتُهُ يَوْمَ الدِّين، يَوْم الْخُلُود الْأَبَدِيّ.

ودَارَ حَوْلَ هَـٰذِهِ الْبُؤْرَةِ بَيَانَاتٌ تَتَعَلَّقُ بها:

(١) فجاء فيها بَيَانُ فَلَاحِ المؤمِنِينَ، مع ذِكْرِ أَوْلَىٰ صِفَاتِهِمْ السُّلُوكِيَّة الْعَمَلِيَّة بالْبَيَان.

(٢) وَجَاء فيها بيانُ بَعْضِ مَراحِلِ خَلْقِ الإنْسَانِ حَتَّىٰ جَعْلِهِ فِي أَحْسَنِ تقويم، مع الإلْمَاحِ إلى مَسِيرَتِهِ فِي مُدَّةِ ابْتلائه، وبَيَانُ إماتَتِهِ، وبَعْثِهِ، ليلقىٰ جزاءَهُ على ما قَدَّمَ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ باخْتِيَارِهِ الْحُرّ.

(٣) وَجَاءَ فيها عَرض بَعْض آيَاتِ اللهِ في كَوْنِهِ، وعَرْضُ لَقَطَاتٍ مُوجَزَاتٍ مِن قِصَصِ بَعْضِ الرُّسل، تَمْهيداً لِبيانِ أَنَّ أَقْوَامَ الرُّسُلِ أُمَّةٌ رَبَّانِيَّةٌ وَاحِدَة.

(٤) وجاء فِيهَا بَيانُ بَعْضِ صِفَاتِ الذين يُسَارِعُونَ في الخيرات، وذِكْرٌ بإيجاز للظالمين الذين هُمْ فِي غَمْرَة، مع بيان عِقَابِ اللهِ لِمترفِيهم عقاباً مُعَجَّلاً، وكَيْفَ يُوَاجِهُونَ هـٰذَا العِقَابَ المعَجَّل.

(٥) وَجَاءَ فيها بَيانَاتٌ أخرى، كُلُّهَا ذَاتُ صِلَةٍ بِبُؤْرَةِ مَوْضُوع السورة.

(٤)
دروس سُورَة (المؤمِنُون)

بَدَا لي أنّ هَـٰذِهِ السُّورة يُمْكِنُ تَقْسِيمُها إلَىٰ (١٥) دَرساً كَمَا يلي:

الدرس الأول: الآيات من (١ ـ ١١).

وفي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ فَلَاحِ المؤمِنِينَ، مَعَ ذِكْرِ أَوْلَىٰ صِفَاتِهِمُ السُّلُوكِيَّة الْعَمَلِيَّةِ الكُبْرَىٰ بالْبَيان، وهِي صِفَاتٌ تَدُلُّ عَلَىٰ صِدْق إيمانِهِمْ.

الدرس الثاني: الآيات من (١٢ ـ ١٦).

وفي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانٌ عَنْ بَعْضِ مَرَاحِلِ خَلْقِ الإنْسَانِ من سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ، حَتَّىٰ جَعْلِهِ سَوِيًّا فِي أَحْسَنِ تَقْوِيم.

ثم بَعْدَ مُرُورِهِ مَرْحَلَةَ ابْتِلَائِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؛ يُمِيتُهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ بَعْدَ مُدَّةِ الْبَرْزَخِ يَبْعَثُهُ ـ جلَّ جَلَالُهُ ـ لِيَلْقَىٰ حِسَابَهُ، وفَصْلَ الْقَضَاءِ بِشَأْنِهِ، وَجَزَاءَهُ عَلَىٰ مَا قَدَّمَ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ.

الدرس الثالث: الآيات من (١٧ ـ ٢٢).

وفي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ عَرْضُ بَعْضِ آيَاتِ رُبُوبِيَّةِ اللهِ فِي كَوْنِهِ، وبَعْضِ مَا أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ مِنْ رِزْقٍ وَغَيْرِهِ.

الدرس الرابع: الآيات من (٢٣ ـ ٣٠).

وفي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ عَرْضُ لَقَطَاتٍ مُوجَزَاتٍ من قصَّةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَام.

الدرس الخامس: الآيات من (٣١ ـ ٤١).

وفي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ عَرْضُ لَقَطاتٍ مُوجزَاتٍ من قِصَّةِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ عَادٍ، دُونَ تَصْرِيح بِذِكْرِ اسْمِ هُود عَلَيْهِ السَّلَام واسْمِ قَوْمه.

الدرس السادس: الآيات من (٤٢ ـ ٤٤).

وفي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانٌ مُجْمَلٌ عَنْ رُسُلٍ أَرْسَلَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بَعْدَ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَام لِعِدَّةِ أقوام.

وعَنْ رُسُلٍ تَتَابَعَتْ بَعْدَ ذَلِكَ، وَأَنَّ اللهَ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ أَهْلَكَ أَقْوَامَهُمُ الَّذِينَ كَذَّبُوهم بِحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ.

الدرس السابع: الآيات من (٤٥ ـ ٤٩).

وفي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ إيجازٌ في لَقَطاتٍ لِقِصَّةِ موسَىٰ وهَارُون عَلَيْهِما السَّلَام، وإرْسَالِهِمَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ومَلَئِهِ، مع بَيَانِ إِيتَاءِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ كتابَ التَّوْرَاة رَغْبَةً فِي هِدَايَةِ الَّذِينَ كَلَّفَهُمُ اللهُ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِ.

الدرس الثامن: الآية (٥٠).

وفيها لَقْطَةٌ عَنْ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأُمِّهِ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السلام، وإيوائِهِمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قرارٍ ومَعِينٍ.

الدرس التاسع: الآيات من (٥١ ـ ٥٦).

وفي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ أَنَّ اللهَ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ خَاطَبَ الْمُرْسَلِينَ جَمِيعاً بِأَنَّ أَقْوَامَهُمْ أُمَّةٌ رَبَّانِيَّةٌ واحِدَة، لَكِنَّ أقوامَهُم لَمْ يَعْمَلُوا بِهـٰذَا التكليف الرَّبَّانِي، بَلْ تَفَرَّقُوا إِلَىٰ أَحْزَابٍ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ، مع تَوْصِيَةِ الرَّسُولِ ﷺ بأَسْلُوبٍ يُعَامِلُهُمْ بِهِ.

الدرس العاشر: الآيات من (٥٧ ـ ٦٧).

وفي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانٌ لِصِفَاتِ الذين يُسَارِعُونَ في الخيرات.

وفيها ذِكْرٌ بإيجازٍ للظَّالِمِينَ الّذِينَ هُمْ في غَمْرَةٍ، مَعَ بَيَانِ عِقَابِ اللهِ لِمُتْرَفِيهِمْ، وَكَيْفَ يُوَاجِهُونَ هٰذَا الْعِقَاب.

الدَّرْسُ الحادي عشر: الآيات من (٦٨ ـ ٧٧).

وفي آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ بَيَانٌ عَنْ حَالِ الْكَافِرِينَ المشركين إِبَّانَ تَنْزِيلِ السُّورَةِ، وحَالِ الرَّسُولِ ﷺ مَعَهُمْ.

الدَّرْس الثاني عشر: الآيَاتُ من (٧٨ ـ ٨٣).

وفي آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ لَمْحَةٍ مِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الْبَعْثَ والحياة الْأُخْرَىٰ حَقٌّ، مَعَ عَرْضِ قَوْلِ مُنْكِرِي ذَلِكَ.

الدَّرْس الثالث عشر: الآيات من (٨٤ ـ ٩٢).

وفي آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ تَعْلِيمُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ ﷺ حِوَاراً جَدَلِيًّا يُحَاوِرُ بِهِ الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا دَرَكَةَ الميْؤُوس مِنِ اسْتِجَابَتِهِمْ.

وهَدَفُ هٰذَا الحوار إِثْبَاتُ مِلْكِيَّة اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلأَرْضِ وَمَنْ فيها، وإِثْبَاتُ رُبُوبِيَّةِ الله ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ لِلسَّمَاوَاتِ والْعَرْشِ الْعَظِيم، وَأَنَّ بِيَدِهِ تبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْء.

وفيها بَيَانُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، مَعَ تَقْدِيمِ حُجَّةٍ عَقْلِيَّةٍ على رُبُوبِيّةِ اللهِ الواحِدَة، المسْتَلْزِمَةِ أَنَّهُ هُوَ الإِلَهُ الَّذِي لَا إِلَهَ في الوجُود كُلِّه غَيْرُه.

الدرس الرابع عشر: الآيات من (٩٣ ـ ٩٨).

وفي آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ تَعْلِيمٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ؛ تَعْلِيمَاتٍ تُلَائِمُ الْمَرْحَلَةَ الَّتِي نَزَلَتْ فِيها السورة.

الدرس الخامس عشر: الآيات من (٩٩ ـ ١١٨) آخر السورة.

وفي آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ لَقَطاتٌ مِنْ أَحْدَاثٍ تَبْدأ عِنْدَ الْموت، ثُمَّ

تَكُونُ بَعْدَ الْبَعْث، ثُمَّ مَا يَلْقَىٰ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ، وَمَا يُقَالُ لَهُمْ، وَمَا يُجِيبُونَ بِهِ، وَمَا يُرَدُّ بِهِ عَلَيْهِم.

وفيها بَيَانُ مَا يُسْأَلُهُ المبْعُوثُونَ عَنْ مُدَّةِ بَقَائِهِمْ فِي الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهِمْ.

وفيها بَيَانٌ إقْنَاعِيٌّ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ ضَرُورَةِ الْيَوْمِ الآخِرِ، مَعَ إِنْذَارٍ لِلْمُشْرِكِينَ بأَنَّهُمْ لَا يُفْلِحُونَ.

وفيها تَعْلِيمٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ أَنْ يَقُول: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

* * *

(٥)
التدبُّر التحليلي للدّرس الأول من دُروس سورة (المؤمنون)
الآيات من (١ ـ ١١)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾:

القراءات:

(٨) • قرأ ابْن كَثير: [**لأَمَانَتِهِمْ**] بالإفراد، وهو اسْمُ جِنسْ.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**لِأَمَانَاتِهِمْ**] بالجمع.

والمؤدّى واحد.

(٩) • قرأ حَمْزَة، والكِسَائي، وخلَف: [صَلَاتِهِمْ] بالإفراد، وهو اسْمُ جنس.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [صَلَوَاتِهِمْ] بالجمع، والمؤدّىٰ وَاحد.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ فَلَاحِ المؤمنين، مع ذكْرِ أولَىٰ صِفَاتِهِم السُّلُوكِيَّةِ الْعَمَلِية الكُبْرَىٰ بالْبَيان، وهي في السُّلُوك مِن آثَارِ صِدْقِ إيمانِهِمْ، وصِحَّةِ يقينِهِمْ باللهِ وباليَوْمِ الآخر.

وجاء فِي آيات هـٰذَا الدَّرْسِ مَا رَوَاه الإمَامُ أحمد، وعبد الرزَّاق، والتّرمِذِيُّ، والنَّسَائِيُّ، والحاكِمُ وصَحَّحه، وغَيْرُهم عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال:

(كَانَ إِذَا نَزَلَ عَلى رَسُولِ اللهِ ﷺ الْوَحْيُ؛ يُسْمَعُ عِنْدَ وَجْهِهِ كَدَوِيِّ النَّحْلِ، فَأُنْزِلَ عَلَيْهِ يَوْماً، فَمَكَثْنَا سَاعَةً، فَسُرِّيَ عَنْهُ، فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ فَقال:

«اللَّهُمَّ زِدْنَا وَلَا تَنْقُصْنَا، وَأَكْرِمْنَا وَلَا تُهِنَّا، وأَعْطِنَا وَلَا تَحْرِمْنَا، وَآثِرْنَا وَلَا تُؤْثِرْ عَلَيْنَا، وَأَرْضِنَا وَارْضَ عَنَّا».

ثُمَّ قَالَ:

«لَقَدْ أُنْزِلَ عَلَيَّ عَشْرُ آيَاتٍ مَنْ أَقَامَهُنَّ دَخلَ الجنَّةَ».

ثُمَّ قرأ:

«قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. . . .» حتَّىٰ خَتَمَ الْعَشْر).

أُطْلِقَ عَلَيْهَا عشر: بِاعْتِبَارِ أَنَّ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ تَتِمَّةٌ فِي المعْنَىٰ للعَاشِرة.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾: «قَدْ» حرْفُ تَحْقِيقٍ وتوكيد.

«أَفْلَحَ»: أي: فاز ونجا وظَفِرَ، وأَصْلُ الْفَلَاحِ الْبَقَاءُ في النَّعِيمِ والخير. قالَ الأزهَرِي: وإنَّما قِيلَ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ مَفْلِحُون: لِفَوْزِهِمْ بِبَقَاء الْأَبَدِ، أي: سُعَداء.

فالمعنى: قَدْ فَازَ المؤمِنُون بما يُرِيدُونَ، وظَفِرُوا بنَعِيمِ الْآخِرَةِ الأبَدِي.

والمؤمِنُونَ: هُمُ الَّذِينَ صَدَّقُوا وأَذْعَنُوا بِقُلُوبِهِمْ، واتَّجَهَتْ عَوَاطِفُهُمْ للتَّسْلِيمِ الْكَامِلِ، بِكُلِّ مَا يَجِبُ الإيمانُ بِهِ في الإسلام، فَصَارَتْ إرَادَاتُهُمْ تَتَوَجَّهُ بِدَوافِعَ مِنْ إيمانِهِم.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُبَيِّنُ بَعْضَ صِفَاتِ المؤمنين في السُّلُوكِ الظَّاهر:

• ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾:

أي: الَّذِينَ يُؤَدّونَ صَلاتَهُمْ مِنَ الْفَرَائِضِ والنَّوافِلِ، ويَكونُونَ خاشعين فيها.

الْخُشُوع: السُّكُونُ، والْخُضُوعُ، والْخَوْفُ، والتَّذَلُّل.

والْخَاشِع: الّذِي يَرْمِي بِبَصَرِهِ إِلَىٰ الْأَرْض، ويَخْفِضُ طَرْفَه.

وأَصْلُ الْخُشُوعِ وَصْفٌ يَكُونُ فِي الْقَلْبِ سُكُوناً وخُضُوعاً للهِ وَخَوْفاً مِنْهُ، فَيَكُونُ لَهُ في الظَّاهِرِ سُكُونٌ وخُضُوعٌ وخَفْضُ طَرْفٍ إِلَىٰ الْأَرْض.

ويَدُلُّ عَلَىٰ هٰذَا مَا رُوِيَ مِنْ أَنَّ سعيد بن المسيّب؛ رَأَىٰ رَجُلاً كَثِيرَ الْحَرَكَةِ فِي الصَّلاةِ، فقال: «لَوْ خَشَعَ قَلْبُ هٰذَا لَخَشَعَتْ جَوَارِحُهُ».

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابِعُ بَيَانَ بَعْضِ صِفَاتِ المؤمنين في السُّلوك الظاهر:

• ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾:

اللَّغْوُ: مَا لَا يُعْتَدُّ بِهِ من كلامٍ وغَيْرِهِ، إذْ لَا فَائِدَةَ مِنْه.

ومِنَ اللَّغْوِ إضَاعَةُ الْوَقْتِ بِمُشَاهَدَة لاعِبي كُرَةِ الْقَدَم في مُنَافَسَاتِهِمْ، وَنَحْوِهِمْ مِنَ اللَّاعِبِين، ومُشَاهَدَةُ التَّمْثِلِيَّات الَّتِي لَا فَائِدَةَ مِنْهَا إلَّا التَّسْلِيَةُ وإضَاعَةُ الْوَقْت.

مُعْرِضُونَ: الإعْرَاضُ حَالَةٌ وُسْطَىٰ بَيْنَ الإقْبَال والإدْبار، أي: يَكُفُّونَ أَنْفُسَهُمْ عَنْ إضَاعَةِ أَوْقَاتِهِم بأيّ لَغْوٍ لا فَائِدَةَ فِيهِ، وَلَا خَيْرَ يُرْجَىٰ مِنْهُ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابِعُ بَيَانَ بَعْضِ صِفَاتِ المؤمِنِينَ في السُّلُوك الظَّاهر:

• ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤﴾: الْمُرَادُ بالزَّكَاةِ هُنَا بَذْلُ المالِ لِلْفُقَرَاءِ والْمَسَاكِينِ وَذَوِي الْحَاجَاتِ وَفِي سَبِيلِ اللهِ، مِنْ فُضُولِ الأَمْوَالِ الَّتِي يَمْلِكُهَا المؤمِنُ.

وقَدْ جَاءَت الدَّعْوَةُ إِلَىٰ تَأْدِيَةِ الزكَاةِ مِنَ الأَمْوَالِ مُنْذُ أوائِلِ الْعَهْدِ الْمَكِّي، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ دَعْوَةً إِلَىٰ الْبَذْلِ مِنْ فُضُولِ الأَمْوَالِ فِي وُجُوهِ الْخَيْرِ، الَّتِي أَوْصَىٰ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنْ يَبْذُلَ ذَوُو السَّعَةِ المؤمِنُونَ فيها، دُونَ تَحْدِيدِ المقْدَارِ مِنْ كُلِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الأَمْوَال، وَدُونَ تَحْدِيدِ الزَّمَنِ الَّذِي إِذَا مَضَىٰ وَجَبَتْ عَقِبَهُ الزَّكاة، لِأَنَّ فَرْضَ الزَّكَاةِ الَّتِي هِي رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ الإِسْلَامِ، مَعَ تَحْدِيد مَقَادِيرها، والأَنْصِبَةِ الَّتِي تَجِبُ فِيهَا زَكَاةُ الأَمْوَال؛ قَدْ كَانَ فِي أوائِلِ الْعَهْدِ الْمَدَنِي، فَكُلُّ ما كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ فَهُوَ دَعْوَةٌ عَامَّةٌ إِلَىٰ بَذْلِ الأَمْوَالِ في وجُوهِ الْخَيْرِ.

ولفْظُ «الزَّكَاةِ» يُطْلَقُ في اللُّغَةِ عَلَىٰ مَعْنَيَيْنِ: الطَّهارَةِ، والنَّماء، وَتَأْدِيَةُ الزَّكاة تُطَهِّرُ النُّفُوسَ مِنْ دَاءِ الشُّحّ، وتُطَهِّرُ الْمَالَ مِمَّا أَوْجَبَ اللهُ فِيهِ مِنْ بَذْلٍ في وُجُوهِ الْخير، ويُكَافِئُ اللهُ عَلَيْهَا بِتَنْمِيَةِ أموال الْبَاذِلِ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ، وَيُضَاعِفُ الله بِفضْلِهِ ثَوابَ الْبَاذِل أَضْعَافاً مُضَاعَفَة.

وقد جَاءَ فِي القرآن ذِكْرٌ للزَّكَاةِ عَلَىٰ لِسَانِ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام، وأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَوْصَاهُ بالصَّلَاةِ والزَّكاة، وَكَانَ هـٰذَا حِينَ أَنْطَقَهُ اللهُ وَهُوَ طِفْلٌ (الآيات من ٢٩ ـ ٣٣ من سورة مَرْيم).

وَجَاءَ فِيهِ أَنَّ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَام كَانَ يأمُرُ أَهْلَهُ بالصَّلَاةِ والزَّكَاة (الآية ٥٥ من سورة مريم).

فالزَّكَاةُ مِنْ شَرَائِعِ اللهِ في الرِّسَالَاتِ السَّابقاتِ.

• ﴿لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾: أي: لِتَأْدِيَةِ الزَّكَاةِ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فاعِلُون، اللَّامُ لَامُ التقويَة، لِتَقَدُّمِ المعْمُولِ عَلَىٰ الْعَامِلِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابِعُ بَيَان بَعْضِ صِفَاتِ المؤمنين في السُّلُوك الظَّاهر:

• ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧﴾:

الْفُرُوج: جَمْعُ «فَرْج» وهُو العضْوُ التَّناسُلِيُّ مِنَ الرَّجُلِ، والْعُضْوُ التَّنَاسُلِيُّ مِنَ الْمَرْأَة، ولَكِنَّ الْحَدِيثَ هُنَا عَنِ الرِّجال، وَجَاء في الْقُرْآن تَخْصِيصُ النساء بالذّكْر في الآية (٣٥) من سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول).

حِفْظُ الشَّيْء: يَكُونُ بِصِيَانَتِهِ، وَبِالمواظَبَةِ عَلَىٰ رِعَايَتِهِ، وكَفِّهِ عَمَّا يَجْلُبُ ضَرَراً أَوْ أذىً، ومَنْعِهِ مِنْ أَنْ يَسْقُطَ في الْمُوبقاتِ الْمُهْلِكَات.

وحِفْظُ الْفُرُوجِ في الدِّينِ يكُونُ بِصِيَانَتِهَا وإمْسَاكِهَا عَنْ فِعْلِ مَا حَرَّمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فيها، كالزِّنا، وإتْيَانِ الذُّكُورِ شَهْوَةً مِنْ دُوْنِ النِّسَاءِ، وإتْيَانِ الْبَهَائِمِ، وإتيان النِّسَاء في أَدْبَارِهِنَّ.

• ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦﴾:

أي: والَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ، مِنْ إتْيَانِ أَحَدٍ - أُنْثَىٰ أَوْ ذَكَرٍ - شَهْوَةً؛ إِلَّا قَصْراً عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ بِعَقْدٍ شَرْعِيّ، أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ مِنْ إِمَاءٍ، فإنَّهُمْ إِذَا جَامَعُوا زَوجَاتِهِمْ أَوْ إِمَاءَهُمْ، عَلَىٰ الْوَجْهِ المأذُونِ بِهِ شَرْعاً؛ فإنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ.

وقد اتَّفَقَتِ الدُّوَلُ عَلَىٰ إلْغاء نِظَام الرَّقِيقِ، فَلَا وُجُودَ اليومَ لِلْإمَاءِ، وهٰذَا أَمْرٌ حَسَنٌ، لِأَنَّ الإسْلَامَ حَثَّ عَلَىٰ عِتْقِ الأرِقَّاء بِصُورَةٍ إفْرَادِيَّةٍ، وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْحِكْمَةِ إلْغَاءُ نِظَام الرَّقِيقِ مِنْ طَرَفِ المسْلِمينَ فَقَط، بَيْنَمَا هو أَحَدُ شَرَائِعِ الْأُمَمِ والشُّعُوبِ غَيْرِ الْمُسْلِمَة، فإذا حَارَبُونَا لَمْ يَخْشَوْا على أَحَدٍ مِنْهُمْ أَنْ يُسْتَرَقَّ فَيَكُونَ عَبْداً فِي أَيْدِي المسلمين.

مَلُومِينَ: جَمْعُ «مَلُوم»، وهُوَ اسْمُ «مَفْعُولٍ»، من فعل «لَامَهُ»، أي: وجَّهَ لَهُ لَوْماً على ذَنْبٍ ارْتَكَبَهُ.

• ﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ۝٧﴾:

أي: فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ الْحَدِّ الَّذي أَقَامَهُ اللهُ لِعِبَادِهِ، فأَرَادَ مُعَاشَرَةَ غَيْرِ زَوْجَتِهِ أوْ مَا مَلَكَتْ يَمِينُهُ مِنَ النِّسَاءِ، في فُرُوجٍ أَوْ أَدْبَارٍ؛ فَأُولَئِكَ الْبُعَدَاءُ الْعُصَاةُ المتَسَفِّلُونَ: هُمُ الْعَادُونَ الظَّالِمُونَ، الْمُتَجَاوِزُونَ لِلْحَدِّ المأْذُونِ بِهِ شَرْعاً فِي السُّلُوكِ الإرادي.

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابِعُ بَيَانَ بَعْضِ صِفَاتِ المؤمنين في السُّلُوكِ الظَّاهِرِ:

• ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾﴾:

الْأَمَانَةُ: تُطْلَقُ في اللُّغَةِ عَلَىٰ الْوَفَاءِ، وتُطْلَقُ على الْوَدِيعَة.

فَكُلُّ مَا يُسْتأْمَنُ الإنسانُ عَلَيْهِ، مِنْ قَوْلٍ، أَوْ سِرٍّ، أو خَبَرٍ، أو تَكْلِيفٍ؛ هُوَ أَمَانَة، والْوَفَاءُ بِتَحْقِيقِ مَطْلُوبِ مَنِ اسْتَأْمَنَهُ: أَمَانَةٌ، وهٰذَا هُوَ حِفْظُهَا وَرِعَايَتُهَا.

وَكُلُّ وَدِيعَةٍ تُوضَعُ عِنْدَ الإنْسَانِ هِيَ أَمَانَة، ورعايَتُهَا تَكُونُ بِحِفْظِها، وَتَأْدِيَةِ مَطْلُوبِ صَاحِبِ الْوَدِيعَةِ بِشَأْنِهَا.

وبالتَّوَسُّعِ في مَفْهُومِ الْأَمَانَةِ؛ نُلَاحِظُ أَنَّ اللهَ جَلَّ جَلَالُهُ أَعْطَىٰ الْإِنْسَانَ الإرَادَةَ الْحُرَّةَ، وَجَعَلَهَا أَمَانَةً عِنْدَهُ، وكَلَّفَهُ أَنْ لَا يَخْتَارَ بِهَا مَا فِيهِ مَعْصِيَةٌ لَهُ، فِي السُّلُوكِ الْبَاطِنِ والظَّاهر، وَحَذَّرَهُ إِذَا اخْتَارَ معصيتَهُ مِنَ الْعِقَابِ العادل عَلَيْهَا، وأَطْمَعَهُ إِذَا اخْتَارَ طَاعَتَهُ في مَا أَمَرَ بِهِ وَنَهَىٰ عَنْهُ؛ بِأَنْ يَجْزِيهِ ثواباً عَظِيماً يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وعظيم سُلْطَانه، يَوْمَ الدِّينِ في جنَّاتِ النعيم، مع بَعْضِ ثوابٍ مُعَجَّلٍ فِي الدُّنْيَا، إِذا اقتضت حِكْمَتُهُ ذلك.

وكُلُّ جَارِحَةٍ فِي الْإِنْسَانِ مِنَ الْجَوَارِحِ الظَّاهِرَة، والجَوارحِ الباطِنَةِ؛ هِي أَمَانَةٌ عِنْدَهُ، لِأَنَّهَا مِلْكٌ للهِ، وَقَدْ جَعَلَهَا اللهُ وَدِيعَةٌ عِنْدَهُ، وَجَعَلَ لاسْتِخْدَامِهَا وَالانْتِفَاعِ بِهَا شُرُوطاً، وَكُلُّ مُخَالَفَةٍ لِهٰذِهِ الشُّرُوطِ خِيَانَةٌ لِلأَمَانَةِ.

العَهْدُ: يُطْلَقُ الْعَهْدُ في اللُّغَةِ عَلَىٰ كُلِّ مَا بَيْنَ الْعِبَادِ مِنْ مَوَاثِيقَ، وَيُطْلَقُ على الوصيَّة، وعلى اليمين، وعلى الوفاء، وعلى الْحِفَاظِ ورِعَايَةِ الْحُرْمَةِ، والْأَمَان.

ويُطْلَقُ الْعَهْدُ عَلَىٰ مَا يَلْتَزِمُ بِهِ الْعَبْدُ تُجاهَ رَبِّهِ، كالمبايعَاتِ مع الرسُولِ ﷺ.

أمَّا الْعَهْدُ بَيْنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وبَيْنَ عِبَادِهِ المكلّفِينَ المَوْضُوعِينَ في الحياةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَان؛ فَقَدْ تَضَمَّنَ مَا يلي:

(١) أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ وبِمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِهِ، عَلَىٰ أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ المبلِّغِين عَنْهُ، المؤيَّدِينَ مِنْهُ بالْمُعْجِزَاتِ والآيَاتِ الْبَاهِرَات، مُعْتَرِفِينَ مُذْعِنِينَ.

(٢) أَنْ يَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِعِبَادَتِهِ سِوَاهُ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُه.

(٣) أَنْ لَا يَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ، بِطَاعَتِهِ والاسْتِجَابَةِ لِوَسَاوِسه واتِّبَاعِ خُطُوَاتِهِ.

فَمَنْ قَالَ: «لَا إلَه إلّا اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ» مُؤْمِناً بِهَا قَلْبُهُ؛ فَقَدْ أَعْطَىٰ اللهَ عَهْداً بِكُلِّ ذَلِكَ، وَهـٰذِهِ بَيْعَةٌ بَيْنَ الإنْسَانِ وَرَبِّهِ، وَهُوَ مُطَالَبٌ بالْوَفَاءِ بها.

﴿رَٰعُونَ﴾: أي: حَافِظُونَ، بِمُقْتَضَىٰ حُقُوق الْأَمَانَاتِ، وحُقُوقِ الْعَهْد، يُؤَدُّونَ وَاجِبَاتِ الأمَانَاتِ والْعُهُود، ويَجْتَنِبُونَ مَا نُهُوا عَنْهُ فيها.

رِعَايَةُ الشَّيْءِ: تكُونُ بِحِفْظِهِ، وبالْقِيَامِ بِمَا يَلْزَمُ له من حِمَايَةٍ وَنَمَاءٍ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابِعُ بَيَانَ بَعْضِ صِفَاتِ المؤمِنِينَ في السُّلُوكِ الظَّاهر:

• ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾:

أي: والَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِم الْخَمْسِ الْمفْرُوضَةِ فِي كُلِّ يَوْم وَلَيْلَةٍ، يُحَافِظُونَ عَلَىٰ أَدَائِهَا فِي أَوْقَاتِهَا بِشُرُوطِهَا وَأَرْكَانِهَا، ما اسْتَطَاعُوا إِلَىٰ ذَلِكَ سَبِيلاً.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُبَيِّنُ ثَوَابَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ في جَنَّاتِ النعيم:

• ﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ الْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾:

الْوَارِثُ: آخِذُ الشَّيْءِ دُونَ عِوَضٍ، مِمَّنْ كَانَ مَالِكاً لَهُ فَسُلِبَتْ مِلْكِيَّتُهُ بِموتٍ أَوْ غَيْرِهِ، كالْمَغْلُوبِ فِي الْقِتَالِ يَأْخُذُ الْغَالِبُ مَا كَانَ مِلْكاً لِلْمَغْلُوب مِيرَاثاً.

والميراثُ عَطاءٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ للوارِث، لِأَنَّ مِلْكَ كُلِّ شيءٍ فِي الْوُجُودِ هُوَ للهِ خَالِقِ كُلِّ شيءٍ في الوجود سِوَاهُ، وهُوَ عَطاءٌ بِدُونِ عِوَض.

وحِينَ يَمُوتُ الميِّتُ تَصِيرُ كُلُّ مُمْتَلكَاتِهِ الَّتِي يَمْتَلِكُهَا امْتِلَاكاً صُورِيًّا بِتَمْلِيكِ اللهِ لَهُ؛ خَالِيَةً مِنْ مِلْكِ غَيْرِ اللهِ لَهَا، وَقَدْ وَصَفَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هٰذَا مِيرَاثاً لَهُ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾: (آل عمران/٣ مصحف) الآية (١٨٠).

وقَدْ وَزَّعَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا كَانَ مِلْكاً لِلْمَيِّتِ مِيرَاثاً لِمَنْ جعَلَ لَهُمُ الْحُقُوقَ فِي تركَتِهِ.

والمؤمِنُونَ الَّذِينَ جَاءَتْ صِفَاتُهُمْ فِي الآيات من (٢ ـ ٩) جَعَلَهُمُ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ أعظَمَ الْوَارِثِينَ يَوْمَ الدِّينَ، إِذْ يَجعَلُهُمْ في الْفِرْدَوسِ مِنْ جَنَّاتِ النَّعِيم خالِدِينَ بِلَا نِهايَة.

وأُلَاحِظُ فِي هٰذَا الْمِيرَاثِ مَعْنَيَيْن:

المعْنَىٰ الأول: أَنَّهُ هِبَةٌ مِنَ اللهِ مِنْ غَيْرِ عِوَض، لِأَنَّ مَا يُقَدِّمُهُ المؤمِنُونَ مَهْمَا قَدَّمُوا؛ لَا يُكافِئُ نِعْمَةَ حَاسَّةٍ مِنْ حَوَاسِّهِمُ الَّتِي أَنْعَمَ اللهُ بِهَا عَلَيْهِمْ في الدُّنيا. فالجزاءُ يَوْمَ الدِّينِ عَلَىٰ مَا قَدَّمُوا مِنْ أَعْمَالٍ صَالِحَةٍ فِي الدُّنْيَا، هُوَ فَيْضُ عَطَاءٍ مِنَ اللهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ.

الْمَعْنَىٰ الثَّانِي: أَنَّ اللهَ أَعَدَّ لِكُلِّ عِبادِهِ في الْفِرْدَوسِ أَنْصِبَةً يَنَالُونَهَا إِذَا حَقَّقُوا فِي أَنْفُسِهِمْ شُرُوطَ الظَّفَرِ بِها.

ولَكِنَّ أَكْثَرَ الْعِبَادِ لَا يُحَقِّقُونَ شُرُوطَ الظَّفَرِ بِهَا، فَيَمْنَحُ اللهُ أَنْصِبَتَهُمُ الْمُقَدَّرَةَ لِلَّذِينَ حَقَّقُوا فِي أَنْفُسِهِمْ شُرُوطَ الظَّفَرِ بِالْفِرْدَوس، بفضل الله.

الْفِرْدَوْس: رَبْوَةٌ فِي الجنَّة، وأَوْسَطُهَا، وأفْضَلُهَا، وأعْلَىٰ مَنَازِلِهَا.

ولَفْظُهُ يُذَكَّرُ وَقَدْ يُؤَنَّثُ.

روى البخاري ومسلم عَنْ أبي هريرة قَال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

«إِذَا سَأَلْتُم الله فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ وَسَطُ الْجنَّةِ، وأعْلَىٰ الْجنَّة، وفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمن، ومِنْهُ تُفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجنَّةِ».

وروى الإمام أحْمَدُ، والترمِذِيُّ، والحاكِمُ، والبيهقيُّ، وغيرهم، عَنْ عبادة بْنِ الصامِتِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:

«إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، كُلُّ دَرَجَةٍ مِنْهَا مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، والفِرْدَوْسُ أَعْلَاهَا دَرَجَةً، ومِنْ فَوْقِهَا يَكُونُ الْعَرْش، وَمِنْهُ تُفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ الْأَرْبَعَة، فإِذَا سَأَلْتُمُوا الله فاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوس».

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الأول من دُرُوس سورة (المؤمنون).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(٦)
التدبُّر التحليلي للدَّرس الثاني من دُروس سورة (المؤمنون) الآيات من (١٢ ـ ١٦)

قال اللهُ عَزَّ وَجلَّ:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾:

القراءات:

(١٤) • قرأ ابن عامر، وشُعْبة: [عَظْماً] بالإفراد. و[الْعَظْمَ] بالإفراد.

وقرأهما بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [عِظاماً] بالجمع. و[الْعِظَامَ] بالجمع.

والمؤدىٰ واحد، لِأَنَّ الإفرادَ عَلَىٰ مَعْنَىٰ الجنس.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانٌ عَنْ بَعْضِ مَرَاحِلِ خَلْقِ الإنْسَانِ من سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ، حَتَّىٰ جَعْلِهِ سَوِيًّا فِي أَحْسَنِ تَقْوِيم.

ثُمَّ بَعْدَ مُرُورِهِ مَرْحَلَةَ ابْتلَائِهِ في الحياة الدُّنيا؛ يُمِيتُهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ بَعْدَ مُدَّةِ الْبَرْزَخِ يَبْعَثُهُ اللهُ جَلَّ جَلالُهُ، لِيَلْقَىٰ حِسَابَهُ وَفَصْلَ الْقَضَاءِ بِشَأْنِهِ، وَجَزَاءَهُ عَلَىٰ مَا قَدَّمَ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُشِيراً إِلَىٰ أَطْوَارِ خَلْقِ الإنْسَانِ بَعْدَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَام وحَوَّاء:

• ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾:

«الواو» هُنَا عَاطِفَةٌ مَوْضُوعٍ عَلَىٰ مَوْضُوعٍ، و«اللّامُ» في ﴿لَقَدْ﴾ واقِعَةٌ فِي جواب قَسم مَنْوي. و«قَدْ» حَرْفُ تَحْقِيقٍ يُفِيدُ زِيَادَةَ التوكيدِ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ الْقسم.

يَتَحَدَّثُ رَبُّنَا بِضَمِير المتكلِّم الْعَظِيم بِعِبَارَةِ: ﴿خَلَقْنَا﴾، لِلْإِشَارَةِ إِلَىٰ عَظَمَةِ هـٰذَا الْخَلْقِ تَدْبيراً وَتَقْدِيراً وَقَضَاءً، وَتَنْفِيذاً وَمُتَابَعَةً مع أصْغَرِ وَحْدَةٍ زَمَنِيَّةٍ تَمُرُّ فِيها أَطْوارُ خَلْقِ الإنْسَان، ثُمَّ حَيَاتُهُ، ثُمّ مَوْتُهُ ثُمَّ بَعْثُهُ، وَمَا يَجْرِي بَعْدَ ذَلِكَ إِلَىٰ مَا لَا نِهَايَةَ لَهُ.

﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾: السُّلَالَةُ مَا اسْتُلَّ مِنَ الشَّيْءِ وانْتُزِعَ بِرِفْقٍ، كانْتِزَاعِ الشَّعْرَةِ مِنَ الْعَجِينِ الطَّرِيِّ اللَّيِّن. وَهَكَذَا تُسْتَلُّ أغْذِيَةُ النَّبَاتَاتِ مِنَ الطِّينِ، أي: مِن الماءِ المخْتَلِطِ بِعَنَاصِرِ تُرَاب الأَرْض، ضِمْنَ نِظَام عَجِيبٍ يَشْتَمِلُ عَلى آيَاتٍ مُعْجِزَاتٍ بَاهِرات. وَهَكَذَا تُسْتَلُّ عَنَاصِرُ بِنَاءِ الْأَجْسَادِ مِنَ الْأَغْذِيَةِ ضِمْنَ نِظَام عجيبٍ مُذهِشٍ يَشْتَمِلُ عَلَىٰ آيَاتٍ مُعْجِزَاتٍ باهِرَاتٍ، وَهَكَذَا تُسْتَلُّ النُّطْفَةُ المنَوِيَّةُ مِنَ الْجَسَدِ ضِمْنَ نِظَامِ عَجِيبٍ مُذهِشٍ يَشْتَمِلُ عَلَىٰ آيَاتٍ مُعْجِزَاتٍ بَاهِرَات.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بَيَانَ بَعْضِ أَطْوَارِ خَلْقِ الْإِنْسَان:

• ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣﴾:

النُّطْفَةُ: والنُّطَافَةُ: في اللُّغَة القليل من الماء، والمرادُ بالنُّطْفَةِ هُنَا مَنِيُّ الرَّجُلِ.

فِي قَرَارٍ: أيْ: في مَكَانٍ يَثْبُتُ فِيهِ الشَّيْء، وهُوَ الْمَكَانُ الَّذِي يَثْبُتُ فِيهِ جُزْءٌ صَغِيرٌ مِنَ النُّطْفَةِ بَعْدَ تَلْقِيحِهَا لِبُيَيْضَةِ الْمَرْأَةِ، في جِدَارِ الرَّحِمِ بِعِنَايَةِ اللهِ وَرِعَايَتِهِ.

مَكِينٍ: أي: ثَابِتٍ مُتَمَكِّنٍ بألْطَاف اللهِ مِن المكَانِ الّذِي هُوَ فِيهِ، وَإِذَا كَانَ الْقَرَارُ الَّذِي تُجْعَلُ فِيهِ النُّطْفَةُ مَكِيناً كَانَتْ هِي ثَابِتَةً فِيهِ بِعِنَايَةِ اللهِ وحِفْظِهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بَيَانَ بَعْضِ أَطْوَارِ خَلْقِ الإنْسَانِ:

• ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٤﴾:

• ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾: أي: وبَعْدَ أنْ جَعَلَ اللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَتْ قُدْرَتُهُ ـ النُّطْفَةَ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ، وَمَرَّ فَاصِلٌ زَمَنِيٌّ نِسْبِيٌّ؛ أَظْهَرَ مِنْ

أَطْوَارِ الْخَلْقِ أَنْ خَلَقَ النُّطْفَةَ عَلَقَةً، وَقَبْلَ أَنْ تَصِلَ إِلَىٰ طَوْرِ الْعَلَقَةِ مَرَّتْ في أَطْوَارٍ بِعَدَدِ أَصْغَرِ الْوَحَدَاتِ الزَّمَنِيَّةِ الَّتِي مَرَّتْ فِيهَا مَا بَيْنَ النُّطْفَةِ والْعَلَقَةِ، وكَذَٰلِكَ مَا بَيْنَ كُلِّ طَوْرٍ وَطَوْرٍ ذَكَرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لظُهُورِهِ.

الْعَلَقَةُ: قِطْعَةٌ مِنَ الدَّمِ الْغَلِيظِ الْمُتَمَاسِكِ. **والْعَلَق**: اسْمٌ جَمْعِيٌّ لِلْعَلَقَة.

• ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾: أي: وَلَمْ يَمْضِ فَاصِلٌ زَمَنِيٌّ طَوِيل؛ إِذْ جَاءَ طَوْرُ خَلْقِ اللهِ الْعَلَقَةَ مُضْغَةً، أي قِطْعَةً فِيها تَمَاسُكٌ مَا كاللَّحْمِ.

الْمُضْغَةُ: الْقِطْعَةُ الّتِي تُمْضَغُ مِنْ لَحمٍ وَغَيْرِهِ.

• ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾: أيْ: وَعِقِبَ وُصُولِ الْجَنِينِ إِلَىٰ طَوْرِ الْمُضْغَةِ؛ خَلَقَ اللهُ المضْغَةَ عِظاماً، وهـٰذَا مَا يُمْكِنُ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ مُتَابِعُو الْبَحْثِ في الأَجِنَّةِ.

• ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾: أي: وعَقِبَ وُصُولِ الْجَنِينِ إِلَىٰ الطَّوْرِ الَّذِي تكَوَّنَ بِهِ عِظَاماً، كَسَا اللهُ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ الْعِظَامَ لَحماً.

• ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾: أيْ: وبَعْدَ فَاصِلٍ زَمَنِيٍّ نِسْبِيٍّ أَنْشَأَ اللهُ ـ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ ـ الْجَنِينَ خَلْقاً آخر، وَيَظْهَرُ أَنَّ هـٰذَا الْخَلْقَ الآخَرَ هُوَ نَفْخُ الرُّوحِ فِيهِ، وجَعْلُهُ إِنْسَاناً، بَعْدَ أَنْ كَانَ يَنْمُو نُمُوّاً شبيهاً بالنُّمُوِّ النَّبَاتِي.

• ﴿... فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾:

فَتبارَكَ: أي: فَتنَامَىٰ، وَتزَايَدَ، وَتَعَاظَمَ، بالْإِطْلَاق الْعَام، فَوْقَ كُلِّ مَا يَصِفُهُ الواصِفُونَ مِنْ كَمَالَات، وهو عَلَىٰ وَزْنِ «تَفَاعَلَ» مِنَ الْبَرَكَة، وهِيَ في اللُّغَةِ الزِّيَادَةُ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ.

﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾: أي: أَحْسَنُ المصَوِّرِينَ والْمُقَدِّرين.

الْخَلْقُ: يأتي قي اللُّغَةِ بِمَعْنَيْين:

المعنى الأوّل: التقديرُ، وهو إعْطَاءُ أجزاءِ الشَّيْءِ مَقَادِيرَهَا بإحكام، وعلى هـٰذَا المعْنَىٰ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي خِطَابِهِ لِعِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿... وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ... ﴿١١٠﴾﴾.

المعنى الثاني: ابْتِدَاعُ الشَّيْءِ على غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ، وإيجادُهُ مِنَ الْعَدَم، وهـٰذَا المعْنَىٰ لَا يَنْطَبِقُ عَلَىٰ غَيْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

ولِعُلَمَاءِ الأحْيَاءِ مِنْ مُخْتَلِفِ التَّخَصُّصاتِ دِرَاسَاتٌ مُسْتَفِيضاتٌ حَوْلَ إتْقَانِ خَلْقِ الإنْسَانِ، والأطْوَارِ الّتِي يَمُرُّ خَلْقُهُ بها، وَمَا جَاءَ فِي الْقُرآنِ مُطَابِقٌ لِلْحَقَائِقِ الثَّابِتَةِ الَّتِي تَوَصَّلَ عُلَمَاءُ الكَوْنِيَّاتِ إلَيْها.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بَيَانَ مَسِيرَة وُجُودِ النَّاس:

• ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾:

أي: ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ بَعْدَ انْتِهَاءِ مَا قُدِّرَ لِكُلٍّ مِنْكُمْ مِنْ حَيَاةٍ فِي هَـٰذِهِ الدُّنْيَا، حَيَاةِ الابْتِلَاءِ لَمَيِّتُونَ.

جاء توكِيدُ هـٰذِه العبارة بالمؤكّدَاتِ: «إنَّ ـ والجملَة الاسمية ـ واللام المزَحْلَقَة»، مع أنَّ الْمَوْتَ حَقِيقَةٌ لَا يَجْحَدُهَا إنْسَانٌ لَدَيه أدْنَىٰ إدْرَاك.

ويَبْدُو لِي أَنَّ الدَّاعِيَ لِهـٰذَا؛ التَّنَاظُرُ بَيْنَ هَـٰذِهِ الآية وبين الآية (١٦)، والإشْعَارُ بأنَّ الْمَوْتَ حَدَثٌ مَقْصُودٌ فِي خُطَّةِ التَّكْوِينِ، لِيَكُونَ بَعْدَهُ فَاصِلٌ بَرْزَخٌ بَيْنَ الموتِ والْبَعْث، ثُمَّ يَأْتِي الْبَعْثُ للحياة الأُخرىٰ الأَبَدِيَّةِ، حَيَاةِ الجزَاءِ الأكْبَر.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ أيضاً:

• ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾:

أي: ثُمَّ إنَّكُمْ أيُّها النَّاسُ بَعْدَ مُرُور مُدَّة الْمَوْتِ الْمُقَدَّرَةِ في خُطَّةِ التَكْوِين؛ تُبْعَثُونَ لِتُلاقُوا ظُرُوفَ الْحَيَاةِ الأُخْرَىٰ الأَبَدِيَّة، الَّتِي يَكُونُ فيها الْحِسَابُ، وفَصْلُ الْقَضَاءِ، وتَحْقيقُ الجزاء، وأَحْدَاثٌ قَدَّرَهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَقَضَاهَا، كَالْحَشْرِ، والْوَزْنِ، والصِّرَاط، وغَيْرِ ذَلِكَ.

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الثاني من دُرُوس سورة (المؤمنون).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(٧)
التدبُّر التحليلي للدّرس الثالث مِن دُروس سورة (المؤمنون) الآيات من (١٧ ـ ٢٢)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾:

القراءات:

(٢٠) • قرأ نَافع، وابْنُ كثير، وأبو عمْرو، وأبو جَعْفر: [سِينَاءَ] بِكَسْرِ السين.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [سَيْنَاءَ] بِفَتْحِ السِّين.

(٢٠) • قرأ ابْنُ كثير، وأَبُو عَمْرو، ورُويس: [تُنْبِتُ] مِنْ فعل «أَنْبَتَ». وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [تَنْبُتُ] مِنْ فِعْلِ «نَبَتَ».

(٢١) • قرأ نافع، وابْنُ عَامر، وشُعْبَة، ويَعْقُوب: [نَسْقِيكُمْ] من فعل «سَقَاهُ». وقرأها أبو جَعْفَر: [تَسْقِيكُمْ].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [نُسْقِيكُمْ] مِنْ فعل «أسْقَاهُ».

وفي هَـٰذِهِ القراءات تَفَنُّنٌ، والمؤدَّىٰ واحِد.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ عَرْضُ بَعْضِ آيَاتِ رُبُوبِيَّةِ اللهِ في كونه، وبَعْضِ مَا أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَى عباده من رِزْقٍ وغيره، تَذْكِيراً لَهُمْ بأَنْ يُقَابِلُوا نِعَمَهُ بالشُّكْرِ.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِلنَّاسِ وَمُبَيِّناً بَعْضَ آيَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ فِي كَوْنِهِ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ:

• ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ۝١٧﴾.

• ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا﴾: سبق نَظِيرُهَا فِي بَدْءِ الدَّرْس الثاني.

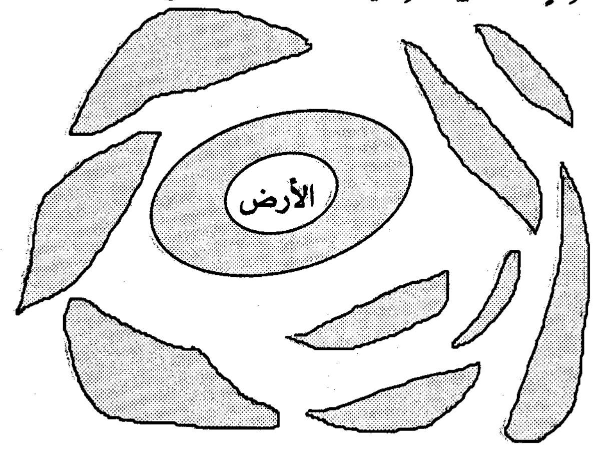
• ﴿فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾: أي: سَبْعَ سَمَاوَاتٍ، سمَّاهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هُنَا طَرَائِقَ، لِأَنَّ بَعْضَهَا يُحِيطُ بِبَعْضٍ، والْعَرَبُ تُسَمِّي كُلَّ شَيْءٍ فَوْقَ شَيْءٍ آخَرَ: طَرِيقَةً.

الطَّرَائِقُ: جَمْعُ الطَّرِيقَةِ، وهُو الطريق. **والطَّرَائِقُ**: الطَّبَقَاتُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْض.

وَكَوْنُهَا فَوْقَ النَّاسِ؛ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الأَرْضَ الَّتِي يَسْكُنُهَا النَّاسُ تُحِيطُ

بِهَا السَّمَاءُ الدُّنْيَا، وأنَّ السَّمَاء الثانية تُحِيطُ بالسَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَهَكَذَا إِلَىٰ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ الْمُحِيطَةِ بالسَّمَاءِ السَّادِسَة.

وفي تَصْوِيرٍ تَخَيُّلِيٍّ تقْرِيبيٍّ يُمْكِنُنا أَنْ نَضَعَ الصُّورَةَ التَّالِيَة:



مجموعة مَجَرَّاتٍ ذَاتُ نِظَامٍ حَرَكِي لَا يَعْلَمُ عَدَدَهَا إِلَّا اللهُ تُمَثِّلُ السَّمَاءَ الأولى.

فالسَّماء الأولى تُمَثِّلها مَجرّات لا يَعْلَم عددها إلّا الله، وبعدها مَجَرَّاتٌ لَا يَعْلَمُ عَدَدَهَا إِلَّا اللهُ ذَاتُ نِظَامٍ حَرَكِيٍّ تُمثِّلُ السَّمَاء الثَّانِيَة.

وَهَكذَا إلى غايَةِ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، وفي كُلِّ مَجرَّةٍ مِنَ النُّجُوم العظمَىٰ مَا لَا يَعْلَمُ عَدَدَهُ إلّا الله، يُقَدِّر بَعْضَهَا عُلَمَاءُ الكَوْنِياتِ بالملايين، ويُقَدِّرُونَ بَعْضَهَا بالمِلْيارَاتِ، واللهُ أعلمُ.

● ﴿... وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾: أي: وَمَا كُنَّا عَمَّا خَلَقْنَا مِنْ هٰذَا الْخَلْقِ الْعَظِيم بِكُلِّ مَا فِيهِ غَافِلِينَ، بَلْ نُتَابعُ تَسْيِيرَهُ بِتَقْدِيرِنَا وَقُدْرَتِنَا، مِنْ أَصْغَرِ وَحْدَةٍ ذَرِّيَّةٍ فِيهِ إِلَىٰ أَكْبَرِ مَخْلُوقٍ فِيهِ، مَعَ أَصْغَرِ الْوَحَدَاتِ الزَّمَنِيَّةِ، واسْتِمْرَاراً مَعْ مُرورِ الزَّمَنِ.

ومَعْلُومٌ أَنَّ أَعْمَالَ اللهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ مُطَابِقَةٌ لِكَمَالِ حِكْمَتِهِ، المشْمُولَةِ بِعِلْمِهِ الْمُحِيطِ بِكُلِّ شَيْءٍ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً ذِكْرَ بَعْضِ آيَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ في كَوْنِهِ:

• ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾.

صَارَ مِنَ الْبَدَهِيَّاتِ الْعِلْمِيَّةِ أَنَّ الْماءَ يَنْزِلُ مِنَ السَّحَابِ بَعْدَ تَبَخُّرِهِ مِنْ مِيَاهِ الأَرْضِ، وتَجَمُّعِهِ سُحُباً، وَمَعْلُومٌ فِي اللُّغَةِ أَنَّ السَّحَابَ يُطْلَقُ عَلَيْهِ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ سُكَّانِ الْأَرْضِ سَمَاء، لِأَنَّ كُلَّ مَا عَلَا فَأَظَلَّ يُطْلَقُ عَلَيْهِ لفظ: «سَمَاء».

وَهَٰذِهِ الظَّاهِرَةُ مِنْ آيَاتِ اللهِ الْعَجِيبَةِ فِي كَوْنِهِ، وهي مِنْ نِعَمِهِ الْجَلِيلَةِ عَلَىٰ عِبَادِهِ، وَقَدْ تَكَرَّرَ التَّنْبِيهُ عَلَيْهَا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيم.

وَقَدْ جَاءَ في هَٰذِهِ الآيَةِ الإِعْلَامُ بِثَلَاثِ قَضَايَا ذَاتِ شَأْنٍ في المفْهُومَاتِ الدِّينِيَّة:

الْقَضِيَّةُ الْأُولَىٰ: أَنَّ حِكْمَةَ اللهِ اقْتَضَتْ أَنْ يُنْزِلَ الْماءَ فِي كُلِّ مَوْقِعٍ مِنَ الْأَرْضِ بِقَدَرٍ سَبَقَ به تَقْدِيرُ اللهِ وَقَضَاؤُه، مُلَائِماً لِحِكْمَةِ ابْتِلَائِهِ عِبَادَهُ، وإِنْعَامِهِ عَلَيْهِمْ.

بِقَدَرٍ: أي: بِمِقْدَارٍ مُحَدَّدٍ، وتَدْبِيرٍ حَكِيم.

الْقَضِيَّةُ الثَّانِية: أَنَّهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وسَمَتْ حِكْمَتُهُ ـ أَسْكَنَهُ فِي الْأَرْضِ، فِي تَجَاوِيفَ فِي بَاطِنِهَا، وَعَلَىٰ سَطْحِهَا فِي بُحَيْرَاتٍ عَظِيمَاتٍ وأَنْهَارٍ كَبِيرَةٍ، تُسَهِّلُ عَلَىٰ النَّاسِ الانْتِفَاعَ بِهِ في مَنَافِعَ كَثِيرَةٍ، مَعَ اخْتِزَانِهِ فِي بَاطِنِ الأَرْضِ، وإِلْهَامِ النَّاسِ وَسَائِلَ اسْتِخْرَاجِهِ مِنْهَا.

الْقَضِيَّةُ الثَّالِثَة: التَّنْبِيهُ المؤكَّدُ عَلَىٰ أَنَّهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَتْ قُدْرَتُه ـ لَعَظِيمُ الْقُدْرَةِ عَلَىٰ أَنْ يَذْهَبَ بالْماء، فَلَا يَسْتَطِيعَ النَّاسُ لَهُ طَلَباً، مَعَ شِدَّةِ حَاجَتِهِمْ فِي حَيَواتِهِمْ إِلَيْهِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿... وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾. فَإِذَا أَذْهَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الأَرْضِ مَاءَهَا؛ تَعَرَّضَ الْأَحْيَاءُ فِيهَا لِلْهَلَاك، وهَٰذَا أَمْرٌ يَسِيرٌ عَلَىٰ اللهِ الحكيم الْعَلِيمِ القدير.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابِعُ بَيَانَ بَعْضِ آثَارِ نِعْمَةِ اللهِ عَلَىٰ النَّاسِ بالْمَاءِ فِي الْأَرْضِ، وَهَـٰذِهِ الآثَارُ مِنْ آيَاتِهِ فِي كَوْنِهِ:

• ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾:

أي: فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِالْمَاءِ الَّذِي أَنْزَلْنَاه مِنَ السَّمَاءِ بَسَاتِينَ مِنْ نَخِيلٍ وأعْنَابٍ وغيرهما مِنَ الشَّجَرِ، وَهَـٰذِهِ الْجَنَّاتُ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ تَتَفَكَّهُونَ بِهَا، وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ قُوتاً لِبِنَاءِ أَجْسَادِكُمْ وإِمْدَادِهَا بالْقُوَّةِ والْقُدْرَةِ عَلَىٰ الْعَمَلِ.

وأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِالْمَاءِ أَيْضاً شَجَرَةً مُبَارَكَةً، كَانَتْ في أَصْلِ إِنْشَائِهَا تَخْرُجُ مِنْ أَرْضِ طُورِ سِيْنَاءَ، ثُمَّ زَرَعَهَا النَّاسُ بالتَّوْسِيعِ الزّراعِي في مُعْظَمِ بِلَادِ الشَّامِ، ثُمَّ فِي بِلَادٍ كَثِيرَةٍ لَمْ تَكُنْ مَعْرُوفَةً فِيها، وهِيَ شَجَرَةُ الزَّيْتُونِ الَّتِي تَنْبُتُ مُلْتَبِسَةً بالدُّهْنِ، وهو الْمَعْرُوف بِزَيْتِ الزَّيْتُونِ، الَّذِي تَدْهَنُونَ بِهِ شُعُورَكُمْ وأجْسَادكُمْ، لِمَا فِيهِ مِنْ مَنَافِعَ لَهَا، والَّذِي تَأْكُلُونَ مِنْهُ بِمِقْدَارِ صَبْغِ خُبْزِكُمْ وصَبْغِ كَثِيرٍ مِنْ أَطْعِمَتِكُمْ، وَلَا تَأْكُلُونَ مِنْهُ كَمَا تَأْكُلُونَ الْخبْزَ، وغَيْرَهُ مِنَ الثَمرَاتِ الَّتِي تُؤْكَلُ وَتُمْضَغ.

• ﴿فَأَنشَأْنَا﴾: **الإِنْشَاءُ**: الإِحْدَاثُ المصْحُوبُ بالتَّكَامُلِ المتَدَرِّجِ غَالِباً.

• ﴿جَنَّٰتٍ﴾: جَمْعُ «جَنَّةٍ»، وهي مَا يَحْتَوِي عَلَىٰ أشْجَارٍ وثِمَارٍ وَزُرُوعٍ وأَنْهَار، وقَدْ تَكُونُ فِيهَا قُصُورٌ. وتُطْلَقُ «الْجَنَّاتُ» عَلَىٰ الحدائِقِ والْبَسَاتِينِ المكْتَظَّةِ بالْأشجار، فهي سَاتِرَةٌ لِمَا تَحْتَهَا.

وأَصْلُ مَادَّةِ «جَنَّ» تَدُورُ حَوْلَ مَعْنَىٰ السَّتْر.

• ﴿مِّن نَّخِيلٍ﴾: «**النَّخْلُ**» و«**النَّخِيلُ**» اسْمُ جِنْسٍ جَمْعِيٍّ، واحِدُهُ «النَّخْلَة»، وهيَ شَجَرَةٌ مَعْرُوفَة، وثَمَرُ مَا يُثْمِرُ مِنْهَا: الْبَلَحُ والتَّمر.

وقَدْ ذُكِرَتْ هُنَا الشَّجَرَةُ لِتَشمَلَ المثْمِرَ مِنَ النَّخْلِ، وغَيْرَ المثْمِرِ، وهُوَ مَا يَكُونُ للزينَةِ ولِمَنَافِعَ أُخرَىٰ غَيرِ الأَكْلِ مِنْهَا.

وتُعْتَبَرُ شَجَرَةُ النَّخيلِ مِنْ أعْظَمِ الأشْجَارِ نَفْعاً للنَّاسِ غِذَاءً وفَاكِهَةً وادِّخاراً، وأعْمِدَةً، ويُصْنَعُ مِنْ أَلْيَافِهَا حِبَال، ومِنْ أَوْرَاقِهَا سُفَرٌ وأَدَوَاتُ حِفْظٍ، وَمِنْ جَرِيدِهَا أعْوَادٌ وعِصِيٌّ وغَيْرُ ذَلِكَ، وَلَا شَيْءَ فِي شَجَرِ النَّخْيْلِ إلَّا يُنْتَفَعُ بِهِ.

وَكَانَ شَجَرُ النَّخيلِ عِمَادَ حَيَاةِ عَرَبِ شِبْهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبية.

• ﴿وَأَعۡنَٰبٖ﴾: «أعْنَاب» جمع «عِنَب»، وهو ثَمَرُ الشَّجَرِ الَّذِي يُسَمَّىٰ كَرْماً. وقَدْ ذُكِرَ هُنَا الثَّمَرُ، دُونَ ذِكْرِ اسْمِ الشَّجَرِ، لِأَنَّ أَجَلَّ مَنَافِعِ هَـٰذِهِ الشَّجَرَةِ يَكُونُ فِي ثَمَرِهَا. وروىٰ البخاريُّ ومُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال:

«لَا تُسَمُّوا الْعِنَبَ الْكَرْمَ».

• ﴿لَّكُمۡ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ١٩﴾:

• ﴿فَوَٰكِهُ﴾: جَمْعُ «فَاكِهَةٍ»، وَهِيَ تُطْلَقُ غَالِباً عَلَىٰ الثِّمَارِ الَّتِي تُؤْكَلُ لِلتَّلَذُّذِ بِطُعُومِهَا، لَا لِتَحْصِيلِ الْقُوتِ مِنْهَا.

وهـٰذَا التَّفَكُّهُ يَحْصُل بالأَكْلِ مِنَ ثِمَارِ النَّخِيلِ ومِنَ الْعِنَبِ، ويَحْصُلُ بالأَكْلِ مِنْ ثَمَرَاتِ أشْجَارِ الْفَاكِهَةِ الَّتِي تُوجَدُ دَاخِلَ الْجَنَّاتِ مَعَ النَّخِيلِ والأَعْنَابِ الَّتِي هِيَ أَكْثَرُ عَدَداً.

• ﴿وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾: أي: ومِنَ النَّخِيلِ والأَعْنَابِ وَمِمَّا في الجنّاتِ مِنْ زُرُوعٍ؛ تَأْكُلُونَ مَا هُوَ قُوتٌ لَكُمْ يُمِدُّكُمْ بالْقُوَّةِ وبالْقُدْرَةِ عَلَىٰ الْعَمَلِ بِنَشَاطٍ وهِمَّةٍ.

• ﴿وَشَجَرَةٗ تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ ٢٠﴾:

أي: وَأَنْشَأْنَا لَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ شَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ أَرْضِ طُورِ سَيْنَاءَ، وَهَـٰذِهِ الشَّجَرَةُ تَنْبُتُ مُخْتَلِطَةً ثِمَارُهَا بِالدُّهْنِ، أي: بِمَادَّةٍ زَيْتِيَّةٍ دَسِمَةٍ يُدْهَنُ بِهَا الشَّعَرُ والْجِسْمُ، ويُؤْكَلُ مِنْهَا بِمِقْدَارِ صِبْغٍ لِلْخُبْزِ، أَو نَحْوِهِ مِمَّا يُؤْكَلُ مَغْمُوساً بالزَّيْتِ.

روَىٰ التِّرمِذِيُّ فِي سُنَنِهِ عَنْ عُمَر بْنِ الْخَطَّابِ، وعَنْ أَبِي أُسَيْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:

«كُلُوا الزَّيْتَ وادَّهِنُوا بِهِ، فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَة».

قوْل اللهِ تَعالَىٰ: ﴿تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ مَعَ أَنَّنا نُلاحِظُ أَنَّ شَجَرَ الزَّيتُونِ مُنْتَشِرٌ فِي بِلَادِ الشَّام، وفي تُرْكِيَا، وفي اليونان، وفي الْمَغْرِبِ الْعَرَبِيِّ وَتُونُس، وإسْبَانِيَا، والْجزَائِرِ، وغَيْرِهَا، ويَظْهَرُ لي تَأْيِيدُ فِكْرَةِ أَنَّ أَوَّلَ أَرْضٍ خَرَجَتْ مِنْهَا أَشْجَارُ الزَّيتُونِ هي أَرْضُ طُورِ سَيْنَاء، ومِنْهَا بَدَأَ النَّاسُ يَنْشُرُونَ هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ، ويَتَوَالَىٰ نَشْرُهَا مِنْ أَرْضٍ إِلَىٰ أرضٍ وَرَاءَهَا، بَحسَبِ اهْتِمَامِ الناسِ بالفائِدَةِ الْعَظِيمَةِ لِأَشْجَارِ الزَّيْتُون.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبيِّناً بَعْضَ آيَاتِهِ فِي كَوْنِهِ ونِعَمِهِ عَلَىٰ النَّاسِ:

• ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾:

يُخَاطِبُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ النَّاسَ بِضَمِيرِ المتكلِّم العظيم مُذَكِّراً لَهُمْ بآيَةِ خَلْقِهِ الأنْعام، وَمَا فيها مِنْ مَنافِعَ لَهُمْ، وآيَةِ إِلْهَامِهِ أنْ يَصْنَعُوا الْفُلْكَ لِيَرْكَبُوا عَلَيْهَا، ولِتَجْرِيَ فِي الْمَاءِ، وَتَنْقُلَهُمْ وَأَشْيَاءَهُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ يَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشَقِّ الأَنْفُسِ.

• ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾: أي: وإِنَّ لَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ في الأَنْعَامِ الَّتِي خَلَقْنَاهَا لَكُمْ لَعِبْرَةً. يُؤَكِّدُ اللهُ تَعَالَىٰ بـ «إنّ ـ والْجُمْلَةِ الاسمية واللَّام المزَحْلَقَةِ» مَا تَضَمَّنَهُ هـٰذَا البيان.

الْأَنْعَامُ: هِيَ الأَمْوَالُ الرّاعِيَةُ: «الإِبلُ، والبَقَرُ، والْغَنَمُ وتَدْخُلُ فِي الْغَنَمِ المعز»، وَلفظ «الأَنْعامِ» يُذَكَّرُ ويُؤَنَّث.

• ﴿لَعِبْرَةً﴾: أي: لآيَةً تَعْبُرُونَ عَلَىٰ دَلَالاتِهَا إِذَا تَفَكَّرْتُمْ، فَتُوصِلُكُمْ إِلَىٰ إِدْرَاكِ عَظِيمِ قُدْرَةِ اللهِ ربّكُمْ، وشُمُولِ عِلْمِهِ كُلَّ شيء، وإتْقَانِ صُنْعِهِ كُلَّ شيء، وإِنْعَامِهِ عَلَى عباده، وغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِهِ وأَسْمَائِهِ الحسْنَىٰ.

• ﴿نُّسْقِيكُمْ﴾ بضَمِّ النُّونِ مِنْ فِعْلِ «أَسْقَىٰ» وفي قراءة أُخْرَىٰ: [نَسْقِيكُمْ] مِنْ «سَقَىٰ»، والمعْنَىٰ واحدٌ. وفي قراءةٍ ثَالِثَةٍ: [تَسْقِيكُمْ] أي: تَسْقِيكُمُ الأَنْعَامُ.

• ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾: أي: مِمَّا تَحْتَوِيهِ بُطُونُهَا، وهو اللَّبَنُ الَّذِي يُخْرِجُهُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ مِنْ أَثْدَائِهَا، ويَسْتَخْلِصُهُ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدمٍ لَبناً سَائِغاً للشَّارِبين.

• ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ﴾: أي: وَلَكُمْ في الأَنْعَامِ مَنَافِعُ كَثيرة، إذْ يَنْتَفِعُ النَّاسُ مِنْ أَصْوَافِهَا، وأَشْعَارِهَا، وأَوْبَارِها، وجُلُودِهَا، وعِظَامِهَا، وَكُلِّ شَيْءٍ في أَجْسَامِهَا، غَيْرِ الأَكْلِ مِنْ لُحُومِهَا وشُحُومِهَا، والشُّرْبِ مِنْ أَلْبَانِهَا.

• ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾: أي: ومِنَ الأَنْعَامِ تَأْكُلونَ، وهُوَ مَا يَأْكُلُهُ النَّاسُ مِنْ لُحُومِهَا وَشُحُومِهَا، وَمَا لَانَ لَهُمْ مِنْ غَضَارِيفِهَا وبَعْضِ عِظَامِهَا، وَنَقْي عِظَامِهَا وهُو المخُّ.

• ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أيْ: وَعَلَىٰ بَعْضِ الأَنْعامِ تُحْمَلُونَ بِتَقْدِيرِ اللهِ وَقَضَائِهِ وَإِنْعَامَاتِهِ عَلَيْكُمْ، إِذْ ذَلَّلَهَا لَكُمْ، وَهِيَ الإِبلُ، وَالْبَقَرُ، حِينَ تَجُرُّ بأَكْتَافِهَا مَرَاكِبَ تَرْكَبُونَهَا فَتَكُونُ حَامِلَةً لَكُمْ وَلأَثْقَالِكُمْ، وَنَاقِلَةً لَكُمْ إِلَىٰ مَا تُرِيدُونَ الْوُصُولَ إِلَيْهِ. وهَـٰذِهِ مِنْ نِعَمِ اللهِ عَلَىٰ النَّاسِ في الأَنْعَامِ، مَعَ اسْتِخْدَامِهَا فِي الْحَرْثِ والنَّضحِ وغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ تَذْلِيلِ صِعَابٍ.

وأمَّا الْفُلْكُ فَقَدْ أَلْهَمَكُمْ رَبُّكُمْ صِناعَتَها، فَهُوَ تَبارَكَ وَتَعالَىٰ بِتَقْدِيرِهِ وَقَضائِهِ وَعِنايَتِهِ وحِفْظِهِ يَحْمِلُكُمْ عَلَيْهَا جارِيَةً فِي الْمَاءِ إِلَىٰ بِلادٍ لَمْ تَكُونُوا بالِغِيهَا إِلَّا بِشَقِّ الأَنْفُسِ، ويَحْمِلُ أَثْقالَكُمْ عَلَيْهَا، وَلَوْ شاءَ لأَغْرَقَكُمْ أَنْتُمْ وَمَا تَصْحَبُونَ، وَلأَهْلَكَكُمْ، وَلَكِنَّهُ يَحْمِيكُمْ بِرَحْمَتِهِ وعِنَايَتِهِ فِي حَيَاةِ امْتِحَانِكُمْ، وحِينَ تَقْتَضِيْ مَشيئَتُهُ عِقَابَكُمْ بإهْلاكٍ جَمَاعِيٍّ فإنَّهُ يُغْرِقُكُمْ وَمَا تَصْحَبُونَ، وَيُغْرِقُ فُلْكَكُمْ.

الْفُلْكُ: مَرْكَبُ البحر، يُطْلَقُ عَلَىٰ الْوَاحِدِ والاثنين والجمع، ويذكر ويُؤَنَّثُ.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الثالث من دُرُوس سورة (المؤمنون).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(٨)
التدبُّر التحليلي للدَّرس الرابع من دُروس سورة (المؤمِنُون) الآيات من (٢٣ ـ ٣٠)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن

مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾:

القراءات:

(٢٣) • قرأ الكِسَائِي، وأبو جَعْفر: [**مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِهِ**]: بجرّ «غيرِهِ».

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ**]: بِرَفعِ «غيرُه».

وهُمَا وَجْهَانِ عَرَبِيَّانِ جَائزان.

(٢٦) • قَرَأَ يَعْقُوب: [**كَذَّبُونِي**]: بإِثْبَاتِ ياء المتكلم في الوصْلِ والوقف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**كَذَّبُونِ**]: بِحَذْفِ ياء المتكلم مع مُلاحَظَتِها ذِهْناً.

(٢٧) • قرأ حفصٌ: [**مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ**]: بِتَنْوِينِ لام «كُلٍّ».

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ**]: على إضافة «كلّ» لـ «زَوْجَيْنِ».

(٢٩) • قرأ شُعْبَةُ: [**مَنْزِلاً**]: وهو اسم مكان النزول، من فِعْلِ: «نَزَلَ».

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**مُنْزَلاً**]: وهو اسْمُ مكان النزول، من فعل «أَنْزَل»، أو هو مَصْدَرٌ مِيميٌّ، أي: إنْزَالاً.

تَمْهيد:

في آياتِ هٰذَا الدَّرْسِ عَرْضٌ لَقَطاتٍ مُوجَزاتٍ مِنْ قِصَّةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَام، وفي الكِتاب الّذي فَتَحَ اللهُ بِهِ عَلَيَّ بِعُنْوانِ: «نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلام وقومُهُ في القرآنِ المجيد» دِرَاسَةٌ تَدبُّرِيَّةٌ تَكَامُلِيَّةٌ لِهٰذَا النَّصِّ مَعَ سَائِرِ

النُّصُوص الْقُرآنِيَّة المتعَلِّقَةِ بِنُوحٍ وَقَوْمِهِ عَلَيْهِ السَّلَام، فأقْتَصِرُ هُنَا عَلى تَحْلِيلِ آيَاتِ هٰذَا الدَّرْس.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَحَدِّثاً بضمير المتكلِّم العظيم الدَّالّ عَلَىٰ عَظَمَةِ صِفَاتِهِ:

• ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

• ﴿وَلَقَدْ﴾ سَبَقَ نظيرُهَا فِي السُّورَةِ مَعَ التَّحْلِيل، والعطف هو مِنْ قَبِيل عَطْفِ مَوْضُوعٍ عَلَىٰ مَوْضوع.

• ﴿أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾: أي: أَوْحَيْنَا إِلَيْهِ، فَنَبَّأْنَاهُ، وَبَعْدَ ذَلِكَ أَرْسَلْنَاهُ، وَهٰذَا يُفْهَمُ باللُّزُوم الذِّهْنِي، فَالإِرْسَالُ الرَّبَّانِيُّ يَكُونُ لِمَنْ يَصْطَفِيهِ اللهُ فَيُوحِي إِلَيْهِ، فَيَجْعَلُهُ نَبِيًا، ثُمَّ يُكَلِّفُهُ أَنْ يَحْمِلَ رِسَالَةَ رَبِّهِ، وَيُبَلِّغَهَا كَمَا يَأْمُرُه.

﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾: فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَىٰ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَكُنْ مُكَلَّفاً أَنْ يُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّهِ لِجَمِيعِ النَّاسِ، بَلْ كَانَ مُكَلَّفاً أَنْ يُبَلِّغَهَا لِقَوْمِهِ فَقَط، مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّ مَضْمُونَ رِسَالَتِهِ صَالِحٌ لِعُمُومِ النَّاس.

ونَتسَاءَلُ: هَلْ كَانَ قَوْمُهُ كُلَّ النَّاسِ في عَصْرِهِ، أَمْ كَانُوا بَعْضَ النَّاس؟.

أقول: لَا نَمْلِكُ إجابَةً مُحَدَّدَةً تَسْتَنِدُ إِلَىٰ ما لَا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ الاحْتِمَالُ المضْعِفُ لَهَا، لَكِنْ جَاءَ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ ذُرِّيَّةَ نُوحٍ كَانُوا هُمُ الباقين بَعْدَهُ عَلَيْهِ السَّلَام.

• ﴿فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾: أي: اعْبُدُوا الله

وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، إِذْ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، لِأَنَّهُ لَا رَبَّ فِي الْوُجُودِ غَيْرُهُ، والْعِبَادَة حَقُّ الرَّبِّ الَّذِي هُوَ رَبُّ العالَمِين.

أَمَّا مَا تَعْبُدُونَ مِنْ آلِهَةٍ مِنْ دُونِهِ فَهِيَ لَيْسَتْ بآلِهَةٍ تُعْبَدُ، إِذْ هِيَ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا، وصُوَرٌ صَوَّرْتُمُوهَا، وَأَوْثَانٌ نَحَتُّمُوهَا بأَيْدِيكُمْ، لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ.

• ﴿مِّنْ إِلَٰهٍ﴾: لفظ «مِنْ» حرف جَرٍّ زَائِدٍ، جِيءَ بِهِ للتَّنْصِيصِ عَلَىٰ الْعُمُومِ المنفي، ولفظ «إِلَهٍ» مُبْتَدأٌ مَجْرُورٌ لفظاً بحَرْفِ الْجَرِّ الزائد، مَرْفُوعٌ مَحَلًّا، ولفظ «غَيْرُ» نَعْتٌ للفظ «إِلَهٍ» مُراعىً فِيهِ المحلُّ، أَوْ بَدَلٌ، وفي قراءَة «غَيْرِه» بالْجَرِّ رُوعِيَتْ الْحَرَكَةُ الَّتِي اقتضاها حَرْفُ الْجَرِّ الزائِدِ فِي لفظ «إِلَهٍ».

• ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾: عَرْضٌ رَفِيقٌ بأسْلُوبِ الاسْتِفْهَام، يَتَضَمَّنُ دَعْوَتَهُمْ إِلَىٰ اتِّقَاءِ عِقَابِ اللهِ وَعَذَابِهِ، مَع ما قَدْ يَحْمِلُ مِنْ تَعَجُّبٍ واسْتِغْرَابٍ واسْتِنْكَارٍ.

أي: إذَا لَمْ تُؤْمِنُوا باللهِ، وَلَمْ تَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ نَزَلَ بِكُمْ عِقَابُهُ وَعَذَابُهُ يَوْمَ الدِّينِ، مع عَذَابٍ وعِقَابٍ قَدْ يَنْزِلُ بِكُمْ فِي الدُّنْيَا. فالرُّشْدُ والْعَقْلُ يَقْتَضِيَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَتَّقُوا ذلِكَ بالْإِيمانِ بأَنَّ اللهَ هُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ الَّذِي لَا رَبَّ في الْوجُودِ غَيْرُه، وبِأَنَّهُ هُوَ الإِلَهُ الواحِدُ الأَحَدُ، الَّذِي لَا إِلَهَ بِحَقٍّ فِي الْوجُودِ كُلِّهِ غيره، وبالتَّعْبِيرِ عَنْ إيمانِكُمُ الصَّادِقِ بِعِبَادَتِهِ وَحْدَه.

العبادة: هِيَ الخضُوعُ والطَّاعَةُ على مِقْدَار الاسْتِطَاعَةِ، والْقِيَامُ بِما يُرْضِي الْمَعْبُود، وَتَرْكُ مَا لَا يُرْضِيهِ. ورأسُ العبادَةِ الدُّعَاءُ بالغيب، لتحقيق مَطَالِبِ الدُّنْيَا والْآخِرَة.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ مُبَيِّناً مَقَالَ قَوْمِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلام لِرَفْضِ دَعْوَتِهِ لَهُمْ:

• ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾:

• ﴿ٱلْمَلَؤُا۟﴾: هُمْ سَادَةُ الْقَوْمِ وَكُبَرَاؤُهُمْ وَوُجَهَاؤُهُمْ وأَعْيَانُهُمُ الَّذِينَ يَمْلَؤُونَ عُيُونَ الْعَامَّة.

• ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾: هَـٰذِهِ الْعِبَارَةُ قَدْ تَكُونُ وَصْفاً تَقْيِيدِيًّا لِلْقَائِلِينَ مِنْ مَلَإِ قَوْم نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَام، وَقَدْ تَكُونُ وَصْفاً كَاشِفاً، والاحْتِمَالُ الْأَوَّلُ هُو الْأَرْجَحُ فِيما أَرَىٰ، لِأَنَّ الْقَوْلَ الَّذِي قَالُوهُ لَا يَقُولُونَهُ إِلَّا إِذَا كَانُوا كَافِرِينَ، وهـٰذَا يَدُلُّ على أنّ بَعْضَ مَلَإِ قَوْمِهِ قَد آمَنُوا به، وَبِمَا دعاهم إِلَيْهِ.

• ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾: أي: قَالَ المَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا لجماهِيرِهِمْ مَا هـٰذَا الَّذِي يَدَّعِي أَنَّهُ نبيٌّ يُوحَىٰ إِلَيْهِ وَرُسُولٌ مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ كَمَا تَأْكُلُونَ، وَيَشْرَبُ كَمَا تَشْرَبُونَ، وَيَتَزَوَّجُ كَمَا تَتَزَوَّجُونَ، وَيَعْمَلُ لِكَسْبِ رِزْقِهِ كَمَا تَعْمَلُونَ، وهـٰذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ لَيْسَ مُؤَهَّلاً لِأَنْ يَكُونَ نَبِيًّا يَتَلَقَّىٰ الْوَحْيَ عَنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَلَا أَنْ يَكُونَ رَسُولاً يُبَلِّغُنَا مَا يَأْمُرُهُ بِأَنْ يُبَلِّغَنَا إِيَّاه.

وأشاروا إِلى نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ باسْمِ الإشارة «هـٰذَا» للإشْعَارِ بِأَنَّهُ رَجُلٌ لَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُنْظَرَ إِلَيْهِ باحْتِرَام وإِكْبَار، ازْدِرَاءً بِهِ، وسُخْرِيَةً مِنْهُ، لِيَصُدُّوا جَمَاهِيرَهُمْ عَنِ الاسْتِجَابَةَ لِدَعْوَتِهِ.

• ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾: **التَّفَضُّلُ**: تَكَلُّفُ الْفَضْلِ، والْفَضْلُ في اللُّغَةِ: الزِّيَادَةُ، وشاعَ في زِيَادَةِ الشَّرَفِ والرِّفْعَةِ والمكانَةِ الاجْتِمَاعِيَّة.

زَعَمَ مَلأُ قَوْمِ نُوحٍ ـ عَلَيْهِ السَّلَام ـ الَّذِينَ كَفَرُوا لِجَمَاهِيرِهِمْ أَنَّ نُوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ يُرِيدُ بادِّعَاءِ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ أَنْ يَكُونَ ذَا فَضْلٍ عَلَيْهِمْ بِصِفَةٍ لَا

يَمْلِكُونَ نَظِيرَها، وَهَـٰذِهِ الصِّفَةُ تَجْعَلُهُ سَيِّداً عَلَيْهِمْ، وَقَائِداً لَهُمْ، وآمِراً نَاهِياً مُطَاعاً، يَسْتَمِدُّ سُلْطَانَهُ عَلَيْهِمْ مِنَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَيَفْرِضُ بِذَلِكَ عَلَيْهِمْ مَا يُرِيدُ، وهو غير صادِقٍ في رِسَالَتِهِ، إذْ هُوَ كَاذِبٌ في ادِّعائِهِ.

• ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾: أي: وَلَوْ شَاءَ اللهُ أَنْ يُرْسِلَ رُسُلاً إِلَىٰ النَّاسِ يُبَلِّغُونَ عَنْهُ دِينَهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً، وَلَمْ يُرْسِلْ رُسُلاً بَشراً، زَاعِمِينَ وَمُوهِمِينَ أَنَّ هـٰذَا هُوَ مَا تَقْضِي به الْحِكْمَةُ الرَّبَّانِيَّة، أَوْ هـٰذَا هُوَ الأَمْرُ الْمُمْكِنُ الَّذِي تَقْبَلُهُ الْعُقُول.

وأَمَّا أَنْ يُرْسِلَ رَسُولاً بَشَراً فَهـٰذَا غَيْرُ مَعْقُولٍ، وَلَا مَقْبُولٍ، وَمُدَّعِي الرِّسَالَةِ مِنَ الْبَشَرِ هُوَ في ضَلَالٍ مُبِينٍ، تَتَهَيَّأُ لَهُ أُمُورٌ يَزْعُمُ بِهَا أَنَّهُ رَسُولٌ، أَوْ هُوَ كَذَّابٌ يفْتَرِي عَلَىٰ اللهِ.

إِنَّهُمْ يَتَنَاقَضُونَ مَعَ أَنْفُسِهِمْ في قَبُولِ هـٰذَا التَّوَهُّم، إِذْ قَبِلُوا أَنْ يَتَلَقَّىٰ الْمَلَائِكَةُ عَنِ اللهِ، مَعَ أَنَّ الْمَلَائِكَةِ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ اللهَ الْقَادِرَ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مَلَائِكَةً لَدَيْهِمُ الاسْتِعْدَادُ لِلتَّلَقِّي عَنْهُ؛ كَيْفَ لَا يَكُونَ قَادِراً عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَ هـٰذَا الاسْتِعْدَادِ في بَعْضِ خَلْقِهِ مِنَ الْبَشَرِ الّذِينَ يَصْطَفِيهِمْ بالنُّبُوَّةِ، ثُمَّ يُكَلِّفُهُمْ أَنْ يَكُونُوا رُسُلاً إِلَىٰ أَقْوَامِهِمْ.

• ﴿... مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾: أي: ما وَصَلَتْ أَخْبَارٌ إلى أَسْمَاعِنَا تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ سَبَقَ فِي تَارِيخِ أَجْدَادِنَا الْقُدَمَاء؛ أَنْ جَاءَهُمْ رُسُلٌ مِنَ الْبَشَرِ يُبَلِّغُونَ عَنِ اللهِ مَا جَاء بِهِ نُوح عَلَيْهِ السَّلَام.

إِنَّهُمْ يُحَاوِلُونَ بِهـٰذِهِ الْمَقُولَةِ إِضَافَةَ دَلِيلٍ تَارِيخِيٍّ يَشْهَدُ لادِّعَائِهِمْ بِأَنَّ الْبَشَرَ لَا يَصْلُحُونَ لِأَنْ يَكُونُوا رُسُلاً للهِ، وأَنَّ اللهَ لَمْ يَشَأْ إِرْسَالَ رُسُلٍ إِلَىٰ النَاسِ.

وهـٰذَا الدَّلِيلُ سَاقِطٌ لَا تَنْهَضُ بِهِ حُجَّةٌ، لِأَنَّهُ قَائِمٌ عَلَىٰ ادِّعَائِهِمْ أَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا بِإِرْسَالِ رُسُلٍ سَابِقِين.

إِنَّهُمْ لَوْ صَدَقُوا لَمَا كَانَ دَلِيلاً علَىٰ عَدَمِ إِرْسَالِ رُسُلٍ قبل نوحٍ عَلَيْهِ السَّلام، فَكَمْ مِنْ أَخْبَارٍ ضَاعَتْ فِي التَّارِيخِ، وَلَا سِيمَا في الْقُرُونِ الأولَىٰ الَّتِي لَمْ تكُنِ الأخْبَارُ فِيهَا تُدَوَّنُ في الكُتُب.

وقَدْ أَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ أَنَّهُ مَا مِنْ أُمَّةٍ انْحَرَفَتْ عَنْ دِينِ اللهِ الحقِّ؛ إِلَّا بَعَثَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا رَسُولاً مُنْذِراً، اسْتِكْمَالاً لِحِكْمَةِ الابْتِلَاءِ في ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيا، وَلَا أَقَلَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ فِيها نَبِيٌّ أَوْ مُبَلِّغُون يُبَلِّغُونَهَا رِسَالَةَ رَسُولٍ سَابِق.

إِنَّ عَدَمَ الْعِلْمِ بالْأَخْبَارِ السَّابِقَةِ؛ لَا يَقْتَضِي أَنَّ مَا تَتَضَمَّنُهُ الأَخْبَارُ غَيْرُ مَوْجُودٍ في الْوَاقِعِ والحقيقَة.

• ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾: «إِنْ» حرف نَفْي مِثْلُ «مَا». «جِنَّةٌ» أي: جُنُون، يُقَالُ لُغَةً: «جُنَّ، جَنًّا، وجُنُوناً، وجِنَّةً، ومَجَنَّةً» أي: زَالَ عَقْلُهُ.

عبارة: ﴿بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ بِصِيغَةِ المصْدَرِ المُنَكَّرِ؛ دَلَّتْ عَلَىٰ أَنَّهُمْ لَمْ يَقْصِدُوا أَنْ يَقُولُوا: هو مَجْنُونٌ جُنوناً مُطْبِقاً، بَلْ مَا فِيهِ هُوَ نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ الجنون، وقَدْ يَعْنُونَ جُنُونَ الْعَظَمَةِ وَحُبِّ الاسْتِعْلَاءِ.

والْقَصْرُ في هَـٰذِهِ الْعِبَارَةِ هو مِنْ قَصْرِ الموصُوفِ على الصِّفَةِ، وهُو مِنْ نَوعِ الْقَصْرِ الإضَافِي.

• ﴿... فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾: **فَتَرَبَّصُوا**: أي: فَتَرَيَّثُوا وانْتَظِرُوا. يقال لغة: «رَبَصَ بالشَّيْءِ رَبْصاً، وَتَرَبَّصَ بِهِ تَرَبُّصاً» أي: انْتَظَرَ بِهِ خَيْراً أَوْ شَرّاً.

المعنى: فَانْتَظِرُوا بِهِ إِلىٰ حِينٍ مَا شَيْئاً نَخْلُصُ بِهِ مِنْهُ وَمِنْ دَعْوَتِهِ، ومِنْهَا انْتِظَارُ مَوْتِهِ، في زَمَنٍ سَيَأْتِي.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيّناً لَقْطَةً مِنْ أَوَاخِرِ مَسِيرَةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَام الدَّعَوِيةِ، وَيَأْسِهِ مِنِ اسْتِجَابَةِ قَوْمِهِ لِدَعْوَتِهِ، وَتَهْدِيدِ قَوْمِهِ لَهُ ولِمَنْ مَعَهُ مِنْ أَهْلِهِ بالرَّجْم:

• ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾﴾: أي: قال: رَبِّ انْصُرْني بِسَبَبِ تكْذِيبِهِمْ لي. «ما» في ﴿بِمَآ﴾: مَصْدَرِيّة.

وسَكَتَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَام؛ عَنْ تَعَرُّضِهِ وتَعَرُّضِ أَهْلِهِ لِتَهْدِيدِ قَوْمِهِ لَهُمْ بالرَّجْمِ تَأَدُّباً مع اللهِ، وتَسْلِيماً لِمَا يُقَدِّرُهُ وَيَقْضِيهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيّناً مَا أَمَرَ بِهِ نُوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ أَنْ يَصْنَعَ الْفُلْكَ، مَعَ تَوابعِ صِناعَتِهِ لَهُ:

• ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾:

• ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾:

الْفَاءُ في ﴿فَأَوْحَيْنَآ﴾ فَصِيحَةٌ تَعْطِفُ عَلَىٰ مَحْذُوفٍ، أي: فَاسْتَجْبْنَا دُعَاءَهُ، وَقَدَّرْنَا نَصْرَهُ وَقَضَيْنَاهُ، واخترْنَا إِهْلَاكَ قَوْمِهِ الظَّالِمِينَ بِوَسِيلَةِ الإِغْرَاق، وأَعْلَمْنَاهُ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ، فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (أَخْذاً مِنْ نُصُوصٍ قرآنِيَّةٍ أُخرى)، وأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا.

«أَنْ» في الْعِبَارَةِ: تَفْسِيرِيَّةٌ، وَهِيَ بمعنَىٰ «أيْ»، وهِي الَّتِي يَسْبِقُهَا مَعْنَىٰ الْقَوْلِ دُونَ حُرُوفه.

أَصْلُ الصُّنْعِ الْعَمَلُ، واشْتَهَرَ في الدَّلَالَةِ عَلَىٰ الْعَمَلِ الَّذِي يَتَطَلَّبُ

خِبْرَةً وَمَهارَةً ما، ومَعْلُومٌ أَنَّ بِناءَ سَفِينَةٍ تَجْرِي فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ، وتَحْمِلُ بَشَراً وَبَهائِمَ وَمَوَادَّ تَمْوِينيَّةً، وَتَتَعَرَّضُ لِهُطُولِ أَمْطَارٍ غَزِيرَةٍ عَلَيْهَا كَأَفْوَاهِ الْقِرَبِ، وَيَتَقَاذَفُهَا مَوْجٌ كالْجِبَالِ؛ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مَهارَةٍ صِناعِيَّةٍ رَفِيعَةٍ جِدًّا، يُبَاشِرُهَا ذُو خِبْرَةٍ عَالِيَةٍ فِي الْهَنْدَسَةِ والْبِنَاءِ والتَّفْصِيلِ والتَّرْكِيبِ، وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ إِحَاطَةٍ بالتَّوجِيهِ والتَّسْدِيدِ التَّامَّيْنِ، حَذَراً مِنْ وُقُوعِ الْخَلَلِ أو الْخَطَأِ الَّذِي قَدْ يُودِي بركّابِ السَّفِينَةِ إِلَىٰ الْغَرَقِ السَّرِيعِ، باعْتِبَارِ أَنَّ المطْلُوبَ صُنْعُهُ عَمَلٌ مُبْتَكر، لَمْ يَخْضَعْ لتجارِبَ، وإِنَّمَا يُصْنَعُ لِيَكُونَ هُوَ وَسِيلَةَ النَّجَاةِ مُبَاشَرَةً بَعْدَ إِتْمَامِ الصُّنْعِ.

ومع أَنَّ نُوحاً عَلَيْهِ السَّلام قَدْ كَانَتْ لَهُ خِبْرَةٌ بالنّجارةِ؛ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَصْنَعُ سُفُناً بَحْرِيَّة، وَلَا كَانَ لِأَحدٍ مِنَ النَّاسِ عِلْمٌ بالسُّفُنِ في زَمَانِهِ، لِهَـٰذَا كَانَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِحَاجَةٍ إِلَىٰ أَنْ يُوحِيَ اللهُ إِلَيْهِ بِمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ لِصُنْعِهَا، وأَنْ يُحَاطَ بالْعِنَايَةِ والْمُرَاقَبَةِ والتوجِيهِ والحفظ مِن اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، دَلَّ عَلَى هـٰذَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ أي: بِعِنَايَتِنَا وَمُرَاقَبَتِنَا الدَّائِمَةِ لَكَ، وَوَحْينَا إِلَيْكَ بِمَا يَنْبَغِي أَنْ تَفْعَلَهُ.

الْفُلْك: يُطْلَقُ عَلَىٰ كُلِّ مَرْكَبَةٍ بَحْرِيَّةٍ تَجْرِي فِي الماء، ولفظ «الْفُلْكِ» يُذَكَّرُ وَيُؤَنَّثُ، وَيُسْتَعْمَلُ لِلْوَاحِدِ والْجَمْعِ.

• ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ....﴾:

وَقرأ جُمْهُورُ الْقُرَّاءِ: [مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ] بإضَافَةِ لفظ «كُلِّ» إلى «زَوْجَيْنِ»، أي: مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ مِنْ أَصْنَافِ الْبَهَائِم اثْنَينِ، وَلَا تَحْمِلْ أَكْثَر، فالاثنانِ ذكرٌ وأنثَىٰ مَعَ الْعِنَايَةِ الرَّبَّانِيَّةِ يَكْفِيانِ للتَّكَاثُرِ فيمَا بَعْدُ.

والتَّنْوِينُ في لفظ «كُلٍّ» عَلَىٰ قِراءة حفْصٍ عِوَضٌ عَنِ المضَافِ إِلَيْهِ المحذوف.

• ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾: أي: فإذا جاءَتْ مُقدِّماتُ تنفيذِ أمْرِنا بإهْلاكِ ظالمِي قَوْمِكَ غَرَقاً:

• ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾: **التَّنور**: هُوَ الْفُرْنُ الَّذِي يُخْبَزُ فِيهِ، وَرُوِيَ عَنْ عَلِيِّ بن أَبي طالِبٍ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ: أَنَّ التَّنُّورَ وَجْهُ الأَرْضِ، وَجاءَ فِي اللُّغَةِ أَنَّ كُلَّ مَفْجَر ماءٍ تَنُّورٌ، وَكُلُّ هٰذِهِ الْمَعَانِي صَالِحَةٌ.

أي: وَفَارَتِ الْعُيُونُ فَوَرَاناً زَائِداً عَنْ عَادَتِها، وَفَارَ وَجْهُ الأرْضِ بِالْمَاءِ مِنَ المواقِعِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ تَتَفَجَّرُ فيها عُيُونُ الْمَاءِ، حَتَّىٰ الْأَمَاكِنُ الْبَعِيدَةُ عَنْ مَوَاطِنِ الْعُيُونِ، كالمخابزِ فَارَت أيْضاً بالماء.

يقال لغة: «فَارَ الْمَاءُ، يَفُورُ، فَوْراً، وَفَوَرَاناً» أي: خَرَجَ مِنَ الأرضِ وَجَرَىٰ مُتَدَفِّقاً، فَهُوَ «فَوَّارٌ».

• ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا﴾: أي: فَأَدْخِلْ فِي الْفُلْكِ بانْتِظَامٍ وإِحْكَامٍ.

• ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾: أي: مِنْ كُلِّ نَوْعٍ مِنَ الْأَحْيَاءِ الَّتِي يُهِمُّكَ حَمْلُهُ للتَّكَاثُرِ عِنْدَ الْهُبُوطِ مِنَ الْفُلْكِ إِلَىٰ الْأَرْضِ الْيَابِسَةِ؛ زَوْجَيْنِ، أَحَدُهُمَا ذَكَرٌ والآخَرُ أُنْثَىٰ.

• ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾: أي: واسْلُكْ فِي الْفُلْكِ أَهْلَكَ كُلَّهُمْ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ الصَّادِرُ عَنَّا بِأَنَّهُ مِنَ الْمُغْرَقِينَ، لِأَنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ وَبَقِيَ عَلىٰ دِينِ قَوْمِهِ، وَدَلَّ نَصٌّ في القرآنِ المجيد؛ عَلَىٰ أَنَّ أَحَدَ أَوْلَادِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ، وَأَنَّهُ كَانَ مِنْ أَهْلِهِ نَسَباً، لَكِنَّهُ بِكُفْرِهِ قَطَعَ حَقَّهُ في أَنْ يَكُونَ مِنْ أَهْلِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَام.

• ﴿... وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾﴾: أي: وَلَا تُخَاطِبْنِي يَا نُوحُ فِي رَفْعِ هٰذَا الْعِقَابِ عَنْهُمْ، أَوْ إِمْهَالِهِم، أَوِ التخفيف عنهم، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، فَأَمْرُ إِهْلَاكِهِمْ جَمِيعاً صَارَ قَضَاءً مُبْرَماً، وَطَرِيقَةُ إِهْلَاكِهِمْ سَتَكُونُ إغراقاً بالماء، مَعَ أَنَّهُمْ فِي بَرٍّ آمِنٍ مِنَ الْغَرَقِ بِحَسَبِ الْعَادَة.

● ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾﴾:

أي: فَإِذَا حَصَلَ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ الاسْتِقْرَارُ الْمُلَائِمُ المسْتَوِي الَّذِي لَا يَجْعَلُ بَعْضَ جَوَانِبِ الْفُلْكِ أثْقَلَ مِنْ مُقَابِلِهِ، لِتَكُونَ عِنْدَ الْجَرْيِ مُسْتَوِيَةً عَلَىٰ الماءِ، وأَخَذَتْ تَجْرِي مُسْتَوِيَةً؛ فَاذْكُرِ اللهَ بالثناءِ عَلَيْهِ، واحْمَدْهُ فَقُلْ: الْحَمْدُ للهِ الَّذِي نَجَّانَا بِتَدْبِيرِهِ وَعِنَايَتِهِ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ، أَيْ: مِنْ دَرَكَةِ أَشْنَعِ الكُفْرِ مَعَ تَهْدِيدِ رَسُولِ رَبِّهِمْ عَلَيْهِ السَّلَام وَتَهْدِيدِ أَهْلِهِ بالرَّجْمِ، للتَّخَلُّصِ مِنْ دَعْوَتِهِمْ إِلَىٰ دِينِ اللهِ الْحَقِّ، وَنَبْذِ الشِّرْكِ والأَوْثَانِ الَّتِي يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

نَجَّانَا: أي: خَلَّصَنا وَأَنْقَذَنا.

● ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾:

أي: وقُلْ يا نُوحُ رَبِّ أَنْزِلْنِي (أي: أنا وَمَنْ مَعِيَ) مُنْزَلاً مُبارَكاً (أي: مَكَانَ إِنْزَالٍ مُبارَكٍ، وإِنْزَالاً مُبارَكاً فِيهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ لَنا)، وأَنْتَ رَبِّ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ لِلْعِبَادِ - إِذَا شِئْتَ - الْخَيْرَ الكَثِيرَ لَهُمْ.

عبارة: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ عِبَارَةُ ثَنَاءٍ عَلَىٰ اللهِ تَتَضَمَّنُ دُعَاءً بأَنْ يُنْزِلَهُمْ بَعْدَ الرِّحْلَةِ الْبَحْرِيَّةِ خَيْرَ مَكَانِ نُزُولٍ وَخَيْرَ إِنْزَالٍ.

● ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾: أي: إِنَّ فِيمَا عَرَضْنَاهُ مِنْ قِصَّةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَام وَقَوْمِهِ فِي هٰذِهِ السُّورَةِ؛ آيَاتٍ عَدِيداتٍ دَالَّاتٍ عَلَىٰ طائِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ الرَّبِّ الْعَظِيمَة، وأَسْمَائِهِ الحسْنَىٰ، ومِنْهَا حِكْمَتُهُ فِي امْتِحَانِ عباده، وفي مجازاتِهِمْ بالْعَدْلِ وَبالفضل.

لَمُبْتَلِينَ: أي: لِمُمْتَحِنِينَ عِبَادَنا جَمِيعاً مَنْ كَفَرَ مِنْهُمْ وَمَنْ آمَنَ حَتَّىٰ رُسُلُنا، «وَإِنْ» هٰذِهِ المخَفَّفَةُ مِنَ الثَّقِيلَة، واللام هي الفارقة بَيْنَها وَبَيْنَ النَّافِيَة.

وبهٰذا انتهى تَدَبُّر الدّرس الرابع من دُرُوس سورة (المؤمنون).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

❁ ❁ ❁

(٩)
التدبُّر التحليلي للدَّرس الخامس من دُروس سورة (المؤمِنُون)
الآيات من (٣١ ـ ٤١)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾.

القراءات:

(٣٢) • قرأ يعقوب: [**فِيهُمْ**] بضَمِّ الْهَاءِ.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**فِيهِمْ**] بِكَسْرِ الهاء.

(٣٢) • قرأ أبو عمْرو، وعاصم، وحمزة، ويَعْقُوبُ: [**أَنِ اعْبُدُوا**] بِكَسْرِ النُّون.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**أَنُ اعْبُدوا**] بِضَمِّ النُّون.

(٣٢) • قرأ الكِسَائِيُّ، وأَبُو جَعْفر: [**مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ**] بجر (غيره) مراعاة للفظ «إله».

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ**] بِرَفْعِ (غيره) مراعاة لِمَحَلِّ «إله».

(٣٥) • قرأ نافع، وحفص، وحمزة، والكِسائي، وخلف: [مِتُّمْ]، وهي لغةٌ مَسْمُوعَة.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [مُتُّمْ] على القياس.

فالقراءتان وجهان عَرَبيان.

(٣٦) • قرأ أبو جَعْفَر: [هَيْهَاتِ هَيْهَاتِ] بِكَسْرِ التاءِ فيهما.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ] بِفَتْحِ التاء فيهما.

وهما وَجْهَانِ عَرَبيان.

(٣٩) • قرأ يَعْقُوب: [كَذَّبُونِي] بإثباتِ ياء المتكلّم في الوصْلِ والوقف.

وقَرأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [كَذَّبُونِ] بحذف ياء المتكلّم مع ملاحظتِها ذهْناً.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ عَرْضُ لقَطَاتٍ مُوجَزَاتٍ مِنْ قصَّةِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وقَوْمِهِ عادٍ، دُونَ تَصْرِيحٍ بذكْرِ اسْمِ هود عَلَيْهِ السَّلَام واسم قَوْمِه.

وقَدْ سَبقَتْ دِرَاسَةُ هـٰذَا الدَّرْسِ دِرَاسَة تَدَبُّرِيَّة تكامُلِيَّة؛ في المُلْحَقِ الثَّانِي مِنْ مَلَاحِقِ تَدَبّر سورة (هود/ ٥٢ نزول).

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ مَنْ أَنْشَأَهُمْ بَعْدَ إِهْلَاكِ قَوْمِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَام الكَفَرَة:

• ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾﴾: أي: وَبَعْدَ إِهْلَاكِ قَوْمِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَام، وَمُرُورِ مُدَّةٍ مُتَراخِيَةٍ مِنَ الدَّهْرِ؛ أَنْشَأْنَا قَرْناً آخَرِين، يُطْلَقُ «الْقَرْنُ» ويُرَادُ بِهِ أَهْلُ زَمَانٍ واحِدٍ، لِأَنَّهُمْ اقْتَرَنُوا معاً فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ.

وكُلُّ قَوْمٍ لِرَسُولٍ عَاشُوا في زَمَانِهِ هُمْ قَرْنُهُ. دلَّ عَلى مُرُورِ مُدَّةٍ غير قصيرةٍ حرف العطف «ثُمَّ».

وهَؤُلَاءِ هُمْ «عَادٌ» قَوْمُ النَّبِيِّ الرَّسُولِ «هُودٍ» عَلَيْهِ السَّلَام.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِهِم:

● ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾﴾:

وفي القراءة الأخرىٰ: [**مَا لَكُمْ مِنْ إلَهٍ غَيْرِهِ**] مُرَاعَاة لِحَرَكَة حَرْفِ الجرّ الزّائد في: [**مِنْ إلَهٍ**].

أي: فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ نَسَباً ولُغَةً وَمَكَانَ إِقَامَةٍ هو «هُودٌ عَلَيْهِ السَّلَام»، بِرِسَالَةٍ كَلَّفْنَاهُ فِيها أَنْ يَقُولَ لَهُمْ: اعْبُدُوا اللهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، إِذْ مَا لَكُمْ مِنْ إلَهٍ غَيْرُه، وأَنْ يَقُول لَهُمْ وَاعِظاً وَمُحَذِّراً لَهُمْ مِن عِقَابِ رَبِّهِمْ عَلَىٰ شِرْكِيَّاتِهِمْ وَلَوَازِمِ شِرْكِيّاتِهِمْ في السُّلُوكِ الظَّاهِرِ والْبَاطِنِ: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، بَعَرْضٍ مَشُوبٍ بِتَلْوِيمٍ إذَا لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَتِهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بَيَانَ لَقَطَاتٍ مِنْ مُوجَزِ قِصَّةِ هود عَلَيْهِ السَّلام مع قَوْمِهِ:

● ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾:

المَلأُ: أَشْرَافُ الْقَوْمِ وأَعْيَانُهُمْ، وَقَدْ وَصَفَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ مَلأَ قَوْمِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَام بثلاثِ صِفَاتٍ:

الصِّفَة الأُولَىٰ: أَنَّهُمْ كَفَرُوا كُفراً إِرَادِيًّا، بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ مِنْ حَقٍّ أَدْرَكُوا أَنَّهُ حَقٌّ، بالبراهين الَّتِي قُدِّمَتْ لَهُمْ، بِشأْنِ رُبُوبِيَّةِ اللهِ الواحِدِ الأَحَدِ، وأَنَّهُ الإلَهُ الَّذِي لَا إلَهَ بِحَقٍّ غَيْرُهُ.

الصِّفَةُ الثانِيَة: أَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِيَوْمِ الدِّينِ، والْحَيَاةِ الآخِرَةِ، ولِقَاءِ اللهِ فيها لِلْحِسَابِ وفَصْلِ القضاء وتَحْقِيقِ الجزاء.

الصِّفَةُ الثالِثَة: أَنَّهُمْ كَانُوا مُتْرَفِينَ قَدْ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِمْ بِكَثِيرٍ مِنْ مَتَاعَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنيا، فَكَانُوا يَسْتَكْبِرُونَ بها.

المترف: هو الكثيرُ الاسْتِمتَاعِ بِمَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ مِنْ مَتَاعَاتِ الحياةِ الدُّنيا، ويأتي لفظ «الْمُتْرَفِ» بمَعْنَىٰ الْبَطِرِ المسْتَكْبِرِ.

الواو في: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ تَعْطِفُ على محْذوف، وهو كُلُّ مَا قَالُوهُ في قِصَّتِهِمْ مَعَ رَسُولِهِم، ورفْضِهِمُ الاسْتِجَابَةَ لِدَعْوَتِهِ، قَبْلَ أَنْ يَتَوَجَّهُوا لِجَمَاهِيرِهِمْ، بُغْيَةَ صَدِّهِمْ عَنِ الاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَة هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَام.

أي: وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ عَادٍ لِجَمَاهِيرِهِمْ: مَا هـٰذَا الَّذِي يَدَّعِي أَنَّهُ رَسُولُ رَبِّكُمْ وَيَأْتِيكُمْ بِبَلَاغَاتٍ عَنْهُ؛ إِلَّا بَشَرٌ مِنَ الْبَشَرِ مِثْلِكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ مِنْ طَعَام، وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ مِنْهُ مِنْ شَرَاب، فَهُوَ لَا يَصْلُحُ لِأَنْ يَكُونَ رَسُولاً يَتَلَقَّىٰ عَنِ اللهِ الْأَوَامِرَ والنَّوَاهِي والتَّعليمَاتِ، إِنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ رَسُولُ اللهِ مَلَكاً مِنَ الملائكةِ.

هـٰذِهِ مَقُولَةٌ تَضْلِيلِيَّةٌ كاذِبَةٌ، بَلِ الْحِكْمَةُ تَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ إِلَىٰ الْبَشَرِ بَشَراً مِثْلَهُمْ.

وَقَالُوا لجماهِيرِهِمْ أيضاً:

- ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾:

أي: وَنُقْسِمُ لَكُم بِأَنَّكُم أَيُّهَا الْجَمَاهِيرُ إِنْ أَطَعْتُمْ واتَّبَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ يَدْعُوكُمْ إِلَىٰ نَبْذِ مَا كَانَ عَلَيْهِ آبَاؤُكُمْ وَأَجْدَادُكُمْ مِنْ عِبَادَةِ آلِهَةٍ مِنْ دُونِ اللهِ، وَتَرْكِ عَادَاتِكُمْ وَتَقَالِيدِكُم الْمَوْرُوثَةِ؛ إِنَّكُمْ حينَئِذٍ لَخَاسِرُونَ.

عِبَارَاتٌ مَشْحُونَاتٌ بالْمُؤَكِّدَاتِ بُغْيَةَ الإِقْنَاعِ بِالْبَاطِلِ الَّذِي يُرِيدُ كُبَرَاءُ عَادٍ إِقْنَاعَ جَمَاهِيرِهِمْ بِهِ.

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بَيَانَ مَقَالَاتِ مَلأ عَادٍ لِجَمَاهِيرهم بُغْيَة صَدِّهِمْ عَنِ الاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَةِ رَسُولِهِمْ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَام:

• ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ (٣٥) ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨)﴾:

أي: وَقَالَ مَلأُ قَوْم هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَام لِجَمَاهِيرِهِمْ بأُسْلُوب الاسْتِفْهَامِ الإنْكَارِيّ الاسْتِهْزَائي: أَيَعِدُكُمْ وَعْداً عَجِيباً مُسْتَغْرَباً بَعِيداً عَمَّا يُقْبَلُ في الْعُقُولِ، فَيَذْكُرُ لَكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ، وَدُفِنْتُمْ في قُبُورِكُمْ، وَبَلِيَتْ أَجْسَادُكُمْ، وَصِرْتُمْ تُرَاباً وعِظاماً نَخِرَةً بَالِيَةً؛ سَوْف تُبْعَثُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحْيَاءً، وَتُخْرَجُونَ مِنْ قُبُورِكُمْ، لِتُلَاقُوا حِسَابَ رَبِّكُمْ، وَحُكْمَهُ فِيكُمْ، ثُمَّ لِيُجَازِيَكُم عَلَىٰ أَعْمَالِكُمْ؟؟!.

وقَالُوا: ﴿۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦)﴾:

هَيْهَات: اسم فعْلِ مَاضٍ بمَعْنَىٰ «بَعُدَ»، أي: مَا تُوعَدُونَهُ مِنَ الْبَعْثِ والحياة الْأُخْرَىٰ أَمْرٌ مُسْتَغْرَبٌ مُسْتَبْعَدٌ لَا تُصَدِّقُهُ الْعُقُول.

وَبَعْدَ هٰذَا الاستِبْعَادِ الَّذِي لَا يَقْتَرِنُ بِحُجَّةٍ عَقْلِيَّةٍ؛ تَصَوَّرُوا أَنَّ جَمَاهِيرَهُمْ اقْتَنَعُوا بِمَقَالَتِهِمْ، فَقَالُوا لَهُمْ جازِمِينَ: مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا، يَمُوتُ مَنْ يَمُوتُ فيها، وَيَحْيَا مَنْ يَحْيَا فِيها فَقَطْ، وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ لِلْعَيْشِ في ظُرُوفِ حَيَاةٍ أُخْرَىٰ.

وَشَعَرَ مَلأُ «عَادٍ» أَنَّهُمْ اسْتَحْوَذُوا عَلَىٰ نُفُوسِ جماهِيرِهِمْ فَقَالُوا لَهُمْ بِشَأْنِ رَسُولهمْ «هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَام»:

• ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨)﴾:

أي: مَا هُوَ إِلَّا رَجُلٌ كَاذِبٌ فِي ادِّعَائِهِ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ، وَمَا نَحْنُ بِمُؤْمِنِين به، وَلَا بِمُسْلِمِينَ له.

ضُمِّنَ لفظ «مُؤْمِنِينَ» الذي يُعَدَّى بالباء؛ معنى لفظ «مُسْلِمِينَ» الذي يُعَدَّىٰ باللَّام، فَعُدِّيَ تَعْدِيتَهُ، فجاءت العبارة: ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُبَيِّنُ بإيجازٍ شَدِيدٍ نِهَايَةَ عَادٍ بإهْلَاكِهِمْ، وَدُعَاءَ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَام رَبَّهُ بأَنْ يَنْصُرَهُ كَمَا دَعَا نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَام مِنْ قبل:

● ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾:

أي: قَالَ هُودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ في آخِرِ مَسِيرَتِهِ الدَّعَوِيَّةِ لِقَوْمِهِ، بَعْدَ أَنْ يَئِسَ مِنْ إيمَانِهِمْ واسْتِجَابَتِهِمْ لِدَعْوَتِهِ: رَبِّ انْصُرْنِي بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ لي.

فقال اللهُ لَهُ وَحياً: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾: أي: بَعْدَ زَمَنٍ قَلِيلٍ أُأَكِّدُ لَكَ أَنَّهُمْ يُصْبِحُونَ نَادِمِينَ، إِذْ يَأْتِيهِمْ عَذَابُنَا في الصَّبَاحِ. لفظ «مَا» بَعْدَ «عَنْ» في ﴿عَمَّا﴾ حَرْف زَائِدٌ لِتَوْكِيدِ قِلَّةِ الزَّمَن.

ونَزَلَ بِهِمْ عِقَابُ اللهِ فِي الْوَقْت المقَدَّرِ لإهْلَاكِهِمْ، فَأَخَذَتْهُمْ مَعَ الرِّيَاحِ الَّتِي أَرْسَلَهَا عَلَىٰ أَرْضِهِمُ الصَّيْحَةُ الْعُظْمَىٰ، وهِيَ صَوْتٌ عَظِيمٌ مُهْلِكٌ، وتُطْلَقُ الصَّيْحَةُ على الْعَذَابِ، وَكَانَ أَخْذُهَا لَهُمْ مِنَ الحياةِ مَعَ تَعْذِيبِهِمْ أَخْذاً بالْحَقِّ، إِذْ كَانُوا ظَالِمِينَ.

● ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً﴾: أي: فَجَعَلْنَاهُمْ بَعْدَ إِهْلَاكِهِمْ مِثْلَ الْغُثَاء، وَهُوَ مَا يَحْمِلُهُ السَّيْلُ مِنْ رَغْوَةٍ وَمِنْ فُتَاتِ الْقُمَامَاتِ والْأَشْيَاءِ الَّتِي تَكُونُ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ فَيَحْمِلُهَا السَّيْل.

● ﴿... فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾: أي: فَطَرْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ مِنْ مَوَاقِعِ تَنَزُّلَاتِ آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

وبهـٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدَّرس الخامس مِنْ دُرُوس سورة (المؤمِنُون).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

❀ ❀ ❀

(١٠)
التدبُّر التحليلي للدّرس السادس من دُروس سورة (المؤمِنُون) الآيات من (٤٢ ـ ٤٤)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾:

القراءات:

(٤٤) • قرأ أَبو عَمْرو: [رُسْلَنَا] بإسْكَانِ السّين.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [رُسُلَنا] بِضَمّ السِّين.

وهُمَا نُطْقَانِ عَرَبيّان.

(٤٤) • قرأ ابْنُ كثير، وأَبُو عَمْرو، وأَبُو جَعْفَر: [تَتْراً] بالتَّنْوين وصلاً، وبإبْدَالِهِ أَلِفاً وَقْفاً.

وقرأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [تَتْرَا] وصْلاً وَوقْفاً.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانٌ مُجْمَلٌ عَنْ رُسُلٍ أَرْسَلَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بَعْدَ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَام لِعَدَدٍ مِنَ الْأَقْوَام، وعَنْ رُسُلٍ تَتَابَعَتْ بَعْدَ ذٰلِكَ، وأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَهْلَكَ أَقْوَامَهُمُ الَّذِينَ كَذَّبُوهُمْ وَرَفَضُوا الاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَتِهِمْ، وَكَانَ إِهْلَاكُهُ لَهُمْ مِنْ آثارِ حِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وَعَظَمَ سُلْطَانَهُ، وَأَحَاطَ عِلْمُهُ بِكُلِّ شيء، وهُوَ عَلَىٰ مَا يَشاءُ قَدِير.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يَتَحَدَّثُ بِضَميرِ المتكلِّم العظيم:

• ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾:

أيْ: وَبَعْدَ مُدَّةٍ مُتَراخِيَةٍ مِنَ الزَّمَنِ الَّذي أَهْلَكْنَا بِهِ عاداً قَوْمَ «هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَام» أَنْشَأْنَا قُروناً مُتَعَدِّدِينَ آخِرِينَ.

القَرْنُ: هو من الناس أَهْلُ زَمَانٍ واحد، وَكُلُّ قَوْمِ رَسُولٍ عَاشُوا في زَمَانِهِ هُمْ قَرْنُهُ.

وَأَرْسَلْنَا إِلَىٰ هَـٰذِهِ الْقُرُونِ رُسُلاً، فَكَذَّبُوهُمْ، وَكَفَرُوا بِمَا جَاءُوهم بِهِ وَحَياً مِنْ لَدُنَّا، فَاسْتَحَقُّوا الإهْلَاكَ كَمَا أَهْلَكْنَا عَاداً، فَأَهْلَكْنَاهُمْ، أشار إِلَىٰ هـٰذَا قَوْلُ اللهِ تعالَىٰ: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾﴾.

هـٰذَا الاسْتِعْمَالُ جاء في الآية (٥) من سورة (الحجر/ ٥٤ نزول) بَعْدَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ فِيها: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾﴾.

وسَائِرُ نظائرِهِ جَاءَتْ في مَعْرِضِ إِهْلَاكِ مُسْتَحِقِّي الإهْلَاكِ مِنْ أقوام الرُّسُلِ عَلَيْهِم السَّلَام.

والمعنىٰ: لِكُلِّ أُمَّةٍ كافِرَةٍ قَدَّرَ اللهُ وَقَضَىٰ إِهْلَاكَها بِكُفْرِهَا، وَتَكْذِيبِهَا رُسُلَ رَبِّهَا؛ لَا بُدَّ أَنْ يُهْلِكَهَا في الْوَقْتِ الَّذِي قَدَّرَهُ لإهْلَاكِهَا، دُونَ تَقْدِيمٍ أَوْ سَبْقٍ، وَلَا تَأْخِير.

اسْتَأْخَرَ: طَلَبَ تَأْخِيرَ مَا حَلَّ أَجَلُهُ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بضمير المتكلّم العظيم:

• ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾:

تَتْراً وتَتْرَىٰ: يُقَال لغة: «جَاءُوا تَتْراً، وجَاءُوا تَتْرَىٰ» أي: متواتِرِينَ، وأَصْلُهُ من «وَتَرَ»، والتتابُعُ يُقْصَدُ بِهِ تتابُعٌ مع فَاصِلٍ زَمَنِي بَيْنَ كُلِّ واحِدٍ مِنْهُمْ وآخر.

أي: وَبعْدَ مُدَّةٍ مُتَرَاخِيَةٍ من الزَّمَنِ الَّذِي أَهْلَكْنَا بِهِ قُروناً كَذَّبَتْ رُسُلَ رَبِّهِمْ وَكَفَرُوا بِمَا جَاءَوهُمْ بِهِ؛ أَنْشَأْنَا أُمَمَا مُتَعَدِّدَةً، وأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً تَتْرَىٰ مُتَتَابِعِينَ مَعَ فَوَاصِلَ زَمَنِيَّة، فَكَانَ مِنْ شَأْنِ هَـٰذِهِ الْأُمَمِ أَنَّهُمْ كُلَّمَا جَاءَت أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ، فَأَهْلَكْنَاهُمْ مُتَتَابِعِينَ، وأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ في الإِهْلَاكِ بَعْضاً.

• ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾: أي: وَلَمْ نُبْقِ أثراً لِأَجْسَادِهِمْ، فَصَارُوا أَحَادِيثَ تُرْوَىٰ يَتَحَدَّثُ عَنْهُمُ الرُّوَاةُ الإِخْبَارِيُّونَ، دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ وُجُودٌ فِي الْحَيَاةِ.

• ﴿... فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾: أي: فَطَرْداً مِنْ حَيَاةِ الابْتِلَاءِ مُوجَّهاً لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ، أي: لَيْسَ لَدَيْهِمُ اسْتِعْدَادٌ لِأَنْ يُؤْمِنُوا وَيَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَةِ الْحَقِّ، مَهْمَا أُمْهِلُوا، إِذْ بَلَغُوا إِلَىٰ دَرَكَةٍ مَيْؤُوسٍ مَعَها أَنْ يُؤْمِنُوا عَنْ طَرِيق إِرَادَاتِهِمُ الْحُرَّةِ.

وبهـٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس السَّادِس من دُرُوس سورة (المؤمِنُون).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(١١)
التدبُّر التحليلي للدّرس السابع من دُروس سورة (المؤمنون)
الآيات من (٤٥ ـ ٤٩)

قال الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾:

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ إيجازٌ فِي لَقَطاتٍ مُخْتَزَلَاتٍ لِقِصَّةِ موسَىٰ وَهارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وإِرْسَالِهِمَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ، مَعَ بَيَانِ إيتَاءِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ كِتَابَ التَّوْرَاةِ رَغْبَةً فِي هِدَايَةِ الَّذِينَ كَلَّفَهُمُ اللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ أَنْ يَعْمَلُوا بِمَا جَاءَ فِيهِ مِنْ شَرَائِعَ وأَحْكَام.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يَتَحَدَّثُ بِضَمِيرِ المتكلِّم العظيم:

• ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾﴾:

أي: وَبَعْدَ مُدَّةٍ مُتراخِيَةٍ مِنَ الزَّمَنِ الَّذِي أَهْلَكْنَا فِيهِ أُمَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلَنَا تَتْرَىٰ، كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوه، أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ ابن عمران وَأَخَاهُ هَارُونَ ـ عَلَيْهِما السَّلَام ـ مَصْحُوبَيْنِ بآيَاتِنَا التّسع، وهي: «١ ـ العصا ٢ ـ اليد ٣ ـ القُمَّل ٤ ـ الضَّفادع ٥ ـ الدّم ٦ ـ الطوفان ٧ ـ الجراد ٨ ـ السِّنون وهي سنوات الجدْبِ والْقَحْطِ ٩ ـ نَقْص الثمرات».

• ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾﴾: أَيْ: وَحُجَّةٍ بُرْهَانِيَّةٍ وَاضِحَةٍ تَكْشِفُ صِحَّةَ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ مُوسَىٰ وهَارُون عَلَيْهِما السَّلَام، وَفَسَادَ مَا عَلَيْهِ فِرْعَوْنُ وَمَلَؤُهُ وَمِنْ وَرَائِهِمَا الْمِصْرِيُّون.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابعاً:

• ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾:

أي: إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وهُوَ مَلِكُ مِصْرَ في زَمَانِ مُوسَىٰ وهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَام، وإِلَىٰ مَلَئِهِ، وهُمْ وُزَرَاؤُه وأَعْوَانُهُ في سُدَّةِ الْحُكْمِ، وَمُسْتَشَارُوه، وَعِلْيَةُ قَوْمِهِ، ويُلْحَقُ بِهِمْ سَائِرُ الْمِصْرِيِّين، لِأَنَّ دِينَهُمْ تَابعٌ لِدِينِ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ.

• ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا﴾: أي: فامْتَنَعُوا عَنْ قَبُولِ الْحَقِّ مُعَانَدَةً وَتَكَبُّراً، واشْتَدُّوا فِي تَكَبُّرِهِمْ.

• ﴿... وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾: أيْ: وَكَانُوا قَوْماً قَدْ وَضَعُوا أنْفُسَهُمْ بِمَا لَدَيْهِمْ مِنْ جُنُودٍ مُطِيعِينَ، وَأَمْوَالٍ كَثِيرَةٍ، وَقُصُورٍ وَجَنَّاتٍ؛ مَوْضِعاً عَالِياً رَفِيعاً جِدًّا بَيْنَ الْمِصْرِيِّينَ، وَفَوْقَ الإسْرَائِيلِيِّينَ الَّذِينَ جعلُوهُمْ عَبيداً لَهُمْ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً:

• ﴿فَقَالُوٓا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾:

أي: فقال فِرْعَوْنُ وَمَلَؤُهُ بِأُسْلُوب الاسْتِفْهَامِ الإنْكَارِيِّ الاسْتِكْبَارِيّ: أَنُؤْمِنُ مُسْلِمِينَ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَهُمَا مُوسَىٰ وهَارُونُ، وَإِنْ جَاءَا بآياتٍ عَظِيمَاتٍ تُثْبِتُ صِحَّةَ ادِّعَائِهِما، وَصِحَّةَ الدِّينِ الذي يَدْعُوانِ إِلَيْهِ؛ والحالُ أَنَّ قَوْمَهُمَا وهُمْ بَنُو إِسْرَائيل لَنَا عَابِدُونَ مُسَخَّرُونَ لِخِدْمَتِنَا؟؟!!.

فَكَذَّبُوهُمَا اسْتِكْبَاراً وعِنَاداً مُصِرِّينَ عَلَىٰ باطِلِهِمْ وَتَقَالِيدِهِمُ الْعَمْيَاء.

• ﴿... فَكَانُوا مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾: أي: فَاقْتَضَتْ حِكْمَتُنَا أَنْ نُهْلِكَهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ، كَمَا أَبَنَّا في غَيْرِ هٰذَا الموضِعِ مِنَ الْقُرْآن، ومِنْهُ مَا سَبَقَ بَيَانُهُ فِي نُجُومِ التَّنْزِيلِ، فَكَانُوا مِنْ زُمَرِ الْمُهْلَكِينَ الَّذِينَ أَهْلَكْنَاهُمْ فِي تَاريخ النَّاس، بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ رُسُلَنَا الصَّادِقِينَ المؤيَّدِينَ مِنَّا بالآيات الْبَيِّنات.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً:

• ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾:

أي: وَنُقْسِمُ لَكُمْ مُؤَكِّدِينَ أَيُّها النَّاسُ الَّذِينَ تَتَلَقَّوْنَ بيَانَنا هٰذا؛ أَنَّنا

آتَيْنَا مُوسَىٰ ـ عَلَيْهِ السَّلَام ـ الكِتَابَ، وَهُو كِتَابُ التَّوْرَاةِ، بَعْدَ إهْلَاكِ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ وجُنْدِهِ بآيَةِ فَلْقِ الْبَحْر، رَغْبَةً في أَنْ يَهْتَدِيَ بَنُو إسْرَائِيلَ بِمَا جَاءَ فِيهِ من هِدَايَةٍ للنَّاسِ.

وبهـٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس السَّابعِ من دُرُوس سورة (المؤمنون).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

❁ ❁ ❁

(١٢)
التدبُّر التحليلي للدّرس الثامن من دُروس سورة (المؤمِنُون) الآية (٥٠)

قال الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۝٥٠﴾:

القراءات:

(٥٠) • قرأ ابْن عامر، وعَاصِمٌ: [رَبْوَةٍ] بفَتح الراء.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [رُبْوَةٍ] بضَمِّ الراء.

رَبْوَة، وَرُبْوَة، وَرِبْوَة: مَا كَانَ مُرْتَفِعاً مِن الْأَرْض ارْتِفَاعاً لَا يَصِلُ إِلىٰ مُسْتَوىٰ جَبَل، فالْقِرَاءَتانِ نُطْقَانِ عَربيان.

تَمْهيد:

في آية هـٰذَا الدَّرْسِ لقْطَةٌ عَنْ عِيسَىٰ وأُمِّهِ مَرْيَمَ عَلَيْهِمَا السَّلَام، وإِيوائِهِمَا إلى رَبْوةٍ ذَاتِ قَرَارٍ ومَعِينٍ.

التدبّر التحليلي:

الْقَرَار: المكَانُ الَّذِي يَثْبُتُ فِيهِ الشيءُ، ومَصْدَرُ «قَرَّ» بمَعْنَىٰ أَقَامَ، وبِمَعْنَىٰ سَكَنَ واطْمَأَنَّ.

• ﴿وَمَعِينٍ﴾: أي: وَمَاءٍ جَارٍ يَسْهُلُ التَّنَاوُلُ مِنْه كَنَهَرٍ، أَوْ جَدْوَلٍ.

الْمَعْنَىٰ: وَجَعَلْنَا عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيم فِي حَمْلِ أُمِّهِ بِهِ دُونَ أَنْ يَمَسَّ أَمَّهُ ذَكَرٌ في زَوَاجٍ أَوْ غَيره؛ آيَةً مِنْ آيَاتِنَا الْمُخَالِفَةِ لِسُنَّةِ التَّنَاسُل.

وَتَعَرَّضَ الأَطْفَالُ الصِّغَار لِأَوَامِرِ قَتْلٍ في بَيْتِ لَحْم مِنْ قِبَلِ «هِيرُودُس» مَلِكِ فِلِسْطِين بِمُوَافَقَةِ رُوما، خَوْفاً مِنْ أنْ يَظْهَرَ وَلَدٌ مِنْ ذُرِّيَّةِ دَاوُدَ وَيَتَربَّعَ عَلَىٰ عَرْشِ الْبِلادِ.

فَأَجْرَىٰ اللهُ أَلْطَافَهُ الْخَفِيَّةَ، فَأَخْرَجَ عِيسَىٰ وأمَّهُ عَلَيْهِمَا السَّلَام مِنَ النَّاصِرَةِ، فَجَعَلَهُمَا يَأْوِيَانِ إِلَىٰ مَكَانٍ مُرْتَفِعٍ نَقِيِّ الرِّيَاح، حَسَنِ الإقَامَةِ، وَفِيهِ مَاءٌ مَعِينٌ يَسْهُلُ التَّنَاوُلُ مِنْهُ، خَارِجَ أَمْكِنَةِ التَّخَوُّفِ عَلَيْهِ مِنْ قَتَلَةِ «هِيرُودُس».

وَقَدْ جَاءَ فِي بَيان مَوْضِعِ هَـٰذِهِ الرَّبْوة عِدَّة أقوال:

(١) قيل: هُوَ في دمَشق.

(٢) وقيل: هُو الرَّمْلَةُ مِنْ فِلِسطِين.

(٣) وقيل: هُو في مصر.

والقولُ الْأَخِيرُ يُوافق مَا جَاء في الإنْجِيلِ المنسُوبِ إلى «مَتَّىٰ»، وفي الإنْجِيلِ المنْسُوب إِلَىٰ «بَرْنَابا».

وَلَمَّا بَلَغَ عيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام مِنَ الْعُمْرِ سَبْعَ سِنِين، وَكَانَ قَدْ هَلَكَ «هِيرُودُس»؛ رَجَعَ مَعَ أُمِّهِ إِلَىٰ النَّاصِرَة.

ولـمَّا بَلَغَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً مِنْ عُمْرِهِ؛ سَافَرَ مَعَ أُمِّهِ إِلَىٰ بَيْتِ المقْدسِ، ودَخَلَ وَسَطَ الْعُلَمَاءِ، وَصَارَ يُحَاجُّهُمْ في مُخَالَفَاتِهِمْ للشَّرِيعَةِ الَّتِي أَوْحَىٰ اللهُ بها لمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام.

وبهـٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الثامِن من دُرُوس سورة (المؤمنون).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَتَيْسِيرِهِ.

❀ ❀ ❀

(١٣)
التدبُّر التحليلي للدَّرس التاسع من دُروس سورة (المؤمنون) الآيات من (٥١ ـ ٥٦)

قال الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ (٥٢) فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ (٥٤) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ (٥٦)﴾:

القراءات:

(٥٢) ● قرأ نافِعٌ، وابْنُ كثير، وأَبُو عَمْرو: **[وأَنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ]** بفتح همزَة «أَنَّ»، أي: واعْلَمُوا أَنَّ.

وقرأها ابْنُ عَامِرٍ: **[وأَنْ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ]** بفَتْحِ الهَمْزَةِ وإسْكَانِ النون، عَلَىٰ أَنَّهَا المخَفَّفَةُ مِنَ الثقيلة، واسْمُهَا ضَمِير شأنٍ محذوف.

وقَرَأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[وَإِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ]** علىٰ أَنَّها جُمْلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ.

(٥٢) ● قرأ يَعْقُوب: **[فَاتَّقُونِي]** بإثبات ياء المتكلّم.

وقرأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[فَاتَّقُونِ]** بِحَذْفِ ياء المتكلّم مع مُلَاحَظَتِها ذِهْناً.

(٥٣) ● قرأ يَعْقُوب، وحمزة: **[لَدَيْهُمْ]** بِضَمّ الهاء.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[لَدَيْهِمْ]** بِكَسْر الهاء.

وهُمَا لُغَتَان.

(٥٥) ● قرأ ٱبْنُ عَامِرٍ، وعَاصم، وحمزة، وأَبُو جعفر: [**أَيَحْسَبُونَ**] بفتح السّين.

وقرأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**أَيَحْسِبُونَ**] بِكَسْرِ السّين.

وَهُمَا لغتان عَرَبِيَّتَان والمعنىٰ وَاحِدٌ، وهُوَ الظَّنُّ الضعيف السَّاقط.

تَمْهيد:

فِي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بيانُ أَنَّ اللهَ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ خاطَبَ الْمُرْسَلِينَ ـ عَلَيْهِم السَّلَام ـ جَمِيعاً بِأَنَّ أقْوامُهُمْ أُمَّةٌ رَبَّانِيَّةٌ وَاحِدَة، لَكِنْ أَقْوَامَهُمْ لَمْ يَعْمَلُوا بهـٰذَا التكْلِيفِ الرَّبَّانِي، بَلْ تَفَرَّقُوا إِلَىٰ أَحْزَابٍ، كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُون، مَعَ تَوصِيَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ مُحمّداً ﷺ بِأُسْلُوبٍ يُعَامِلُهُمْ بِهِ.

وَقَدْ سَبَقَ فِي الآيَةِ (٩٢) مِنْ سُورَةِ (الْأَنْبِياء/ ٧٣ نزول) بَيَانٌ مُوجَزٌ لِمَضْمُونِ هـٰذَا الدَّرْسِ، وَجَاءَ فِي هـٰذَا الدَّرْسِ من سورة (المؤْمِنُون) بَيَانٌ أَوْسَع.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ نِدَاءً لِلرُّسُلِ عَلَيْهِم السَّلَام ويُلْحَقُ بِهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا بهم وَاتَّبَعُوهم:

● ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٥١﴾﴾:

أيْ: كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ وهِيَ الَّتِي أحْلَلْتُهَا لَكُمْ، فَهِيَ بِذَواتِهَا طَيِّبات، وهِي بجَعْلِهَا حَلالاً طَيِّباتٌ طِيباً مَعْنَوِيًّا، فاجْتَمَعَتْ فِيهَا مِيزَتَان.

الطيّبُ: ضِدُّ الخبيث. وَمَعْلُومٌ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ حَرَّمَ عَلَىٰ النَّاسِ الخبائِثَ، وهِيَ الأشياءُ الْقَذِرَةُ والضَّارَّة، والطَّيِّبُ مِنَ المآكِلِ مَا هُو لَذِيذٌ لَا ضَرَرَ فِيهِ.

• ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾: أي: واعْمَلُوا عَمَلاً صَالِحاً مِنْ كُلِّ شيءٍ لَهُ احْتِمَالَانِ: عَمَلٌ صَالِحٌ، وعَمَلٌ فَاسِدٌ.

والْعَمَلُ الصَّالِحُ هُوَ كُلُّ مَا يُحِبُّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ عِبادِهِ أَنْ يَعْمَلُوه، والْعَمَلُ غَيْرُ الصَّالِحِ هو كُلُّ عَمَلٍ نَهَىٰ اللهُ عِبَادَهُ عَنْ أَنْ يَعْمَلُوهُ.

• ﴿... إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾: فِي هَـٰذِهِ العبارة كِنَايَةٌ عَنِ التَّرْغِيبِ بِفِعْلِ الصَّالِحَات، والترهِيب مِنْ فِعْلِ غَيْرِ الصالحاتِ التي نَهَىٰ اللهُ عنها، طمعاً بِثَوَابِهِ وخوفاً مِنْ عِقَابه، إِذِ العليمُ بالأعْمَالِ الْجَوادُ الْعَدْلُ قَدْ أَعَدَّ لعباده ثواباً وعِقَاباً.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً نِداءَه لجميع الرُّسُلِ عَلَيْهِم السَّلَام وَمَعَهُمْ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ واتَّبَعُوهم:

• ﴿وَإِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾:

يُؤَكِّدُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَـٰذِهِ الْآيَةِ مَا سَبَقَ أَنْ أَنْزَلَهُ فِي سُورَةِ (الْأَنْبِياء/ ٧٣ نزول) مَعَ تَكَامُلٍ بَيْنَهُمَا، وهُو قَوْلُهُ جَلَّ جَلَالُهُ فيها:

﴿إِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾:

أي: فَاعْبُدُونِي وَحْدِي، وَلَا تُفَرِّقْكُمُ الْأَهْوَاءُ والْعَصَبِيَّاتُ والْأَنَانِيَّاتُ، وَمَتَاعَاتُ الْحَيَاة الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا عِقَابِي، فإِنَّكُمْ إِذَا تَفَرَّقْتُمْ، وَلَمْ تَعْمَلُوا بِأَمْرِي بِأَنْ تَكُونُوا أُمَّةً وَاحِدَةً: عَاقَبْتُكُمْ، وَهَـٰذَا الْخِطَابُ مُوَجَّهٌ لِأَتْبَاعِ الرُّسُلِ عَلَيْهِم السَّلَام الَّذِينَ يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَّبِعُوا الرَّسُولَ اللَّاحِقَ كَمَا اتَّبَعُوا الرَّسُولَ السَّابِقَ، إِذْ هُمْ جَمِيعاً أُمَّةٌ رَبَّانِيَّةٌ وَاحِدَةٌ، وَيَعْبُدُونَ رَبًّا واحداً.

فالمعنى: وَإِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ مِنْ عَهْدِ آدَمَ حَتَّىٰ بِعْثَةِ آخِرِ الْمُرْسَلِينَ مُحمَّد بْن عَبْدِ اللهِ عَلَيهِ وعَلَيْهِم أَفْضَلَ الصَّلاةِ وأَتَمَّ التَّسليم؛ هِيَ أُمَّةٌ وَاحِدَة، غَيْرُ مُتَفَاصِلَةٍ بالانْتِمَاءِ إِلَىٰ رُسُلِهَا الَّذِينَ بَعَثْتُهُمْ لِتَبْلِيغِ دِينِي الَّذِي اصْطَفَيْتُهُ للنَّاسِ أَجْمَعِينَ.

وَأَنَا رَبُّكُمْ جمِيعاً، فَاعْبُدُونِي وَحْدِي جَمِيعاً وَلَا تَعْبُدوا غَيْرِي، واتَّقُوا مَعْصِيَتِي وَمُخَالَفَتِي، فإذا عَبَدْتُمُونِي بِفِعْلِ مَا آمُرُكُمْ بِهِ، وَتَرْكِ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ؛ أَدْخَلْتُكُمْ يَوْمَ الدِّينِ فِي جَنَّتِي، وَأَثَبْتُكُمْ ثَواباً عَظِيماً، وَإِذَا عَصَيْتُمُونِي بِتَرْكِ مَا آمركُمْ بِهِ، أَوْ فِعْلِ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ، فَلَمْ تَتَّقُوا عِقَابِي؛ عَاقَبْتُكُمْ عِقَاباً أَلِيماً، وجَعَلْتُ مُسْتَحِقِّي الْخُلُودِ في الْعَذَابِ الْأَلِيم خَالِدِينَ في النَّار.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابعُ بَيانَ حَالِ أَقْوَام الرُّسُلِ ـ عَلَيْهِم السَّلَام ـ، إِذْ تَفَرَّقُوا فَلَمْ يَلْتَزِمُوا بِمَا أَمَرَهُمُ اللهِ بِهِ مِنْ أَنْ يَكُونُوا أُمَّةً واحِدَةً رَبَّانِيَّة:

● ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾:

● ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾: أَيْ: تَفَرَّقُوا، وبَالَغُوا في تَقْطِيعِ الْأَمْرِ الَّذِي كَانَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ جَامِعاً لَهُمْ عَلَىٰ أُمَّةٍ رَبَّانِيَّةٍ واحِدَة.

● ﴿زُبُرًا﴾: أَي: قِطَعاً مُتَفَرّقَةً خَارِجَةً عَنْ صِراطِ الْأُمَّةِ الرَّبَّانِيَّة الواحدة. **زُبُراً**: أَيْ: قِطَعاً. **الزُّبْرة**: القطعة من الحديدة، والجمع: زُبَر. **والزُّبُرجَمْعُ** «زَبُورٍ» وَهُوَ: الكِتَابُ المزْبُور. أي: المكتوب.

أي: تَفَرَّقُوا كَتَفَرُّقِ الكُتُبِ ذَاتِ المضامِينِ الْمُتَضَادَّةِ.

● ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ﴾: الحزبُ: الجماعَةُ المتَّفِقَةُ المتَنَاصِرَةُ عَلَىٰ أَمْرٍ مَا، والجماعَةُ الَّذِينَ تَشَاكَلَتْ مَبادِئُهُمْ وَأَهْوَاؤُهُمْ.

أي: فَتَقَطَّعَ المنْتَمُونَ إِلَىٰ الرُّسُلِ عَلَيْهِم السَّلام قَبلَ بِعْثَةِ مُحمَّدٍ ﷺ؛ فَجعَلُوا أمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ قِطعاً مُتَفَرِّقَةً، خارِجَةً عَنِ الْأُمَّةِ الرَّبَّانِيةِ الواحِدَة، وكَوَّنُوا أَحْزَاباً مُتَعَادِيَةً مُتَخَالِفَةً فِي مَبَادِئِها وَأَهْوَائِهَا، وَكُلُّ حِزْبٍ مِنْهُم مُؤْمِنُونَ بِمَا لَدَيْهِمْ مِنْ بَاطِلٍ، وَفَرِحُونَ بِمَا لَدَيْهِمْ مِنْ تَحْرِيفَاتٍ فِي دِينِ اللهِ، يُرْضُونَ بِهَا أَهْوَاءَهُمْ وَشَهَوَاتِهِمْ، وَتَجْعَلُ لِقَادَتِهِم الدِّينِيِّينَ زَعَامَاتٍ وَمَصَالِحَ وَمَنَافِعَ، لَيْسَ شيءٌ مِنْهَا يَجوزُ لَهُمْ أَنْ يُطَالِبُوا بِهِ فِي دِينِ اللهِ الْحَقّ، قَبلَ التَّحْرِيفِ الَّذِي غَيَّرُوا بِهِ دِينَ اللهِ لِعبَادِهِ.

فَتَعَصَّبَ الصَّابِئُونَ لِلدِّينِ الَّذِي يَنْسُبُونَهُ إِلَىٰ «صَابئ» على مَا دَخَلَ فِيهِ مِنْ تَحْرِيفٍ وَنِسْيَانٍ، وَكَأَنَّ الدِّينَ دِينُ صَابئ، وَلَيْسَ دِينَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ للنَّاس.

وَتَعَصَّبَتِ الْيَهُودُ للدِّينِ الَّذِي يَنْسُبُونَهُ إِلَىٰ مُوسَىٰ وهارون ـ عَلَيْهِما السَّلام ـ، عَلَىٰ مَا دَخَلَ فِيهِ مِنْ تَحْرِيفٍ وَنِسْيَان، وَكَأَنَّ الدِّينَ دِينُ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ـ عَلَيْهِما السَّلَام ـ، وَلَيْسَ دِينَ اللهِ رَبّ العالَمِينَ للنَّاسِ.

وكَذَلِكَ فَعَلَتْ فِرَقُهُمْ.

وَتَعَصَّبَ النَّصَارَىٰ للدِّينِ المحرَّفِ الَّذِي يَنْسُبُونَهُ إِلَىٰ عيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام، وَكَأَنَّ الدِّينِ دين عيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام، وليْسَ دِينَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ للنَّاس، وكذَلِكَ فَعَلَتْ فِرَقَهُمْ.

وَحَجَبَ المتعَصِّبينَ مِنْ أَتْبَاعِ هَـٰذِهِ الأَدْيَانِ وفِرَقِهَا تَعَصُّبُهُمُ الْبَاطِلُ؛ عن اتِّبَاعِ خَاتَمِ الأنبياء والمُرسَلِينَ ﷺ، الَّذِي بَعَثَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولاً للنَّاسِ أَجْمَعِينَ، فَأَخْرَجُوا أَنْفُسَهُمْ مِنْ قَافِلَةِ الأُمَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ الْوَاحِدَة، الَّتِي بدَأَتْ في عَهْدِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَام، واسْتَمَرَّتْ حَتَّىٰ بِعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، خَاتَمِ الأنبياء والمرْسَلِينَ، وسَتَسْتَمِرُّ مَا دَامَ مُؤْمِنٌ مُسْلِمٌ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ، يَتَّبِعُ دِينَ اللهِ الَّذِي بَلَّغَهُ عَنْ رَبِّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ، وَأَتَمُّ التَّسْلِيم، وَيُؤْمِنُ بِجَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ والْمُرْسَلِينَ، صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامَاتُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، لَا يُفَرِّقُ فِي الإيمانِ بَيْنَ أَحَدٍ وآخَرَ مِنْهُمْ، وَلَكِنْ يَعْمَلُ بِمُقْتَضَىٰ آخِرِ تَنْزِيلٍ أَنْزَلَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِعِبَادِهِ، مُبَيِّناً تَعَالِيمَ الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ اللهُ لِعِبَادِهِ، وَكَلَّفَهُمْ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِ.

وَقَدْ دَبَّ دَاءُ أَتْبَاعِ الرُّسُلِ السَّابِقِينَ إِلَىٰ بَعْضِ الْفِرَقِ المنْتَمِيَةِ إِلَىٰ أَتْبَاعِ الرَّسُولِ الْخَاتَمِ ﷺ، فَحَرَّفَ قَادَتُهُمْ فِي دِينِ اللهِ الْحَقِّ، وَتَعَصَّبُوا لِتَحْرِيفَاتِهِمْ، وَكَانَتْ لَهُمْ فِرَقٌ خَارِجَةٌ عَنِ الإسْلَامِ الْحَقّ، وَلَا تَدْخُلُ فِيهم المذاهِبُ الاجْتِهَادِيَّة في الْفُرُوع، في أُمُورٍ أَذِنَ اللهُ بالاجْتِهَادِ فيها.

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خطاباً لِرَسُولِهِ ﷺ وَلِكُلِّ حَامِلِ رِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ بِشَأْنِ الَّذِينَ تَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً:

• ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾:

• ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾﴾:

الْغَمْرَة: الضَّلَالَةُ الَّتِي تَغْمُرُ صَاحِبَهَا.

أي: فَاتْرُكْهُمْ فِي ضَلَالَتِهِمُ الْغَامِرَةِ لَهُمْ مِن كُلِّ جوانِبِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ من الدَّهْرِ تَسْقُطُ بالْفَتْحِ الإسْلَامِيِّ عُرُوشُهُمْ، وَتَنْدَحِرُ جُيُوشُهُمْ، أو حَتَّىٰ حِينٍ من الدَّهْرِ تَنْتَهِي فِيهِ آجَالُهُمْ وَيَلْقَوْنَ فِيهِ عَذَابَ رَبِّهِمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ، إذْ هُمْ مَيْؤُوسٌ مِنِ اسْتِجَابَتِهِم الحرَّةِ لدَعْوَةِ دِينِ اللهِ الْحَقِّ، بَعْدَ أَنْ تَلَقَّوْا بَيَانَاتِ الْقُرْآنِ فيما سَبَقَ مِنْ نُجُومِ التَّنْزِيلِ.

• ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾:

أي: أيَتَوَهَّمُونَ أَنَّ مَا نُمِدُّهُمْ بِهِ فِي الْحياةِ الدُّنْيَا مِنْ مَتَاعَاتٍ مُخْتَلِفَاتٍ، لِنَبْلُوهُمْ بها، ومِنْهَا الْمَالُ والْبَنُون؛ أيَتَوَهَّمُونَ أَنَّنَا نُسارِعُ فِي مَنْحِهِمْ مَا يُحِبُّونَ مِنْ خَيْرَاتِ الحياة الدُّنْيَا؛ إكراماً لَهُمْ وإِنْعَاماً، لأَنَّهُمْ مُفَضَّلُونَ عِنْدَنا.

لَا يَتَوَهَّمُوا هٰذَا التَّوَهُّمَ الْبَاطِلَ، فَإِنّ مِنْ حِكْمَتِنَا فِي دُنْيَا الامْتِحَانِ أَنْ نُمْلِيَ للظَّالِمِينَ، وَنُمِدَّهُمْ بِعَطَاءَاتِنَا، حَتَّىٰ يتمادَوْا في ظُلْمِهِمْ فَتَقُومَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ عُذْرٌ ما.

• ﴿... بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾: أَيْ: بَلْ لَمْ نُمِدَّهُمْ بِمَا يُحِبُّونَ مِنْ مَتَاعَاتِ الحياة الدّنيا إكْراماً لَهُمْ وإِنْعَاماً، إِنَّمَا نُمْلِي لهم، وهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بِأَنَّهُمْ يُمْتَحَنُون، لِأَنَّهُمْ فِي وَحْلِ شَهَوَاتِهِمْ غَارِقُون.

الشُّعُور: أدْنَىٰ دَرَجَاتِ الْعِلْمِ بِالشَّيْءِ، ونَفْي الشُّعُورِ بالشَّيْءِ نَفْيٌ لِلْعِلْمِ بِهِ بأدْنَىٰ دَرَجَاتِ المعْرِفَةِ به.

وبهـٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس التاسع من دُرُوس سورة (المؤمنون).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

❁ ❁ ❁

(١٤)

التدبُّر التحليلي للدّرس العاشر من دُروس سورة (المؤمنون) الآيات من (٥٧ ـ ٦٧)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَـٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَـٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَـٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَـٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَـٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

القراءات:

(٦٤) ● قرأ يعقوب: [مُتْرَفِيهُم] بضم الهاء.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [مُتْرَفِيهِمْ] بكسر الهاء.

(٦٧) ● قرأ نافع: [تُهْجِرُونَ] من فِعْل «أَهْجَرَ» أي: قَالَ الْهُجر والقبيح من القول.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [تَهْجُرُونَ] من فعل «هَجَرَ» ويظهر أنه لُغَةٌ بمَعْنَىٰ «أَهْجَر» أي: قال قولاً سَيِّئاً قَبِيحاً، ورُبَّما كان فاحِشاً.

تَمْهيد:

في آياتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانٌ لِصِفَاتِ المؤمِنِينَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ في الخيرات، وفيها ذِكْرٌ بإيجازٍ للظَّالِمِينَ الَّذِينَ هُمْ في غَمْرَةِ الضَّلَالِ، مَعَ بَيَانِ عِقَابِ اللهِ لِمُتَرْفِيهم، وكَيْفَ يُواجِهُونَ هـٰذَا الْعِقَابَ، وهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَدْفَعُوا عَنْ أنفُسِهِمْ شيئاً مِنْه.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيّناً بَعْضَ صِفَاتِ المؤمنين الَّذِينَ يُسَارِعُونَ في الخيرات:

• ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٥٧) وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ (٦٠) أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ (٦١)﴾:

الْخَشْيَةُ مِنَ اللهِ: خَوْفٌ مَصْحُوبٌ بِتَعْظِيمٍ وَإِجْلَالٍ كَبِيرَين، وقَدْ يَقْتَرِنُ بِذَلِكَ: الْحُبُّ، الَّذِي يَغْرِسُهُ ويُنَمِّيهِ شُعُورُ الْعَبْدِ بوافِرِ إنْعَامَاتِ اللهِ عَلَيْهِ.

• ﴿مُّشْفِقُونَ﴾: أي: خَائِفُونَ حَذِرُونَ دواماً مِنْ عِقَابِهِ.

• ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨)﴾: أي: والَّـذيـنَ هُـمْ بـآيـاتِ رَبِّهِمُ الْبَيَانِيَّةِ في الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ يُؤْمِنُونَ دواماً في الْحَالِ والاسْتِقْبَالِ، فَلَا يَشُكُّونَ فِي شَيْءٍ مِنْها، وإيمانُهُمْ بِهَا يَجْعَلُهُمْ يُدْرِكُونَ وُجُوبَ عَمَلِهِمْ بِمَا فِيهَا مِنْ تَكَالِيف، فِعْلاً أَوْ تَرْكاً.

• ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩)﴾: أي: لَا يُشْرِكُونَ بِرَبِّهِمْ شَيْئاً، مِنْ بَشَرٍ، أو مَلَائِكَةٍ، أَوْ جِنٍّ، أَوْ مَا لَا حَيَاة لَهُ، وَلَا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الْأَسْبَابَ تَعْمَلُ دُونَ مُسَبِّبِهَا، بَلْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ الْخَالِقُ لِكُلِّ شَيْءٍ مِنْ قَنَواتِ الأَسْبَاب.

• ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾: أي: والَّذِينَ يُؤْتُونَ مِنَ الأعْمَالِ الصَّالِحَاتِ مَا آتَوْا، ومِنْهَا بَذْلُ الصَّدَقَاتِ وَعَطَاءَاتُ الْمَالِ، أي: ويَجْتَنِبُونَ مَا يَجْتَنِبُونَ مِنْ أَعْمَالٍ سَيِّئَاتٍ، طَاعَةً للهِ، وَالحالُ أَنَّ قُلُوبَهُمْ وَجِلَةٌ خَائِفَةٌ مِنَ التَّقْصِيرَاتِ فِي أَدَاء الواجبَاتِ وَتَرْكِ الْمُحَرَّمَاتِ، أو خَائِفَةٌ مِنَ عَدَمِ الإخْلَاصِ المَطْلُوبِ فِيما يَفْعَلُونَ وفيما يَتْرُكُون، ويَضَعُونَ نُصْب أَعْيُنِهِمْ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ يَوْمَ القيامَةِ، لِمُحَاسَبَتِهِمْ، وفَصْلِ قَضَائِهِ بَيْنَهُمْ، وَمُجَازَاتِهِمْ.

فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ اسْتَجْمَعُوا في دَاخِلِ قُلُوبِهِمْ ونفوسِهِمْ هَـٰذِهِ الصّفات:

(١) أَنَّهُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُون.

(٢) أَنَّهُمْ بآياتِ رَبِّهِمْ البيانِيَّةِ في كتابِهِ يُؤْمِنون.

(٣) أَنَّهُمْ لَا يُشْرِكُونَ بِرَبِّهِمْ شيئاً.

(٤) أَنَّهُمْ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا مِنْ أَعْمَالٍ صَالِحَةٍ، وَيَتْرُكُونَ مَا يَتْرُكُون مِنْ أَعْمَالٍ سَيِّئَة؛ والحالُ أَنَّ قُلُوبَهُمْ وَجِلَةٌ خَائِفَةٌ مِنْ أَنَّهُمْ لَمْ يُؤَدُّوا حَقَّ اللهِ عَلَيْهِمْ كَمَا يَجِبُ عَلَيْهِم.

قَالَ اللهُ بِشَأْنِهِمْ:

• ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾:

أي: أُولَئِكَ الْفُضَلَاءُ مِنَ المؤمنين؛ قَدِ اجتمعت في قُلُوبِهِم ونُفُوسِهِمْ عَوَامِلُ إيمَانِيَّةٌ بَاعِثَةٌ تَجعَلُهُمْ يُسَارِعُونَ فِي فِعْلِ الْخَيْرَاتِ دُونَ وُجُودِ مُحَرِّضَاتٍ تُحَرِّضُهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَيُسَارِعُون في تَركِ الْمُحَرَّمَاتِ دون وُجُود مُحَرِّضَاتٍ تُحَرِّضُهُمْ على ذلك، فَمَا لَدَيْهِمْ مِن الْعَوَامِلِ الإيمانِيَّةِ الباعِثَةِ؛ تَكْفِيهِمْ لِأَنْ تُوَجِّهَهُمْ تِلْقَائِيًّا لِفِعْلِ الصَّالِحَاتِ وَتَرْكِ السَّيِّئَات، وَتَجعَلُهُمْ سَابِقِينَ لَهَا.

الخيرات: جَمْعُ «الْخَيْرَة»، وهِيَ الْفَاضِلَةُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ.

اسْتُعْمِلَ فِعْلُ «آتَىٰ، يُؤْتي» بمَعْنَىٰ: فَعَل عملاً يَراهُ صَالحاً.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيّناً قَاعِدَةً مِنْ قواعِدِ تكْليفِ الْعِبَادِ، ومبيّناً تَسْجِيلَ أَعْمَالِهِمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، ومُبَيّناً قَاعِدَةً مِنْ قَواعِدِ قانون الجزاء:

• ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾:

• ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾: أي: وَلَا نُكَلِّفُ نَفْساً ما حِينَ نُكَلِّفُهَا بِفِعْلٍ أَوْ تَرْكٍ؛ إِلَّا بِمِقْدَارِ طَاقَتِهَا واسْتِطَاعَتِهَا، وإِلَّا بِمِقْدَارِ جِدَتِها مِنْ مَالٍ أَوْ قُوَّة، وَهٰذَا المرادُ مِنَ الْوُسع.

التَّكْلِيف: الإلْزَامُ بِمَا فِيهِ كُلْفَةٌ علَىٰ فَاعِلِهِ أَوْ تَارِكِهِ. **والْكُلْفَة**: هِيَ المشَقَّةُ في الفِعْلِ أَوْ فِي التَّرْك.

• ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ﴾: أي: وَفِي رِحْلَةِ امْتِحَان الْعِبَادِ المكَلَّفِينَ نُسَجِّلُ عَلَيْهِمْ كُلَّ أَعْمَالِهِمُ الظَّاهِرَةِ والْبَاطِنَةِ وَمِنْهَا نِيَّاتُهُمْ وَأَحَادِيثُ نُفُوسِهِمْ، وَمُكْتَسَبَاتُهُمُ الإرَادِيَّةُ فِي قُلُوبِهِم.

وعِنْدَ الْحِسَابِ نَعْرِضُ عَلَىٰ كُلِّ فَرْدٍ كِتَابَهُ الَّذِي يَنْطِقُ بالْحَقِّ كَمَا تَنْطِقُ أَشْرِطَةُ تَسْجِيلِ الصَّوْتِ والصُّورَةِ، مُضَافاً إِلَيْهَا حرَكَاتُ النَّفْسِ وَخَوَاطِرُ الْفِكْر، وكُلُّ عَمَلٍ إِرَادِيٍّ بَاطِنٍ، كالْحَسَدِ وإرَادَةِ الشَّرِّ.

• ﴿... وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾: أي: وعِنْدَ إِصْدَارِ الْأَحْكَام عَلَيْهِمْ لَا يُظْلَمُ أَحَدٌ مِنْهُمْ مِثْقَالَ ذَرَّة، فَلَا يُزَادُ فِي ذُنُوبِ الْمُذْنِبِ أَصْغَرَ ذَنْبٍ، بَلْ يَعْفُو اللهُ عَنْ كثير، وَلَا يُنْقَصُ مِنْ صَالِحَاتِ المؤمِنِ المتَّقِي أصْغَرُ عَمَلٍ صَالِحٍ مَهْمَا قَلَّ، بَلْ يضاعَفُ لَهُ الْعَمَلُ والْأَجْرُ عَلَىٰ الْعَمَلِ الصَّالِحِ أضْعَافاً كثيرةً جدًّا.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَةِ الحقِّ الرَّبانِيَّةِ، على الرُّغْمِ مِنْ طُولِ مُدَّةِ الْعِلَاجِ في نُجُومِ التَّنْزِيل:

• ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ۝٦٣﴾:

الْغَمْرَة: الضَّلَالَةُ الَّتِي تَغْمُرُ صَاحِبَهَا.

أي: بَلْ قُلُوبُ هَـٰؤُلَاءِ الْكَفَرَةِ الْمُعَانِدِينَ الْمُصِرِّينَ عَلَىٰ بَاطِلِهِمْ؛ مُنْغَمِسَةٌ فِي ضَلَالَةٍ غَامِرَةٍ لَها، وَهِي ضَلَالَةُ الشِّرْكِ والكُفْرِ بالْحَقِّ ومُعَادَاتِهِ وَمُعَادَاةِ الدَّاعِينَ إِلَيْهِ، والْعَمَلِ عَلَىٰ التَّخلُّصِ مِنْ رَسُولِ رَبِّهِمْ، والَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوهُ، وَلَوْ بِوَسِيلَةِ الْحَرْب.

فَهُمْ بَعِيدُونَ بُعْداً شَاسِعاً مِنْ مَنْزِلَةِ صِفَاتِ المؤمِنِينَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ في الْخَيْرَاتِ وهُمْ لَهَا سَابِقُونَ، بِسَبَبِ انْغِمَاسِهِمْ في الكُفْرِيَّاتِ والجرائمِ الْكُبْرَىٰ، دلَّ عَلَىٰ هـٰذَا: ﴿فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾.

وَلَهُمْ أَعْمَالٌ قَبِيحَةٌ مِنْ دُونِ الكُفْرِيَّاتِ الَّتِي هُمْ في غَمْرَةٍ مِنْهَا، كَظُلْمِ النَّاسِ، وَأَكْلِ حُقُوقِهِمْ بِالْبَاطِل، وَكالْفَوَاحِشِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بطن، ونَحْوِ ذلِكَ مِنَ الكَبَائِرِ الَّتِي هِي دُونَ الكُفْرِ أخَسِّ الدَّرَكَاتِ وأقْبَحِهَا.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُنْذِراً لِهَؤُلَاءِ بالْعَذَابِ والإهْلَاكِ، في نِهَايَةِ مَرَاحِلِ امْتِحَانِهِمْ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا:

• ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ۝٦٤ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ۝٦٥ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ۝٦٦ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ۝٦٧﴾:

• ﴿حَتَّىٰٓ﴾: حَرْفٌ تَبْتَدِئُ بَعْدَهُ الْجُمَلُ، وتُسَمَّىٰ الابْتِدَائِيّة، وللفظ «حَتَّىٰ» وجُوهٌ أُخرَىٰ عِنْدَ النحاة.

• ﴿إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ﴾:

المتْرَفُون: هُمُ الَّذِينَ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِمْ في الرِّزْق والمالِ ومَتَاعَاتِ

الحياة الدُّنيا، ليَبْلُوهم، فكَانُوا بِهِ ذَوِي رَفاهِيَةٍ زَائدة، ورُبَّمَا جَعلَهُمْ ذَلِكَ مُسْتَكْبِرِينَ بَطِرِينَ.

أي: حَتَّىٰ حِينِ نَأْخُذُهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ مُتْرَفُونَ وَنَقْبِضَ عَلَىٰ مَوَاطِنِ الآلَامِ مِنْهُمْ بالْعَذَابِ، الَّذِي نُهْلِكُهُمْ بِهِ.

• ﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾: أي: يُفَاجِئُونَ بِأَنْ يَرْفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ مُسْتَغِيثِينَ ضَارِعِينَ، داعِينَ أَنْ يَرْفَعَ اللهُ عَنْهُمُ الْعَذَابَ.

• ﴿لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾: أي: لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ مُسْتَغِيثِينَ لِكَشْفِ الْعَذَابِ عَنْكُمْ، إِنَّ كَلِمَةَ الْعَذَابِ قَدْ حَقَّتْ عَلَيْكُمْ، فَلَنْ تَجِدُوا مُغِيثاً يُغِيثُكُمْ وَلَا نَاصِراً يَنْصُرُكُمْ، فَيَحْمِيكُمْ مِنْ عَذَابِنَا الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ بِكُمْ.

• ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾﴾:

النُّكُوصُ: الرُّجُوعُ إِلَى خَلْفٍ. **نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ**: أي: رَجَعَ إِلَىٰ جِهَةِ عَقِبَيْهِ. **الْعَقِبُ**: عَظْمُ مُؤَخَّرِ الْقَدَمِ.

أي: قَدْ كَانَتْ آيَاتِي الْبَيَانِيَّةُ مِنْ كِتَابِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ مِنْ قِبَلِ رَسُولِي، أَوْ مِنْ قِبَلِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوهُ، فَكُنْتُمْ تَرْفُضُونَ الاسْتِمَاعَ إِلَيْهَا، وَتُدْبِرُونَ عَنْهَا، وَتَرْجِعُونَ إِلَىٰ جِهَةِ أَعْقَابِكُمْ، كُفْراً بِهَا، وَتَكْذِيباً لِرَسُولِي الَّذِي بَلَّغَهَا عَنِّي.

• ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

• ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾: أي: مُسْتَكْبِرِينَ عَلَىٰ الرَّسُول الّذِي كَانَ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ كِتَابِي، وَمُسْتَهْزِئِينَ بِهِ. ضُمِّنَ فِعْلُ اسْتَكْبَرَ مَعْنَىٰ فِعْلِ «اسْتَهْزَأ»، فَعُدِّيَ تَعْدِيَتَهُ، وجَرَىٰ هذا في اسْمِ الفاعل، فأغْنَتْ هَٰذِهِ التَّعْدِيَةُ عَنْ عبارَتَيْنِ، وهَٰذَا مِنْ إيجازَاتِ الْقُرْآنِ الرَّفِيعَة.

• ﴿سَمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ وفي قراءة نَافع [تُهْجِرُونَ].

السَّامر: المتَسَامِرُونَ، الَّذِينَ يَتَحَادَثُونَ فِي مَجَالِسِ سَمَرِهِمْ لَيلاً.

تَهْجُرُونَ: أي: تَقُولُونَ الْهُجْرَ، وَهُوَ القبيحُ مِنَ الْقَوْلِ، طَعْناً في آيَاتِ كِتَابِ رَبِّكُمْ، وَطَعْناً فِي رَسُولِهِ وفي كُلِّ مَا جَاءَ بِهِ مِنْ دِينِ اللهِ الحقّ.

أي: وكُنْتُمْ تَسْتَمتِعُونَ في مَجَالِسِ سَمَرِكُمْ بالطَّعْنِ بالقرآن وبالرَّسُول وبكُلِّ الدِّينِ الّذِي جَاءَكُمْ بِهِ، بالْأَقوالِ الْقَبِيحَةِ السَّيِّئَةِ، وَبِمُخْتَلِفِ صُوَرِ الْهُجْرِ مِنَ الْقَوْل.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس العاشر من دُرُوس سورة (المؤمنون).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(١٥)

التدبُّر التحليلي للدّرس الحادي عشر من دُرُوس سورة (المؤمِنون) الآيات من (٦٨ ـ ٧٧)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾:

القراءات:

(٧١) • قرأ يَعْقُوبُ: [**فِيهُنَّ**] بِضَمّ الهاء، ووقف عَلَيْهَا بِهَاءِ السَّكْتِ بِخُلْفٍ عَنْه.

وقرأها بَاقِي القرّاء الْعَشَرَةِ: [**فِيهِنَّ**] بِكَسْرِ الهاء.

ضم الهاء وكَسْرُ الهاء لُغَتَان.

(٧٢) • قرأ ابْن عامر: [**خَرْجاً فَخَرْجُ**].

وقرأها حَمْزَةُ، والكِسَائِي، وَخَلَف: [**خَرَاجاً فَخَرَاجُ**].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**خَرْجاً فَخَرَاجُ**].

الْخَرْجُ، والْخَرَاجُ: الضّرِيبة أَو الإِتَاوَةُ الَّتِي تُفْرَضُ على النّاسِ، فالمعنىٰ واحد.

(٧٢) • قرأ قَالُون، وأبو عمْرو، والكِسَائي، وَأَبُو جَعْفر: [**وَهْوَ**] بإسْكان الهاء.

وقرأها باقي القراء العشرة: [**وَهُوَ**] بضمّ الهاء.

وهُما لغتان.

(٧٣ و٧٤) • قرأ قُنْبل بِخُلْفٍ عَنْه، ورُوَيس: [**إِلَىٰ سِرَاطٍ**] و[**عَنِ السِّرَاطِ**]. وقرأهُمَا خَلَفٌ عَنْ حَمْزَةَ: بإشْمَامِ الصَّادِ صَوْت الزاي. وقَرأَ الثَّانِيَة بِإشمامِ الصاد صوتُ الزَّاي حمزة بِخَلف عَن خلّاد.

وقرأهُمَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**إِلَىٰ صِرَاطٍ**] و[**عَنِ الصِّرَاطِ**]. وهو الثاني لقنبل، ولخلّاد.

(٧٧) • قرأ حمزة، ويعقوب: [**عَلَيْهُمْ**] بضم الهاء.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**عَلَيْهِمْ**] بكسر الهاء.

تَمْهيد:

فِي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانٌ عَنْ حَالِ الْكَافِرِينَ المشْرِكِينَ إِبَّانَ تَنْزِيلِ السُّورَة، وَحَالِ الرَّسُول ﷺ مَعَهُمْ.

التدبّر التحليلي:

▪ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ الْمُعَالِجِينَ الْمُعَانِدِينِ الْمُصِّرِّينَ على كُفْرِهِمْ مِنْ أَئِمَّةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ إِبَّانَ التَّنْزِيل:

• ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾﴾:

فِي هَـٰذِهِ الآياتِ حوارٌ يَتَنَاوَلُ تِسْعَ قَضَايا:

الْقَضِيَّةُ الْأُولَىٰ: دَلَّ عَلَيْهَا قول اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾: الفاء في ﴿أَفَلَمْ﴾ فَصِيحَة، تَعْطِفُ على محذوف.

أي: أَنْطَمَسَتْ بَصَائِرُهم وأَذْهَانُهُمْ وعُقُولُهُمْ، بِغِشَاوَاتٍ من أهوائِهِمْ، وَشَهَوَاتِهِمْ، وَمَتَاعَاتِهِمْ مِنَ الحياة الدُّنْيا، وَسَوَابِقِ مَفَاهِيمهم الضَّالَّة، فَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ في سوابقِ نُجُومِ التَّنْزِيلِ، وَكَانَ يَتْلُوهُ عَلَيْهِمْ رَسُولنَا، وَيُتَابِعُ تَذْكِيرَهُمْ به؟!!.

وَتَدَبُّرُ الْقَوْلِ يَكُونُ بِفَهْم الْعَنَاصِرِ والْأَجْزَاءِ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا، وبتَتَبُّعِ اللَّوَازِمِ الْفِكْرِيَّةِ الَّتِي تَلْزَمُ عَنْهُ حَتَّىٰ نِهَايَاتِهَا وَأَدْبَارِهَا، وأَواخِرِهَا.

إِنَّهُمْ لَوْ تَدَبَّرُوا مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ تَدبُّراً كَمَا يَنْبَغِي لاقْتَنَعُوا بأَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ، وأَنَّهُ تَنْزِيلٌ مِنْ لَدُن رَبّ الْعَالَمِينَ.

الْقَضِيَّة الثانية: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿... أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾: أي: بَلْ: أَجاءَهُمْ مِنَ دِينِ رَبِّ الْعَالَمِينَ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ؟!، إِنَّهُمْ إِذَا ادَّعَوْا هـٰذَا فَهُمْ كَاذِبُونَ، فَقَدْ سَبَقَ أَنْ

جَاءَهُمْ وَأَسَّسَ لَهُمْ قَوَاعِدَ الدِّينِ وَشَعَائِرَ العباداتِ رَسُولَانِ جَلِيلَانِ هُمَا إِبْرَاهِيمُ وابْنُه إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِمَا السَّلَام، واسْتَمَرَّ دِينُ اللهِ الْخَالِي مِنَ الشِّرْكِ والْوَثَنِيَّاتِ؛ زَمَناً طَوِيلاً هُوَ السَّائِدَ في مَكَّة والْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّة، حَتَّىٰ جَلَبَ الْأَوْثَانَ «عَمْرُ بْنُ لُحَيّ»، وَكَانَ أَوَّل مَنْ غَيَّرَ دِينَ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَام، وَدَعَا إِلَىٰ عِبَادَةِ الْأَوثَان.

القضيَّة الثالِثة: دَلَّ عَلَيْها قول اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾: أي: بَل: أَلَمْ يَعْرِفُوا الرَّسُولَ الَّذِي أَرْسَلْنَاهُ إِلَيْهِمْ؟!! مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ ـ ﷺ ـ، الَّذِي نَشَأَ بَيْنَهُمْ قَبْلَ بِعْثَتِهِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، عَرَفُوا فِيهَا أَنَّهُ أَعْظَمُ النَّاسِ خُلُقاً، وَأَنَّهُ الصَّادِقُ الْأَمِين، وأَنَّهُ الْجَوَادُ الكَرِيم، إلى سَائِرِ صِفَاتِ الكَمَالِ الْبَشَرِيِّ، وهُمْ لَا يُنْكِرُونَ هٰذَا.

إِنَّهُمْ قَدْ عَرَفُوا رَسُولَهُمْ الَّذِي أَرْسَلْنَاهُ إِلَيْهِم بِكَمَالَاتِهِ، فَهَلْ يَصِحُّ عَقْلاً أَنْ يُكَذِّبُوهُ بِرِسَالَتِهِ، وَبِبَلَاغَاتِهِ عَنْ رَبِّهِ، وَهُوَ الَّذِي لَمْ يَكْذِبْ عَلَىٰ النَّاسِ فِي حَيَاتِهِ فِي كَبِيرَةٍ وَلَا صَغِيرَةٍ؟!!.

القضيّة الرابعة: دَلَّ عَلَيْهَا قولُ الله تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾: **الجِنَّةُ**: الْمُرَادُ بِهَا هُنَا «الْجُنُون».

أَيْ: بَلْ: أيقُولُونَ بِهِ جُنونٌ؟!، وهُوَ أَعْقَلُ النَّاسِ، وأَكْثَرُهُمْ ذَكَاءً، وحَسْبُهُ أَنَّهُ يُبَلِّغُ عَنْ رَبِّهِ أَعْظَمَ بَيَانٍ يَشْتَمِلُ عَلَىٰ عِلْمٍ عَظِيمٍ، وَمَفْهُومَاتٍ دَقِيقَاتٍ جدًّا.

القضيَّة الخامسة: دَلَّ عليها قول اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿... بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾: أي: لَقَدْ عَرَفُوا مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ مِن حَقٍّ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ مُطَابِقٌ لِمَا جَاءَ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ فِي رِسَالَةِ إسماعِيلَ بْنِ إبراهيمَ عَلَيْهِما السَّلَام، ويَعْلَمُونَ أَنَّ الرَّسُولَ محمّداً ﷺ مِنْ أَعْقَل النَّاسِ وأَكْثَرِهِمْ ذَكَاءً وفَهْماً وفِطْنَة، فَهٰذِهِ أُمُورٌ مُسْتَيقِنُونَ بِهَا في قُلُوبِهِم،

فَلَيْسَ شَيْءٌ مِنْهَا هُوَ الباعِثَ عَلَىٰ الْكُفْرِ والتَّكْذِيب. بَلْ جاءَهُمْ بالْحَقِّ الذي يُخَالِفُ أهواءَهُمْ وشَهَوَاتِهِمْ وَرَغَبَاتِ نُفُوسِهِمْ، وأَكْثَرُهُمُ الضاغِطُونَ عَلَىٰ بَقِيَّةِ مُجْتَمَعِهِمْ لِهٰذَا الحقِّ كَارِهُونَ، فَهُمْ غَيْرُ مُسْتَعِدِّينَ لِقَبُولِهِ، وَتَرْكِ مَا هُمْ مُنْغَمِسُونَ فِيهِ مِنْ مَتَاعَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا المسْخِطَةِ للهِ رَبِّهِمْ.

الْقَضِيَّة السَّادِسَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ...﴾:

أي: وَلَوِ اتَّبَعَ اللهُ الْحَقُّ أهْوَاءَهم ـ ولَنْ يَتَّبِعَها ـ لَفَسدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فيهِنَّ، مِنْ مَلَائِكَةٍ وإنْسٍ وجِنٍّ، لأَنَّ أهْوَاءَ النَّاسِ لَا حُدُودَ لَهَا، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الأَهْوَاءِ مَا يَتَعَارَضُ مَعَ أَهْوَاءِ الآخرِينَ، وَلَنَجَمَ عَنْ ذَلِكَ مَا يَنْجُمُ عَنْ تَعَدُّدِ الْأَرْبَابِ، وَهُوَ فَسَادٌ فِي نِظَامِ الكَوْنِ كُلِّهِ، وَفَسَادٌ فِي نِظَامِ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

لَكِنَّ اللهَ الحقَّ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَّبِعَ أَهْوَاءَ النَّاس، بَلْ يَخْتَارُ بِحِكْمَتِهِ لِكُلِّ شَيْءٍ مَا يُحَقِّقُ صَلَاحَهُ، وَيَمْنَعُ عَنْهُ الْفَسَادَ، وَكَذَلِكَ مَا يَخْتَارُهُ مِنْ أَحْكَامِ الدِّينِ وَشَرَائِعِهِ وَتَعْلِيمَاتِهِ.

القضِيَّة السابعة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾:

أي: بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بالْقُرْآنِ الَّذِي هُوَ ذِكْرُهُمْ فِي كُلِّ الْقَضَايَا الَّتِي تَنْفَعُهُمْ في دُنْيَاهُمْ وَآخِرَتِهِمْ، لَكِنَّهُمْ عَانَدُوا فَهُمْ عَمَّا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ ذِكْراً مُذَكِّراً لَهُمْ بِمَا يَنْفَعُهُمْ في عَاجِلِ أَمْرِهِمْ وَآجِلِهِ: مُعْرِضُونَ.

الإِعْرَاض: حَالَةٌ وُسْطَىٰ بَيْنَ الإِقْبَال والإِدْبَار، وهو يَدُلُّ عَلَىٰ عَدَمِ مُبَالَاتِهِمْ وعَدَمِ تَوَجُّهِهِمْ لِلانْتِفَاعِ بشَيْءٍ مِنَ القرآن المنَزَّلِ لِهِدَايَتِهِمْ وهدايَةِ الناسِ أَجْمَعِينَ.

القضيَّةُ الثامِنَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خطاباً لِرَسُوله: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾﴾:

أي: بَلْ أَتَسْأَلُهُمْ مَالاً مُقَابِلَ تَعْلِيمِهِمْ وهِدَايَتِهِمْ وَتَزْكِيَتِهِمْ وقِيَادَتِهِمْ عَلَىٰ صِرَاطِ الْحَقِّ المسْتَقِيم؟؟!.

إِنَّكَ لَمْ تَسْأَلْهُمْ، وَلَا تَسْأَلُهُمْ مَالاً، وَلَا أَجْراً وَلَا خَرَاجاً تَفْرِضُهُ عَلَيْهِم، لِأَنَّكَ عَلَىٰ يَقِينٍ كامِلٍ بِأَنَّ أَجْرَ رَبِّكَ الَّذِي أَعَدَّهُ لَكَ خَيْرٌ مِنْ كُلِّ مَالٍ يَجْمَعُهُ الْجَامِعُونَ في الحياة الدُّنْيَا.

• ﴿... وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾﴾: أي: وأمَّا رِزْقُكَ الَّذِي تَحْتَاجُ إِلَيْهِ في الحياة الدُّنْيَا؛ فَاللهُ هُوَ الَّذِي يَرْزُقُهُ، وهُوَ خَيْرُ الرازِقِينَ.

إِنَّ هٰذَا الْخِطَابَ الْمُوَجَّهَ لِلرَّسُولِ ﷺ فِي الظَّاهِرِ؛ يُرَادُ بِهِ إِسْمَاعُ المكَذِّبينَ الكَفَرَةِ، الَّذِينَ يَتَوَهَّمُونَ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ يَقْصِدُ مِنْ دَعْوَتِهِ سُلْطَاناً وَمَالاً وَفِيراً يَجْمَعُهُ بِحَسَبِ عَادة الملُوكِ والسَّلاطِين والأُمَرَاء مَعَ شُعُوبِهِم.

الْقَضِيَّة التاسِعَة: دلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً خِطَابَهُ لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾﴾:

أي: وأمَّا مَضْمُونُ دَعْوَتِكَ؛ فَلَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ يُوهِمُ أَنَّكَ تَسْعَىٰ لِمُلْكٍ وسُلْطَانٍ واسْتِعْلَاءٍ فِي الْأَرْضِ، أَوْ تَسْعَىٰ لامْتِلَاكِ أَمْوَالٍ يَسْعَىٰ لامْتِلَاكِهَا الْمُلُوكُ والسَّلاطِينُ، أو تَسْعَىٰ لِلْحُصُولِ عَلَىٰ مَا تَشْتَهِي مِنْ مَتَاعَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

إِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيم، أَنْتَ أَوَّلُ سَالِكِيهِ والمُلْتَزِمِينَ بِحُدُودِهِ لَا تَحِيدُ عَنْهُ، فَلا تَتَجَاوَزُهُ فِي كُلِّ أَعْمَالِك الاختيارية.

أكَّدَ الله الجملَة بـ «إنّ ـ والجملةُ الاسْمِيَّة ـ واللّامِ المزحْلَقَةِ».

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً بَعْضَ صِفَاتِ الكَفَرَةِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَة:

• ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ وَلَوْ

رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥) وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٧)﴾:

فِي هَـٰذِهِ الآيات بَيَانٌ لِأَرْبَعِ صِفَاتٍ مِنْ صِفَاتِ الكافِرِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بالْآخِرَةِ وَمَا فِيهَا مِنْ جَزَاءٍ، عَلَىٰ مُكْتَسَبَاتِ النَّاسِ الإرادِيَّة في الحياة الدُّنيا:

الصِّفَة الأولى: دَلَّ عَلَيها قول اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ (٧٤)﴾:

- ﴿لَنَاكِبُونَ﴾: أي: لَمَائِلُونَ مُنْحَرِفُون.

أي: فَمِنْ صِفَاتِ الكَفَرَةِ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ، وبالحياةِ الآخِرَةِ الْمُعَدَّةِ في خُطَّةِ التَّكْوِينِ الرَّبَّانِيةِ لِلْحِسَابِ، وفَصْلِ الْقَضَاءِ، وتَنْفِيذِ الجزاء؛ أَنَّهُمْ عَنْ صِراطِ اللهِ المسْتَقِيم الَّذِي أَبَانَهُ فِي كِتَابه وبَلَّغَهُ رَسُولُهُ ﷺ، وهُوَ صِرَاطُ اللهِ لِسُلُوكِ النَّاسِ الإرَادِيّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا حَيَاةِ الابْتِلَاءِ؛ لَمَائِلُونَ مُنْحَرِفُونَ إِلَىٰ سُبُلِ الْأَهْوَاءِ والشَّهَوَاتِ والضَّلَالَات، الَّتِي يَنْزَلِقُ فِيهَا سَالِكُوهَا إِلَىٰ عَذَابِ النَّار.

الصفة الثّانِيَة: دلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥)﴾:

- ﴿لَّلَجُّوا﴾: أي: لَثَبَتُوا مُلَازِمِينَ مَا هُمْ فِيهِ.

- ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾: **الطُّغْيَانُ**: هُو التجاوُزُ عَنِ الْحَدِّ المحتَمَلِ في الْعِصْيَان، إلى مَواقع الضَّرَرِ والإفْسَادِ والظُّلْمِ والْجَوْرِ والْعُدْوان.

- ﴿يَعْمَهُونَ﴾: **الْعَمَهُ**: التَّحَيُّرُ، والتَّرَدُّدُ، وانْطِمَاسُ البصيرة، وهُوَ فِي الْبَصِيرَةِ كالْعَمَىٰ فِي الْبَصَر.

ودَلَّتْ هَـٰذِهِ الآيَةُ عَلَىٰ أَنَّ المعْنِيِّينَ بالْعِلَاجِ؛ كانُوا فِي حَالَةِ ضُرٍّ وَبُؤْسٍ، وَرُبَّمَا كَانَ هـٰذَا هُوَ الجوعُ الذي نَزَلَ بِهِمْ، فأكَلُوا «الْعِلْهِز»[1].

فالمعْنَىٰ: وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ فَأَزَلْنَا عَنْهُمْ مَا يُعَانُونَ مِنْ ضُرٍّ؛ لَمَا تَرَكُوا قَبَائِحَهُمْ، وَلَمَا تَابُوا إلى بَارِئِهِمْ، بَلْ لثَبَتُوا مُلَازِمِينَ كُفْرَهُمْ غَارِقِينَ فِي طُغْيَانِهِم الْغَالِينَ فِيهِ، وَلَاسْتَمَرُّوا يَعْمَهُونَ وَيَتَحَيَّرُونَ فيما يخْتَارُونَ مِنْ مَسَالِكَ يُرْضُونَ بِهَا أَهْوَاءَهُمْ وَشَهَوَاتِهِمْ، كالْعُمْيِ الّذِينَ يَسِيرُونَ فِي أَرْضٍ وَعِرَةٍ لَا مَسَالِكَ فيها تَهْدِيهِمْ.

الصِّفَةُ الثالثة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾:

- ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾: أي: فَمَا ذَلُّوا وَلَا خضَعُوا لِرَبِّهِمْ.
- ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾: أي: وَمَا يَتَذَلَّلُونَ وَمَا يَخْضَعُونَ داعِينَ أَنْ يُزِيلَ اللهُ عَنْهُمْ مَا أَنْزَلَ بِهِمْ مِنْ عَذَابٍ.

يَصِفُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ حَالَةً أخَذَ فِيهَا المعنيِّين بالْعِلَاج بِعَذَابٍ لَيْسَ بِشَدِيد، فَمَا كَانَ مِنْهُمْ تَذَلُّلٌ لِرَبِّهِم وَلَا تَضَرُّعٌ لَهُ بالدُّعَاءِ، لِأَنَّهُمْ يَتَصَوَّرُونَ أَنَّ مَا نَزَلَ بِهِمْ إِنَّمَا هُوَ مِنْ عَوَارِضِ الدَّهْرِ وتَقَلُّبَاتِهِ، وَلَيْسَ تَذْكِيراً لَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الَّذِي لَا يَجْرِي شَيْءٌ في الكَوْنِ إِلَّا بأَمْرِهِ أو بإِذْنِهِ وعِلْمِهِ.

الصِّفَةُ الرابعة: دلَّ عَلَيْهَا قولُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾:

- ﴿مُبْلِسُونَ﴾: أي: سَاكِتُون، يَائِسُونَ، نَادِمُون.
- ﴿حَتَّىٰٓ﴾: ابْتَدَائِيَّة. وهي حرف يَدْخُلُ عَلَىٰ الْجُمَلِ الاسْمِيَّة والْفِعْلِيَّة.

---

(١) **الْعِلْهِز**: الدَّمُ المجَمَّدُ يُخْلَطُ بالْوَبَرِ ويُشْوَىٰ علىٰ النَّار.

والمَعْنَىٰ: حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً مِنْ أبواب الْعَذَابِ الشَّدِيدِ الَّذِي هُوَ فَوْقَ قُدْرَتِهِمْ عَلَىٰ التَّحَمُّلِ: أَبْلَسُوا، سُكُوتاً، ويَأْساً، ونَدَماً، مُدْرِكِين أَنَّهُمْ كَانُوا ظَالِمِينَ، فِي غُلُوِّهِمْ بِمَا يُسْخِطُ اللهَ عَلَيْهِمْ، وَيُنْزِلُ بِهِمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ الْمُهْلِكَ.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الحادي عشر من دُرُوس سورة (المؤمنون).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

❁ ❁ ❁

(١٦)

التدبُّر التحليلي للدَّرس الثاني عشر من دُروس سورة (المؤمنون) الآيات من (٧٨ ـ ٨٣)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾:

القراءات:

(٨٢) • قرأ نَافع، وحفْص، وحمزة، والكِسَائي، وخَلَفْ: **[مِتْنَا]** بكسر الميم. وقَرَأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[مُتْنَا]** بِضَمِّ الميم.

تَمْهِيد:

في آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ لَمْحَةٍ مِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الْبَعْثَ والحياة الْأُخْرَىٰ حقٌّ، مَعَ عَرْضِ قَوْلِ منكري ذَلِكَ.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطاباً لِمُنْكِرِي الْبَعْث:

● ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾:

أي: كَيْفَ تُنْكِرُونَ الْبَعْثَ بَعْدَ الْمَوْتِ لِلْحِسَابِ، وفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَتَحْقِيقِ الْجَزَاء، الَّذِي أنبأكُمْ بِهِ خَالِقُكُمْ وَبَارِئُكُمْ، وهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ مِنَ الْعَدَمِ بإيجَادٍ مُتَدَرِّجٍ: السَّمْعَ والْأَبْصارَ والْأَفْئِدَةَ، وَهِيَ أَعْظَمُ الْأَجْهِزَةِ الَّتِي فَضَّلَكُمُ اللهُ بِهَا عَلَىٰ كَثِيرٍ من خَلْقِهِ تَفْضِيلاً كَثِيراً؟!!

فالسَّمْعُ: أي: أدَاتُهُ، وهو جِهَازٌ عَجِيبُ الْخَلْقِ والصُّنْعِ في دَاخِلِ الدِّمَاغ، يُوصِلُ إِلَيْهِ الْمَسْمُوعَاتِ أجْهِزَةٌ عَجِيبَةُ الصُّنْعِ في الأذُنِ، وَمُوصِلَاتٌ دَقِيقَاتٌ جِدًّا، بَيْنَ الْأُذُنِ وَجِهَازِ السَّمْعِ في الدِّمَاغِ.

والْأَبْصَارُ: مَرَاكِزُ إدْرَاكٍ لِلْمَرْئِيَّاتِ فِي دَاخِلِ الدِّمَاغ، وتُوصِلُ إِلَيْهَا صُوَرَ المرْئِيَّاتِ: الْأَعْيُنُ ذَوَاتُ الصُّنْعِ الْعَجِيبِ، وَمُوصِلَاتٌ دَقِيقَاتٌ جِدًّا بَيْنَ الْأَعْيُنِ وَمَرَاكِزِ إدْرَاكِ صُوَرِ الْمَرْئِيَّاتِ في دَاخِلِ الدِّماغ.

والْأَفْئِدَة: وَهِيَ مَرَاكِزُ فَهْم الْأُمُورِ والقضايا، وَتَحْلِيلِ عَنَاصِرِهَا وَتَرْكِيبِهَا، واسْتِنْتَاجِ قَضَايَا أُخْرَىٰ تَلْزَمُ عَنْهَا، بالتَّفْكِيرِ والتَّأَمُّل، وَإِبْدَاعِ صُوَرٍ جَدِيدَةٍ مَعَ مَا فِيهَا مِنْ قُدْرَاتِ تَخَيُّلٍ واسِعَةٍ امْتَازَ بِهَا إِبْدَاعُ خَلْقِ الْإِنْسان.

وهَـٰذِهِ الْأَجْهِزَةُ والْأَدَوَاتُ تَتَطَلَّبُ مِنْكُمْ أَنْ تَشْكُرُوا بَارِئَكُمْ عَلَيْهَا بالإيمان بِهِ وبِعَظِيم صِفَاتِهِ، وبالاسْتِجَابَةِ لِمَا يَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ، وبِفِعْلِ مَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ، وبِتَرْكِ مَا يَنْهَاكُمْ عَنْهُ، وبِتَصْدِيقِ ما أنبَأكُمْ بِهِ مِنَ الْبَعْثِ، وَيَوْمِ الدِّينِ، لِلْحِسَابِ، وفَصْلِ الْقَضَاءِ، وتَحْقِيقِ الجزاء.

ولَكِنَّكُمْ قَلِيلاً جداً تَشْكُرُونَ، إِنِ اتَّجَهَتْ قُلُوبُكُمْ ونُفُوسُكُمْ لِشُكْرِهِ، لِأَنَّكُمْ تُؤْثِرُونَ تَلْبِيَةَ أَهْوَائِكُمْ وَشَهَوَاتِكُمْ، وَمَتَاعَاتِكُمْ مِنَ الحياة الدُّنْيَا.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً خِطَابَهُ لِمُنْكِرِي الْبَعْث:

• ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾:

• ﴿ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أي: خَلَقَكُمْ فِي الأَرْض، ويأتي الذَّرْءُ بِمَعْنَىٰ الْبَثِّ والتَّكْثِيرِ عَنْ طَرِيقِ الذُّرِّيَّة.

• ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾: أي: وَإِلَىٰ حِسَابِهِ، وَفَصْلِ قَضَائِهِ، وَتَحْقِيقِ جَزَائِهِ؛ يَبْعَثُكُمْ وَيَحْشُرُكم إِلَىٰ مَوَاقِفِ حِسَابِكُمْ، يَوْمَ القيامَة.

الحشْرُ: هُوَ السَّوْقُ والْجَمْعُ.

أي: فَالَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؛ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَكُمْ وَيَحْشُرَكم لِمَوَاقِفِ حِسَابِكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا مَجَالَ للتَّشَكُّكِ فِي هٰذَا، وَقَدْ أَنْبَأَكُمْ به فِي آيَاتِ كِتَابِهِ وَعَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ المؤيَّدِ مِنْهُ بالآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ، وَالْمُعْجِزَاتِ الْبَاهِرَات.

وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَلَا أَحَدَ في الوجُودِ كُلِّهِ يُحْيِي سِوَاه، وَلَا أَحَدَ فِي الْوُجُودِ يُمِيتُ بِفَصْلِ الرُّوحِ عَنْ ذِي الحياة سواه، أَمَّا مَا يَتَّخِذُه الناس مِنْ أَسْبَابِ قَتْلٍ: فَهِيَ بِتَقْدِيرِ اللهِ وإِذْنِهِ، وَلَكِنَّ الإِمَاتَةَ لَا تَكُونُ حَقِيقَةً إِلَّا مِنَ اللهِ.

• ﴿وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ﴾: أيْ: وَلَهُ وَحْدَهُ كُلُّ مَا يَجْرِي مِنْ مُخْتَلِفَاتٍ في اللَّيْلِ والنَّهارِ، تَقْدِيراً وَخَلْقاً وفِعْلاً، فَلَا يَجْرِي فِي كَوْنِ اللهِ إِلَّا مَا يُقَدِّرُه اللهُ وَيَقْضِي به، أَوْ يَأْذَنُ باخْتِيَارِ الْعَبْدِ لَهُ، وَلَكِنَّ التَّنْفِيذَ لَا يَكُونُ إِلَّا بخَلْقِ اللهِ وَفِعْلِهِ.

• ﴿... أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾: أي: أَسُلِبَتْ مِنْكُمْ عُقُولُكُم فَأَنْتُم لَا تَعْقِلُونَ حَقَائِقَ الأُمُور بأجْهِزَةِ الْعِلْمِ والإِدْرَاكِ لَدَيْكُمْ، وَضَعُفَتْ إرَادَاتُكُم

فَأَنْتُمْ لَا تَمْلِكُونَ أنْ تَعْقِلُوا نُفُوسَكُمْ عَنْ أهوائِكُمْ وشَهَوَاتِكُمْ الَّتِي تَنْزَلِقُ بِكُمْ إِلَىٰ دَارِ الْعَذَابِ يَوْمَ الدِّينِ؟!!.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً الْحَدِيث عَنْ مُنْكِرِي الْبَعْثِ:

• ﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾:

لَمْ يَجِدُوا إِلَّا تَرْدِيدَ عِبَارَةِ الاسْتِغْرَابِ والتَّعَجُّب الَّتِي كَانُوا يَقُولُونَهَا وَكَانَ مُنْكِرُوا الْبَعْثِ مِنْ قَبْلِهِمْ يُرَدِّدُونها.

اسْتِفْهَامُهُمْ هُوَ مِنْ قَبِيلِ الاسْتِفْهَام التَّعَجُّبِيِّ الاسْتغرابِيِّ الَّذِي لَا يَقْتَرِنُ بِدَلِيلٍ مَا، فَهُوَ لَا قِيمَةَ لَهُ فِي مُنَاظَرَةٍ عَقْلِيَّةٍ.

• ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ﴾: أي: لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ عَلَىٰ لِسَانِ الرَّسُولِ بأَنَّنا سَنُبْعَثُ يَوْمَ القِيامَةِ لِلْحِسَابِ، وفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيذِ الْجَزَاء، وَوُعِدَ آبَاؤُنَا هٰـذَا الْوَعْدَ مِنْ قَبْلُ، وَلَمْ يَتَحَقَّقْ مِنْ هٰـذَا الْوَعْدِ حَتَّى الآنَ شيء.

إنَّ هٰـذَا الْقَوْلَ يَعْتَمِدُ عَلَىٰ مُغَالَطَةٍ لَا يَتَذَرَّعُ بها إِلَّا صِغَارُ الْعُقُول، فالْوَعْدُ مُقَيَّدٌ بِأَنَّ الْبَعْثَ سَوْفَ يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَوْمُ الْقِيَامَةِ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ، فَلَا يَصِحُّ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ الْوَعْدَ لَمْ يَتَحَقَّقْ.

إِنَّ عُمْرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لَا يَنْحَصِرُ بِعُمْرِ قَوْم وَلَا عِدَّةِ أقوام، ولا يَنْحَصِرُ بِعُمْرِ أُمَّةٍ وَلَا بِأَعْمَارِ عِدَّةِ أُمَم، إِنَّ عُمْرَ الْحَيَاةِ لَا بُدَّ أَنْ يَسْتَوْعِبَ كُلَّ مَنْ قَضَىٰ اللهُ أَنْ يَجْعَلَهُمْ مُمْتَحَنِينَ فِي ظُرُوفِ الحياةِ الدُّنيا، وَهٰؤُلَاءِ لَمْ يَنْتَهِ بَعْدُ إيجَادُهُمْ فِي ظُروفِ الحياةِ الدُّنْيَا، فاسْتِعْجَالُ الْبَعْثِ قَبْلَ أَنْ يَنْتَهِيَ إيجادُ النَّاسِ، اسْتِعْجَالٌ للشَّيءِ قَبْلَ أَوَانِهِ، وهو أَمْرٌ مُنَافٍ لِمَنْطِقِ الْعَقْلِ وَمَقَايِيسِهِ.

وبَنَوا عَلَىٰ مَقُولَتِهِمُ السَّاقِطَةِ قَوْلَهُمْ الْفَاجِرَ:

• ﴿... إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾: أي: مَا هٰذَا النَّبَأُ عَنِ الْبَعْثِ إِلَّا أَبَاطِيلُ الْأَوَّلِينَ وَأَكَاذِيبُهُمْ.

وبهٰذَا انْتهىٰ تَدَبُّر الدّرس الثاني عشر من دُرُوس سورة (المؤمنون).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

❀ ❀ ❀

(١٧)
التدبُّر التحليلي للدّرس الثالث عشر من دُروس سورة (المؤمنون) الآيات من (٨٤ ـ ٩٢)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾:

القراءات:

(٨٥) • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: **[تَذَكَّرُونَ]**.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[تَذَّكَّرُون]**، أَصْلُهَا «تَتَذَكَّرُونَ».

(٨٧ و٨٩) • قرأ أَبُو عَمْرو، ويَعْقُوبَ: **[سَيَقُولُونَ اللهُ]**.

وقرأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**سَيَقُولُونَ للهِ**].

(٩٢) ● قرأ نافع، وشعبة، وحَمْزَة، والكسائي، وأبو جَعْفر، وخلف: [**عَالِمُ الْغَيْبِ**] برفع لفظ «عالم»، على أَنَّهُ خَبَرٌ لمبتدأ محذوف تقديرهُ «هُو».

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**عَالِمِ الْغَيْبِ**] بجر لفظ «عالم»، على أنه صِفَةٌ للفظ الجلالة في [**سُبْحَانَ اللهِ**].

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ تَعْلِيمٌ مِن اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ حِواراً جَدَلِيًّا، يُحَاوِرُ بِهِ الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا دَرَكَة المَيْؤُوسِ مِنَ اسْتِجَابَتِهِمْ عَن طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمُ الحرَّة.

وهَدَفُ هـٰذَا الحوار إثْبَاتُ مِلْكِيَّةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلْأَرْضِ ومَنْ فيها، وإثْبَاتُ رُبُوبِيَّةِ اللهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ لِلسَّمَاوَاتِ والْعَرْشِ الْعَظِيم، وأنَّ بِيَدِهِ ـ تبارَكَ وَتَعَالَىٰ ـ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ.

وفيها بَيَانُ أَنَّه لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُو، مع تقديم حُجَّةٍ عَقْلِيَّةٍ عَلَىٰ رُبُوبِيَّةِ اللهِ وَحْدَهُ، المسْتَلْزِمَةِ أَنَّهُ هُوَ الإِلَٰهُ الَّذِي لا إِلَٰهَ بِحَقٍّ في الْوُجُودِ كُلِّهِ غَيْرُه، تَبَارَكَتْ صِفَاتُهُ، وَعَظُمَتْ قُدْرَتُهُ.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ ﷺ حواراً جَدَلِيًّا، ويُلْحَقُ بالرَّسُول ﷺ كُلُّ دَاعٍ إِلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ:

● ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾﴾:

هـٰذَا الْحِوَارُ يَتَضَمَّنُ سُؤَالاً لِلْمُشْرِكِينَ، وهـٰذَا السُّؤَال يَسْتَدْعِي أَنْ يُجِيبُوا عَلَيْهِ لِإِلْزَامِهِمْ بالْحَقّ.

السُّؤَال: مِلْكُ الْأَرْضِ وَمَنْ فِيهَا وَمَا فِيهَا لِمَنْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ؟. فإِنْ قَالُوا: هَـٰذِهِ مِلْكُ آلِهَتِهِمُ الَّتِي يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونَ اللهِ. عِنْدَئِذٍ يتَسَنَّىٰ لِلْمُحَاوِرِ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ: هَلْ آلِهَتُكُمُ هِي الَّتِي خَلَقَت الْأَرْض وَمَنْ فِيهَا وَمَا فِيها، حَتَّىٰ تَكُونَ هِي الْمَالِكَة؟!، فَإِنْ كَانَتْ هِيَ الْخَالِقَة؛ فَأَثْبِتُوا هـٰذَا بِدَلِيلِ عَقْلِيٍّ، وأَنْتُمْ لَا تَمْلِكُونَ دَلِيلاً عَقْلِيًّا يُثْبِتُهُ، أَوْ قَدِّمُوا لَنَا شَاهِداً حِسِّيّاً يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ آلِهَتَكُمْ تَخْلُقُ شَيْئاً فِي الْأَرْضِ، أَوْ فِيمَا عَلَيْهَا مِنْ أحْيَاء.

وَلَنْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يُقَدِّمُوا شَاهِداً حِسِّيًا عَلَىٰ هـٰذَا، إِلَّا أَوْهَاماً بَاطِلَةً تَسْقُطُ بأَدْنَىٰ حُجَّةٍ.

عِنْدَئِذٍ لَا بُدَّ أَنْ يَعْتَرِفَ ذَوُو الرَّأْيِ وَالْعَقْلِ مِنْهُمْ بأَنَّ اللهَ هُوَ خَالِقُ الْأَرْضِ وَمَنْ فِيهَا وَمَا فِيهَا، وَالْخَالِقُ هُوَ الْمَالِكُ حَتْماً، وَهُوَ الَّذِي لَهُ التَّصَرُّفُ والْحُكْم.

• ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾: دَلَّ حَرْفُ السِّينِ عَلَىٰ أَنَّ الْإِجَابَةَ الصَّحِيحَةَ لَيَسَتْ جَاهِزَةً لَدَيْهِم، وَإِنَّمَا يُوصِلُ إِلَيْهَا حِوَار جَدَلِيٌّ بُرْهَانِيٌّ يَقُومُ بِهِ الدَّاعِي إِلَىٰ اللهِ.

فإِذَا وَصَلَ مَعَهُمْ إِلَىٰ هـٰذَا الاعْتِرَافِ، قَالَ لَهُمْ مَا جَاءَ في نِهَايَةِ التَّعْلِيم:

• ﴿... أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾﴾؟!!: أي: أَتَسْتَهينُونَ بِالْحَقِّ، فَلَا تَضَعُونَ هَـٰذِهِ الْحَقِيقَةَ فِي ذَاكِرَاتِكُم بَعْدَ الاقْتِنَاعِ بِهَا، لِتُبْعِدَ عَنْ أَذْهَانِكُمْ أَوْهَامَ الشِّرْكِ، وَأَوْهَامَ التَّعلُّقِ بآلِهَةٍ مُفْتَرَاةٍ عَلَىٰ اللهِ لَا تَمْلِكُ أَنْ تَتَصَرَّفَ بِشَيْءٍ مِنَ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَمَا عَلَيْها؟!!.

الاسْتِفْهَامُ هُنَا تَحْضِيضِي، وَقَدْ يَدُلُّ عَلَىٰ تَلْوِيمِ المكابِرِينَ الْمُصِرِّينَ عَلَىٰ شِرْكِيَّاتِهِمْ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابِعُ التَّعْلِيمَ لِحِوَارٍ آخر عَلَىٰ مَنْهَجِ الْحِوَارِ السَّابق:

• ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾﴾: وفي القراءة الأُخْرَىٰ: [**سَيَقُولُونَ اللهُ**]:

أُسْلُوبُ هٰذَا الْحِوَارِ مُنَاظِرٌ لِلْحِوَارِ السَّابق، وهٰذَا السُّؤَالُ يَسْتَدْعِي أَنْ يُجِيبُوا عَلَيْهِ لِإِلْزَامِهِمْ بِالْحَقِّ.

أَمَّا عَلَىٰ قِرَاءَةِ: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾: فَفِي السؤال مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ: مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيم، ولِمَنْ يَرْجِعُ مِلْكُهُمَا؟.

إِنَّهُمْ تُجَاه هٰذَا السُّؤَالِ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَزْعُمُوا أَنَّ رُبُوبِيَّةَ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرُبُوبِيَّةَ الْعَرْشِ الْعَظِيم لآلِهَتِهِمْ، فَهُمَا مِلْكٌ لَهَا، لِأَنَّهُ لَا يُوجَدَ أَحَدٌ مِنَ المشْرِكِينَ يَزْعُمُ مِثْلَ هَـٰذَا الزَّعْم، بَلْ هُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ رُبُوبِيَّة آلِهَتِهِمْ قَاصِرَةٌ عَلَىٰ بَعْضِ أَحْدَاثٍ في الْأَرْضِ، أَمَّا أَحْدَاثُ السَّمَاوَاتِ والْعَرْشِ والتَّغْيِيرَاتُ فيهما فهِيَ للهِ رَبِّ الْعَالَمِين.

إِنَّ الرُّبُوبِيَّةَ صِفَةٌ تَشْمَلُ كُلَّ تَصَارِيفِ الْخَالِقِ الرَّبِّ لِمَنْ هُوَ تَحْتَ سُلْطَانِ رُبُوبِيَّتِهِ، فِي كُلِّ حَرَكَةٍ مِنْ حَرَكَاتِهِ، وفي كُلِّ سَكَنَةٍ مِنْ سَكَنَاتِهِ، وفِي كُلِّ تَغْيِيرٍ في ذَاتِهِ أَوْ فِي صِفَاتِهِ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَغْلُوَ مُشْرِكٌ فَيَزْعُمَ أَنَّ رَبًّا مَا مِنْ دُونِ اللهِ هُوَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيم.

وَإِذَا تَلَجْلجَ المسْؤُولُ المشْرِكُ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُجِيبُ جَوَاباً سَوِيًّا؛ اسْتَطَاعَ الْمُحَاوِرُ لَهُ الدَّاعِي إِلَىٰ اللهِ؛ أَنْ يَشْرَحَ لَهُ مَعْنَىٰ كَلِمَةِ «الرَّبِّ»، وَأَنَّ هٰذِهِ الصِّفَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا للهِ رَبِّ الْعَالَمِين، الْمُهَيْمِنِ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ.

وبَعْدَ الشَّرْحِ الْحِوَارِيِّ الَّذِي يُقْنِعُ بِهِ الدَّاعِي إلى اللهِ الْمُحَاوِرِينَ المشْرِكِينَ بالْحقّ؛ لَا بُدَّ أَنْ يَعْتَرِفَ ذَوُو الرَّأْيِ والْعَقْلِ مِنْهُمْ بأَنَّ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ؛ هُوَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ العظيم وَمَالِكُهُمَا. وَبَيْنَ بِدَايَةِ الْحِوَارِ والْإِلْزَامِ بالحق زَمَنٌ عَبَّرَتْ عَنْهُ السِّينُ في:

• ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ في قراءة جُمْهُورِ القراء، وَ [**سَيقُولُونَ اللهُ**] فِي قِرَاءَةِ أَبِي عَمْرٍو، ويَعْقُوب، أي: اللهُ رَبُّهُمَا.

عِنْدَئِذٍ يَتَسَنَّىٰ للدَّاعِي إلى اللهِ أَنْ يَقُولَ لهم مَا جَاءَ في نِهَايَةِ التَّعْلِيم:

• ﴿... أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾﴾؟!: أي: أَفَقَدْتُم مَدارِكَكُمْ فَلَا تَتَّقُون عِقَابَ رَبِّكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، إِذْ تَجْعَلُونَ شُرَكَاءَ لَهُ مِنْ خَلْقِهِ؟!!.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابِعُ التَّعْلِيمَ الْحِوَارِيَّ عَلَىٰ مَنْهَجِ الْحِوَارَيْنِ السَّابِقَيْن:

• ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾:

وفي قراءة أبي عمْرو، ويَعْقُوبَ: [**سَيقُولُونَ اللهُ**]:

الْمَلَكُوتُ: صِيغَةٌ مَأْخُوذَةٌ مِنَ الْمُلْكِ للتَّعْظِيم والتَّفْخِيم، **والْمُلْك**: هُو السُّلْطَانُ، والْعِزَّةُ، والْقُدْرَةُ عَلَىٰ التَّصَرُّفِ الْكَامِلِ الشَّامِلِ، ولصاحِب الْمُلْكِ الْأَمْرُ والنَّهْي.

أي: قُلْ أَيُّهَا الداعِي إلى اللهِ لِلْمُشْرِكِين:

مَنْ بِيَدِهِ مُلْكُ كُلِّ شَيْءٍ فِي الْكَوْنِ كُلِّهِ، وَمَنْ هُوَ الَّذِي يُجِيرُ فَيحْمِي مَنِ اسْتَجَارَ بِهِ، وَلَا يُوجَدُ أَحَدٌ يُجِيرُ عَلَيْهِ مَنْ قَضَىٰ عَلَيْهِ بِعِقَابٍ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ حَقِيقَةَ هٰذَا السُّؤَالِ وأَبْعَادَ دَلَالَاتِهِ؟؟!!.

هٰذَا السُّؤَالُ أَعَمُّ وَأَشْمَلُ مِنَ السُّؤَالِ الَّذِي اشْتَمَلَ عَلَيْهِ الْحِوَارُ الْأَوَّل، وَأَعَمُّ وأشْمَلُ مِنَ السُّؤَالِ الَّذِي اشْتَمَلَ عَلَيْهِ الْحِوارُ الثَّانِي.

إِنَّ مُلْكَ كُلِّ شَيْءٍ فِي الكَوْنِ سِوَىٰ اللهِ عَزَّ وَجلَّ، الَّذِي يَتَضَمَّنُ الْمِلْكَ أيضاً؛ أَعَمُّ مِنْ مِلْكِيَّةِ الْأَرْضِ وَمَنْ فِيهَا وَمَا فِيهَا، وَأَعَمُّ مِنَ الرُّبُوبِيَّةِ الْمُهَيْمِنَةِ بِصِفَاتِهَا عَلَىٰ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ والْعَرْشِ الْعَظِيم.

يُضَافُ إِلَىٰ هـٰذَا الْقُدْرَةُ الْكَامِلَةُ عَلَىٰ حِمَايَةِ مَنِ احْتَمَىٰ بِهِ، وإِجَارَةِ مَنِ اسْتِجَارَ بِهِ، وَأَنَّ أَحداً لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحْمِيَ وَيُجِيرَ مَنْ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَنْتَقِمَ مِنْهُ.

والإجابَةُ على هـٰذَا السُّؤَالِ بِعِبَارَةِ ﴿لِلَّهِ﴾ أو بِعِبَارَةِ ﴿ٱللَّهُ﴾ لَا تُبْقِي ذَرِيعَةً لِلْمُشْرِكِينَ يَتَذَرَّعُونَ بها لِتَحْسِينِ شِرْكِهِمْ وَتَزْيينه.

وَلَنْ يَجِدَ المشرِكُونَ الْمُنَاظِرُونَ في الإجابَةِ عَلَىٰ هـٰذَا السُّؤَالِ؛ إِلَّا أَنْ يَتَلَجْلَجُوا، وَيَتَهَرَّبُوا إِلَىٰ قَضَايَا جَانِبِيَّةٍ لَا تَتَّصِلُ بِمَوْضُوعِ السُّؤَال.

عِنْدَئِذٍ يَجِدُ المنَاظِرُ الدَّاعِي إِلَىٰ اللهِ مَا يَشْرَحُهُ بالتَّفْصِيلِ وبالاسْتِنَادِ إلى الْمَرْحَلَتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ لِلْحِوَارِ، وبِمَا يَشْرَحُهُ بالتَّفْصِيلِ يُقْنِعُ الداعي إلى اللهِ الْمُحَاوِرِينَ الْمُشْرِكِينَ بِالْحَقِّ، أَوْ يُسْكِتُهُمْ إِسْكَاتَ إِلْزَام، وَلَا بُدَّ أَنْ يَعْتَرِفَ ذَوُو الرَّأْيِ والْعَقْلِ مِنْهُمْ فَيَقُولَ: إِنَّ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شيءٍ، وَهُوَ مَالِكُ كُلِّ شيءٍ، وهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ: هُوَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِين.

وَبَيْنَ بِدَايَةِ الْحِوَارِ والإلْزَام بِالْحَقِّ زَمَنٌ عَبَّرَتْ عَنْهُ السِّينُ فِي ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾ فِي قِرَاءَةِ جُمْهُورِ الْقُرَّاءِ، و**[سَيقُولُونَ اللهُ]** في قِرَاءَةِ أَبِي عَمْرٍو، وَيَعْقُوب، أي: اللهُ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ، وعلىٰ قراءة الجمهور: للهِ يَرْجِعُ مَلَكُوتُ كُلِّ شيءٍ في الْوُجُودِ كُلِّهِ، وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَليه.

عِنْدَئِذٍ يَتَسَنَّىٰ لِلدَّاعِي إلى اللهِ أَنْ يَقُولَ لِلْمُشْرِكِينَ مَا جَاءَ فِي نِهَايَةِ التَّعْلِيم:

• ﴿... فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾: أي: فمِنْ أَيْنَ تُسْحَرُونَ عَنْ إِدْرَاكِ هـٰذِهِ الْحَقِيقَةِ فَتُصْرَفُونَ عَنْهَا مُتَأَثِّرِينَ بِضَلَالَاتِ وَزُخْرُفِ أَقْوَالِ أَئِمَّةِ الشِّرْكِ المضِلِّين.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ تَعْقِيباً عَلَىٰ بَاطِلِ المشْرِكين:

• ﴿بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾﴾: أي: لَا شَيءَ عِنْدَ المشْرِكِينَ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَأَ بِهِ أَوْ يُلْتَفَتَ إِلَيْهِ، بَلِ الْحَقُّ مَا جِئْنَاهُمْ بِهِ في آيَاتِ كِتَابِنَا، وَعَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِنَا، وَإِنَّهُمْ في كُلِّ مَفْهُومَاتِهِمُ الشِّرْكِيَّةِ وَدَعَاوَاهُمْ بِشَأْنِ وُجُودِ آلِهَةٍ مِنْ دُونِ اللهِ لَكَاذِبُون.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً التَّعْقِيب عَلَىٰ بَاطِلِ الكَفَرَةِ المشْرِكِين:

• ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾:

• ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾: أي: مَا جَعَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِنَفْسِهِ وَلَداً يُعِينُهُ وَيُشَارِكُهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، وَنَفْيُ الْوَلَدِ يَقْتَضِي نَفْيَ أَكْثَرَ مِن ولد.

وجاءت «من» زَائِدَة لَتَوْكِيدِ عُمُومِ النَّفْي والتَّنْصِيصِ عَلَيْهِ.

إِنَّ وَلَداً يَنْفَصِلُ عَنْ ذَاتِ اللهِ يَتَنَافَىٰ عَقْلاً مَعَ أَزَلِيَّةِ اللهِ وأَبَدِيَّتِهِ، فالْأَزَلِيُّ الْأَبَدِيُّ لَا يَتَغَيَّرُ، وَالمتَغَيِّرُ لَا يَكُونَ أَزَلِيًّا وَلَا أَبَدِيًّا، وهُوَ لَا يَلِدُ وَلَا يُولَدُ، والَّذِي يَلِدُ أَوْ يُولَدُ لَا يَكُونُ أَزَلِيًّا وَلَا أَبَدِيًّا.

واتِّخَاذُ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ وَلَداً بالتَّبَنِّي نَقْصٌ يَتَنَزَّهُ عَنْهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، إِنَّ كُلَّ شيءٍ في الكَوْنِ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، وَهُوَ مُتَابِعٌ أَعْمَالَ الْخَلْقِ فِيهِ مِنْ أَصْغَرِ ذَرَّةٍ إِلَىٰ أَكْبَرِ مَجَرَّةٍ، حَتَّىٰ الْعَرْشِ، فَمِنْ أَيْنَ تَأْتِي الحاجَةُ لاتِّخَاذِ وَلَدٍ بالتَّبَنِّي.

• ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ﴾: «من» مِثْلُ سَابِقَتِهَا زِيدَتْ لِتَوْكِيدِ عُمُومِ النَّفْي والتَّنْصِيصِ عَلَيْهِ.

أي: وَمَا كَانَ مَعَ اللهِ إِلَهٌ هُوَ رَبٌّ خَالِقٌ، أَمَّا مَا يَتَّخِذُ النَّاسُ مِنْ آلِهَةٍ فَهِيَ بَاطِلَةٌ، إِذْ لَيْسَ لَهَا رُبُوبِيَّةٌ وَلَا خَلْقٌ، بَلْ هِي مُفْتَرَاةٌ مَكْذُوبَةٌ عَلَىٰ اللهِ، جلَّ جَلَالُهُ وَشَمَلَ سُلْطَانُهُ كُلَّ شَيْءٍ.

• ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾:

أي: لَوْ كَانَ مَعَ اللهِ الرَّبِّ الأَزَلِيِّ الأَبَدِي؛ آلِهَةٌ هِيَ أَرْبَابٌ خَالِقَةٌ، مِنْ حَقِّهَا أَنْ تُعْبَدَ؛ لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ هُوَ رَبٌّ خَالِقٌ بِمَخْلُوقَاتِهِ الَّتِي خَلَقَهَا مِنْ أَشْيَاءَ وأَحْيَاء، وانْتَحَىٰ بِهَا نَاحِيَةً مِنَ الْفَرَاغِ الَّذِي لَا نِهَايَةَ لَهُ فِي أَبْعَادِ مَا بَعْدَ السَّمَاوَاتِ والْعَرْشِ وَكُلِّ مَا خَلَقَ اللهُ فِي هَٰذَا الكَوْنِ، الْخَاضِعِ لِنِظَام وَحْدَةٍ مُتَمَاسِكَةٍ مِنْ أَقْصَىٰ الكَوْنِ إِلَىٰ أَقَاصِيهِ، وَلَجَعلَ لِمَخْلُوقَاتِهِ كَوْناً مُنْفَصِلاً عَنْ كَوْنِ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

وَحِينَ تَتَفَاصَلُ الْآلِهَةُ الأَرْبَابُ، ويَكُونُ لِكُل وَاحِدٍ مِنْهُمْ كَوْنٌ في الْفَرَاغِ الَّذِي لَا نِهَايَةَ لَهُ وَرَاءَ هَٰذَا الكَوْنِ الَّذِي هُوَ خَلْقُ اللهِ ومِلْكُهُ؛ فَسَيَحْصُلُ بَيْنَ الْآلِهَةِ الْأَرْبَابِ ذَوَاتِ الْأَكْوَانِ المتَفَرِّقَةِ؛ تَنَافُسٌ وَصِرَاعَاتٌ تُفْضِي إِلَىٰ أَنْ يَعْلُوَ بَعْضُهُمُ الْأَشَدُّ قُوَّةً عَلَىٰ بَعْضِهِم الْأَضْعَفِ، وتَنْتَهِي الصِّرَاعَاتُ بِغَلَبَةِ الْأَقْوَىٰ، وبقاءِ رَبٍّ واحِدٍ في الْوُجُودِ، وَهُوَ الإِلَٰهُ الواحِدُ الْأَحد لَا شَرِيكَ له.

هَٰذِهِ حُجَّةٌ فِكْرِيَّةٌ لِإِقْنَاعِ المشْرِكِينَ بِبُطْلَانِ وُجُودِ آلِهَةٍ بِحَقٍّ، هِيَ أَرْبَابٌ، إِلَّا اللهُ وحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

• ﴿... سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾: أي: تَنَزَّهَ اللهُ الرَّبُّ الْخَالِقِ الَّذِي لَا إِلَٰهَ بِحَقٍّ إِلَّا هُوَ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ مَا فِي رُبُوبِيَّتِهِ أَوْ فِي إِلَهِيَّتِهِ، وَهَٰذَا مَا يَصِفُهُ بِهِ المشْرِكُونَ، إِذْ يَصِفُونَ اللهَ تَعَالَىٰ بِأَنَّ لَهُ فِي الْوُجُودِ شَرِيكاً أَوْ شُرَكَاءَ فِي رُبُوبِيّتِهِ أَوْ فِي إِلَهِيَّتِهِ.

• ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾:

الْغَيْبُ: مَا غَابَ عَنْ مُشَاهَدَةِ المخْلُوقَاتِ وإِدْرَاكَاتِهِمْ.

الشَّهَادَة: مَا يَشْهَدُهُ بَعْضُ المخْلُوقَاتِ، وَلَوْ كَان غَيْباً بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ مَخْلُوقَاتٍ أخرىٰ.

أَمَّا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فَلَا شَيْءَ هُوَ غَيْبٌ بالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ، بَلْ كُلُّ مَوْجُودٍ هُوَ مَشْهُودٌ له، حَتَّىٰ نَوَاةِ الذَّرَّةِ، والْأَلِكْتْرُونَاتِ الَّتِي تَدُورُ حَوْلَهَا، وَمَا هُوَ أَصْغَرُ مِنْ ذلك.

فالمعنى: تَنْزِيهاً للهِ عَمَّا يَصِفُ المشْرِكُونَ، كَيْفَ يَدَّعُونَ أَنَّ للهِ شُرَكَاءَ وَهُوَ مُحِيطٌ بِكُلِّ شيءٍ عِلْماً، وَهُوَ عَالِمُ الْغَيْب بالنِّسْبَةِ إلى المخْلُوقَاتِ، وَعَالِمُ الشَّهَادَةِ بالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ؟!!، وَمِنَ الْغَيْبِ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ المخْلُوقَاتِ مَا وَرَاءَ هـٰذَا الكَوْنِ كُلِّهِ، فَإِنْ كَانَتْ تُوجَدُ آلِهَةٌ هِيَ أَرْبَابٌ لَكَانَ عَالِماً بِهَا.

• ﴿... فَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾: أي: فَتَسَامَىٰ وَتَرَفَّعَ اللهُ الرَّبُّ الإِلَٰهُ الْحَقُّ عَمَا يُشْرِكُ المشْرِكُونَ.

وبهـٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الثالث عشر مِنْ دُرُوس سورة (المؤمنون).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

❁ ❁ ❁

(١٨)
التدبُّر التحليلي للدّرس الرابع عشر من دُروس سورة (المؤمنون) الآيات من (٩٣ ـ ٩٨)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَـٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾:

القراءات:

(٩٨) • قرأ يَعْقُوب: [يَحْضُرُونِي] بإِثْبَاتِ يَاءِ المتَكلِّمِ وَصْلاً وَوَقْفاً.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**يَحْضُرُونِ**] بِحَذْفِ يَاءِ المتكلِّم مَعَ مُلَاحَظَتِهَا ذِهْناً.

تَمْهِيد:

فِي آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ تَعْلِيمٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ تَعْلِيمَاتٍ تُلائِمُ الْمَرْحَلَةَ الَّتِي نَزَلَتْ فِيها السُّورَة.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ ﷺ:

• ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾﴾:

في هَـٰذِهِ الآيَاتِ إِلْمَاحٌ ضِمْنِيٌّ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ؛ بِأَنَّهُ سَيُرِيهِ مَا يَعِدُ أَئِمَّةَ الكُفْرِ والشِّرْكِ والضَّلَالِ المعانِدِينَ الْمُكَابِرِينَ، الَّذِينَ يُشَاقُّونَ الرَّسُولَ ـ ﷺ ـ والَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوهُ، ويَحْرِصُونَ أَنْ يَتَخَلَّصُوا مِنْهُمْ بِأَيَّةِ وَسِيلَةٍ تُتَاحُ لَهُمْ، وقَدْ حَصَلَ هٰذَا فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ الْكُبْرَىٰ بِفَضْلِ اللهِ وَتَأْيِيدِهِ وَنَصْرِهِ.

• ﴿قُل رَّبِّ﴾: دُعَاءُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِكَلِمَةِ: «رَبِّ» هُوَ الأَدَبُ فِي دُعَاءِ الرَّبِّ وَنِدَائِهِ، وَهُوَ الأَدَبُ الَّذِي الْتَزَمَ بِهِ الرُّسُلُ عَلَيْهِم السَّلام في أَدْعِيَتِهِم بِاسْتِثْنَاءِ أَحْوَالٍ نَادِرَةٍ جِدًّا يَقُولُ فِيهَا الدَّاعِي: «يَا رَبِّ»، ويكون في ذات اللهِ لَا مِنْ أَجْلِ نَفْسِهِ.

• ﴿... إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾﴾: «إِمَّا» هِي مُرَكَّبَةُ مِن «إِنْ» الشَّرْطِيَّةِ وَحَرْف «مَا» الْمَزِيدِ للتَّوكيد، وَلِذَا جاء تَوكِيدُ فِعْلِ الشَّرْطِ بِنُونِ التوكيد الثَّقِيلَة.

أي: رَبِّ إنْ تُرِنِي مَا يُوعَدُ أَئِمَّةُ الكُفْرِ والشِّرْكِ مِنْ عِقَابٍ مُعَجَّلٍ؛ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي عِنْدَ إِنْزَالِ عِقَابِكَ وَتَعْذِيبِكَ بِهِمْ ضِمْنَ الْمَكَانِ الَّذِي تُنْزِلُ عَلَيْهِمْ فِيهِ وَسَائِلَ عِقَابِهِمْ وَتَعْذِيبِهِمْ وَإِهْلَاكِهِمْ.

وَفِي تَكْرِيرِ لَفْظِ «رَبِّ» دَلَالَةٌ عَلَىٰ أَنَّهُ يَحْسُنُ بِالَّذِي يَدْعُو اللهَ عَزَّ وَجَلَّ بِدُعَاءٍ ذِي فِقَرَاتٍ؛ أَنْ يُكَرِّرَ قَبْلَ كُلِّ فِقْرَةٍ مِنْهُ عِبَارَةَ «رَبِّ»، لِمَا فِي هٰذَا التَّكْرِيرِ مِنْ تَجْدِيدٍ لِلْإِيمانِ بِرُبُوبِيَّةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعالى، وإِعْلَانِ خُضُوعٍ وَذُلٍّ لَهُ وَتَضَرُّعٍ، وهٰذَا أَدْعَىٰ للاسْتِجَابَةِ.

وَفِي عِبَارَةِ: ﴿رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴾ مَعْنَىٰ الدُّعَاءِ بِأَنْ يُرِيَهُ اللهُ ذَلِكَ دُونَ تَصْرِيحٍ بِهٰذَا الطَّلَبِ، فَفِي الْفِقْرَتَيْنِ مَطْلُوبَانِ، وَقَبْلَ كُلِّ مَطْلُوبٍ مِنْهُمَا عِبَارَة إِيمانٍ وَخُضُوعٍ وَذُلٍّ وَتَضَرُّعٍ للرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

وأَطْمَعَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ ﷺ بِأَنْ يُرِيَهُ بِأَشَدِّ أَعْدَاءِ دَعْوَتِهِ مَا يُوعَدُونَ مِنْ عِقَابٍ وإِذْلَالٍ وإِهْلَاكٍ، فَقَالَ لَهُ تَبارَكَ وَتَعالَىٰ مُؤَكِّداً:

• ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَـٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾﴾:

جاء في هَـٰذِهِ العبارة التَّوْكِيدُ بـ «إِنَّ ـ والْجُمْلَة الاسمية ـ واللَّام المزحْلَقَة».

وَيَظْهَرُ لِي أَنَّ المقْصُودَ بِهٰذَا التَّوكِيدِ إِسْمَاعُ الكَفَرَةِ المعانِدِينَ الظَّالِمِين، الموعُودين بالْعِقَاب.

الوعْدُ: يَكُونُ بالخير، ويَكُونُ بالشَّرّ، والْمُرَادُ هُنَا الْوَعْدُ بالشَّرّ.

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يُتَابِعُ تَعْلِيمَهُ لِرَسُولِهِ ﷺ:

• ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾:

أي: إِذَا أَسَاءَ إِلَيْكَ هَؤُلَاءِ بِأَفْعَالِهِمْ أَوْ بِأَقْوَالِهِمْ؛ فَلَا تُقَابِلُ سَيِّئَاتِهِمْ

بِسَيِّئَاتٍ، بَلِ ادْفَعِ السَّيِّئَةَ الَّتِي تَنَالُكَ مِنْهُمْ؛ بالخَصْلَةِ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ.

إِنَّ الدَّفْعَ بالخَصْلَةِ الْأَحْسَنِ يَهْدِمُ مِنْ عُنْفِ قَبيحَتِهِمْ، وَيَجْعَلُهُمْ يَتَوَقَّفُونَ عَنْ مُتَابَعَةِ السَّيِّئَةِ بِمِثْلِهَا أَوْ بِأَقْبَحَ مِنهَا، وسَيَجْزِيهُمُ اللهُ عَلَىٰ سَيِّئَاتِهِمْ بِمَا يَسْتَحِقُّون، إِذْ هُو عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ وَبِمَا يَقُولُون.

• ﴿... نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾: أي: نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يُؤْذُونَكَ بِهِ مِنْ أقوالٍ يَصِفُونَكَ بها مِنْ كُلِّ ذي علم، كَمَا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يُؤْذُونَكَ بِهِ مِنْ أَفْعَالٍ مِنْ كُلِّ عَلِيم، وَنَحْنُ بِحِكْمَتِنَا نُمْهِلُهُمْ إِلَىٰ الْوَقْتِ المقدَّرِ لِعِقَابِهِمْ وَإِهْلَاكِهِمْ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابِعُ تَعْلِيمَهُ لِرَسُولِهِ ﷺ:

• ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾:

حِينَ يُؤْذَىٰ الإنْسَانُ مَهْمَا كَانَ ذَا خُلُق عَظِيم مِنَ الْبَشَرِ؛ قَدْ تَتَأَثَّرُ نَفْسُهُ، وَقَدْ تُحَدِّثُهُ بِأَنْ يَنْتَقِمَ لِنَفْسِهِ، وَلِئَلَّا يَتَعَرَّضَ الرَّسُول ﷺ لهذا ونحْوِهِ أَعْطَاهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ دُعَاءَ الْوِقَايَةِ مِنْ مِثْلِ هٰذَا، فَعَلَّمَهُ أَنْ يَسْتَعِيذَ بِرَبِّهِ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ، وَأَنْ يَسْتَعِيذَ بِهِ مِنْ حُضُورِهِمْ وَلَوْ لَمْ يَتَأَثَّرْ بِهَمَزَاتِهِمْ.

هَمَزَاتُ الشَّيَاطِينِ: خَاطِرَاتُهُمُ الَّتِي يُخْطِرُونَهَا فِي نَفْسِ الإنسانِ وفِكْرِهِ وقَلْبِهِ.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الرابع عشر من دُرُوس سورة (المؤمنون).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

❁ ❁ ❁

(١٩)

التدبُّر التحليلي للدّرس الخامس عشر من دُروس سورة (المؤمنون)

الآيات من (٩٩ ـ ١١٨) آخر السورة

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠) فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ (١٠١) فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ (١٠٤) أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥) قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ (١٠٦) رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ (١٠٧) قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ (١٠٩) فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠) إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ (١١١) قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ (١١٣) قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ (١١٦) وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ (١١٧) وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ (١١٨)﴾:

القراءات:

(٩٩) • قرأ يَعْقُوبُ: [ارْجِعُونِي] بإثْبَاتِ يَاءِ المتكلّم وصلاً وَوَقْفاً.

وقرأهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [ارْجِعُونِ] بحذف ياء المتكلّم مع مُلاحظتها ذِهْناً.

(١٠٠) • قرأ نَافع، وابْنُ كثير، وأَبُو عمْرو، وابْنُ عَامر، وأبو جعفر: **[لَعَلِّيَ أَعْمَلُ]** بفتح ياء المتكلّم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بإسْكانِ ياء المتكلّم.

(١٠٦) • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: **[شَقَاوَتُنَا]**.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[شِقْوَتُنَا]**.

الشِّقْوَةُ، والشَّقَاوَةُ: الشَّقَاءُ، والتَّعَاسَةُ وسُوء الحال، والضَّلال، وهٰذا المعنى الأخيرُ هو المناسِبُ هُنَا فيما أَرَىٰ.

(١٠٨) • قرأ يعقوب: **[وَلَا تُكَلِّمُونِي]** بإثبات ياء المتكلِّم وَصْلاً ووقفاً.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[وَلَا تُكَلِّمُونِ]** بحذْفِ ياء المتكلّم مع مُلَاحَظَتِها ذهْناً.

(١١٠) • قرأ نَافع، وحمزة، والكِسَائي، وأبو جعفر، وخلف: **[سُخْرِيًّا]** بضَمّ السين.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[سِخْرِيًّا]** بِكَسْرِ السين.

سُخْرِيًّا، وسِخْرِيًّا: لُغَتَانِ بمعنًى واحدٍ، وهُوَ الْهُزْءُ والسُّخْرِيَة.

(١١١) • قرأ حمزة، والكسائي: **[إِنَّهُمْ هُمُ]** بِكَسْرِ همزة «إنَّ».

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[أَنَّهُمْ هُمُ]** بفتح همْزَة «أَنَّ»، وبين القراءتَيْنِ تكَامُلٌ في المعنى.

(١١٢) • قرأ ابن كثير، وحَمْزَة، والكِسَائي: **[قُلْ كَمْ لَبِثْتُمْ]**.

وقرأهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ]**.

(١١٣) • قرأ ابْنُ كثير، والكِسَائيّ، وخَلفٌ، وَوَقْفاً حَمزة: **[فَسَلِ]**.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [فَاسْأَلِ].

وهما وَجْهَانِ عَربيَّانِ.

(١١٤) ● قرأ حمزة، والكِسَائي: [قُلْ إِنْ لَبِثْتُمْ].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ].

(١١٥) ● قرأ حمزة، والكِسَائيُّ، ويعقوب، وخلف: [لَا تَرْجِعُونَ] بفتح التاء وكَسْرِ الجيم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [لَا تُرْجَعُونَ] بضمّ التاء وفتح الجيم.

وبينهما تكامُلٌ في الأداء البياني.

تَمْهيد:

في آيات هٰذَا الدَّرْسِ الأخير مِنْ دُرُوس السورة:

(١) لَقَطاتٌ من أحداثٍ تبدأ عِنْدَ الموت، وأحداثٍ تَكُونُ بَعْدَ الْبَعْث، وأحداثٍ تَكُونُ حِينما يَدْخُلُ الّذِين خَسِرُوا أنفسهم في جهنّم، وبَعْضِ مَا يُقَالُ لَهُمْ فيها، وَمَا يُجِيبُونَ بِهِ، وَمَا يُرَدُّ بِهِ عَلَيْهِم.

(٢) بَيَانُ مَا يُسْأَلُهُ الْمَبْعُوثُونَ عَنْ مُدَّةِ بَقَائِهِمْ في الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهِمْ.

(٣) بَيَانٌ إقْنَاعِيٌّ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشأْنِ ضَرُورَةِ الْيَوْمِ الآخِر، مع إنْذَارِ المشْرِكِينَ بأَنَّهُمْ لَا يُفْلِحُونَ.

(٤) تَعْلِيمٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ أَنْ يقول:

﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ الّذِينَ أَنْهَوْا رِحْلَةَ امْتِحَانِهِمْ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَافِرِينَ، مُكَذِّبِينَ بِيَوْمِ الدِّين:

• ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٠٠﴾ وفي قراءة: [ارْجِعُونِي]:

«حَتَّىٰ»: هُنَا ابْتِدَائِيَّة يُبْتَدَأُ بَعْدَهَا بِجُمْلَةٍ ما.

أيْ: حِينَ يَجِيءُ أَحدَهُمُ الْمَوْتُ وَيَرَىٰ مَلَائِكَةَ التَّعْذِيبِ الْمُخِيفَةَ، وَتَنكَشِفُ عَنْهُ الْحُجُبُ، وَيَرَىٰ مَكَانَهُ مِنْ جَهَنَّمَ؛ يَتَمَنَّىٰ أَنْ يَرْجِعَ إِلَىٰ حَيَاةِ الامْتِحَانِ فِي الدُّنْيَا، لِيُؤْمِنَ إِيمَاناً صَحِيحاً صَادقاً، وَيَعْمَلَ أَعْمَالاً صَالِحَةً يَدْفَعُهُ إلى عَمَلِهَا إيمَانُهُ، فَيَقُولُ في نَفْسِهِ مُتَذَلِّلاً خاضعاً مُعْتَرِفاً بِرُبُوبِيَّةِ اللهِ وَعَظِيم سُلْطَانِهِ: رَبِّ ارْجُعُونِي (يُخَاطِبُ رَبَّهُ بِضَمِيرِ الْمُخَاطَبِ الْعَظِيم)، وَأَنَا أَرْجُو أَنْ أَعْمَلَ عَمَلاً صَالِحاً يُرْضِيكَ فيما تَرَكْتُ في الحياة الدُّنْيَا مِنْ مَجَالَات عَمَلٍ صالحٍ.

لكِنْ فَاتَ الأَوَانُ، وانْتَهَىٰ زَمَنُ الامْتِحَان، وَدَخَلَ الميِّتُ عَتَبَةَ الآخِرَةِ، وَشَاهَدَ مِنْهَا مَشَاهِدَ تَجعَلُهُ يُؤْمِنُ بِكُلِّ ما كَانَ يكْفُر بِهِ، وَيُكَذِّبُ بِهِ إِيمَانَ شُهُودٍ، لَا إِيمَاناً بالْغَيْبِ اسْتِنَاداً إِلَىٰ براهِينِ الْعَقْلِ، وَقَدْ كَانَ المطْلُوبُ مِنْهُ أَنْ يَسْتَعْمِلَ عَقْلَهُ وَيُؤْمِنَ بِالْغَيْبِ.

إِنَّ الإِيمَانَ المبْنِيَّ عَلَىٰ الشُّهُودِ الْحِسِّيِّ لَا قِيمَةَ لَهُ فِي اخْتِبَارِ إرَادَةِ الإنْسَانِ.

ويأْتِي الرَّدُّ الرَّبَّانِيُّ بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ قولُ اللهِ تَعالَىٰ:

• ﴿كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾:

«كَلَّا» كَلِمَةُ زَجْرٍ فِيهَا مَعْنَىٰ التَّوْبِيخِ والتَّحْسِيرِ والتَّنْدِيم، وأرَىٰ أَنَّهَا أو مَا يَدُلُّ عَلَىٰ مَعْنَاهَا تَصِلُ إلَىٰ نَفْسِ الْكَافِرِ الَّذِي طَلَبَ إرْجَاعَهُ إلى ظُرُوفِ حَيَاةِ الامْتِحَانِ.

أما عبارَةُ: ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ فَالظَّاهِرُ أَنَّهَا تَصِلُ إِلى الْمَلَائِكَةِ الْمُوَكَّلِينَ بِهَ، **والمعنَىٰ**: أَنَّهَا كَلِمَةٌ صَادِرَةٌ عَنْهُ غَيْرُ مَسْبُوقَةٍ مِنَّا باحْتِمَالِ أَنْ نَسْتَجِيبَ طَلَبَهُ فِيها أَوْ فِي أَمْثَالِهَا، بَعْدَ انْتِهَاءِ كُلِّ ظُرُوفِ امْتِحَانِهِ، ودُخُولِهِ مَرَاحِلَ أَزْمَانِ الْجَزَاءِ.

وَرَغْبَةُ الْكَافِرِ أَنْ يَقْضِيَ اللهُ لَهُ بِاسْتِئْنَافِ رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ حَتَّىٰ تَمَنِّيهِ أَنْ يَكُونَ تُرَاباً؛ قَدْ جَاءَ بِشَأْنِهَا عَشَرَةُ نُصُوصٍ مُتَكَامِلَةٍ فِيما بَيْنَهَا، وهِيَ تَدُلُّ عَلَىٰ عَشْرَةِ مَوَاقِفَ في عَشْرِ مَرَاحِلَ بَدْأً مِنْ مَوْقِفِهِ عند الموت، حتَّىٰ تَمَنِّيه أن يكُون تُرَاباً وَهُوَ في جهنم وقَدْ سَبَقَتْ دِراسة هذا[1].

• ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾:

أي: وَمِنْ وَرَاءِ الموْتَىٰ، وَمُشَاهَدَاتِهِمُ الَّتِي يَشْهَدُونَهَا عِنْدَ الْمَوْتِ وَعَقِبَهُ، وَمَا يَكُونُ مِنْهُمْ وَعَلَيْهِمْ؛ فَاصِلٌ يَسْتَمِرُّ زَمَنُهُ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ، لِيُلَاقُوا أَحْدَاثَ يَوْمِ الدِّين، يَوْمِ الْجَزَاء الْأَكْبَر.

كُلُّ زَمَنٍ مُسْتَقْبَلٍ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مُسْتَقْبَلَهُمْ هو ورَاءَهُمْ لِأَنَّ ظُهُورهم مُوجَّهَةٌ له.

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابِعُ بَيَانَ أَحْدَاثِ مَا بَعْدَ الْمَوْتِ:

• ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾:

أيْ: فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةُ الْبَعْث بَعْدَ انْتِهَاءِ الْبَرْزَخِ الفاصِلِ بَيْنَ الموتِ والْبَعْثِ؛ خَرَجَ المبْعُوثُونَ الَّذِينَ كَانُوا مَوْضُوعِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

(١) انظر الملحق الثامن من ملاحق تدبر سورة (الأعراف/٣٩ نزول) في المجلد الخامس.

مَوْضِعَ الامْتِحَانِ؛ لِمُلَاقَاةِ حِسَابِهِمْ، وَفَصْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَهُمْ، وَتَنْفِيذِ الجزاءِ الَّذِي قَضَىٰ بِهِ اللهُ لَهُمْ أَوْ عَلَيْهِم، فإِنَّهُمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ لَا يَجِدُونَ أَنْسَاباً نَافِعَةً لَهُمْ، إذْ يَأْتِي كُلُّ وَاحِدٍ إِلَىٰ رَبِّهِ فَرْداً، لِيُحَاسِبَهُ عَلَىٰ مَا قَدَّمَ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يُدَافِعَ عَنْ نَفْسِهِ بأَنَّهُ مِنْ سلَالَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، أَوْ أَبٌ أَوْ جَدٌّ لِرَسُولٍ مِنْ رُسُلِ اللهِ عَلَيْهِم السَّلَام، بَلْ رُبَّمَا كَانَ حِسَابُهُ وَعَذَابُهُ أَشَدَّ إِذْ لَمْ يَعْمَلْ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، وَقَدْ كَانَ عَلَىٰ عِلْمٍ بِمَا جَاءَ بِهِ وَخَالَفَهُ كُفْراً وعِنَاداً، واتِّبَاعاً لِلْهَوَىٰ وإِيثَاراً لِمَتَاعَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، كَوَلَدِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَام، وآزَرَ وَالِدِ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَام.

• ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾: أي: وَلَا يَسْأَلُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً أَنْ يُعِينَهُ، أَوْ يَدْفَعَ عَنْهُ شيئاً، مَهْمَا كَانَتِ الْقَرَابَةُ بَيْنَهُمْ قَرِيبَةً، لأَنَّ كُلَّ فَرْدٍ مِنْهُمْ مَشْغُولٌ بِهُمُومِ نَفْسِهِ، وَقَدْ تَحْدُثُ مَوَاقِفُ يَفِرُّ فِيهَا المرْءُ من أَقْرَبِ أَقْرِبَائِهِ وَأَحْبَابِهِ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ في سورة (عَبَسَ/ ٢٤ نزول):

﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾:

الصُّور: مَخْلُوقٌ عَظِيمٌ كَهَيْئَةِ الْقَرْنِ، إِحْدَىٰ جِهَتَيْهِ فُتْحَةٌ دَائِرِيَّة ضَيِّقَةٌ نِسْبِيًّا، وَالْأُخْرَىٰ وَاسِعَةٌ جِدًّا، وَبَاطِنُهُ فَارِغٌ، يُمْكِنُ أَنْ يُنْفَخَ فِيهِ، فَيُصْدِرُ صَوْتاً بِحَسَبِهِ، وَلَهُ مَلَكٌ عظِيمٌ يُؤْمَرُ بالنفخ فيه نَفْخَةَ إِنْهَاءِ ظُرُوفِ الحياة الدُّنْيا، ونَفْخَةَ الْبَعْثِ.

والنَّفْخُ فِي الصُّورِ الْمُرَادُ هُنَا هُوَ النَّفْخَةُ الثَّانِيَة نَفْخَةُ الْبَعْثِ كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ.

• ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾:

• ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾: **أَفْلَحَ**: أي: نَجا وفَازَ وظَفِرَ، وأصْلُ الْفَلَاحِ: الْبَقَاءُ فِي النَّعِيمِ والْخَيْر.

• ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾: أي: تَمَسُّ وُجُوهَهُمُ النَّار فَتُحْرِقُهَا إحْراقاً غَيْرَ مُنضِج لِلحُومِهَا وَعِظَامِهَا، أَمَّا جُلودُهُمْ فَكُلَّمَا نَضِجَتْ بَدَّلَهُمُ اللهُ جُلوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا عذابَ الْحَرِيق.

• ﴿كَٰلِحُونَ﴾: **الْكَلَحُ**: شِدَّةُ الْعُبُوسِ في الوجْهِ مَعَ تَقَلُّصِ عَضَلَاتِهِ، **والْكَالِحُ**: مَنْ قَصُرَتْ شَفَتُهُ أَوْ شَفَتَاهُ عَنْ أَسْنَانِهِ، ومِثْلُ هٰذَا يَحْدُثُ مِنْ لَفْحِ النَّارِ لِلْوَجْهِ.

جاء ذكر «الْمَوَازِينِ» في العبارَتَيْنِ مَجْمُوعاً، وأرَىٰ أَنَّ الْجَمْعَ يرادُ بِهِ الدَّلَالَة عَلَىٰ أَنَّهَا مَوَازِينُ مُتَنَوِّعَةٌ تُنَاسِبُ صُنُوفَ الْأَعْمَالِ وأنواعَها، الْقَلْبِيَّةِ، والنَّفْسِيَّةِ، والْفِكْرِيَّةِ، والْجَسَدِيَّة، ثُمَّ تُجْمَعُ نَتَائِجُ حِسَابَاتِ الموازين، وتُبْنَىٰ عَلَيْهَا أَحْكَامُ الْعَدْلِ والْفَضْلِ الرَّبَّانِيَّة.

وطَرِيقَةُ الْوَزْنِ فِي مَوَازِينِ يَوْم الدِّينِ؛ تَعْتَمِدُ على ثِقَلِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، أَمَّا الْأَعْمَالُ السَّيِّئَة والْأَعْمَالُ الْحِيَادِيَّةُ الَّتِي لَا تُصَنَّفُ مع الأعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَلَا مَعَ الأعْمَالِ السَّيِّئَةِ؛ فَهِي سَالِبَةٌ خَفِيفَةٌ، أَوْ طَائِشَةٌ إِلَىٰ جانِبِ السَّلْبِ، فَهِيَ لَا وَزْن لَهَا، والْأَعْمَالُ السَّيِّئَةُ ذَاتُ وَزْنٍ سَالِب.

والْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ تَشْمَلُ كُلَّ مَا يَكْسِبُهُ الإنْسَانُ بإرَادَتِهِ الْحُرَّةِ، مِمَّا يُحِبُّهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ عِبَادِهِ، وَتَحُلُّ مَحَلَّ رِضَىً مِنْهُ، فَتَشْمَلُ الإيمانَ الصَّحِيحَ الصَّادِقَ، والنِّيَّاتِ، والْأَفْكَارَ، وَحَرَكَاتِ النُّفُوسِ الْإِرَادِيَّةِ، وَتَشْمَلُ الْأَعْمَالَ الظَّاهِرَةَ الَّتِي هِي مِنْ آثَارِ الإيمانِ، والمقْرُونَةَ بِالْإِخْلَاصِ للهِ تَعَالَىٰ، مع الْتِزَامِ أَحْكَامِ شَرِيعَتِهِ[1].

(١) انظر تتمة هذا التحليل ما جاء في تَدَبّر سورة (القارعة/ ٣٠ نزول).

وأُطْلِقَتْ كَلِمَةُ «الْمَوَازِينِ» وأُرِيدَ بِهَا مَا يُوزَنَ بِهَا، لِأَنَّ مَا يُوزَنُ بِهَا هُوَ الَّذِي يَثْقُلُ وَيَخِفُّ، وهٰذَا مِنْ قبيلِ المجاز الْمُرْسَل، فهو مِنْ إطْلَاقِ الْمَحَلِّ وَإِرَادَةِ مَا يَحُلُّ بِهِ.

المعْنَىٰ: فَمَنْ ثَقُلَتْ أَعْمَالُهُ الصَّالِحَةُ لَدَىٰ وَزْنِهَا فِي مَوَازِينِ مَا اكْتَسَب مِنْ أَعْمَالٍ إرَادِيَّةٍ، فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ في الحياة الدُّنيا؛ فَأُوْلَئِكَ الْفُضَلاءُ رَفِيعُوا المنزلَةِ عِنْدَ رَبِّهِم؛ هُمُ الْمُفْلِحُونَ النَّاجُون الْفَائِزُونَ الظَّافِرُونَ فِي جَنَّاتِ النعيم، عَلَىٰ دَرَجَاتِهِمُ الَّتِي مُنِحُوهَا بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ مَا قَدَّمُوا.

وَمَنْ خَفَّتْ أعْمَالُهُ إِذْ كَانَتْ سَيِّئَةً أَوْ حِيادِيَّةً لَدَىٰ وَزْنِهَا فِي مَوازِينِ مَا اكْتَسَبَ مِنْ أَعْمَالٍ إرادِيَّةٍ، فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا؛ فَأُولَئِكَ الْبُعَدَاءُ المتَسَفِّلُونَ بِمَا اكْتسَبُوا الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ؛ مُقِيمُونَ دائماً وَأَبَداً فِي جَهَنَّمَ، يُعَذَّبُونَ فِيها بأنواعٍ مِنَ الْعَذَابِ، أَشَدُّهَا عَذَابُ الْحَرِيق، إِذْ تَمَسُّ وُجُوهَهُم وَسَائِرَ أَجْسَادِهِمْ تَبَعاً لِوُجُوهِهِمْ؛ النَّارُ فَتُحْرِقُهَا إحْرَاقاً غَيْرَ مُنْضِجٍ لِلُحُومِهَا وَعِظَامِهَا، وهُمْ فِي جَهَنَّمَ كَالِحُونَ، تَقَبَّضَتْ عَضَلَاتُ وُجُوهِهِمْ عُبُوساً وَكَرْباً، وَقَصُرَت بالْحَرِيقِ شِفَاهُهُم عَنْ أسْنَانِهِمْ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ خَسَارَةَ الإنْسَانِ نَفْسَهُ أَشَدُّ أنواعِ الْخَسَارَات.

وقَدْ جَاءَت إعَادَةُ الضَّمِيرِ عَلَىٰ «مَنْ» في العبارَتَيْنِ بالإفْرَادِ أَوَّلاً مُرَاعَاةً لِلَفْظ «مَنْ»، وَأُشِيرَ إِلَيْهَا بِلَفْظِ «أُولَئِكَ» في الْعِبَارَتَيْنِ بَعْدَ ذَلِك مُرَاعَاة لمعْنَاهَا، إِذْ لفظ «مَنْ» الموصُولَة: مِنْ أَلْفَاظِ الْعُمُوم.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بَيَانَ بَعْضِ أَحْوَالِ أَهْلِ النَّارِ الَّذِينَ خَفَّتْ مَوَازِينُهم:

• ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا

ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾:

آياتٌ فِيها بَيانُ حِوارٍ بَيْنَ اللهِ جَلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانُهُ وبَيْنَ أَهْلِ النَّارِ وهُمْ يُعَذَّبُونَ فِيها، فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ كَلامُ اللهِ يَصِلُهُمْ؛ وإِمَّا أَنْ يُبَلِّغَهُمْ إِيَّاهُ الْمَلائِكَةُ الْمُكَلَّفُونَ أَنْ يُشْرِفُوا عَلَىٰ تَعْذِيبِهِمْ فِي جَهَنَّمَ.

يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ وَهُمْ يُعَذَّبُونَ فِي جَهَنَّمْ، وَرُبَّما كَانَ هٰذَا جَوَاباً لِتَضَرُّعِهِمْ أَنْ يُخَفِّفَ اللهُ عَنْهُمْ الْعَذاب:

- ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾:

أي: أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي البيانِيَّةُ الْمُنَزَّلَةُ، وَهِيَ مِنْ كِتَابِي لِلنَّاسِ؛ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ فِي حَيَاةِ الامْتِحَانِ، مِنْ قِبَلِ رَسُولِي، أَوْ مِنْ قِبَلِ مُبَلِّغِي رِسَالَتِهِ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوهُ، فَكُنْتُمْ يَوْمَئِذٍ تُكَذِّبُونَ بِهَا رَسُولِي الَّذِي بَلَّغَهَا، عَلَىٰ الرُّغْمِ مِنْ تَأْيِيدِي لَهُ بالآيَاتِ الْبَاهِرَاتِ الْمُثْبِتَاتِ صِحَّةَ نُبُوَّتِهِ وَرِسَالَتِهِ.

فَيُجِيبُونَ بِمَضْمُونِ مَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي قول الله تعالى:

- ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾﴾:

جَاءَ التَّعْبِيرُ بالْفِعْلِ الْمَاضِي؛ للدَّلالَةِ عَلَىٰ أَنَّهُمْ سَوْفَ يَقُولُونَهُ بِدُونِ شَكٍّ، وَهُوَ مِنْ عِلْمِ اللهِ الشامِلِ لِمَا كَانَ، وَلِمَا يَكُونُ، وَلِمَا سَوْفَ يَكُونُ، وَهُوَ بِمَثَابَةِ الْأَمْرِ الَّذِي تَحَقَّقَ وُقُوعُهُ فِي الْمَاضِي، إِذْ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الواقِعُ عَلَىٰ خِلافِه.

الشِّقْوَة: الشَّقَاءُ، وهو الْعُسْرُ والتَّعَبُ، والشِّدَّةُ، والضَّلال. **والشَّقِي**: التَّعِيسُ غير السعيد.

• ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾: أيْ: غَلَبَتْ عَلَى إِرَادَاتِنَا ضَلالَتُنَا الَّتِي اتَّبَعْنَا بِهَا أَهْوَاءَنَا وَشَهَوَاتِنَا وَمَتَاعَاتِنَا مِنْ زِينَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَجَلَبَتْ لَنَا التَّعَاسَةَ وَسُوءَ الْحَالِ الَّذِي نَحْنُ فِيهِ الآن.

واعْتَرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا:

• ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾﴾: أي: وَكُنَّا فِي حَيَاةِ الامْتِحَانِ قَوْماً ضَالِّينَ ضَلالاً إرَادِيًّا، لَمْ نَكُنْ فِيهِ مَجْبُورِين.

وطَمِعُوا إِذْ مُكِّنُوا مِنَ الْحِوَارِ مَعَ رَبِّهِمْ، وَبَعْدَ إِعْلاَنِهِم الاعْتِرَافَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً ضَالِّين؛ أَنْ يُخْرِجَهُمُ اللهُ مِنْ جَهَنَّمَ وَيَسْتَأْنِفُوا رِحْلَةَ امْتِحَانِهِمْ إِذَا دَعَوْهُ بِذُلٍّ وَتَضرُّع، فَقَالُوا كَمَا جَاءَ فِي الْبَيانِ:

• ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾:

أي: رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ جَهَنَّمَ، وَأَرْجِعْنَا إِلَىٰ حَيَاةِ الابْتِلاءِ، لِنَعْمَلَ الْأَعْمَالَ الَّتِي تُرْضِيكَ عَنَّا، فَإِنْ عُدْنَا إِلَىٰ مِثْلِ مَا كُنَّا عَلَيْهِ، فَإِنَّا ظَالِمُونَ ظُلْماً مِنْ أَخَسِّ الدَّرَكَاتِ، وَنَسْتَحِقُّ الْخُلُودَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ.

لَقَدْ تَوَهَّمُوا أَنَّ اللهَ إِذَا أَرْجَعَهُمْ إِلَىٰ حَيَاةِ الامْتِحَانِ فإنَّهُ يُرْجِعُهُمْ ويُبْقِي فِي ذَاكِرَاتِهِمْ مَا شَاهَدُوه مِنْ أَحْدَاثِ الآخِرَةِ وَعَذَابِ جَهَنّم، إِنَّ ظُرُوفَ امْتِحَانِهِمُ الْمُسْتَأْنَفِ سَتَكُونُ مُمَاثِلَةً لِامْتِحَانِهِمُ الْأَوَّلِ تماماً، وَهٰذَا يَقْتَضِي أَنْ يَمْسَحَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ ذَاكِرَاتِهِمْ كُلَّ مَا شَاهَدُوهُ مِنْ أَحْدَاثِ الْآخِرَةِ وَعَذَابِ جَهَنَّمَ، وَعِنْدَئِذٍ يَكُونُونَ مِثْلَ مَا كَانُوا فِي حَيَاةِ الْإمْتِحَانِ الْأَوَّلِ، وَعِنْدَئِذٍ لَا بُدَّ أَنْ يَعُودُوا إِلَىٰ مَا سَبَقَ أَنْ نُهُوا عَنْهُ، فَلَا فَائِدَةَ تُرْجَىٰ مِنْ إِعَادَتِهِمْ، إِنَّ اخْتِيَارَهُمُ الثَّانِي سَيَكُون مُطَابِقاً لاخْتِيَارِهِمُ الْأَوَّل.

لِهٰذَا يُجِيبُهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْبَيَانُ التَّالِي:

• ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾:

الْخَاسِئُ: الذَّلِيلُ الْمَطْرُودُ الْمُبعْدَ.

أي: كُونُوا أَذِلَّاءَ مَطْرُودِينَ مُبْعَدِينَ مِنْ وَاسِعِ رَحْمَتِي، تُعَذَّبُونَ فِي جَهَنَّمَ، وَلَا تُكَلِّمُونِي بِدُعَاءٍ وَلَا بِتَلْفِيقِ أَعْذَارٍ.

وَأَقَامَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ بِنُظَرَائِهِمْ مِنْ عِبَادِهِ فِي وَضْعِهِمْ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا، إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا أَمْثَالَهُمْ فِي الكُفْرِ والْعِنَادِ والْتِزَامِ الْبَاطِلِ، بَلْ آمَنُوا واسْتَغْفَرُوا وَسَأَلُوا اللهَ أَنْ يَرْحَمَهُمْ، بَيْنَمَا كَانَ الْجَهَنَّمِيُّونَ يَسْخَرُونَ مِنْهُمْ وَيَسْتَهْزِئُونَ بهم، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَهُمْ:

• ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾:

أي: إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي الَّذِينَ وَضَعْتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَان، لَهُمْ تَقْصِيرَاتٌ وَمَعَاصٍ وَذُنُوب إِلَّا أَنَّهُمْ كَانُوا مُؤْمِنِين إيماناً صَحِيحاً صَادِقاً؛ يَقُولُون: رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَوْجَبْتَ عَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِهِ ولَكِنَّنَا ارْتَكَبْنَا خَطَايَا، فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا خَطَايَانَا، وارحمنَا بِرَحْمَتِكَ الْوَاسِعَةِ، فَاجْعَلْنَا يَوْمَ الدِّينِ مِنَ الْفَائِزِينَ فِي جَنَّتِكَ الناجِينَ مِنْ عَذَاب النار.

الفوز: يَأْتِي بِمَعْنَىٰ الظَّفَرِ، والنَّجَاةِ مِنَ الشَّرِّ، وبِمَعْنَىٰ الرِّبْحِ.

فَاتَّخذْتُمُوهُمْ أَيُّهَا الجَهَنَّمِيُّونَ وَأَنْتُمْ فِي حَيَاةِ الابْتِلَاءِ مَسخُوراً مِنْهُمْ، مُسْتَهْزأً بِهِمْ، لِتَصُدُّوهُمْ عَنِ الصراطِ المسْتَقِيم وَتَرُدُّوهُمْ إِلَىٰ الكُفْرِ وارْتِكَابِ أَشْنَعِ الكَبَائِرِ وأقْبَحِهَا، فَصَبَرُوا عَلَىٰ اسْتِهْزَائِكُمْ بِهِمْ، وَفَرِحْتُمْ أَنْتُم بأَنَّهُ يُوجَدُ بَشَرٌ تَسْتَهْزِئُونَ بِهِمْ، وَجرَّكُمْ فَرَحُكُم وَسُرُورُكُم بالتَّعَالِي مُسْتَهْزِئِينَ عَلَىٰ بَشَرٍ أَمْثَالِكُمْ؛ حَتَّىٰ صِرتُمْ لَا تُفَكِّرُونَ بِذِكْرِي، وَيُعْجِبُكُمْ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَضْحَكُوا مِنْهُمْ، وَتُؤْذُوهُمْ فِي نُفُوسِهِمْ، وَحَسُنَ في نُفُوسِكُمْ أَنْ تَسْتَمِرُّوا كَافِرِينَ مُكَذِّبِينَ بِيَوْمِ الدِّينِ.

هَـٰؤُلَاء: إِنِّي بِعَفْوِي ورَحْمَتِي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا جزَاءَاتٍ تُلَائِمُ أَوْضَاعَهُمْ، وَأَنْزَلْتُهُمْ مَنَازِلَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ بِحَسَبِ مَا قَدَّمَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مِنْ عَمَلٍ، وَكُنْتُمْ تَتَوَهَّمُونَ أَنَّهُ لَنْ يَكُونَ لَهُمْ فَوْزٌ عِنْدِي، فَخَيَّبْتُ ظَنَّكُم الْبَاطِلَ، وأَثْبَتُّ أَنَّهُمْ هُمُ الفائِزُونَ لَا أَنْتُمْ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بَيَانَ بَعْضِ أَحْوَالِ أَهْلِ النَّارِ بَعْدَ الْبَعْث:

• ﴿قَـٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَـٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾:

وَجَاءَ في قراءةٍ أُخْرَىٰ: ﴿قُلْ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾.

وَجَاءَ أَيْضاً: ﴿قُلْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾:

يَبْدُو أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَ مَلَكاً مِنَ الْمَلَائِكَةِ المكَلَّفِينَ أَنْ يُشرِفُوا عَلَىٰ سَوقِهِمْ وإِلْقَائِهِمْ فِي جَهَنَّمَ دَارِ عَذَابِهِمْ؛ أَنْ يَسْأَلَهُم عَنْ مُدَّةِ إِقَامَتِهِمْ فِي الْأَرْضِ بَيْنَ الْمَوْتِ والْبَعْثِ، فإِذَا سَمِعَ إِجَابَتَهُمْ قَالَ لَهُمْ: إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُم تَعْلَمُون.

فجاءَتْ قراءَة «قُلْ» و«قَالَ» في الآية (١١٢)، وقراءة «قُلْ» و«قَالَ» في الآيَة (١١٤) دَالَّةً علَىٰ هـٰذَا، أي: قَالَ اللهُ لَهُ: «قُلْ»، فَنَفَّذَ الْأَمْرَ الرَّبَّانِيَّ و«قَالَ».

أيْ: قَالَ الْمَلَكُ المكَلَّفُ الْمَأْمُورُ بالْإِشْرَافِ عَلَىٰ سَوْقِهِمْ وَتَعْذِيبِهِمْ فِي جَهَنَّمَ، وَقَدْ يَكُونُ مَعَهُ مَلَائِكَةٌ كَثِيرُونَ: كَمْ أَقَمْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ بَيْنَ الْمَوْتِ والْبَعْثِ؟.

فَيُجِيبُونَ بِحَسَبِ مَا يَتَصَوَّرُونَ، لِأَنَّ الْإِحْسَاسَ بِمُرُورِ الزَّمَنِ مَهْمَا طَالَ يَكُونُ مُلْغًى مِنْ نُفُوسِهِمْ، فَالسَّاعَةُ وَمِلْيَارَاتُ الْقُرُونِ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ إِحْسَاسِهِمْ سَوَاء، وَنَحْنُ نَشْهَدُ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ هـٰذَا فِي الْعَمَلِيَّاتِ الجراحِيَّةِ وَمَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ تَخْدِيرٍ.

إِنَّهُمْ يُجِيبُونَ بِحَسَبِ تَصَوُّرِهِمْ السَّائِلَ لَهُمْ مِنَ الملائِكَةِ فَيَقُولُونَ لَهُ:

• ﴿لَبِثْنَا﴾: أَيْ: أَقَمْنَا بِحَسَبِ تَصَوُّرِنَا، لِأَنَّنَا كُنَّا فَاقِدِينَ الإِحْسَاسَ بِمُرُورِ الزَّمنِ، يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ، فَلَا تَسْأَلْنَا نَحْنُ، وَلَكِنِ اسْأَلِ الْعَادِّينَ الْقَادِرِينَ عَلَىٰ الإِحْسَاسِ بِمُرُورِ الزَّمَنِ مِنَ الأَحْيَاءِ، كَأَهْلِ الْمَلأِ الأَعْلَىٰ مِنَ الْمَلائِكَةِ.

فَيَقُولُ لَهُمُ الْمَلَكُ الْمَأْمُورُ بِسُؤَالِهِمْ:

• ﴿... إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾:

أي: مَا لَبِثْتُمْ مَهْمَا طَالَ زَمَنُ مُكْثِكُمْ مَوْتَىٰ فِي بَاطِنِ الأَرْضِ إِلَّا زَمَناً قَلِيلاً بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ أَزْمَانِ الدَّهْرِ، وَبِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الْخُلُود الَّذِي سَتَخْلُدُونَهُ فِي الآخِرَةِ، وَأَنْتُمْ كُنتُمْ قَادِرِينَ عَلَىٰ إِدْرَاكِ هَـٰذِهِ الحقيقة فِي حَيَاةِ الامْتِحَانِ، لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ وَتُؤْمِنُونَ بِأَنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ وَمُجَازَوْنَ جَزَاءً خَالِداً في أَزْمَانٍ مُتَوَالِيَاتٍ لَا نِهَايَةَ لها.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيّناً لَهُمْ وَهُمْ فِي حَيَاةِ الابْتِلَاءِ:

• ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾:

الْعَبَثُ: الْعَمَلُ فِيمَا لَيْسَ لَهُ فَائِدَةٌ تُرْجَىٰ، وَلَا غَايَةٌ يَقْصِدُ تَحْقِيقَهَا الحُكَمَاءُ، أَهْلُ الْعَقْلِ والرُّشْدِ، فَكَيْفَ يُتَّهَمُ بالْعَبَثِ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟!.

إِنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ فِي خُطَّةِ التَّكْوِينِ حَيَاةٌ أُخرَىٰ، يَتَحَقَّقُ فِيهَا جَزَاءُ الْمَوْضُوعِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَان؛ لَكَانَ خَلْقُ ذَوِي الإِرَادَاتِ الْحُرَّةِ فِي هَـٰذِهِ الدُّنْيَا عَبَثاً مِنَ الْعَبَثِ الَّذِي يَتَنَزَّهُ الخالِقُ الْبَارئ عَنْهُ، وَتَصَوُّرُ هَـٰذَا مِنْ قِبَلِ الممتَحَنِينَ اتِّهَامٌ للهِ بِمَا هُوَ مُسْتَحِيلٌ عَقْلاً بالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ، وَهُوَ كُفْرٌ شَنِيعٌ بِصِفَاتٍ جَلِيلَاتٍ مِنْ صِفَاتِ كَمَالِهِ، يَسْتَحِقُّ صَاحِبُهُ الْخُلُودَ فِي عَذَابِ النَّارِ يَوْمَ القيامة.

المعنى: أَفَقَدْتُمْ قُدْرَاتِ التَّفْكِيرِ الَّتِي خَلَقْتُهَا فِيكُمْ، وَحَكَّمْتُمْ أَهْوَاءَكُمْ وَشَهَوَاتِكُمْ، فَتَوَهَّمْتُمْ أَنَّنَا لَمْ نَخْلُقْكُمْ إِلَّا عَمَلاً عَبَثاً، لَيْسَ مُسْتَتْبَعاً بِغَايَةٍ حَكِيمَةٍ هِيَ الجزاءُ بَعْدَ حَيَاةِ الامْتِحَان.

وَتَوَهَّمْتُمْ أَنَّكُمْ لَا تُرْجَعُونَ إِلَيْنَا فِي حَيَاةٍ أُخْرَىٰ لِنُحَاسِبَكُمْ، وَنَفْصِلَ الْقَضَاءَ بَيْنَكُمْ، وَنُجَازِيَكُمْ عَلَىٰ مَا قَدَّمْتُمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ، وَصَدَّقْتُمْ أَوْهَامَكُمْ، وَجَحَدْتُمُ الْحَقَائِقَ الْكُبْرَىٰ، وَكَذَّبْتُمْ رَسُولِي فِيما بَلَّغَ عَنِّي.

وبَعْدَ هٰذَا الْبَيَانِ أَبانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ؛ أَنَّه تَعَالَىٰ وَتَسَامَىٰ عَنْ تَصَوُّرَاتِ الْكَافِرِينَ بِيَوْم الدِّينِ، وَهُوَ الْمَلِكُ لِلْوُجُودِ كُلِّهِ، الَّذِي يَرْجِعُ إِلَيْهِ الْأَمْرُ فِي كُلِّ شيءٍ والسُّلْطَانُ عَلَىٰ كُلِّ شيءٍ، وَهُوَ الْحَقُّ الثَّابِتُ مِنَ الْأَزَلِ بِلَا بِدَايَةٍ، إِلَىٰ الْأَبَدِ بِلَا نِهَايَةٍ، بِذَاتِهِ وَبِكُلِّ صِفَاتِهِ صِفَاتِ الْكَمَالِ، وَتَنَزُّهِه عَنِ صِفَاتِ النُّقْصَانِ، وَبِمَا أَنَّهُ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ، وَمَالِكُ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ، وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيم، فَهُوَ وَحْدَهُ المسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ في الْوُجُودِ كُلِّهِ، فَلَا إِلَٰهَ إِلَّا هو.

الْعَرْش: مَخْلُوقٌ أَعْظَمُ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَمُحِيطٌ بها، ورُوِيَ أَنَّ السَّمَاوَاتِ بالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ فِي أَرْضٍ فَلَاةٍ وَاسِعَة.

الكَرِيم: الْجَامِعُ لِكُلِّ صِفَاتِ الْكَمَالِ الْمُلَائِمَةِ لِخَلْقِهِ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَمُحِيطاً بها.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ المشركِينَ، رَبْطاً بِمَا جَاءَ بِشَأْنِهِمْ فِي أَثْنَاءِ السُّورَة:

• ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾:

أي: وَمَنْ يَعْبُدْ مَعَ اللهِ إِلَٰهاً آخَرَ غَيْرَهُ، وَهٰذَا الإِلَٰهُ لَا بُرْهَانَ لَهُ يُثْبِتُ بِهِ رُبُوبِيَّتَهُ وَإِلَٰهِيَّتَهُ؛ فإِنَّمَا حَسَابُهُ يَوْمَ الدِّين عِنْدَ رَبِّهِ عَلَىٰ كُفْرِهِ خُلُوداً في

عَذَابِ الْجَحِيمِ، لِأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ، أي: لَا يَنْجُونَ، وَلَا يَفُوزُونَ، وَلَا يَظْفَرُونَ بِمَا يُرِيدُون، بَلْ هم في الْعَذَابِ يَوْمَ الدِّينِ خَالِدُون. ومَعْلُومٌ أَنَّهُ لَا يُوجَدُ برهان يَدُلُّ على وجودِ إلَهٍ حقّ غيرِ اللهِ تبارك وَتَعَالَىٰ.

جُمْلَةُ: ﴿... إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾: وَقَعَتْ مَوْقِعَ التَّعْلِيلِ لِمَا أَشَارَتْ إِلَيْهِ عبارةُ: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ ودالَّةً عَلَيْهِ.

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في خِتَامِ السُّورَةِ خِطَاباً لِرَسُولِهِ ﷺ فَلِكُلِّ مُؤْمِنٍ:

• ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾:

أي: وَقُلْ آناً فَآناً أَوْ ثُمَّ آناً: رَبِّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، مَا أَعْلَمُ مِنْهَا وَمَا لَا أَعْلَمُ، وَارْحَمْنِي بِرَحْمَتِكِ الواسِعَة فِي كُلِّ أَحْوَالِي، وَفِي كُلِّ شُؤُونِي، وَأَنْتَ رَبِّ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ، إِذْ تَمْنَحُ رَحْمَتَكَ عِبَادَكَ عَلَىٰ وَفْقِ حِكْمَتِكَ.

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الخامس عشر مِنْ دُرُوس سورة (المؤمنون)، وَتَمَّ تَدَبُّرُ السورة كلها.

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(٢٠)
ملحق: مُستَخرَجات بلَاغِيّة مِن سُورَةِ (المؤمنون)

يوجَدُ في سورة (المؤمنون) اخْتيارَاتٌ بَلَاغِيَّةٌ مُتَعَدِّدَة، تَفضَّلَ اللهُ عَلَيَّ باسْتِخْرَاجِ ما يلي منها:

أوّلاً: من الْقَصْر:

وهو تَخْصِيصُ شيءٍ بِشَيْءٍ بِعِبَارَةٍ كَلَامِيَّةٍ تَدُلُّ عليه.

وفي السورة مِنْهُ عِدَّة أَمْثِلَة، مِنها ما يلي:

المثال الأول:

■ قولُ اللهِ تَعالَىٰ حِكايةً لِقَوْلِ كُفَّارِ مَلأَ قَوْمِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلام عَنْهُ لجماهيرِهم:

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ... (٢٤)﴾:

أي: قالوا: لَيْسَ نُوحٌ إلَّا بَشَراً مِثْلَكُمْ، فَلَيْسَ هُو نَبِيًّا وَلَا رَسُولاً.
وهو قَصْرٌ إِضَافِي، بالنفي والاسْتِثْنَاءِ.

ونظيره قولُهُمْ بِشَأْنِه:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ ... (٢٥)﴾:

أي: مَا هو إلَّا رَجُلٌ بِهِ نُوعُ جُنُونٍ.

وهو أيضاً قَصْرٌ إضَافِيٌّ، بالنَّفي والاسْتِثناء.

المثال الثاني:

■ قول الله تَعَالَىٰ حِكَايَةً لِقَوْلِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلام لِقَوْمِهِ «عاد» يدعوهُمْ إلى التوحيد:

﴿... مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ... (٣٢)﴾:

أي: لَيْسَ لَكُمْ إلَهٌ حَقٌّ هُو رَبّكُمْ غَيْرُ اللهِ رَبّ العالمين.

وهو قَصْرٌ حقِيقي، بالنَّفي والاستِثْنَاءِ.

المثال الثالث:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ حِكَايَةً لِقَوْلِ مَلأِ «عَادٍ» لجماهِيرِهِمْ بِشَأْنِ الْبَعْث:

﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨)﴾:

فِي هٰذَا النَّصّ قصران:

الأوّل: بَيَانُهُ: مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنيا، فَلا بَعْثَ لِلْحِسَابِ وفَصْلِ القضاء وتَنْفِيذ الجزاء. وَهُو قَصْرٌ حقيقي، مَعْنَاهُ: لا حَيَاةَ لَنَا غَيْرُ هٰـذِهِ الحياة. وهو ادّعاء كاذبٌ مِنهم. وأداة القصر: النفي والاستثناء.

الثَّاني: بَيَانُهُ: مَا هُو «أي: هُود عَلَيْهِ السَّلَام» إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَىٰ اللهِ كَذِباً. وهو قَصْرٌ إضَافِيٌّ بالنَّفْي والاسْتِثْنَاء.

«إِنْ» حرفُ نَفْي في المثالَيْن.

المثال الرابع:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ... ﴿٦٢﴾﴾:

أي: تَكْلِيفُنَا لِكُلِّ نَفْسٍ مَقْصُورٌ عَلَىٰ أَنَّهُ ضِمْنَ حُدُودِ طَاقَتِهَا.

وهو قَصْرٌ حَقِيقِيٌّ بالنَّفْي والاسْتِثْنَاء.

المثال الخامس:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً بَعْضَ أفْعَالِ رُبُوبِيَّتِهِ:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ... ﴿٨٠﴾﴾:

أي: كُلُّ هَـٰذِهِ الظواهِرِ مَقْصُورَةٌ عَلَىٰ أَنَّهَا مِنْ أَفْعالِ اللهِ. وهو قَصْرٌ حقيقيٌّ. وأَدَاتُهُ تَعْرِيف طَرَفي الإسْنَادِ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾، أي: لا غَيْرُه.

المثال السادس:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِمُنْكِري الْبَعْث:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥)﴾:

أي: أَتَوَهَّمْتُمْ أَنَّا مَا خَلَقْنَاكُمْ إِلَّا عَبثاً، فَقَصَرْتُمْ خَلْقَنَا لَكُمْ عَلَىٰ أَنَّهُ عَبَثٌ مِنَ الْعَبَث، لَيْسَ لَهُ غَايَةٌ حَكِيمَة.

وهُو قَصْرٌ حَقِيقِيٌّ بادّعَاءٍ كَاذِب. وأَدَاتُه «أَنَّمَا».

المثال السابع:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَـٰفِرُونَ (١١٧)﴾:

أي: فَمَا حِسَابُهُ إِلَّا عِنْدَ رَبِّهِ يَوْمَ الْقِيَامَة، وهو قَصْرٌ حقيقي، وأَدَاته «إِنَّمَا».

ولِهَـٰذِهِ الأَمْثِلَة نَظَائِرُ في السُّورَةِ.

ثانياً: من تَنْزِيل القريبِ مَنْزِلَةَ الْبَعِيد ارتفاعاً أَوْ تَسَفُّلاً:

ومن أَمْثِلَتِهِ في السُّورَة ما يلي:

المثال الأول:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الخيرات مِنَ المؤمنين:

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِي الْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ (٦١)﴾:

أي: أُولَئِكَ الْبُعَدَاءُ عُلُوّاً فِي مَنَازِلَ رَفِيعَةٍ بِرّاً وإِحْسَاناً؛ يُسَارِعُونَ في الخيرات.

المثال الثاني:

■ قوْلُ الله تَعَالَىٰ بِشَأْنِ المفْلِحِينَ، وَبِشَأْنِ الْخَاسِرِين:

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾:

أي: فأولَئِكَ رَفِيعُوا المنزلَةِ جدًّا عِنْدَ رَبِّهِمْ هُمُ الْمُفْلِحون.

وأولَئِكَ الْبَعِيدُونَ فِي اتِّجَاهِ الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ من النار هُمُ الذين خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ.

ثالثاً: مِنَ الإيجاز:

مِنْ أمْثِلَة الإيجاز في السورة، ما يلي:

المثال الأول:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

الفاء مِنْ عبارة: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ تَعْطِفُ عَلَىٰ مَحْذُوف مِن السَّهْلِ إدْرَاكُهُ ذهْناً، أي: أَلَيْسَ لَدَيْكُمْ مَشَاعِرُ خَوْفٍ مِنْ عِقَابِ اللهِ رَبِّكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الَّذِي تَجْعَلُونَ لَهُ شُرَكَاءَ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وفي إلَهِيَّتِهِ، فَأَنْتُم لَا تَتَّقُونَ عِقَابَهُ الشّدِيد.

ونظيرها قَوْل هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَام لِقَوْمِهِ «عاد» في الآية (٣٢).

المثال الثاني:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في حِكَايَةِ مَا قَالَهُ لِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَام:

﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ... ﴿٢٧﴾﴾:

أي: أن اصْنَعِ الْفُلْكَ مُسَدَّداً وَمَحْمِيًّا بِمُرَاقَبَتِنَا لَكَ بأعْيُنِنَا، ومُوَجَّهاً ومُعَلَّماً بِوَحْيِنَا.

المثال الثالث:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ الكَفَرَةِ الْمُجْرِمِينَ الْمُتْرَفِين إذا أنزل اللهُ بِهِمْ عَذابَهُ:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

أوّلاً: ضُمِّنَ فِعْل: «تُنْصَرُونَ» مَعْنَىٰ فِعْلِ: «تُحْمَوْنَ» فَعُدِّي تَعْدِيَتَهُ، فأغْنَتِ الْجُمْلَةُ عَنْ جُمْلَتَيْنِ، وهٰذَا مِنَ الإيجاز البديع في القرآن.

والمعنى: فَأَنْتُمْ لَا تُنْصَرُونَ وَلَا تُحْمَوْنَ مِنْ عَذَابنا.

ثانياً: وَضُمِّنَ اسْمُ الفاعل: «مُسْتَكْبِرِين» مَعْنَىٰ اسم الفاعل: «مُسْتَهْزِئِينَ» فَعُدِّيَ تَعْدِيَتَهُ.

والمعنى: مُسْتَكْبِرِينَ على الرَّسُول عَلَيْهِ السَّلَام، ومُسْتَهْزِئِينَ بِهِ.

المثال الرابع:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ الكَفَرَةِ السَّابِقِ ذِكْرُهُمْ:

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ . . . ﴿٦٨﴾﴾:

الفاء في عبارَة: ﴿أَفَلَمْ﴾ تَعْطِفُ عَلَىٰ مَحْذُوفٍ يَسْهُلُ على المتدبّر أَنْ يُدْركه.

والمعنى: أنطَمَسَتْ بَصَائِرُهُمْ، وأذْهَانُهُمْ، وعُقُولُهُمْ، بِغشَاوَاتِ أهوائِهِم وشهواتِهِم وَمَتَاعَاتِهِمْ مِنَ الحياةِ الدُّنيا، وسَوَابِقِ مَفَاهِيمِهِمُ الضَّالَّةِ، فَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْل الَّذِي أنزلْنَاهُ في سَوَابِقِ نُجُومِ التَّنْزِيلِ.

ولِهٰذِهِ الأمْثِلَةِ نَظَائِرُ فِي السُّورَةِ يَسْهُلُ على المتدبّر اسْتِخْرَاجُهَا.

رابعاً: من التوكيد لوُجُودِ مَا يَدْعو إِلَيْهِ بَلاغِيًّا:

في هَـٰذِهِ السورة أَمْثِلَةٌ كثيرةٌ مِنْهُ، أَقْتَصِرُ على اسْتِخراج مَا يلي منها:

المثال الأول:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ وحتى الآية (١١):

جَاءَ التوكيد فِي هـٰذَا النصّ بحرف «قَدْ» الّذِي يَدُلُّ عَلى التَّحْقِيق مَعَ التَّوْكِيد، والداعي إِلَى التوكِيدِ كَوْنُ الموعُودينَ بِالْفَلَاحِ هم المؤمِنُونَ على اخْتِلَافِ مراتِبِهِمْ ودَرَجَاتِهِمْ مِنْ أَدْنَىٰ دَرَجَاتِ الأَبْرَارِ، فما دُونَ ذَلِكَ قَلِيلاً مِنْ دَرَجَات مَرْتَبَةِ المتقين، وَأَحْوَالُ كَثِيرٍ مِنْهُمْ تَحْتَاج تَوْكيداً.

المثال الثاني:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢﴾ وحتَّى الآية (١٦).

ونَظِيرُه قول اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ۝١٧﴾ وحتى الآية (٢٠):

جَاءَ التوكيدُ بعبارة ﴿لَقَدْ﴾، فاللَّام في جواب قَسَم مَنْوِيّ، و«قَدْ» حَرْفُ تَوْكِيدٍ وتحقيق، والداعي إلى التوكيد فيهما أَنّ الْبَيَانَ مُوَجَّهٌ لِغَيْرِ المؤمنين، فحالَاتُهُمْ تَسْتَدْعِي تَوْكِيداً.

المثال الثالث:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (١٨)﴾:

عبارة: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ مُؤَكدة بالمؤكدات: «إنّ - والجملة الاسمية - واللّام المزحْلَقَة».

والداعي إلَىٰ التوكيد هُنَا أَنَّ المخَاطَبِينَ الأوّلين بالْبَيَانِ: الْكَافِرُون.

ونظيرهُ قول اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ... (٢١)﴾.

المثال الرابع:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣)﴾:

جَاءَ التوكيد بِعِبَارَة ﴿لَقَدْ﴾ لِأَنَّ المعْنِيّينَ بالخطاب: مُنْكِرُو رِسَالة محمّد ﷺ، فحالَتُهُمْ تَسْتَدْعِي تَوْكِيدَ الخبر لَهُمْ.

المثال الخامس:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في خِطَابِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَام:

﴿... وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٢٧)﴾:

في عبارة: ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ التوكيد بـ «إِنَّ - والجملة الاسميَّةِ» لأنَّ نوحاً عَلَيْهِ السَّلَام كَانَ ذَا رَأْفَةٍ كَبِيرَةٍ، وَحِلْم عَظِيم، وَرَجَاءٍ بأَنْ يَسْتَجِيب بَعْضُ مَنْ لَمْ يَسْتَجِبْ لِدَعْوَتِهِ مِنْهُمْ، فحالُهُ تَسْتَدْعِي التوكيدَ لَهُ بأَنَّ كُلَّ كُفَّارِ قَوْمِهِ مُغْرَقُون، لئَلَّا يَسْأَلَ رَبَّهُ إمْهَالَهُمْ.

المثال السادس:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِلرُّسل عَلَيْهِم السَّلَام:

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾:

جَاءَ التوكيدُ بـ «إِنَّ ـ والْجُملَة الاسْمِيَّة» لِأَنَّ المَعْنِيِّينَ بالْخِطَابِ تَعْرِيضاً: أتباعُ الرَّسُلِ المكَلَّفُونَ أَنْ يَكُونوا أُمَّةً واحِدَةً.

المثال السابع:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خطاباً لِرَسُولِهِ محمّد ﷺ:

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾:

جَاءَ التوكيد في الآيَتَيْنِ بـ «إِنَّ ـ والجملة الاسمية ـ واللام المزحْلَقَة» لِأَنَّ الْمَعْنِيِّينَ بالْخِطَاب تَعْرِيضاً: الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبوا لِدَعْوَتِهِ، وَلَا يُؤْمِنُون بالآخِرَة.

ولِهٰذِهِ الْأَمْثِلَةِ نَظَائِرُ في السُّورَةِ، تَرَكْتُهَا لاسْتِخْرَاج المتَدَبِّر ذي الدراسة الْبَلَاغِيَّة.

وبِهٰذَا أَكْتَفِي بِشَأْنِ اسْتِخراجَاتِ بَلاغِياتِ السُّورة.

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.





سُورَةَ السَّجْدَة

٣٢ مصحف ٧٥ نزول

وهي سورة مَكّيّة ولم يَصِحَّ اسْتثناء
بعض آيات مِنها وَجَعْلُهَا مَدَنِيَّة



(١)

نصّ السورة وَمَا فيها من فَرْشِ القراءات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ

٧ ـ • قرأ نافع، وعاصم، وحمزة، والكِسَائِي، وخلف: [خَلَقَهُ] فِعلاً ماضياً.
وقرأها بَاقِي القُرَّاءِ العَشَرَةِ: [خَلْقَهُ] مَصْدراً لفعل «خَلَق».
والمؤدّىٰ واحد.

١٠ ـ • قرأ نافع، والكِسَائِي، ويعقوب: [أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ إِنَّا].

=

رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ

= وقرأها ابْنُ عامر، وأبُو جَعْفر: [إِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْض أَئِنَّا]. وقرأها بَاقِي القُرَّاءِ العَشَرَةِ: [أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا].

ومُؤَدَّىٰ هَـٰذِهِ القراءات واحد، وهي من التفنّنِ في البيان.

١١ ـ • قرأ يَعْقُوب: [تَرْجِعُونَ].

وقَرَأَهَا بَاقِي القُرَّاءِ العَشَرَةِ: [تُرْجَعُونَ].

وبَيْنَ القراءتَيْنِ تكامُلٌ في الأداء البيانيّ، أي: يُرْجِعُكُمُ اللهُ، فَتَرْجِعُونَ بالجَبْر.

١٧ ـ • قرأ حمزة، ويَعْقُوب: [مَا أُخْفِيْ] بإسْكَانِ الياء. وقرأها بَاقِي القُرَّاءِ العَشَرَةِ: [مَا أُخْفِيَ] بِفَتْحِ الياء.

أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾ .

٢٠ ـ • قرأ: [وَقِيلَ] بإشْمَام كسْرةَ القاف الضمّ: هِشَام، والكِسَائي، ورُوَيس.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بالياء الخالِصَة.

٢٤ ـ • قَرَأَ حمزة، والكسائي، وَرُويس: [لِمَا صَبَرُوا].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [لَمَّا صَبَرُوا].
وبين القراءتَيْنِ تَكامُلٌ في أداء المعْنَىٰ الْمُراد.
أي: جَعلْنَاهُمْ أَئِمَّةً حِينَمَا صَبرُوا، وَلِأَجلِ أَنَّهُمْ صَبرُوا.

(٢)
ممّا ورد في السُّنّة بشَأن سورة (السجدة)

(١) روى البخاري ومُسْلم عَنْ أَبي هُرَيرة: أَنَّ النبيَّ ﷺ كَانَ يَقْرَأ فِي صَلَاةِ الْفَجرِ يَوْمَ الجُمُعَةِ بـ «أَلَم تَنْزِيل السَّجْدة» و«هَلْ أَتَىٰ على الإِنْسَان».

(٢) وروى البخاريُّ ومُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيرة قال: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَا يَنَامُ حَتَّىٰ يَقْرأ «أَلَم تَنْزِيل السَّجْدة» و«تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ».

وَرُوِيَتْ أَحَادِيث أُخَرُ فِي فَضْلِ قراءة «السَّجْدة».

(٣)
موضوع سورة (السّجدَة)

مُتَابَعَةُ مُعَالَجَةِ الْمُشْرِكِينَ المكَذِّبينَ بالْقُرآنِ ويَوْمِ الدِّين، وبيانُ أَنَّ النَّاسَ في الحياة الدُّنْيَا مُخْتَارُون أحرار.

وبيان بَعْضِ الصِّفَاتِ الَّتِي يَتَحَلَّىٰ بِهَا المؤمِنُون، وتَقْدِيم لَقْطَةٍ مِنْ تَارِيخِ رِسَالَةِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام، وأَنَّ اللهَ آتَاهُ كتاب التوراة لِيكُونَ هُدىً لبني إِسْرَائيل، وفيها إِلْمَاحٌ إلى أن القرآن أَنْزَلَهُ اللهُ لِيَكُونَ هُدًى لِلْعَالَمِينَ بَعْدَ بِعْثَةِ محمد ﷺ.

وبيانٌ عَنِ الكُفَّارِ الَّذِينَ لم يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَتِهِ، مع بعض مُنَاقَشَةٍ لَهُمْ، وَإِجَابَتِهِم عَلَىٰ بَعْض أسْئِلَتِهِم السَّاقِطَةِ، وتوجيه الرَّسُولِ ﷺ لما يَنْبَغِي أَنْ يَتَصَرَّفَهُ مَعَهُمْ فِي هَـٰذِهِ الْمَرْحَلَةِ التي نَزَلَتْ فيها السّورة.

(٤)
دروس سورة (السّجدَة)

بالتَّأَمُّلِ بدا لي أَنَّ السُّورة هَـٰذِهِ تَنْقَسِمُ إِلَى سِتَّة دروسٍ كما يلي:

الدرس الأول: الآيات من (١ ـ ٩).

وفي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانٌ عن القرآن، وادّعاء الكافِرِينَ بأن الرسُولَ محمّداً ﷺ افْتَرَاهُ عَلَىٰ رَبِّهِ، مع الرَّدِّ عليهم، بما يُنَاسِبُ المرْحَلَةَ الَّتِي نَزَلَتْ فيها السُّورة.

وفيها بَيانُ بَعْضِ ظَواهِرِ خَلْقِ اللهِ في كوْنِهِ، وبَعْضِ صِفَاتِهِ، ومِنْهَا خَلْقُ الإنْسَان، وأنَّ قليلاً مَا مِنَ النَّاسِ يَشْكُرون.

الدرس الثاني: الآيات من (١٠ ـ ١٢).

وفي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ مَقَالَةِ الْمُكَذِّبينَ بالْبَعْثِ، مع عِلاجِهِمْ بِبَيَانِ الْحَقِّ، والترهِيبِ بَعَرْضِ مَشْهَدٍ مِنْ مَشاهِدِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَة.

الدرس الثالث: الآيتان (١٣ و١٤).

وفيهما بَيَانُ أَنَّ اللهَ خَلَقَ النَّاسَ ذوي حُرِّيَّةٍ في اخْتِيَارِ سُلُوكِهِم الإرَادِي، إذْ وَضَعَهُمُ اللهُ بِهِ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ فِي ظُرُوفِ الحياة الدنيا، فَمَنِ اخْتَارَ في حَيَاةِ امْتِحَانِهِ؛ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْكَافِرِينَ المكَذِّبينَ بما جَاءَ مِن عِنْدِ اللهِ رَبِّ الْعالَمِينَ، عَلى لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ؛ كَانَ مِن الخالِدِينَ فِي جهَنَّمَ يَوْمَ الدِّين.

الدرس الرابع: الآيات من (١٥ ـ ٢٢).

وفي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ بَعْضِ صِفَاتِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بآيَاتِ اللهِ جَلّ جَلَالُهُ، مَعَ بَيَانِ ثوابِهِم العظيم عند الله يَوْمَ الدِّين.

وَفِيها بَيان الفرق الشَّاسع بَيْنَ من كان مُؤْمِناً ومَنْ كانَ فَاسِقاً.

الدرس الخامس: الآيتان (٢٣ و٢٤).

وفيهما ضَرْبُ مَثَلٍ تَاريخيٍّ لِلْمُكَذِّبين بالرَّسُول ﷺ، وبالقرآن؛ بأَنَّ الله

قَد أَرْسَلَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام وَآتَاهُ كِتَابَ التَّوْرَاةِ، وجَعَلَهُ هُدًى لِبَنِي إسْرَائِيل، فإرْسَالُ الرُّسُلِ وإنْزَالُ الكُتُبِ مِنْ سُنَنِ اللهِ في عبادِهِ الَّذِينَ وضَعَهُمْ في الحياة الدنيا مَوْضِعَ الامْتِحَان.

الدرس السادس: الآيات من (٢٥ ـ ٣٠) آخر السورة.

وفيها مُعَالجة للكافِرِين بالإنْذَار والترهيب، وبالإقْنَاع. وفيها بَيَانُ سُؤَالِهِمْ عَنْ زَمَنِ نَصْرِ الرَّسُول ﷺ والمؤمنِينَ عَلَيْهِمْ، وَمُعَالَجَتُهُمْ بالترهيب.

وفيها تَوْصِيَةٌ مِن اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ؛ بأنْ يُعْرِضَ عَنِ المكَذِّبِينَ الْمُعَانِدِين، وبأنْ يَنْتَظِرَ وَلَا يَسْتَعْجِلَ طَلَبَ الانْتِصَارِ عَلَيْهِمْ.



(٥)
التدبُّر التحليلي للدَّرس الأول من دُروس سورة (السجدة)
الآيات من (١ ـ ٩)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿الٓمٓ ① تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ② أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ③ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ④ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ⑤ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ⑥ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ⑦ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ⑧ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ⑨﴾:

القراءات:

(٧) • قرأ نَافِع، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وخلَف: **[خَلَقَهُ]** فِعلاً مَاضِياً.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[خَلْقَهُ]** مَصْدَراً لِفِعْلِ «خَلَقَ».

ومؤدَّىٰ القراءتَيْنِ واحد.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانٌ عَنِ القرآنِ، وادّعَاءِ الكافِرِينَ بِأَنَّ الرَّسُول محمّداً ﷺ افْتَرَاهُ على رَبِّهِ، مع الرَّدّ عَلَيْهِمْ بِمَا يُنَاسِبُ الْمَرْحَلَةَ الَّتِي نَزَلَتْ فِيهَا السُّورَة.

وَفِيها بَيَانُ بَعْضِ ظَوَاهِرِ خَلْقِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ فِي كَوْنِهِ، وَبَعْض صِفَاتِهِ الْجَلِيلَة، ومِنْ ظَوَاهِرِ خَلْقِهِ: خَلْقُ الْإِنْسَان.

وفيها أَنَّ قَلِيلاً مَا مِنَ النَّاسِ يَشْكُرُونَ اللهَ تَعَالى عَلَىٰ مَا أَوْلَاهُمْ مِنْ نِعَمِهِ الكثيرة العظيمة.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾:

• ﴿الٓمٓ ۝١﴾: هَـٰذِهِ مِنَ الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ الْمَوْجُودَةِ فِي بَعْضِ أَوَائِلِ السُّوَر. وقَدْ سَبَقَ لَدَىٰ تَدَبُّرِ أَوَّلِ سُورَة (الْقَلَمَ/ ٤ نزول) بَيَانُ مَا يَكْفِي بِشَأْنِهَا، فَلْيُرْجَعْ إِلَيْهِ.

• ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾:

المرادُ بِالْكِتَابِ الْقُرآنُ، وَقَدْ بَدَأَتِ السُّورَةُ بِبَيَانِ أَنَّهُ تَنْزِيلٌ عَلَىٰ

مُحمَّدٍ ﷺ، ولَيْسَ كَلاماً مِنْ كَلامِهِ وَلَا عَملاً مِنْ أَعْمَالِهِ، وَلَا مَنْقُولاً مِنْ كِتَابٍ سابق.

ولفظ: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ مُبْتَدأ مَعرَّفٌ بالإضَافَةِ إلى الكِتَاب، وخَبَرُهُ ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: أي: كَائِنٌ هٰذَا التَّنْزِيلُ مِنْ لَدُنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، كُلِّ الْعَالَمِينَ، اللَّفْظِ الشَّامِلِ: لِلْمَلائِكَةِ، والإِنْسِ، والْجِنِّ، وَكُلِّ مَا خَلَقَ اللهُ في كوْنِهِ، مِنْ أَقَاصِيهِ إِلَىٰ أَقَاصِيهِ.

- ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: أي: حَالَةَ كَوْنِهِ لَا شَكَّ فِيهِ، فالرَّيبُ هو الشَّكُّ.

ونَفْيُ الشَّكِّ عَنِ الْقُرْآنِ يَدُلُّ عَلَىٰ مَعْنَيَيْن:

الْمَعْنَىٰ الْأَوَّل: أَنَّ كُلَّ مَا فِيهِ مِنْ بَيَانٍ هُوَ حَقٌّ، فَلَيْسَ في قَضِيَّةٍ مِنْ قَضَايَاهُ بَاطِلٌ، أو مَشْكُوكٌ فِيها، لِتَرَدُّدِهَا بَيْنَ الْبَاطِلِ والْحَقِّ، لَدَىٰ النظر الْفِكْرِيّ الْمُتَجَرِّدِ غيرِ المتَأَثِّرِ بالْأَهْوَاء.

وهٰذَا المعْنَىٰ تَشْهَدُ لَهُ نُصُوصٌ قُرْآنِيَّةٌ كَثِيرَة، مِنْهَا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خِطَاباً لِرَسُولِهِ ﷺ في سورة (النِّسَاء/ ٩٢ نزول):

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾.

الْمَعْنَىٰ الثَّانِي: أَنَّ الْقُرْآنَ لَا شَكَّ فِي كَوْنِهِ مُنَزَّلاً مِنْ رَبِّ الْعَالَمِين، وَهٰذَا المعْنَىٰ يُفْهَمُ باللُّزُومِ الْفِكْرِي، ويَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّ كُلَّ بَيانٍ جاءَ فِيهِ هُوَ حَقٌّ، إِذْ لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدَ النَّاسُ فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً عَنْ مُطابَقَةِ الْحَقِّ فِي بَيَانَاتٍ كثيراتٍ مِنْ بَيَانَاته.

- قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ:

- ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾﴾:

• ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾: أي: بَلْ: أَيَقُولُ أَئِمَّةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ والتَّكْذِيبِ إِبَّانَ إِنْزَالِ هَـٰذِهِ السُّورَةِ، وَقَبْلَ إِنْزَالِهَا:

مُحَمَّدٌ قَد افْتَرَىٰ الْقُرْآنَ مِنْ عِنْدِه ونَسَبَهُ إلى رَبِّهِ، فَلَيْسَ هُوَ كَلاماً مُنَزَّلاً مِنْ رَبِّ الْعَالَمِين.

فَخَاطَبَ اللهُ رَسُولَهُ ﷺ لِيُسْمِعَهُمْ بقوله:

• ﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾: أي: لَمْ يَصْدُقُوا في ادِّعَائِهِمْ، بَلْ كَذَبُوا، وَلَمْ يَتَأَثَّرُوا بِأَنَّ كُلَّ مَا فِيهِ حَقّ، وهـٰذَا لَا يَكُونُ إِلَّا إِذَا كَانَ مُنَزَّلاً مِنْ رَبِّكَ، فَهُمْ مُعَانِدُونَ جَاحِدُونَ.

• ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾:

﴿نَّذِيرٍ﴾: هُنَا اسْمٌ لِلإِنْذَارِ مَصْدَرِ أَنْذَرَ. **والإِنْذَارُ**: الإعْلامُ والإِخْبَارُ بِعَوَاقِبَ غَيْرِ سَارَّة، كَشَرٍّ قَادِمٍ، أَوْ عُقُوبَةٍ عَلَىٰ مُكْتَسَبٍ إرادِيٍّ، مِنْ قَوْلٍ أو عَمَلٍ أو اعْتِقَاد.

الْمَعْنَىٰ: لِتُبَلِّغَ وَتُعَلِّمَ وَتَعِظَ وَتُنْذِرَ قَوْماً الشَّيْءَ الَّذِي سَبَقَ أَنْ أَتَاهُمْ مِنْ تَعَالِيمِ الدِّينِ، وإِنْذَارٍ بِعَذَابِ اللهِ لِمَنْ كَفَرَ وَكَذَّبَ وَعَصَىٰ، وَهُوَ مَا جَاءَ بِهِ إِلَيْهِمْ إِسْمَاعِيلُ بْنُ إبراهيمَ عَلَيْهِمَا السَّلام، واسْتَمَرَّ مُتَوَارَثاً فِيهِمْ، حَتَّىٰ أَدْخَلَ الْوَثَنِيَّةَ فِي مُجْتَمَعِهِمْ «عَمْرُو بْنُ لُحَيٍّ».

هـٰذَا مَا صَحَّ عِنْدِي فِي هـٰذَا الْمَوْضُوعِ، وسَبَقَ أَنْ أَوْضَحْتُهُ بِتَوْفِيقِ اللهِ لَدَىٰ تَدَبُّر سُورَة (يس/ ٤١ نزول) عند الآية (٤) مِنها.

• ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾: أي: رَغْبَةً فِي أَنْ يَهْتَدُوا باخْتِيَارِهِم الْحُرِّ، دُونَ جَبْرٍ، إِذْ هُمْ مَوْضُوعُونَ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ.

«لَعَلَّ» مُسْتَعْمَلَةٌ بِمَعْنَىٰ الرَّغْبَةِ هُنَا، لَا بِمَعْنَىٰ التَّرَجِّي، لِأَنَّ الْبيان صَادِرٌ عَنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، والتَّرَجِّي لَا يَلِيقُ بِعِلْمِهِ الشَّامِلِ وقُدْرَتِهِ عَلَىٰ مَا يَشَاء.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ مُبَيّناً بَعْضَ آثَارِ صِفَاتِهِ الْجَلِيلَةِ في كَوْنِهِ:

• ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾:

أي: اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ وَحْدَهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والأرضَ وَمَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، هِيَ أَقْسَامٌ زَمَنِيَّةٌ سَمَّىٰ اللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ كُلَّ قِسْمٍ مِنْهَا يَوْماً.

لمَّا كَانَتِ الْأَيَّامُ تَخْتَلِفُ مَقَادِيرُ أَزْمَانِهَا، فَلِأَهْلِ الْأَرْضِ يَوْمٌ خَاصٌّ بِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلِكُلِّ كَوْكَبٍ يَوْمٌ بِحَسَبِ دَوْرَتِهِ حَوْلَ نَفْسِهِ باتِّجَاهِ مَنْبَعٍ ضَوْئِي، وَلَهُ مِقْدَارٌ خَاصٌّ بِهِ، وَلِلْمَجَرَّةِ الَّتِي نَحْنُ وَمَجْمُوعَتُنَا الشَّمْسِيَّةُ جُزْءٌ صَغِيرٌ مِنْهَا يَوْمٌ، وَلِهَـٰذَا الْيَوْم مِقْدَارٌ مِع الزَّمَنِ خَاصٌّ بِهِ، حَتَّى عُمْرُ الحياة الدُّنْيَا كُلِّهَا يَوْمٌ، وحَتَّىٰ كُلُّ أَزْمَانِ الآخِرَةِ الَّتِي لَا نِهَايَةَ لَهَا يَوْم؛ لـمَّا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ باسْتِطاعَتِنَا تَحْدِيدُ مِقْدَارِ زَمَنِ الْيَوْم مِنَ الْأَيَّام السِّتَّةِ، الَّتِي خَلَقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا السَّمَاوَاتِ والْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا أَخْذاً مِنَ النُّصُوص.

• ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾: دلَّ حرف «ثُمَّ» عَلَىٰ أَنَّ الاسْتِوَاءَ على الْعَرْشِ قَدْ كَانَ بَعْدَ مُدَّةٍ مُتَراخِيَةٍ عَنْ خَلْقِ السَّمَاواتِ والْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا في سِتَّةِ أَيَّام.

جاء في القرآن بيانُ أَنَّ اللهَ ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ وبيانُ أَنَّ اللهَ ﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾.

الاسْتِواءُ: في اللُّغَة الاسْتِقَامَةُ والاعْتِدَالُ. ويقال لُغَةً: **«اسْتَوَىٰ عَلَىٰ كَذَا»** أي: اعْتَدَلَ واسْتَقَامَ فَوْقَهُ. ويقال: **«اسْتَوَىٰ إِلَىٰ فِعْلِ كَذا»** أي: اعْتَدَلَ واسْتَقَامَ مُتَوَجِّهاً لِفِعْلِهِ، قَاصِداً إِلَيْهِ لَا يَلْوِي عَلَىٰ شَيْءٍ آخر.

ويقال لغة: **«اسْتَوَىٰ فُلَانٌ عَلَىٰ سَرِيرِ الْمُلْكِ»** أي: تَوَلَّىٰ تَصْرِيفَ شُؤُونِ مَمْلَكَتِهِ.

وَقَدْ وَصَفَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ نَفْسَهُ بأَنَّهُ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرشِ، وقَدْ كَانَ اللهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مَعَهُ، وَوَصَفَ نَفْسَهُ تبارَكَ وَتعالَىٰ بِأَنَّهُ اسْتَوَىٰ إِلَىٰ السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَماوات.

إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ قَدْ وَصَفَ نَفْسَهُ بأَنَّهُ اسْتَوَىٰ، فَنَحْنُ نُثْبِتُهُ ضِمْنَ حُدُودِ مَا أَثْبَتَ لِنَفْسِهِ ـ جَلَّ جَلاَلُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ وَنَقُولُ: هُوَ اسْتِوَاءٌ يَلِيقُ بِذَاتِهِ، سُبْحَانَهُ عَمَّا وَصَفَهُ بِهِ الْوَاصِفُونَ، ضِمْنَ حُدودِ مُدْرَكَاتِهِم الْقَاصِرَاتِ الضَّئِيلَاتِ الَّتي لَا تَصِلُ إِلى إِدْرَاك ذَاتِهِ، إِذْ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ، وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللّطِيفُ الخبير.

وأَحْسَنُ بَيَانٍ حَوْلَ الاسْتِوَاء الَّذِي وَصَفَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ به نَفْسَهُ؛ ما قالَهُ الإمَامُ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللهُ:

«الكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، والاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ، والْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، والسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ».

الْعَرْش: مَخْلُوقٌ أَعْظَمُ فَوْق السَّمَاوَاتِ السّبْعِ وَمُحِيطٌ بِها. وَرُوِيَ أَنَّ السَّمَاوَاتِ بالنِّسْبَةِ إلى الكرسيّ كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ في أرض فَلَاةٍ واسِعَةٍ، والكرسيّ بالنسبة إلى العَرْش كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ في أَرْض فَلَاةٍ واسِعَة.

• ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍۚ﴾:

الخطاب في: ﴿مَّا لَكُم﴾ لِكُلِّ النَّاسِ وفي مُقَدِّمَتِهِمْ الكَفَرَةُ المشْرِكُون.

• ﴿مِن دُونِهِۦ﴾: أي: مِنْ غَيرِ اللهِ الَّذِينَ هُمْ جَمِيعاً دُونَهُ تَبارَكَ وَتَعالَىٰ.

• ﴿مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍۚ﴾: أي: لَيْسَ لَكُمْ أَيُّها النَّاسُ وَلِيٌّ مَا يَتَوَلَّىٰ أُمُورَكُمْ بِعَوْنِهِ، وَإِمْدَادَاتِهِ، وَجَلْبِ الْخَيرِ لَكُمْ، وَدَفْعِ الضُّرِّ عَنْكُمْ، وَنَصْرِكُمْ، وحِمَايَتِكُمْ، وَرِزْقِكُمْ، وَمُتَابَعَةِ خَلْقِهِ لَكُمْ في أَطْوَارِكُمْ آناً فآنا، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكُمْ مِمَّا هُوَ مِنْ أَعْمَالِ الْوَلِي، وَلَيْسَ لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَفِيعٍ يَشْفَعُ لَكُمْ، إِذْ لَا شَفِيع إِلَّا بإِذْنِهِ.

«مِنْ» حَرْفُ جَرٍّ زَائِدٍ جيءَ بِهِ لِتَوْكِيد عُمُومِ النَّفْيِ والتَّنْصِيصِ عَلَيْهِ.

• ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾: أي: أَحُرِمْتُمْ مِنَ الإدْرَاكِ السَّوِيّ، والفَهْمِ الصَّحِيحِ النَّافِعِ المؤثِّرِ في الاعْتِقَادِ وَتَوْجِيهِ السُّلُوكِ الإرَادِيّ، فَلَا تَضعُونَ هَـٰذِهِ الْحَقَائِقَ فِي ذَاكِرَاتِكُمْ، ثُمَّ تَتَذَكَّرُونَهَا عِنْدَ المناسَبَاتِ الداعِيَاتِ، فَتَعْمَلُونَ بِمُقْتَضَاهَا، الْتِزاماً بِمَا يَجِبُ عَلَيْكُمْ مِنَ الْعَمَلِ بِمَرَاضِي رَبِّكُمْ، وَتَحْقِيقِ بَعْضِ الشُّكْرِ لَهُ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً مَا سَبَقَ:

• ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾﴾:

• ﴿يُدَبِّرُ﴾: **التَّدْبير**: إعْدَادُ الْخُطَطِ الدَّقِيقة السَّلِيمَةِ الَّتِي تَكْفُلُ أَحْسَنَ الأعْمَالِ، بَدْءاً مِنْ بدايَتِهَا حَتَّىٰ أَواخِرِهَا، وتَكْفُلُ أَحْسَنَ النتَائِجِ بَعْدَ أَوَاخِرِهَا.

• ﴿ٱلْأَمْرَ﴾: أي: كُلَّ الْأَمْرِ المتَعَلِّقِ بِالْخلْقِ وَتَغْيِيرِ وَتَصْرِيفِ كُلِّ شيءٍ فِي الذَّوَاتِ والصِّفَاتِ، والْحَرَكَاتِ والسَّكَنَاتِ، وَسَائِرِ الْأَحْدَاثِ المتَغَيِّرَةِ والثَّابِتَةِ زِيَادَةً وَنَقْصاً وإيجاداً وإعْدَاماً، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ.

• ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾: أي: يُدَبِّرُ الْأَمْرَ كُلَّهُ المنْبَثَّ الأفراد، بَدْءاً مِنْ أَوَّلِ السَّمَاءِ فِي جِهَةِ الْعُلُوِّ وَحَتَّىٰ غايَةِ مَرْكَزِ الْأَرْض.

• ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾: أي: ثُمَّ يَعْرُجُ صَاعِداً إِلَيْهِ أَثَرُ تَدْبِيرِهِ بِالْبَيَانِ والْوَصْفِ الشَّامِلِ لِلذَّوَاتِ والصِّفَاتِ وَكُلِّ شَيْءٍ.

• ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾﴾: أَفْهَمُ مِن هَـٰذَا أَنَّ صَحِيفَةَ التَّدْبِيرِ تَشْمَلُ أَحْدَاثَ يَوم مِقْدَارُهُ أَلْفُ سَنَةٍ مِمَّا يَعُدُّ النَّاس، تُنَزَّلُ إِلَىٰ الْمَلَائِكَةِ الْمَأْمُورِينَ بِتَنْفِيذِ أَحْدَاثِ هَـٰذَا التَّدْبِيرِ، ثُمَّ بَعْدَ التَّنْفِيذِ

تَعْرُجُ صَاعِدَةً آثَارُ التَّدْبِيرِ إِلَيْهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ، وَهُوَ الْعَلِيمُ بِكُلِّ شَيْءٍ قَبْلَ إِنْزَالِ صَحِيفَةِ التَّدْبِيرِ وَبَعْدَ إِنْزَالِهَا، وأَثْنَاءَ تَنْفِيذِ مَا جَاءَ فِيها، وَبَعْدَ تَنْفِيذِ كُلِّ عُنْصُرٍ مِنْ عَنَاصِرِهَا، وَلَكِنَّ سُنَّتَهُ فِي كَوْنِهِ أَنْ يَكُونَ كُلُّ تَصْرِيفٍ فِيهِ خَاضِعاً لِنِظَامِ الْأَسْبَابِ والمسَبَّبَاتِ، وهُوَ الْفَعَّالُ الْحَقِيقِيُّ فِي الكَوْنِ مِنْ خِلَالِ قَنواتِ الْأَسْبَاب.

وَصَحِيفَةُ التدبيرِ وَعُرُوجُ آثَارِ مَا جَاءَ فِيهَا إِلَيْهِ تَبارَكَ وَتَعالَىٰ؛ تَشْمَلُ أَحْدَاثَ زَمَنِ يَوْم مِقْدَارُهُ أَلْفُ سَنَةٍ مِمَّا يَعُدُّ النَّاسِ، أي: نحو (٣٦٥٠٠) يَوْم مِنْ أَيَّامِ النَّاسِ بِحَسَبِ النِّظَامِ الشَّمْسِيّ، أَوْ نَحْو (٣٥٤٠٠) يَوْمَ من أَيَّامِ النَّاسِ بِحَسَبِ النِّظَامِ الْقَمَرِي، وهـٰذَا لِجُزْءٍ مِنَ الكَوْنِ يَبْدأ مِنْ مُحِيطِ السَّماءِ الْعُلْيَا حتى مركز الأرض.

فعْل «كان» في عبارة: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ﴾ يُرَادُ بِهِ الكَيْنُونَةَ المسْتَمرة.

هـٰذَا البيان يُعلِّمُنَا أنْ نتخذ تدبيرات مُحْكَمَةً لِدُوَلِنَا ولقضايانا الْعَامَّةِ يَجْرِي تنفيذُهَا خِلَالَ سنواتٍ عَديدات، وقد توَصلت الدول إلَىٰ مَا يُسَمُّونَهُ مثلاً الْخطَّة الْخَمْسِيَّة للإِصْلَاحِ الاقْتِصَادِي أَوْ لِغيره من مشاريع.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بَيَانَ بَعْضِ صِفَاتِهِ وظواهِرِ خَلْقِهِ:

• ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾:

• ﴿ذَٰلِكَ﴾: أي: الرَّبُّ الْعَلِيُّ الْأَعْلَىٰ الْبَعِيدُ جِدًّا بِذَاتِهِ عَنْ إِدْرَاكِ كُلِّ مَا خَلَقَ وَمَنْ خَلَقَ مِنْ ذَوِي الإِدْرَاك.

• ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: أي: عَالِمُ كُلِّ مَا هُوَ غَيْبٌ عَنْ مَخْلُوقَاتِهِ أَوْ بَعْضِهِمْ، وَكُلِّ مَا هُوَ مَشْهُودٌ لَهُمْ.

أَمَّا اللهُ تَعَالَىٰ فَلَا شَيْءَ فِي كَوْنِهِ هُوَ بالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ غَيْبٌ.

• ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: أي: الْقَوِيُّ الْغَالِبُ لِكُلِّ الْقُوَىٰ فِي الوجُودِ كُلِّهِ، لِأَنَّهَا خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، وهُوَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُلْغِيَ وُجُودَهَا إِذَا شَاءَ.

• ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: أي: العظيم الرَّحْمَة، الَّذِي وسِعَتْ رَحْمتُهُ كُلَّ شَيْءٍ، فَيَنَالُ مِنْهَا مَنْ تعَرَّضَ لِنَفَحاتِها أَوْ فُيُوضَاتِهَا.

• ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾: أي: الَّذِي جَعَلَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مَخْلُوقاً حَسَناً بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الْوَظِيفَةِ الَّتِي أَعَدَّهُ في كَوْنِهِ لَهَا.

وَفِي الْقِرَاءَةِ الأُخْرَىٰ: [**الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ**]: أي: الَّذِي أَحْسَنَ خَلْقَ كُلِّ شَيْءٍ إِذْ جَعَلَهُ مَخْلوقاً حَسَناً بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الوظيفة الَّتِي أعَدَّهُ في كَوْنِهِ لَهَا. ﴿خَلْقَهُۥ﴾ بَدَلَ مِنْ ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾ وَهُو مِن نَوْعِ بَدَلِ الاشْتِمَالِ.

• ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾: وهو الإنْسَانُ الأَوَّلُ أبو الْبَشَرِ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَام.

• ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨﴾:

النَّسْلُ: الْوَلَدُ والذُّرِّيَّة.

السُّلَالَة: مَا اسْتُلَّ مِنَ الشَّيْءِ وانْتُزِعَ بِرِفْقٍ، كانْتِزَاعِ الشَّعْرَةِ مِنَ الْعَجِينِ الطَّرِيِّ اللَّيِّنِ.

• ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾: أي: مِنَ الْمَنِيِّ، فَهُوَ في نَظَرِ النَّاسِ مَاءٌ مُمْتَهَنٌ حَقِيرٌ لَا يَعْبَؤُونَ بِهِ، ولَكِنْ جَعَلَهُ الرَّبُّ الْخَالِقُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ حَاوِياً لِبُزُوْرِ الذُّرِّيَّةِ، الَّتِي يَلْتَقِي وَاحِدٌ مِنَ الْمَلايِينِ في نُطْفَةٍ يَقْذِفُهَا الذَّكَرُ؛ بِبُيَيْضَةٍ يُفْرِزُهَا مِبْيَضُ الأُنْثَىٰ، فَيُكَوِّنُ اللهُ مِنْهُمَا الْجَنِين.

• ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾: أَيْ: ثُمَّ فِي أَطْوَارٍ مِنَ الْخَلْقِ

جَعَلَهُ جنيناً فِي بَطْنِ أُمِّهِ سَوِيًّا، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ الَّتِي هي خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ بأمْرِ التَّكْوِينِ الْمُبَاشِرِ الصَّادِرِ عَنْهُ، والَّذِي لَمْ يُؤْخَذْ مِنْ مَخْلُوقٍ سَابقٍ.

إضَافَةُ «الرُّوح» إلَىٰ اللهِ هِيَ عَلَىٰ مَعْنَىٰ الْمِلْكِ، لَا عَلَىٰ مَعْنَىٰ الاشْتِقَاقِ مِنْ ذَاتِهِ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَتَوَهَّمُ صِغَارُ الْعُقُول، إذْ كُلُّ مَخْلُوقٍ للهِ هُوَ مِلْكٌ لَه.

● ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾:

كَانَ الْكَلَامُ بأسْلُوب الْحَدِيثِ عَنِ الغائب، فَصَارَ فِي هَـٰذِهِ الْعِبَارَةِ الْتِفَاتٌ إلَىٰ أسْلُوبِ خِطَابِ النَّاس.

السَّمْعَ: أي: أَدَاتُهُ الَّتِي تَجْعَلُ الْحَيَّ يَسْمَعُ، وهو جِهَازٌ عجيب الْخَلْقِ والصُّنْعِ في داخِلِ الدِّمَاغ، يُوصِلُ إِلَيْهِ الْمَسْمُوعَاتِ أَجْهِزَةٌ عجيبَةُ الصُّنْعِ في الأُذُن، ومُوصِلَاتٌ دَقِيقات جدّاً بَيْنَ الأُذُنِ وَجِهَازِ السَّمْعِ في الدِّمَاغ.

الْأَبْصَار: هي مراكِزُ إِدْرَاكٍ لِلْمَرْئِيَّاتِ في دَاخِلِ الدِّمَاغ، وتوصِلُ إِلَيْهَا صُوَرَ الْمَرْئِيَّاتِ الأَعْيُنُ ذَوَاتُ الصُّنْعِ العجيبِ، ومُوصِلَاتٌ دقيقَاتٌ جدًّا بَيْنَ الأَعْيُنِ وَمَرَاكِزِ إِدْرَاكِ صُوَرِ الْمَرْئِيَّاتِ في دَاخِلِ الدِّمَاغ.

الْأَفْئِدَة: هِيَ مَرَاكِزُ فَهْمِ الأُمُورِ والقضايا، وتَحْلِيلِ عَنَاصِرِهَا وَتَرْكِيبِهَا، واسْتِنْتَاجِ قَضَايَا أُخرَىٰ تَلْزَمُ عَنْهَا، بالتَّفْكِيرِ والتَّأَمُّلِ، وإِبْدَاعِ صُورٍ جَدِيدَةٍ مَعَ مَا فِيهَا مِنْ قُدْرَاتِ تَخَيُّلٍ واسِعَةٍ امْتَازَ بِهَا إِبْدَاعُ خَلْقِ الإِنْسَان.

وهَـٰذِهِ الْأَجْهِزَةُ والأَدواتُ تَتَطَلَّبُ مِنْكُمْ أَنْ تَشْكُروا رَبَّكُمْ الَّذِي جَعَلَهَا لَكُمْ، فَتُؤْمِنُوا بِهِ، وبِعَظِيم صِفَاتِهِ، وأَنْ تَسْتَجِيبُوا لِمَا يَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ وبِفِعْلِ مَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ، وبِتَرْكِ مَا يَنْهَاكُمْ عَنْهُ، ولَكِنَّكُمْ:

● ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾ أي: فَوَاقِعُ حَالِكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ يُثْبِتُ أَنَّكُمْ

شُكْراً قَلِيلاً جدًّا تشكُرُونَ رَبَّكُم. **قَلِيلاً**: صِفَةٌ لِمَفْعُولٍ مُطْلَق مَحْذُوف مُقَدَّم على فعله. و«**ما**» كلِمَةٌ إبْهامِيَّة لِتَوْكِيدِ الْقِلَّة. وهذا القليلُ ينحَصِرُ بالمؤمنين.

وبهٰذَا انْتَهىٰ تَدَبُّر الدّرس الأول من دُرُوس سورة (السَّجْدَة).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

❁ ❁ ❁

(٦)
التدبُّر التحليلي للدّرس الثاني من دُروس سورة (السجدة)
الآيات من (١٠ ـ ١٢)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾:

القراءات:

(١٠) • قرأ نَافع، والكِسَائي، ويعقوب: [**أَئِذَا ضَلَلْنَا في الْأَرْضِ إِنَّا**].

وقرأها ابْن عامر، وأبو جعفر: [**إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا**].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**أَئِذَا ضَلَلْنَا في الْأَرْضِ أَئِنَّا**].

ومُؤَدَّىٰ هَـٰذِهِ القراءات وَاحِد، وهِيَ مِنَ التَّفَنُّنِ في البيان.

(١١) • قَرَأَ يَعْقوب: [**تَرْجِعُونَ**].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**تُرْجَعُونَ**].

وبين القراءتين تكامُلٌ فِي الْأَدَاءِ البياني، أي: يُرْجِعُكُمُ اللهُ، فَتَرْجِعُونَ بالْجَبْر.

تَمْهيد:

فِي آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ مَقَالَةٍ مِنْ مَقَالَاتِ المكَذِّبِينَ بالبعث، مع عِلَاجِهِمْ بِبَيانِ الحقّ، والتَّرْهِيبِ بعَرْضِ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ في مَوْقِفِ الْحِسَاب.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يَذْكُرُ مَقَالَةً مِنْ مَقَالَاتِ مُنْكِرِي البعث، وقَدْ سَبَقَ في الدَّرس السابق بَيَانُ ادّعَائِهِمْ أَنَّ محمّداً - ﷺ - افْتَرَىٰ القرآن على ربّه:

• ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ... ﴿١٠﴾﴾؟!.

• ﴿ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ضَاعَتْ ذَرَّاتُ أَجْسَادِنَا فِي تُرَابِ الْأَرْض الواسِعَة.

وقَدْ سَبَقَ أَنْ أَبَانَ اللهُ لَهُمْ رَدّاً عَلَىٰ هٰذَا الاسْتِفْهَامِ الإنْكَارِي، الَّذِي لَا حُجَّةَ مَعَهُ غَيْر مُجَرَّدِ الاسْتِغْرَابِ والاسْتِبْعَادِ؛ بقولِهِ عَزَّ وَجلَّ في سورة (الأنبياء/ ٧٣ نزول):

﴿... كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾.

وظاهِرٌ أَنَّهُ لَا يُشْتَرَطُ فِي الإعَادَةِ إِعَادَةُ كُلِّ ذَرَّاتِ الأجْسَادِ إِلَىٰ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ، مَعَ أَنَّهُ عَزَّ وَجلَّ قَدِيرٌ عَلَىٰ مَايشاءُ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ يُرِيدُهُ.

وتَشْبِيهُ الْإِعَادَةِ بِالْبَدْءِ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنّ النَّوَاةَ الْأُولَىٰ الَّتِي أُنْشِئ الإنْسَانُ عَلَيْهَا؛ هِيَ الَّتِي يُنْشِئُ اللهُ عَلَىٰ نَظِيرهَا مِنْ مُشْتَقَّاتِهَا جَسَدَ الإنْسَانِ حِينَ إِعَادَتِهِ بِالْبَعْثِ لِيَحْيَا الْحَيَاة الْأُخْرَىٰ، هٰذَا مَا دَلَّتْ عِدَّةُ نُصُوصٍ، إِذْ يُنْبِتُهُ اللهُ مِنَ النَّوَاة الَّتِي تَبْقَىٰ في عَجْبِ الذَّنَبِ لَا تَفْنَىٰ.

فَلْيَدَع المشَكِّكُونَ الأَوْهَامَ الَّتِي يَطْرَحُونَهَا لِلتَّشْكِيكِ بالْبَعْثِ وَالْحَيَاةِ الْأُخْرَىٰ.

فَمُنْكِرُو الْبَعْثِ يُشَكِّكُونَ بإمْكَانِهِ بأُسْلُوبِ الاسْتِفْهَامِ التَّعَجُّبِيِّ الاسْتِغْرَابِيّ، فَيَقُولُونَ: أَئِذَا مِتْنَا وَفَنِيَتْ أَجْسَادُنَا وَصَارَتْ ذَرَّاتٍ ضَائِعَاتٍ في تُرَابِ الْأَرْضِ؛ أَئِنَّا لَنُبْعَثُ خَلْقاً جَدِيداً مُطَابِقاً لِمَا كُنَّا عَلَيْهِ في الحياة الأولَىٰ؟؟!!، إِنَّ هٰذَا مُسْتَبْعَدٌ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَحْصُلَ.

فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿... بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾﴾: أي: لَيْسُوا يَرَوْنَ أَنَّ الْبَعْثَ مُسْتَحِيلٌ عقلاً، فَفِي سَوَابِقِ التَّنْزِيلِ أَنْزَلْنَا مَا أَقْنَعَهُمْ بِأَنَّ رَبَّهُمْ قَدِيرٌ عَلَىٰ أَنْ يُعِيدَهُمْ إِلَىٰ الْحَيَاةِ بَعْدَ أَنْ يُمِيتَهُمْ، وَيُفْنِي أَجْسَادَهُمْ، بَلْ هُمْ لَا يرِيدُونَ أَنْ يَلْقَوْا رَبَّهُمْ لِيُحَاسِبَهُمْ، ويَفْصِلَ قَضَاءَهُ بَيْنَهُمْ، وَيُجَازِيَهُمْ عَلَىٰ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ شِرْكٍ وَلَوَازِمِهِ في السُّلُوكِ، الَّذِي يُرْضُون بِهَا أَهْوَاءَهُمْ وَشَهَوَاتِهِمْ وَرَغَبَاتِهِمْ مِنْ مَتَاعَاتِ الحياة الدُّنيا، فَهُمْ يَسْتُرُونَ بَرَاهِينَ الْجَزَاءِ وحِكْمَةِ اللهِ وَعَدْلِهِ، وَيَكْفُرُونَ بِلِقَاءِ رَبِّهِمُ، الَّذِي يَكُونُ فِيهِ يَوْمَ القيامَةِ الْحِسَابُ، وفَصْلُ القضاء، وَتَنْفِيذُ الجزاء.

أَصْلُ الكَفْرِ: السَّتْر، والكُفْرُ: جُحُودُ الْحَقِّ، ويكُونُ بِسَتْرِ أَدِلَّتِهِ وَبَرَاهِينِهِ، بِالْأَدِلَّةِ الواهِيَةِ وبزُخْرُفِ الْقَوْل الخادِعِ لصِغَارِ الْعُقُول.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ ﷺ وَكُلَّ دَاعٍ إِلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ:

• ﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾:

بما أَنَّ مُنْكِرِي الْبَعْثِ لَمْ يَأْتُوا بِجَدِيدٍ بِشَأْنِ إِنْكَارِهِمْ لِلْبَعْثِ، غَيْرَ مُجَرَّدِ الاسْتِفْهَام التَّعَجُّبِيّ الاسْتِغْرَابِي، فالْحِكْمَةُ تَقْتَضِي الاقْتِصَارَ عَلَىٰ إِخْبَارِهِمْ بالْحَقِيقَةِ، بَدْأً مِن انْتِهَاءِ حَيَاتِهِمُ الدنْيا بِالْمَوْتِ، حَتَّىٰ غَايَةِ لِقَاءِ رَبِّهِمُ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ حسابُهُمْ وفَصْلُ القضاءِ بَيْنَهُمْ.

أي: قُلْ لَهُمْ يا مُحمَّدُ، ويا أَيُّهَا الداعي إلى اللهِ من أُمَّتِهِ:

• ﴿يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾: أي: يَدَعُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَيَواتِكُمُ المقَدَّرَةَ لِكُلِّ واحِدٍ مِنْكُمْ حَتَّىٰ يَسْتَوْفِيَها تَامَّةً، وفي لَحْظَةِ اسْتِيفَائِهِ لَهَا؛ يَنْزِعُ رُوحَهُ مِنْ جَسَدِهِ ونَفْسِهِ، فَتَذُوقُ نَفْسُهُ الْمَوْت، ويَصِيرُ جَسَدُهُ خَالِياً مِنَ الْحَيَاةِ، لَا حَرَكَةَ لَهُ وَلَا فِكْرَ وَلَا مَشَاعِرَ وَلَا إِحْسَاسَ بِشَيْءٍ مَا، ويَصِيرُ سَائِراً فِي أَطْوَارِ الْفَنَاءِ، بِسَبَبِ انْفِصَالِ رُوحِهِ عَنْ نَفْسِهِ.

وَجرىٰ الاسْتِعْمَالُ على إطْلَاقِ الوفَاةِ عَلَىٰ الموْتِ، وإطْلَاقِ التَّوَفِّي عَلىٰ الإِمَاتَةِ بِفَصْلِ الرُّوحِ عَلَىٰ النَّفْسِ.

وأَرَىٰ أَنَّ أَصْلَ المعْنَىٰ تَرْكُ الْحَيِّ يَسْتَوْفِي أَجَلَ بَقَائِهِ في هَـٰذِهِ الحياة الدُّنْيا، فَإِذَا اسْتَوْفَىٰ أَجَلَه فَصَلَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ لِهَـٰذِهِ الْغَايَةِ رُوحَهُ عَنْ نَفْسِهِ، فَيَصِيرُ الْحَيُّ مَيّتاً.

وَمَلَكُ الموْتِ يُرادُ بِهِ صِنْفُ الْمَلَائِكَةِ الْمُوَكَّلِينَ بِفَصْلِ الْأَرْوَاحِ عَنِ النُّفُوسِ، وَلَمْ يَأْتِ في النُّصُوصِ الدِّينيَّةِ ذِكْرُ اسْمِ رَئِيسِ هَـٰذَا الصِّنْفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، والمشْهُورُ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ النَّاس أَنَّهُ «عَزْرَائِيل» لَا يُعْرَفُ لَهُ أَصْلٌ مَقْبُولٌ يُسْنَدُ إِلَيْهِ.

وقَدْ جَاءَ في القرآن ذِكْرُ مَنْ يقُومُ بِفَصْلِ أَرْوَاحِ الأحْيَاءِ عن نُفُوسِهِمْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مجْمُوعاً، فقال اللهُ تَعَالَىٰ في سُورَةِ (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾.

• ﴿ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾: أي: الَّذِي وُكِّلَ بِأَمْرِ اللهِ بِأَنْ يَنْزِعَ أَرْوَاحَكُمْ عَنْ نُفُوسِكُمْ.

• ﴿... ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾: أَيْ: ثُمَّ بَعْدَ مُدَّةِ الْبَرْزَخِ

الْفَاصِلِ بَيْنَ الْمَوْتِ والْبَعْثِ تُرْجَعُونَ إِلَىٰ رَبِّكُم، لِيُحَاسِبَكُمْ ويَفْصِلَ الْقَضَاءَ بَيْنَكُمْ، ويُنَفِّذَ مَا يَقْضِي به مِنْ جَزَاءٍ بالْعَدْلِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُبَيِّنُ مَشْهَداً مِنْ مَشَاهِدِ الْمُجْرِمِينَ ومِنْهُمْ مُنْكِرُو الْبَعْثِ الَّذِينَ يَدُورُ الدَّرْسُ حَوْلَ عِلَاجِهِمْ:

• ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾:

• ﴿نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾: أي: مُطَأْطِئُو رُؤوسِهِمْ يُحْنُونَهَا إِلَىٰ الأَسْفَلِ مِنَ الذُّلِّ والانْكِسَارِ والْخُضُوعِ.

أي: وَلَوْ تَرَىٰ أَيُّهَا الرَّائِي أَيًّا كُنْتَ؛ حِينَ يَكُونُ الْمُجْرِمُونَ ومِنْهُمْ مُنْكِرُو الْبَعْثِ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ نَاكِسِي رؤوسِهِمْ يَخْفِضُونَهَا ويُحْنُونَهَا إِلَىٰ الأَسْفَلِ ذُلًّا وانْكِسَاراً وَخُضُوعاً، ويَدْعُونَ رَبَّهُمْ قَائِلِينَ: رَبَّنَا أَبْصَرْنَا أَحْدَاثاً جَسِيمَةً عَظِيمَة مُخِيفَةً مِمَّا سَيَلْقَاهُ الكافِرُونَ الجاحِدُونَ الْمُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ، وسَمِعْنَا مِنْ زَفِيرِ جَهَنَّمَ وَشَهِيقِهَا وأَصْوَاتِهَا الْمُرْعِبَةِ؛ مَا جَعَلَ قُلُوبَنَا تَكُونُ عَلَىٰ يَقِينٍ مِمَّا كُنَّا نَكْفُرُ بِهِ وَنُكَذِّبُ بِهِ، فَارْجِعْنَا إِلَىٰ حَيَاةِ الابْتِلَاءِ نَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً عَلَىٰ وَفْقِ مَا تَأْمُرُنَا بِهِ أَوْ تَنْهَانَا عَنْهُ.

لَكِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءَهُمْ، فَقَدْ سَبَقَ أَنْ رَفَضَ أَنْ يَسْتَجِيبَ لَهُمْ عِنْدَ مَوْتِهِمْ دُعَاءً مُمَاثِلاً لِهٰذَا الدُّعَاءِ.

لِأَنَّهُمْ لَوْ رُدُّوا إِلَىٰ حَيَاةِ الابْتِلَاءِ لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ، إِذْ يُرَدُّونَ إِلَىٰ مِثْلِ مَا كَانُوا فِيهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا تَمَاماً، لَا يَذْكُرُونَ مِنْ أَحْوَالِ الآخِرَةِ شَيْئاً، لِتَكُونَ ظُرُوفُ امْتِحَانَيْهِمْ مُتَسَاوِيَةً.

وجواب «لَوْ» محذوف إيجازاً، ومِنَ السَّهْلِ تقديرُهُ، أي: لَتَرَيَنَّ المجْرِمِينَ في حالَةِ مَهَانَةٍ وذلٍّ وذعْرٍ شديد يُثِيرُ الحسْرة عَلَيْهِم.

وَبِهٰذَا انْتَهَىٰ تدبر الدرس الثاني من دُرُوس سورة (السَّجْدَة).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

❁ ❁ ❁

(٧)

التدبُّر التحليلي للدَّرس الثالث من دُروس سورة (السَّجدَة) الآيتان (١٣ و١٤)

قال اللهُ عَزَّ وَجلَّ:

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٤)﴾:

تَمْهيد:

في آيَتَي هٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ أَنَّ اللهَ خَلَقَ النَّاسَ ذَوي إراداتٍ حُرَّةٍ، لِيَبْلُوَهُمْ فيما آتاهُمْ ضِمْنَ ظُرُوف هٰذِهِ الحياة الدُّنْيا، إِذْ وَضَعَهُمُ اللهُ فيها مَوْضِعَ الامْتِحان، فَمَنِ اخْتَارَ في حَيَاةِ امْتِحَانِهِ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْكَافِرِينَ المكَذِّبينَ بِمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ المؤيَّدِ بالآيَاتِ الْبَيّناتِ والْمُعْجِزَاتِ الْبَاهِرَات؛ كَانَ مِنَ الْخَالِدِينَ في جهَنَّمَ يَوْمَ الدِّينِ.

التدبّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣)﴾:

أي: وَلَوْ شِئْنَا لَسَلَبْنَا كُلَّ نَفْسٍ ذَاتِ إِرَادَةٍ حُرَّةٍ مَوضُوعَةٍ في الحياةِ الدُّنْيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ؛ إِرَادَتَهَا الْحُرَّةَ فَجَعَلْنَاهَا مَخْلُوقاً مَجْبُوراً، وَحِينَئِذٍ نَخْتَارُ أَنْ نُؤْتِيَ كُلَّ نَفْسٍ هُداهَا بِالْجَبْرِ، كَمَا خَلَقْنَا الْمَلاَئِكَةَ مَهْدِيِّينَ لا يَعْصُونَ وَلَا يَفْعَلُونَ شَرّاً، وَلَا نَخْتَارُ أَنْ نَخْلُقَ نَفْساً مَجْبُورَةً عَلَىٰ الضَّلَالَةِ

وفِعْلِ الشَّرِّ، وأمَّا الشَّيَاطِينُ فَهُمْ مَرَدَةُ كَفرَةِ الْجِنّ، وَهُمْ مِنْ ذَوِي الإِرَادَاتِ الْحُرَّةِ الْمَوْضُوعِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ.

وَلَكِنْ لَمْ نَشَأْ أَنْ نَسْلُبَ ذَوِي الإِرَادَاتِ الحرَّةِ الموضوعينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ إِرَادَاتِهِمْ، فَهٰذَا مُخَالِفٌ لِحِكْمَتِنَا مِنْ خَلْقِهِمْ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَجْتَازُوا مُدَّةَ حَياةِ امْتِحَانِهِمْ مُخْتَارِينَ لِنَبْلُوَهُمْ فِيمَا آتَيْنَاهُمْ، ولِنَكْشِفَ اخْتِيَارَاتِهِمْ فِي ظُرُوف الْحَيَاةِ الدُّنيا، ولِنُجَازِيَ كُلَّ نَفْسٍ بِحَسَبِ اخْتِيَارَاتِهَا فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهَا.

أَمَّا الْكَافِرُونَ الْمُجْرِمُونَ المكَذّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينَ؛ فَلَأَمْلَأَنَّ جهَنَّمَ مِنْهُمْ جِنًّا وإِنْساً، خالِدِينَ فِيهَا يُعَذَّبُونَ.

وطَوَىٰ النَّصُّ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ مَا يَلِي: وَلأُسْعِدَنَّ المؤمِنِينَ الَّذِينَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، بِحَسَبِ مُكْتَسَبَاتِهِمُ الإِرَادِيَّةِ مِنْ أَعْمَالٍ صَالِحَةٍ، بِفِعْلِ مَا أَمَرْتُهُمْ بِفِعْلِهِ، وَتَرْكِ مَا نَهَيْتُهُمْ عَنْ فعلِهِ.

• ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾: أي: وَلكِنْ ثَبَتَ الْقَوْلُ الصَّادِرُ مِنِّي، فلا اسْتِئْنَافَ فِيهِ وَلَا رَجْعَةَ عَنْهُ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً الحديثَ عَنِ الْجِهَنَّمِيِّينَ:

• ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾:

اسْتُعْمِلَ فِعْلُ «ذُوقُوا» لِلدَّلَالَةِ عَلَىٰ الإِحْسَاسِ بالْأَلَم النَّفْسِيِّ والْأَلَمِ الْجَسَدِيّ، لِأَنَّ حِسَّ الذَّوْقِ من أَشَدِّ الْحَوَاسِّ إِدْرَاكاً لِلْمُحَسَّاتِ.

• ﴿بِمَا نَسِيتُمْ﴾: أي: بِسَبَبِ مَا تَرَكْتُمْ. أَصْلُ مَعْنَىٰ النِّسْيَانِ في اللُّغَةِ التَّرْك.

أي: فَذُوقُوا الإحْسَاسَ بآلَامِ وُقُوفِكُمْ أَذِلَّاءَ خَائِفِينَ مَذْعُورِينَ،

مُطَأْطِئِي رُؤُوسِكُمْ، تَدْعُونَ رَبَّكُمْ أَنْ يَسْتَأْنِفَ حَياةَ ابْتِلَائِكُمْ، فَلَا يَسْتَجِيبُ لَكُمْ، بِسَبَبِ تَرْكِكُمُ الْعَمَلَ لِلِقَاءِ رَبِّكُمْ لِيُحَاسِبَكُمْ، ويَفْصِلَ الْقَضَاءَ بِمُجَازَاتِكُمْ عَلَىٰ مَا قَدَّمْتُمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ فِي يَوْمِكُمْ هٰذَا، يَوْمِ الْقِيَامَة.

وَيَقُولُ اللهُ لَهُمْ: إِنَّا تَرَكْنَا الْعِنَايَةَ بِكُمْ وشُمُولَكُمْ بِرَحْمَتِنَا، فِي مُقَابِلِ تَرْكِكُمُ الإيمانَ والْعَمَلَ بِمَا يُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَة.

ويَقُولُ اللهُ لَهُمْ مُخزِياً ومُعَذِّباً: ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ أَيْضاً فِي جَهَنَّمَ بِسَبَبِ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ مِنْ أَعْمَالِ اعْتِقَادِيَّةٍ وَنَفْسِيَّة، وأَعْمَالٍ جَسَدِيَّةٍ ذَاتِ تَوْجِيهٍ إِرَادِيٍّ جَاحِدٍ لِرُبُوبِيَّةِ اللهِ الواحِدَة، ولإِلَٰهِيَّتِهِ الَّتِي لَا شَرِيكَ لَهُ فيها.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرسِ الثّالِثِ من دُرُوس سورة (السَّجْدِة).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(٨)
التدبُّر التحليلي للدَّرس الرابع مِن من دُروس سورة (السَّجدة) الآيات من (١٥ ـ ٢٢)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ

ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾:

القراءات:

(١٧) • قرأ حمزة، ويَعْقُوب: **[مَا أُخْفِيْ]** بإسْكَانِ الياء عَلى أَنَّهُ فعلٌ مضارع.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[مَا أُخْفِيَ]** بِفَتْحِ الياء على أَنَّهُ فِعْلٌ مَاضٍ.

(٢٠) • قرأ هِشَام، والكِسَائِي، ورُويس: **[وَقِيلَ]** بِإِشْمَامِ كسْرَة القاف الضمّ.

وقرأهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بالْيَاءِ الْخَالِصَة.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ بَعْضِ صِفَاتِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بآيَات اللهِ جَلَّ جَلالُهُ، مع بيان ثوابِهِم العظيم عند اللهِ يَوْمَ الدِّين.

وفيها بيانُ الْفَرْقِ الشَّاسِعِ بَيْنَ مَنْ كَانَ مُؤْمِناً ومَنْ كَانَ فَاسِقاً.

التدبّر التحليلي:

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً بَعْضَ صِفَاتِ المؤمِنِينَ المرْتَقِينَ في دَرَجَاتِ مَرْتَبَتَي الْبِرّ والإحْسَان:

• ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾:

• ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾: أي: لَا يُؤْمِنُ بآيَاتِنَا المنزَّلَةِ فِي كِتَابِنَا، إيماناً مِنْ دَرَجَاتٍ رَفِيعَاتٍ فَوْقَ دَرَجَاتِ مَرْتَبَةِ التَّقْوَىٰ، فَهِيَ مِنْ دَرَجَاتِ مَرْتَبَتَي الْبِرِّ والْإِحْسَانِ.

فالْقَصْر بأَدَاةِ «إِنَّمَا» قَصْرٌ عَلَىٰ تَقْدِيرِ مَطْوِيَاتٍ في النَّصّ، أي: إِنَّمَا يُؤْمِنُ هٰذَا الْإيمانَ الْعَظِيمَ بِآيَاتِنَا الْمُنَزَّلَاتِ في كِتَابِنَا؛ هم الّذِينَ يَتَحَلَّوْنَ بالصِّفَاتِ السِّتّ التَّالِيَات:

الصِّفَةُ الْأُولَىٰ: دَلَّ عَلَيْهَا قولُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا﴾:

أي: هُم المؤمِنُونَ الْمتَّقُونَ الَّذِينَ ارْتَقَوْا فَوْقَ مَرْتَبَةِ التَّقْوَىٰ، وَتَدَرَّجُوا فِي دَرَجَاتِ مَرْتَبَتَي الْبِرِّ والإحْسَان، فإذَا ذُكِّرُوا بآيَاتِ اللهِ فِي كِتَابِهِ، وَتَدَبَّرُوا مَعَانِيهَا، ونَفَذَتْ إِلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَشَاعِرُ الْإِحْسَاسِ بِعَظَمَةِ اللهِ وَجَلَالِهِ؛ خَرُّوا سُجَّداً للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ خاضِعِينَ مُتَضَرِّعِينَ فِي عِبادَةٍ صادقَةٍ لَهُ، تُعَبِّرُ عَنْ مَبْلَغِ إيمَانِهِمْ الْعَظِيمِ به جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُه.

وأرَىٰ أَنَّ هَـٰذِهِ الصِّفَةَ مِنْ صِفَاتِ الْأَبْرَارِ أَوِ الْمُحْسِنِينَ، غَفَلَ المتدبِّرون عَنْهَا، وغَفَلَ المؤمِنُونَ عنها، وَلَيْسَتْ مُجَرَّدَ السُّجُودِ عِنْدَ مَوَاضِعِ السَّجَدَاتِ في القرآن.

• ﴿خَرُّواْ﴾: أي: أَسْرَعُوا في خَفْضِ رُؤُوسِهِمْ وَأَجْسَادِهِم لِوَضْعِ جبهَاتِهِمْ عَلَىٰ الْأَرْضِ، خُضُوعاً للهِ وَذُلًّا.

يُقَالُ لُغَةً: «خَرَّ الْمَاءُ يَخِرُّ وَيَخُرُّ خَرّاً» أي: سَقَطَ مِنْ عُلْوٍ إِلَىٰ سُفْلٍ بِلَا تَوَقُّف.

• ﴿سُجَّدًا﴾: جَمْعُ «سَاجِدٍ»، وهو في الشَّرْعِ مَنْ يَضَعُ جَبْهَتَهُ عَلَىٰ الْأَرْضِ عبادَةً للهِ عَزَّ وَجَلَّ.

أي: خَرُّوا حالَةَ كَوْنِهِمْ هَاوِينَ لِيَكُونُوا سَاجِدِينَ عِبادَةً لِرَبِّهِم وإجْلالاً وإعْظَاماً وشُكْراً.

التَّذْكِير بآيات الله: هُوَ تَكْرِيرُ تِلَاوَتِهَا آناً فآناً عَلَىٰ مَنْ سَبَقَ أَنْ تَبَلَّغَهَا وَآمَنَ بها.

الصِّفَة الثَّانِيَة: أَنَّهُمْ يُسَبِّحونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ إِذَا ذُكِّرُوا بآيَاتِهِ فِي كِتَابِهِ، دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ الصِّفَة قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ عَطْفاً عَلَىٰ: ﴿خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾.

وهـٰذَا التَّسْبِيحُ قَدْ يَكُونُ فِي حَالَةِ سُجُودِهم، وَقَدْ يَكُونُ فِيهِ وَفِي غَيْرِهِ.

أي: وَنَزَّهُوا رَبَّهُمْ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ به مِنْ صِفَات، وَهـٰذَا التَّسْبِيح مَقْرُونٌ بِحَمْدِهِ بِكُلِّ صِفَاتِ الكَمَالِ الَّتِي هِي لَهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَسَمَتْ صِفَاتُهُ الْحُسْنَىٰ.

فالبَاءُ الْجَارة في: ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ هي بِمَعْنَىٰ الْمُلَابَسَة، أي: تَسْبِيحاً مُمْتَزِجاً بِحَمْدِهِ وَمُلَابساً له، فالتنْزِيهُ والْحَمْدُ بِصِفَاتِ الكَمَالِ مُجْتَمِعَانِ مُمْتَزِجَان.

تَسْبِيحُ اللهِ: تنزيهُهُ وتَقْدِيسُهُ عَنْ كُلِّ مَا لا يَلِيقُ بِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

حَمْدُ اللهِ: الثَّنَاءُ عَلَيْهِ بِكُلِّ مَا يَتَّصِفُ بِهِ مِنْ صِفَاتِ جَلِيلَاتٍ وَأَسْمَاءٍ حُسْنَىٰ.

الصِّفَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَةِ رَبِّهِمْ وَطاعَتِهِ فِيما جَاءَ فِي آيَاتِ كِتَابِهِ مِنْ أَوَامِرَ وَنَوَاهِي وَتَرْغِيباتٍ بأَفْعَالٍ وَتُرُوك.

دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ الصِّفَةِ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿... وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾﴾: أي: وهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ مُمْتَنِعِينَ عَنْ عِبَادَةِ اللهِ وَعَنْ طَاعَتِهِ.

الاسْتِكْبَارُ: التَّرَفُّعُ والتَّعَالِي، والامْتِنَاعُ عَنْ طَاعَةِ مَنْ تجِبُ طاعَتُهُ.

الصِّفَةُ الرابعة: أَنَّهُمْ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ المضَاجِعِ، لِيَعْبُدوا رَبَّهُمْ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ، بِالصَّلَاةِ وبالذِّكْرِ وبتلاوةِ آيَاتٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ، وبالدُّعَاءِ، وَهَـٰذِهِ الصِّفَةُ هِي مِنْ صِفَاتِ الْأَبْرَارِ وَالْمُحْسِنِينَ، لأَنَّ قِيَام اللَّيلِ في

النَّوَافِلِ لَيْسَ مِنْ مَرْتَبَةِ المتَّقِينِ، بل هو من مَرْتَبَةِ الْأَبْرَارِ وَمَرْتَبَةِ الْمُحْسِنِين.

دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ الصِّفَةِ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾.

- ﴿تَتَجَافَىٰ﴾: أي: تَتَبَاعَدُ بِتَكَلُّفٍ رَغْبَةً فِي العبادة والْأَجْر العظيم.
- ﴿جُنُوبِهِمْ﴾: **الْجُنُوب**: جَمْعُ «جَنْبٍ»، والْجَنْبُ مِنْ كُلِّ شيءٍ نَاحِيَتُهُ، وشِقُّهُ، ولِلإنْسَانِ جَانِبَانِ أَحَدُهُمَا عَنْ يَمِينِهِ والْآخَرُ عَنْ شِمَالِهِ، والنائِمُ في الغالب يَنَامُ عَلَىٰ أَحَدِ جَنْبَيْهِ.
- ﴿عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾: **المضاجعُ**: جَمْعُ «الْمَضْجَع»، وَهُوَ مَوْضِعُ الْجَنْبِ عَلَىٰ الْأَرْضِ، أَوْ عَلَىٰ شيءٍ مَا كَخَشَبَةٍ أَوْ سَرِيرٍ أو نحوهما.

الصِّفَةُ الخامسة: أَنَّهُمْ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ فِي أَحْوَالِ الْخَوْفِ، لِيَصْرِفَ عَنْهُمْ مَا يَخَافُونَ مِنْهُ، وَيَدْعُونَ رَبَّهُمْ في أَحْوَالِ الطَّمَعِ، لِيُؤْتِيَهُمْ مَا يَطْمَعُونَ فِيهِ، وَمَا يُحِبُّونَ الاسْتِمْتَاعَ بِهِ مِن مَتَاعَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنيا، وَمَا يُحِبُّونَ أَنْ يَظْفَرُوا بِهِ يَوْمَ الدِّينِ مِن سَعَادَةٍ أَبَدِيَّةٍ فِي جَنَّاتِ النعيم، وأَنْ يَقِيَهُمْ عَذَابَ النَّارِ، وَمَا يُقَرِّبُ إِلَيْهَا مِن اعتقادٍ أو قَوْلٍ، أو عمل.

دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ الصِّفَةِ قول اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾: أي: حَالَةَ كَوْنِهِمْ خائِفِين، وَحَالَةَ كَوْنِهِمْ طَامِعين.

استُعْمِلَ المصْدَرُ في مَوْقِعِ اسْم الْفَاعل. واستُعْمِلَ الفِعْلُ الْمُضَارِعُ «**يَدْعون**»: للدَّلَالَةِ عَلَىٰ تَجَدُّدِ دُعَائِهِمْ في كُلِّ أَحْوَالِهِمْ، لأَنَّ الإنْسَانَ في هَـٰذِهِ الحياة الدُّنيا لَا يَخْلُو إِمَّا أَنْ يَكُونَ خائِفاً، وإِمَّا أَنْ يَكُونَ طَامِعاً، وإِمَّا أَنْ يَكُونَ خَائِفاً وَطَامِعاً معاً.

الصفة السادسة: أَنَّهُمْ يُنْفِقُونَ آناً فآناً مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ مِنْ رِزْقٍ، في سُبُلِ الْخَيْرِ وَمَرْضَاةِ اللهِ، وهو يَشْمَلُ المآكِلَ، والمشَارِبَ، والمسَاكِنَ،

والْأَكْسِيَةَ، والْأَدْوية، والمرَاكِبَ، وَسَائِرَ مَا يَحْتَاجُهُ الإنْسَانُ حَاجَةً حَقِيقِيَّةً فِي الحياة الدُّنْيَا، مِمَّا أَحَلَّ اللهُ وَأَذِنَ بالاسْتِمْتَاع بِهِ، ويتوسَّعُونَ في هٰذَا الإنْفَاق.

دلَّ على هَـٰذِهِ الصِّفَة قولُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿... وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُشِيراً إِلَىٰ الثَّوَابِ الْعَظِيمِ الَّذِي أَعَدَّهُ وَأَخْفَاهُ لِهٰذِهِ الزُّمْرَةِ مِنَ الْأَبْرَارِ والْمُحْسِنِينَ:

• ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾:

﴿مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾: أي: مِنْ سُرُورٍ ونَعِيمٍ وَرِضاً، يقالُ لغة: «قَرَّتْ عَيْنُ فُلَان» أي: بَرَدَتْ، واسْتُعْمِلَ هٰذَا التَّعْبِيرُ كِنَايَةً عَن السُّرُور والرِّضا.

أي: هَـٰؤُلَاء الْأَبْرَارُ والْمُحْسِنُونَ مِنَ المؤمِنِينَ؛ قَدَّرَ اللهُ لَهُمْ ثَواباً عَظِيماً فَوْقَ مَا جَاءَ التَّصْرِيحُ بِهِ في آياتِ الْقُرْآنِ المجيد، وهٰذَا الثَّوَابُ الْعَظِيمُ الذي قَدَّرَهُ وَقَضَاهُ اللهُ لَهُمْ، وهم يَظْفَرُونَ بِهِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ يَوْمَ الدِّينِ؛ قَدْ أُخْفِيَ عَلَيْهِمْ وَعَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ، وَهُوَ لَا يُعْلَمُ مِنْ قَبل مَلَكٍ وَلَا إِنْسٍ وَلَا جِنٍّ إِلَّا حِينَ يُسْعِدُ اللهُ بِهِ هَـٰذِهِ الزُّمْرَةَ يَوْمَ الدِّينِ في جَنَّاتِ النَّعِيم، فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ قَبْلَ ذَٰلِكَ هٰذَا الجَزَاءَ العظيم الَّذِي أَخْفَاهُ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ.

روىٰ البخاريّ ومُسْلم أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قال:

«أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ».

• ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾: أي: بسبب مَا كانوا في الحياة الدنيا يَعْمَلُونَ مِنْ صالحات جاءَ بَيانُها في صفاتِهِم السِّتِّ الّتي سبق شَرْحُها.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيّناً نَفْيَ التَّسَاوِي بَيْنَ المؤمِنِينَ والْفَاسِقِين الكَفَرَةِ:

● ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾:

الفاسِق: العاصِي، والمخالِفُ لِأَوَامِرِ اللهِ وَنَواهِيهِ، والْخَارِجُ عَنِ الْحَقّ، وهُوَ مصْطَلَحٌ إِسْلَامِيٌّ لَمْ يَكُنْ مَعْرُوفاً عِنْدَ العرب.

ولِلْفِسْقِ دَرَكَاتٌ أَخَسُّهَا يَكُونُ بالكُفْرِ باللهِ وبما جاء عن اللهِ جُحُوداً وعِنَاداً وَإِصْرَاراً عَلَىٰ الْبَاطِلِ واتّبَاعِ الْهَوَىٰ.

والْمُرَادُ بالْفَاسِقِ فِي هٰذَا النَّصّ: هو مَنْ كَانَ فِسْقُهُ مِنْ دَرَكَةِ الكُفْرِ، الَّذِي يَسْتَحِقُّ صَاحِبُهُ الْخُلُودَ فِي عَذَابِ النَّار يَوْمَ الدِّين.

المأوى: المكَانُ والمنْزِلُ الَّذِي يُنْزَلُ فِيهِ وَيُسْكَنُ، وعبارة: ﴿جَنَّـٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾: أي: جَنَّاتُ الْمَكَانِ الَّذِي أُعِدَّ لَهُمْ لِيَأْوُوا إليه، ويَنْزِلُوا فِيهِ، في سُكْنَىٰ أَبَدِيَّةٍ.

● ﴿نُزُلًا﴾: **النُّزُل**: مَا يُعِدُّهُ الرَّجُلُ لِضَيْفِهِ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ، ونُقِلَ عَنِ الزَّجَّاجِ: أَنَّ النُّزُلَ يُطْلَقُ عَلَىٰ الْمَنْزِل.

فالْجَنَّاتُ مَا أَعَدَّهُ اللهُ لِضُيُوفِهِ الَّذِينَ يُكَرِّمُهُمْ يَوْمَ الدِّين، بِسَبَبِ مَا قَدَّمُوا مِنْ إيمان وَعَمَل يُرْضِيهِ.

والفاء في ﴿أَفَمَن﴾ تَعطِفُ علَىٰ مَحْذُوف من السَّهْلِ تقديره.

المعنى: أَفُقِدَ الْعَدْلُ الرَّبَّانِيّ، وفُقِدَتْ حِكْمَةُ اللهِ في الْجَزَاءِ، فَيَسْتَوِي فِي جَزَاءِ اللهِ يَوْمَ الدِّينِ؛ مَنْ كَانَ فِي حَيَاةِ الابْتِلَاءِ مُؤْمِناً بِمَا أَمَرَ اللهُ بالإيمانِ بِهِ؛ وَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يُؤْمِنُ بِمَا أَمَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بالإيمان به؟؟!.

إنَّ المؤمنِينَ وَالفاسِقِينَ الْكَافِرِينَ؛ لَا يَسْتَوون في حِكْمَةِ اللهِ السَّامِيَة، وعَدْلِهِ في الْجَزَاء.

• ﴿أَمَّا﴾ حَرْفٌ فِيهِ معْنَىٰ الشَّرط والتَّوْكِيدِ، وفِيهِ هُنَا معْنَىٰ التَّفْصِيل، وَهِي نَائِبَةٌ عَنْ أَدَاةِ الشَّرْطِ وجُمْلَتِهِ.

أي: أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِمَا أَمَرَ اللهُ بالإيمان به وَعَمِلُوا مِنَ الصَّالِحَاتِ مَا يُعَبِّرُ عَنْ صِدْقِ إيمَانِهِمْ وصِحَّتِهِ؛ فَقَدْ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ أَرْضُهَا مَسْكَنُهُمُ الأبَدِيُّ الْخَالِدُ، وفيها ضِيَافَةُ اللهِ العظيمَةُ لَهُمْ، وَهٰذَا قَدْ أُعِدَّ لَهُمْ بِسَبَبِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فِي حَيَاةِ الامْتِحَانِ مِنْ صَالِحَاتٍ تُرْضِي اللهَ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ عِبَادِهِ.

وأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا بالكُفْرِ بِمَا أَمَرَ اللهُ بالْإِيمَانِ بِهِ، ويَلْزَمُ مِنْ كُفْرِهِمْ أَنْ يَعْمَلُوا السَّيِّئَاتِ الكَبِيرَاتِ؛ فَقَدْ قَضَىٰ اللهُ عَلَيْهِمْ بِأَنْ يَكُونَ مَكَانُ إِقَامَتِهِم دَارَ الْعَذَابِ النَّارَ يَوْمَ الدِّينِ. وَهُمْ يُحَاوِلُونَ الْخُرُوجَ مِنَ النَّارِ، لَكِنَّهُمْ كُلَّما أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا؛ أُعِيدُوا إِكْرَاهاً حَتَّىٰ يَكُونُوا فِي وَسَطِهَا، ويُقَالُ لَهُمْ مِنْ قِبَلِ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ يُعِيدُونَهُمْ فيها: ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ فِي حَيَاةِ الامْتِحَانِ بِهِ تُكَذِّبُونَ عِنَاداً وإصراراً على الباطل، واتِّبَاعاً لِشَهَوَاتِ نُفُوسِكُمْ، ورَغَبَاتِهَا من متاعَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنيا.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بَيَانَ عَذَاب الَّذِين فَسَقُوا مِنْ دَرَكَةِ الكُفر:

• ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾:

• ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم﴾: اللام واقِعَةٌ فِي جواب قَسَم مَنْوي، فالْفِعْلُ مُؤكَّدٌ بِقَسَم مُقَدَّرٍ، وبِنُونِ التَّوْكِيدِ الثَّقِيلَة. أي: ونُقْسِمُ لَنَجْعلَنَّهُمْ يَذُوقُونَ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنىٰ.

• ﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾: أي: من الْعَذَابِ الأَقْرَب، وهُو مَا يُنْزِلُهُ اللهُ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ في الحياة الدُّنْيَا قَبْلَ مَوْتِهِمْ، وطُوِيَ في النَّصِّ

وَصْفُ هـٰذَا الْعَذَابِ بِأَنَّهُ أصْغَرُ، لِدَلَالَةِ مُقَابِلِهِ الأخْرَوِيِّ إذْ جاءَ وَصْفُهُ بأَنَّهُ الْعَذَابُ الأكْبر.

• ﴿دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾: **دُونَ**: ظَرْفُ مَكَانٍ مَنْصُوب، ومَعْنَاهُ هُنَا: «قَبْل». والمرادُ بالْعَذَابِ الْأَكْبَرِ عَذَابُ الْآخِرَة.

المعنى: ونُقْسِمُ لَنَذِيقَنَّهُمْ بَعْضَ الْعَذَابِ الأَقْرَبِ الْأَصْغَرِ وهُمْ فِي الحياةِ الدُّنْيَا، قَبْلَ إِذَاقَتِهِمُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ في الآخِرَةِ يَوْمَ الدِّينَ، رَغْبَةً فِي أَنْ يَرْجِعُوا إِلَىٰ رُشْدِهِمْ، فَيُؤْمِنُوا بِمَا أَوْجَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ، ويَعْمَلُوا مِنَ الصَّالِحَاتِ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ صِدْقِ إِيمَانِهِمْ وصِحَّتِهِ فِي قُلُوبِهِم.

كَلِمَةُ «لعَلَّ» في عبارة: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ مَحْمُولَةٌ عَلَىٰ مَعْنَىٰ الرَّغْبَةِ، لَا عَلَىٰ مَعْنَىٰ التَّرجِّي والتَّرَقُّب.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ تَعْقِيباً عَلَىٰ ذِكْرِ أَحْوَالِ الْمُكَذِّبِينَ بآيَاتِ اللهِ البيانِيّة الْمُنَزَّلَةِ مِنْ لَدُنْهُ:

• ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

اسْمُ الاسْتِفْهَامِ في عِبارَةِ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ يُرَادُ بِهِ النَّفْيُ، أي: لَا أَحَدَ أَظْلَمُ، وهـٰذَا يَدُلُّ عَلَىٰ مُشَارَكَةِ آخَرِينَ لَهُ في الْأَظْلَمِيَّةِ، لَكِنْ لَا يُوجَدُ أظْلَمُ مِنْهُ.

مُنْتَقِمُونَ: أي: مُعَاقِبونَ، يقال لُغَةً: «انْتَقَمَ، يَنْتَقِمُ، انْتِقَاماً مِن المذنب» أي: عَاقبه.

المَعْنَىٰ: وَلَا أَحدَ أَظْلَمُ مِمَّنْ سَبَقَ لَهُ أَنْ تَبَلَّغَ آيَاتِ رَبِّهِ، وَذُكِّرَ بِهَا آناً فآناً، ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا اتّباعاً لِأَهْوَاءِ نَفْسِهِ وشَهَوَاتِهَا وَمَتَاعَاتِهَا مِنَ الْحَيَاةِ

الدُّنيا، فَصارَ بِإعْرَاضِهِ مُجْرِماً يَسْتَحِقُّ أَنْ يَنْتَقِمَ اللهُ مِنْهُ، وَإِنَّهُ جَلَّ جَلاَلُهُ سَوْفَ يَنْتَقِمُ مِنْهُ يَوْمَ الدّينَ.

وبهـٰذَا انتهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الرابع من دُرُوس سورة (السَّجدة).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(٩)
التدبُّر التحليلي للدّرس الخامس من دُرُوس سورة (السّجدة) الآيتان (٢٣ و٢٤)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾:

القراءات:

(٢٤) • قرأ حمزة، والكِسَائي، ورُوَيس: [**لِمَا صَبَرُوا**].

وقرأهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**لَمَّا صَبَرُوا**].

وبَيْنَ القراءَتَيْنِ تَكَامُلٌ في أَدَاءِ المعْنَىٰ المراد. أي: جَعَلْنَاهُمْ أئِمَّةً حِينَمَا صَبَرُوا، ولأَجْلِ أَنَّهُمْ صَبَرُوا.

تَمْهيد:

في آيَتَيْ هـٰذَا الدَّرْسِ ضَرْبُ مَثَلٍ لِلْمَكَذِّبينَ بالرسُول ﷺ، وبالْقُرْآنِ؛ بأنَّ اللهَ أَرْسَلَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام، وآتَاهُ كِتَابَ التوراة، وَجعَلَهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرَائِيل، فإرْسَالُ الرُّسُلِ وإِنْزَالُ الكُتُبِ مِنْ سُنَنِ اللهِ في عِبَادِهِ الّذِينَ وَضَعَهُمْ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَان.

وفيهما إطْمَاعٌ لِلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بالرَّسُولِ محمّد ﷺ وبالْقُرْآنِ بِأَنْ يَجْعَلَ مِنْهُمْ أئِمَّةً يَهْدُونَ بأمْرِ اللهِ، إِذَا صَبَرُوا وَكَانُوا بآيَاتِ اللهِ يُوقِنُونَ.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيّناً لمكَذِّب الرَّسُولُ محَمَّدٍ ﷺ، ولِلْمُكَذِّب بالقرآنِ في خِطَابٍ مُوَجَّهٍ لَهُ:

• ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾﴾:

وضَحَ لي بَجلَاءٍ أَنَّ الخِطَابَ فِي هَـٰذِهِ الآيَةِ مُوجَّهٌ لِمَنْ يُكَذِّبُ الرَّسُولَ محمّداً ﷺ، ويُكَذِّبُ بِالقرآن، أو يُعْرِضُ عَنْ آياتِهِ نُفُوراً مِنَ الْعَمَلِ بِمَا جَاءَ فيها، فَمَضْمُونُ هـٰذَا الْخِطَابِ مَعَ مُلَاحَظَةِ سَوَابِقِهِ يَدُلُّ عَلَىٰ هـٰذَا الَّذِي وضَحَ لي.

• ﴿وَلَقَدْ﴾: اللَّام واقِعَةٌ فِي جَوَابِ قَسَمٍ مَنْوِيّ، و«قَدْ» حَرْفُ تَحْقِيقٍ وَتَوْكِيد، و«الواو» تَعْطِفُ مَوْضُوعاً عَلَىٰ مَوْضُوعٍ، وهـٰذَا التَّوْكِيدُ يُلائِمُ أَنْ يَكُونَ البيانُ المؤكَّدُ بِهِ مُوَجّهاً لِلْمُكَذِّبِ أو الشَّاكِّ.

• ﴿فِى مِرْيَةٍ﴾ أي: فِي شكٍّ، ومجادَلَةٍ.

المَعْنَىٰ: وَيَا أَيُّهَا الْمُنْكِرُ رِسالَةَ مُحَمّدٍ، والمكَذِّبُ بِالْقُرْآنِ؛ لَقَدْ بَعَثْنَا مِنْ قَبْلِ مُحَمَّدٍ ومِنْ قَبْلِ إِنْزَالِ الْقُرْآنِ عَلَيْهِ؛ رسُولاً عَظِيماً هُوَ مُوسَىٰ، وآتَيْنَاهُ كِتَابَ التَّوْرَاةِ، وَجَعَلْنَا هـٰذَا الكِتَابَ هُدىً لِبَنِي إِسْرَائِيل، وَأَنْتَ عَلَىٰ عِلْمٍ بِمُوسَىٰ والتَّوْرَاةِ فِي مُجْتَمِعِكَ الْعَرَبِي، وإِنْ كُنْتَ عَلَىٰ شَكٍّ فِي مُوسَىٰ والتَّوْرَاةِ؛ فَاعْلَمْ أَنَّكَ سَوْفَ تَلْقَاهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ، وَتَعْلَمُ حِينَئِذٍ يَقِيناً أَنَّا أَرْسَلْنَاهُ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِ التَّوْرَاةَ هُدىً لِبَنِي إِسْرَائِيل، وَلَا تَكُنْ في شَكٍّ مِنْ هَـٰذِهِ الْحَقِيقَةِ وَفِي مُجَادَلَةٍ حَوْلَهَا، فَهِيَ بَيَانٌ مِنْ رَبِّكَ عَمَّا سَوْفَ يَكُونُ حَتْماً.

فإنْ كَانَ عِنْدَكَ فِكْرٌ قِيَاسِيٌّ سَلِيمٌ فَقِسْ إرْسَالَنَا لِمُحَمَّدٍ، وإنْزَالَنَا الْقُرْآنَ عَلَيْهِ هُدىً لِلْعَالَمِينَ؛ عَلَىٰ مَا سَبَقَ مِنْ سُنَّتِنَا فِي عِبَادِنَا وَمِنْهَا إرْسَالُ مُوسَىٰ وَإنْزَالُ كِتَابِ التوراة عَلَيْهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بَيَانَ بَعْضِ مَا كَرَّمَ اللهُ بِهِ بَعْضَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ بمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام والتوراةِ مِنْ بَنِي إسْرَائِيلَ، إطْمَاعاً لِمَنْ يُؤْمِنُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وبالْقُرْآنِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ؛ بِأَنْ يُكَرِّمَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَحِقُّ التَّكْرِيم، بأنْ يَجْعَلَ مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِه:

• ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾: وفي القراءة الأُخْرَىٰ: [**لِمَا صَبَرُوا**]: أي: لِأَجْلِ صَبْرِهِمْ.

أي: وَجَعَلْنَا مِنْ بَنِي إسْرَائِيلَ أَئِمَّةً يُقْتَدَىٰ بهِمْ، ويَهْدُونَ مَنْ يَسْتَجِيبُ لَهُمْ بالْبَيَانَاتِ الرَّبَّانِيَّة الَّتِي تَشْتَمِلُ عَلَىٰ أَمْرِ اللهِ بِالْفِعْلِ أَوْ بالتَّرْكِ، وَقَدْ جَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً حِينَمَا صَبَرُوا ولِأَجْلِ أَنَّهُمْ صَبَرُوا عَلَىٰ فِعْلِ مَا أَمَرَ اللهُ بِفِعْلِهِ، وَتَرْكِ مَا نَهَىٰ اللهُ عَنْ فِعْلِهِ، وَصَبَرُوا في مَجَالِ دَعْوَتِهِم إلَىٰ اللهِ، وأَمْرِهِمْ بالمعروفِ ونَهْيِهِمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، ونُصْحِهِمْ وَإرْشَادِهِمْ، وَلِأَجْلِ أَنَّهُمْ كَانُوا بآيَاتِنَا فِي كِتَابِ التوراةِ يُوقِنُون.

الْيَقِينُ: الْعِلْمُ الَّذِي لَا يُخَالِطُهُ وَلَا يُدَاخِلُهُ شَكٌّ.

وَفِي هٰذَا إطْمَاعٌ لِلّذِينَ يُؤْمِنُون بِرِسَالَةِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَيُوقِنُونَ بآيَاتِ اللهِ فِي الْقُرْآنِ؛ أَنَّهُمْ إذَا بَلَغُوا مُسْتَوَىً يَسْتَحِقُّونَ بِهِ أَنْ يَكُونوا أَئِمَّةً يَهْدُونَ بأمْرِ اللهِ؛ فَإنَّ اللهَ يَجْعَلُ مِنْهُمْ أئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِهِ في الإسْلَامِ والْمُسْلِمِين.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الخامس من دُرُوس سورة (السجدة).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

❁ ❁ ❁

(١٠)

التدبُّر التحليلي للدّرس السّادس من دُروس سورة (السّجدة) الآيات من (٢٥ ـ ٣٠) آخر السورة

قال الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾:

تَمْهيد:

في آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ معالجة للكافِرينَ بالإنْذارِ والترهيب، وبالإقناع، وفيها بَيَانُ سُؤَالِهِمْ عَنْ زَمَنِ نَصْرِ الرَّسُولِ ـ ﷺ ـ والمؤمِنِينَ عَلَيْهم، مَعَ مُعَالَجَتِهِمْ بالتَّرْهِيب.

وفِيهَا تَوصِيَةٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ؛ بِأَنْ يُعْرِضَ عَنِ المكَذِّبِينَ الْمُعانِدِينَ، وبِأَنْ يَنْتَظِرَ وَلَا يَسْتَعْجِلَ طَلَبَ الانْتِصَارِ عليهم.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُنْذِرُ الْكَافِرِينَ بِمَا سَيُلَاقونَهُ يَوْمَ القيامَة، ويُخَاطِبُ بِهِ كُلَّ صَالِحٍ لِلْخِطَاب بأسْلُوبِ الْخِطَابِ الإفرادي:

● ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾:

● ﴿يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾: أَصْلُ «الْفَصْلِ»: الْفَرْقُ والتَّمْييزُ بَيْنَ شَيْئَيْنِ أَوْ أَشْيَاءَ، ولمَّا كَانَ قَضَاءُ الْحَاكِمِ بَيْنَ خَصْمَيْنِ يَعْتَمِدُ عَلَىٰ الْفَصْلِ بَيْنَهُمَا سُمِّيَ حُكْمُهُ وَقَضَاؤُهُ فَصْلاً.

فَمَعْنَىٰ: ﴿يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾: يَقْضِي بَيْنَهُمْ وَيُبْرِمُ قَضَاءَهُ وَيَبُتُّهُ، مُبَيِّناً حُكْمَهُ عَلَىٰ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِمُقْتَضَىٰ عَدْلِهِ وَفَضْلِهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

• ﴿... فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾: أي: فيما كَانُوا في الحياة الدُّنْيَا حَيَاةِ الامْتِحَانِ يَخْتَلِفُونَ فِيهِ، مِنْ حَقٍّ وباطِلٍ، وخَيْرٍ وشَرٍّ، وَطَاعَةٍ للهِ ومَعْصِيَةٍ لَهُ، وأفْعَالٍ حَسَنَةٍ وأفْعَالٍ قَبِيحَةٍ سَيِّئَةٍ.

ويَلْزَمُ مِنْ فَصْلِ اللهِ قَضَاءَهُ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ عَنِ المَطْلُوبِ الرَّبَّانِيِّ مِنْهُمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ؛ أَنْ يُنَفِّذَ بِحِكْمَتِهِ جَزَاءَهُ، فَهُوَ يُجَازِي كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِحَسَبِهِ عَلَىٰ وَفْقِ دَرَكَاتِهِمُ الَّتِي كانوا عَلَيْهَا.

كما يَجْزِي كلَّ واحِدٍ مِنَ المؤمِنِينَ المتَّقِينَ بِحَسَبِهِ، عَلَىٰ وَفْقِ دَرَجَاتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا.

أي: إنَّ رَبَّكَ يا أَيُّهَا المتَلَقِّي الصَّالِحُ لِلْخِطَابِ؛ هُوَ وَحْدَهُ الَّذِي يَفْصِلُ قَضَاءَهُ بَيْنَ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَةِ الْحَقِّ، وَكَذَّبُوا رَسُولِي، وَكَذَّبُوا بِالْقُرْآنِ؛ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَعْدَ الْبَعْثِ، فِي كُلِّ مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ عَنْ مَطْلُوبِي مِنْهُمْ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الحياةِ الدُّنيا، وبَعْدَ فَصْلِ قَضَائِي فِيهِمْ، أَجْزِي كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِحَسَبِهِ، عَلَىٰ وَفْقِ الدَّرَكَةِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا وَمَاتَ عَلَيْهَا فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ في الحياة الدُّنيا.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً عِلَاجَ الكَفَرَةِ المكَذِّبين:

• ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾:

• ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾: أيْ: أَوَ لَمْ يُبَيِّنْ لهم، يُقَالُ لغة: «**هَدَيْتَ لَهُ**» أي: بَيَّنْتَ لَهُ.

«الواو» تَعْطِفُ عَلَىٰ مَحْذُوفٍ، أي: أَمَا زَالُوا جاهِلِينَ بِسُنَّةِ اللهِ فِي عِبَادِهِ، وَلَمْ يُبَيِّنِ اللهُ لَهُمْ أَنَّ كَثِيراً مِنَ الْقُرُونِ الماضِيَةِ أَهْلَكَهُمْ رَبُّهُمْ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ رُسُلَ رَبِّهِمْ، فَهُمُ الآنَ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ كَأَرْضِ ثَمُودَ، وأَرْضِ قوم لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَام، وأَرْضِ قَوْمِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَام، حِينَ يُسَافِرُونَ إِلَىٰ الشَّامِ أَو إِلَىٰ مصر.

إِنَّ في مَوَاطِنِ الْمُهْلَكِينَ السَّابِقِينَ وَبَقَاءِ بَعْضِ آثارِهِمْ فِيهَا لَآيَاتٍ دَالَّاتٍ عَلَىٰ سُنَّةِ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ فِي إِهْلَاكِ الكافِرِينَ المكَذِّبِينَ، الَّذِينَ أَصَرُّوا عَلَىٰ كُفْرِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ عِنَاداً واتِّبَاعاً لِأَهْوَاءِ نُفُوسِهِمْ وشَهَوَاتِها.

الْقَرْنُ مِنَ النَّاس: أَهْلُ زَمَانٍ واحِدٍ، وسُمُّوا في اللُّغَةِ قَرْناً لِأَنَّهُمُ اقْتَرَنُوا مَعاً فِي ذَٰلِكَ الزَّمَانِ.

• ﴿... أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾: «الفاء» تَعْطِفُ عَلَىٰ مَحْذُوفٍ مَطْوِي، أي: أَهُمْ صُمٌّ فَلَا يَسْمَعُونَ أَخْبَارَ الْمُهْلَكِينَ السَّابِقِينَ، وأَنَّ اللهَ أَهْلَكَهُمْ بِسَبَبِ عِنَادِهِم، وإِصْرَارِهم على الكُفْرِ بِوحْدَانِيَّةِ اللهِ في رُبُوبِيَّتِهِ وإِلَهِيَّتِهِ، وتَكْذِيبِهِمْ رُسُلَ رَبِّهِمْ إِلَيْهِمْ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً عِلَاجَ الْكَفَرَةِ المكَذِّبِينَ مُتَحَدِّثاً بِضَمِيرِ المتكَلِّمِ الْعَظِيم:

• ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾:

• ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾: أي: إِلَىٰ الأَرْضِ الَّتِي اسْتُؤْصِلَ مَا عَلَيْهَا مِنْ نَبَاتٍ وشَجَرٍ فَصَارَتْ جَرْدَاءَ.

الْمَعْنَىٰ: أعَمُوا أَوْ هُمْ غَافِلُونَ، وَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ بِسَوْقِ السُّحُبِ وإِنْزَالِ الأَمْطَارِ مِنْها، أَوْ بِسَوْقِ مِيَاهِ الأَنْهَارِ والجَداوِلِ والْعُيُونِ، إِلَىٰ الأَرْضِ الجرْدَاءِ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا نَبَاتٌ وَلَا أَشْجَارٌ، فَنُخْرِجُ بالْمَاءِ الَّذِي

جَعَلْنَاهُ سَبَباً لِنَبَاتِ الزَّرْعِ زَرعاً مُخْتَلِفَ الْأَنْوَاعِ وَالْأَصْنَافِ، وهـٰذَا الزَّرْعُ الَّذِي نُنْبِتُهُ تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَسَائِرُ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي تَأْكُلُ مِنْ نَبَاتِ الْأَرْضِ، ويَأْكُلُونَ مِنْهُ هُمْ أَنْفُسُهُمْ وَسَائِرُ النَّاسِ.

• ﴿... أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾؟؟!: أي: أنْطَمَسَتْ أبصارُهُم، فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ هَـٰذِهِ الظَّوَاهِرَ مِنْ آيَاتِنَا الْعَظِيمَةِ فِي كَوْنِنَا الَّذِي هُوَ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِنَا، وَكُلُّ حَدَثٍ فِيهِ هُوَ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِنَا، وَلَوْ أَنَّهُمْ تَفَكَّرُوا فيما تَدُلُّ عَلَيْهِ آيَاتُنَا فِي كَوْنِنَا، وَأَرَادُوا الإيمَانَ بالْحَقِّ وَنَجَاةَ أَنْفُسِهِمْ مِنْ عَذَابِنَا، لَآمَنُوا بِرُبُوبِيَّتِنَا الَّتِي لَا شَرِيكَ لَنَا فيها، وبإلَهِيَّتِنَا الَّتِي لَا شَرِيكَ لَنَا فِيها، وَلَآمَنُوا بِرَسُولِنَا، وبالْقُرْآنِ الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْهِ، ولاجْتَهَدُوا في طاعَتِنَا بِفِعْلِ مَا أَمَرْنَاهُمْ بِهِ، وَتَرْكِ مَا نَهَيْنَاهُمْ عَنْهُ، على مِقْدَارِ مَا يَسْتَطِيعُونَ، أَوْ يتَيَسَّرُ لَهُمْ مِمَّا يُعَبِّرُونَ بِهِ عَنْ صِدْقِ إيمانهم.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً عِلَاجَ الكَفَرَةِ المكَذِّبين:

• ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَـٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾﴾:

• ﴿ٱلْفَتْحُ﴾: يُرَادُ بِهِ هُنَا نَصْرُ الرَّسُولِ ﷺ والمؤمِنينَ على الكَفَرَةِ الْمُكَذِّبِين.

لَقَدْ فَهِمَ الكَفَرَةُ المكَذِّبُونَ، مِنْ طَائِفَةٍ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ فِي نُجُومِ التَّنْزِيلِ؛ أَنَّ اللهَ سَيَنْصُرُ رَسُولَهُ ﷺ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه مِنْ أَصْحَابِهِ عَلَيْهِم، وهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ المشْرِكِينَ هُمُ الْجَمَاعَةُ الْأَقْوَىٰ عُدَّةً وَعَدَداً، فَصَارُوا يُكَرِّرُونَ عَلَىٰ جَمَاعَاتِ الْمُؤْمِنِينَ سَاخِرِينَ ومُسْتَهْزِئين قولَهُمْ: متَىٰ يَكُونُ هـٰذَا النَّصْرُ لَكُمْ عَلَيْنَا، وَأَنْتُمْ لَا تَمْلِكُونَ مِنْ وَسَائِلِهِ عُدَّةً وَلَا عَدَداً، بَلْ نَحْنُ مَالِكُو هَـٰذِهِ الوسَائِلِ، وَلَوْ نَهَضْنَا لِحَرْبِكُمْ فإنَّنَا نَسْتَأْصِلُكُمْ.

وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْحِكْمَةِ الإشارَةُ إِلى تَحْدِيدِ زَمَنٍ يَتَحَقَّقُ فِيهِ نَصْرُ

الرَّسُولِ ﷺ والمؤمنِينَ عَلَيْهِمْ، حَتَّىٰ يَكُونَ يَوْمُ النَّصْرِ مُفَاجَأَةً غَيْرَ مُنْتَظَرَةٍ.

فَعَلَّمَ اللهُ رَسُولَهُ ﷺ وَكُلَّ مُؤْمِنٍ بأسْلُوب الْخِطَاب الإفرادِيِّ أَنْ يَقُولَ لَهم:

• ﴿... يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَـٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾﴾:

أي: إِنَّ يَوْمَ الْفَتحِ الَّذي قَضَىٰ اللهُ أَنْ يَنْصُرَنا فِيهِ عليكُمْ؛ سَتَجِدُونَ فِيهِ أنفُسَكُمْ تَحتَ سُلْطَانِ عِقَابِ اللهِ، وَمَنْ يَخْطُرُ لَهُ أَنْ يُنْقِذَ نَفْسَهُ يَوْمَئِذٍ بالإيمان فإنَّ الإيمَانَ يَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُهُ، فَلَا يَرْفَعُ عَنْهُ عُقُوبَةَ اللهِ، وَمَنْ يَدْعُو مِنْكُمْ رَبَّهُ أنْ يُمْهِلَهُ لِيُؤْمِنَ ويُسْلِمَ ويَعْمَلَ صَالِحاً؛ فَإِنَّ اللهَ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ، إذ انْتَهَتْ مُدَّةُ الامْتِحَانِ وَجَاءَتْ مُدَّةُ الْجَزاء.

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ ﷺ وَكُلَّ مُؤْمِنٍ مِنْ أَصْحَابِهِ بِأُسْلُوبِ الْخِطَابِ الْإِفْرَادِي؛ التَّصَرُّفَ الْحَكِيمَ فِي هَـٰذِهِ الْمَرْحَلَةِ الَّتِي وَصَلَ إِلَيْهَا الكَفَرَةُ الْمُكَذِّبُونَ، وعِنْدَ هـٰذَا الموقِفِ الَّذِي صَارُوا يُكَرِّرُونَ فِيهِ سُؤالَهُمْ عَنْ زَمَنِ نَصْرِ الرَّسُولِ ﷺ والمؤمِنِينَ الْمُسْلِمينَ عَلَيْهِم:

• ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾:

• ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾: **الإعْرَاضُ**: وسَطٌ بَيْنَ الإقْبَالِ والإدْبار، أي: أَشْعِرْهُمْ بِأَنَّكَ غَيْرُ مُهْتَمٍّ لَهُمْ، وَغَيْرُ مُلْتَفِتٍ إِلَيْهِمْ، وَلَا تُجادِلْهُمْ، حَتَّىٰ لَا تَسْتَثِيرَهُمْ فَيُعِدُّوا الْعُدَّةَ لِمُحَارَبَتِكَ ومُحَارَبَةِ أَصْحَابِك.

• ﴿وَٱنتَظِرْ﴾: أي: وانْتَظِرِ الْيَوْمَ الَّذِي نُحَقِّقُ فِيهِ نَصْرَكَ وَنَصْرَ أَصْحَابِكَ عَلَيْهِمْ، مُوقِناً بِأَنَّ يَوْمَ نَصْرِكُمْ قَادِمٌ لَا مَحَالَةَ.

• ﴿... إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾: أي: وَسَنُثَبِّطُهُمْ عَنْ أَنْ يَتَحَرَّكُوا لِقِتَالِكُمْ، وَأَنْتُمْ لَا تَمْلِكُونَ قُوَّةً تُقَاوِمُونَهُمْ بِها، ونَجْعَلُهُمْ يَنْتَظِرُونَ الْفُرَصَ الْمُلَائِمَة للتَّخَلُّصِ مِنْكُمْ، فِي حِينِ أَنَّهُمْ يَنْتَظِرُونَ فِي الْوَاقِعِ عِقَابَنَا لَهُمْ بِنَصْرِكُمْ عَلَيْهِمْ، وَقَتْلِ صَنَادِيدِهِمْ وَجَبابِرَتِهِمْ.

وقد حَصَلَ هٰذَا في مَعْرَكَةِ بَدْرٍ بِتَأْييدِ اللهِ وَنَصْرِهِ الْمُبِين.

وبهٰذَا انتهىٰ تَدَبُّر الدّرس السّادِس وهو الدرس الأخير مِنْ سورة (السَّجدَة).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(١٠)
ملحق: مستخرجات بلاغيّة مِن سورة (السجدة)

مِنَ الاختيارات البلاغيَّة في هٰذِهِ السورة ما يلي:

أولاً: من التوكيدِ لِوُجُودِ دَاعٍ بَلَاغِيّ له، قول الله تعالىٰ:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾:

«مِنْ» في: ﴿مِن وَلِىٍّ﴾ حَرْفُ جَرٍّ زَائِدٍ جِيءَ بِهِ لتَوْكِيدِ اسْتِغْرَاقِ النَّفْي في: ﴿مَّا لَكُم﴾ والتَّنْصِيصِ عَلَيْهِ.

والدَّاعِي البلاغيّ أَنَّ المعْنِيِّينَ بالْخِطَابِ مُشْرِكُون.

ثانياً: من خروج الاستِفْهَام عَنْ أَصْلِ دَلَالَتِهِ في الوضْعِ اللُّغَوِيّ:

مَا جاء في قول اللهِ تَعَالَىٰ حكايَة لِقَوْلِ مُنْكِري الْبَعْث:

﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾﴾:

الاسْتِفْهَام في: ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ تَعَجُّبِيٌّ اسْتِغْرَابِيٌّ يرادُ بِهِ النَّفْيُ والإنْكار.

أي: لا يُمْكِنُ أنْ نُخْلَقَ خَلْقاً جَدِيداً بَعْدَ فَنَاءِ أَجْسَادِنا، وهم في هٰذَا مُكَابرونَ لا يحتَجُّونَ إِلَّا بالاستغراب.

ثالثاً: من الإيجاز بالحذف عِدَّةُ أَمْثِلَةٍ في السورة:

المثال الأول:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿... مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤﴾:

في عبارة: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ إيجازٌ بالحذف، فالْفَاء فَصِيحَةٌ تَعْطِفُ عَلَىٰ مَحْذُوف، أي: أَحُرِمْتُمْ مِنَ الإدْرَاكِ السَّوِيّ، والْفَهْمِ الصَّحِيحِ النَّافِعِ المؤثِّرِ في الاعْتِقَادِ وَتَوْجِيهِ السُّلُوك الإرَادِي، فَلَا تَضَعُونَ هَـٰذِهِ الحقائِقَ فِي ذَاكِرَاتِكُمْ، ثُمَّ تَتَذَكَّرُونَهَا عِنْدَ المناسَبَاتِ الداعِيَاتِ، وَتَعْمَلُونَ بِمَا تَدْعُوكُمْ إِلَيْه.

المثال الثاني:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ۝١٠﴾:

«بل» من عبارة: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾ تَدُلُّ عَلَىٰ محذوفٍ مَطْوِيّ، أي: لَيْسُوا يَرَوْنَ أَنَّ الْبَعْثَ مُسْتَحِيلٌ عَقْلاً، فَقَدْ سَبَقَ أَنْ أَقْنَعْنَاهُمْ بالْحَقِّ، بَلْ هُمْ لا يُرِيدُونَ أَنْ يَلْقَوْا رَبَّهُمْ لِيُحَاسِبَهُمْ وَيُجَازِيَهُمْ، فَهُمْ يَسْتُرُونَ بَرَاهِينَ الجزاء، ويَكْفُرُونَ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ.

المثال الثالث:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ... ﴿١١﴾﴾:

أي: يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الموت الذي وُكِّل بِفَصْلِ أَرْواحِكُمْ عَنْ نُفُوسِكُمْ عِنْدَ انْتِهَاءِ آجَالِكُمْ في الحياة الدُّنْيا.

المثال الرابع:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ ... ﴿١٢﴾﴾:

جواب «لَو» محذوف، من السَّهْل عَلَىٰ المتدبّر تقديره: أي: لَتَرَيَنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي حَالَةِ مَهَانَةٍ وَذِلَّةٍ وَذُعْرٍ شَدِيدٍ يُثِيرُ مَشَاعِرَ الْحَسْرَةِ عَلَيْهِم.

المثال الخامس:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾:

أي: وَلَوْ شِئْنَا لَسَلَبْنَا كُلَّ نَفْسٍ ذَاتِ إِرَادَةٍ حُرَّةٍ إِرَادَتَهَا الْحُرَّةَ، فَجَعَلْنَاهَا مَخْلُوقاً مَجْبُوراً، وحِينَئِذٍ نَخْتَارُ أَنْ نُؤْتِي كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا بالجبر، كَمَا خَلَقْنَا الْمَلَائِكَة مَجْبُورِينَ عَلَىٰ أنْ يَكُونُوا مَهْدِيّينَ، لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ ويَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُون.

المثال السادس:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾:

أي: إِنَّمَا يُؤْمِنُ بآيَاتِنَا إيماناً مُتفَوِّقاً مِنْ مُسْتَوىٰ الأَبْرَارِ أو الْمُحْسِنِينَ الّذينَ. . . .

المثال السابع:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾﴾:

أي: كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً مِنْ دَرَكَةِ الكُفْر.

المثال الثامن:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾:

أي: وَمَنْ أظْلَمُ مِمَّنْ سَبَقَ أَنْ تَبَلَّغَ آياتِ رَبِّهِ، وَتَفَهَّمَهَا وآمَنَ بِهَا، وَبَعْدَ ذَلِكَ ضَعُفَ ارْتِبَاطُهُ بها، وذُكِّرَ بها آناً فآناً مِنْ قِبَلِ المذَكِّرين، ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا اتِّبَاعاً لِأَهْوَائِهِ وَشَهَوَاتِهِ، فَصَارَ بإعراضِهِ مُجْرِماً.

المثال التاسع:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ الكَفَرَةِ المعانِدِين:

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾:

«الفاء» في عبارة: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ تَعْطِفُ عَلى مَحْذُوف مَطْوِيّ، تقديره: أَهُمْ صُمٌّ فَلَا يَسْمَعُونَ أَخْبَارَ الْمُهْلَكِينَ السَّابِقِين.

المثال العاشر:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بشَأْنِ الكَفَرَةِ المعانِدِينَ أَيْضاً:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَـٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾:

«الواو» في عبارة: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ تَعْطِفُ عَلَىٰ مَحْذُوف، تقديره: أَعَمُوا أَوْ هُمْ غَافِلُونَ وَلَمْ يَرَوا.

و«الفاء» في عبارة: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ تَعْطِفُ على محذوفٍ أيضاً، تقديره: أَنْطَمَسَتْ أَبْصَارُهُمْ فَهُم لَا يُبْصِرُون.

وبِهٰذَا أَكْتَفِي اسْتِخْرَاجاً لِلْبَلَاغِيَّاتِ المختارَاتِ في السُّورة.

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



سُورَة الطور

٥٢ مصحف ٧٦ نزول

وهي كُلُّها سورة مكيَّةٌ بلا خلاف



(١)

نص السورة وما فيها من فرش القراءات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ

---

١٨ ـ • قرأ أبو جعفر: [فَكِهِينَ].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [فَاكِهِينَ].

الْفَكِهُ، والفاكِهُ: يَدُلَّانِ على معنى واحد. وهو الناعم الْفَرِحُ الْمَسْرُور.

عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ

٢١ ـ • قرأ أَبُو عَمْرو: [وَأَتْبَعْنَاهُمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ].
وقرَأهَا ابْنُ عَامر، ويعقوب: [واتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّاتُهُمْ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [واتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ].
وفي هذه القراءات تكامُلٌ في أداء المعنى المراد.

٢١ ـ • قرأ نافع، وأبو عَمْرو، وابْنُ عَامر، وأبو جعفر، ويعقوب: [أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ] بالجمع.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ] بالإفراد.
ومؤدّى القراءتَيْنِ واحد.

٢١ ـ • قرأ ابْنُ كثير ـ بِخُلْف عن قنبل ـ: [أَلِتْنَاهُمْ] بكَسْر اللام. وقرأها قنبل بوجهه الثاني: [وَمَالِتْنَاهُم].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [أَلَتْنَاهُمْ] بفَتْح اللام.
ويظهر أَنَّ فتح اللام وكَسْرَها لغتان.
والمعنى: نَقَصْنَاهُمْ.

٢٣ ـ • قرأ ابْنُ كَثِير، وأبو عمْرو، ويَعْقوب: [لَا لَغْوَ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمَ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ].

٢٨ ـ • قرأ نَافع، والكِسَائِي، وأبو جعفر: [نَدْعُوهُ أَنَّه] بفَتْح همزة «أنّ»، أي: لأنَّهُ.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [نَدْعُوهُ إِنَّهُ] بِكَسْرِ همزة «إنَّ»، على الاستئناف.
وبين القراءتين تكامُلٌ في أداء المعنى المراد.

بِكَاهِنٍ وَلَا مَجۡنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ
﴿٣٠﴾ قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ
أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآۚ أَمۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا
يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمۡ
خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمۡ هُمُ
ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمۡ لَهُمۡ سُلَّمٞ يَسۡتَمِعُونَ فِيهِۖ فَلۡيَأۡتِ مُسۡتَمِعُهُم
بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمۡ لَهُ ٱلۡبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ
أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ
﴿٤١﴾ أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمۡ لَهُمۡ
إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ ﴿٤٤﴾ فَذَرۡهُمۡ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ

٣٢ ـ • قرأ أبو عَمرو: [**أَمْ تَأْمُرْهُمْ**]. بخُلْفٍ عن الدُّورِي، والوجْهُ الثاني للدُّوريّ اخْتِلَاسُ ضَمَّةِ الراء.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**أَمْ تَأْمُرُهُمْ**].
وكلُّ قارئ على أَصْلِهِ مِن الإبْدَالِ وعَدَمِهِ.

٣٧ ـ • قرأ هِشَام: [**المسَيْطِرُونَ**]. ولخلَف عن حمزة بإشْمَام الصَّادِ صوت الزاي. ولقنبل، وابن ذكوان، وحفص: بالسين والصاد. ولخلّاد: بالإشمام والصَّاد.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**المصَيْطِرُونَ**] بالصاد الخالصة.

٤٥ ـ • قرأ أبو جَعْفَر: [**يَلْقَوا**]. وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**يُلَاقُوا**].
ومؤدّى القراءتَيْنِ واحد.

ٱلَّذِى فِيهِ يُصۡعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوۡمَ لَا يُغۡنِى عَنۡهُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾

٤٥ ـ • قرأ ابْنُ عَامِرٍ، وَعَاصِم: [يُصْعَقُونَ] بالمبني لما لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُه.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [يَصْعَقُونَ].
أي: يُصْعَقُونَ، فَهُمْ يَصْعَقُونَ.

(٢)
ممّا وَرَد في السُّنَّةِ بِشَأنِ سورة (الطور)

(١) رَوَىٰ البخاري ومُسْلِمٌ وغَيْرُهُمَا عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ الله عَنْه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقْرأ في المغْرِب بالطُّور.

(٢) وروى البخاريُّ وغَيْرُهُ عَنْ أمِّ سَلَمَة رَضِيَ الله عَنْهَا: «أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُصَلِّي إِلَىٰ جَنْبِ الْبَيْتِ بالطُّورِ وكِتَابٍ مَسْطُورٍ».

أي: يَقْرَأ بِسورَة «الطُّورِ وكِتَابٍ مَسْطُور».

(٣)
موضوع سورة (الطُّور)

يَدُور موضوع سورة (الطور) حَوْلَ مُعَالَجَةِ المكذِّبينَ بِيَوْم الدِّين، والمكذّبين بِرِسَالَةِ الرَّسُولِ محمَّد ﷺ وبِالْقُرآن، ومُعَالَجَةِ جَاحِدِي الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُه، ومُدَّعِي أَكَاذِيبَ اعتقادِيَّة تُنَاقِضُ مَا يَجِبُ أَنْ يُؤْمِنُوا به، وَمُعَالَجَةِ مُرِيدِي تَدْبير الكَيْدِ للتَّخلُّصِ من الرَّسُولِ ﷺ ومن الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبعُوه، ومُعَالَجَةِ المشْرِكينَ بالإنْذَارِ بالإهْلَاك.

وفي خِتام السُّورَةِ تَوْصِيَةٌ مِن اللهِ عَزَّ وَجلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ؛ بالتَّصَرُّفِ الحكيم الّذِي يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتصَرَّفَهُ مع الكَفَرَةِ الْمُجْرِمِينَ المعانِدِين، فِي مُوَاجَهَةِ المواقِفِ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا إِبَّانَ تَنْزِيلِ السُّورَةِ وقَبْلَهَا، وَهُو تَرْكُهُمْ يُمْعِنُونَ فِي كُفْرِيّاتِهِمْ، والاشْتَغَالُ بِغَيْرِهِمْ مِنَ الَّذِينَ لم يَبْلُغُوا دَرَكَةَ الميْؤُوسِ مِنِ اسْتِجَابَتِهِمْ عَنْ طَرِيقِ إرَادَاتِهِمُ الْحُرَّة.

(٤)
دروس سورة (الطّور)

ظهر لي أَنَّ هَـٰذِهِ السورة يمكن تقسيمُهَا إِلَىٰ ثَلَاثَةِ دُروس:

الدرس الأول: الآيات من (١ ـ ٢٨).

وفي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ تَوْكِيدُ تَحْقِيقِ البعْثِ والقيامَةِ ويَوْم الدِّين، مَعَ تَقْدِيمِ بَعْضِ مَشَاهِدَ من يَوْمِ الدِّينِ للكافرِينِ، وبعْضِ مَشَاهِدَ لِلْمُتَّقِين.

الدرس الثاني: الآيات من (٢٩ ـ ٤٤).

وفي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ تَوْجيه الرَّسُول ﷺ لِأَنْ يُتَابعَ تَذْكِيرَهُ مَنْ لَمْ يَصِلُوا إلى دَرَكَةِ مَيْؤُوسٍ مَعَها مِنِ اسْتِجَابَتِهِمْ عن طَرِيق إرَادَاتِهِمُ الحرّة، مَعَ معالَجَةِ الْكَافِرِينَ بِشَأْنِ عِدَّةِ قَضَايَا.

الدرس الثالث: الآيات من (٤٥ ـ ٤٩) آخر السورة.

وفي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ تَوْصِيَةُ الرَّسُولِ ﷺ بما يَنْبَغِي أَنْ يَتَصرَّفَهُ؛ تُجاهَ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ وَصَلُوا إِلَىٰ دَرَكَةِ مَيْؤُوسٍ مَعَهَا مِنِ اسْتِجَابَتِهِمْ عَنْ طَرِيقِ إرَادَاتِهِمُ الحرَّة، مَع بَيَانِ الدَّواء الديني الَّذِي عَلَيْهِ ﷺ أَنْ يُدَاوِيَ نَفْسَهُ بِهِ.

❊ ❊ ❊

(٥)
التدبُّر التحليلي للدَّرس الأول من دُروس سورة (الطور)
الآيات من (١ ـ ٢٨)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ۚ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾:

القراءات:

(١٨) • قرأ أبو جَعْفَر: **[فَكِهِينَ]**.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[فَاكِهِين]**.

الْفَكِهُ، والفَاكِهُ: يَدُلَّانِ عَلَى مَعْنَىً واحِدٍ، وهو النَّاعم الْفَرِحُ المسْرُور.

(٢١) • قرأ أبو عمْرو: [وَأَتْبَعْنَاهُمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ].

وقرأها ابْن عامر، ويعقوب: [وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّاتُهُمْ].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [واتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ] بالإفراد.

(٢١) • قرأ نافع، وأبو عمْرو، وابْنُ عَامِر، وأبو جَعْفر، ويَعْقُوب: [أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ] بالْجَمع.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ] بالإفراد.

ومؤدَّى القراءتَيْنِ واحد.

(٢١) • قرأ ابْنُ كَثِير ـ بخُلْف عن قنبل ـ: [أَلِتْنَاهُمْ] بِكَسْرِ اللَّام. وقرأها قنبل بوجْههِ الثّاني: [وَمَالِتْنَاهُمْ].

وقرأهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [أَلَتْنَاهُم] بفتح اللام.

ويظهر أَنَّ كَسْرَ اللَّام لغة، ومعناهُما واحد.

(٢٣) • قرأ ابْن كثير، وأبو عمْرو، ويعقوب: [لَا لَغْوَ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمَ].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [لَا لَغْوٌ فيها وَلَا تَأْثِيمٌ].

وهما وَجْهَانِ عَربيانِ جائِزَانِ عند النحاة.

(٢٨) • قرأ نافع، والكِسَائي، وأَبُو جَعْفر: [نَدْعُوهُ أَنَّهُ] بفتح همزة «أنَّ»، أي: لأنَّهُ.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [نَدْعُوهُ إِنَّهُ] بِكَسْرِ همزة «إنَّ»، على الاسْتِئْنَاف.

وبَيْنَ القراءتَيْنِ تكَامُلٌ في أَدَاءِ المعْنَىٰ المراد.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ تَوْكِيدُ تَحْقِيق الْبَعْثِ والقيامَةِ ويَوْمِ الدين، مع تقديم بَعْضِ مَشَاهِدَ مِنْ يَوْمِ الدّينِ للكافِرين، وبعضِ مَشاهِدَ للمتّقِين.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝٥ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠﴾:

(١) أقْسَمَ رَبُّنَا ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ بالطُّورِ الّذي كَلَّمْ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِجَانِبِهِ، تَعْظِيماً لِشَأْنِهِ، إِذِ اخْتَارَ بِحِكْمَتِهِ أَنْ يَجْعَلَهُ أَحَدَ الْأَمْكِنَةِ الْعُظْمَىٰ لِوَحْيِهِ لِرَسُولِهِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام، وسَبَقَ أَنْ أقْسَمَ بِهِ فِي سُورَةِ (التّين/ ٢٨ نزول) مع ثَلَاثَةٍ مِنْ مَهَابِطِ الْوَحْي، هي: بِلَادُ التِّينِ، وبِلَادُ الزَّيتونِ، والبلَدُ الأَمِينُ (مَكَّةُ المكرَّمة).

وجبل الطور يُسَمَّىٰ عند الإسْرائيلِيِّين جبل «سِيناء»، ويُطْلَقُ عَلَيْهِ اسْم «جَبَلِ حُوريب»، ويرَىٰ بَعْض الباحثين أَنَّهُ المعروف الآن بجبلِ مُوسَىٰ. وهـٰذَا الجبل يُوصَفُ بأَنَّهُ عظيم الارتفاع، ومن غَيْرِ الممْكِنِ تَسَلُّقُهُ، لأَنَّهُ حَادُّ الصخور، وشَدِيد الانْحِدَارِ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يُطِيلَ النَّظَرَ إِلَيْهِ دُونَ أَنْ تُؤْلِمَهُ عَيْنَاهُ لِأَنَّهُ شَدِيد التوهُّجِ الضَّوْئي[١].

(٢) وأَقْسَمَ رَبُّنَا ـ فيما أَرَىٰ ـ بالتوراة، تَحْتَ عُنْوان: ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣﴾ أي: في كِتَابٍ مَكْتُوبٍ أَسْطُراً، **فالسَّطْرُ**: الصَّفّ مِنْ كُلِّ شيءٍ.

---

(١) انظر: «قاموس الكتاب المقدس»، عند مادّةِ «سيناء».

• ﴿فِي رَقٍّ﴾: **الرَّقُ**: جِلْدٌ رَقِيق يُكْتَبُ عَلَيْهِ، وكان يُخْتَار غالِباً مِنَ الْجُلُودِ لِلْكِتَابَةِ عَلَيْهَا، وخَاصَّةً جُلُودُ الْغِزْلَان، لِرِقَّتِهَا وَبَيَاضِهَا.

• ﴿مَّنشُورٍ﴾: أَيْ: مَبْسُوطٍ غَيْرِ مَطْوِيٍّ بِلَفِّ بَعْضِهِ عَلَىٰ بَعْضٍ لَفّاً دائِرِيًّا، أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ.

وذِكْرُ عِبَارَةِ: ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣﴾ بَعْدَ الْقَسَمِ بالطُّورِ يُرَشِّحُ أَنْ يَكُونَ كِتَابَ التَّوْرَاةِ الَّذِي آتاهُ اللهُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام. وَوَصْفَهُ بأَنَّهُ مَسْطُورٌ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ غَيْرِ مَطْوِيٍّ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الْمُرَادَ الكِتَابُ الأَصْلِيُّ الَّذِي كَانَ قَبْلَ التَّحْرِيفاتِ الَّتِي أَدْخَلَهَا الْيَهُودُ، وأَنّهُ كانَ مَسْطُوراً فِي رَقٍّ، وَكَانَ مَنْشُوراً باسْتِطَاعَةِ كُلِّ قَارِئٍ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ وَيَقْرَأه، أَمَّا بَعْدَ أَنْ أَدْخَلَ الْيَهُودُ فِيهِ تَحْرِيفاتِهِمْ، فَصَارُوا يَكْتُبُونَ كِتَابَهُمْ في كُتُبٍ، وَكَانَ أَحْبَارُهُمْ هُمُ الْأَوْصِيَاءَ عَلَيْهَا، فَيُظْهِرُونَ مِنْهَا مَا يُرِيدُونَ إِظْهَارَهُ، لموافَقَتِهِ لِأَهْوَائِهِمْ، وَيُخْفُونَ مِنْهَا مَا يُرِيدُون إِخْفَاءَه، وَلَا يَجْعَلُونَهَا مَنْشُورَةً يَقْرَأُهَا كُلُّ قَادِرٍ عَلَىٰ الْقِرَاءَة، لِئَلَّا تُكْتَشَفَ تَحْرِيفَاتُهُمْ.

أقسَمَ رَبُّنَا بالتوراة كما أقسم بالقرآن المجيد، وبالقرآن ذِي الذِّكْرِ.

(٣) وأَقْسَمَ رَبُّنَا بالْبَيْتِ الْمَعْمُور، وهو بَيْتٌ فِي السَّمَاءِ السابِعَةِ يَدْخُلُهُ فِي كلِّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَعْبُدُونَ اللهَ بِزِيَارَتِهِ، وَلَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ حَتَّىٰ تَقُومَ السَّاعَةُ، وقَدْ صَحَّ هٰذَا عَنِ الرَّسُولِ ﷺ، فَلَا مَجَالَ لِلْعُدُولِ عَنْهُ.

• رَوَىٰ ابْنُ جَرِير، وابْنُ المنْذِرِ، والحاكِمُ وصحَّحَه، والْبَيْهَقِيُّ فِي شُعَبِ الإيمان، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رَسُول اللهِ ﷺ:

«الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ حَتَّىٰ تَقُومَ السَّاعَةُ».

• وَرَوَىٰ البخاريُّ ومُسْلِمٌ وغَيْرُهُمَا أَنَّ رَسُول اللهِ ﷺ قال في حَدِيث الإِسْرَاء، بَعْدَ مُجَاوَزَتِهِ إلى السَّمَاءِ السَّابِعة:

«... فَرُفِعَ لِي الْبَيْتَ الْمَعْمُور، فَسَأَلْتُ جِبريلَ فَقال: هٰذا الْبَيْت الْمَعْمور، يُصلّي فيه كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ إِذَا خَرَجوا لَمْ يَعُودوا إِلَيْهِ، آخِرَ مَا عَلَيْهِم...».

(٤) وأقْسَمَ رَبُّنَا بالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ، وهِي السَّمَاءُ، وقَدْ وَصَفَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ السَّمَاءَ بأَنَّهُ رَفعَهَا، ومِنْهَا قول اللهِ تَعَالَىٰ فِي سورة (الغاشية/ ٦٨ نزول):

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨﴾:

وقول اللهِ تَعَالَىٰ في سورة (الرَّحْمن/ ٩٧ نزول):

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧﴾.

وقول اللهِ تَعَالَىٰ في سورة (الرعد/ ٩٦ نزول):

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ... ۝٢﴾.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ السَّمَاءَ بِمَا فِيهَا مِنْ عَجَائِب، آيَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ آيَاتِ اللهِ في كَوْنِهِ، تَسْتَحِقُّ أَنْ يُقْسِمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا، لِمَا فِيها مِن دَلَالَاتٍ عَلَىٰ كثيرٍ مِنْ صِفَاتِهِ الْعُظْمَىٰ وأَسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ.

(٥) وَأَقْسَمَ رَبُّنَا بالْبَحْرِ الْمَسْجُور، أي: الْمُمْتَلِئِ مَاءً وَعَجَائِبَ مِنْ عَجَائِبِ الْخَلْقِ، وَهُوَ آيَةٌ مِنْ آياتِهِ فِي كَوْنِهِ تَسْتَحِقُّ أَنْ يُقْسِمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بها.

وَأَوَّلُ مَا يَدْخُلُ فِي دَلَالَةِ الْبَحْرِ الْمَسْجُورِ: بَحْرُ الأَرْضِ، لِأَنَّهُ آيَةٌ مَشْهُودَةٌ لِلنَّاسِ فيها، وَيَدْخُلُ فِي عُمُوم دَلَالَةِ الْبَحْرِ الْمَسْجُور: مَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ فِي السَّمَاوَاتِ مِنْ بَحْرٍ أَوْ بِحَارٍ مَمْلُوءَةٍ مَاءً وَعَجَائِبَ مِنْ عَجَائِبِ خَلْقِ اللهِ فيها.

أَمَّا الْمُقْسَمُ عليه بالطُّورِ، وبالتَّوْرَاةِ، وبالبيْتِ الْمَعْمُور، وبالسَّماءِ، وبالْبَحْرِ الْمَسْجُور: فَهُو قولُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾﴾:

أي: إِنَّ جَزَاءَ رَبِّكَ بالْعَذَابِ لِمُسْتَحِقِّي الْعَذَابِ لَأَمْرٌ سَيقَعُ لَا مَحَالَة.

واقْتَصَرَ النَّصُّ عَلَىٰ ذِكْرِ الجزاءِ بِالْعَذَابِ لِأَنَّ المعْنِيّينَ بالْخِطَابِ المؤكَّدِ بالأقْسَامِ العظْمَىٰ هُمُ الكَفَرَةُ المعانِدُونَ المكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدّين.

أَمَّا المؤمِنُونَ المصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ؛ فَهُمْ عَلَىٰ يَقِينٍ بأَنَّ جَزَاءَهُمْ بالنِّعِيمِ المقيمِ لَوَاقِعٌ حَتْماً، فَهُمْ لَا يَحْتَاجُونَ خبراً جَدِيداً، وَلَا تَوْكِيداً لِهَٰذَا الْخَبَرِ بالْأَقْسَام.

• ﴿مَا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾﴾: أي: لَا يُوجَدُ دَافِعٌ مَا يَدْفَعُهُ، لِأَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ يَوْمَئِذٍ للهِ، فَلَا أَحَدَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَدْفَعَ أَمْراً قَدَّرَهُ اللهُ وَقَضَاه، وَلَا أَحَدَ يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بإِذْنِهِ، جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

وَأَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَقْطَتَيْنِ مِنْ أَحْدَاثِ مُقَدِّمَاتِ يَوْم الدِّينِ، الَّذِي يُجازَىٰ فِيهِ الكَفَرَةُ المُكَذِّبُونَ بِعَذَابِ رَبِّهِمْ، رَبِّ الْعَالَمِين، فَقالَ تَعَالَىٰ:

• ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾﴾:

الْمَوْر: التحرُّكُ والتدافُعُ والاضطرابُ كالأمْوَاجِ فِي الْبَحْرِ الثَّائِرِ، أو كالْغَلَيَانِ الشَّدِيدِ في الْقِدْرِ العظيمَةِ، الَّتِي يُطْبَخُ فِيهَا الطَّعَامُ المقطَّعُ قِطعاً.

أي: يَوْمَ يَكُونُ مِنْ أَحْدَاثِهِ فِي بِدَايَاتِهِ، لِتَبْدِيلِ صِفَاتِ السَّمَاءِ غَيْرَ السَّمَاءِ، وتَبْدِيلِ صِفَاتِ الْأَرْضِ غَيْرَ الْأَرْض؛ أَنْ تَتَحَرَّكَ أَجْرَامُ السَّمَاءِ وَتَتَدَافَعَ وَتضطَّرِبَ وَتَجْرِي فِي غَيْرِ مَجَارِيها، وتَسِيرَ فِي غَيْرِ مَسِيرَاتِها، وهَٰذَا الْمَوْرُ يَكُونَ فيها شَدِيداً، وَأَنْ تَسِيرَ الجبالُ بِتَسْيِيرِ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ لَهَا، تَمْهِيداً لِبَثِّهَا وَتَفْتِيتِهَا، وَجَعْلِ الأرضِ مُسَطَّحاً مُسْتَوِياً مِنْ أَقْصَاهَا إلى أَقْصَاهَا.

▪ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مُتَابِعاً:

• ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾:

أي: فَعَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الدِّينِ لِلْمُكَذِّبين بالبعْثِ، والْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا فِيهِ مِنْ حِسَابٍ، وفَصْلِ قَضَاءٍ، وَجزَاءٍ، فِي جَنَّةٍ عَظِيمَةٍ لِلْمُؤْمِنِينَ المتقينَ المصدِّقينَ، وَفي نارٍ عظيمة لِلْكَافِرِينَ المجرمين المكَذِّبين، الَّذِينَ جَحَدُوا رُسُلَ رَبِّهِمْ عَلَيْهِم السَّلام وكَذَّبُوهُمْ فِيمَا بَلَّغُوا عَنْهُ، مع أَنَّهُمْ مُؤَيَّدُونَ مِنْ رَبِّهِم بالآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ والْمُعْجِزَاتِ الْبَاهِرَات، ويَمْلِكُونَ بُرْهَانَ الْعَقْلِ وَشَوَاهِدَ آيَاتِ اللهِ فِي كَوْنِهِ العظيمِ لِتَوْحِيدِ اللهِ فِي رُبُوبِيّتِهِ وَفِي إِلَهِيَّتِهِ.

«وَيْلٌ»: كَلِمَةُ عذاب، وفيها معْنَىٰ الوعِيدِ بحُلولِ عِقَابِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ. وَوَرَدَ أَنَّ كَلِمَةَ «وَيْل» اسْمٌ عَلَمٌ عَلَىٰ وادٍ في جَهَنَّم. وهي هُنَا في الآيَةِ مبتدأ، وخَبَرُهُ: «لِلْمُكَذِّبين».

• ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾﴾:

• ﴿فِى خَوْضٍ﴾: أَصْلُ «الْخَوْضِ» المشْيُ في الماء وتَحْرِيكُهُ، ثُمَّ اسْتُعْمِلَ فِي التَّلَبُّسِ في الْأَمْرِ والتَّصرُّفِ فِيهِ.

والْخَوْضُ مِنَ الكَلامِ مَا فِيهِ الْكَذِبُ والبَاطِل. ويُقَال: «خاضَ الشَّيْءَ بالشَّيْءِ» أي: خلَطَه.

أي: إنَّ مِنْ صِفَاتِ الكَفَرَةِ المكَذِّبِينَ؛ أَنَّهُمْ في تَصرُّفَاتِهِمُ الحياتِيَّةِ يَخُوضُونَ عَلَىٰ غَيْرِ هُدَىٰ، كَمَنْ يَخُوضُ فِي الْمَاءِ فَيُعَكِّرُهُ بالطِّينِ الراسِبِ في القاعِ، وقد يكون طيناً أسودَ، فيُفْسِدُ صَفَاءَ الماء، والمرادُ خَوْضُهُمْ في ارْتِكَابِ المحرَّمَاتِ والشُّرُور وأَنْوَاعِ الضُّرِّ والأَذَىٰ، وَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ عَلَىٰ

غَيْرِ هُدىً يَلْعَبُونَ، فَلَا يَعْمَلُونَ أَعْمَالاً لَهَا نَتَائِجُ نَافِعَةٌ لَهُمْ، بَلْ نَتَائِجُهَا ضَارَّةٌ لَهُمْ فِي النَّظَرِ الْبَعِيدِ.

وَالْعَذَابُ الشَّدِيدُ يَكُونُ لَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ يَوْمَ الْجَزَاءِ الْأَكْبَرِ: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾﴾:

الدَّعُّ: الدَّفْعُ الشَّدِيدُ العنيفُ بِجَفَاءٍ وَغِلْظَة.

أي: يَوْمَ يُدْفَعُونَ دَفْعاً عَنِيفاً بِجَفَاءٍ وَغِلْظَةٍ، إلى أبْوابِ نَارِ جَهَنَّمَ لِقَذْفِهِمْ فيها، وهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَفْعَلُوا لِأَنْفُسِهِمْ شيْئاً.

وَحِينَ إِيصَالِهِمْ إِلَىٰ أَبْوَابِ جَهَنَّمَ تَقُولُ الْمَلَائِكَةُ السَّائِقُونَ لَهُمْ بِأسْلُوبِ الدَّعِّ:

• ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾:

أي: هَـٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ تكذِّبُونَ الْأَخبارَ عَنْهَا، وَأَنَّهَا حَقٌّ لا رَيبَ فِيهِ، وتَزْعُمُونَ لِجَماهِيركُمْ أَنَّ الرَّسُولَ يَسْحَرُ النَّاسَ بِأَقْوالِهِ، لِيُقْنِعَهُمْ بِأَنَّ الْآخِرَةَ وَمَا فِيهَا مِنْ جَنَّةٍ وَنَارٍ حقٌّ؛ أَفَسِحْرٌ هـٰذَا الَّذِي تَرَوْنَهُ الْيَوْمَ، أَمْ أَنْتُمْ عُمْيٌ لا تُبْصِرُونَ.

• ﴿ٱصْلَوْهَا﴾: أي: لِتَمَسَّ نَارُهَا جُلُودَكُمْ وَتُحْرِقَهَا، وَكُلَّما نَضِجَتْ بَدَّلَكُمُ اللهُ جُلُوداً غَيْرَهَا، لِتَذُوقوا العذاب الّذِي تُحِسُّونَهُ في أَجْهِزَةِ الإحْسَاسِ الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ في جُلُودِكُمْ.

• ﴿فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾: أي: فَلَنْ يُخَفَّف عَنْكُم شَيْءٌ مِنَ الْعَذَابِ إِذَا جَزِعْتُمْ وَأَعْلَنْتُمْ ضَجَرَكُمْ، فاخْتَارُوا لِأَنْفُسِكُمُ الصَّبْرَ أَوْ عَدَمَ الصَّبْرِ، فَالْأَمْرَانِ مُسْتَوِيَان بالنسبَةِ إلى العذاب.

• ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾: أي: مَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مُطَابِقَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ مِنْ سَيِّئَاتٍ وَقَبَائِحَ اعْتِقَادِيَّةٍ وسُلُوكِيَّةٍ نَفْسِيَّةٍ وظاهِرَةٍ جَسَدِيَّة.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يَعْرِضُ لَقَطَاتٍ مِنْ ثَوَابِ المتَّقِينَ يَوْمَ الدِّينِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيم:

• ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾:

• ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾: وَهُمْ أَهْلُ مَرْتَبَةِ التَّقْوَىٰ عَلَىٰ دَرَجَاتِهِمُ المتَفَاضِلَةِ فِيهَا، وَكَمَالُ التَّقْوَىٰ يَكُونُ بِفِعْلِ كُلِّ الواجِبَاتِ، وَتَرْكِ كُلِّ المُحَرَّمَاتِ، وَقَدْ يُوصِلُ إِلَىٰ كَمَالِ التَّقْوَىٰ التوبَةُ والاستغْفَارُ، ومَغْفِرَةُ اللهِ وَتَوْبَتُهُ عَلَىٰ عَبْدِهِ.

• ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾: أَيْ: يُقِيمُون دَوَاماً بِلَا نِهَايَةٍ فِي جَنَّاتٍ، هِي أَقْسَامٌ مِنْ عُمُومِ الْجَنَّةِ الْعُظْمَىٰ.

الجنة: مَا يَحْتَوِي عَلَىٰ أَشْجَارٍ وَثِمَارٍ وَزُرُوعٍ وأَنْهَارٍ وَقُصُورٍ، وَكُلِّ مَا يُمْتِعُ الأَنْفُسَ والحواسَّ، وهِيَ يَوْمَ الدِّينِ مَا يُحَقِّقُ كُلَّ أَنْوَاعِ السَّعَادَاتِ بالنَّعِيمِ المقيم الْخَالِدِ الَّذِي لَا يَنْقَطِعَ.

• ﴿وَنَعِيمٍ﴾: أي: وفي مُحِيطٍ بِهِمْ مِمَّا يَجْعَلُهُمْ يَتَنَعَّمُونَ بِكُلِّ مَا يُحِبُّونَ وَيَشْتَهُونَ مِنْ لذَّاتٍ وَمَسَرَّاتٍ وَأنواعِ سَعَادَاتٍ، وَقَدْ جَاءَ في القرآنِ تَخْصِيصُ لَذَّاتِ الآخِرَةِ باسْم «نعيم»، وتخصيص لَذَّاتِ الدّنيا باسم «متاع»؛ للفَرْقِ الكبيرِ بَيْنَهُمَا.

• ﴿فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾: أي: مُنَعَّمِين، فَرِحين، مَسْرُورِين، يَتَنَاوَلُونَ لَذَّاتِهِمْ طَيِّبَةً بِهَا نُفُوسُهُمْ، مُعْجَبِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ مِنْ طَيِّبَاتٍ وَأَنواعِ سَعَادَات.

• ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾: هَـٰذِهِ الْعِبَارَةُ تُشْعِرُ بِأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ قَدْ تَجَاوَزَ عَنْ خَطَايَا كَثِيرَةٍ، كَانَ قَدِ ارْتَكَبَهَا بَعْضُهُمْ، وَكَانَ هَؤُلَاءِ يَسْتَحِقُّونَ بِخَطَايَاهُمْ عَذاباً مَا فِي الجَحِيمِ، فَغَفَرَهَا اللهُ رَبُّهُمْ لَهُمْ، وَوَقَاهُمْ مَا كَانُوا يَسْتَحِقُّونَهُ مِنْ عَذَابٍ مَا فِي الْجَحِيمِ.

ويُقَالُ لَهُمْ تكْريماً:

• ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾:

• ﴿هَنِيٓـًٔا﴾: أي: سَائِغاً لَذِيذاً، يُقالُ لغة: «هَنِئَ الطَّعَامُ، أَوِ الشَّرابُ، يَهْنَأُ، هَنأً، وَهَنَاءَةً» أي: سَاغَ، وَلَذَّ.

أي: كُلُوا أنْواع وأصْنَاف مَأكُولَاتٍ مُتَنَوِّعَاتٍ طَيّبات، واشْرَبُوا أنواعَ وأصْنَافَ مَشْرُوبَاتٍ مُتَنَوِّعَاتٍ طَيّبَاتٍ، أكْلاً سَائِغاً لَذِيذاً طَيِّباً، بِسَبَبِ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ مِنْ أعْمَالٍ صَالِحَةٍ اعْتِقَادِيَّةٍ وَخُلُقِيَّة ونَفْسِيَّةٍ وسُلُوكِيَّةٍ، بَاطِنَةٍ وَظَاهِرَة، ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ رَبّكُمْ، وَطَلَباً لِثَوابِهِ العظيم، إذْ كُنْتُمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ فِي الحياةِ الدُّنيا.

• ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾:

• ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾: **المتكِئُ**: هُوَ مَنْ يَسْتَوِي قَاعِداً عَلَىٰ وِطَاءٍ مُتَمَكِّناً.
الاتكاءُ: هُوَ الْجُلُوسُ بِتَمكُّنٍ عَلَىٰ مَجْلِسٍ وَثِيرٍ، وَيُصَاحِبُهُ غالِباً وَضْعُ الْيَدِ أَوِ الْيَدَيْنِ عَلَىٰ مَا يَحْمِلُهُمَا لِلرَّاحَة.

• ﴿سُرُرٍ﴾: جَمْعُ «سَرِير»، وهُوَ الْمَضْجَعُ ذُو الْقَوَائِمِ الأرْبَعَةِ، الَّتِي تَرْفَعُهُ عَنِ الْأَرْض، ونَحْوُه، وَيُبْسَطُ عَلَيْهِ الفِرَاش اللَّيِّنِ على قَدْرِ الْمُسَطَّحِ مِنْهُ.

وهـٰذِهِ الْأَسِرَّةُ مَصْفُوفَةٌ بِهَدَفِ جَعْلِ المتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ يَتَحَادَثُونَ، وَيُشَاهِدُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً وَهُمْ سُعَدَاءُ بِمَا يُنَعَّمُونَ بِهِ مِنْ مَآكِلَ وَمَشَارِبَ.

• ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾: أي: وَزَوَّجْنَا المتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ بِزَوْجَاتٍ حُورٍ عينٍ.

الْحُور: جمع «الْحَوْرَاء»، وهي مِنَ النِّسَاءِ الْبَيْضاء.

الْعِين: جمع «الْعَيْنَاء»، وهي من النِّسَاءِ ذَاتُ العَيْنِ الْحَسَنَةِ الواسِعَة.

وقَدْ ظَهَرَ لي أَنَّ كُلَّ مَا يُذْكَرُ في القرآنِ مِنْ نَعِيمٍ للرِّجَالِ مِن أَهْلِ الجنَّةِ يَوْمَ الدِّينِ؛ فَلِلنِّسَاءِ مِنْ أَهْلِ الجنَّةِ نَظِيرُهُ عَلَىٰ مَا يَشْتَهِينَ، وَذِكْرُ الرِّجَالِ لَا يُفِيدُ التَّخْصِيصَ، بَلْ تَطْوِي النُّصُوصُ كُلُّهَا معنَىٰ: ولِلنِّسَاءِ كَذَلِكَ عَلَىٰ مَا يَشْتَهِينَ مِمَّا يُلائِمُ أُنوثَتَهُنَّ.

وَكَذَلِكَ مَا يُذْكَرُ في القرآنِ المجيدِ مِنْ عَذَابٍ للرِّجَالِ مِن أَهْل النَّارِ يَوْمَ الدِّين؛ فَلِلنِّسَاءِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ نَظِيرَهُ عَلَىٰ مَا يُلَائِمُ دَرَكَتَهُنَّ فيها.

وكُلُّ بَيَانٍ يَتَحَدَّثُ عَنِ الرِّجَالِ فالنِّسَاءُ مَشْمُولَاتٌ بِهِ، مَا لَمْ يَكُنْ بِطَبيعَتِهِ مِنْ خَصَائِصِ الرِّجَالِ لَا تُشَارِكُ فِيهِ النِّسَاءُ، وَلَا تُشَارِكُ بِمِثْلِهِ أو نَظِيرِهِ أو مُقَابِلِهِ، أو جَاءَ في النَّصِّ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ التَّخصِيصِ صَرَاحَةً.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ ذُرِّيَّاتِ الَّذِينَ آمَنُوا وإِلْحَاقِ اللهِ لَهُمْ بأُصُولِهِمْ فِي مَنَازِلِهِمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَنَعِيم:

• ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍۚ كُلُّ ٱمْرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾:

وفي قراءة: [**ذُرِّيَّاتِهِمْ**] بالجمع، ومؤدَّىٰ القراءتَيْنِ واحد.

وفي قراءة: [**وَأَتْبَعْنَاهُمْ**]: أي: فاتَّبَعَتْهُمْ وأَتْبَعْنَاهُمْ مَعُونَةً وَتَوْفِيقاً وإِلْهَاماً بتَزْيِينِ اتِّبَاعِهِمْ لهم، فَبَيْنَ القراءتَيْنِ تَكَامُلٌ في أداء المعنَىٰ المراد.

• ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾: أي: وَمَا نَقَصْنَا الْأُصُولَ الَّذِينَ

أَلْحقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ فِي مَنَازِلِهِمْ مِنَ الْجَنَّةِ إيناساً لَهُمْ وإكْرَاماً وإسْعَاداً؛ مِنْ ثَوَابِ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ بِهٰذَا الإلْحَاقِ، وليس المرادُ بِالْإلْحَاقِ إعْطَاءَهُمْ مَنَازِلَ تُسَاوِي مَنَازِلَ أُصولِهم، بل المرادُ مُشَارَكَتُهُمْ لهمْ في مَنَازِلِهِم الواسِعَة جدًّا.

يُقَالُ لُغَةً: «أَلَتَ الشَّيْءَ، يَأْلِتُهُ، أَلْتاً» أي: نَقَصَهُ.

ودَلَّتْ قِرَاءَة ابْنِ كَثِيرٍ عَلَىٰ أَنَّهُ يُوجَدُ أيضاً: «أَلِتَ الشَّيْءَ، يَأْلَتُهُ» مِنْ باب «عَلِم يَعْلَمُ» والمعنى واحد.

و«مِنْ» في «مِنْ شَيْءٍ» مَزِيدَةٌ لِتَوْكِيدِ عُمُومِ النَّفْي والتنْصِيصِ عَلَيْهِ.

أي: والَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا بإيمانِهِمْ صَالِحَاتٍ اسْتَحقُّوا بِهَا مَنَازِلَ ودَرَجَاتٍ مُرْتَفِعَاتٍ في الجنَّةِ، واتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّاتُهُمْ بإيمَانٍ صَحِيحٍ مَقْبُولٍ اسْتَحَقُّوا بِهِ دُخُولَ الْجَنَّةِ، وَلَوْ بَعْدَ مُجَازَاتِهِمْ بِبَعْضِ العقوباتِ؛ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ، إينَاساً وإكْرَاماً وإسْعَاداً لهم، وَجَعَلْنَاهُمْ مَعَهُمْ فِي دَرَجَاتِهِمُ الْمُرْتَفِعَاتِ، دُونَ أَنْ نَنْقُصَ هَـٰؤُلَاءِ الْأُصُولَ مِنْ ثَوابِ أَعْمَالِهِمْ شَيْئاً، فَمَنَازِلُهُمْ واسِعَةٌ جِدًّا، والنَّعِيمُ فِيهَا يَكْفِي أَصْحَابَ الْمَنَازِلِ مَعَ الْمَلَايِينِ مِنْ أَمْثَالِهِمْ وأَمْثَالِ ذُرِّيَّاتِهِمْ، فأدْنَىٰ أَهْلِ الجنَّةِ نَصيباً مِنْهَا يَتَّسِعُ لِضُيوفٍ كَثِيرينَ يُعَدُّونَ بِمِئَاتِ الملايين.

- ﴿... كُلُّ ٱمْرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾:
- ﴿بِمَا كَسَبَ﴾: أي: بِمَا فَعَلَ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ في الْحَيَاةِ الدُّنيا.
- ﴿رَهِينٌ﴾: أي: مَحْبُوسٌ، وهُوَ مِنَ الشُّيُوعِ في الاسْتِعْمَال.

المعنى: كُلُّ امْرِئٍ اجْتَازَ رِحْلَةَ امْتِحَانِهِ في الحياة الدُّنيا، وَكَانَ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ فِيهَا أعمالاً يُجَازَىٰ عَلَيْهَا بالْعِقَاب، فإنَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُحْبَسُ حَتَّىٰ يَقْضِيَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِهِ، عِقَاباً أَوْ غُفْرَاناً، فَإِذَا عُوقِبَ أَوْ غَفَرَ اللهُ لَهُ بِحِكْمَتِهِ، أُفْرِجَ عَنْهُ وَأُدْخِلَ الجنَّةَ بِفَضْلِ اللهِ.

دَلَّتْ هَـٰذِهِ الجمْلَةُ بِطَرِيقٍ إيمَائِيٍّ؛ عَلَىٰ أَنَّ المُلْحَقِينَ مِن الذُّرِّيَّاتِ بأصُولِهِمْ ذَوِي الدَّرَجَاتِ الْمُرْتَفِعَاتِ في جَنَّاتِ النَّعِيمِ؛ كانُوا مَحْبُوسِينَ بِمَا كَسَبُوا مِنْ خَطَايا في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، حَتَّىٰ قَضَىٰ اللهُ بِشَأْنِ كُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ بالْعِقَابِ أَوْ بالْغُفْرَان، وَحَتَّىٰ نُفِّذَ فِيهِ قَضَاءُ اللهِ.

هَـٰذِهِ الآية (٢١) جَاءَتْ مُعْتَرِضَةً ضِمْنَ بَيَانِ اللَّقطاتِ الْمُخْتَارَاتِ مِنْ ثَوَاب المتَّقِينِ الَّذِينَ أَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُمْ فِي جَنَّاتٍ ونَعِيمٍ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بَيَانَ اللَّقَطاتِ المختارات مِنْ ثواب المتقين:

• ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾﴾:

• ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم﴾: أي: وَتَابَعْنَا إيتَاءَهُمْ زِيَادَاتٍ، إمْدَاداً لَهُمْ بِفَاكِهَةٍ عَلَىٰ أَنْوَاعِهَا وَأَصْنَافِهَا، وَلَحْم عَلَىٰ أَنْوَاعِهِ وأَصْنَافِهِ، مِمَّا، يَشْتَهُونَ أَكْلَهُ مِنْهُمَا، وأشْهَىٰ اللُّحُوم لحْمُ الطَّيْرِ.

• ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾:

• ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا﴾ أي: يتَجَاذَبُونَ في الجنَّةِ مِنْ إيناسِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ.

• ﴿كَأْسًا﴾: **الكَأْسُ**: الْقَدَحُ مَا دَامَ فِيهِ الخَمْرُ، فإذَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ خَمْرٌ فَهُو «كُوب».

• ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا﴾: أي: لَا يُوجَدُ عِنْدَ شُرْبِهِمْ لَهَا كَلَامٌ لا يُعْتَدُّ بِهِ، وَلَا دَلَالَةَ لَهُ وَلَا مَعْنًى يُقْصَدُ بِهِ، كَمَا يَكُونُ عِنْدَ شُرَّابِ خُمُورِ الدُّنْيا مِنْ لَغْوٍ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ عُقُولَهُمُ الضَّابِطَةَ لِتَصَرُّفَاتِهِمْ مَسْلُوبَةٌ، بخلاف خَمْرِ الجنَّةِ فَفِيهَا لَذَّةُ الْخَمْرِ عَلَىٰ أَكْمَلِ صِفَاتِهَا، وَلَكِنْ لَيْسَ فِيها غَوْلٌ يَغْتَالُ الْعُقُولَ، كَخَمْرِ الدُّنيا، ويَجْعَلُ شَارِبيها تَنْطَلِقُ مِنْ أَلْسِنَتِهِمْ سَفاسِفُ أقوالٍ، ولَغْوٌ لَا نِظَامَ لَهُ، وبَاطِلٌ ومُنْكر.

• ﴿وَلَا تَأْثِيمٌ﴾: أيْ: وَلَا يَتَّهِمُ شَارِبُوهَا بَعْضُهُمْ بَعْضاً بالْإثم، بخِلَافِ خَمْرِ الدُّنيا، فإنَّ شَارِبيها قَدْ يَصِلُونَ إِلَىٰ حَالَةٍ مِنْ فَقْدِ التوازُنِ الْعَقْلِي إِلَىٰ أَنْ يَشْتُمَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً باتِّهَامِهِ بارْتِكَابِ الْإِثمِ.

• ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾﴾:

أي: ويَطُوفُ عَلَيْهِمْ لِخِدْمَتِهِمْ غِلْمَانٌ مَمْلُوكُونَ لَهُمْ، وَيُطِيعُونَهُمْ عَلَىٰ مَا يُرِيدُونَ، وَهُمْ مِنَ الْحُسْنِ فِي جَمَالِ جُلُودِ أجْسَادِهِم: كاللُّؤلُؤِ المكْنُونِ، على اخْتِلَافِ أَلْوَانِهِ الرائِعَةِ، صفاءً، وبَرِيقاً، ولَمَعَاناً، ونُعُومَة.

• ﴿غِلْمَانٌ﴾: أي: خَدَمٌ، جمع «غُلَام»، ويَكُونُ غَالِباً دُونَ سِنِّ الْبُلُوغ.

اللُّؤْلُؤُ: هوَ الحبُّ النَّفِيسُ الّذِي يَخْرُجُ مِنْ صِنْفٍ مِنَ الأصْدَافِ، وتُصْنَعُ مِنْهُ عُقُودٌ جميلَةٌ نَفِيسَةٌ غالِيَةُ الْأَثْمَانِ، ولَهُ أَلْوَانٌ بَيْضَاءُ غَالِباً، يُمَازِجُهَا مَا يُشْبِهُ الْأَشِعَّةَ ذَاتَ الْأَلْوَانِ الْبَهِيَّة.

المكْنُون: أي: المحفُوظ المسْتُورُ الَّذِي لَمْ تَعْبَثْ بِهِ أَيْدِي الْعَابِثِينَ، ولم يَتعرَّضْ لِمَا يُغَيِّرُ صَفَاءَهُ، وَنَقَاءَهُ، ودَرَجَةَ جَمَالِهِ، مِنْ عَوَارِضَ مُخْتَلِفَةٍ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يَحْكِي مَشْهداً مِنْ مَشَاهِدِ مُحَادَثَةِ بَعْضِ المتَّقِينَ لِبَعْضٍ وَهُمْ فِي جَنَّاتٍ ونَعِيمٍ:

• ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾:

• ﴿مُشْفِقِينَ﴾: أي: خَائِفِينَ حَذِرِينَ، يقالُ لغة: «أشْفَقَ فُلَانٌ مِنْ أَمْرٍ ما» أي: خَافَهُ وحَذِرَ مِنْهُ.

• ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾: **الْمَنُّ**: الإنْعَامُ، والإحْسَانُ، يُقَالُ لغة: «مَنَّ عَلَيْهِ» أي: أَنْعَمَ عَلَيْهِ نِعْمَةً طَيِّبَةً، وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ بِعَطِيَّة.

• ﴿وَوَقَىٰنَا﴾: أي: وحَمَانَا، وَحَفِظَنَا، وَصَانَنَا، وصَرَفَ عَنَّا.

• ﴿عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾: أي: عَذَابَ الرِّيحِ الحارَّةِ الَّتِي تَنْفُذُ فِي مَسَامِّ الْجِسْمِ.

المعنى: وأقْبَلَ بَعْضُ المتَّقِينَ، الَّذِينَ هُمْ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ، يَطْرَحُ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي مَجْلِسِ مُحَادَثَةٍ بَيْنَهُمْ؛ أسْئِلَةً تَتَعَلَّقُ بأَحْوَالِهِمُ الَّتِي كانُوا عَلَيْهَا فِي الْحَيَاة الدُّنيا، وهَلْ كَانُوا يَشْعُرُونَ بأَنَّهُمْ يَسْتَحِقُّونَ المنْزِلَةَ العظِيمَةَ الَّتِي مَنَحَهُمُ اللهُ إِيَّاهَا بِفَضْلِهِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ.

وبما أَنَّهُمْ أَصْحَابُ مَنَازِلَ مُتَمَاثِلَةٍ، وَقَدِ اجْتَمَعُوا في زِيَارَةٍ لِأَحَدِهِم، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ جَوَابُ سُؤَالِهِمْ واحِداً.

• ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾:

أي: قَالُوا: إِنَّا كُنَّا قَبْلُ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا حَيَاةِ الابْتِلَاءِ، إِذْ كُنَّا نُمارِسُ حَيَوَاتِنَا فِي أَهْلِنَا؛ مُشْفِقِينَ خَائِفِينَ مِنْ أَنْ نُجازَىٰ عَلَىٰ الخَطَايَا الَّتِي ارْتَكَبْنَاهَا، وأَنْ لَا يَشْمَلَنَا غُفْرَانُ اللهِ لَها وَتَجَاوُزُهُ عَنِ الْمُجَازَاةِ عَلَيْهَا لِكَثْرَتِهَا، وَلَكِنَّا مَا كُنَّا نَخَافُ أَنْ يُعَذِّبَنَا رَبُّنَا بالْحَرِيقِ بِلَهَبِ النَّارِ مُبَاشَرَةً لِأَنَّنَا مُؤْمِنُونَ، لَكِنْ قَدْ نُعَذَّبُ بالسَّمُوم في دَارِ العذَابِ وهو عَذَابُ الرِّيحِ الحارَّةِ الَّتِي تَدْخُلُ فِي المَسَامِّ، لاستِحْقَاقِنَا هٰذَا بِحَسَبِ خَطَايَانَا.

• ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾: أَيْ: فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا بِأَنْ أَنْعَمَ عَلَيْنَا وَأَحْسَنَ إِلَيْنا بأَنْ تَجَاوَزَ عَنْ مُجازَاتِنَا عَلَىٰ خطَايَانَا.

• ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾: أي: وصَرَفَ عَنَّا عَذَاب السَّمُوم الّذي كُنَّا نَسْتَحِقُّهُ بِحَسَبِ خَطَايَانَا، وَقَدِ اسْتَجَابَ اللهُ رَبُّنَا بِفَضْلِهِ مَا كُنَّا نَدْعُوه مِنْ غُفْرَانٍ لِخطَايَانَا، وَنَدْعُوهُ أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنْ مُجازَاتِنا عَلَيْهَا.

• ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾: أي: إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ فِي الحَيَاةِ

الدُّنْيا نَدْعُوهُ أَنْ يَغْفِرَ لَنا، فَاسْتَجابَ لَنا فَمَنَّ عَلَيْنا وَوَقانا عَذابَ السَّمُوم.

• ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾:

الْبَرُّ: أي: ذو الْعَطاءِ الواسِعِ، والفَضْلِ الْجَزِيل، واللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَمْنَحُ عَطاءَهُ جميع النَّاسِ مُحْسِنِهُمْ ومُسِيئِهُمْ.

الرحيم: أي: ذو الرَّحْمَةِ الواسِعَة، الَّذِي يُنْعِمُ على عباده بالنِّعَمِ عَلَىٰ وَفْقِ حِكْمَتِهِ.

وبهـٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الأول من دُرُوس سورة (الطور).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

❁ ❁ ❁

(٦)
التدبُّر التحليلي للدّرس الثاني من دُروس سورة (الطور) الآيات من (٢٩ ـ ٤٤)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۣيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾﴾:

القراءات:

(٣٢) • قَرَأَ أبو عمْرو: [**أمْ تَأْمُرْهُمْ**] بخُلْفٍ عن الدُّوري، والْوَجْهُ الثاني للدُّوري: اخْتِلَاسُ ضَمَّةِ الراء. ولعَلَّ الإسكانَ والاخْتِلَاسَ تخفيفٌ مِنْ تَوَالِي الضَّمَّاتِ.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**أَمْ تَأْمُرُهُمْ**].

وكُلٌّ قَارِئٍ علىٰ أَصْلِهِ مِنَ الإبْدَالِ وعَدَمِهِ.

(٣٧) • قرأ هِشَام: [**المسَيْطِرُونَ**]. ولخَلَف عن حمزة: بإشْمامِ الصّاد صوت الزاي. ولقُنبل، وابن ذكوان، وحفص: بالسّين والصاد. ولخلّاد: بالإشْمام والصّاد.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**الْمُصَيْطِرُونَ**] بالصاد الخالِصَة.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ ما يلي:

١ ـ توجِيهُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ ﷺ؛ لِأَنْ يُتَابعَ تَذكِيرَهُ مَنْ لَمْ يَصِلُوا إِلَىٰ دَرَكَةٍ مَيْؤُوسٍ مَعَهَا مِنِ اسْتِجَابَتِهِمْ عَنْ طَرِيقِ إرَادَاتِهِمُ الحُرَّةِ.

٢ ـ مُعَالَجَةُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ الْكَافِرِينَ بشأنِ عِدَّةِ قَضَايَا هُمْ مُسْتَمْسِكُونَ بِهَا إِبَّانَ تَنْزِيلِ السُّورة، مِنْهَا مَا هُو قَدِيمٌ يُصِرُّونَ عَلَيْهِ، ومِنْهَا مَا هُوَ حَدِيثٌ كإرَادَةِ الكَيْدِ للتَّخلُّصِ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ ومِنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِرَسُولِهِ ﷺ:

• ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾﴾:

أَشَاعَ أَئِمَّةُ مُشْرِكِي مَكَّةَ في جَمَاهِيرِهِم لِصَدِّهِم عَنِ الاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَةِ الرَّسُولِ ﷺ؛ أَنَّ مُحمَّداً كَاهِنٌ، وأشَاعُوا أَنَّهُ مَجْنُون، وأشَاعُوا أَنَّهُ شَاعِرٌ إِذَا مَاتَ انْتَهَىٰ تَأْثِيرُهُ في الَّذِينَ يَتَأَثَّرُونَ بالشِّعْرِ مِنْ قَوْمِنا.

الْكَاهِنُ: الذي يُخْبِرُ بالغيبيّات، ويَعْتَقِدُ العَرب أنّ مِنَ الكَهَنَةِ من لَهُ صِلَةٌ بِجِنٍّ يُخْبِرُونَهُ بغَيْبِيَّاتٍ، أَو يَتَعَاطَىٰ التَّنْجِيم بِرَبْطِ حَوَادِثِ الْأَرْض بَحَرَكَاتِ النجوم.

الْمَجْنُونُ: المسْتُورُ الْعَقْل، أو الذَّاهِبُ الْعَقْل، أَو الفاسِدُ الْعَقْل.

نَتَرَبَّصُ: أي: نَنْتَظِرُ بصَبْر.

رَيْبَ الْمَنُونِ: أي: حوادثُ الدَّهْرِ الْمُمِيتَةُ.

أَحْلَامُهُمْ: أي: عُقُولُهُمْ.

طَاغُونَ: أي: متجاوزُونَ حَدَّ الْعِصْيَانِ والظُّلْم والْبَغِي المألُوفِ عِنْدَ الْجُنَاةِ، غُلُوًّا وإِسْرافاً في ارْتِكَابِ الآثَامِ والْعُدْوَانِ عَلَىٰ الْحَقِّ، كَطُغْيَانِ الْمَاءِ الْمُهْلِكِ الْمُدَمِّرِ.

فَأَبَانَ اللهُ لِرَسُولِهِ ﷺ قَائِلاً: ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجۡنُونٍ﴾: أي: مَا أَنْتَ بِمَا أنعم بِهِ رَبُّكَ عَلَيْكَ مِنَ النُّبُوَّةِ والرِّسَالَةِ وَإِنْزَالِ الْقُرْآنِ عَلَيْكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ، فالكَهَنَةُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ بِحَالٍ مِن الْأَحْوَالِ، والْمَجْنُونُ لَا يُمكِنُ أَنْ يَصْدُرَ عَنْهُ كَلَامٌ يَعْجِزُ الْعُقَلَاءُ عَنْ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ أبنيَةً وَمَعَاني.

وَالْغَرَضُ مِنْ خِطَابِ الرَّسُولِ ﷺ بِهٰذَا؛ إِسْمَاعُ مُفْتَرِي هٰذِهِ الإِشَاعَاتِ الإِعْلَامِيَّةِ الْبَاطِلَةِ وَمَنْ يَتَأَثَّرُ بِهِمْ مِنْ جَمَاهِيرِ المشْرِكِينَ، مَعَ تَطْييبِ نَفْسِ الرَّسُولِ ﷺ بِأَنَّ مَا هُوَ فِيهِ: مِنْ نِعْمَةِ اللهِ عَلَيْهِ.

وَقَالَ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ بِبَيَانٍ مُوَجَّهٍ لِجَمِيعِ المؤهَّلِينَ لاسْتِمَاعِ الْخِطَابِ وفَهْمِهِ، مِنْ خِلَالِ تَوْجِيهِهِ للرَّسُولِ ﷺ:

• ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾: أي: بَلْ؛ أَيَقُولُونَ فِي تَنَاقُضَاتِهِمْ وَتَخَبُّطِهِمْ فِي الظُّلُمَاتِ، وهُمْ يُذِيعُونَ المفْتَرَيَاتِ لِصَدِّ جَمَاهِيرِ قَوْمِهِمْ عَنِ التَّأَثُّرِ بِالْبَيَانِ القرآنِيِّ الرَّبَّانِيِّ: مُحَمَّدٌ شَاعِرٌ مِنَ الشُّعَرَاءِ نَصْبِرُ عَلَيْهِ زَمَناً، وَنَنْتَظِرُ أَنْ تَنزِلَ بِهِ بَعْضُ حَوَادِثِ الدَّهْرِ الْمُهْلِكَةِ الْمُمِيتَةِ، وحِينئذٍ نَتَخَلَّصُ مِنْهُ وَمِنْ دَعْوَتِهِ، وَيَتَفَرَّقُ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه، وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي مُجْتَمَعِنَا تَأْثِيرٌ مَا، لِضَعْفِهِمْ وَقِلَّتِهِمْ.

فقال اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ لِرَسُولِهِ ﷺ مُعَلِّماً:

• ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾: أي: قُلْ لَهُمْ: انْتَظِرُوا بِصَبْرٍ مَوْتِي، فَإِنِّي مَعَكُمْ مُنْتَظِرٌ بِصَبْرٍ تَحْقِيقَ وَعْدِ رَبِّي، بِأَنْ يَنْصُرَنِي عَلَيْكُمْ، وَبِأَنْ يَنْصُرَ دَعْوَتِي حَتَّىٰ تَصِلَ إلى كُلِّ قَوْمٍ وَكُلِّ أُمَّةٍ، وَأَنْ يَنْصُرَ الَّذِينَ آمَنُوا بِي واتَّبَعُونِي.

وَكَانَ أَئِمَّةُ الكُفْرِ والشِّرْكِ في مَكَّةَ الَّذِينَ يُرَوِّجُونَ هَـٰذِهِ الإشاعَاتِ الإعْلَامِيَّةَ الْبَاطِلَةَ؛ يُوصَفُونَ بِأَنَّهُمْ أَهْلُ الْأَحْلَامِ والْعُقُولِ الرَّاجِحَةِ، فَاقْتَضَتِ الْحِكْمَةُ الرَّبَّانِيَّةُ؛ أَنْ يُبَيِّنَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ إِشَاعَاتِهِمُ الإعْلَامِيَّةَ؛ تَتَنَافَىٰ مَعَ مَا يُوصَفُونَ بِهِ مِنْ أَنَّهُمْ أَهْلُ أَحْلَامٍ وعُقُولٍ راجِحَةٍ، فَقَالَ بِأُسْلُوبِ الاسْتِفْهَامِ بَيْنَ أَمْرَيْنِ، أَحَدُهُمَا مَرْفُوضٌ مُسْتَنْكَرٌ، والآخَرُ هُوَ الْوَاقِعُ الَّذِي يَشْهَدُ لَهُ سُلُوكُهُمُ الْجَاحِدُ لِلْحَقِّ، والظَّالِمُ لَهُ بِطُغْيَان:

• ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَـٰمُهُم بِهَـٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾﴾:

أي: بَلْ، بِإِضْرَابٍ انْتِقَالِيّ؛ أَتَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ (أي: عُقُولُهُمُ الرَّاجِحَةُ) بِهَـٰذَا الْبَاطِلِ، الَّذِي يُشِيعُونَهُ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ وَمَا يَتْلُوهُ عَلَيْهِمْ مِنْ كِتَابِ رَبِّهِمُ الْحَقِّ الْمُعْجِزِ، إِنَّ هَـٰذِهِ الْإِشَاعَاتِ لَا تَصْدُرُ عَنْ ذَوِي عُقُولٍ رَاجِحَةٍ، وَنُفُوسٍ ذَاتِ سُلُوكٍ سَوِيٍّ رَشِيدٍ، فَهُمْ إِمَّا أَنْ يَكُونُوا سُفَهَاءَ لَيْسَ لَهُمْ عُقُولٌ سَلِيمَةُ الإِدْرَاكِ؛ وإِمَّا أَنْ يَكُونُوا ذوي نُفُوسٍ بَاغِيَةٍ ظَالِمَةٍ مُجْرِمَةٍ،

فَهُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ، مُجْتَمِعُونَ فِي صِفَاتِهِمُ النَّفْسِيَّةِ وَمُتَوَاطِئُونَ عَلَىٰ الطُّغْيَانِ.

وبما أَنَّهُمْ مَعْرُوفُونَ فِي مُجْتَمِعِهِمْ بأَنَّهُمْ ذَوُو أَحْلَامٍ وعُقُولٍ راجِحَةٍ؛ فَقَدِ انْطَبَقَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ، ووصَفَهُمْ اللهُ بالطُّغْيانِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابِعُ بَيَانَ إِشَاعَاتِهِمُ الإِعْلَامِيَّةِ بِشَأْنِ الرَّسُولِ ﷺ والْقُرْآنِ:

• ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾:

• ﴿تَقَوَّلَهُۥ﴾: أي: ادَّعَىٰ أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللهِ وهُوَ لَيْسَ كلامَ اللهِ، فَهُوَ كَاذِبٌ مُفْتَرٍ عَلَىٰ اللهِ.

• ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾: أي: بل؛ أيَقُولُونَ: إنَّ محمّداً تَقَوَّلَ القرآنَ عَلَىٰ اللهِ، مُدَّعِيًا أَنَّهُ كَلَامُ اللهِ، وهُو لَيْسَ بِكَلَامٍ مُنَزَّلٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ.

فأبان اللهُ عَزَّ وَجلَّ أَنَّ عِلَّتَهُمُ النَّفْسِيَّةَ لَيْسَتِ الشَّكَّ في أَنَّ القرآن مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ؛ بَلْ عِلَّتُهُمْ أَنَّهُمْ لا يُرِيدُوْنَ أَنْ يُؤْمِنُوا، لِأَنَّ الإِيمَانَ يَمْنَعُهُمْ مِنِ اتِّبَاعِ أَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ وَرَغَبَاتِهِمْ مِنْ مَتَاعَاتِ الحياةِ الدُّنْيَا، فَقَالَ تَعَالَىٰ:

• ﴿. . . بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾: أي: بَلْ عِلَّتُهُمْ أَنَّهُمْ لَا يُرِيدُونَ أَنْ يؤمِنوا، واقتضَىٰ الْبَيَانُ هُنَا أَنْ يَتحَدَّاهُمْ رَبُّهُمْ بِأَنْ يَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِ آياتِ القرآن، إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ في قَوْلِهِمْ: إِنَّ القرآن صِنَاعَةٌ بَشَرِيَّةٌ، وَتَقَوُّلٌ بَشَرِيٌّ على الله، فقال تَعَالَىٰ:

• ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾:

أي: لَوْ كَانَ القرآنُ صِنَاعَةً بَشَرِيَّةً تَقَوَّلَهُ مُحَمَّدٌ ـ ﷺ ـ عَلَىٰ رَبِّهِ كَمَا يَزْعُمُونَ كاذِبِينَ؛ فَهُمْ بَشَرٌ ويفْتَخِرُونَ بأَنَّهُمُ الْفُصَحَاءُ والْبُلَغَاءُ وأصْحَابُ

العقولِ الرّاجِحَةِ، فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ مُنْفَرِدِينَ أو مُجْتَمِعِينَ إِنْ كَانُوا صادِقِينَ فِيمَا يَدَّعُونَ.

وأَعْرَضَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ مُواجَهَتِهِمْ بهـٰذَا الْخِطَابِ، لِيَكُونَ خِطاباً عَامًّا فِيهِ تَحْرِيضُ جَمَاهِيرِ قَوْمِهِمْ عَلَىٰ مُطَالَبَتِهِمْ بِأَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِبَيَانٍ مُوجَّهٍ لِمُنْكِرِي وجُودِ رَبٍّ لِهـٰذَا الكَوْن، ومِنْهُمُ الدَّهْرِيُّونَ مِنَ الْعَرَبِ، الَّذِينَ يَقُولُون: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾:

• ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾:

أي: بَل؛ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ وُجُودَ خَالِقٍ رَبٍّ لِهـٰذَا الكَوْنِ؛ أَلَمْ يُفَكِّرُوا في أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مَوْجُودِينَ بَشَراً أَحْيَاءً، وَخُلِقُوا بَعْدَ ذَلِكَ فَكَانُوا بَشَراً أَحْيَاءً، فَكَيْفَ خُلِقوا؟؟!!.

• ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾؟: أي: أَتَحَوَّلُوا مِنَ الْعَدَمِ الْعَامِّ المطْلَقِ دُونَ مُوجِدٍ فَصَارُوا بشَراً أَحْيَاءً.

إِنَّ مِنَ الْأَوَّلِيَّاتِ الْعَقْلِيَّةِ أَنَّ مِن المسْتَحِيلِ أَنْ يَتَحَوَّلَ الْعَدَمُ الْعَامُّ المطْلَقُ إِلَىٰ كَائِنٍ مَوْجُودٍ، وكُلُّ مَوْجُودٍ بِصِفَاتٍ تُخَالِفُ صِفَاتِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي رُكِّبَ مِنْهَا كَانَتْ صِفَاتُهُ عَدَماً، وتَنْطَبِقُ عَلَيْهَا اسْتِحَالَةُ التَّحَوُّلِ الذَّاتِي، وَكُلُّ مَادَّةٍ سَابِقَةِ الْوُجُودِ لَا تَمْلِكُ الْقُدْرَةَ عَلَىٰ التَّحْوِيلِ المُتْقَنِ ذِي الْغَايَةِ الحَكِيمَةِ.

• ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ﴾؟: أَيْ: أَمْ هُمْ حِينَ كَانُوا عَدَماً خَلَقُوا أَنْفُسَهُمْ، فَحَوَّلُوهَا مِنَ الْعَدَمِ إِلَىٰ الوجود، وَهـٰذِهِ مُسْتَحِيلَةٌ عَقْلاً لَا يَقْبَلُهَا مَنْ لَدَيْهِ أَقَلُّ الْقُدْرَاتِ الْفِكْرِيَّة.

• ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؟: أي: بَل؛ أَيَدَّعُونَ أَنَّهُم خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ والْأَرْضَ، فَلَيْسَ لَهَا رَبٌّ خَالِقٌ مُهَيْمِنٌ عَلَىٰ الْوُجُودِ كُلِّهِ.

لكِنَّ هـٰذَا الادِّعَاءَ لَا يَدَّعِيهِ أَحَدٌ مِنَ الْمَلَاحِدَةِ مُنْكِرِي وجُودِ اللهِ الْخَالِقِ رَبِّ العالمين.

• ﴿... بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾: أي: بَـلْ لَا يُـرِيـدُونَ أَنْ يُـوقِـنُـوا بالْحَقِّ، مَهْمَا اقْتَضَتِ الْحُجَجُ والبَرَاهِينُ الْقَطْعِيَّةُ الْعَقْلِيَّةُ أَنْ يُوقِنُوا بِهِ، لِأَنَّهُمْ مُنْسَاقُونَ إِلَىٰ الْبَاطِلِ والضَّلَالَاتِ بأهْوَائِهِم وشَهَوَاتِهِمْ وَرَغَبَاتِهِمْ مِنْ مَتَاعَاتِ الحياةِ الدُّنيا.

• ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾؟: أي: بَل أَسْتَغْنَوْا عَنِ الْإيمانِ بوَحْدَانِيَّةِ اللهِ في رُبُوبِيَّتِهِ وفي إلَهِيَّتِهِ، لِأَنَّ خَزَائِنَ رَبِّكَ أَيُّهَا الْعَاقِلُ الرَّشِيدُ مِنْ كُلِّ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ في حَيَوَاتِهِمْ؛ هِيَ عِنْدَهُمْ وَفِي مُتَنَاوَلِ أيْدِيهِمْ، مَعَ أَنَّنَا لِتَنْبِيهِهِمْ كُلَّمَا اقْتَضَتْ حِكْمَتُنَا حَجَبْنَا عَنْهُمْ بَعْضَ خَزَائِنِنَا، فَلَا نَسْقِيهِمْ مَاءً أَحْيَاناً، وَلَا نُنْبِتُ لَهُمْ زَرْعاً أَحْيَاناً، وَنُسَلِّطُ عَلَيْهِمْ مَا يَكْرَهُونَ أَحْيَاناً.

• ﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾؟: أي: بل: أَهُمُ الْمُسَيْطِرُونَ عَلَىٰ تَصَارِيف الْكَوْنِ، والْقَدَرِ والْقَضَاءِ فِيهِ؟؟!!.

وهـٰذَا أمْرٌ لَا يدَّعُونَهُ، فَلَا بُدَّ أَنْ يُذْعِنُوا للهِ فِي تَصَارِيفِهِ في كَوْنِهِ، وفي قَضَائِهِ وقَدَرِهِ، إِنْ كَانُوا يُرِيدُونَ لِأَنْفُسِهِمُ النَّجاةَ والْفَوْزَ بِجَنَّاتِ النَّعِيم يَوْمَ الدِّينِ.

• ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾؟:

أي: بل: أَعِنْدَهُمْ عِلْمُ مَا يَقْضِيهِ اللهُ، وَتُبَلِّغُهُ مَلَائِكَةُ التَّبْلِيغِ فِي السَّمَاءِ لِمَلَائِكَةِ التَّنْفِيذِ في الْأَرْضِ عِنْدَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَكَانَ شَيَاطِينُ الْأَرْضِ يَتَرَاكَبُونَ لاسْتِرَاقِ السَّمْعِ قَبْلَ بِعْثَةِ محمّدٍ ﷺ، ويُبَلِّغُونَ مَا اسْتَرَقُوهُ لِأَوْلِيَائِهِمْ مِنَ الإنْسِ، فَمُنِعُوا مِنْ ذَلِكَ بِبَعْثَتِهِ، كَمَا جَاءَ في سُورَةِ (الجن).

أَفَلهـٰؤُلَاءِ الكَفَرَةِ سُلَّمٌ يَصْعَدُونَ فِيهِ حَتَّىٰ يَصِلُوا إلى مَقَاعِدِ اسْتِرَاقِ

السَّمْعِ في السَّماءِ، وَبِهِ يَعْلَمُونَ أَحْدَاثاً مُسْتَقْبلِيَّةً يفْتِنُون بِهَا مَنْ يَتَأَثَّرُ بِهِمْ مِن الناس.

إنْ كَانَ فِيهِمْ مَنْ لَهُ مِثْلُ هٰذَا السُّلَّم، وهُوَ يَسْتَرِقُ السَّمْعَ كَمَا كَانَ الْجِنُّ يَفْعَلُونَ قَبْلَ بِعْثَةِ محمّد ﷺ؛ فَلْيَأْتِ بِحُجَّةٍ وَاضِحَةٍ تُثْبِتُ صِحَّةَ اسْتِمَاعِهِ، وَلَنْ يَسْتَطِيعَ ذَلِكَ وَلَوْ فِي عَصْرِ أَجْهِزَةِ الاتِّصَالَاتِ الصَّوْتِيَّةِ اللَّاسِلْكِيَّة.

وَخَاطَبَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مُثَرِّباً وَمُسَفِّهاً عُقُولَ الَّذِينَ يَزْعُمونَ أَنَّ المَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللهِ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَهُمْ:

• ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾﴾: أي: بَلْ: أَتَزْعُمُونَ افْتِرَاءً عَلَىٰ رَبِّكُمْ خَالِقِ كُلِّ شَيْءٍ سِوَاهُ فِي كَوْنِهِ أَنَّ أَوْلَادَ اللهِ هُمْ بَنَاتٌ، وهُمُ الْمَلَائِكَة، وأَنْتُمْ تَكْرَهُونَ أَنْ يَكُونَ لَكُمْ بَنَاتٌ، وتُحِبُّونَ أَنْ يَكُونَ لَكُمْ أولَادٌ ذُكُور، وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُكُمْ بالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ، يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ.

وَخَاطَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ ﷺ، وَسِيلَةً لإِثْبَاتِ أَنَّهُ ﷺ لَمْ يَسْأَلْهُمْ أَجْراً عَلَىٰ دَعْوَتِهِ إِيَّاهُمْ إِلَىٰ الحقِّ، حَتَّىٰ يَنْفِرُوا مِنَ الاسْتِجَابَةِ لَهُ خَوْفاً مِنْ تَحَمُّلِ ثِقَلِ الْأَجْرِ الَّذِي يُطَالِبُهُمْ بِهِ، قال تبارَكَ وَتَعَالَىٰ له:

• ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾: أي: بـل: أَتَسْأَلُهُمْ أجْراً مَادِّيًا أَوْ مَعْنَوِيًّا عَلَىٰ دَعْوَتِكَ إياهُمْ إلى سَبِيلِ رَبّكِ، فَهُمْ مِنْ خَوْفِ تَحَمُّلِ مَغْرَمٍ يَنْفِرُونَ، لِئَلَّا يَكُونُوا بِتَحَمُّلِهِ مُثْقَلِينَ.

الْمَغْرَم: الْغَرَامَة، وهِيَ الْخَسَارَة.

وَتَحَدَّثَ اللهُ عَنْهُمْ بِخِطَابٍ عَامٍّ مُوجَّهٍ لِكُلِّ ذِي فِكْرٍ رَشِيد، فَقَالَ تبارَكَ وَتَعَالَىٰ:

• ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾﴾: أي: بل: أَعِنْدَهُمْ تدبيرُ الْغَيْبِ

المسْتَقْبَلِيّ، فَهُمْ يُقَدِّرُونَ وَيُدَبِّرُونَ مَا يَشَاءُونَ لِأَنْفُسِهِمْ آمِنِينَ، ويَكْتُبُونَ مَا قَدَّرُوا لَهَا، غَيْرَ خَائِفِينَ مِنْ أَنْ يَأْتِيَ قَدَرُ اللهِ وَقَضَاؤُهُ عَلَىٰ مَا يَكْرَهُونَ، وَمِنْهُ هَلاكُهُمْ وَتَعْذِيبُهُمْ عَلَىٰ كُفْرِيَاتِهِمْ، وَلَوَازِمِهَا فِي السُّلُوكِ.

وَتَحَدَّثَ اللهُ عَنْهُمْ أَيضاً، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ:

• ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾﴾: أي: بَل: أَيُرِيدُونَ كَيْداً يَكِيدُونَهُ ضِدَّ دَعْوَةِ الحقِّ الرَّبَّانِيَّةِ، وضِدَّ الرَّسُولِ ﷺ وَضِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوهُ، فَلْيَعْلَمُوا أَنَّهُمْ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ هُمُ الْمَكِيدُونَ حَقًّا، الَّذِينَ يَنْزِلُ بِهِمْ أَشَدُّ مَا يَكْرَهُونَ، ويُسَلِّمُ اللهُ دِينَهُ وَرَسُولَهُ ﷺ والمؤمِنِينَ وَيَنْصُرُهُمْ عَلَيْهِم.

الكَيْدُ: التدبيرُ الخفيُّ أو الظَّاهِرُ بِحَقٍّ أَوْ بِبَاطِلٍ، وفِيهِ مَكْرُوهٌ لِمَنْ دُبِّرَ ضِدَّه، ويُطْلَقُ الكَيْدُ على الحرْبِ، وإعدادِ وسائِلِها، وعَلَىٰ الْحِيلَة، وعلَىٰ كُلِّ تَدْبِيرٍ يُحَقِّقُ لِصَاحِبِهِ النَّصْرَ أو النَّجاة، أَوْ يُرَادُ بِهِ ذلك.

وتَحَدَّثَ اللهُ عَنْهُمْ أيضاً، فَقَالَ تبارَكَ وَتَعالَىٰ:

• ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾: أي: بَل: أَلَهُم إِلَٰهٌ هُوَ رَبٌّ غَيْرُ اللهِ، فَهٰذَا الإِلَٰهُ يَحْمِيهِمْ مِنْ سَخَطِ اللهِ عَلَيْهِمْ وَعِقَابِهِ، ويَمْنَحُهُمْ مَا يُرِيدُونَ؟!.

فَلْيَعْلَمُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ هُوَ إِلَٰهٌ بِحَقٍّ غَيْرُ اللهِ جَلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ، وتَنَزَّهَ اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وإِلَٰهِيَّتِهِ.

وَاقْتَضَتِ الْحِكْمَةُ الْعِلاجِيَّةُ إِنْذَارَهُمْ بِعَذَابٍ وَإِهْلَاكٍ مُعَجَّلٍ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا، كَمَا أَهْلَكَ اللهُ وَعَذَّبَ كُفَّارَ الأُمَمِ السَّالِفَةِ.

فَتَحَدَّثَ اللهُ عَنْهُمْ أيضاً، فَقَالَ تَبارَكَ وَتَعالَىٰ:

• ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾﴾:

أي: وَإِنْ يَرَوْا جِرْماً عَظِيماً سَاقِطاً عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ لِتَعْذِيبِهِمْ

وإهْلَاكِهِمْ؛ لَاسْتَمَرُّوا فِي أَوْهَامِهِمُ الكُفْرِيَّة، وَلَمْ يَخْطُرْ في بالِهِمْ أَنَّهُ عِقَابٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ هَابِطٌ عَلَيْهِمْ، حَتَّىٰ يَذُوقُوا عَذَابَ اللهِ وَعِقَابَهُ.

وقَبْلَ ذَلِكَ يَقُولُونَ: هٰذَا سَحَابٌ مَرْكُومٌ بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ، فَظَهَرَ لِأَعْيُنِنَا كَأَنَّهُ كُتْلَةٌ صَخْرِيَّةٌ سَوْدَاءُ، وَلَيْسَ هُو إِلَّا سَحَاباً نُغَاثُ بِهِ.

وقَدْ جَمَعَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي هٰذَا الدَّرْسِ مُعْظَمَ كُفْرِيَّاتِ أَهْلِ الكُفْرِ الْمُعَانِدِينَ، الَّذِينَ هُمْ أَئِمَّةُ الكُفْرِ إِبَّانَ تَنْزِيلِ السُّورَة.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الثاني من دُرُوس سورة (الطور).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(٧)

التدبُّر التحليلي للدّرس الثالث من دُروس سورة (الطور) الآيات من (٤٥ ـ ٤٩) آخر السورة

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾:

القراءات:

(٤٥) • قرأ أبو جعفر: [**يَلْقَوْا**].

وقرأهَا بَاقِي القراء العشرة: [**يُلَاقُوا**].

ومُؤَدَّىٰ القراءتَيْنِ واحِدٌ.

(٤٥) • قرأ ابْنُ عَامرٍ، وعاصِمٌ: [يُصْعَقُونَ] بالمبني لما لم يُسَمَّ فَاعِلُهُ.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [يَصْعَقُونَ].

أي: يُصْعَقُونَ، فَهُمْ يَصْعَقُونَ.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ تَوْصِيَةُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ بِمَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَصَرَّفَهُ تُجَاهَ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ وَصَلُوا إلى دَرَكَةٍ مَيْؤُوسٍ مَعَهَا مِنِ اسْتِجَابَتِهِمْ عَنْ طَرِيقِ إرَادَاتِهِمُ الحرَّة.

وفيهَا بَيَانُ الدَّوَاءِ النَّفْسِيِّ والدِّينيّ؛ الَّذِي عَلَىٰ الرَّسُولِ ﷺ أَن يُدَاوِي نَفْسَهُ بِهِ، لِيَمْنَحَهُ اللهُ الْمَدَدَ والْعَوْنَ، ويَصْرِفَ عَنْهُ ما يُمْكِنُ أَنْ يَحْدُثَ لِلنُّفُوسِ في مِثْلِ الوضعِ الّذِي هو فِيهِ من ضِيقِ صَدْرٍ واكْتِئَاب.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ لِرَسُولِهِ ﷺ بِشَأْنِ الَّذِينَ بَلَغُوا دَرَكَةَ الميْؤُوسِ مِنْ إصْلَاحِهِمْ عَنْ طَرِيقِ إرَادَاتِهِمُ الحرَّة:

• ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾﴾:

• ﴿فَذَرْهُمْ﴾: أي: فاتْرُكْهُم. أمَاتَ الْعَرَبُ مَاضِي هـٰذَا الفعل، وهو «وَذَرَ»، وأماتُوا مَصْدَرَهُ، وهُوَ «وَذْراً»، وكَذٰلِكَ لم يَسْتَعْمِلُوا مِنْهُ اسم الفاعل، وهو «واذِر».

وأبْقَىٰ الْعَرَبُ مِنْ هَـٰذِهِ المادَّةِ فِعْلِيْ المضارعِ والْأَمْر: «يَذَرُ» و«ذَرْ».

• ﴿يُصْعَقُونَ﴾: أي: يُهْلَكُونَ، فَيَكُونُونَ هَالِكِينَ مَوْتَىٰ، فَهُمْ بِذَلِكَ

﴿يُصْعَقُونَ﴾: أي: يَموتُون. ويأتي فعل «صَعِقَ» بِمَعْنَىٰ غُشِيَ عَلَيْهِ، ولَكِنَّ المرادَ هُنَا أَنَّهُمْ يَمُوتُون.

• ﴿كَيْدُهُمْ﴾: أي: تَدْبِيرُهُمُ الَّذِي دَبَّرُوهُ ضِدَّ دَعْوَةِ الحقِّ الرَّبَّانِيَّةِ، وضِدَّ الرَّسُولِ ﷺ والمؤمِنِينَ، للتَّخَلُّصِ مِنْهُمْ وَلَو بِالْحَرْب.

المعنى: فاتْرُكْهُمْ يا مُحَمَّدُ حَتَّىٰ يَسْتَقْبِلُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي قَضَىٰ اللهُ أَنْ يَمُوتُوا فِيهِ، فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَصْرِفُ عَنْهُمْ كَيْدُهُمُ الَّذِي كَادُوهُ قَبْلَ مَوْتِهِمْ شَيْئاً، وَلَا يُوجَدُ مِنْ قَوْمِهِمُ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ مِثْلِ كُفرِهِمْ مَنْ يَنْصُرُهُمْ فَيَحْمِيهِمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ، وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ مِنْ قِبَلِ نَاصِرٍ ما، لِأَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ للهِ وَحْدَهُ، بَعْدَ انْتِهَاءِ رِحْلَةِ الامْتِحَانِ فِي ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بَيَانَهُ بِشَأْنِ الَّذِينَ أَمَرَ اللهُ رَسُولَهُ ﷺ بِأَنْ يَتْرُكَهُمْ:

• ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾:

ذَكَرَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِوَصْفِهِمْ بَدَلَ أَنْ يُكَنِّيَ عَنْهُمْ بالضَّمِيرِ، للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّ سَبَبَ تَعْذِيبِهِمْ هُوَ ظُلْمُهُمُ الْعَظِيمُ بالكُفْرِ باللهِ، وجُحُودِ حَقِّ رُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ، والتَّمَرُّدِ عَلَىٰ طَاعَتِهِ.

أَيْ: وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا وَمِنْهُمْ المتَحَدَّثُ عَنْهُمْ فِي سِيَاقِ النَّصِّ عَذَاباً يَمَسُّونَ آلَامَهُ قَبْلَ مَوْتِهِمْ، وَهُوَ دُونَ عَذَابِهِمْ في الْآخِرَة، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ مَا نَزَلَ بِهِمْ مِنْ عَذَابٍ هُوَ عُقُوبَةٌ مِنَ اللهِ لَهُم، بَلْ يَتَصَوَّرُونَ أَنَّهُ مِنْ عَوَارِضِ الدَّهْرِ الطَّبِيعِيَّة.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُخَاطِبُ رَسُولَهُ ﷺ، وَيُلْحَقُ بِهِ كُلُّ دَاعٍ إِلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ:

• ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾:

هـٰذَا هُو النَّصُّ الخامس عشر بِحَسَبِ تَرْتِيبِ النُّزُول الَّذِي يَأْمُرُ اللهُ فِيهِ رَسُولَهُ ﷺ بالصَّبْرِ، وَجَاءَ فِيهِ التَّعْبِيرُ بِعِبَارَة: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾: أَيْ: إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ حَكَمَ بِتَقْدِيرِهِ وَقَضَائِهِ أَنْ يَجْعَلَ النَّاسَ فِي رِحْلَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مُخَيَّرِينَ لِيَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عملاً، وحَكَمَ بِتَقْدِيرِهِ وَقَضَائِهِ أَنْ يُرْسِلَ لَهُمْ رُسُلاً مِنْهُمْ لِيُبَلِّغُوهُمْ مَطَالِبَ اللهِ مِنْهُمْ، وَأَنْ يَقُومُوا بِنُصْحِهِمْ وإِرْشَادِهِمْ وَدَعْوَتِهِمْ إلى سَبِيلِ رَبِّهِمْ، وَأَنْ يَتَّخِذُوا مَا يَمْلِكُونَ مِنْ وَسَائِلَ لإِقْنَاعِهِمْ بالحقِّ رَغْبَةً في اسْتِجَابَتِهِمْ وَنَجَاتِهِمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ، وهـٰذَا سَيُعَرِّضُ الرُّسُلَ إِلَىٰ أذىً كثيرٍ مِنْ قِبَلِ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ، خَوْفاً عَلَىٰ زَعَامَاتِهِمْ في قَوْمِهِمْ أَنْ تُنْتَزَعَ مِنْهُمْ، وَكُلُّ هـٰذَا مِنْ لَوَازِمِ حُكْمِ اللهِ بِتَقْدِيرِهِ وقضائِهِ، فَأَمَرَ اللهُ رَسُولَهُ محمّداً ﷺ وَيُلْحَقُ بِهِ حَمَلَةُ رِسالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ؛ فقال لَهُ: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾.

وتَلْطِيفاً لِهـٰذَا الأَمْرِ الَّذِي فِيهِ شِدَّةٌ؛ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ لَهُ ﷺ: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾: دَلَّتْ هـٰذِهِ الْعِبَارَةُ بأسْلُوبِ الكِنَايَةِ؛ عَلَىٰ طَمْأَنَتِهِ ﷺ بِأَنَّهُ مَحْرُوسٌ بِحِرَاسَةِ اللهِ، مَحْفُوظٌ بِحِفْظِهِ، لَا يَنَالُهُ مِنْ أَذَىٰ أَعْدَاءِ رِسَالَتِهِ وَدَعْوَتِهِ مَا يَضُرُّهُ، فَلْيَصْبِرْ عَلَىٰ أذىً لَا يَصِلُ إِلَىٰ عُمْقِ النَّفْسِ مُؤْلِماً لَهَا بِشِدَّة، فَهُوَ مُحَاطٌ بِكُلِّ أَعْيُنِ رَبِّهِ الْحَارِسَةِ، وَبِقُدْرَتِهِ الحافِظَة.

وَقَدْ جَاءَ في النّصّ الخامس بِحَسَبِ تَرْتِيبِ النُّزُولِ قَوْلُ اللهِ لَهُ في سورة (ق/ ٣٤ نزول):

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾:

- **قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ**: وَهـٰذَا الْوَقْتُ يَمْتَدُّ مِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْفَجْرِ حَتَّىٰ طُلُوعِ الشمس.

- **وقَبْلَ غُرُوب الشمس**: وهـٰذَا الوقْتُ يَمْتَدُّ مِنْ بَدْءِ اصْفِرَار الشَّمْسِ حَتَّىٰ غُرُوبها.

• **وأثْنَاءَ اللَّيْل**: وَهـٰذَا يَكُونُ فِي وَقْتٍ مَا أَوْ أَكْثَر مِنْ بَعْدِ صَلَاةِ المغْرِب حَتَّىٰ طُلُوعِ الْفَجْرِ.

• **وأَدْبَارَ السُّجُودِ**: أي: وعَقِبَ كُلِّ صَلَاة.

وجاء في النّصّ الحادي عشر بِحَسَبِ تَرْتِيبِ النُّزُولِ؛ قَوْلُ اللهِ لَهُ في سورة (غَافر/ ٦٠ نزول):

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٥﴾﴾:

فَأَضَافَ هـٰذَا النصّ أَمْرَ اللهِ رَسُولَهُ ﷺ بِأَنْ يَسْتَغْفِرَ لِذَنْبِهِ، أَمَّا الْعَشِيُّ والإبْكَار؛ فَهُمَا تَوْكِيدٌ لِمَا جاء في النّصّ الخامِسِ الّذِي هو مِنْ سُورَةِ (ق/ ٣٤ نزول): ﴿... وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾.

ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ النَّصَّ الَّذِي مِنْ سُورَةِ (الطور/٧٦ نزول) فقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ:

• ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾:

فَأَضَافَ هـٰذَا النَّصُّ إِلَىٰ مَا سَبَقَ مَا يلي:

(١) التَّسْبِيحَ عِنْدَ حَرَكَةِ كُلِّ قِيَام.

(٢) التسْبِيحَ عِنْدَ السَّحَرِ فِي وَقْتِ إِدْبَارِ النُّجُوم.

إِنَّ دَوَاءَ التّسْبِيحِ لِمُعَالَجَةِ ضِيقِ النَّفْسِ، والْكَرْبِ الَّذِي يَضْغَطُ عَلَيْهَا؛ أَفْضَلُ عِلَاجٍ يَسْتَعْمِلُهُ الْمُؤْمِنُ الذَّاكِرُ لِرَبِّهِ.

والتَّعْبِيرُ المأثُورُ فِي هـٰذَا:

سُبْحَانَ اللهِ ـ سُبْحَانَ اللهِ وبِحَمْدِهِ ـ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ.

وتَعْبِيرُ الاسْتِغْفَارِ: أَسْتَغْفِرُ الله.

وَمَا زَادَ مِنْ ذِكْرٍ وَدُعَاءٍ مَأْثُورٍ فَهُوَ خَيْر، مِثْل: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وبِحَمْدِكَ، أشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي وَأَتُوبُ إِلَيْكَ، عَمِلْتُ سُوءاً وَظَلَمْتُ نَفْسِي، وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي لِأَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِين.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الثالث من دُرُوس سورة (الطُّور) وهُوَ خِتَامُ السّورة.

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(٨)
ملحق: مستخرجات بَلاغِيّة من سُورة (الطور)

في هَـٰذِهِ السورة من الاختيارات البلاغيّة أمْثِلَة مُتَعَدِّدَة، أقتَصِرُ مِنْهَا على مَا يلي:

أوّلاً:

من التَّوْكِيدِ لِوُجُودِ الدَّاعِي إليه: قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي بِدايَةِ السورة مُقْسِماً بِبَعْضِ مَا لَهُ فِي دِينِ اللهِ مَكَانَةٌ رَفِيعَةٌ، وَبَعْضِ آيَاتِ خَلْقِهِ فِي كَوْنِهِ؛ على أنَّ عَذَابَهُ لِمُسْتَحِقِّي الْعَذَاب مِنْ عِبَادِهِ المجْرِمِينَ لأَمْرٌ وَاقِعٌ لَا مَحالَة، وَهـٰذَا التَّوْكِيدُ مُوجَّهٌ لِلْكَفَرَةِ المكَذِّبِينَ، وللشَّاكِّين، فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَـٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝٥ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾.

ثانياً:

مِنْ فُنون المنْهج الْبَيَانِيِّ في القرآنِ: اسْتِقْطَاعُ النُّصُوصِ مِنْ أَزْمَانِهَا

المسْتَقْبَلِيَّة، وعَرْضُهَا بألْفَاظِهَا دُونَ الإشَارَة إلَىٰ أنَّهُ سَيكُونُ كَذَا فِيمَا سَوْفَ يَأْتِي مِنْ أَحْدَاث.

ومِنْ أَمْثِلَةِ هٰذَا الفَنّ الَّذِي لَمْ يُسْبَقِ القرآنُ إلَىٰ مِثْلِهِ مِنْ قِبَلِ الْبُلَغَاءِ؛ الأمْثِلَةُ التَّالِية:

المثال الأول:

مَا جَاءَ في قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

المثال الثاني:

مَا جَاءَ في قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

المثال الثالث:

مَا جَاءَ في قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في الحديث عن المتقين أصحاب الجنَّة:

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾.

وأكتَفِي بِهٰذِهِ المستخرجَاتِ البلاغيَّةِ لِهٰذَا الملْحَق.

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

سُورَة الملك

٦٧ مصحف ٧٧ نزول

وتسمى سورة تبارك
وهي سورة مكيّة كلُّها



(١)

نصّ السورة وما فيها مِن فرش القراءات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ

---

٣ ـ • قرأ حمزة، والكسائي: [تَفَوُّتٍ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [تَفَاوُتٍ].
والمُؤدّى فيما أرىٰ واحد.

٤ ـ • قرأ أبو جعفر: [خَاسِياً] في الوصل والوقف، والأَصْبَهاني عَنْ وَرْش،
وقرأها حمزة كذلِكَ في الوقف.
وقرأَها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [خَاسِئاً].

مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۢ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ بَل لَّجُّواْ

---

١١ ـ • قرأ الكسائي، وابن وَرْدان بخلفهما، وابن جَمّاز: [فَسُحُقاً] بضم الحاء.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشرَةِ: [فَسُحْقاً] بإسْكان الحاء. وهو الثَّاني للكسائي، وابن وردان.
وهُمَا لغتان في مصدر فِعْلِ «سَحِقَ»، بمَعْنَى: بَعُدَ أَشَدَّ الْبُعْد.

١٧ ـ • قرأ ورْش: [نَذِيري] في الوصل، وكذلك قرأهَا يَعْقُوب في الوصل والوقف.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشرَةِ: [نَذِيرِ] بحذف ياء المتكلم في الوصل والوقف.

١٨ ـ • قرأ ورْشٌ: [نكِيري] في الوصل، وكذلك قرأ يعقوب في الوصل والوقف.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [نكِيرِ] بحذف ياء المتكلّم في الوصل والوقف.

٢٠ ـ • قرأ السوسي: [يَنْصُرْكُمْ] بإسكان الراء، واختلاس ضمّتها، والدوري بالإسكان، والاختلاس، والضمّة الكاملة.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشرَةِ: [يَنْصُرُكُمْ].

فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾

٢٧ ـ • قرأ يَعْقُوب: [تَدْعُونَ]. وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [تَدَّعُونَ] بتَشْدِيد الدّال.

٢٨ ـ • قرأ حمزة: [أَهْلَكَنِي اللهُ] بإسْكَانِ ياء المتكلّم.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرة بفتح ياء المتكلم.

٢٨ ـ • قرأ نافع، وابْنُ كَثير، وأبو عَمْرو، وابْنُ عَامِرٍ، وحفص، وأبو جعْفر: [ومَنْ مَعِيَ أَوْ] بفتح ياء المتكلم.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بإسْكَانِ ياء المتكلّم.

٢٩ ـ • قرأ الكِسَائي: [فَسَيَعْلَمُونَ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [فَسَتَعْلَمُونَ].
وبينهما تكامل في الأدَاء البياني، إحداهما بالخطاب، والأخرى بالغيبة.

(٢)
ممّا وَرَد في السنة بِشأنِ سُورة (الملك)

(١) روى أحْمَد، وأبو داود، والتِّرمذي، والنَّسائي، وابْنُ ماجه، والحاكم وصحَّحه، عَنْ أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

«إنَّ سُورَةً مِنْ كِتَابِ اللهِ مَا هِي إلَّا ثَلَاثُونَ آيَة شَفَعَتْ لِرَجُلٍ حَتَّىٰ غُفِرَ لَهُ ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ . . .». قال الترمذي: هذا حديثٌ حسن.

(٢) ورویٰ النَّسائيُّ وصحَّحَهُ، عن رافعِ بْن خَدِيجٍ وأبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُما؛ أَنَّهُمَا سَمِعَا رَسُول اللهِ ﷺ يَقُول:

«أُنْزِلَتْ عَلَيَّ سُورَة (تَبارَكَ) وَهِيَ ثَلاثُونَ آيَةً جُمْلَةً واحِدَة، وهِيَ الْمَانِعَةُ فِي الْقُبُور».

أي: الّتِي تَمْنَعُ عن الْمُواظِبِ عَلَىٰ تِلاوَتِهَا والمؤمِنِ بِهَا عَذابَ الْقَبْر.

(٣) ورُوِي عن ٱبْنِ عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُما؛ عَنِ النبيّ ﷺ قولَه بشأن سورة (تبارك):

«لَوَدِدْتُ أَنَّهَا فِي قَلْبِ كُلِّ إنْسَانٍ مِنْ أُمَّتِي».

(٣)
موضُوعُ سُورَةِ (المُلك)

يَدُور مَوْضُوعُ هَـٰذِهِ السُّورَة حَوْلَ مُعَالَجَةِ الكَفَرَةِ المكَذِّبينَ بِيَوْم الدِّينِ، فِي عِدَّةِ قَضَايَا مِنْ كُفْرِيَّاتِهِمْ، بأَسَالِيبَ بَيَانِيَّةٍ رَائِعَةٍ مُعْجِزَةٍ، تَهُزُّ الْقُلُوبَ الَّتِي لَمْ تَمُتْ مِنْ جُذُورِهَا، وَتُحِيطُ بالنُّفُوسِ الَّتِي لَمْ تَمُتْ إحْسَاسَاتُها وَمَشَاعِرُهَا.

(٤)
دُروس سورة (الملك)

هَـٰذِهِ السُّورة تَصْلُحُ لِأَنْ تَكُونَ بِمَثَابَةِ دَرْسٍ واحِدٍ لأنَّ آيَاتِهَا مُتَعَانِقَةٌ تَعَانُقاً مُتَداخِلاً.

وَيُمْكِنُ تَقْسِيمُهَا إلى دَرْسَيْن:

الدَّرْس الأول: الآيات من (١ ـ ٢٢):

وفي آياتِ هٰذَا الدَّرْسِ مُعَالَجَةٌ مُباشِرَةٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلْكَفَرَةِ والمشْرِكِينَ بِشَأْنِ طائِفَةٍ مِنْ قَضَايَا كُفْرِيَّاتِهِم.

الدرس الثاني: الآيات من (٢٣ ـ ٣٠) آخر السورة:

وفي آياتِ هٰذَا الدَّرْسِ تَكْلِيفُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ مُحَمَّداً ﷺ، ويُلْحَقُ بِهِ حَمَلَةُ رِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ؛ أَنْ يُتَابعَ مُعَالَجَةَ المَقْصُودِينَ بالْمُعَالَجَةِ في السُّورَةِ، بِمَا أَمَرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ فِيها.

❀ ❀ ❀

(٥)
التدبّر التحليلي للدّرسِ الأول مِن دَرسَي سورة (الملك)
الآيات من (١ ـ ٢٢)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا

لِأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾:

القراءات:

(٣) • قرأ حمزة، والكِسَائِي: **[تفوُّتٍ]**.

وقرأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[تفاوُتٍ]**.

والمؤدَّىٰ فيما أرىٰ وَاحِدٌ.

(٤) • قرأ أبو جَعفر: **[خَاسِياً]** في الوصل والْوَقف، والأصبهاني عن وَرْش، وقرأها حمزة كذلِكَ فِي الوقف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[خاسِئاً]**.

(١١) • قرأ الكِسَائِي، وابن وَرْدان بخلفهما، وابن جمّاز: **[فَسُحُقاً]** بضمّ الحاء.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[فَسُحْقاً]** بإسكان الحاء. وهو الثّاني للكسائي، وابن وَرْدَان.

سُحْقاً، وسُحُقاً: لغتان في مَصْدَرِ «سَحِقَ»، بمَعْنَىٰ بَعُدَ أَشَدَّ الْبُعْد.

(١٧) • قرأ ورش: **[نَذِيرِي]** في الوصل، وكذلِكَ قرأها يَعْقُوبُ في الوصل والوقف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [نَذِيرِ] بحذف ياء المتكلِّم في الوصْلِ والوقف.

(١٨) • قرأ ورش: [نَكِيرِي] في الوصل، وكذلِكَ قَرأَهَا يَعْقُوبُ في الوصل والوقف.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [نَكِيرِ] بِحَذْفِ ياء المتكلّم في الوصْلِ والوقف.

(٢٠) • قرأ السوسيّ: [يَنْصُرْكُمْ] بإسكان الراء، واختلاس ضمّتها، والدوري بِالإسْكان، والاختلاس، والضمّة الكاملة.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [يَنْصُرُكم].

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ مُعَالَجَةٌ مُبَاشِرَةٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلْكَفَرَةِ والمشركين، بِشَأْنِ طَائِفَةٍ مِنْ قَضَايا كُفْرِيَّاتِهِمْ.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾:

• ﴿تَبَارَكَ﴾: أَي: تَنَامَىٰ، وَتَزَايَدَ، وَتَعَاظَمَ اللهُ، بالإطْلَاقِ الْعَامّ، فَوْقَ كُلِّ مَا يَصِفُهُ الواصِفُونَ مِنْ كَمَالَات.

ولفظ «تَبَارَكَ» على وزَنِ «تفاعَلَ» مِنَ الْبَرَكَةِ، وهي في اللُّغَةِ: النَّمَاءُ والزِّيَادَةُ في الحسِّيَّات أو المعنويَاتِ. رُوِي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أَنَّ البركةَ الكَثْرَةُ فِي كُلِّ خَيْرٍ.

• ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾: **الْمُلْكُ، والْمَلْكُ، والْمِلْكُ**: حِيَازَةُ الشَّيْءِ، والانْفِرَادُ بِحَقِّ التَّصَرُّفِ فِيهِ، وكذلك السُّلْطَانُ على الْحَيّ الْمُرِيدِ بالْأَمْرِ والنَّهْيِ وَبِكُلِّ مَا يَسُرُّهُ أَوْ يَسُوؤُه، وَيُطْلِقُ قُدْرَاتِهِ أَوْ يُقَيِّدُها.

والذي بيده الملك هو الله جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

أي: بِيَدِهِ الْقَادِرَةِ عَلَىٰ التَّصَرُّفِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ: لَهُ الْمُلْكُ، والْمَلْكُ، والْمِلْكُ.

أَمّا بِمَعْنَىٰ الحِيَازَةِ والانْفِرَادِ بِحَقِّ التَّصَرُّفِ؛ فاللهُ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ مَالِكُ كُلِّ شَيْءٍ، لِأَنَّهُ خَالِقُ كُلِّ شيءٍ سِوَاهُ، ورَبُّ كُلِّ شيءٍ سِوَاهُ، فِي الْوُجُودِ كُلِّه، وتَمَلُّكُ الْعِبَادِ لِبَعْضِ الْأَشْيَاءِ نَاتِجٌ عَنْ تَمْلِيكَ اللهِ ذَلِكَ لَهُمْ، وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ إِقْدَارٌ عَلَىٰ الانْتِفَاعِ ولَيْسَ تَمْلِيكاً حَقِيقِيًّا، لِأَنَّهُمْ وَمَا أَقْدَرَهُمُ اللهُ على الانْتِفَاعِ بِهِ مِلْكٌ لَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، كَمَنْ يَضَعُ لِحِصَانِهِ طَعَامَهُ وشَرَابَهُ وَمَأْواه.

وَأَمَّا بمَعْنَىٰ السُّلْطَانِ على الأحياء المريدين؛ فاللهُ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ وَحْدَهُ الْمَلِكُ عَلَىٰ كُلِّ فَرْدٍ مِنْهُمْ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحُكْمُ وَلَهُ السُّلْطَانُ الْحَقِيقِيُّ عَلَىٰ كُلِّ الأحياء الْمُرِيدِينَ، إِذْ هُمْ مَخْلُوقُونَ لَهُ، وهُمْ عَبِيدُه.

وبِحِكْمَتِهِ فِي حَيَاةِ الابْتِلَاءِ؛ يُؤْتِي تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مُلْكاً صَغِيراً جُزْئِيًّا لَهُ شَبَهٌ فِي بَعْضِ أفْرَادِهِ بِالْمُلْكِ الْحَقِيقيّ الَّذِي هُوَ لَهُ؛ بَعْضَ عِبَادِهِ فِي مجتَمَعَاتِ النَّاسِ، نظراً إلى أنَّ حَيَاة الابْتِلَاءِ حَيَاةُ أَسْبَابٍ وَمُسَبَّبات.

• ﴿... وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾: أي: وهو ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ على كُلِّ شَيْءٍ يَشَاؤُهُ مِنَ الْمُمْكِنَاتِ الْعَقْلِيَّةِ قَدِيرٌ، إيجاداً أَوْ إعداماً، أَوْ تَغْيِيراً، أو تَحْوِيلاً، أَوْ أيَّ تَصَرُّفٍ مَهْمَا كَانَ عَظِيماً أَوْ دَقِيقاً.

• ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾:

أَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بهـٰذا أَنَّ الْمَوْتَ أَثَرُ خَلْقٍ رَبَّانِيّ، وَأَنَّ الْحَيَاةَ أَثَرُ خَلْقٍ رَبَّانِيّ، وَقَدْ سَبَقَ أَنْ ظَهَرَ لَنَا أَنَّ الْحَيَاةَ تَكُونُ باتِّصَالِ الرُّوحِ بالنَّفْسِ، وأَنَّ الْمَوْتَ يَكُونُ بانْفِصَالِ الرُّوحِ عَنِ النَّفْس، ومَعْلُومٌ أَنَّ الْوَصْلَ مُسَاوٍ لِلْفَصْلِ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا فِي الْوُجُودِ عَمَلٌ مِنْ أعْمَالِ الْخَلْقِ الرَّبَّانِيّ، وذَكَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ كُلَّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ، مَهْمَا كان حَالُ هَـٰذِهِ النَّفْسِ فِي كَوْنِ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ، إِذْ كُلُّ نَفْسٍ سِوَىٰ اللهِ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ.

وأبانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ الْغَايَةَ مِنْ خَلْقِ الْمَوْتِ والحياة، بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ النَّاسِ؛ ابْتِلَاؤُهُمْ فِي ظُرُوفِ الحياة الدُّنْيَا، وَجَاءَ في نُصُوصٍ أُخْرَىٰ أَنَّ الْجِنَّ مِثْلُ الإنْسِ ابْتِلَاءً وَجزَاءً، وَقُدِّمَ الموتُ على الحياة للإشعارِ بأنَّ الموْت تكون بعْدَهُ الحياة الأخرى.

• ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾: لِيَمْتَحِنَكُمْ وَلِيَخْتَبِرَكُمْ ويَكْشِفَ بِابْتِلَائِكُمْ أَيُّكُمْ أحْسَنُ عَمَلاً، وَيُجَازِيَ كُلَّ فَرْدٍ مِنْكُم بِحَسَبِ دَرَجَتِهِ في عَمَلِهِ خِلَالَ رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ.

وطَوَىٰ النَّصُّ مَا يُقَابِلُ عِبَارَة: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ وهي عِبَارَةُ: «وَأَيُّكُمْ أَسْوَأُ عَمَلاً».

وَمِنَ الْمُظْهَرِ وَالْمَطْوِيّ وَوَاقِعِ حَالِ الْمَوْضُوعِينَ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ؛ نَفْهَمُ أَنَّ ذَوِي الأعْمَالِ الْحَسَنَةِ يَتَفَاضَلُونَ في الدَّرَجَاتِ مِنْ أَدْنَاهَا إلى قِمَّتِهَا الَّتِي يَصِلُ إِلَيْهَا أَئِمَّةُ الْمُرْسَلِينَ، وَنَفْهَمُ أَنَّ ذَوِي الأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ يَتَنَازَلُونَ في الدَّرَكَاتِ حَتَّىٰ أخَسِّهَا وَأَحَطِّهَا، الَّتِي يَنْحَطُّ إِلَيْهَا إِبْلِيسُ وَشَيَاطِينُهُ وأَتْبَاعُهُ مِنْ مُجْرِمِي الإِنْسِ.

ونَفْهَمُ مِنْ صِفَتَي الْعَدْلِ والْفَضْلِ للهِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ؛ أَنَّ لِكُلِّ أَصْحَابِ دَرجَةٍ مِنَ الْجزَاءِ بالْفَضْلِ مَا يُلَائِمُ درَجتَهُمْ، وَأَنَّ لِكُلِّ أَصْحَابِ دَرَكَةٍ مِنَ الْجَزَاءِ بالْعَدْلِ مَا يُلَائِمُ دَرَكَتَهُمْ.

أَمَّا الْجَزَاءُ الأَوْفَىٰ بالْفَضْلِ فَفِي جَنَّاتِ النَّعِيم، وأَمَّا غَايَةُ الْجَزَاءِ الحكِيم بالْعَدْلِ ففي دَارِ الْعَذَابِ النَّارِ، وَقَدْ أَعَدَّهُمَا اللهُ تبارَكَ وَتَعَالَىٰ لِيَوْمِ الدِّينِ.

• ﴿... وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾: أي: وهو تَبارَكَ وَتَعَالَىٰ ذُو الْقُوَّةِ الْغَالِبَة، يُجَازِي الْمُسِيئِينَ بِعِزَّتِهِ، وَيَغْفِرُ لِمَنْ تَقْتَضِي حِكْمَتُهُ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ كُلَّ ذُنُوبِهِ أَوْ بَعْضَهَا.

الْعَزِيزُ: أي: الْقَوِيّ الْغَالِبُ، الَّذِي لَا تُعَارِضُ وَلَا تُقَاوِمُ قُوَّةٌ فِي الْوُجُودِ قُدْرَتَه.

الْغَفُور: أي: الكَثِيرُ المغْفِرَةِ بِسَتْرِ ذُنُوبِ عِبَادِهِ وخَطَايَاهُمْ، أَصْلُ معنى «الْغَفْرِ»: السَّتْرُ، وَصِيغَةُ «غَفُورٍ» صِيغَةُ مُبَالَغَة، وهِي بالنِّسْبَةِ إلى اللهِ تَبارَكَ وَتَعَالَىٰ تَدُلُّ عَلَىٰ أَقْصَىٰ مَا يَلِيقُ بِهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بَيَانَ بَعْضِ آثارِ خَلْقِهِ في كَوْنِهِ:

• ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ۝٤﴾:

تَكَرَّرَ في القرآنِ بيانُ أَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ خَلَقَ سَبْعَ سَمَاواتٍ مُرْتَفِعَاتٍ عَالِيَاتٍ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ سُكَّانِ الأَرْض، وأَمَّا كَوْنُهُنَّ طِباقاً:

فَقَدْ سَبَقَ أَنْ جاء في سورة (نوح/ ٧١ نزول) أَنَّ نُوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ۝١٥﴾؟؟!:

طِباقاً: اسم مَصْدَر، يُقَالُ لُغَةً: «طَابَقَهُ، مُطَابَقَةً، وَطِبَاقاً»، والمطابَقَةُ في اللُّغَةِ: الْمُوَافَقَة، والتَّسَاوِي، تَقُولُ لُغَةً: «طَابَقْتُ بَيْنَ الشَّيْئَيْن» أي: جَعَلْتُهُمَا عَلَىٰ حَذْوٍ وَأَلْزَقْتُهُمَا، وَتَقُول: «طَابَقْتُ بَيْنَ الْقَمِيصَيْنِ، أَو بَيْنَ الثَّوْبَيْنِ» أي: لَبِسْتَ أَحَدَهُمَا علىٰ الآخر.

وقَدْ جعَلَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ السَّماوَاتِ السَّبْعِ طِبَاقاً، أي: جعَلَ بَعْضَها فَوْقَ بَعْضٍ بِتَتابُعٍ، كَثَوْبٍ فَوْقَهُ ثَوْبٌ آخَرَ، وَهَكَذَا إِلَىٰ سَبْعَةِ أثْوَابٍ، أَوْ مِثْلَ كُرَاتٍ مُتَدَاخِلَاتٍ، فَالْكُرَةُ الْوُسْطَىٰ فَوْقَها كُرَةٌ أُخْرَىٰ حوْلَها، وَهَكَذا إِلَىٰ سَبْعِ كُرَاتٍ، كُلُّ كُرَةٍ تَالِيَةٍ تُحِيطُ بالْكُرَةِ الدَّاخِلَةِ فيها.

المعنى: الَّذِي خَلقَ الْمَوْتَ والْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُم أَحْسَنُ عَمَلاً؛ هُوَ الَّذِي خَلَقَ في كَوْنِهِ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ، وَجعَلَهَا طِبَاقاً.

• ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ... ③﴾: وفي القراءة الأخرىٰ: [**مِنْ تَفَوُّتٍ**]:

التفاوُتُ: التَّبَايُنُ والاخْتِلَاف.

والتَّفَوُّت: الاخْتِلَافُ والاضطراب.

الْمَعْنَىٰ: مَا تَرَىٰ أَيُّها النَّاظِرُ الْبَاحِثُ الْمُدَقِّقُ، فِي كُلِّ مَخْلُوقٍ خَلَقَهُ فِي كَوْنِهِ؛ مِنْ تَبايُنٍ واخْتِلَافٍ أَوِ اضْطِرابٍ وَتَخَلْخُلٍ عَنْ قُصْوَىٰ دَرَجَاتِ إِتْقَانِهِ لِمَا خُلِقَ لَهُ، فَكُلُّ مَخْلُوقَاتِ اللهِ بَالِغَةٌ قُصْوَىٰ دَرَجَاتِ إِتْقَانِهَا لِمَا خُلِقَتْ لَهُ، فَلَا يَكُونُ بَيْنَهَا تَبايُنٌ وَلَا تَنَاقُضٌ وَلَا اضْطِرَاب، وَلَا نُقْصَانٌ عَنْ كَمَالِ إِتْقَانِهَا لِمَا خُلِقَتْ لَهُ، ضِمْنَ نِظَامِ الْكَوْنِ التَّكَامُلِيِّ الْقَائِمِ عَلَىٰ وَحْدَةِ خُطَّةٍ عَامَّةٍ شَامِلَةٍ، كُلُّ جُزْءٍ فِيهَا يُؤَدِّي وَظِيفَتَهُ أَكْمَلَ أَدَاءٍ وَأَتْقَنَهُ، كَآلَةٍ عَظِيمَةٍ ذَاتِ أَجْزَاءٍ لَا يَعْلَمُ مِقْدَارَ أَعْدَادِهَا إِلَّا خَالِقُهَا الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ، وَكُلُّ جُزْءٍ مِنْ هَـٰذِهِ الْأَجْزَاءِ مَوْضُوعٌ بإِحْكَامٍ وَإِتْقَانٍ، فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي يُؤَدِّي فِيهِ وَظِيفَتَهُ أَحْسَنَ أَدَاء، دُونَ خَلَلٍ أَوِ اضْطِرَابٍ أَوْ تَبايُنٍ وَتَنَاقُضٍ وَتَباعُدٍ عَنْ مَكَانِهِ.

• ﴿... فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ③ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ④﴾:

• ﴿مِن فُطُورٍ﴾: أي: مِنْ شُقُوق، جَمْعُ «فَطْر».

• ﴿كَرَّتَيۡنِ﴾: أي: رُجُوعاً مَرَّتَيْن، **الكَرَّة**: واحِدَة الْكَرِّ، وَهُوَ: الإِعَادَةُ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّة.

• ﴿خَاسِئٗا﴾: **الْخَاسِئُ**: الذَّلِيلُ المطْرُودُ الْمُبْعَدُ.

• ﴿وَهُوَ حَسِيرٞ﴾: أي: وهُوَ كَالٌّ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُتَابعَ وَيُدَقِّق، إِذْ لَا يَجِدُ في مَخْلُوقَاتِ اللهِ مَا هُوَ دُونَ كَمَالِ الإِتْقَانِ، مَهْمَا اتَّخَذَ مِن أَدَوَاتٍ تُكَبِّرُ الأَشْيَاءَ الصَّغِيرَةَ مَلَايِينَ الْمَرَّاتِ، وتُقَرِّبُ الْأَشْيَاءَ الْبَعِيدَةَ فِي أَبْعَادِ السَّمَاءِ لِلْمُشَاهَدَةِ الْبَصرِيَّةِ، حَتَّىٰ كَأَنَّهَا فِي مَدَىٰ خُطُواتٍ.

المعنى: فَأَعِدْ مُشَاهَدَتَكَ الْبَصَرِيَّةَ، وانْتَظِرْ مُتَأَنِّياً بَاحِثاً مُدَقِّقاً، واتَّخِذْ مَا شِئْتَ مِنْ مَجَاهِرَ مُكَبِّرَةٍ لِلصُّغْرَيَات، ثُمَّ كَرِّرْ مُشَاهَدَتَكَ بِتَعْظِيم المكَبِّرَاتِ وَتَحْسِينِهَا، وَاعْلَمْ أَنَّ بَصَرَكَ في آخِرِ مُحَاولَاتِ بَحْثِكَ وَتَدْقِيقكَ رَاغِباً في أَنْ تَشْهَدَ تَفَاوتاً أَوْ تَفَوُّتاً فِي خَلْقِ الرَّحْمٰنِ؛ يَنْقَلِبْ رَاجعاً إِلَيْكَ حَالَةَ كَوْنِهِ ذَلِيلاً عَاجِزاً، وَكَالًّا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَجِدَ فِي خَلْقِ الرَّحْمٰنِ مَا هُو دُونَ كَمَالِ الإِتْقَانِ.

إِنَّ رِجَالَ الْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ، الْعَاكِفِينَ عَلَىٰ مُشَاهَدَةِ الجراثِيم والمكْرُوبَاتِ بالمكَبِّرَاتِ العظيمَةِ لِلصُّغْرَيَاتِ؛ وَجَدُوا أَنَّ عَوالِمَ الصَّغَائِرِ عَوالِمُ مُتْقَنَةٌ غَايَةَ الإِتْقَانِ، فَلَا تَفَاوُتَ فِيهَا وَلَا تَفَوُّتَ، وَلَا تَبَاعُدَ عَنْ كَمَالِ الإِتْقَانِ بِأَقَلِّ مَسَافَةِ تَبَاعُد.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً التَّنْبِيهَ عَلَىٰ بَعْضِ آيَاتِهِ الْجَلِيلَةِ في كَوْنِهِ:

• ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥﴾:

• ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾: يُؤَكِّدُ اللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ بالْقَسَم المنوِيّ وبحرف «قَدْ» أَنَّهُ زَيَّنَ السَّمَاءَ الدُّنْيَا، وَهِيَ الغِلَافُ الْغَازِيُّ الْمُحِيطُ بالْأَرْض بِمَصابيح.

التَّزْيِينُ: التَّحْسِينُ والتَّجْمِيلُ.

بِمَصَابِيحَ: جَمْعُ «مِصْباحٍ»، وهُوَ السِّرَاجُ المضِيءُ، أَطْلَقَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ عَلَىٰ النُّجُومِ وعلَىٰ الشُّهُبِ الَّتِي تُرَىٰ في السَّمَاءِ الدّنْيا اسم «مَصَابِيح» لِمَا فِيها مِن إِضَاءَةٍ ذَاتِ زِينَة.

﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾: أي: وَجعَلْنَا قِسْمَ الشُّهُبِ مِنْهَا رُجُوماً يُرْجَمُ بِهَا الشَّيَاطِينُ، لِطَرْدِهِمْ عَنِ اسْتِرَاقِ السَّمْعِ مِنَ الملائكة، وهِيَ نَيَازِكُ مُنْبَثَّةٌ فِي الْفَرَاغِ فَوْقَ الْغِلَافِ الغازي المحيط بالْأَرْض، وهَـٰذِهِ الشُّهُبُ ذَاتُ وَظِيفَتَيْنِ:

الوظيفة الأولى: وَظيفة المشَارَكَةِ فِي تَزْيين السَّماءِ الدُّنْيَا للنَّاظِرِينَ فِي الْأَرْض.

الوظيفَةُ الثَّانِيَة: وَظِيفَةُ مُلَاحَقَةِ شَيَاطِينِ الْجِنِّ، الَّذِينَ يَصْعَدُونَ مُتَرَاكِبِينَ إِلَىٰ عَنَانِ السَّمَاءِ، لاسْتِرَاقِ السَّمْعِ مِن الملائكة، وقَدْ سَبَقَ بَيَانُ هٰذَا لَدَىٰ تَدَبُّرِ سورة (الجنّ/ ٤٠ نزول).

أَدْخَلَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ الشُّهُبَ ضِمْنَ عُمُوم المصَابِيحِ لِمَا فِيهَا مِنْ زِينَةٍ، وَهِيَ الَّتِي جَعَلَ تَبارَكَ وَتَعَالَىٰ مِنْ وَظائِفِهَا الغيبيَّةِ عَنْ إِدْرَاكِ النَّاس؛ أَنَّهَا رُجُومٌ للشَّياطِين.

• ﴿... وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ۝٥﴾: أي: وَأَعْدَدْنَا وَهَيَّأْنَا بِعِنَايَةٍ مُشَدَّدَةٍ للشَّيَاطِين عَذَابَ السَّعِير، يُعَذِّبُونَهُ فِي جَهَنَّمَ يَوْمَ الدِّينِ.

السَّعِير: النَّارُ، وقِيلَ: لَهَبُ النَّار.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بَعْدَ بَيَانِ مَا أَعْتَدَهُ للشَّيَاطِينِ، بِشَأْنِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ بِوَجْهٍ مَا مِنْ وُجُوهِ الكُفْر، عَطْفاً عَلَىٰ مَا جاءَ في الآيَةِ الْخَامِسَة:

• ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝٦ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا

لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾:

فِي هَـٰذِهِ الآيَاتِ عَرْضُ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الدِّين، الْخَاصَّةِ بالْكَافِرِينَ بِرَبِّهم.

• ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾: أي: ولِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ بِوَجْهٍ مَا مِنْ وُجُوه الكُفْر، كَتَكْذِيبِ رَسُولِهِ ﷺ، وكالتَّكْذِيب بِكتَابه، وَكالتَّكْذِيبِ بِيَوْمِ الدِّينِ الَّذِي أَعَدَّهُ فِي خُطَّةِ التَّكْوِين لِلْجَزَاءِ، وَكإِنْكَارِ إِلَٰهِيَّتِهِ وَحَقِّهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوه، إِلَىٰ غَيْرِ ذَٰلِكَ مِنْ وُجُوه الكُفر؛ لِهؤُلَاءِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابٌ بالْعَدْلِ خَالِدٌ فِي جَهَنَّمَ.

جَهَنَّم: اسْمٌ عَلَمٌ مِنْ أَسْمَاءِ النَّارِ دَارِ العذاب الَّتِي أَعَدَّهَا اللهُ لِيُعَذِّبَ بها الْكَافِرِينَ والْعُصَاةَ يَوْمَ الدِّينِ، وهُو مَمْنُوعٌ مِنَ الصَّرْفِ لِلْعَلَمِيَّةِ والتَّأْنِيث، ويُقَالُ لُغَةً لِلقَعْرِ الْبَعِيدِ: جَهَنَّم. وبِئْرٌ جَهَنَّمٌ: أي: بَعِيدَةُ الْقَعْر.

وعَذَابُ جَهَنَّمَ أَشَدُّهُ عَذَابُ الْحَرِيقِ بِلَهَبِهَا، ومِنْ عَذَابِهَا السَّمُومُ الرِّيحُ الْحَارَّةُ الَّتِي تَنْفُذُ في مَسَامِ الْأَجْسَادِ، وَعَذَابُهَا ذُو دَرَكَاتٍ بَعْضُهَا أَشَدُّ مِنْ بَعْضٍ بِحَسَبِ أَحْوَالِ مُسْتَحِقِّي الْعَذَابِ فِيها من العصاة.

• ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾: **بِئْسَ**: فِعْلٌ لإنْشَاءِ الذَّمِّ على سَبِيلِ المبالَغَةِ، وَفَاعِلُهُ «الْمَصِيرُ»، أي: بِئْسَ الْمَكَانُ الَّذِي يَصِيرُونَ إِلَيْهِ، وبِئْسَ الْحَالُ الَّذِي يَصِيرُونَ إِلَيْهِ، مِنْ فِعْلِ «صَارَ إِلَىٰ كَذَا» أي: انْتَهَىٰ إِلَيْهِ.

• ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾﴾:

الشَّهِيقُ: أَخْذُ النَّفَس بِقُوَّةٍ إِلَىٰ دَاخِلِ الصَّدْرِ حَتَّىٰ امْتِلَاءِ الرِّئَتَيْن بِهِ، شُبِّهَ بِهِ أَخْذُ جهَنَّمَ الرِّيحَ مِنْ أَمَاكِنِ الرِّيحِ فِيهَا أَوْ مِنْ خَارِجِهَا إِلَىٰ بَاطِنِهَا

بِقُوَّةٍ، حَتَّىٰ يَمْتَلِئَ بَاطِنُهَا بِهٰذِهِ الرِّيحِ، ومِنَ نِظَامِ الكَوْنِ أَنَّ دُخُولَ الرِّيحِ إِلَىٰ بَاطِنِ شيءٍ مَا بِقُوَّةٍ يُعْطِي صَوْتاً خَاصّاً مُشَابِهاً لِشَهِيقِ الإِنْسَانِ إِلَّا أَنَّهُ أَشَدُّ.

• ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾: أي: وهِي في حَالَةِ شِدَّةِ اشْتِعَالِ النّار فيها، يُقَالُ لغة: «فَارَتِ النَّار» أي: اشْتَدَّ اشْتِعَالُهَا.

المعْنَىٰ: إِذَا أُلقِيَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَارُوا دَاخِلَ جَهَنَّمَ سَمِعُوا لَهَا صَوْتاً يُشَابِهُ صَوْتَ الشَّهِيقِ، إِلَّا أَنَّهُ شَهِيقٌ يُنَاسِبُ حَجْمَهَا وَكبر جَوْفِهَا، وهُوَ صَوْتٌ مُخِيفٌ مُرْعِبٌ إِرْعَاباً شَدِيداً.

• ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾: أي: تَكَادُ جَهنَّمُ تَتَقَطَّعُ أَوْصَالُ دَاخِلِهَا مِنْ شِدَّةِ الْحَرَارَةِ لِتَنْفَجرَ.

شُبِّهَتْ حَالَةُ الضَّغْطِ الحَرَارِي في دَاخِلِ جَهَنَّمَ بالْغَيْظِ الشَّدِيدِ الَّذِي يُحِسُّ بِهِ المغْتَاظُ غَيْظاً شَدِيداً، وَهٰذَا مِنْ رَوائِعِ التَّشبيهات، واسْتُعِيرَ لفظ «الْغَيْظِ» لِحَالَةِ الضَّغْطِ الحراريِّ الشَّدِيدِ دَاخِلَ جِبَالٍ وصُخُورٍ فِي جَهَنَّمَ.

• ﴿... كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ⑧﴾؟؟:

الْفَوْج: الْجَمَاعَةُ من النَّاس.

خَزَنَتُها: أي: الْمَلَائِكَةُ المكَلَّفُونَ حِرَاسَةَ أَبْواب جَهَنَّم.

المعنى: كُلَّمَا أُلْقِيَ في جَهَنَّمَ جَمَاعَةٌ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا، وَقَدْ سَبَقَ أَنْ حَكَمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِمْ بالْخُلُودِ فِي جَهَنَّمَ؛ سَأَلَهُمْ خَزَنَةُ جَهَنَّمَ المأْمُورُونَ بِحِرَاسَةِ أبوابِ جَهَنَّمَ مِنَ المَلَائِكَة: أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ صَادِقُونَ مُؤَيَّدُونَ مِنَ اللهِ رَبِّكُمْ بالآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ، والْمُعْجِزَاتِ الْبَاهِرَات، فَبَلَّغُوكُمْ مَطْلُوبَ اللهِ مِنْكُمْ فِي رِحلَةِ امْتِحَانِكُمْ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَكَانَ آخِرُ أَمْرِهِمْ مَعَكُمْ أَنْ شَدَّدُوا فِي إِنْذَارِكُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّكُمْ، وبأَنَّهُ أعْتَدَ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً فِي هٰذِهِ النَّارِ الَّتِي أُلْقِيتُمْ لِتُعَذَّبُوا فِيهَا بالْحَرِيقِ خَالِدِينَ؟؟.

• ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾:

أي: قَالُوا: بَلَىٰ، قَدْ جَاءَنَا رَسُلٌ صَادِقُونَ مُؤَيَّدُونَ مِنَ اللهِ رَبِّنَا بالآيَاتِ الْبَيِّنَات، والمعجزاتِ الباهراتِ، فَبَلَّغُونا مَطْلُوبَ اللهِ مِنَّا، وأَبَانُوا لَنَا أَنَّ الحَياةَ الدُّنْيَا رِحْلَةُ امْتِحَانٍ، وأَنَّها تَنْتَهِي بِالْمَوْتِ، ثُمَّ نُبْعَثُ لاسْتِقْبَالِ حَيَاةٍ أُخْرَىٰ يَكُونُ فِيهَا حِسَابٌ، وفَصْلُ قَضَاءٍ، وَتَنْفِيذُ جَزَاءٍ في إِحْدَىٰ دَارَين: فالجزاء بالْعِقَابِ يَكُونُ في النَّارِ، والجزاءُ بالثَّوابِ يَكُونُ فِي الجنَّة.

فَلَمْ نَسْتَجِبْ لِدَعْوَةِ رَسُلِ رَبِّنَا، وَكَذَّبْنَاهُمْ فيمَا بَلَّغُونَا عَنْهُ، وَقُلْنَا لَهُمْ: مَا نَزَّلَ اللهُ الرَّبُّ خَالِقُ الكَوْنِ وَمُدَبِّرُ أُمُوره مِنْ شَيْءٍ، واتَّهَمْنَاهُمْ بالضَّلَالِ الكَبِيرِ، وقُلْنَا لَهُمْ: مَا أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ، وَقالُوا فِي اعْتِرَافِ بِذُنُوبِهِمْ: لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ مَا نَصَحَنَا بِهِ رُسُلُ رَبِّنَا سَمَاعاً مُؤَثِّراً في اسْتِجابَةٍ إيمَانِيَّةٍ وَعَمَلِيَّة، أَوْ لَوْ كُنَّا نَعْقِلُ نُفُوسَنَا بإِرَادَةٍ حَازِمَةٍ قَوِيَّةٍ عَنِ اتِّبَاعِ أَهْوَائِنَا وَشَهَوَاتِنَا وَمَتَاعَاتِنَا مِنْ زِينَةِ الْحَياةِ الدُّنْيَا؛ مَا كُنَّا فِي ضِمْنِ أَصْحَابِ السَّعِير، الَّذِينَ يَسْتَحِقُّون الْخُلُودَ فِي عَذَابِ جَهَنَّم.

وَهُنَا يُبَيِّنُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ اعْتِرَافَهُمْ بِذَنْبِهِمْ ويَقْضِي عَلَيْهِمْ بالْبُعْدِ الشَّدِيدَ، فَقَالَ تَعَالَىٰ:

• ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾:

• ﴿فَسُحْقًا﴾: أيْ: فَبُعْداً شَدِيداً.

أي: فَاعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمُ العظمَىٰ الَّتِي يَسْتَحِقُّونَ بِهَا الْخُلُودَ في عَذَابِ النَّارِ، فَبُعْداً شَدِيداً سَحِيقاً مُوَجَّهاً لِأَصْحَابِ النّار.

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ المؤمِنِينَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْب:

• ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾:

يُؤَكِّدَ اللهُ بـ «إِنَّ ـ والجملة الاسميَّة» أَنَّ المؤمنِينَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ، وهُمْ مُلْتَبِسُونَ بِغَيْبِ حَوَاسِّهِمْ عَنْهُ، وَمُكْتَفُونَ بالإيمانِ بِعَظَمَتِهِ وَعِزَّتِهِ إيماناً فِكْرِيًّا؛ لَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ مَغْفِرَةٌ مَا لِذُنُوبِهِمْ بِحَسَبِ مُقْتَضَيَاتِ حِكْمَتِهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ، وَلَهُمْ عِنْدَهُ يَوْمَ الدِّينِ أَجْرٌ كَبِير في جَنَّاتِ النَّعِيم.

• ﴿يَخْشَوْنَ﴾: أي: يَخَافُونَ خَوْفاً مَمْزُوجاً بإعْظَامٍ وَإِكْبَارٍ وإجْلَالٍ وَحُبّ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُخَاطِبُ كُلَّ الصَّالِحِينَ المؤهَّلِينَ لِخِطَابِهِ مِنْ عِبَادِهِ:

• ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾:

الإِسْرَارُ بالْقَوْلِ: إِخْفَاؤُهُ وعَدَمُ رَفْعِ الصَّوْتِ بِهِ.

الْجَهْرُ بالْقَوْلِ: رَفْعُ الصَّوْتِ بِهِ حَتَّىٰ يَسْمَعَهُ الْجُلَسَاء وَنَحْوُهم.

المعنى: سواءٌ بالنِّسْبَةِ إلى عِلْم اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِأَقْوَالِكُمْ أَنْ تُسِرُّوهَا وأَنْ تَجْهَرُوا بِهَا، إِنَّهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وأَحَاطَ عِلْمُهُ بِكُلِّ شيءٍ ـ عَلِيمٌ بِصَاحِبَةِ الصُّدُورِ الَّتِي تُلَازِمُهَا وَلَا تُفَارِقُهَا، كالنِّيَّاتِ من الأعْمَالِ، والإرَادَاتِ، والْحُبِّ والْكَرَاهِيَةِ، وَمَا يَظْهَرُ إِنَّمَا هِيَ آثَارٌ تَدُلُّ عَلَيْهَا دَلَالَةً عَقْلِيَّةً، وقَدْ تَكُونُ الآثارُ كَاذِبَاتٍ، فَتَسْقُطُ دَلَالَاتُهَا.

كَيْفَ لَا يَعْلَمُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ ذَوَاتِ الصُّدُورِ، وهُوَ خَالِقُ مَنْ لَهُمُ الصُّدُورُ، وخالِقُ نُفُوسِهِمْ وقُلُوبِهِمْ وكُلِّ صِفَاتِهَا وقُدْرَاتِها؟!.

• ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾؟!:

اللَّطِيفُ: أي: الَّذِي تَدْخُلُ آثارُ صِفَاتِهِ وَمِنْهَا آثَارُ صِفَةِ عِلْمِهِ كُلَّ شَيْءٍ مَهْمَا كَانَ صَغِيراً دَقِيقاً، وَخَفِيًّا عَمِيقاً.

الْخَبِيْر: أي: الْعَلِيمُ بِالدَّقَائِق والصِّفَاتِ البَاطِنَة عِلْماً على سبيل الشُّهُودِ والْحُضُورِ المصَاحِبِ لِكُلِّ أجْزَاءِ الْعَمَلِ ظَواهِرِهِ وَبواطِنِهِ، والشَّاهِدُ لِكُلّ الظَّواهِرِ والبواطن.

• ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾:

• ﴿ذَلُولًا﴾: أيْ: سَهْلَةً مُيَسَّرَةً لِقَضَاءِ المصَالِحِ عَلَيْهَا، لَا عَسِرَةً وَلَا صَعْبَةً كَجِبَالٍ ذَاتِ شَوَاهِقَ كالْمِسَلَّات، بَلْ فيهَا سُهُولٌ وَوِدْيَانٌ وَجِبَالٌ يَسْهُلُ ارْتِقَاؤُهَا، وَتَمْهِيدُهَا، وبِنَاءُ الْقُصُورِ عَلَيْهَا.

• ﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا﴾: **المنْكِبُ**: ناحِيَةُ كُلِّ شيء، والمرتَفِعُ مِن الْأَرْض، وَجَمْعُهُ «الْمَنَاكِب».

• ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾: أي: وَإِلَىٰ حِسَابِ اللهِ، وفَصْلِ قَضَائِهِ، وَتَنْفِيذِ جَزَائِهِ؛ الإحْيَاءُ بَعْدَ الموْتِ، يَوْمَ الْقِيَامَة. **النُّشُور**: الإحياءُ بَعْدَ الموتِ.

المعنى: اللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وسَمَتْ حِكْمَتُهُ ـ هُو الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ أيُّها النَّاسُ ـ رُبَمَا بَعْدَ أَطْوَارٍ مِنَ التَّكْوِينِ ـ الأرْضَ سَهْلَةً مُيَسَّرَةً لِقَضَاءِ مَصَالِحِكُمْ عَلَيْهَا. وإِذْ جَعَلَهَا كَذَلِكَ فَامْشُوا في نَوَاحِيهَا الْمُرْتَفِعَاتِ مِنْهَا، كالتِّلَالِ والْجِبَالِ الصُّغْرَىٰ والكُبْرَىٰ، عَامِلِينَ فِي اكْتِسَابِ مَا تَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنْ رِزْقِ اللهِ الَّذِي يُيَسِّرُهُ لَكُمْ، من حَيوانٍ، أَوْ شَجَرٍ، أَوْ زَرْعٍ فَكُلُوا مِنْهُ وانتفعوا به، واحْرِصُوا أَنْ يَكُونَ حَلَالاً طَيِّباً، وَلَا تَغْفُلُوا عَنْ كَوْنِكُمْ فِي حَيَاةِ ابْتِلَاءٍ تُخْتَبَرُ فيها إرَادَاتُكُمُ الْحُرَّةُ، في الْتِزَام مَرَاضِي اللهُ عَلَىٰ دَرَجَاتِهَا، أو الانْحِدَارِ في مَسَاخِطِ اللهِ عَلَىٰ دَرَكَاتِهَا، واعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُحَاسَبُونَ عَلَىٰ مَا تُقَدِّمُونَ في رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ، وَمَجْزِيُّون عَلَيْهِ بِحَسَبِهِ خَيْراً أَوْ شَرّاً، يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِذْ يَبْعَثُكُمْ رَبُّكُم إِلَىٰ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْت، واعْلَمُوا أَنَّ نُشُورَكُمْ سَوْفَ يَكُونُ إلى حِسَابِ اللهِ، وَفَصْلِ قَضَائِهِ، وَتَنْفِيذِ جَزَائِهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُوَجِّهاً خِطَابَهُ لِلْكَافِرِينَ الْمُكَذِّبِينَ بِمَا جاءَهُمْ عَنْهُ عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ:

• ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾:

• ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾: أي: فَإِذَا هِيَ تَتَحَرَّكُ وَتَضْطَرِبُ وَتَتَدَافَعُ أجْزَاؤهَا، وتختَلِطُ أوْصَالُ أجْسَادِكُمْ بالأجْزَاءِ المتحرّكة المضطربَةِ مِنَ الأرْض.

• ﴿حَاصِبًا﴾: أي: رِيحاً تَحْمِلُ التُّرَابَ والْحصْباءَ (صِغَارَ الحجارة)، فَتضْرِبُ بها الأشياء، فَيُصِيبُ اللهُ بِهَا مَنْ يَشَاء.

• ﴿كَيْفَ نَذِيرِ﴾: أي: كَيْفَ إِنْذَارِي لَكُمْ.

• ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾: أي: كَيْفَ إِنْكَارِي، وكَيْفَ عِقَابِي، النَّكِير: يأتي بِمَعْنَىٰ الإنْكَارِ، وبِمَعْنَىٰ الْعِقَابِ.

• ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾: أي: باسِطَاتٍ أجْنِحَتَهَا إِذْ يَكُونُ رِيش كُلِّ جَنَاحٍ مُصْطَفًّا رِيشَةً إلى جَانِبِ رِيشَةٍ بِنَظَامٍ بَدِيعٍ، يَجْعَلُ الرِّيحَ في الْجَوِّ يَحْمِلُ الطَّيْرَ وَلَوْ تَوَقَّفَتْ عَنْ تَحْرِيكِ أجْنِحَتِهِنَّ، وَهٰذَا مِنْ إبْدَاعِ خَلْقِ اللهِ وإتْقَانِ صُنْعِهِ.

• ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾: أي: وَيَقْبِضْنَ أَجْنِحَتَهُنَّ، فَيَجْمَعْنَ رِيشَهَا إِلَىٰ جِهَةِ صُدُورِهِنَّ، وهٰذَا مِنْ إبْدَاعِ خَلْقِ اللهِ وإتقان صُنْعِهِ.

• ﴿هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾: أي: عَسْكَرٌ لَكُمْ، يُقَالُ: «هذا جُنْدٌ» بالإفراد، لِأَنَّ لفظ «جُنْدٍ» مُفْرَدٌ، مِثْل: جَيْش، وحِزْب، وجَمْعُ «جُنْدٍ» أَجْنَاد.

• ﴿فِي غُرُورٍ﴾: أي: مُنْغَمِسُونَ فِي خَدِيعَةٍ، وطَمَعٍ بالباطل، **الْغُرور**: مَصْدَر «غَرَّهُ»، يُقَالُ لُغَةً: «غَرَّهُ، يَغُرُّهُ، غَرّاً، وغُروراً، وغِرَّةً» أي: خَدَعَهُ وَأَطْمَعَهُ بالْبَاطِلِ.

• ﴿بَل لَّجُّوا﴾: أي: بَلْ ثَبَتُوا مَلَازِمِينَ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ كُفْرٍ إصْراراً عَلَىٰ بَاطِلِهِمْ.

• ﴿فِي عُتُوٍّ﴾: أي: في اسْتِكْبَارٍ وَتَجَاوُزٍ في سُبُلِ الضُّرِّ والشَّرِّ والْفَسَادِ. **الْعَاتي**: الجبَّارُ، والشَّدِيدُ الدُّخُولِ في الْفَسَادِ والشَّرِّ.

• ﴿وَنُفُورٍ﴾: **النفور**: الإِعْرَاضُ والصَّدُّ والابْتِعَادُ كَحَالَةِ الْمَذْعُورِ الشّارِد.

المعنى: يُخَاطِبُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الكَفَرَة المكَذِّبينَ الْمُصِرِّينَ عَلَىٰ مواقِفِهِمُ الكُفْرِيَّةِ، مُقْنِعاً، وَمُوبِّخاً، ومُنْذِراً، فيقُولُ لَهُمْ:

أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ الَّذِي هُوَ رَبُّكُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ، فَيُغَيِّبَكُمْ فِي بَاطِنِهَا، فإِذَا هِي تَتَحَرَّكُ وَتَضْطَرِبُ وتتدافَعُ أَجْزَاؤها، فَتَخْتَلِطُ أَوْصَالُ أَجْسَادِكُمْ بِهَا، إِذْ هِيَ تَمُور.

بَلْ؛ أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ الَّذِي هُوَ رَبُّكُمْ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً، ريحاً تَحْمِلُ التُّرَابَ وَصِغَارَ الحجارَةِ، فَيُعَذِّبَكُمْ بِهَا ضَرْباً وإِهْلَاكاً.

إذا أصْرَرْتُم عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِن كُفْرِيَّاتٍ، وَخَسَفْتُ بِكُمُ الْأَرْضَ، أَوْ أَرْسَلْتُ عَلَيْكُمْ حاصِباً منْ فَوْقِكُمْ، فَعَذَّبْتُكُمْ ثُمَّ أَهْلَكْتُكُمْ؛ فَسَتَعْلَمُونَ قَبْلَ مَوْتِكُمْ كَيْفَ كانَ إِنْذارِي لَكُمْ، وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ بَعْدَ مَوْتِكُمْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ فِي حَيَاةِ امْتِحَانِكُمْ مُجْرِمِين، وَتَسْتَحِقُّونَ الْخُلُودَ في عَذَابِ النَّارِ الَّتِي

أعْتَدْتُهَا لِلْكَفَرَةِ الْمُجْرِمِينَ، وَقَدْ كُنْتُ أنبأْتُكُمْ بِهٰذَا فِي رِحْلَةِ امْتِحانِكُمْ.

وَتَوَجَّهَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مُلْتَفِتاً عَنْهُمْ، وَمُخَاطِباً أَهْلَ الْعَقْلِ والْفِكْرِ والرُّشْدِ، بِشَأْنِهِمْ، فَقَالَ تَعَالَىٰ مُؤَكِّداً بالْقَسَمِ الْمَنْوِي وبحرف «قد»:

• ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾﴾: أي: وأُقْسِمُ لَقَدْ كَذَّبَ كُفَّارُ قُرُونٍ سَابِقَاتٍ مِنْ قَبْلِهِمْ رُسُلِي وبِمَا بَلَّغُوهُمْ عَنِّي؛ فَعَذَّبْتُهُمْ بِمُهلِكَاتٍ سَاحِقَاتٍ مَاحِقَاتٍ، فتفكَّرُوا كَيْفَ كَانَ إنْكَارِي وَعِقَابِي.

وَتَابَعَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الْحَدِيث عَنْهُمْ فَقَالَ تَعَالَىٰ:

• ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾:

أي: أفقَدُوا أبْصَارَهُمْ وَلَمْ يَروا نَاظِرينَ إلى الطَّيْرِ حَالَة كَوْنِهِنَّ في جَوِّ السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ، وَهُنَّ صَافَّاتٍ باسِطَاتٍ أجْنِحَتَهُنَّ، وَيَقْبِضْنَ أَجْنِحَتَهُنَّ أَحْيَاناً، وَلَمْ يَتفكَّرُوا لِيَعْلَمُوا حَقِيقَةَ أَنَّهُ مَا يُمْسِكُهُنَّ فِي جَوِّ السَّمَاءِ إلَّا اللهُ الرَّحْمَنُ الَّذِي أتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ صُنْعاً، وَمِنْ إتْقَانِ صُنْعِهِ أَنْ جَعَلَ نِظَامَ الْهَوَاءِ يَحْمِلُ الطَّيْرَ في جَوِّ السَّمَاء، وظَهَرَ في عصرِنَا أَنَّهُ يَحْمِلُ الطَّائِرَاتِ الْكُبْرَىٰ بِلُطْفِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ وإتْقَانِ صُنْعِهِ في كَوْنِهِ.

• ﴿... إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾: أي: فَهُوَ بإحَاطَةِ بَصَرِهِ كُلَّ شَيْءٍ؛ يَحْمِي بِرَحْمَتِهِ عَلَىٰ وَفْقِ حِكْمَتِهِ مَا يَطِيرُ في جَوِّ السَّمَاءِ، وَمَنْ تَحْمِلُهُ المراكِبُ الطَّائِرَة في جَوِّ السَّمَاء، وإذَا شَاءَ أسْقَطَ مَا شاء وَمَنْ شاء.

واقتضت حِكْمَةُ التَّنْوِيع في تَوْجِيهِ الْخِطَاب الْعَوْدَةَ إلى خِطَاب الكافِرِينَ المكَذِّبِينَ بِمَا جَاءَهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَهُمْ:

• ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾:

أي: بَلْ مَنِ الَّذِي تُشِيرُونَ إِلَيْهِ باسْمِ الإشارَةِ: «هٰذَا»، وتَزْعُمُونَ أَنَّهُ جُنْدٌ لَكُمْ مُتَوَحِّدُ الْقُوَّة كجَيْشٍ مُترابِطٍ بِنِظَام واحِدٍ، ولَهُ قُدْرَةٌ عَلَىٰ أَنْ يَنْصُرَكُمْ وَهُوَ مِنْ دُونِ الرَّحْمٰنِ، إِذَا أَرَادَ الرَّحْمٰنُ بِحِكْمَتِهِ أَنْ يُعَامِلَكُمْ بالْعَدْلِ، وَيُنْزِلَ بِكُمْ عَذَابَهُ وعِقَابَهُ وَأَنْ يُهْلِكَكُمْ؟؟!!.

اسْتِفْهَامٌ لَا يَسْتَطِيعُونَ الإجَابَةَ عَلَيْهِ، إِذْ لَيْسَ لَدَيْهِمْ مَنْ يُشِيرُونَ إِلَيْهِ قَائِلِينَ: هٰذَا جُنْدٌ لَنَا يَنْصُرُنَا إذا أَرَاد اللهُ أَنْ يُعَذِّبَنَا وَيُهْلِكَنَا. ولِهٰذَا جَاءَ الْبَيَانُ الرَّبَّانِي عَقِبَ الاسْتِفهام بقول الله تَعالَىٰ:

• ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾: أي: مَا الْكَافِرُونَ إِلَّا مُنْغَمِسُونَ في مُحِيطٍ بِهِمْ، مِنْ خِدَاعٍ لَهُمْ وَإِطْمَاعٍ بالْبَاطِلِ.

وتَابَعَ اللهُ تَبارَكَ وَتَعَالَىٰ تَوْجِيهَ خِطَابِهِ لهم بِشَأْنِ رِزْقِهِمْ: فَقَالَ لَهُمْ مَا مَعْنَاهُ: بَلْ؛ مَنِ الَّذِي تُشِيرُونَ إِلَيْهِ باسْم الإشَارَةِ: «هٰذَا»، وَتَزْعُمُون أَنَّهُ يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ الرَّحْمٰنُ عَنْكُمْ بِحِكْمَتِهِ الرِّزْقَ وأَسْبَابَهُ، وهُو مِنْ حَاجَاتِكُمُ الْيَوْمِيَّةِ الضَّرُورِيَّة؟؟!!.

اسْتِفْهَامٌ لَا يَسْتَطِيعُونَ الإجَابَةَ عَلَيْهِ، إذ لَيْسَ لَدَيهم مَنْ يُشِيرُونَ إِلَيْهِ قَائِلِينَ: هٰذَا الَّذِي يرْزُقُنَا إِنْ أَمْسَكَ الرَّحْمٰنُ بِحِكْمَتِهِ عَنَّا رِزْقه.

ولِهٰذَا جاءَ الْبَيَانُ الرَّبَّانِيُّ عَقِبَ الاسْتِفْهَامِ بِقَولِ اللهِ تَعَالَى:

• ﴿... بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾: أي: لَا يَكُونُ مِنْهُمْ إِجَابَةٌ مَا عَلَىٰ السؤال، بَلْ يُعَانِدُونَ ثَابِتِينَ مُلازِمِين مَا هُمْ فِيهِ مِنْ كُفْرِيَّاتٍ إِصْرَاراً عَلَىٰ بَاطِلِهِمْ، ويكُونُ مِنْهُمْ عُتُوٌّ، اسْتِكْبَارٌ، وَتَجَاوُزٌ في سُبُلِ الضُّرِّ والشَّرِّ والْفَسَادِ والإفْسَاد، ويَكُونُ مِنْهُمْ نُفُورٌ عَنِ الْهُدَىٰ والحَقِّ الرَّبَّانِيِّ والخيْرِ،

كَحَالَةِ المذْعُورِ الشَّارِد، لكِنَّهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ مُعَانِدُونَ كَارِهُون قَبُولَ الْهُدَىٰ والاسْتِجَابَة لِدَعْوَةِ الْحَقّ.

وبَعْدَ أَنْ جَاءَ فِي هـٰذَا الدَّرْسِ مِنَ السُّورَةِ أَدِلَّةٌ عَقْلِيَّةٌ، وأَدِلَّةٌ مِنَ الظَّاهِرَاتِ الكَوْنِيَّةِ المشْهُودَة، وهَـٰذِهِ الأَدِلَّةُ ذَاتُ دَلَالَاتٍ بُرْهَانِيَّةٍ وإِقْنَاعِيَّةٍ عَلَىٰ جُمْلَةٍ مِنْ صِفَاتِ الرَّب الْخَالِقِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ، وبَعْدَ أَنْ جَاءَ فِيهَا مُحَاصَرَةٌ لِنُفُوسِ الْمُكَذِّبِينَ بالرَّغَبِ والرَّهَبِ مِنْ مُخْتَلِفِ جَوَانِبِهَا، حَتَّىٰ لَا يَبْقَىٰ لِذِي فِكْرٍ سَلِيمٍ، وَلُبٍّ حَصِيفٍ واعٍ؛ مَهْرَبٌ مِنْ هـٰذَا الْحِصَارِ الْفِكْرِي والنَّفْسِيّ:

عِنْدَ هـٰذَا الموقِفِ نُلَاحِظُ أَنَّ الْبَيَانَ الأَدَبِيَّ الْبَلِيغَ الرَّفِيعَ؛ يَتَوَجَّهُ لِلتَّنْبِيهِ عَلَىٰ أَنَّ مَنْ لم يُؤَثِّرْ فِيهِ هـٰذَا الْحِصَارُ الْفِكْرِيُّ المقْنِعُ لأَرْبَابِ الْعُقُولِ وأُولِي الأَلْبَاب، وَلَا هـٰذَا الْحِصَارُ النَّفْسِيُّ الْمُحَرِّكُ لِمَحَاوِرِ الرَّغَبِ والرَّهَبِ فِي النَّفْسِ الإِنْسَانِيَّةِ؛ فَهُوَ كالدَّوابِ الَّتِي تَمْشِي على أَرْبَعٍ أَوْ كَالأَنْعَام، وَعَلَيْهِ أَنْ لَا يَضَعَ نَفْسَهُ في نَوْعِ الْبَشَرِ الَّذِينَ فَضَّلَهُمُ الله، فَخَلَقَهُمْ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيم، وجَعَلَ لَهُمْ قَامَاتٍ مُنْتَصِبَاتٍ، وَرُؤوساً مُرْتَفِعَةً، لِأَنَّ مَكَانَهُ إِذْ هَـٰذِهِ حَالَتُهُ أَنْ يَمْشِيَ مَعَ اللَّوَاتِي تَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ، خافِضَ الرأسِ مُكِبًّا على وَجْهِهِ، ضِمْنَ قُطْعَانِ الأَنْعَامِ والدَّوابِّ الَّتِي تَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَع.

لَكِنَّ النَّصَّ القرآنِيَّ الْبَلَاغِيَّ الأَدَبِيَّ الرَّفِيعَ لَمْ يَقُلْ عِنْدَ هـٰذَا المَوْقِف: فَمَنْ لَمْ يُؤَثِّرْ فِيهِ هـٰذَا الْحِصَارُ الْفِكْرِيُّ والنَّفْسِيُّ فَهُوَ مِنَ الْحَمِير أَوْ غَيْرِهَا مِنَ الدَّواب، أو فَهُوَ مِنَ الْبَقَرِ أَوْ غَيْرِهَا مِنَ الأَنْعَام.

بَلْ طَوَىٰ النَّصُّ هـٰذَا الْحُكْمَ التَّشْبِيهِيَّ، وَقَدَّمَ مَا يُشِيرُ إِلَيْهِ إِشَارَةً بَارِعَةً يُدْرِكُهَا الذَّكِيُّ باللَّمْحِ، عَلَىٰ طَرِيقَةِ تَسَاؤلٍ طَرَحَهُ لانْتِزَاعِ الاعْتِرَافِ بِنَفْيِ التَّساوِي بَيْنَ الإِنْسَانِ المفكِّرِ الَّذِي يَتَصَرَّفُ فِي حَيَاتِهِ بِمُقْتَضَىٰ فَهْمِهِ

السَّلِيم لِلْأُمُورِ؛ وَبَيْنَ الدَّوابّ الَّتِي تَمْشِي عَلَىٰ أَرْبعٍ، والْأَنْعَامِ الَّتِي تَتَدَافَعُ فِي قُطْعَانِهَا عَلَىٰ غَرَائِزِهَا وَشَهَوَاتِهَا.

وقَدْ جَاءَ فِي هٰذَا التَّسَاؤُلِ اسْتِخْدَامُ إِحْدَىٰ الظَّوَاهِرِ الَّتِي هِيَ مِنْ خَصَائِصِ الدَّوابّ والْأَنْعَام، وهي ظَاهِرَةُ مَشْيِهَا عَلَىٰ أَرْبَعٍ وَأَعْنَاقُهَا وَرُؤُوسُهَا مُتَطَامِنَةٌ، فَهِيَ مُكِبَّةٌ عَلَىٰ وُجُوهِهَا.

وَلَمْ يُذْكَرْ في التَّسَاؤُل لَفْظُ الدَّوَابِّ أَوِ النَّعَمِ، وَلَا مَا يُقَابِلُهُ مِثْل لفْظِ النَّاسِ أَوِ الْبَشَرِ، بَلْ جَاءَ فِيهِ لَقْطَةٌ لِجَانِبٍ جُزْئِيٍّ مِنَ الصُّورَةِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ النَّوْعِ غَيْرِ الإِنْسَانِيّ، ولقْطَةٌ وَصْفِيَّةٌ أُخْرَىٰ لِجَانِبٍ جُزْئيٍّ مِنَ الصُّورَةِ المقابِلَةِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ النَّوْعِ الإنساني.

وَذَلِكَ لِأَنَّ ذِكْرَ لَقْطَةٍ تَصْوِيرِيَّةٍ مَا هِيَ مِنْ خَوَاصِّ نَوْعٍ مِنَ الْأَنْوَاعِ كَافِيَةٌ لِأَنْ تَدُلَّ عَلَيْهِ فِي الْأَسَالِيب الأدبِيَّةِ الْبَلاغِيَّةِ الرَّاقِيةِ البارِعَةِ المهَذَّبَة، ويُعْطِيهَا الْبَلَاغِيُّونَ عُنْوان «الكِنَايَة».

■ فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي طَرْحِ التَّسَاؤُلِ لانْتِزَاعِ الاعْتِرَافِ الدّالِّ عَلَىٰ المقْصُودِ، دُونَ تَوْجِيهِ الْخِطَابِ لمخاطبٍ أو مُخَاطَبِينَ مُعَيَّنِينَ:

• ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾:

• ﴿مُكِبًّا﴾: أي: يَمْشِي مُنَكِّساً رَأْسَهُ كَمَا يَمْشِي الْحِمَارُ والثَّورُ لَا كَمَا يَمْشِي الإنْسَان، يقال لغة: «أَكَبَّ الرَّجُلُ عَلَىٰ وَجْهِهِ يُكِبُّ إِكْبَاباً» أي: نَكَّسَ رَأْسَهُ.

ويظْهَرُ لِلْمُتَدَبِّرِ مِنَ التَّقَابُلِ المتَبَايِنِ بَيْنَ مَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ؛ وَمَنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيم؛ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِن التَّخَالُفِ في الأُمُورِ التالِيَة:

(١) أَنَّ الثَّانِي يَمْشِي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيم، بِخِلَافِ الْأَوَّل المكِبِّ

عَلَىٰ وَجْهِهِ، إِذْ هو تَائِهٌ ضَالٌّ لَا يَعْرِفُ لِنَفْسِهِ طَرِيقاً مُسْتَقِيمَةً واضِحَة.

(٢) أَنَّ الثَّانِي يَمْشِي سَوِيًّا عَالِماً طَرِيقَهُ مُشَاهِداً لَهُ، بِخِلَاف الْأَوّل، فَهُوَ يَمْشِي غَيْرَ سَوِيٍّ، وهُوَ مُكِبٌّ عَلَىٰ وَجْهِهِ لَا يَرَىٰ طَرِيقَهُ.

(٣) أَنَّ الثَّانِي يُتَابِعُ سَيْرَهُ دُونَ عَثَرَاتٍ، لِأَنَّهُ يَمْشِي سَوِيًّا مُشَاهِداً طَرِيقَهُ، وَعَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيم غَيْرِ مُتَعَرِّجٍ مِنْ ذَاتِ الْيَمِينِ أو مِنْ ذَاتِ الشِّمَالِ، وَلَيْسَ في سَطْحِهِ ارْتِفَاعَاتٌ وانخفاضَاتٌ وحُفَرٌ وَعَقَبَاتٌ وَمَسَاقِط، بخلاف الأول، إِذْ هُو يُتَابِعُ سَيْرَهُ فِي مَتَاهَاتِهِ فَيَتَعَرَّضُ إِلَىٰ عَثَرَاتٍ كثيراتٍ يَنْكَبُّ فِيهَا عَلَىٰ وَجْهِهِ، لأنَّهُ يَمْشِي غَيْرَ سَوِيٍّ، وَلَا يُشَاهِدُ طَرِيقَهُ مُشَاهَدَةً تَامَّةً، وَمَتَاهَاتُهُ لا اسْتِقَامَة فِيهَا، بَلْ هِيَ مُتَعَرِّجَةٌ وفيها ارْتِفَاعَاتٌ وانْخِفَاضَاتٌ وحُفَرٌ وعَقَبَاتٌ وَمسَاقِطُ وَمَزَالِق.

فَأَيُّ المتقابِلَيْنِ أَهْدَىٰ؟!.

سُؤَالٌ لَا يَحْتَاجُ جَوَاباً يُصَرَّحُ بِهِ لبداهَتِهِ، وهَكَذَا كَانَ الاخْتِيَارُ الْبَلاغِيُّ القرآني.

الشَّرحُ الأدبيّ:

(١) عبارة: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ تَدُلُّ بِلَقْطَتِهَا التَّصْويرِيَّة عَلَىٰ الدَّوابّ والنَّعَم، لِأَنَّهَا هِيَ الَّتِي تَمْشِي مُكِبَّةً عَلَىٰ وُجُوهِهَا، أي: تَمْشِي وَوُجُوهُهَا مُكِبَّةٌ غَيْرُ مُرْتَفِعَةٍ، وَصُورَةُ الْوَجْهِ المكِبِّ فِي اتِّجَاهِ الأَرْضِ لِمَاشٍ عَلَيْهَا تَسْتَدْعِي في الذِّهْنِ تِلْقَائِيًّا أَنَّ وَرَاءَهَا جِسْمَ حِمَارٍ أَوْ بَغْلٍ أَوْ ثَوْرٍ أَوْ نَحْوِهَا مِنَ الدَّوابّ والنَّعم لَا تَفْهَمُ وَلَا تَعِي دَلَالَاتِ النُّصُوصِ الْكَلَامِيَّةِ الْفِكْرِية، وَلَا تَقْتَنِعُ بالْبَيَانَاتِ الْخَاصَّةِ بِنَوْعِ الْإِنْسَانِ الَّذِي خَلَقَهُ اللهُ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيم.

واسْتِخْدَامُ كَلِمَةِ «مَنْ» الْخَاصَّةِ بِالْعُقَلَاءِ؛ يُشْعِرُ بِأَنَّ المقْصُودَ بالْوَصْفِ

إنْسَانٌ مَسَخَ نَفْسَهُ بِتَوَلِّيه عَنْ آياتِ اللهِ وبيانَاتِهِ، وَعَدَمِ اسْتِجابَتِهِ لِوَسَائِلِ مُحَاصَرتِهِ الْفِكْرِيَّةِ والنَّفسِيَّة، فَجَعَلَها بِمَثَابَةِ وَاحِدٍ مِنْ قُطْعَانِ الدَّوَابِّ أو النَّعَم.

(٢) وعِبَارَةُ: ﴿أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا﴾ تَدُلُّ بِلَقْطَتِهَا التَّصْوِيرِيَّة عَلَىٰ إنْسَانٍ خَلَقَهُ اللهُ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيم، وتَدُلُّ ضِمْناً عَلَىٰ خَصَائِصِه الْفِكْرِيَّةِ والنَّفسِيَّة.

(٣) وعِبَارَةُ: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ تَدُلُّ عَلَى المقصودِ مِنْ طَرْحِ التَّسَاؤُلِ الْهَادِفِ إِلَىٰ نَفْي التَّسَاوِي بَيْنَ النَّوعَيْنِ.

ونَفْيُ التَّسَاوِي لَيْسَ المقْصُودُ مِنْهُ مُجَرَّدَ التَّبَايُنِ في الصُّورَةِ الْخَلْقِيَّةِ بَيْنَ مُكبٍّ عَلَىٰ وَجْهِهِ وَمَاشٍ نَاصِبِ الْقَامَةِ سَوِيٍّ، ولكِنْ بَيْنَ مَاشٍ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ يُوصِلُهُ إِلَىٰ الْغَايَةِ السَّعِيدَةِ المنْشُودَة بِمُوَجِّهٍ مِنْ عَقْلِهِ ومِنَ الهداية الرَّبَّانِية؛ وَمَاشٍ عَلَىٰ غَيْرِ صِرَاطٍ مُسْتَقِيم، فَهُوَ يَتَخَبَّطُ فِي المتاهَاتِ، ويَضِلُّ فِي السُّبُلِ، وَلَا يَصِلُ إِلَىٰ غايَتِهِ السَّعِيدَةِ المنْشُودَةِ.

واكْتَفَىٰ النَّصُّ بِذِكْرِ المشْيِ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيم بِجانِبِ نَاصِبِ الْقَامَةِ السَّويّ عَنْ ذِكْرِ مُقَابِلِهِ، إِذِ الصُّورَةُ في الْمُقَابِلِ تَدُلُّ عَلَى ضِدِّهَا في المقَابِلِ الآخَرِ، لِأَنَّ الطَّرْحَ قَدْ بَدَأَ بِتَسَاؤلٍ يَعْرِضُ في مَضْمُونِهِ نَفْيَ التَّسَاوِي بَيْنَ مُتَبَايِنَيْن.

وقَدْ فَهِمْنَا بالذَّكَاء ضِمْنَ أَسْلُوبِ التَّقَابُلِ بَيْنَ الصُّوَرِ المتَضَادَّةِ أَنَّ الكَلَامَ عَلَىٰ تقدير:

أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا على وَجْهِهِ كالدَّوَابِّ والأَنْعَامِ يتخبَّطُ في السُّبُلِ عَلَىٰ غَيْرِ هُدَىٰ؛ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا نَاصِبَ الْقَامَةِ مَرْفُوعَ الرَّأْسِ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ يُوصِلُهُ إلى سَعَادَتِهِ عَلَىٰ أَحْسَنِ وَجْهٍ وَأَقْوَمِه.

واكْتَفَىٰ النَّصُّ أَيْضاً بِدَلَالَة عبارة: ﴿مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ في النَّوْعِ

الأوّل؛ عَنْ ذِكْرِ عِبارَةِ: «نَاصِبَ القَامَةِ مَرْفُوعَ الرأس» في النَّوْعِ الثَّانِي، لِأَنَّ التَقابُلَ بَيْنَ النَّوْعَيْن هُوَ تَقابُلُ تَضادٌ في الصِّفَاتِ.

واكْتَفَىٰ النَّصُّ أيْضاً بِدَلَالَةِ عبارة: ﴿سَوِيًّا﴾ في النَّوْعِ الثَّانِي؛ عَنْ ذِكْرِ ضِدِّهَا في النَّوْعِ الْأَوَّل.

فَإِذَا أَرَدْنَا إِبْرَازَ الْمَطْوِيَّاتِ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا النَّصُّ بإشَارَاتِهِ، وَبِلَوَازِمِهِ الْفِكْرِيَّة، وبِمُقْتَضَىٰ التَّقَابُلِ بيْنَ النَّوْعَيْنِ في صِفَاتِهِما المتَضَادَّة، وَمَا لَا بُدَّ أَنْ نَفْهَمَهُ بِمُقْتَضَىٰ التقابُلِ والتَّكَامُلِ، وَجَدْنَا أنفُسَنَا أَمَامَ الْبَيَانِ التَّحْلِيلِيِّ التَّالِي:

أَفَمَنْ مَسَخَ نَفْسَهُ واحِداً مِن الدَّوابِّ أو الْأَنْعَامِ، فَصَارَ كالَّذِي يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ، يَتَخَبَّطُ في السُّبُلِ والمتاهَاتِ على غَيْرِ هُدىً، ضَالًّا عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيم، بِسَبَبِ تَوَلِّيهِ عَنْ آيَاتِ اللهِ وَبَيَانَاتِهِ، وَرَفْضِهِ لِوَسائِلِ إقْنَاعِهِ الْفِكْرِيِّ والنَّفْسِيِّ الَّتِي قَدَّمَهَا لَهُ الْقُرْآنُ المجيد؛ أَكْثَرُ هدايَةً تُوصِلُهُ إِلَىٰ مَا يَتَمَنَّىٰ مِنْ وُجُودِهِ فِي الحياة؛ أَمَّنْ أَبْقَىٰ لِذَاتِهِ إِنْسَانِيَّتَهُ الْعَاقِلَةَ الرَّشِيدَة، فَهُوَ يَمْشِي نَاصِبَ الْقَامَةِ مَرْفُوعَ الرَّأس عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، يُوصِلُهُ إِلَىٰ ما يَتَمَنَّىٰ مِنْ وُجُودِهِ في الْحَيَاة.

إِنَّ الجوابَ الْحَتْمِيَّ لِهَٰذَا التَّسَاؤُل الَّذِي يُجِيبُ به أولو الألْبَاب هُوَ مَا يلي:

إِنَّ النَّوْعَ الثَّانِي هُوَ الْأَهْدَىٰ لَا مَحالَة، أَمَّا النَّوْعُ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ لَهُ مِنَ الْهِدَايَةِ شَيْءٌ، بَلْ هُوَ ضَالٌّ تَائِهٌ غَبِيٌّ كَالْأَنْعَامِ أَوْ هُوَ أَضَلُّ سَبِيلاً.

وَجَاءَت عِبارَة: ﴿أَهْدَىٰ﴾ الَّتِي قَدْ تَدُلُّ عَلَىٰ المشَارَكَةِ في أَصْلِ الْهِدَايَةِ انْسِجاماً مَعَ حَالِ المشَبَّهِ بِهِ، إِذِ الدَّوَابُّ والْأَنْعَامُ لَهَا هِدَايَةٌ ما بِغَرَائِزِها.

أَمَّا الإِنْسَانُ الَّذِي مَسَخَ نَفْسَهُ بِرَفْضِهِ آيَاتِ اللهِ البيِّنَاتِ؛ فَهُوَ أَضَلُّ

سَبِيلاً مِنَ الأَنْعَام، لِأَنَّهُ يَتَّبِعُ أَهْوَاءَهُ، وَتَسْتَحْوِذُ عَلَيْهِ الشَّيَاطِينُ، فَلَيْسَ لَهُ هِدَايَةٌ ما، وَقَدْ تُرِكَ فَهْمُ هٰذَا لِذَكَاءِ المتَدَبِّرِ لِمَرَامِي النَّصّ.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الأَوَّلِ من دُرُوس سورة (الْمُلْك).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

❋ ❋ ❋

(٦)
التدبُّر التحليلي للدّرس الثاني من دَرسَي سورة (المُلك) الآيات من (٢٣ ـ ٣٠) آخر السورة

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾:

القراءات:

(٢٧) • قرأ يَعْقُوب: [تَدْعُونَ] دون تَشْدِيد الدال.

وقرأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشرَةِ: [تَدَّعُونَ] بتَشْدِيدِ الدَّال.

(٢٨) • قرأ حمزة: [أَهْلَكَنِي اللهُ] بإسْكَان يَاءِ المتكلّم.

وقرأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [أَهْلَكَنِيَ اللهُ] بِفَتْحِ يَاءِ المتكَلّم.

(٢٨) • قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأَبُو عَمْرو، وابْنُ عَامر، وحفص، وأبو جعفر: [وَمَنْ مَعِيَ أَوْ] بِفَتْحِ ياءِ المتكلّم.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ بإسْكانِ ياء المتكلّم.

(٢٩) • قرأ الكِسَائي: [فَسَيَعْلَمُونَ].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [فَسَتَعْلَمُونَ].

وبَيْنَهُمَا تَكَامُلٌ فِي الأدَاءِ البياني، فإحداهما بالخِطَاب، والأُخرَىٰ بالغيبة.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ تَكْلِيفُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ مُحمّداً ﷺ أَنْ يُتَابِعَ مُعَالَجَةَ المقْصُودِينَ بالْمُعَالَجَةِ في السُّورة، بمَا أَمَرَهُ اللهُ بِهِ في هـٰذَا الدَّرْسِ، ويُلْحَقُ بالرَّسُول ﷺ حَمَلَةُ رِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ.

التدبّر التحليلي:

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خطاباً لِرَسُولِه ﷺ:

• ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾:

• ﴿أَنشَأَكُم﴾: **الإنْشَاءُ**: هُو الإحْدَاثُ المصْحُوبُ بالتَّكامُلِ المتَدَرِّج غالِباً، كَمَا يَنْبُتُ الزَّرْعُ ويَتَكَامَلُ نَماؤُهُ شيئاً فَشَيْئاً.

• ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾: أي: وَخلَقَ لَكُم أَجْهِزَةَ إِدْرَاكِ الأَصْوَاتِ، بَدْءاً مِنَ الآذَانِ فالْمُوصِلاتِ إِلَى مَرَاكِزِ إِدْرَاكِ الأَصْوَاتِ فِي الدِّمَاغِ، وَجَعَلَ لَكُمُ الْقُدْرَةَ عَلَىٰ أَنْ تَسْمَعُوا مَا يَصِلُ إلى آذَانِكُم مِنْ أَصْوَاتٍ.

• ﴿وَٱلْأَبْصَـٰرَ﴾: أي: وَخلَقَ لَكُم أَجْهِزَةَ إدْرَاكِ الْمَرئِيَّاتِ، بَدْءاً مِنَ

الْأَعْيُنِ، فالْمُوصِلَاتِ إِلَىٰ مَرَاكِزِ إِدْرَاكِ صُورِ الْمَرْئِيَّاتِ في الدِّمَاغِ، وَجَعَلَ لَكُمُ الْقُدْرَةَ عَلَىٰ أَن تَرَوْا مَا يَصِلُ إِلَىٰ أَعْيُنِكُمْ، فَمَرَاكِزِ إِدْرَاكِ صُورِ الْمَرْئِيَّاتِ في أَدْمِغَتِكُمْ.

• ﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾: أي: وخَلَقَ لَكُمْ فِي دَاخِلِ ذَوَاتِكُمْ مَرَاكِزَ التَّفْكِيرِ والتَّحْلِيلِ والتَّرْكِيبِ وإِدْرَاكِ المعانِي، والْقَضَايَا الْعَقْلِيَّةِ والحُكْم عَلَىٰ القضايا بالإثباتِ أو النَّفْي أو التوقف، والقدرَةِ عَلَىٰ إدْرَاكِ الحقّ والْبَاطِلِ، والخير والشرّ، والْحَسَنِ والقبيح، وَجَعَلَ لَكُمُ الْقُدْرَةَ في أَدْمِغَتِكُمْ عَلَىٰ الْقِيَامِ بِهَـٰذِهِ الأعْمَالِ التَّفْكِيرِيةِ، واسْتِخْدَامِ الْأَفْئِدَةِ فيما خُلِقَتْ له.

• ﴿ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: يَأْتِي فِعْلُ «ذَرَأَ» بِمَعْنَىٰ: «خَلَقَ»، ويأتي بِمَعْنَىٰ: «بَثَّ»، فَمَعْنَىٰ: ﴿ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ عَلَىٰ هـٰذَا: كَثَّرَكُمْ عَنْ طَرِيقِ الذُّرِّيَّة، قَالُوا: كَأَنَّ الذَّرْأَ مُخْتَصٌّ بِخَلْقِ الذُّرِّيَّة.

المعنى: يُعَلِّمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ محمَّداً ﷺ، ويُلْحِقُ بِهِ حَمَلَةَ رِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ؛ أَنْ يَقُولَ فِي دَعْوَتِهِ لِلْإِيمَانِ بِرُبُوبِيَّةِ اللهِ الْوَاحِدَةِ:

اللهُ رَبُّكُمْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ بإِحْدَاثٍ مَصْحُوبٍ بالتَّكَامُلِ المتَدَرِّجِ في أَطْوَارِ خَلْقِكُمْ مِنَ الأَرْضِ، حَتَّىٰ صِرْتُمْ أَغْذِيَةً، فَدِمَاءً، فَنُطَفاً فِي ظُهورِ آبائِكُمْ وَبُيَيْضَاتٍ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ، فَأَجِنَّةً فِي الْأَرْحَام، ثُمَّ أَخْرَجَكُمْ مِنْهَا أَطْفَالاً، وَنَمَّاكُمْ حَتَّىٰ صِرْتُمْ رِجالاً ونِسَاءً مُكْتَمِلِي الْخَلْقِ.

وهُوَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ وَهُوَ يُنْشِئُكُمْ أَجْهِزَةَ السَّمْعِ الَّتِي تَسْمَعُونَ بِهَا الأَصْوَات.

وهو تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الّذِي جَعَلَ لَكُمْ وَهُوَ يُنْشِئُكُمْ أَجْهِزَة الإِبْصَارِ الَّتِي تَرَوْنَ بِهَا الْمَرْئِيَّات.

وهو تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ وَهُوَ يُنْشِئُكُمْ أفْئِدَتَكُمُ الَّتِي هِي أَجْهِزَةُ عُلُومِكُمْ وَمَعَارِفِكُمْ، وَمَرَاكِزُ أَحْكَامِكُمْ عَلَىٰ الْقَضَايَا الْفِكْرِيَّةِ بالإِثْبَاتِ

والنَّفْي أو التوقف، ومَرَاكِزُ إدْرَاكِكُمْ لِلْحَقّ والباطل، والخير والشَّرّ، والْحَسَنِ والقبيح.

فَاشْكُرُوا رَبَّكُمْ عَلَىٰ مَا تَفَضَّلَ بِهِ عَلَيْكُمْ بالإيمان بِهِ، وبالْعَمَلِ بِما يُرْضِيهِ عَنْكُمْ. ولَكِنَّكُمْ وَإِنْ شَكَرْتُمْ فَقَلِيلاً مَا تَشْكِرُون، لِأَنَّكُمْ لَا تُدْرِكُونَ كثرة نِعَم اللهِ عَلَيْكُمْ، وَلَا تَسْتَطيعُونَ إحْصَاءَها.

• ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾: أي: شُكْراً قَلِيلاً جِدّاً تَشْكُرون، فَلَفْظ ﴿قَلِيلًا﴾ صفة لمفعُولٍ مُطْلَقٍ مَحْذُوفٍ مُقَدَّمٍ عَلَىٰ فِعْلِهِ، ولفظ ﴿مَّآ﴾ إبْهَامِيَّةٌ لِتَوْكِيدِ الْقِلَّةِ.

وقُلْ لهم أيْضاً:

اللهُ رَبُّكُمْ هُوَ الَّذي بَثَّكُمْ فِي الْأَرْضِ، وكَثَّرَكُمْ عَنْ طَرِيقِ الذُّرِّيَّةِ والتَّناسُلِ.

واعْلَمُوا أَنَّكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضُوعُونَ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ والابْتِلَاءِ، مِنْ قِبَلِ رَبِّكُمُ الَّذِي أنْشَأَكُمْ وَذَرَأَكُمْ، وَأَنَّكُمْ مُطَالَبُونَ بإيمانٍ صَحِيحٍ صَادِقٍ، وبِعَمَلٍ بِمَرْضَاةِ رَبِّكُمْ يُعَبِّرُ عَنْ صِحَّةِ إيمانِكُمْ وصِدْقِهِ.

وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مَجْزِيُّونَ عَلَىٰ مَا قَدَّمْتُمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ فِي الحياةِ الدُّنيا، وهٰذَا الْجَزَاءُ الْأَوْفَىٰ يَكُونُ يَوْمَ الدِّينِ بَعْدَ بَعْثِكُمْ أَحْيَاءً، خارِجِينَ مِنْ أَجْدَاثِكُمْ لِمُلَاقَاةِ حِسَابِ رَبِّكُمْ وَفَصْلِ قَضَائِهِ وتَنْفِيذِ جَزَائِهِ، حِينَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ.

الْحَشْرُ: الْجَمْعُ والسَّوْق.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابعُ تَعْلِيمَهُ لِرَسُولِهِ ﷺ:

• ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾﴾:

أي: وَيَقُولُ المكذِّبُونَ بِيَوْم الدِّين لكَ يَا مُحَمَّد ولِلّذِينَ آمَنُوا بِكَ وَاتَّبَعُوكَ، وَيُكَرِّرُونَ قَوْلَهُمْ تَكْرِيراً إعْلَامِيًّا، لِصَدِّ جَمَاهِيرِهِمْ عَنِ الإيمانِ والإسلام: مَتَىٰ يَكُونُ يَوْمُ الدِّينَ يَوْمُ الْجَزَاءِ الْأَكْبَر الَّذِي يَعِدُ دِينُكُمْ بِهِ، إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي الإِخْبَارِ بِهِ عَنْ رَبِّكُمْ؟؟.

فَأَجِبْهُمْ قَائِلاً لَهُمْ: مَا عِلْمُ يَوْمِ الدِّينِ إِلَّا عِنْدَ اللهِ، فَلَا يَعْلَمُ أَحَدٌ في الوجُودِ كُلِّهِ إِلَّا اللهُ تَعَالَىٰ مَتَّىٰ تَقُومُ سَاعَةُ إِنْهَاءِ ظُرُوف الْحَيَاة الدُّنْيَا، وَلَا يَعْلَمُ أَحَدٌ غَيْرُ اللهِ تَعَالَىٰ في الوجُودِ كُلِّهِ مَتَىٰ تَكُونُ سَاعَةُ الْبَعْثِ لِلْحَيَاةِ الْأُخْرَىٰ، وَمَتَىٰ يَكُونُ بَدْءُ يَوْمِ الدِّينِ، واعْلَمُوا أَنَّ نَبَأَ قِيَام السَّاعَةِ الْأُولَىٰ، وقيام السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ الَّتِي هِيَ سَاعَةُ الْبَعْثِ لِلْحَيَاةِ الْأُخْرَىٰ؛ نَبَآنِ مِنْ عِنْدِ اللهِ، وَمَا أَنَا إِلَّا مُبَلِّغٌ عَنْ رَبِّي وَرَبِّكُمْ، وَلَمْ يُعْطِنِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عِلْمَ الْوَقْتِ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ هٰذَا الْوَعْدُ.

إِنَّنِي رَسُولٌ مُبَلِّغٌ عَنْ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا يَأْمُرُنِي بِأَنْ أُبَلِّغَكُمْ إِيَّاه، وَقَدْ بَلَّغْتُكم مَا أَنْزَلَ عَلَيَّ مِنْ فِقَرَاتِ الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ لِعِبَادِهِ في الرِّسَالَةِ الْخَاتِمَةِ، وَلَمْ يَبْقَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِلَّا فِقْرَةُ إِنْذَارِكُم بِمَا أَمَرَنِي أَنْ أُنْذِرَكُمْ به، فَمَا أَنَا بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ هٰذِهِ الْمَرْحَلَةِ الَّتِي أَصْرَرْتُمْ فِيهَا على رَفْضِ الاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَةِ رَبِّكُمْ لَكُمْ، بَعْدَ مُعَالَجَاتٍ كَثِيراتٍ لَكُمْ خِلَال مَسِيرَتِي الدَّعَوِيَّةِ؛ مَا أَنَا إِلَّا مُنْذِرٌ لَكُمْ مُبِينٌ بِعَذَابِ رَبِّكُمْ يَوْمَ الدِّينِ، مَعَ عَذَابٍ قَدْ تَقْتَضِي حِكْمَتُهُ أَنْ يُعَذِّبَكُمْ بِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُقَدِّمُ مَشْهداً أَوَّلِيًّا مِنْ مَشَاهِدِ تَعْذِيبِهِمْ:

• ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ۝٢٧﴾: وَجَاءَ في القِرَاءة الْأُخْرَىٰ: **[تَدْعُونَ]**.

العبارةُ جَاءَتِ اسْتِقْطَاعاً مِمَّا سَوْفَ يَكُونُ في المسْتَقْبَلِ، وَقُدِّمَتْ بِفَنِّيَّةٍ بَدِيعَة كَأَنَّهَا أَمْرٌ وَقَعَ في الْمَاضِي.

المعْنَىٰ: فَلَمَّا رَأَوْا مَا كَانُوا قَدْ وُعِدُوهُ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ؛ ظَهَرَت عَلَىٰ وُجُوهِهِمُ الْكَآبَةُ الدَّالَّةُ على اسْتِيَاءِ نُفُوسِهِمُ الشَّدِيدِ مِمَّا هُمْ مُلاقُوهُ مِنْ عَذَابٍ، وَقِيْلَ لَهُمْ مِنْ قِبَلِ الْمَلَائِكَةِ السَّائِقَةِ لَهُمْ إلى النَّارِ بِعُنْفٍ وشِدَّة: هـٰذَا الْعَذَابُ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ، وكُنْتُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّهُ كَذِبٌ، وَأَنَّهُ لَا صِحَّةَ لِيَوْم الدِّين، وَلَا صِحَّةَ لِلْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْت، وهـٰذَا الْعَذَابُ الَّذِي كُنْتُم تَدْعُونَ أَنْ يُعَجَّلَ لَكُمْ، إعْلَاماً بِأَنَّهُ كَذِبٌ، وأَنَّ نَبَأَهُ بَاطِل.

«لَمَّا» حينيَّة، وهي ظَرْفٌ تَخْتَصُّ بالماضِي، ويَكُونُ جَوَابُهَا فِعْلاً مَاضِياً.

«زُلْفَةً» أي: قُرْباً، بمعنَىٰ «قَرِيباً»، أُطْلِقَ المصدر بمعنى مَا يَحْدُث مِنْهُ القرب.

• ﴿سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: أي: ظَهَرَتِ الكآبَةُ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ وَكَانُوا يَكْفُرُونَ بِهِ، وَهَـٰذِهِ الكآبَةُ تَكْشِفُ مَا فِي نُفُوسِهِمْ من اسْتِيَاءٍ شَدِيدٍ، وَخَوْفٍ مِنَ الْمَصِيرِ الَّذِي هُمْ صَائِرُونَ إِلَيْهِ.

• ﴿بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾: أي: تُكَذِّبُونَ بِهِ، وَتَدَّعُونَ أَنَّهُ نَبأٌ كَاذِب.

• **﴿بِهِۦ تَدْعُون﴾**: أي: كُنْتُمْ تَدْعُونَ تَعْجِيلَهُ لَكُمْ، على سَبِيلِ التَّكْذِيبِ بِهِ، إذْ كُنْتُم تَرَوْنَهُ نَبأً كَاذِباً لا صِحَّةَ له.

في التَّعْبِيرَيْنَ حَذْفٌ مِنَ السَّهْلِ عَلَىٰ المتَدَبِّر اكْتِشَافُهُ، بِمُسَاعَدَةِ الْقَرَائِنِ السَّابِقَة.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً تَعْلِيمَ رَسُولِهِ ﷺ بَعْدَ فَاصِلِ الآية (٢٧):

• ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَهۡلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوۡ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٢٨﴾﴾:

أي: قُلْ لَهُمْ يا مُحَمَّدُ: يَا مَنْ تَتَمَنَّونَ مَوْتِي، وقُلْتُمْ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ

الْمَنُونِ، لِتَتَخَلَّصُوا مِنِّي وَمِنْ دَعْوَتِي وَمِنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِي واتَّبَعُونِي؛ تَفَكَّرُوا لِتَرَوا بِعُقُولِكُمْ إِنْ أَمَاتَنِي اللهُ وَأَمَاتَ الَّذِينَ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ، أَوْ رَحِمَنَا فَتَرَكَ كُلَّ واحِدٍ مِنَّا إِلَى أَجَلِهِ المقَدَّرِ له، وأَرَاحَكُمْ مَوْتُنَا مِنَّا؛ أَفَيَحْمِيكُمْ هَلَاكُنَا مِنْ عَذَابِ رَبِّكُمْ عَلَىٰ كُفْرِكُمْ وَهُوَ عَذَابٌ شَدِيدٌ أَلِيمٌ.

أَخْبِرُونِي: مَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ وَأَنْتُمْ مِنْهُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ مُعَدٍّ لَهُمْ، وَيُعَذِّبُونَهُ فِي جَهَنَّمَ يَوْمَ الدِّين، مَعَ احْتِمَالِ تَعْذِيبِهِمْ عَذَاباً مُعَجَّلاً في الدُّنْيَا، إِذَا اقْتَضَتْ حِكْمَةُ اللهِ ذَلِكَ؟؟!.

يقالُ لغة: «أَجَارَ فُلَانٌ فُلَاناً» أي: حَمَاهُ، وحَفِظَهُ، وَوَقَاه، وَدَفَعَ عَنْهُ مَا يَكْرَهُ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابِعُ تَعْلِيمَ رَسُولِهِ ﷺ وَمَعَهُ المؤمِنُونَ الْمُسْلِمُونَ:

• ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾﴾:

أي: قُلْ لِلْمَعْنِيِّينَ بالْعِلَاجِ فِي هَٰذِهِ السُّورَة: أَيُّهَا الْوَاقِفُونَ مِنّا ومِنْ دَعْوَتِنَا مَوْقِفَ الْعِدَاءِ وإِرَادَةِ التَّخَلُّصِ مِنَّا وَلَوْ بالْقِتَالِ؛ اللهُ رَبُّنَا هُوَ وَحْدَهُ الرَّحْمٰنُ الَّذِي يَرْحَمُ أَوْلِيَاءَهُ فَيَحْمِيهِمْ، وَيَرُدُّ كَيْدَ أَعْدَائِهِمْ إِلَىٰ نُحُورِهِمْ، ونَحْنُ آمَنَّا بِهِ الإِيمَانَ المطْلُوبَ مِنَّا، وعَلَيْهِ وَحْدَهُ تَوَكَّلْنا لِيَرُدَّ عَنَّا كَيْدَ مَنْ يُرِيدُنا بِسُوءٍ أو ضُرٍّ أَوْ أذىً.

وأَنْتُمْ تَتَّهِمُونَنَا بِأَنَّنَا فِي ضَلَالٍ، فَسَتَعْلَمُونَ حِينَ يَنْزِلُ بِكُمْ عَذَابُ رَبِّكُمْ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، إِنَّكُمْ سَتَعْلَمُونَ أَنَّكُمْ أَنْتُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ مُنْغَمِسِينَ في ضَلَالٍ عَنْ سَبِيلِ الْحَقِّ والْهُدَىٰ، وَهَٰذَا الضَّلَالُ مُبِينٌ واضِحٌ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُتَابِعُ التَّعْلِيم:

• ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾﴾:

• ﴿غَوْرًا﴾: يُقَالُ لُغَةً: «مَاءٌ غَوْرٌ» أي: غَائِرٌ في أَعْمَاقِ الْأَرْض، وصفٌ بالمصْدَرِ.

• ﴿بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾: **الماء الْمَعِينُ**: هُو السَّهْلُ السَّائِلُ، والجارِي سَاقِيةً، أَوْ نهراً.

أي: قُلْ لَهُمْ: إِنَّ اللهَ رَبَّكُمْ هُوَ الَّذِي يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ سَهْلِ التَّنَاوُلِ، سَهْلِ الْحُصُولِ عَلَيْهِ مِنَ الآبَارِ، ومِنْهُ أَنْهُرٌ وَجَداوِلُ وَسَوَاقي.

أَخْبِرُونِي: إِنْ عَاقَبَكُمْ رَبُّكُمْ فَجَعَلَ مَاءَكُمْ غَائِراً فِي أَعْمَاقِ الْأَرْضِ، فَأَصْبَحْتُمْ فَوَجَدْتُموهُ غَوْراً (أي: غَائِراً)؛ فَمَنْ يَأْتِيكُمْ مِنْ دُونِ رَبِّكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ، وَهُوَ مِنْ ضَرُورِيَّاتِ حَيَاتِكُمْ، لِأَنْفُسِكُمْ، ولِدَوَابِّكُمْ، وَلِأَنْعَامِكُمْ، ولِزُرُوعِكُمْ، ولِأَشْجَارِكُمْ؟؟.

إِنَّهُ لَا يُوجَدُ أَحَدٌ مِنْ دُونِ اللهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ يَأْتِي بِمَاءٍ مَعِينٍ، إِذَا جَعَلَ اللهُ الْمَاءَ غَائِراً في أَعْمَاقِ الْأَرْض.

والْغَرَضُ مِنْ هٰذَا السُّؤَالِ انْتِزَاعُ اعْتِرَافِهِمْ بأَنَّهُ لَا أَحَدَ مِنْ دُونِ اللهِ يَأْتِيهِمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ، وَهٰذَا مِنْ أَدِلَّةِ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ للهِ عَزَّ وَجلَّ، الَّذِي يَلْزَمُ عَنْهُ عَقْلاً تَوْحِيدُ الإِلَهيَّةِ له، وعِنْدَئِذٍ يَلْزَمُهُمْ عَقْلاً نَبْذُ شِرْكِيَّاتِهِمْ.

وبهٰذَا انتهىٰ تَدَبُّر الدّرس الثَّاني من دُرُوس سورة (الْمُلك)، وهُوَ آخِرُ السُّورَة.

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(٧)
ملحق: مُستَخرجَات بَلاَغِيّة مِن سُورَةِ (الملك)

أَقْتَصِرُ في اسْتِخْرَاجَاتِ الْبَلَاغِيَّاتِ مِنْ هٰذِهِ السُّورَةِ على مَا لَمْ يَتَكَرَّرْ في السُّوَرِ كثيراً، ومِنْهَا ما يلي:

أولاً:

مِنْ فُنُونِ المنْهَجِ البيَانِي في القرآن؛ اسْتِقْطَاع النُّصُوصِ مِنْ أزْمَانِهَا المستقْبَلِيَّةِ، وعَرْضُهَا بألْفَاظِهَا دُونَ الإشارَةِ إلَىٰ أنَّهُ سَوْفَ يكُونُ كَذا فِيمَا يَأْتِي مِنْ أَحْدَاث، ومِنْ أمْثِلَتِهِ في السُّورة قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشأْنِ رُؤْيَةِ الْكَافِرِينَ يَوْمَ الدِّينِ مَنَازِلَ عَذَابِهِمْ فِي الجحيم:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾:

أي: هٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ تُكَذِّبُونَ بِهِ وَتَدَّعُونَ أَنَّهُ لَنْ يَكُون.

ثانياً:

مِنَ الْفُنُونِ الْبَلاغِيَّةِ التَّنْوِيعُ في الْبَيَانِ بَيْنَ الْخِطَابِ والْغَيْبَةِ، مَعَ أَنَّ الْبَيَانَ يَتَعَلَّقُ بالَّذِينَ كَفَرُوا، نَجِدُ هٰذَا في الْآيَاتِ من (١٦ ـ ٢١): «أَأَمِنْتُمْ ـ أَمْ أَمِنْتُمْ ـ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم ـ أَوَلَمْ يَرَوْا إلى الطَّيْر ـ أَمَّنْ هٰذَا الَّذِي هُو جُنْدٌ لَكُمْ ـ أَمَّنْ هٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُم».

ثالثاً:

من التشبيه المكْنِي؛ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾:

شُبِّهَ الضَّالُّ بالدَّوَابِّ والْأَنْعَامِ، إِذْ رُمِزَ إليها بشيءٍ مِنْ لوازِمها.

وبهٰذَا أَنْتَهِي من المستخْرَجَاتِ البلاغية.

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



سُورَةَ الحاقّةِ

٦٩ مصحف ٧٨ نزول

وهي كُلُّهَا مَكِّيَّةٌ بِلَا خلاف



(١)

نصّ السورة وما فيها من فرش القراءات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ

٩ ـ • قرأ أَبو عَمْرو، والكِسائي، ويعقوب: [وَمَنْ قِبَلَهُ].
وقرأها بَاقِي القُرَّاءِ العَشَرَةِ: [وَمَنْ قَبْلَهُ].

٩ ـ • قرأ أبو جعفر: [بالْخَاطِيَةِ]. وكذا قرأها حَمْزة في الوقف.
وقرأها بَاقِي القُرَّاءِ العَشَرَةِ: [بالْخَاطِئَةِ].

١٢ ـ • قرأ نَافع: [أُذْنٌ] بإسْكان الذال.
وقرأها بَاقِي القُرَّاءِ العَشَرَةِ: [أُذُنٌ] بِضَمِّ الذَّال.

ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ

١٨ ـ • قرأ حمزة، والكِسَائي، وخَلَف: [لَا يَخْفَىٰ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [لَا تَخْفَىٰ].

٤١ ـ • قرأ ابْنُ كثير، ويعقوب، وابْنُ عَامر بخُلفٍ عَنِ ابن ذَكْوان: [يُؤْمِنُون].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [تُؤْمِنُونَ]. وهو الوجه الثاني لابن ذكوان.

٤٢ ـ • قرأ ابْنُ كثير، ويعقوب، وابْنُ عَامر بخلف عن ابنِ ذكوان: [يَذَّكَّرُون] بياء الغيبة مع تَشْديد الذال.
وقرأها حفصٌ، وحمزة، والكسائي، وخلف: [تَذَكَّرُون] بتَخْفِيفِ الذال.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [تَذَّكَّرُونَ] بتاء الخطاب وتَشْدِيد الذّال، وهو الوجْهُ الثاني لابن ذَكْوَان.

قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾:

(٢)
مما ورد في السنة بشأن سورةِ (الحاقّة)

رَوَىٰ الطّبَراني عَنْ أبي بَرْزَة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيّ ﷺ كان يَقْرأ في الْفَجْرِ بالْحَاقَّةِ وَنَحْوها.

(٣)
موضوع سورة (الحاقّة)

يَدُور الْبَيَانُ في سُورَة (الحاقّة) حَوْلَ يَوْمِ القيامَةِ الَّذِي جَاءَ نَبَؤُهُ فِي القرآن، وأَمْثِلَةٍ مِنْ إِهْلَاكِ المكَذّبين بِهِ، وبَعْضِ لَقَطاتٍ مِمَّا سَوْفَ يَجْري فِيهِ، والْقَسَمِ بِكُلِّ مَا خَلَقَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ عَلَىٰ أَنَّ الْقُرْآنَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، مَعَ مُرَافِقَاتٍ تَفْصِيلِيَّةٍ قَضَتِ الْحِكْمَةُ الْبَيَانِيَّةُ ذِكْرَهَا.

(٤)
دروس سورة (الحاقة)

ظَهَرَ لِي أَنَّ هَـٰذِهِ السُّورَة يُمْكِنُ تَقْسِيمُهَا إلى ثَلاثَة دُرُوس:

الدَّرس الأول: الآيات من (١ ـ ١٢).

وفي آياتِ هـٰذَا الدَّرْسِ عَرْضُ إِهْلَاكِ بَعْضِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَا سَوْفَ يَجْرِي فِيهِ مِنْ أحداث.

الدَّرس الثاني: الآيات من (١٣ ـ ٣٧).

وفي آياتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ بَعْضِ مَا سَوْف يَحْدُثُ قَبْلَ الْحِسَابِ وفَصْلِ القضاءِ يَوْمَ الدِّينِ مِنْ أَحْدَاثٍ كَوْنِيَّةٍ، وَبَعْدَهَا لَقَطاتٌ مِنَ الْأَحْدَاثِ المتعلّقَةِ بالَّذِينَ كانوا مَوْضُوعِينَ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ.

الدرس الثالث: الآيات من (٣٨ ـ ٥٢) آخر السورة.

وفي آياتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانٌ يَتَعَلَّقُ بالقرآنِ الَّذِي اشْتَمَلَ على أَنْبَاءِ يَوْمِ الدين، وأَنَّهُ تنزيل رَبّ العالمين.

❁ ❁ ❁

(٥)
التدبّر التحليلي للدّرس الأول مِن دُروس سورة (الحاقّة)
الآيات من (١ ـ ١٢)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:



﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ۝١٠ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝١١ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ۝١٢﴾:

القراءات:

(٩) • قرأ أبو عَمْرو، والكِسَائي، ويعقوب: **[وَمَنْ قِبَلَهُ]**.

وقرأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [وَمَنْ قَبْلَهُ].

(٩) • قرأ أبُو جعْفر: [بِالْخَاطِيَةِ]، وكذَا قرأها حَمْزَة في الوقف.

وقرأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [بِالْخَاطِئَةِ].

(١٢) • قرأ نَافع: [أُذْنٌ] بإسْكانِ الذَّال.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [أُذُنٌ] بِضَمِّ الذَّال.

وهما لُغَتَان.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ عَرْضٌ لِإِهْلَاكِ بَعْضِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، يَوْمِ الدِّينِ، وما سَوْف يَجْرِي فِيهِ مِنْ أَحْدَاثٍ، باعْتِبَارِ أَنَّ التَّكْذِيبَ بِيَوْمِ الدِّين؛ هُوَ الباعِثُ الْأَكْبَرُ لانْطِلاَقِ الإِنْسَانِ عَاتِياً جبَّاراً فاجراً في الحياة الدُّنيا.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿ٱلْحَاقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَاقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَاقَّةُ ۝٣﴾:

• ﴿ٱلْحَاقَّةُ﴾: اسْمُ «فاعل» وصْفاً لِمُؤَنَّثَة مِنْ فِعْل: «حَقَّ الْأَمْرُ، يَحِقُّ، حَقًّا، وحَقَّةً، وحُقُوقاً» أيْ: ثَبتَ أَنَّهُ لَا شَكَّ فِيهِ، فَهُوَ أَمْرٌ وَقَعَ وُجُوداً أَوْ هُوَ وَاقِعٌ وُجوداً، أَوْ سَيَقَعُ في الوجود حَتْماً بِلَا رَيب.

والمرادُ بِلَفْظِ «الْحاقَّةِ» هُنَا الْقِيَامَةُ وَأَحْدَاثُهَا وَكُلُّ مَا يَكُونُ يَوْمَ الدِّينِ، يَوْمَ الجزَاءِ الْأَكْبَرِ مِنْ أُمُورٍ جِسَامٍ كُبْرَىٰ، فَهِيَ مِنَ الْحَقَائِقِ الَّتِي قَدَّرَهَا اللهُ وَقَضَاهَا فِي خُطَّةِ الْوُجُودِ، لِلْحِسَاب، وَفَصْلِ الْقَضَاءِ وَتَنْفِيذِ الجزاء.

• ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾: اسْتِفْهَامٌ تَعْجيبيٌّ مِنْ عَظَمَةِ أَحْدَاثِ الْقِيَامَةِ، والْيَوْمِ الْآخِرِ، والْحَيَاةِ الْأُخْرَىٰ، ومَا يَجْرِي فِيهَا وَمَا يَكُونُ فِيها بَعْدَ الْبَعْث.

أي: أعْظِمْ مُتَعَجِّباً أَيُّهَا المتفَكِّرُ الرَّشِيدُ؛ بِمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ لَفْظُ «الْحَاقَّةِ» مِنْ أَحْدَاثِ وَكَائِنَاتٍ وَدَارٍ لِلْمُتَّقِينَ، وأُخْرَىٰ لِلْمُجْرِمِينَ، وبَعْثٍ، وحَشْرٍ، وحِسَابٍ، وفَصْلِ قَضَاءٍ، وتَنْفِيذِ جَزَاء.

• ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾: «وَمَا أَدْرَاكَ» أي: وأيُّ شيءٍ أَعْلَمَكَ؟، فَلَفْظ «مَا» اسْمُ اسْتِفْهَامٍ يُسْتَفْهَمُ بِهِ عَنْ حَقِيقَةِ الشيءِ وماهِيَّتِهِ، وهِي جُمْلَةٌ مُؤَلَّفَةٌ مِنْ مُبْتَدأ وخَبَرٍ.

«مَا الْحَاقَّة»؟! أَيْ: أَيَّةُ كَائِنَاتٍ وأَحْدَاثٍ جِسَامٍ؛ سَوْفَ يَشْهَدُ الْمَوْضُوعُونَ في الْحَيَاةِ الدُّنْيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ بَعْدَ الْبَعْثِ إِلَىٰ الحياة الْأخرى، وهي جُمْلَةٌ مُؤَلَّفَةٌ مِنْ مُبْتدأ، هو: «مَا» الاسْتِفْهَامِيَّةُ التَّعْجِيبيَّةُ، وخبرٍ هو: «الْحَاقَّةُ».

وجملة «مَا الْحَاقَةُ» في مَحَلِّ نَصْبٍ سَدَّتْ مَسَدَّ مَفْعُولَيْنِ، والتَّقْدِير: وَمَا أَدْرَاكَ مُعْلِماً إِيَّاكَ عَظَمَةَ الحاقَّةِ وَجَسَامَةَ أَحْدَاثِهَا.

والاسْتِفْهَامُ في عبارة: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ وكذلِكَ نظيرُهُ فِي مِثْلِها؛ يَتَضَمَّنُ مَعْنَىٰ نَفْيِ عِلْمِ الْمُخَاطَبِ بِمَا هُوَ مَسْؤُولٌ عَنْهُ، أي: أنْتَ لَا تَدْرِي مَهْمَا انْطَلَقَ بِكَ الْخَيَالُ في الْمَدَىٰ الَّذِي بَلَغَتْهُ في العظَمَةِ الكُبْرَىٰ: الْحَاقَّة، إِلَّا إِذَا أَعْلَمْنَاكَ بِذَلِكَ، أَوْ أَشْهَدْنَاكَ مَشَاهِدَهَا، وفي هٰذَا دَلَالَةٌ كَافِيَةٌ عَلىٰ أَنَّ عَظَمَتَهَا فَوْقَ مَا يَسْتَطِيعُ النَّاسُ تَصَوُّرَه.

وقد تَكَرَّرَ فِي الْقُرْآنِ المجيدِ مِثْلُ هٰذَا الاسْتِعْمَالِ حَتَّىٰ صَارَ مَعْلُوماً أَنَّهُ أَسْلُوبٌ مِنْ أَسَالِيبِ التَّعْظِيمِ والتَّكْبِيرِ والتَّعْجِيب.

ولدىٰ التحليل التَّدَبُّرِي يَظْهَرُ أَنَّهُ صِيغَةٌ مِنْ صِيَغِ التَّعْجِيب القرآنِيَّةِ الْمُبْتَكَرَةِ، ضِمْنَ أُصُولِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيّ، وهِيَ أبْلَغُ مِنْ صِيغَتَي التَّعَجُّبِ والتَّعْجِيب: «مَا أَفْعَلَهُ»! و«أَفْعِلْ بِهِ»!.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾:

جاء في الملْحَقِ الثَّالِثِ لِتَدَبّر سورة (النمل/٤٨ نزول) دِراسةٌ تكامُلِيَّةٌ للنُّصوصِ القرآنيَّة بشَأْنِ صالحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقَوْمِهِ ثَمُود، وسَبَقَ في عِدَّةِ مَوَاضِعَ تَعْرِيفٌ بصالحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وبقَوْمِهِ، فَلْيُرْجَعْ إليه.

وَجاءَ في المَلْحَقِ الثَّانِي لِتَدَبُّر سورة (هُود/ ٥٢ نزول) دِرَاسَةٌ تَكَامُلِيَّةٌ لِلنُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ بِشَأْنِ هُود عَلَيْهِ السَّلَام، وقومِهِ عَاد، وسبق فِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ تَعْرِيف بِهُود عَلَيْهِ السَّلَام وبِقَوْمه، فَلْيُرْجَعْ إِلَيْهِ.

وأَقْتَصِرُ هُنَا عَلَىٰ تَحْلِيلِ فِقَرَاتِ هَـٰذِهِ الآيَاتِ.

• ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤﴾: **القـارعَـة**: سَبَـقَ فـي سُـورَة (القارعة/ ٣٠) بَيَانُ أَنَّ الْمُرَادَ بالْقَارِعَةِ الْقِيَامَةُ. وأَصْلُ لَفْظِ «الْقَارِعَة» اسم «فاعل»، مِنْ فِعْلِ «قَرَعَهُ، يَقْرَعُهُ»، بمعْنَىٰ ضَرَبَهُ بِالْعَصَا، أو بِالمِقْرَعَة.

أي: كَذَّبَتْ قَبِيلَةُ: «ثَمُود» وقَبِيلَةُ: «عَادٍ» بالْقِيَامَةِ، فَكَذَّبُوا رَسُولَيْ رَبِّهِمْ، وَكَذَّبُوا بِمَا بَلَّغَ كُلٌّ مِنْهُمَا قَوْمَهُ، وَهُوَ مَا أَمَرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنْ يُبَلِّغَهُمْ إِيَّاه، فاسْتَحَقَّ كُفَّارُ كُلٍّ مِنَ الْقَبِيلَتَيْنِ التَّعْذِيبَ والإهْلَاكَ الشَّامِلَ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِمَا مَا عَذَّبَهُمَا بِهِ وَأَهْلَكَهُمَا إهْلَاكاً شَامِلاً سَاحِقاً مَاحِقاً، فَأَبَادَهُمَا إِبَادَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وأَعَدَّ لَهُمَا الْعَذَابَ الأَكْبَرَ يَنَالُونَهُ فِي الآخِرَة.

• ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥﴾: «الفاء» عاطِفَةٌ عطفاً تفريعيًّا عَلَىٰ تَكْذِيبِهِمْ بِالْقَارِعَة. و«أَمَّا» حَرْفٌ فِيهِ مَعْنَىٰ الشَّرْطِ والتوكيدِ دائماً، والتَّفْصِيلِ غَالِباً، والتَّفْصِيلُ فِي هـٰذَا النّصِّ واضحٌ.

• ﴿فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾: أي: فَأُهْلِكُوا بالصَّيْحَةِ الطَّاغِيَةِ الَّتِي تَجاوَزَتْ غَايَةَ الصَّيْحَاتِ الْمُعْتَادَاتِ اللَّاتِي لَا تُهْلِكُ، وَطَغَتْ حَتَّىٰ صَارَتْ صَيْحَةً مُهْلِكَة.

وَدَلَّ عَلَىٰ أَنَّ «الطَّاغِيَةَ» أُرِيدَ بِها الصَّيْحَة مَا جَاءَ في سورة (هود/ ٥٢ نزول) بِشَأْنِهِمْ:

﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٦٧﴾.

• ﴿وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ٦ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ٧ فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ ٨﴾:

• ﴿بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ﴾: الرِّيحُ الصَّرْصَرُ هِيَ الرِّيحُ الشَّدِيدَةُ الْبُرُودَةِ، الْقَوِيَّة السَّرِيعَة، الَّتِي تَصْطَدِمُ بِالْأَشْيَاءِ، فَتَنْطَلِقُ بِهَا أَصْوَاتٌ يَتَوَاتَرُ فِيها مَا يُشْبِهُ حَرْفي الصَّادِ والرَّاءِ، فَسُمِّيَتْ صَرْصَراً.

• ﴿عَاتِيَةٖ﴾: أي: طَاغِيَةٌ مُتَجاوِزَةٌ حُدُودَ السَّلَامَةِ والاحْتِمَالِ، فَهِيَ مُدَمِّرَة.

• ﴿سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ﴾: أي: سَخَّرَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ هَٰذِهِ الرِّيحَ الصَّرْصَرَ مُسَلَّطَةً عَلَيْهِمْ لِتَعْذِيبهِمْ وَإِهْلَاكِهِمْ.

التَّسْخِير: جَعْلُ الشَّيْءِ مُطَاوِعاً لِمَا يُرَادُ مِنْهُ، ضِمْنَ قَانُونِ تَسْخِيره.

• ﴿سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾: أُطْلِقَ الْيَوْمُ وَأُرِيدَ بِهِ النَّهارُ.

وبِالتَّأَمُّلِ الْحِسَابِيِّ نُدْرِكُ أَنَّ هَٰذَا التَّسْخِيرَ بَدَأَ مَعَ فَجْرِ الْيَوْمِ الْأَوَّلِ، وَاسْتَمَرَّ حَتَّىٰ غُرُوبِ شَمْسِ الْيَوْمِ الثَّامِنِ، فَتَكُونُ بَيْنَهُمَا سَبْعُ لَيَالٍ.

• ﴿حُسُومٗا﴾: أي: مُتَتَابِعَةً مُتَوَالِيَةً فِي إِنْزَالِ الْعَذَابِ بِهِم، ومِنْ شَأْنِهَا أَنْ تَحْسِمَ مَادَّتَهُمْ وَتَسْتَأْصِلَهُمْ.

أَصْلُ الْحَسْم: الْقَطْعُ. يُقَالُ لُغَةً: «حَسَم الْعِرْقَ» أي: قَطَعَهُ وَكَوَاه، لِئَلَّا يَسِيلَ الدَّمُ مِنْهُ.

وَلفظ: «حُسُوم» هو جَمْعُ «حَاسِم»، مثل «شاهد» و«شُهُود».

• ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ﴾: أي: فَتَرَىٰ أَيُّهَا الرَّائي لَوْ كُنْتَ شَهِدْتَ إِهْلَاكَهُمْ في الْأَيَّامِ واللَّيَالِي ذَوَاتِ الرِّيحِ الْحسُومِ كُفَّارَ عَادٍ صَرْعَىٰ، أَيْ: هَلْكَىٰ.

• ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾: أي: كَأَنَّهُمْ أُصُولُ نَخْلٍ فَارِغَةٍ، شُبِّهُوا بِهَا لِتَصْوِيرِ حَالَةِ بُطُونِهِمُ الَّتِي بُقِرَتْ وَخَرَجَ مَا فِيهَا، فَصَارَتْ خَاوِيَةً.

• ﴿... فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾: أي: فَهَلْ تَرَىٰ لَهُمْ أَيُّهَا الْبَاحِثُ عَنْهُمْ في أَرْضِهِمْ مِنْ آثَارٍ بَاقِيَةٍ تَدُلُّ عَلَىٰ مَا كَانُوا يَسْتَكْبِرُونَ بِهِ عَلَىٰ النَّاس؟؟، لَقَدْ صَارَ كُلُّهُ مُتَبَّراً تَتْبِيراً.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً الْحَدِيث عَنْ بَعْضِ الْمُهْلَكِينَ مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَة:

• ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَالْمُؤْتَفِكَٰتُ بِالْخَاطِئَةِ ۝٩ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ۝١٠﴾:

• ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ﴾: أي: وَمَنْ قَبْلَهُ مِنَ الْأُمَمِ بَعْدَ عَادٍ وَثَمُودَ.

وفِي الْقِرَاءَة الْأُخْرَىٰ: [وَمَنْ قِبَلَهُ]: أي: وَمَنْ هُمْ في جِهَةِ فِرْعَوْنَ، ويُطِيعُونَهُ ويَتّبِعُونَهُ، فَبَيْنَ القراءَتَيْنِ تَكَامُلٌ في أَدَاءِ المعْنَىٰ المراد.

• ﴿وَالْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾: هِيَ قُرَىٰ قَوْمِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، والْمُرَادُ أَهْلُهَا. والمُؤْتَفِكَات جمع: مُؤْتَفِكَة أي: المنقلبة. الائتفاك: عند أهل العربيّة هو: الانقلاب.

• ﴿بِالْخَاطِئَةِ﴾: أي: بالْأَعْمَالِ مِنَ الْعَقَائِدِ والنِّيَاتِ وأنْوَاعِ السُّلُوكِ الَّتِي تُوصَفُ بأَنَّهَا خَاطِئَة. يُقَال لُغَةً: «خَطِئَ، يَخْطَأُ، خَطَأً، وَخَطْأً» أي: أَذْنَبَ وَعَصَىٰ، ومَجِيئُهُم بالْخَاطِئَةِ إِدَانَةٌ لَهُمْ بالذُّنُوب والمعاصي الكُبْرَىٰ.

أي: وَهَؤُلَاءِ كَانُوا مُذْنِبِينَ ذُنُوباً كُبْرَىٰ يَسْتَحِقُّونَ بِسَبَبِهَا أَنْ يُعَذَّبُوا وَيُهْلَكُوا.

• ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾: تَفْرِيعٌ عَلَىٰ كَوْنِهِمْ جَاءُوا بِالْخَاطِئَةِ، وَبَيَانٌ لِذَنْبِهِمُ الكَبِيرِ.

أَيْ: فَعَصَىٰ كُلُّ قَوْمٍ مِنْهُمْ رَسُولَ رَبِّهِمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ، فَلَمْ يَسْتَجِيبوا لِدَعْوَتِهِ إِلَىٰ دِينِ اللهِ الَّذِي اصْطَفَاهُ لِعِبَادِهِ فِي حَيَاةِ الابْتِلَاء.

• ﴿... فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾﴾: أي: فَقَبَضَ رَبُّهُمْ عَلَيْهِمْ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمُ الكُبْرَىٰ لِتَعْذِيبِهِمْ وإِهْلَاكِهِمْ قَبْضَةً زَائِدَةً فِي شِدَّتِهَا وَعُنْفِهَا، نَامِيَةً فِي مَظْهَرِها.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُشِيراً إِلَىٰ إِهْلَاكِ كُفَّارِ قَوْمِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَام بالطُّوفَان:

• ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾:

أي: إِنَّا لَمَّا بَدَأْنَا تَنْفِيذَ مَا قَدَّرْنَاهُ من طُغْيَانِ الماء فَوْقَ كُلِّ حُدُودِ السَّلَامَةِ لِمَنْ هُمْ عَلَىٰ الأَرْضِ، لِإِهْلَاكِ كُفَّارِ قَوْمِ نوحٍ ـ عَلَيْهِ السَّلَام ـ بالطُّوفانِ؛ حَمَلْنَاكُمْ دَاخِلَ ظُهُورِ أَجْدَادِكُمُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، فِي السَّفِينَةِ الْجَارِيَةِ، الَّتِي صَنَعَهَا نُوحٌ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا، لِنُنْجِيَهُ وَنُنْجِيَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ.

دَلَّ هَـٰذَا الْخِطَابُ لِلنَّاسِ فِي هَـٰذِهِ السُّورَةِ؛ عَلَىٰ أَنَّ النَّاسَ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَام مُنْحَدِرُونَ مِنَ الَّذِينَ رَكِبُوا مَعَهُ فِي الْفُلْكِ، وَدَلَّ نَصٌّ آخَرُ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ قَدْ جَعَلَ ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ مِنْ بَعْدِ الطُّوفَان، فهم من ذُرِّيَّةِ نوح عَلَيْهِ السَّلَام.

• ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾: أي: لِنَجْعَلَ لَكُمْ نَجَاةَ نُوح ـ عَلَيْهِ السَّلَام ـ وَنَجَاةَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ في الْفُلْكِ؛ قِصَّةً تَارِيخِيَّةً تُذَكِّرُ بِمَا فَعَلْنَا مِنْ إِهْلَاكِ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ اسْتَحَقُّوا بِعِنَادِهِمْ وَإِصْرَارِهِمْ عَلَىٰ الكُفْرِ الإِهْلَاكَ الشَّامِلَ،

وَبِمَا فَعَلْنَا مِنْ تَنْجِيَةِ الْمُؤْمِنِينَ حَتَّىٰ أَنْزَلْنَاهُمْ مَنْزِلاً مُبارَكاً، عَقِبَ انْتِهَاءِ الْغَرَضِ مِن حَادِثَةِ الطُّوفَان.

«**تَذْكِرَةً**»: مَصْدَرُ فِعْلِ «ذَكَّرَ». واسْتُعْمِلَ المصْدَرُ بمَعْنَىٰ اسْمِ الْفَاعل، أي: مُذَكِّرَةً. **والتَّذْكِيرُ**: إعادَةُ الْفِكْرَةِ آناً فآناً للعَمَلِ بمقْتضَاهَا.

• ﴿... وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾: أُطْلِقَتِ الْأُذُنُ وأُرِيدَ بها جِهَازُ السَّمْعِ، لِأَنّ الْأُذُنَ أَدَاةُ تَوْصِيلِ المسْمُوعَاتِ إِلَىٰ مَرْكَزِ السَّمْعِ في الدِّمَاغ، وهو مِنَ النفس.

أي: وَلِتُدْرِكَ هَـٰذِهِ الْقِصَّةَ عَلَىٰ حَقِيقَتِهَا نَفْسٌ وَاعِيَةٌ، ولتَحْفَظَهَا وَتَفْهَمَهَا وَتَعْمَلَ بِمُقْتَضَىٰ دَلَالَاتِهَا.

يقال لُغَةً: «وَعَىٰ فُلَانٌ الْأَمْرَ» أي: أَدْرَكَهُ عَلَىٰ حَقِيقَتِهِ.

ويقال: «وَعَىٰ فُلانٌ الْحَدِيث» أي: حَفِظَهُ، وفَهِمَهُ، وَقَبِلَهُ.

وبهـٰذَا انتهىٰ تَدَبُّر الدّرس الأول من دُرُوس سورة (الحاقّة).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

❀ ❀ ❀

(٦)
التدبُّر التحليلي للدَّرس الثاني من دُروس سورة (الحاقّة)
الآيات من (١٣ ـ ٣٧)

قَال الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا

بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾:

القراءات:

(١٨) • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [**لَا يَخْفَى**].

وقرأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**لَا تَخْفَى**].

تَمْهِيد:

فِي آيَاتِ هَٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ بَعْضِ مَا سَوْفَ يَحْدُثُ قَبْلَ الْحِسَابِ، وَفَصْلِ القضاء يَوْمَ الدِّينِ مِنْ أَحْدَاثٍ كَوْنِيَّةٍ، وبَعْدَهَا لَقَطَاتٌ من الْأَحْدَاثِ المتعلِّقة بالَّذِينَ كَانُوا مَوْضُوعِينَ في الحياة الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾﴾:

الصُّور: مَخْلُوقٌ عَظِيمٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِ اللهِ كَهيئَةِ الْقَرْنِ، إِحْدَىٰ جِهَتَيْهِ فُتْحَةٌ دَائِرِيَّةٌ ضَيِّقَةٌ، وَالْأُخْرَىٰ وَاسِعَةٌ جِدًّا وباطِنُهُ فَارِغٌ، وَيُمْكِنُ أَنْ يُنْفَخَ فِيهِ، فَيُصْدِرُ صَوْتاً بِحَسَبِ قُوَّةِ النَّفْخِ، وَلَهُ مَلَكٌ عَظِيمٌ يُؤْمَرُ بالنَّفْخِ فِيهِ نَفْخَةَ إِنْهَاءِ ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا، ثُمَّ يُؤْمَرُ بالنفخ فِيهِ نَفْخَةَ الْبَعْثِ.

والمشهور أَنَّ اسْمَ الْمَلَكِ العظيم الَّذِي يُؤْمَرُ بالنفخ في الصور: «إِسْرافيل»، ولكِنْ لم أَجِدْ هَٰذَا في حديث صحيح، بَلْ جَاء في حديثٍ وصَفَهُ عُلَمَاءُ الحديث بالضعف.

• ﴿فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾: الدَّكُّ: الدَّقُّ والدَّفْعُ حَتَّىٰ تَسْوِيَةِ الْمَدْكُوكِ بالأرْضِ، أي: فَتُدَقُّ الأرضُ والجبالُ الّتي عَلَيْهَا، حَتَّىٰ تَكُونَ كالْبِسَاطِ المنْشُور.

• ﴿وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾: سَمَّىٰ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أحْدَاثَ الْبَعْثِ والقيامَةِ: الواقِعَةَ، أي: وقَعتِ الواقِعَةُ العظيمَةُ جِدًّا، وَوُقُوعُهَا: وُجُودُ أَحْدَاثِهَا في الواقع.

المعنىٰ: فَحِينَ يُنْفَخُ في الصُورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ النَّفْخَةُ الثَّانِيَةُ نَفْخَةُ الْبَعْثِ، وسَبَقَهَا أَنْ حُمِلَتِ الأَرْضُ والْجِبَالُ فَدُقَّتَا دَقَّةً وَاحِدَةً لِجَعْلِ سَطْحِ الأَرْضِ سَطْحاً مُسْتَوِياً مِنْ أقْصَاهَا إِلَىٰ أَقْصَاهَا، لَا ارْتِفَاعَ فِيهَا وَلَا انْخِفَاضَ، وَلَا عِوَجَ، تَهْيِئَةً مُنَاسِبَةً لِظُهُورِ الأَحْيَاءِ المبْعُوثَةِ عَلَىٰ سَطْحِها ظُهُوراً تامًّا مُنْكَشِفاً؛ فَحِينئذٍ تَكُونَ الواقِعَةُ الْعُظْمَىٰ قَدْ بَدَأَتْ تَتَتَابَعُ أَحْدَاثُهَا، فَيُبْعَثُ الأحيَاءُ، وَيُحْشَرُونَ، وَيُمَيَّزُ الْمُجْرِمُونَ عَنِ المتَّقِينَ، وتُوَزَّعُ كُتُبُ الأَعْمَال، ثُمَّ تَقُومُ مَحْكَمَةُ الْعَدْلِ والْفَضْلِ الرَّبَّانِيَّة، وفي آخِرِهَا يُسَاقُ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَراً، وَيُسَاقُ المحْكُومُ عَلَيْهِمْ بالْعَذَابِ إلى دَارِ الْعَذَابِ زُمَراً.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بَيَانَ بَعْضِ أَحْدَاثِ الْوَاقِعَةِ العظْمَىٰ:

• ﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝١٦ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ۝١٧ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ۝١٨﴾:

انْشِقَاقُ السَّمَاءِ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ يَرْفَعُ نِظَام الجاذِبِيَّةِ الَّتِي هِيَ مِنْ أمْرِهِ وتَكْوِينِهِ، والَّتِي تُمْسِكُ أَجْرَامَهَا فِي مَوَاقِعِ مَسِيراتِهَا في أفْلَاكِها، فإِذَا رَفَعَ الْجَاذِبِيَّةَ انْشَقَتِ السَّمَاءُ وَأَخَذَتْ أَجْرامُهَا تَبْتَعِدُ عَنْ مَسِيرَاتِها، وهٰذَا تَمْهِيدٌ لِتَبْدِيلٍ يَحْدُثُ فِي السَّمَاء، بِتَقْدِيرِ اللهِ وَقَضَائِهِ وخَلْقِهِ، كَمَا يَحْدُثُ تَبْدِيلٌ آخَرُ في الأَرْضِ.

• ﴿... فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝١٦﴾: أي: فالسَّماءُ حِينَ انْشِقَاقِهَا تكُونُ ضَعِيفَةَ التَّمَاسُكِ، يُقَالُ لغة: «وَهَىٰ الْحَائِطُ» أيْ: تَشَقَّقَ وهَمَّ بالسُّقُوطِ.

لَكِنَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يُمْسِكُ بأجْرَامِهَا، وَيَجْعَلُ لَهَا نِظاماً آخَرَ غَيْرَ النِّظَامِ الَّذِي كانَتْ عَلَيْهِ في الدُّنْيَا.

• ﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا﴾: **الأرْجَاءُ**: الأَنْحَاءُ، أي: وتَكُونُ الْمَلَائِكَةُ مُوَزَّعِينَ عَلَىٰ أَرْجَاءِ السَّمَاءِ وأَنْحَائِهَا بَعْدَ انْشِقَاقِها، «ال» في الملَك: للجنس، فيعُمُّ كلّ الملائكة.

• ﴿... وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ۝١٧﴾: أي: ويَحْمِلُ الْعَرْشَ مِنْ فَوْقِ المَلَائِكَةِ الْمُوَزَّعِينَ عَلَىٰ أَرْجَاءِ السَّمَاءِ ثَمَانِيَةٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْعِظَام.

ودَلَّ هٰذَا البيانُ عَلَىٰ أَنَّ المراد بالسَّمَاءِ كُلُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ.

• ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ۝١٨﴾: أي: يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ أَيُّهَا الْمَوْضُوعُونَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ عَلَىٰ رَبِّكُمْ، لَا تَخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ فِي نُفُوسِكُمْ وَصُدُورِكُمْ وقُلُوبكُمْ، حَتَّىٰ مَا كُنْتُمْ فِي الحياة الدُّنْيَا تَعْمَلُونَ.

هٰذِهِ واقِعَةُ الْعَرْضِ عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ يَوْم القيامَة.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بَيَانَ بَعْضِ أَحْدَاثِ الواقِعَةِ العظْمَىٰ بشأنِ أصحاب اليمين:

• ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ۝١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝٢٣ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ۝٢٤﴾:

فِي هَٰذِهِ الآيَاتِ وصْفُ حَالِ أَصْحَابِ الْيَمِينِ، الَّذِينَ يُؤْتَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كُتُبَ أَعْمَالِهِمْ بِأَيْمَانِهِمْ، بِشَارَةً لَهُمْ بأَنَّهُمْ مِنْ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ.

● ﴿أَمَّا﴾: حَرْفٌ فِيهِ معنى الشرطِ والتوكيدِ دائماً، ومعنى التفصيل غَالِباً كما هُنا.

● ﴿هَآؤُمُ﴾: «ها» اسْم فعل أمْر بمعنى «خُذْ»، والهَمْزَةُ جَرَىٰ تَصْرِيفها تَصْرِيفَ كافِ الْخِطَابِ فِي «هَاكُمْ»، والميم علامَة الجمع.

الهاء في ﴿كِتَٰبِيَهْ﴾ وفي ﴿حِسَابِيَهْ﴾ هي «هَاءُ» السَّكْتِ، وهِيَ هُنَا مِنَ الْمَواضِعِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي تُجْلَبُ لآخِرِ الْكَلِمَةِ فِيهَا هَاءُ السَّكْت جوازاً غالباً، ووجُوباً فِي بَعْضِ الْحَالَاتِ، عَلَىٰ مَا ذَكَرَ النُّحَاة، وذلِكَ عِنْدَ الوقف.

● ﴿فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾: **العِيشَةُ**: الْحَيَاةُ، يُقَالُ لُغَةً: «عاشَ، يَعِيشُ، عَيْشاً، وعِيشَةً، ومَعِيشاً، ومَعَاشاً، وعَيْشُوشَةً».

رَاضِيَة: **الرّضا**: هو الشُّعُورُ بالارْتِيَاحِ، والاكْتِفَاءِ، والْقَبُولِ، وتحْقِيقِ المطْلُوبِ، أَوْ إِدْرَاكُ ذَلِكَ في النَّفْسِ.

وَجَاءَ وَصْفُ الْعِيشَةِ بِأَنَّهَا رَاضِيَةٌ مَعَ أَنَّ الرَّاضِيَ صَاحِبُهَا؛ عَلَىٰ طَرِيقَةِ الْمَجَازِ، بِنِسْبَةِ الشَّيْءِ إِلَىٰ غَيْرِ مَا هُوَ لَهُ لِعَلَاقَةٍ مِنْ عَلَاقَاتِ الْمَجَازِ، وهِيَ هُنَا عَلَاقَةُ الشَّيْءِ بِصَاحِبِهِ، فَإِذَا كَانَ الإنسانُ رَاضِياً كَانَتْ حَيَاتُهُ رَاضِيَةً سَعِيدَةً.

● ﴿إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾: كَانَ هـٰذَا المؤمِنُ يَتَرَدَّدُ فِكْرُهُ بَيْنَ ظَنَّيْنِ: أَحَدُهُمَا أَنْ يُحَاسَبَ عَلَىٰ خَطَايَاهُ، والظَّنُ الآخَرُ أَنْ يَتَجَاوَزَ اللهُ عَنْ خَطَايَاهُ، وَيُدْخِلَهُ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَاب.

فَلَمَّا وَجَدَ أَنَّهُ فِي زُمْرَة الَّذِينَ تَجَاوَزَ اللهُ عَنْهم؛ قَالَ: إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ، وَظَنَنْتُ أَنْ يُدْخِلَنِي اللهُ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، فتفَضَّلَ اللهُ عليّ.

ويُلْحَقُ بِهِ مَنْ يُحَاسِبُهُ حِسَاباً يَسيراً، ويعْفُو الله عَنْهُ، وكذَلَكِ مَنْ

يُطَهِّرُهُ بشيءٍ مِنَ الْعِقَابِ، ثُمَّ يُدْخِلُهُ فِي جَنَّتِهِ، فَيَجْعَلُهُ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ.

وقَدْ يَكُون الأمْرُ عَلَى خِلاف هٰذَا فيُحَاسِبُهُ اللهُ كما ظَنَّ وَلَا يَكُون مِنَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الجنة بغير حساب.

• ﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾﴾: أي: فِي جَنَّةٍ مُرْتَفِعَةٍ هِي قِسْمٌ مِنْ أَقْسَامِ الْجَنَّةِ العظْمَىٰ، الّتِي يُعْتَبَرُ كُلُّ قِسْمٍ مِنْهَا جَنَّةً مُتَكَامِلَةَ الصِّفَاتِ الْمُسْعِدَةِ لِأَصْحَابِهَا.

• ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾: أي: ثِمَارُ أشْجَارِهَا قَرِيبَةٌ مِنْ قَاطِفِيهَا.

قُطُوفٌ: جَمْعُ «قِطْفٍ»، وهُو مَا يُقْطَفُ مِنَ الثَّمر.

دانِيَةٌ: أي: قَرِيبَةٌ، يُقَالُ لُغَةً: «دَنَا مِنْهُ، وَدَنَا إِلَيْهِ، وَدَنَا لَهُ، يَدْنُو، دُنُوًّا، وَدَنَاوَة» أي: قَرُبَ، فهو دانٍ، وهِيَ دَانِيَة.

• ﴿هَنِيٓـًٔا﴾: أيْ: سَائِغاً لَذِيذاً.

المعنى: وَيُعْطَىٰ الَّذِينَ كَانُوا مَوْضُوعِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ كُتُبَ أَعْمَالِهِمُ الّتِي أسْلَفُوهَا فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ:

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ مُبْتَهِجاً فَرِحاً لِمَنْ حَوْلَهُ مِنْ مَعَارِفِهِ فِي الْمَوْقِفِ؛ هَاكُمُ اقْرَؤوا كِتَابِي، فَقَدْ تَجَاوَزَ اللهُ عَنْ خَطَايَايَ، وَسَيُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، أَوْ سَيُحَاسِبُنِي حِسَاباً يَسِيراً، أَوْ يُطَهِّرُنِي تَطْهِيراً غَيْرَ شَدِيد.

وكُنْتُ أَظُنُّ أَنَّنِي سَأُلَاقِي حِسَاباً مُشَدَّداً أُنَاقَشُ فِيهِ عَلَىٰ كُلِّ خَطَايَايَ الكُبْرَىٰ، لَكِنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً.

وَأَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ سَيُجْزَىٰ بِحَيَاةٍ يَكُونُ فِيهَا رَاضِياً رِضًى تَامًّا فِي جَنَّةٍ مُرْتَفِعَةٍ في اتِّجَاهِ وَسَطِ الْجَنَّةِ، وَهَـٰذِهِ الجنَّة تَكُونُ ثِمَارُ أشْجَارِهَا قَرِيبَةً مِنْ قَاطِفِيهَا.

وتَقُولُ لَهُ ولنُظَرائِهِ مَلائِكَةٌ يُكَلَّفُونَ أَنْ يُكَرِّمُوهُمْ: كُلُوا مَا يَطِيبُ ويَلَذُّ لَكُمْ مِنْ مَأْكُولٍ، وَاشْرَبُوا مَا يَطِيبُ لَكُم وَيَلَذُّ مِنْ مَشْرُوب سَائِغاً لَذِيذاً هَنِيئاً بِسَبَبِ مَا أَسْلَفْتُمْ مِنْ أَعْمَالٍ صَالِحَةٍ رَضِيَ اللهُ بِهَا عَنْكم، لِأَنَّكُمْ عَمِلْتُمُوهَا ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ، فِي الْأَيَامِ الْخَالِيَةِ الْمَاضِيَةِ، إِذْ كُنْتُمْ فِي رِحْلَةِ الامْتِحَانِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بَيَانَ بَعْضِ أَحْدَاثِ الواقِعَةِ العظمىٰ بشَأْنِ أَصْحَابِ الشِّمَال:

● ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾:

«الهاء» في: ﴿كِتَٰبِيَهْ﴾ وفي: ﴿حِسَابِيَهْ﴾ وفي: ﴿مَالِيَهْۜ﴾ وفي: ﴿سُلْطَٰنِيَهْ﴾ هي «هاء» السَّكْت.

● ﴿يَٰلَيْتَنِي﴾: تَمَنٍّ مع تَفَجُّعٍ وَتَحَسُّرٍ وَخَوْفٍ شَدِيد.

● ﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾: أي: يَا لَيْتَ الْمَوْتَةَ الَّتِي مِتُّهَا بَعْدَ الحياةِ الدُّنْيا؛ كانَتِ الْمَوْتَةَ الْقَاضِيَةَ عَلَىٰ وُجُودِي قَضَاءً أبدِيًّا، ويَا لَيْتَنِي لَمْ أُبْعَثْ.

● ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ﴾: **السُّلْطَان**: يَأْتِي بِمَعْنَىٰ الْقُوَّة والْقَهْر، وَبِمَعْنَىٰ الحجَّةِ والْبُرْهَان، وبمَعْنَىٰ الْمُلْكِ والوِلَايَةِ عَلَىٰ النَّاس.

وَهٰذَا البائِسُ الْحَزِينُ الصَّائِرُ إِلَىٰ عَذَابِ جَهَنَّم؛ يَقُولُ بِحَسَبِ حَالِهِ الّتِي كان عَلَيْهَا فِي الدُّنيا، فإنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْقُوَّةِ والقَهرِ؛ قَالَ: فَنِيَ

مُبْتَعِداً عَنِّي كُلُّ مَا كَانَ لِي مِنْ قُوَّةٍ وقَهْر. وإِنْ كانَ مِنْ أَصْحَابِ الحجَّةِ والْجَدَلِ قَالَ: فنِيَ مُبْتَعِداً عَنِّي كُلُّ مَا كُنْتُ أُحَاجِجُ بِهِ وأجَادِلُ، فَقَدْ ظَهَرَ الْحَقُّ لِلْعِيَانِ، وأَسْكَتَ الْوَاقِعُ كُلَّ لِسَان. وإِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْمُلْكِ والْوِلَايَةِ على الناس قالَ: فنِيَ مُبْتَعِداً عَنِّي مُلْكِي، وصِرْتُ كَأَقَلِّ النَّاسِ وَأَضْعَفِهِمْ مَنْبُوذاً، لَا أَحَدَ يَعْبأُ بِأَمْرِي أَوْ نَهْيِي، بَلْ الجميع يَنْظُرُونَ إِلَيّ نَظَرَ احْتِقَارٍ وَإِهَانَةٍ وإِذْلَالٍ.

• ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾: أي: يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ لِلْمَلَائِكَةِ الْمَأْمُورِينَ بِتَعْذِيبِهِ: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾: أي: خُذُوهُ فَاجْعَلُوا الْغُلَّ مُحِيطاً بِرَقَبَتِهِ، **الْغُلّ**: طَوْقٌ مِنْ حَدِيدٍ أَوْ جِلْدٍ، يُجْعَلُ فِي عُنُقِ الْأَسِيرِ ونحوه، أَوْ في يَدَيْهِ، وقَدْ تُجْمَعُ يَدُ المغْلُولِ إِلَىٰ عُنُقِهِ وتُطَوَّقَانِ بالْغُلّ، وَتُعْقَدُ بالْغُلِّ سِلْسِلَةٌ مِنْ حَدِيدٍ أَوْ غَيْرِهِ لِجَرِّهِ بِذَلِكَ.

يُقَال لغة: «غَلَّه، يَغُلُّه» أي: وَضَعَ الْغُلَّ فِي عُنُقِهِ، أَوْ يَدِهِ.

• ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾﴾: أي: ثُمَّ بَعْدَ أَنْ تَمرُّوا بِهِ مَغْلُولاً مُهَاناً فِي أَرْضِ الْمَحْشَرِ؛ أَدْخِلُوهُ فِي الْجَحِيمِ لِيَحْتَرِقَ بِنَارِهَا.

يُقَالُ لُغَةً: «أَصْلَاهُ النَّارَ، وأَصْلَاهُ بِهَا وَفِيهَا، وكَذَلِكَ صَلَّاهُ» أَيْ: أَدْخَلَهُ فِي النَّارِ لِيَحْتَرِقَ بِلَهَبِهَا وبِجَمْرِهَا.

• ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾: يُقَالُ لُغَةً: «سَلَكَ الشَّيْءَ فِي الشَّيْءِ» أي: أَدْخَلَهُ فِيهِ وَجَعَلَهُ يَعْبُرُهُ، وَإِدْخَالُ هَـٰذَا الْكَافِرِ المعذَّبِ في السِّلْسِلَةِ؛ يَجْعَلُنَا نُدْرِكُ أَنَّهَا سِلْسِلَةٌ مِنْ نَوْعٍ خَاصٍّ، فَهِيَ أَنَابِيبُ حَدِيدِيَّةٌ مَوْصُولٌ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ وفْقَ نِظَامِ السَّلَاسِلِ، فَهِيَ تَتَحَرَّكُ مِثْلَ تَحَرُّكِ السَّلَاسِلِ، وَتُحْمَىٰ فِي الْجَحِيمِ هَـٰذِهِ السِّلْسِلَةُ، وَيُسْلَكُ الْمُعَذَّبُ فِي هَـٰذِهِ الْأَنَابِيبِ الْمُحْمَاةِ زِيَادَةً فِي تَعْذِيبِهِ.

يقال لُغَةً: «ذَرَعَ الثَّوْبَ وَنَحْوَهُ، ذَرْعاً» أي: قَاسَهُ بالذِّرَاع، فَمَعْنَىٰ: ﴿ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾: قِيَاسُهَا مِقْدَارُ سَبْعِينَ ذِرَاعاً.

• ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾:
أي: إِنَّهُ كَانَ جَاحِداً كَنُوداً فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَقَدْ كَانَ لَا يُؤْمِنُ باللهِ العظيم رَبِّهِ الْمُمِدِّ لَهُ بالنِّعَم الَّتِي لَا يُحْصِيهَا جُحُوداً، وَقَدْ كَانَ مُسْتَيقناً فِي قَلْبِهِ بالْحَقِّ، لَكِنَّهُ كان جَحُوداً بإرادَتِهِ الْحُرَّةِ المختارة، وَاسْتَمَرَّ طَوَالَ حَيَاةِ امْتِحَانِهِ كَافِراً كُفْرَ جُحُودٍ حَتَّىٰ جَاءَهُ الْمَوْتُ وَهُوَ كَافِرٌ.

وَكَانَ قَاسِيَ الْقَلْبِ جَافَّ الْعَاطِفَةِ تُجَاهَ البائِسِينَ مِنَ الْفُقَرَاءِ والْمَسَاكِينِ وَذَوِي الْحَاجَاتِ، فَلَا يَمُدُّ يَدَ الْعَوْنِ لَهُمْ، وَلَا يَحُضُّ النَّاسَ بِلِسَانِهِ عَلَىٰ إِطْعَامِ الْمِسْكِينِ الْجَائِعِ.

• ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾: أي: فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ وَهُوَ يَوْمُ الدِّين، هٰهُنَا فِي دَارِ عَذَابِهِ فِي جَهَنَّمَ؛ قَرِيبٌ يَعْطِف عَلَيْهِ، أَوْ يُوَاسِيهِ بِمَشَاعِرِ أَلَم، إِذْ لَا يَسْتَحِقُّ هٰذِهِ المشاعِرِ.

الْحَمِيمُ: الْقَرِيبُ الَّذِي تَوَدُّهُ وَيَوَدُّكَ. إِنَّ القرابَاتِ والمَوَدَّاتِ والصَّدَاقَاتِ؛ تَنْقَلِبُ إِلَىٰ عَدَوَاتٍ إِذَا كَانَ أَصْحَابُهَا كُفَّاراً، فَلَا يَشْفَقُ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَىٰ قَرِيبِهِ وَلَا خَلِيلِهِ.

• ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾﴾: أي: وَلَيْسَ لَهُ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ لِيَسُدَّ جُوعَهُ في الْجَحِيمِ؛ إِلَّا صِنْفُ طَعَام سَيِّئٍ كَرِيهٍ يُضْطَرُّ إِلَىٰ الأَكْلِ مِنْهُ، سَمَّاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: «غِسْلِيناً»، ولَمْ يَأْتِ عَنِ الرَّسُول ﷺ وَصْفٌ لِنَوْعِ هٰذَا الطَّعام، فَلَيْس لَنَا أَنْ نُحَدِّدَهُ بِمَا ذَكَرَهُ بَعْضُ المفَسِّرِينَ، وَحَسْبُنَا أَنْ نَفْهَمَ أَنَّهُ طَعَامٌ غَيرُ مُسْتَسَاغ، بَلْ هُو سَيِّئٌ كَرِيهٌ تَنْفِرُ مِنْهُ الْأَذْوَاقُ، فَإِذَا اضْطُرَّ المعَذَّبُ إِلَىٰ أَنْ يَأْكُل مِنْهُ أَكَلَ مِنْهُ وَهُوَ كَارِهٌ، يَتَعَذَّبُ بِأَكْلِهِ مِنْهُ، إِذْ أَلَمُ الجوعِ أَشَدُّ مِنْ أَلَمِ الأكل منه.

• ﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾: أي: لَا يَأْكُلُ مِنْ غِسْلِينَ فِي الْجَحِيمِ إِلَّا الْمُذْنِبُونَ ذُنُوباً مِنْ دَرَكَةِ الْكُفْر. يُقَالُ لُغَة: «خَطِئَ، يَخْطَأُ، خَطَأً، وَخِطْأً» أي: أَذْنَبَ عَنْ عَمْدٍ.

وأرى أن «غِسْلِيناً» أهْوَنُ أكْلاً مِنْ طَلْعِ شَجَرَةِ الزَّقُّوم الّتِي تَنْبُتُ في أصْلِ الْجَحِيمِ، ويُضْطَرُّ إِلَىٰ الأكْلِ مِنْهَا كِبَارُ الْمُجْرِمِين، وأَشَدُّ من الضَّرِيعِ الَّذِي لا يُسْمِنُ ولَا يُغْني من جوع.

وبهـٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الثاني من دُرُوس سورة (الحاقة).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(٧)
التدبُّر التحليلي للدّرس الثالث من دُروس سورة (الحاقة) الآيات من (٣٨ ـ ٥٢) آخر السورة

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾:

القراءات:

(٤١) ● قرأ ٱبْن كثير، ويعقُوب، وابْنُ عامر بخُلْفٍ عن ابن ذكوان: [**يُؤْمِنُونَ**].

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**تُؤْمِنُونَ**]، وهُوَ الوجْهُ الثاني لابْن ذَكوان.

(٤٢) ● قرأ ابْنُ كثير، ويعقُوب، وابْنُ عامر بخُلْفٍ عن ابن ذكْوان: [**يَذَّكَّرُونَ**]، بياء الغيبة مع تشدِيد الذال.

وقرأَهَا حفص، وحمزة، والكِسَائي، وخلَف: **[تَذَكَّرُونَ]**، بِتَخْفِيفِ الذَّال.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[تَذَّكَّرُونَ]**، بتاء الخِطَابِ، وهو الوجه الثاني لابن ذكوان مَعَ تَشْدِيد الذَّال.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ بَيَانٌ يَتَعَلَّقُ بالقرآن الّذي اشْتَمَلَ عَلَىٰ أَنْبَاءِ يَوْمِ الدين، وأَنَّهُ تَنْزِيلٌ من رَبّ العالمين.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ الْقُرْآنِ:

• ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾:

• ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾:

في القاعِدَةِ «الْعِشْرِينَ» مِنَ الْقَوَاعِدِ الَّتِي فَتَحَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ بِهَا عَلَيَّ، فِي كِتَابِ: «قَوَاعِدُ التَّدَبُّر الأَمْثَلِ لِكِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ»؛ ظَهَرَ لِي أَنَّ الْقَسَمَ المنْفِيَّ فِي الْقُرْآنِ بحَرْفِ النَّفْي «لَا» هُوَ أسْلُوبٌ بَيَانِيٌّ مُبْتَكَرٌ لِلدَّلَالَة عَلَىٰ أَنَّ الْمَوْضُوعَ الَّذِي يُرَادُ تَوْكِيدُهُ بِواسِطَةِ الْقَسَمِ بالْمُقْسَمِ بِهِ المختارِ مَعَ حَالِ الْمُخَاطَبِينَ يَقْتَضِي اقْتِضَاءَيْنِ:

• أَحَدُهُمَا يَسْتَدْعِي الْبَيَانُ فِيهِ: الْقَسَمَ بِالْمُقْسَمِ بِهِ المختار لِتَوْكِيدِ الْخَبَرِ الّذِي هو المقْسَمُ عَلَيْهِ.

• والْآخَرُ يَسْتَدْعِي الْبَيَانُ فِيهِ عَدَمَ الْقَسَم، مِنْهَا أَنْ يَكُونَ الْمَخَاطَبُونَ

الْمُقْسَمُ لَهُمْ؛ يَجْهَلُونَ قِيمَةَ الْمُقْسَمِ بِهِ، فَهُمْ لَا يَسْتَفِيدُونَ مِنَ الْقَسَمِ تَوْكِيداً.

لَكِنْ قَدْ يَأْتِي وَلَوْ بَعْدَ قُرُونٍ؛ مَنْ يَصِلُونَ إِلَىٰ مَعْرِفَةِ قِيمَةِ الْمُقْسَمِ بِهِ، بِوَسائِلِهِمُ الْعِلْمِيَّة.

فَكَانَ الْحَلُّ المبْتَكَرُ فِي أَسَالِيب الْبَيَانِ الْقُرْآنِيَّة؛ اخْتِيَارَ أَسْلُوبِ ذِكْرِ لفظ «الْقَسَم»، وَذِكْرِ «الْمُقْسَمِ بِهِ» تَنْبِيهاً عَلَيْهِ، مَعَ سَبْقِهِ بِأَدَاةِ النفي، كَمَا فِي النَّصِّ هُنَا.

إِنَّ المخاطَبِينَ إِبَّانَ التَنْزِيلِ الَّذِينَ يُرَادُ تَوْكِيدُ الْخَبَرِ لَهُمْ، وهُوَ أَنَّ الْقُرآنَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِين؛ لَا يَعْرِفُونَ قِيمَةَ مَا لَا يُبْصِرُونَ مِمَّا خَلَقَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ فِي كَوْنِهِ، وَلَا يَعْرِفُونَ قِيمَةَ كَثِيرٍ مِمَّا يُبْصِرُونَ، فَلَوْ قِيلَ لَهُمْ: أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ؛ لَقَالُوا: وَمَاذَا فِيمَا لَا نُبْصِرُ مِنْ أَمْرٍ عَظِيمٍ حَتَّىٰ يَكُونَ صَالحاً لِلْقَسَمِ بِهِ؟! لَكِنْ تَوَصَّلَ عُلَمَاءُ الْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ فِي الكَوْنِيَّاتِ؛ إِلَى اكْتِشَافِ أَنَّ مَا لَا يُبْصِرُهُ النَّاسُ بأَعْيُنِهِمْ مِنْ أَجْزاءِ الكَوْنِ أَعْظَمُ إِبْدَاعاً وَإِتْقَاناً وإِدْهَاشاً مِمَّا يُبْصِرُون، وَهٰؤُلَاءِ يُدْرِكُونَ قِيمَةَ الْقَسَم بِمَا لَا يُبْصِرُ النَّاسُ بأَعْيُنِهِمْ، وَيَسْتَفِيدُونَ مِنَ الْقَسَمِ توكيداً، فَحَالُ هٰؤُلَاءِ يَقْتَضِي الْقَسم.

والْحَلُّ الْبَدِيعُ أَنْ يَقُولَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

• ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾: أي: إِنَّ الْقُرْآن لَقَوْلٌ نَطَقَ بِهِ؛ رَسُولٌ مِنَ الملائِكَةِ كريمٌ هُوَ جِبْريلُ عَلَيْهِ السَّلام، وبَلَّغَهُ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ مُحَمَّدٍ ﷺ حَرْفاً فَحَرْفاً، وَكَلِمَةً فَكَلِمَةً، وآيَةً فَآيَةً، كَمَا تَلَقَّاهُ عَنْ رَبِّهِ وَحْياً.

كَرِيمٍ: أي: محمُودٌ بالصِّفَاتِ الرَّفِيعَةِ، جَامِعٌ لِأَنْوَاعِ الخير والشَّرَفِ

والْفَضائِلِ، مُتَرَفِّعٌ عَنِ النَّقائِصِ والدَّنايا، لَا يَعْصِي اللهَ بِشَيْءٍ ويَفْعَلُ مَا يَأْمُرُهُ بِهِ.

وَكَانَ يُرَاجِعُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام الْقُرْآنَ مَع الرَّسُولِ محمَّد ﷺ في رَمَضَان لِلتَّأَكُّدِ مِنْ حِفْظِ الرَّسُولِ ﷺ لَهُ، مَعَ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ وَهبَهُ ذَاكِرَةً لَا تَنْسَىٰ إلَّا مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يُنْسِيَهُ إِيَّاه.

• ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ...﴾: أي: ولَيْسَ الْقُرْآنُ بِقَوْلِ شَاعِرٍ، كَمَا تُشِيعُونَ أيها المكَذِّبُونَ، افْتِرَاءً عَلَىٰ الحقِّ، لتَصُدُّوا جَمَاهِيرَكُمْ عَنِ الاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ، الَّتِي تَدْعُوكُمْ لِلدُّخُولِ في الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ رَبُّكُم لِعِبَادِهِ في حَيَاةِ الابْتِلَاء.

• ﴿... قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾: أيْ: إيمَاناً قليلاً جدًّا تُؤْمِنُونَ، فَهُوَ لَا يُؤَثِّرُ في قُلُوبِكُمْ فَيُوَجِّهُ إرَادَاتِكُمْ إِلَىٰ اتِّبَاعِ الْهُدَىٰ وسُلُوكِ صِرَاطِ اللهِ المسْتَقِيم.

وقد سَبَقَ عِدَّةَ مَرَّاتٍ تَحْلِيلُ مِثْلِ هَـٰذِهِ العِبارَةِ.

• ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾: أي: وَلَيْسَ الْقُرْآن بِقَوْلِ كَاهِنٍ كَمَا تُشِيعُونَ أيها المكَذِّبُون، افْتِراءً عَلَىٰ الْحَقِّ، لِتَصُدُّوا مَنْ يَقْبَلُ قَوْلَكُمْ عَنِ الاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّة.

وَلَكِنَّكُمْ تَتَذَكَّرُونَ تَذَكُّراً قَلِيلاً جِدًّا مُوَجِّهاً لَكُمْ لِسُلُوكِ سَبِيلِ الْهُدَىٰ، وصِرَاطِ اللهِ المستقيم.

• ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾: أي: الْقُرْآنُ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِين، أَوْحَىٰ بِهِ إِلَىٰ جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَام، وَبَلَّغَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام رَسُولَنَا مِنَ الْبَشَرِ مُحَمَّداً ﷺ.

فآمِنُوا بِهَـٰذِهِ الحقيقة، وادْخُلُوا في الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ اللهُ رَبُّ العالَمِينَ لِعِبَادِهِ فِي حَيَاةِ الابْتِلَاء.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً الْبَيَانَ بِشَأْنِ القرآن بضَمِيرِ العظمة:

• ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾:

يُقال لغةً: «تَقَوَّلَ فُلَانٌ عَلَىٰ فُلانٍ قَوْلاً» أي: قَالَ قَوْلاً نَسَبَهُ إِلَيْهِ افْتِرَاءً وكَذِباً، فَهُوَ قَوْلٌ مُخْتَلَقٌ. **والأقاويل**: جَمْعُ الأَقْوَال.

الْوَتِينُ: الشِّرْيَانُ الرَّئِيسُ الَّذِي يُغَذِّي جِسْمَ الإِنْسَانِ بالدَّمِ النَّقِيِّ الْخَارِجِ مِنَ الْقَلْبِ.

جَاءَ في سُورَةِ (الطُّور/ ٧٦ نزول) بَيَانُ أَنَّ المشركين الْمُكَذِّبِينَ اتَّهَمُوا الرَّسُولَ ﷺ بِأَنَّهُ تَقَوَّلَ الْقُرآنَ عَلَىٰ رَبِّهِ فَقَال تَعَالَىٰ فيها:

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾:

فَجَاءَ هُنَا في سُورَةِ (الحاقة/ ٧٨ نزول) بَيَانُ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَتَقَوَّلَ عَلَيْنا وَلَوْ بَعْضَ الْأَقَاوِيل، ولَوْ كَلِمَةً أَوْ حَرْفاً، لِأَنَّنا سَنُسْكِتُهُ فَوْراً ثُمَّ نُمِيتُهُ بِقَطْعِ وَتِينِهِ.

ولَوْ هَمَّ أَنْ يَتَقَوَّلَ مُحَمَّدٌ ـ ﷺ ـ عَلَىٰ عَظَمَةِ رُبُوبِيَّتِنَا لِكُلِّ شَيْءٍ في الكَون بَعْضَ الأقاويل، مَهْمَا قَلَّ؛ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ أَخْذاً مُسْكِتاً مَانِعاً لَهُ مِنَ النُّطْقِ حَتَّىٰ لَا يَسْمَعَ أَحَدٌ ذَلِكَ مِنْه، وَلَشَدَدْنَا عَلَيْهِ هٰذَا الْأَخْذَ بُرْهَةً مِنَ الزَّمَنِ عِقَاباً لَهُ، ثُمَّ لَأَمَتْنَاهُ بِقَطْعِ وَتِينِهِ، لَكِنَّهُ لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ فَهُوَ مَعْصُومٌ، وَلَمْ يَسْبِقْ لَهُ طَوَالَ حَيَاتِهِ أَنْ فَعَلَهُ، بِدَلِيلِ أَنَّنَا لَمْ نُعَاقِبْهُ فَلَمْ نَأْخُذْ مِنْهُ بالْيَمِينِ، وَلَمْ نَقْطَعْ مِنْهُ الوتِينِ.

• ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾: أي: فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ مُنْفَرِدِينَ وَلَا مجتمعين قادرون عَلَىٰ أَنْ تَحْجُزُوا عَنْهُ عُقُوبَتَنَا لَهُ، لَوْ أَنَّهُ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقاويل.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً الحديث عَنِ الْقُرْآنِ الْمَجِيد:

• ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾:

• ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾: **التَّذْكِرَة**: الْوَسِيلَةُ الَّتِي يُسْتَذْكَرُ بِهَا الشَّيْءُ، كَبِطَاقَةِ الدَّعْوَة، والرَّتِيمَةِ، ونَحْوِ ذَلِكَ.

أي: وَإِنَّ الْقُرْآنَ لَوَسِيلَةٌ تُذَكِّرُ بِمَطْلُوبِ اللهِ مِنْ عِبَادِهِ فِي حَيَاةِ امْتِحَانِهِمْ، وهِيَ في الْوَاقِعِ تُذَكِّرُ المؤمنِينَ الْمُسْلِمِينَ المتَّقِينَ، الْحَرِيصِينَ عَلَىٰ وِقَايَةِ نُفُوسِهِمْ مِنْ عِقَابِ اللهِ عَلَىٰ مَعْصِيَتِهِ.

• ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾: يُخَاطِبُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ النَّاسَ بِضَمِيرِ المتكلِّمِ الْعَظِيم، فَيُؤَكِّدُ لَهُمْ أَنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ يَعْلَمُ أَنَّ زُمْرَةً مِنْهُمْ مُكَذِّبُونَ؛ بِأَنَّ الْقُرْآنَ الَّذِي يَتْلُوهُ عَلَيْهِمْ رَسُولُهُ ﷺ تَنْزِيلٌ مِنْ لَدُنْهُ، وَهَٰؤُلَاءِ المكَذِّبُونَ لَا يَتَّخِذُونَ الْقُرْآنَ وَسِيلَةً تُذَكِّرُهُمْ بِمَطْلُوبِ اللهِ مِنْ عِبَادِهِ في حَيَاةِ امْتِحَانِهِمْ، فَهُمْ يُعَرِّضُونَ أَنْفُسَهُمْ لِعَذَابِ اللهِ الشَّدِيدِ خُلُوداً في الْجَحِيم.

• ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾: **الْحَسْرَةُ**: شِدَّةُ الْحُزْنِ مَعَ النَّدَمِ عَلَىٰ مَا فات.

أي: وَإِنَّ الْقُرْآنَ لَحَسْرَةٌ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ بِهِ، وبِمَنْ بَلَّغَهُ عَنْ رَبِّهِ ﷺ. وَهَٰذِهِ الْحَسَرَةُ الْمُسَلَّطَةُ عَلَيْهِمْ لا تَظْهَرُ مِنْهُمْ وَهُمْ فِي حَيَاةِ الابْتِلَاء، بَلْ تَظْهَرُ يَوْمَ الدِّينَ حِينَمَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ، وَتَسْتَمِرُّ مُصَاحِبَةً لَهُمْ حَتَّىٰ يُشَاهِدُوهَا، وَحَتَّىٰ يُلْقَوْا فِيهَا، وحِينَ يَكُونُون خَالِدِينَ فِي عَذَابِها. يَقُولُونَ: يَا لَيْتَنَا كُنَّا مُؤْمِنِينَ مُسْلِمينَ مُتَّقِينَ نَتَّخِذُ الْقُرْآنَ تَذْكِرَةً تُذَكِّرُنَا دَوَاماً بِمَطْلُوبِ اللهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ مِنَّا.

• ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾﴾: أي: وإِنَّ الْقُرْآنَ يَشْتَمِلُ عَلَىٰ أَعْلَىٰ مراتِبِ الْعِلْمِ، وَهُوَ الْعِلْمُ المؤَيَّدُ بِكُلِّ مَا يُمْكِنُ مِنْ وَسِيلَةٍ خَبَرِيَّةٍ،

وَمُشَاهَدِيَّة، وإِدْرَاكِيَّة بِسَائِرِ وَسَائِلِ الإِدْرَاكِ الْفِكْرِيّ، والنَّفْسِيّ، والْإِحْسَاسِيّ، وَهَـٰذِهِ الْمَرْتَبَةُ تُسَمَّىٰ مَرْتَبَة «حَقِّ الْيَقِينِ»، وَدُونَهَا مَرْتَبَةُ «عَيْنِ الْيَقِين»، ودُونَهُمَا مَرْتَبَةُ «عِلْمِ الْيَقِين».

• ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾: أي: فاذْكُرِ الله آنَاءَ اللَّيْلِ وآنَاءَ النَّهَارِ، باسْمٍ مِنْ أَسْمَاءِ رَبِّكِ الْعَظِيمِ الْحُسْنَىٰ، تَنْزِيهاً لَهُ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِجَنَابِهِ، وَهـٰذَا يَتَضَمَّنُ تَمْجِيدَهُ بِكُلِّ صِفَاتِهِ العظْمَىٰ وَكُلّ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ.

جاء في لِسَانِ العرب، ورَوَىٰ الْأَزْهَرِيُّ بِإِسْنَادِهِ؛ أَنَّ ابْنَ الْكَوّا سَأَلَ عَلِيًّا رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِ عَنْ «سُبْحَانَ اللهِ»، فَقَالَ: كَلِمَةٌ رَضِيَهَا اللهُ لِنَفْسِهِ، فَأَوْصَىٰ بِهَا.

وبهـٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الثالث من دُرُوس سورة (الحاقة) وهو آخِرُهَا.

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(٨)
ملحق: مُستَخرَجَات بَلَاغِيّة من سورة (الحاقّة)

أولاً:

من تَشْبِيه مُدْرَكٍ بالحسّ بِمُدْرَكٍ بالحسّ قولُ اللهِ تَعالَىٰ يشَبِّهِ أجْسَادَ هَلْكَىٰ عاد:

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾﴾:

أي: تُشبهُ أَجْسَادُهُمْ الْهَلْكَىٰ وَقَدْ بُقِرَتْ بُطُونُهُمْ وخَرَجَ مَا فِيهَا فَصَارَتْ خَاوِيَة؛ أُصُولَ نَخْلِ مَرْمِيَّةٍ عَلَىٰ الْأَرْضِ يَابِسَةٍ فَارِغَة.

هٰذَا التشبيه ذُكِرَ فِيهِ الْمُشَبَّهُ، والمُشَبَّهُ بِهِ، وأَدَاةُ التَّشْبِيهِ، ولَمْ يُذْكَرْ فِيهِ وَجْهُ الشَّبَهِ، فَهُوَ من قسم «التَّشْبِيهِ الْمُرْسَلِ الْمُجْمَل».

ثانياً:

من الاستفهام الذي يرادُ به النَّفْي قول الله تَعَالَىٰ بشأْنِ كُفَّارِ قَوْمِ عَادٍ بَعْدَ إِهلَاكهم:

﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾: أي: فَلَا تَرىٰ أَيُّهَا الْبَاحِثُ عَنْ أثارِهِمْ مِنْ بَاقِيَة، إِذْ أُبِيدَتْ أَوْ طُمِرَتْ.

ثالثاً:

من الاسْتِعَارَةِ وَصْفُ أَخْذَةِ اللهِ لِبَعْضِ المهْلَكِينَ بِأَنَّهَا أَخْذَةٌ رابِيَة، فقال تَعَالَىٰ:

﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ۝١٠﴾:

اسْتُعِيرَتْ كَلِمَةُ «رَابِيَة» للدَّلَالَةِ بِهَا عَلَىٰ أَنَّهَا أَخْذَةٌ عظيمة كُبْرَىٰ.

رابعاً:

من المجاز بإسْنَادِ الْفِعْلِ أَوْ مَا فِي مَعْنَاهُ إلى غير ما هُوَ لَهُ: قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ مَنْ أُوتِي كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ يَوْم الدِّينِ:

﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝٢٢﴾:

وُصِفَتْ عِيشَتُهُ في الجنَّةِ بأَنَّهَا رَاضِيَةٌ، وَهُوَ في الحقيقة الرَّاضِي، لِأَنَّ عِيشَتَهُ جُزْءٌ مِنْ وُجُودِهِ، والْعَلَاقَةُ بَيْنَ الجزْءِ والْكُلِّ عَلَاقَةٌ يُسْتَخْدَمُ مَعَهَا هٰذَا المجاز.

خامساً:

من الاسْتِقْطَاعِ الرَّائِع: اسْتِقْطَاعُ النُّصُوصِ مِنْ أَزْمَانِهَا المستقبَلِيَّة، وَعَرْضُهَا بِأَلْفَاظِهَا دُونَ الْإِشَارَةِ إِلَىٰ أَنَّهُ سَوْفَ يَكُونُ كَذَا فِيما سَوْف يكُونُ مِنْ أَحْدَاثِ يَوْمَ الدِّين، ومِنْ أَمْثِلَتِهِ في السورة ما يلي:

المثال الأول:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في عَرْضِ مَا سَوْفَ يُقَالُ لِأَصْحَاب اليمينِ في الجنَّة:

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤)﴾.

المثال الثاني:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي بَيَانِ مَا سَوْفَ يُقَالُ لِلْمَلَائِكَةِ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ المقْضِيِّ عَلَيْهِ بِعَذَابٍ مُشَدَّدٍ في الْجَحِيمِ:

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢)﴾.

سَادِساً:

من توكيد الْجُمْلَةِ الخبريَّةِ لِدَاعٍ بلاغي مَا فِي النُّصُوصِ التالية:

١ ـ ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (٣٩)﴾:

فِي هٰذَا النَّصّ التوكيد بالْقَسَمِ للكَفَرَةِ الّذِين يُكَذِّبُونَ بِأَنّ القرآن تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ العالمين.

٢ ـ ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠)﴾:

فِي هٰذِهِ الآيَةِ التَّوْكِيدُ بالمؤكِدَات: «إِنَّ ـ والجملة الاسمية ـ واللام المزحلقة»، والمؤكَّدُ لَهُمُ المكذِّبُونَ بِأَنَّ القرآن تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِين.

٣ ـ ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾﴾:

في كُلِّ آيَةٍ مِنْ هَـٰذِهِ الآيات تَوْكيد بـ «إِنَّ ـ والجملة الاسمية ـ واللّام المزحْلَقَة»، لِأَنَّ المَقْصُودِينَ الْأَوَّلِينَ بالْخِطَابِ: الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ القرآن تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ العالَمِين.

وأَكْتَفِي بِهَـٰذِهِ المسْتَخْرَجَاتِ الْبَلَاغِيَّةِ مِنْ هَـٰذِهِ السُّورَة.

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.





سُورَةُ الْمَعارج

٧٠ مصحف ٧٩ نزول

وهي مَكِّيَّةٌ كُلُّهَا بِلَا خِلَاف



(١)

نص السورة وما فيها من فرش القراءات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي الْأَرْضِ

---

١ ـ • قرأ نافع، وابْن عامر، وأبو جعفر: [سَالَ] بإبْدَال الهمزة ألفاً.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [سَأَلَ].
وَوَقَفَ حَمْزَة بالتسهيل.

٤ ـ • قرأ الكِسائِي: [يَعْرُجُ] بالياء.
وَقَرَأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [تَعْرُجُ] بالتَّاء.
وَهُمَا وَجْهَانِ عَرَبِيَّانِ جَائِزَان.

١٠ ـ • قرأ أَبُو جَعْفر والبزّي بخلف عنه: [وَلَا يُسْأَلُ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [وَلَا يَسْأَلُ] بفتح الياء. وهو الوجه الثاني للبزيّ.

١١ ـ • قرأ نافع، والكِسَائِيّ، وأبو جَعْفَر: [يَوْمَئِذٍ].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [يَومِئِذٍ].

جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ

---

١٦ ـ • قرأ حفص: [نَزَّاعَةً] بالنصب.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [نَزَّاعَةٌ] بالرفع.

٣٢ ـ • قرأ ابن كثير: [لِأَمَانَتِهِمْ] بالإفراد.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [لِأَمَانَاتِهِمْ] بالجمع.

٣٣ ـ • قرأ حفص، ويعقوب: [بِشَهَادَاتِهِمْ] بالجمع.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [بِشَهَادَتِهِمْ] بالإفراد.

حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾ :

٤٢ ـ • قرأ أبو جعفر: [يَلْقَوْا].
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [يُلاَقُوا].
٤٣ ـ • قرأ حَفص، وابْنُ عَامِر: [نُصُبٍ] بضمّ النُّون والصّاد.
وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [نَصْبٍ] بفتح النون وإسْكانِ الصَّادِ.
والمعنى واحد، وهو ما يُنْصَبُ لِيُعْبَدَ من دُون الله.

(٢)
موضوع سورة (المعارج)

يَدُور موضوع هَـٰذِهِ السورة حول العَذَابِ الحتْمِيّ للكافِرِ الّذِي يُنْهِي رِحْلَةَ امْتِحَانِهِ بالكُفْرِ ويَلْقَىٰ رَبَّهُ بَعْدَ أَنْ كَانَ فِي الحياة الدُّنْيَا كَافِراً. وحَوْلَ وَصْفِ الإنْسَانِ بِأَنَّهُ هَلُوعٌ باسْتِثْنَاءِ المؤمنين المتَّصِفِينَ بِتَطْبِيقِ مَطْلُوبَاتِ اللهِ الكُبْرَىٰ منهم. وَحَوْلَ بَيَانِ بعض أحوال فِئَةٍ مِن الْكَافِرِينَ حِينَ مواجَهَتِهِمْ للرَّسُولِ ﷺ، وطَمَعِ كُلِّ واحِدٍ مِنْهُمْ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَهْلِ الجنَّةِ إِنْ كَانَتْ تُوجَدُ حَيَاةٌ أُخْرَىٰ، ومعالَجَةِ اللهِ لَهُمْ بالإنْذَارِ، وَتَوْصِيَةِ اللهِ رَسُولَهُ ﷺ بِأَنْ يَذَرَهُمْ يَخُوضُوا ويَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُنْهُوا حَيَاتَهُمْ كافِرِينَ، فالْمَعنِيُّونَ مَيْؤوسٌ مِنِ اسْتِجَابَتِهِمْ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمُ الحرَّةِ.

(٣)
دُروس سورة (المعارج)

ظَهَرَ لِي أنَّ هَـٰذِهِ السورة تَنْقَسِمُ إلى ثَلاَثَةِ دُروس:

الدَّرس الأوَل: الآيات من (١ ـ ١٨):

وفِي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرسِ بَيَانُ العذاب الْحَتْمِي للكافِرِينَ الَّذِينَ يمُوتُونَ وَهُمْ كَافِرُونَ، مَعَ تكْلِيفِ الرَّسُولِ ﷺ بِأَنْ يَصْبِرَ صَبْراً جميلاً، ومع مُعَالَجَةِ الْكَافِرِينَ بِشَأْنِ اسْتِبْعَادِهِمُ الآخِرَة ونُزُولَ الْعَذَابِ بالْكَافِرِين.

الدرس الثاني: الآيات من (١٩ ـ ٣٥):

وفي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرسِ بَيَانُ أَنَّ الإنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وَإِذَا مَسَّهُ الخيرُ مَنُوعاً، باسْتِثْنَاءِ المؤمنين المتَّصِفِينَ بِتَطْبِيقِ مَطْلُوبَاتِ اللهِ الكُبْرَىٰ مِنْهُمْ.

الدّرس الثالث: الآيات من (٣٦ ـ ٤٤) آخر السورة:

وفِي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ بَعْضِ أحْوَالِ فِئَةٍ من الكافِرِينَ في مُواجَهَتِهِم للرسول ﷺ ومُعَالَجَتِهِمْ بالإنْذَارِ، وتَوْصِيَةُ الرَّسُول ﷺ بأنْ يَذَرهُمْ لأنهم مَيْؤُوسٌ منهم.

(٤)

التدبُّر التحليلي للدّرس الأول من دُروس سورة (المعارج)

الآيات من (١ ـ ١٨)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾:

القراءات:

(١) • قرأ نافع، وابن عامر، وأبو جعفر: **[سَالَ]** بإبْدَال الهمزة ألفاً.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[سَأَلَ]**.

ووقف حَمْزَةُ بالتَّسْهِيلِ.

(٤) • قرأ الكِسَائي: **[يَعْرُجُ]** بالْيَاءِ.

وقرأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[تَعْرُجُ]** بالتَّاء.

وهما وجهان عَرَبيَّان جَائِزَان.

(١٠) • قرأ أَبُو جَعْفر، والبزّي بخلف عنه: **[وَلَا يُسْأَلُ]** بضمّ الياء، أي: وَلا يُسْأَلُ حَمِيمٌ عَنْ حميم، بنزع الخافض.

وقَرَأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ، وهو الوجه الثاني للبزّي: **[وَلَا يَسْأَلُ]** بفتح الياء، وهي ظاهرة.

(١١) • قرأ نافع، والكِسَائِي، وأَبُو جَعْفر: **[يَوْمَئِذٍ]** على بناء لفظ «يوم».

• وقرأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[يَوْمِئِذٍ]** على الإعراب.

وهما وجهان عَرَبيّان جائِزان، فيوم اسم زمان مبهم مُضاف يجوز فِيهِ الإعرابُ، ويجوز فِيهِ البناء.

(١٦) • قرأ حفص: **[نَزَّاعَةً]** بالنَّصْبِ، على أَنَّها حال.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[نَزَّاعَةٌ]** بالرَّفع، على أنها بَدَلٌ من **[لَظَىٰ]**، أو على تقدير: هِيَ نَزَّاعَةٌ.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ الْعَذَابِ الحتْمِيّ لِلْكَافِرِينَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كَافِرُون، مَعَ مُعَالَجَتِهِمْ بِشَأْنِ اسْتِبْعَادِهِمُ الآخِرَة، ونزولِ الْعَذَابِ بالْكَافِرين.

وفيها تَكْلِيفُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ ﷺ بأنْ يَصْبِرَ صَبْراً جَمِيلاً.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾﴾:

يَجُوزُ في العربية تَعْدِيَةُ فِعْل «سأل» بحرف «عَنْ» وَحَرْف «الباء»، وهي بمَعْنَىٰ «عن»، لَكِنِّي أَرَىٰ أَنَّ ﴿بِعَذَابٍ﴾ مَعْمُولٌ لِمَطْوِيٍّ في الْجُمْلَةِ، والتَّقْدِيرُ: سَأَلَ سَائِلٌ فَرْدٌ أَوْ أَكْثَرُ، مُكَذِّباً ومُسْتَهْزِئاً بِعَذَابٍ واقِعٍ حَتْماً، وهَـٰذَا الْعَذَابُ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ يَدْفَعُهُ عَنْهُمْ، لِأَنَّهُ مِنَ اللهِ ربّ الْعَالَمِينَ.

والسُّؤَالُ التَّكْذِيبِيُّ الاسْتِهْزَائِي يَكُونُ بِنَحْوِ قَوْلِهِمْ: أَيُوجَدُ عَذَابٌ لِلْكَافِرِينَ بِمُحَمَّدٍ وَبالْقُرْآنِ، وهَـٰذَا الْعَذَابُ يَكُونُ بَعْدَ الْمَوْتِ وَفَنَاءِ الْأَجْسَادِ، وبَعْدَ الْبَعْثِ مِن الْأَرْض للحياة الْأُخْرَىٰ؟؟!.

إِنَّهُ نَبَأٌ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُكَذَّبَ بِهِ وَيُسْتَهْزَأَ بِهِ، وَلَا يَصِحُّ أَنْ يُصَدِّقَهُ ذُو عَقْلٍ وَفَهْمٍ صَحِيحٍ، إِذْ هُوَ مُسْتَبْعَدٌ عَنْ مَدَارِكِ الْعُقُولِ بُعْداً شَاسِعاً.

وذَكَرَ المفَسِّرُونَ أَسْمَاءَ بَعْضِ هَـٰؤُلَاءِ وهُمْ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُشْرِكِينَ الْكَافِرِينَ، وَلَيْسَ مِمَّا يَعْنِي الْمُتَدَبِّرَ مَعْرِفَةُ أَسْمَاءِ السَّائِلِينَ، بل يَكْفِي الْعِلْمُ بِأَنَّ السُّؤَالَ التَّكْذِيبِيَّ الاسْتِهْزَائِيَّ قَدْ وُجِّهَ مِنْ قِبَلِ بَعْضِ أئِمَّةِ الشِّرْكِ والكُفْرِ العنادِي.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾:

أي: إِنَّ الْعَذَابَ المخَصَّصَ لِلْكَافِرِينَ يَوْمَ الدِّينِ يُوَجَّهُ الْقَضَاءُ بِهِ، والْأَمْرُ بِتَنْفِيذِهِ؛ مِنَ اللهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ فَلَا رَادَّ لَهُ.

المعارج: هي المصَاعِدُ، وهي مخلوقاتٌ غَيْبِيَّةٌ بالنِّسْبَةِ إلى سُكَّانِ الْأَرْض.

وَحسُنَ بَعْدَ ذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ؛ إِضَافَةُ الإعْلَامِ بِأَنَّ لِمَلَائِكَتِه مَعَارِجَ غَيْرَ مَشْهُودَةٍ، فَهِيَ غَيْبٌ بالنِّسْبَةِ إلى غَيْرِ الْمَلَائِكَة، تَعْرُجُ فِيهَا الْمَلَائِكَةُ والرُّوحُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْأَرْضِ إِلَيْهِ فِي يَوْم مِقْدَارُهُ خَمْسُونَ أَلْفَ سَنَة، وَقَدْ يكونُ الْعُرُوجُ إِلَيْهِ جَلَّ جَلَالُهُ خَاصّاً بِصِنْفٍ من الملائكةِ، وهُمْ مَلائِكَة الملأ الأعْلَىٰ.

كَلِمَةُ «يَوْم» مستعملَةٌ بِمَعْنَىٰ الْحِينِ والزَّمن، في مُعْظَم آيَاتِ القرآن، وَجَاءَ فِي القرآنِ الْمَجيدِ ذِكْرٌ لِأَيَّام مُخْتَلِفَةٍ أطْوالُها الزَّمَنِيَّةُ، فَيَوْمُ الدِّينِ يَوْمٌ يَبْدَأُ بالْبَعْثِ وَهُوَ لَا نِهَايَةَ لَهُ إذْ يُصَاحِبُهُ الْبَقَاء الدائم.

وَجَاءَ في سُورَةِ (الحج/١٠٣ نزول) قَوْل اللهِ عَزَّ وَجلَّ خِطَاباً لِرَسُولِهِ ﷺ:

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾:

وَيظْهَرُ أَنَّهُ الْيَوْمُ الَّذِي يُدَبِّرُ اللهُ لَهُ تَقْدِيراتِهِ وقَضَاءَاتِهِ فِي ظُرُوفِ الحياة الدُّنْيا، وهـٰذَا مَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي سُورَة (السَّجدة/ ٧٥ نزول) في قول الله عَزَّ وَجلَّ:

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾﴾.

وقَدْ سَبَقَ تَدَبُّرُ هـٰذِهِ الآيَةِ فِي مَوْضِعِهَا مِنْ سورة (السجدة/ ٧٥ نزول)، أَمَّا الْيَوْمُ الَّذِي جَاءَ في سُورَة (المعارج/ ٧٩ نزول) فَهُوَ يَوْمٌ آخَرُ مِقْدَارُهُ خَمْسُونَ أَلْفَ سَنَة، وَهُوَ يَوْمٌ تَعْرُجُ فِيهِ الْمَلَائِكَةُ وَمِنْهُمْ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام، فِي مَعَارِجَ رَبَّانِيَّةٍ، مُخَصَّصَةٍ لِعُرُوجِهِمْ صُعُوداً إِلَيْهِ وَنُزُولاً لِتَنْفِيذِ مَا

يَأْمُرُهُمْ بِهِ، وَقَدْ يَكُونُ الصُعُودُ إِلَيْهِ مِنَ الْأَرْضِ فِي هَـٰذِهِ الْمَعَارِجِ والنُّزُولُ مِنْهَا إِلَىٰ مَوَاقِعِ التَّنْفِيذِ بأَقَلَ مِنْ لَمْحِ الْبَصَرِ، إِذِ الآيَةُ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ حَرَكَةَ عُرُوجِهِمْ وَنُزُولِهِمْ تَكُونُ فِي يَوْم مِقْدَارُهُ خَمْسُونَ أَلْفَ سَنَة، وَلَا نَدْرِي بَعْدَ انْتِهَاءِ هَـٰذِهِ المدَّةِ مَاذَا يَفْعَلُ اللهُ بِهَـٰذِهِ المعارج، هَلْ يُجَدِّدُ لَهَا يَوْماً آخر، أَوْ يُحْدِثُ فِي كَوْنِهِ نِظاماً آخَرَ؟؟.

إِنَّ الْأَمْرَ أَمْرُهُ، وَالتَّقْدِيرَ تَقْدِيرُهُ، والْقَضَاءَ قَضَاؤُهُ، وذَكَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ «الرُّوحَ» وهُوَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام للإعْلَام بِأَنَّهُ يَعْرُجُ مِنْ هَـٰذِهِ الْمَعَارِجِ كَسَائِرِ الْمَلَائِكَةِ، ولَيْسَ لَهُ نِظَامٌ آخَرُ خاصٌّ بِهِ دُونَ الْمَأْذُونِ لَهُمْ بِالْعُرُوجِ إِلَيْهِ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ لِرَسُولِهِ ﷺ:

• ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ۝٥﴾:

لمَّا كَانَ سُؤَالُ السَّائِلِ الْمُكَذِّبِ بِعَذَابِ الْكَافِرِينَ مُتَضَمِّناً تَكْذِيبَ الرَّسُولِ ﷺ بِمَا أَخْبَرَ بِهِ، وَهـٰذَا يُسَبِّبُ للرَّسُول ﷺ أَلَماً نَفْسِيًّا؛ كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ التَّرْبَوِيَّةِ أَنْ يُوصِيَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بأَنْ يَصْبِرَ صَبْراً جَمِيلاً، والصَّبْرُ الْجَمِيلُ هُوَ الصَّبْرُ المقْتَرِنُ بالرِّضَا عَنِ اللهِ، والَّذِي لَا يُصَاحِبُهُ تَذَمُّرٌ نَفْسِيٌّ أَوْ شَكٌّ فِي حِكْمَةِ اللهِ، بَلْ يُصَاحِبُهُ مَزِيدُ ذِكْرٍ وَتَسْبِيحٍ وَعِبَادَةٍ آنَاءَ اللَّيْلِ وآنَاءَ النَّهَارِ، وَمَزِيدُ نَشَاطٍ فِي الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ، والنُّصْحِ والْإِرْشَاد.

الصَّبْر: قُوَّةٌ مِنْ قُوَىٰ الإرادَةِ، تُمَكِّنُ الإنْسَانَ مِنْ ضَبْطِ نَفْسِهِ لتَحَمُّلِ المتاعِبِ والمشَقَّاتِ والمؤلِمَاتِ، وَضَبْطِهَا عَنِ الانْدِفاعِ بعَوَامِلِ الضَّجَرِ، والجزَعِ، والسَّأَمِ، والْمَلَلِ، والْعَجلَةِ، والرُّعُونَةِ، والْغَضَبِ، والطيْشِ، والْخَوْفِ، والطَّمَعِ، والْأَهْوَاءِ والشَّهَوَاتِ والْغَرَائِز.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ۝٧﴾: أي: إِنَّ الـمـكَـذِّبِـيـنَ

المسْتَهْزِئِينَ بِنبأ عَذَابِ اللهِ ذِي الْمَعَارِجِ لِلْكَافِرِينَ؛ يَرَوْنَ هٰذَا الْعَذَابَ يَوْمَ الدِّين أَمْراً مُسْتَبْعَداً مِنْ غَيْرِ الْمُمْكِنِ وُقُوعُهُ، لَكِنَّهُمْ وَاهِمُونَ، إِذْ نَرَاهُ نَحْنُ بِعَيْنِ الْحَقِيقَةِ قَرِيباً، فَحِكْمَتُنَا السَّامِيَةُ مُنَزَّهَةٌ عَنْ أَنْ تَجْعَلَ الْمُسْلِمِينَ كَالْكَافِرِينَ المجْرِمِينَ سَوَاءً في الحياةِ الدُّنْيَا، وَفِيمَا بَعْدَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يُجَازَىٰ الْكَافِرُونَ الْمُجْرِمُونَ بِالْعَذَابِ، وَأَنْ يُجَازَىٰ الْمُؤْمِنُونَ الْمُسْلِمُونَ بالنَّعِيمِ في جَنَّاتِ النَّعِيمِ خَالِدِينَ فِيهَا.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُبَيِّنُ لَقْطَةً مِنْ ظَاهِرَاتِ التَّغْيِيراتِ في الكَوْنِ، ولَقَطَاتٍ مِمَّا سَوْفَ يَكُونُ لِلْكَافِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ:

• ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾:

الْمُهْلُ: الْقِطرَانُ السَّائل ـ والْمَعْدِنُ الذَّائِب.

الْعِهْنُ: الصُّوف المصْبُوغُ أَلْواناً.

الْحَمِيمُ: الْقَرِيبُ الَّذِي تَوَدُّهُ وَيَوَدُّكَ، والْخَلِيلُ الصَّدِيق.

الْفَصِيلَةُ: الْعَشِيرَةُ الأَقْرَبُونَ الَّذِينَ يَضُمُّونَهُ فِي النَّسَبِ وَيَأْوِي إليهم.

يُبَصَّرُونَهُمْ: أي: يَجْعَلُهم اللهُ يَرَوْنَهُمْ بِأَبْصَارِهِمْ.

المعنى: إِنَّ عَذَابَ الكافِرِينَ المُكَذِّبِينَ بالآخِرَةِ؛ يَصِيرُ قَرِيباً جدّاً يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كالْقِطرَانِ السَّائل، أو الْمَعْدِنِ السَّائل، وتَكُونُ الجبالُ كالصُّوفِ المصْبُوغ أَلْواناً، تَمْهِيداً لِنَسْفِهَا وَتَسْوِيَتِهَا بالأَرْضِ.

وحِينَ تَقُومُ السَّاعَةُ، وَيُبْعَثُ الْمَوْتَىٰ؛ لَا يَسْأَلُ قَرِيبٌ مِنَ الكُفَّارِ قَرِيباً لَهُ أَنْ يُسَاعِدَهُ فِي رَفْعِ الْعَذَابِ عَنْهُ، لِأَنَّهُ يَعْلَمُ يَوْمَئِذٍ أَنَّ أَحداً لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُسَاعِدَ أَحداً، إِذِ الأَمْرُ كُلُّهُ للهِ وَحْدَهُ، لا يُشَارِكُهُ أَحَدٌ فِي كَبِيرٍ وَلَا فِي

صَغِير، مَعَ أَنَّهُمْ يُبَصَّرُونَ أَقْرِبَاءَهُمْ، وَلَوْ ظَنُّوا أَنَّ أَقْرِبَاءَهُمْ يَمْلِكُونَ مُسَاعَدَتَهُمْ لَاسْتَغَاثُوا بهم، لَكِنَّهُمْ يَعْلَمُونَ عِلْماً قَطْعِيّاً أَنَّهُمْ عَاجِزُونَ عَنْ إعَانَتِهِمْ وَإِغَاثَتِهِمْ بِشَيْءٍ، فَلَا يَسْأَلُونَهُمْ.

وَيَوَدُّ الْمَجْرِمُ يَوْمَئِذٍ مُتَمَنِّياً: لَوْ يُقَدِّمُ فِدَاءً يَفْتَدِي بِهِ مِنْ عَذَابِ ذَلِكَ الْيَوْمِ الْخَاصِّ بالْكَافِرِينَ:

١ ـ بِبَنِيهِ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيْهِ.

٢ ـ وبِصَاحِبَتِهِ الَّتِي كَانَتْ قَرِينَتَهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا.

٣ ـ وَبأَخِيهِ الَّذِي كَانَ نَصِيرَهُ في الحياة الدُّنيا.

٤ ـ وبِعَشِيرَتِهِ الْأَقْرَبِين، الَّذِينَ يَضُمُّونَهُ فِي النَّسَبِ، ويَأْوِي إِلَيْهِم.

٥ ـ وبِمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً.

إِذَا كَانَ هٰذَا الْفِدَاءُ مَقْبُولاً، وَمُنْجِياً لَهُ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ زَاجِراً، ومُقَرِّراً وُقُوعَ عَذَابِهِ فِيهِ بأَسْلُوبٍ غَيْرِ مُبَاشر:

• ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾:

لَظَىٰ: اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ جَهَنَّمَ، وهُوَ عَلَمٌ لَا يُنَوَّنُ.

الشَّوَىٰ: قِحْفُ الرأسِ، وَظاهِرُ الْجِلْدِ.

أَدْبَرَ: أَعْطَىٰ ظَهْرَهُ لِلشَّيءِ، بِمَعْنَىٰ رَفْضَ الاسْتِجَابَة لِدَعْوَةِ الرَّسُول عَلَيْهِ السَّلَام.

وَتَوَلَّىٰ: أي: ابْتَعَدَ بَعْدَ أَنْ أَدْبَرَ، منْطَلِقاً فِي حَيَاتِهِ على كُفْرِيَّاتِهِ.

كلَّا: أداة زَجْرٍ، أي: لَا تَطْمَعْ بِفِدَاءٍ ولا بِغَيْرِهِ مِمَّا تَحْسِبُ أَنَّهُ قَدْ يُخَفِّفُ عَنْكَ مِنَ الْعَذَابِ شيْئاً.

وبَعْدَ زَجْرِهِ يَكْشِفُ البيانُ أَنَّهُ سَيَكُون مِنْ أَهْلِ لَظَىٰ، الَّتِي تُحْرِقُ الْجِسْمَ فَتَنْزِعُ قِحْفَ الرَّأسِ وَظَاهِرَ الْجِلْدِ، ولظَىٰ تَدْعُو بِلِسَانِ حَالِهَا لِيُعَذَّبَ فِيهَا؛ مَنْ كَانَ قَد أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ عَنْ دَعْوَةِ الحقّ، وَجَمَعَ مَالاً كثيراً فَمَلأَ أَوْعِيَةَ المال.

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الأول من دُرُوس سورة (المعارج).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

❁ ❁ ❁

(٥)
التدبُّر التحليلي للدّرس الثاني من دُروس سورة (المعارج) الآيات من (١٩ ـ ٣٥)

قال الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَـٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى جَنَّـٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾:

القراءات:

(٣٢) • قرأ ابْن كثير: [لِأَمَانَتِهِمْ] بالإفراد، واكْتَسَبَ معْنَىٰ الجمعيَّةِ بالإضافة.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [لِأَمَانَاتِهِمْ] بالْجمع.

فمُؤَدَّىٰ القراءتَيْنِ واحد.

(٣٣) • قرأ حفص، ويعقوب: [بِشَهَادَاتِهِمْ] بالجمع.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [بِشَهَادَتِهِمْ] بالإفراد.

ومُؤَدَّىٰ القراءتَيْنِ واحد.

تَمْهيد:

في آيَاتِ هٰـذَا الدَّرْسِ بَيَانُ أنَّ الإنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جُزُوعاً، وإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً، أيْ: يُحِبُّ الحياة الدُّنيا ويُؤْثِرها، باسْتِثْنَاءِ المؤْمِنين المتّصِفِينَ بِتَطْبِيقِ مَطْلُوبَاتِ اللهِ الكُبْرَىٰ مِنْهُمْ في حَيَاةِ امْتِحَانِهِمْ.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً فِطْرَةً فُطِرَ عَلَيْهَا الإنْسَانُ:

• ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾:

دلَّ هٰـذَا الْبَيَانُ الرَّبَّانِيُّ عَلَىٰ أَنَّ مِنَ الْفِطَرِ الَّتِي فُطِرَ عَلَيْهَا الإنْسَانُ، وَتَرَكَ نَفْسَهُ دُونَ مُقَوِّمٍ مِنْ دِينِ اللهِ الَّذِي اصْطَفَاهُ لِعِبَادِهِ؛ كَانَ مِنَ المكَذِّبِينَ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وبِعَذَابِ اللهِ فِيهَا، وانْطَلَقَ مَعَ أَهْوَائِهِ وَشَهَوَاتِهِ وَمَتَاعَاتِهِ مِنَ الحياةِ الدُّنْيَا، دُونَ وَازِعٍ يَزَعُهُ، وَلَا رَادِعٍ يَرْدَعُهُ.

هٰـذِهِ الفِطْرَةُ هِيَ أَنَّهُ هَلُوعٌ، وَجَاءَ فِي هٰـذَا الْبَيَانِ شَرْحُ كَوْنِهِ هَلُوعاً، فَهُوَ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ، أيْ: مَا يَرَاهُ فِي حَيَاتِهِ شَرّاً؛ كَانَ شَدِيدَ الْجَزَعِ لَا صَبْرَ لَهُ، وإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ، أَيْ مَا يَرَاهُ فِي حَيَاتِهِ خَيْراً، كالسَّعَةِ مِنَ الْمَالِ والْوَفْرَةِ مِنَ الْأَرْزَاقِ؛ كَانَ شَدِيدَ المنْعِ والإمْسَاكِ والشُّحّ.

جَزُوع: صِيغَةُ مُبالَغَةٍ لاسم الفاعل «جَازِع» أي: كثير الجزَع.

مَنُوع: صيغَةُ مُبالَغَةٍ لاسم الفاعل «مَانِع» أيْ: كَثِيرُ المنْعِ والإمْسَاكِ.

وَلَدَىٰ التَّحْلِيلِ النَّفْسِيِّ لِلْجَزُوعِ المنُوعِ نَجِدُ أَنَّ سَبَبَهُمَا حُبُّ الدُّنْيَا وَشِدَّةُ التَّعَلُّقِ بِهَا، والْحِرصُ عَلَىٰ اسْتِمْرَارِ الحياةِ فِيها، فَإِذَا مَسَّهُ مَسًّا مَا يَراهُ شَرًّا، كَخَسارَةٍ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ، وَجَائِحَةٍ أتْلَفَت بَعض مَا عِنْدَهُ مِنْ ثَمَرَاتٍ، وَمَرَضٍ نَزَلَ بِهِ؛ كَانَ جَزُوعاً، حِرْصاً عَلَىٰ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَمَتَاعَاتِهِ مِنْهَا، وَلَذَّاتِهِ، وَمُرْضِيَاتِ أَهْوائِهِ وشَهَوَاتِهِ. وَإِذَا مَسَّهُ مَسًّا مَا يَرَاهُ خَيْراً، كَأَرْبَاحٍ تِجارِيَّة، وَوَفْرَةِ مُنْتَجاتٍ زِرَاعِيَّةٍ، وَزِيَادَةِ أُجُورٍ عَلَىٰ أَعْمَالٍ صِنَاعِيَّةٍ؛ كَانَ مَنُوعاً شَحِيحاً لَا يَبْذُلُ مِنْ مَالِهِ فِي سُبُلِ الْخَيْرِ، حِرْصاً عَلَىٰ الْحَياةِ الدُّنْيَا، وَمَتَاعَاتِهِ مِنْهَا، وَلَذَّاتِهِ، وَمُرْضِيَاتِ أَهْوَائِهِ وَشَهَوَاتِهِ.

وَمُعَدِّلُ هَـٰذِهِ الْفِطْرَةِ فِي الإنْسَانِ وَمُقَوِّمُهَا وَمُوَجِّهُهَا لِسُلُوكِ صِراطِ اللهِ المسْتَقِيمِ؛ هُوَ مَا أَبَانَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الاسْتِثْنَاءِ التالي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَـٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى جَنَّـٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

قولِ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾: يَطْوِي قَبلَ الْمُسْتَثْنَىٰ فِيهِ رُكْنَ الْإِيمَانِ والإسْلَامِ، ويُفْهَمُ هـٰذا بِاللُّزُومِ الْعَقْلِيِّ، إِذْ لَا تُقْبَلُ صَلَاةٌ للهِ غَيْرُ مَسْبُوقَةٍ بِالْإِيمانِ بِكُلِّ أَرْكَانِ الإيمانِ، وبإعْلَانِ الإسْلَامِ للهِ وَطَاعَتِهِ فِي أَوَامِرِهِ ونواهيه.

أي: إلَّا الْمُؤْمِنينَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمُ الْخَمْسِ الْمَفْرُوضَةِ دائِمُونَ، يُؤَدُّونَهَا كَمَا فَرَضَهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في أَوْقَاتِهَا.

وَهٰذَا مَعْنَىٰ كَوْنِهِمْ دَائِمِينَ عَلَىٰ صَلَاتِهِم، وَلَيْسَ المرادُ بالدَّوَامِ اسْتِغْرَاقَ كُلِّ أَوْقَاتِهِمْ بالصَّلَاةِ، فالمرادُ بالدَّوَامِ المواظَبَةُ عَلَىٰ أداء العمل المفروض.

إِنَّ صِفَةَ المَداومَةِ عَلَىٰ الصَّلَوَاتِ الْمَفْرُوضَةِ هِي **الصِّفَةُ الْأُولَىٰ** بَعْدَ الإيمانِ والإسْلَامِ، لِلْمُسْتَثْنَىٰ مِنْ وَصْفِ «هَلُوع».

الصِّفَةُ الثَّانِية: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾:

أي: والَّذِينَ يَجْعلُونَ في أَمْوَالِهِمُ الَّتِي رَزَقَهُمُ اللهُ إيَّاهَا مِنْ فَضْلِهِ؛ مِقْدَاراً مَعْلُوماً حَقًّا عَلَيْهِمْ أَنْ يَبْذُلُوهُ لِلسَّائِلِ والْمَحْرُوم، وهٰذَا كَانَ قَبْلَ نُزُولِ فَرْضِ الزَّكَاةِ، وبيان الْمِقْدَارِ الْوَاجِبِ بَذْلُهُ لِلْأَصْنَافِ الثَّمَانِيَةِ مِنَ الْأَمْوَال، إِذْ كَانَ نزول فَرْضِ الزَّكاة في الْعَهْدِ الْمَدَنيّ، وهَـٰذِهِ السُّورَةُ مَكيَّةٌ.

وَهٰذَا الحقُّ المعلومُ لم يَذْكُرِ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِقْدَارَهُ فِي هٰذَا النَّصِّ، وتَرَكَهُ لِأَرْيحِيَّةِ المؤمِنِ الْمُسْلِمِ المداوِمِ عَلَىٰ صَلَاتِهِ.

وَكَانَ هٰذَا الْبَيَانُ بِمَثَابَةِ التَّمْهِيدِ التَّدَرُّجِيّ فِي أَحْكَامِ وشرائِعِ الإِسْلَامِ الْخَاصَّة فِي النَّفَقَاتِ الْوَاجِبَةِ لِلْفُقَرَاءِ والْمَسَاكِينِ.

السَّائل: هو الَّذِي يَسْأَلُ النَّاسَ صَدَقَاتِ أَمْوَالِهِمْ، مُبْدِياً فَقْرَهُ وَحَاجَتَهُ إِلَىٰ طَعَامِهِ وَطَعَامِ أُسْرَتِهِ وَضَرُوريَّاتِ حَيَاتِهِمْ.

المحْرُومُ: هُوَ الَّذِي لَا يَسْأَلُ النَّاسَ صَدَقَاتِهِمْ تَعَفُّفاً، مَعَ أَنَّهُ مَحْرُومٌ بِتَقْدِيرِ اللهِ وَقَضَائِهِ؛ مِمَّا يَكْفِيهِ لِحَاجَاتِهِ وَحَاجَاتِ أُسْرَتِهِ، لِيَمْتَحِنَ بِحِرْمَانِهِ ذَوِي الغنى.

الصِّفَة الثالثة: دلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾﴾: والَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِنَبَأِ يَوْم الدِّين، أي: يَوْمِ الجزَاءِ الأَكْبَرِ، عَلَىٰ مَا جَاءَ فِي كِتَابِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَعَلَىٰ لِسَانِ رُسُلِهِ، وَفِي خَاتِمَتِهِمْ مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ اللهِ سَيِّدُ الْمُرْسَلِين صلَّى اللهُ وسَلَّمَ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ.

فَهُمْ لَا يَشُكُّونَ فِي نَبَأٍ جَاءَ في كَلَام اللهِ الحقِّ صَغِيرٍ وَلَا كَبيرٍ، وَلَا يَشُكُّونَ فِي نَبأٍ صَحِيحٍ حقٍّ جَاءَ فِي كَلَامِ الرَّسُولِ ﷺ مِنْ أَنْبَاءِ يَوْمِ الدين.

الصِّفة الرَّابعة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾﴾:

إِنَّ كُلَّ بَنِي آدَمَ خَطَّاؤُونَ، والقَاعِدَةُ الْعَدْلِيَّةُ الرَّبَّانِيَّة تُفِيدُ أَنَّ جَزَاءَ السَّيِّئَةِ بِمِثْلِهَا، إِلَّا أَنْ يَغْفِرَ اللهُ وَيَتَجَاوَزَ عَنِ الجزَاءِ بِفَضْلِهِ وكَرَمِهِ، لَكِنَّ هٰذَا أمْرٌ غَيْرُ مَضْمُونٍ، فَقَدْ يَغْفِرُ بِرَحْمَتِهِ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ، وَقَدْ لَا يَغْفِرُ بِحِكْمَتِهِ، وَلِذَا فَإِنَّ المؤمِنَ يَبْقَىٰ مُشْفِقاً، أَيْ: خَائِفاً مِنْ عَذَابِ رَبِّهِ جَزَاءَ خَطَايَاهُ، لِأَنَّ عَذَابَ اللهِ عَلَىٰ الْخَطَايَا غَيْرُ مَأْمُونٍ أَنْ لَا يَتَحَقَّقَ بِغُفْرَانِ اللهِ وَتَجَاوُزِهِ عَنِ الْخَطَايَا، إِذَا اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ أَنْ يُعَاقِب.

الصِّفَة الْخَامِسَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾﴾:

- ﴿حَافِظُونَ﴾: أي: لَا يَعْصُونَ اللهَ بِفُرُوجِهِمْ بِقَضَاءِ شَهْوَتِهَا فِي غَيْرِ مَا أَذِنَ اللهُ به، وحفظ الشيء يكون بِصِيَانَتِهِ، وبالمواظبة على رِعَايَتِهِ، وكَفِّهِ عَمَّا يَجْلُبُ ضَرراً أَوْ أذىً، ومَنْعِهِ مِنْ أن يَسْقُطَ فِي الموبقاتِ الْمُهْلِكَاتِ.

- ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾: هُنَّ الرَّقِيقاتُ مِنَ النِّسَاءِ، وَقَدْ كَانَ هٰذَا أَيَّامَ انْتِشَارِ الرِّقِّ في المجْتَمَعَاتِ، أَمَّا بَعْدَ أَنِ اتَّفَقَتِ الدُّوَلُ عَلَىٰ إِلْغَائِهِ؛

فَلَا أَرِقَّاء، وَلَا رَقِيقَات، وهٰذَا أَمْرٌ حَسَن، لِأَنَّ الإسْلَامَ حَثَّ عَلى عِتْقِ الأرِقَّاءِ إفراديًّا.

• ﴿غَيْرُ مَلُومِينَ﴾: أي: غَيْرُ مُذْنبين، وغَيْرُ مُرْتكِبِينَ مَا يُلَامُون عليه.

• ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾: أي: فأولَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ المتَجَاوِزُونَ حُدُودَ مَا أَحَلَّ اللهُ، والْمُرْتَكِبُونَ لِمَا حَرَّمَ، وفي العبارة قَصْرٌ بِتَعْرِيف طَرَفي الإسْناد.

• ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾﴾: حفظ الفروج في الدِّين يَكُونُ بِصِيَانَتِهَا وإمْسَاكِهَا عَنْ فِعْلِ مَا حَرَّمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيها، كالزِّنَا، وإتْيَانِ الذُّكُورِ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ، وإتْيَانِ الْبَهَائِم، وَإتْيَانِ النِّسَاءِ في أَدْبَارِهِنَّ.

• ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾﴾:

أَيْ: والَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ، مِنْ إتْيَانِ أَحَدٍ أُنْثَىٰ أَوْ ذَكَرٍ شَهْوَةً، إلَّا قَصْراً عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ بِعَقْدٍ شَرْعِيٍّ، أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ مِنْ إمَاء، فإنَّهُمْ إذَا جامَعُوا زَوْجَاتِهِمْ أَوْ إمَاءَهُمْ عَلَىٰ الْوَجْهِ الْمَأْذُونِ به شَرْعاً فَإنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ وغَيْرُ مُذْنبين.

• ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾﴾:

أي: فَمَنِ ابْتَغَىٰ طَالِباً قَضَاءَ شَهْوَةِ فَرْجِهِ وَرَاءَ ذَلِكَ الْحَدِّ الَّذِي أَقَامَهُ اللهُ لِعِبَادِه، فَأَرَادَ مُعَاشَرَةَ غَيْرِ زَوْجَتِهِ أَوْ مَا مَلَكَتْ يَمِينُهُ مِنَ النِّسَاءِ، فِي فُرُوجٍ أَوْ أَدْبَارٍ؛ فَأُولَئِكَ الْبُعَدَاءُ الْعُصَاةُ المتَسفِّلُونَ هُمُ الْعَادُونَ الظَّالِمُونَ، المتجاوِزُونَ لِلْحَدِّ الْمَأْذُونِ بِهِ شَرْعاً فِي السُّلُوكِ الإرادِي.

الصفة السادِسة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾﴾:

الْأَمَانَةُ: تُطْلَقُ في اللُّغَةِ على الْوَفَاءِ، وَتُطْلَقُ عَلَىٰ الْوَدِيعة، فَكُلُّ مَا يُسْتَأْمَنُ الإنسَانُ عَلَيْهِ مِن قولٍ، أَوْ سِرٍّ، أَوْ خَبَرٍ، أَوْ تَكْلِيفٍ؛ هُوَ أَمَانَةٌ، والْوَفَاءُ بِتَحْقِيقِ مَطْلُوبِ مَنِ اسْتَأْمَنَهُ أَمَانَة، وهٰذَا هُوَ حِفْظُهَا وَرِعَايَتُها.

وَكُلُّ وَدِيعَةٍ تُوضَعُ عِنْدَ الإنْسَانِ هي أَمَانَة، وَرِعَايَتُهَا تَكُونُ بِحِفْظِهَا، وَتَأْدِيَةِ مَطْلُوبِ صَاحِبِ الْوَدِيعَةِ بِشَأْنِهَا.

وَبالتَّوَسُّعِ فِي مَفْهُومِ الْأَمَانَةِ؛ نُلاحِظُ أَنَّ اللهَ ـ جَلَّ جلالُهُ ـ أعْطَىٰ الإنْسَانَ الإرَادَةَ الْحُرَّةَ، وَجَعَلَهَا أَمَانَةً عِنْدَهُ، وكَلَّفَهُ أَنْ لَا يَخْتَارَ بِهَا مَا فِيهِ مَعْصِيَةٌ له، فِي السُّلُوكِ الْبَاطِنِ والظَّاهِرِ، وَحَذَّرَهُ إِذَا اخْتَارَ مَعْصِيَتَهُ مِنَ الْعِقَابِ الْعَادِلِ عَلَيْهَا، وأَطْمَعَهُ إِذَا اخْتَارَ طَاعَتَهُ فِيما أَمَرَ بِهِ وَنَهَىٰ عَنْهُ؛ بِأَنْ يَجْزِيَهُ ثَواباً عَظِيماً يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظِيم سُلْطَانِهِ، يَوْمَ الدِّينِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، مَعَ بَعْضِ ثَوابٍ مُعَجَّلٍ فِي الدُّنْيَا إِذَا اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ ذَلِك.

وَكُلُّ جَارِحَةٍ فِي الإنسَانِ مِنَ الْجَوَارِحِ الظَّاهِرَة، والجَوَارِحِ الباطِنَة؛ هِي أَمَانَةٌ عِنْدَهُ، لِأَنَّهَا مِلْكٌ للهِ، وَقَدْ جَعَلَهَا اللهُ وَدِيعَةً عِنْدَه، وَجَعَلَ لاسْتِخْدَامِهَا والانْتِفَاعِ بِهَا شُرُوطاً، وَكُلُّ مُخَالَفَةٍ لهٰذِهِ الشُّرُوطِ خِيَانَةٌ لِلأَمَانَة.

الْعَهْد: يُطْلَقُ الْعَهْدُ في اللُّغَةِ عَلَىٰ كُلِّ مَا بَيْنَ الْعِبَادِ مِنْ مَوَاثِيق، ويُطْلَقُ عَلَىٰ الْوَصِيَّة، وَعَلَىٰ الْيَمِينِ، وَعَلَىٰ الْوَفاءِ، وَعَلَىٰ الْحِفَاظِ وَرِعَايَةِ الْحُرْمَة، وعَلَىٰ الأمَان.

ويُطْلَقُ الْعَهْدُ عَلَىٰ مَا يَلْتَزِمُ بِهِ الْعَبْد تُجاه رَبِّهِ، كالْمَبَايَعَاتِ مع الرَّسُولِ ﷺ.

أَمَّا الْعَهْدُ بَيْنَ اللهِ عَزَّ وَجلَّ وَبَيْنَ عِبادِهِ المكَلَّفِينَ الْمَوْضُوعِينَ في الْحَياةِ الدُّنْيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ؛ فَقَدْ تَضَمَّنَ مَا يلي:

(١) أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ وَبِصِفَاتِهِ العظْمَىٰ وأَسْمَائِهِ الحسْنَىٰ، وَبِمَا جَاءَ مِنْ

عِنْدِه، عَلَىٰ أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ عَلَيْهِم السَّلَام الْمُبَلِّغِينَ عَنْهُ، المؤَيَّدِينَ مِنْهُ بِالْمُعْجِزَاتِ والآياتِ الْبَاهِرَاتِ، مُعْتَرِفِينَ مُذْعِنِينَ.

(٢) أَنْ يَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِعِبَادَتِهِ سِواهَ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

(٣) أَنْ لَا يَعْبدُوا الشَّيْطَانَ، بِطَاعَتِهِ والاسْتِجَابَةِ لِوَسَاوِسِهِ واتِّبَاعِ خُطُواتِهِ.

فَمَنْ قال: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ» مُؤْمِناً بِهَا قَلْبُهُ؛ فَقَدْ أَعْطَىٰ اللهَ عَهْداً بِكُلِّ ذَلِكَ، وَهَـٰذِهِ بَيْعَةٌ بَيْنَ الإِنْسَانِ وَرَبِّهِ، وَهُوَ مُطَالَبٌ بالْوَفَاءِ بها.

• ﴿رَٰعُونَ﴾: أي: حَافِظُونَ، بِمُقْتَضَىٰ حُقُوقِ الْأَمَانَاتِ، وحُقُوقِ الْعَهْدِ، يُؤَدُّونَ وَاجِبَاتِ الْأَمَانَاتِ والْعُهُودِ، ويَجْتَنِبُونَ مَا نُهُوا عَنْهُ فِيهَا.

رِعَايَةُ الشيء: تَكُونُ بِحِفْظِهِ، وَبِالْقِيَامِ بِمَا يَلْزَمُ لَهُ مِنْ حِمَايَةٍ وَنَمَاء.

الصِّفَةُ السَّابِعَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾:

الشَّهَادَةُ: حُضُورُ حَدَثٍ مَا وَالْعِلْمُ بِمَا جرَىٰ فِيهِ، ومَنْ حَضَرَ الْحَدَثَ فَقَدْ حَمَلَ شَهَادَةً تَتَضَمَّنُ عِلْماً بِمَا كَانَ فِيهِ.

وَقَدْ يَكُونُ المشْهُودُ يَشْتَمِلُ عَلَىٰ عِلْم فِيهِ إِثْبَاتُ حَقٍّ مَا لإِنْسَان مَا، ولِصَاحِبِ الْحَقِّ أَنْ يَطْلُبَ مِنَ الشَّاهِدِ أَنْ يَشْهَدَ لَهُ بِمَا عَلِمَ، ويُخْبِرَ بِمَا شَهِدَ مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَل.

وعَلَىٰ الشَّاهِدِ أَنْ يَقُومَ بِشَهَادَتِهِ مُخْبِراً بِمَا رَأَىٰ أَو سَمِعَ.

وقَدْ يَتَوَقَّفُ إِثْبَاتُ الْحَقِّ عِنْدَ الْقَاضِي أَوْ عِنْدَ الْمُحَكَّمِينَ عَلَىٰ أَنْ يَقُومَ الشَّاهِدُ بِمَا شَهِدَ، وعِنْدَئِذٍ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُؤَدِّيَ شَهَادَتَهُ، دُونَ إِضْرَارٍ

بِهِ فِي نَفَقَةٍ أَوْ غَيْرِهَا، وَيَتَحَمَّلُ نَفَقَةَ إِحْضَارِهِ إِلَىٰ مَجْلِسِ القضاءِ صَاحِبُ الْحَقِّ، أَوْ تَتَحَمَّلُ الدَّوْلَةُ هَـٰذِهِ النَّفَقَةَ ضِمْنَ مُقْتَضَيَاتِ المصلحة العامَّة.

فالمؤمِنُونَ الْمُسْلِمُونَ المصَلُّونَ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمُ الْمَفْرُوضَةِ مُوَاظِبُونَ؛ مِنْ صِفَاتِهِمْ أَنَّهُمْ بِشَهَادَاتِهِمُ الَّتِي تُثْبِتُ حَقًّا أَوْ تَنْفِي اتِّهاماً قَائِمُونَ يُؤَدُّونَهَا وَهُمْ يَتَّقُونَ اللهَ عِنْدَ أَدَائِهَا، فَلَا يَزِيدُونَ عَلَىٰ مَا شَهِدُوا في حُضُورِهِمْ شَيْئاً، وَلَا يَنْقُصُونَ مِنْهُ شَيْئاً يَعْلَمُونَهُ.

الصِّفَةُ الثامِنَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾﴾: أي: والَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمُ الْخَمْسِ الْمَفْرُوضَةِ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ؛ يُحَافِظُونَ عَلَىٰ أَدَائِهَا فِي أَوْقَاتِهَا بِشُرُوطِهَا وأَرْكَانِهَا، مَا اسْتَطَاعُوا إلى ذَلِكَ سَبِيلاً.

ونُلَاحِظُ أَنَّهُ قَدْ جَاءَ في أَوَّلِ صِفَاتِهِمْ أَنَّهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دائِمُونَ، وفي آخِرِ صِفَاتِهِمْ أَنَّهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ، فَمَا الْحِكْمَةُ مِنْ هَـٰذَا الْإِجْرَاءِ؟.

يَبْدُو لِي أَنَّ الصَّلَاةَ والْمُدَاوَمَةَ عَلَىٰ الْمَفْرُوضِ مِنها، والْمُحَافَظَةَ عَلَيهَا؛ مِمَّا أَوْلَاهُ اللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ عِنَايَةً خَاصَّةً، إِذْ هِيَ الْمُعَبِّرَةُ عَنْ صِلَةِ الْعَبْدِ بِرَبِّهِ بِصُورَةٍ مُتَجَدِّدَة، وهِي بِمَثَابَةِ الإزَارِ والرِّدَاءِ، اللَّذَيْنِ يَقِي الْمُؤْمِنُ الْمُسْلِمُ بِهِمَا سَائِرَ صِفَاتِهِ في السُّلُوكِ، لِيَلْتَزِمَ بِطَاعَةِ اللهِ فِيهَا مَا دَامَ مَدَاوِماً وَمُحَافِظاً عَلَىٰ صِلَتِهِ بِرَبِّهِ فِيهَا، وَلهَـٰذَا جَاءَ في الْبَيَانِ الرَّبَّانِيِّ اعْتِبَارُهَا أُولَىٰ صِفَاتِ المؤمِنِ الْمُسْلِمِ وأُخْرَاهَا.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي خَاتِمَةِ هَـٰذَا الدَّرْسِ الثَّانِي مُبَيِّناً الجزاء الْعَظِيمَ الَّذِي أَعَدَّهُ يَوْمَ الدِّينِ لِهَـٰؤُلَاءِ المؤمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ المداوِمِينَ الْمُحَافِظِينَ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمُ المفروضَة:

● ﴿أُولَٰئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾: أي: أولَئِكَ رَفِيعُوا المكانَةِ عِنْدَ

رَبِّهِمْ سَوف يَجْزِيهِمْ رَبُّهُمْ بِنَعِيمٍ أَبَدِيٍّ هم فِيهِ فِي جَنَّاتٍ بِحَسَبِ كُلِّ واحِدٍ مِنْهُمْ، وهُمْ فِيهَا مُكْرَمُونَ.

مُكْرَمُون: أي: مُفَضَّلُونَ مَوْضُوعُونَ في أَمَاكِنِ تَفْضِيلٍ وَتَعْظِيم، وَيُقَدَّمُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَسُرُّهُمْ عَلَىٰ وَجْهِ التَّكْرِيمِ والتَّعْظِيم.

وبهٰذَا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدّرس الثَّانِي من دُرُوس سورة (المعارج).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.



(٦)
التدبُّر التحليلي للدّرس الثَّالِث من دُروس سورة (المعارج) الآيات من (٣٦ ـ ٤٤) آخر السورة

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾:

القراءات:

(٤٢) • قرأ أبُو جَعْفر: [**يَلْقَوْا**]، مِنْ فعل: «لَقِيَهُ»، بمعنى اسْتَقْبَلَهُ.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**يُلَاقُوا**]، مِنْ فعل: «لَاقَاهُ»، بمعنى قَابَلَه، فَمُؤَدَّىٰ القِراءَتَيْنِ وَاحد.

(٤٣) • قرأ حفص، وابْن عَامِرٍ: [نُصُبٍ] بضَمِّ النُّونِ والصَّاد.

وَقَرَأَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [نَصْبٍ] بفتح النُّون وإسْكَانِ الصَّاد.

النَّصْبُ، والنُّصُب: مَا نُصِبَ وَعُبِدَ مِنْ دُونِ اللهِ، فالْقِرَاءَتَانِ بمعنًى وَاحِدٍ.

تَمْهيد:

فِي آيَاتِ هـٰذَا الدَّرْسِ بَيَانُ بَعْضِ أَحْوَالِ فِئَةٍ مِنَ الْكَافِرِينَ إبَّانَ التَّنْزِيل، في مُوَاجَهَتِهِم للرَّسُول ﷺ.

وَفِيهَا تَوْصِيَةُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ ﷺ بِأَنْ يَذَرَهُمْ، لِأَنَّهُمْ مَيْؤُوسٌ مِنْ إصْلَاحِهِمْ عَن طَرِيقِ إرَادَاتِهِمُ الحرَّة، والحِكْمَة الابْتِلَائِيَّةُ فِي الحياة الدُّنْيا تَقْتَضِي عَدَمَ جَبْرِهِمْ.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾:

• ﴿قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾: أي: مَادِّينَ أَعْنَاقَهُمْ وَمُصَوِّبِينَ رُؤُوسَهُمْ نَحوَكَ، وَأَنْتَ تَدْعُو إِلَىٰ دِينِ اللهِ وَتَتْلُو آيَاتِهِ.

• ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾﴾ أي: فَمَا لَهُمْ جَمَاعَاتٌ عَنْ يَمِينِكِ وعَنْ شِمَالِكَ مُهْطِعِينَ نَحْوَكَ.

عِزِين: جَمْعٌ مُفْرَدُهُ «عِزَة»، وهِيَ الْفِرْقَةُ مِنَ النَّاسِ، جُمِعَ جَمْعَ مُذَكَّرٍ سَالِمٍ إلْحَاقاً بِهِ عَلَىٰ غَيْرِ قِيَاس.

ذَكَرَ طَائِفَةٌ مِنَ المفسِّرينَ أَنَّ المشْرِكِين (أي: أئِمَّتَهُمْ) كَانُوا يَجْتَمِعُونَ جَمَاعَاتٍ عَنْ يَمِينِ الرَّسُولِ ﷺ وشِمَالِهِ، وَيَسْتَمِعُونَ كَلَامَهُ ويُكَذِّبُونَه، وَيَسْتَهْزِئُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ، ويقُولُونَ: لَئِنْ دَخَلَ هَـٰؤُلَاءِ الْجَنَّةَ كَمَا يَقُولُ مُحَمَّد؛ فَلَنَدْخُلَنَّهَا قَبْلَهُمْ، وَلَيَكُونَنَّ لَنَا فِيهَا أَكْثَرُ مِمَّا لَهُمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَـٰذَا الْبَيان.

إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ أَرْفَعُ فِي تَكْوِينِهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِذْ فَضَّلَهُمُ الْخَالِقُ فِي الحياةِ الدُّنْيَا، بِأَمْوَالِهِمْ وَمَكَانَاتِهِمُ الاجْتِمَاعِيَّةِ عَلَىٰ المؤمنينَ أَتْبَاعِ مُحَمَّد ـ ﷺ ـ، فَلَئِنْ صَحَّ مَا يَقُولُهُ مُحَمَّد ـ ﷺ ـ بِشَأْنِ الْبَعْثِ والحياة الأُخْرَىٰ، والجنَّةِ والنَّار؛ فَلَا بُدَّ ـ في زعمهم ـ أَنْ يُدْخِلَهُمُ اللهُ الْخَالِقُ يَوْمَ الدِّينِ الْجَنَّةَ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ فِي الْجَنَّةِ أَكْثَرُ مِمَّا يَكُونُ لِلْمُؤْمِنِينَ بِمُحَمَّد ـ ﷺ ـ، لِأَنَّ اللهَ مَيَّزَهُمْ فِي الْخَلْقِ وفي الَّذِي وَهَبَهُمْ إِيَّاهُ من أَمْوَالٍ وَمَكَانَةٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ في حَيَوَاتِهِمْ.

فَمِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يَكُونَ التَّعْقِيبُ الرَّبَّانِي مُلَائِماً لِمَا تَوَهَّمُوهُ لِأَنْفُسِهِمْ:

• ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾﴾:

أَيْ: أَيُّ شَيْءٍ هُوَ لِهَـٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَفَرُوا مُسْتَكْبِرِينَ بامْتِيَازِ ذَوَاتِهِمْ، الأَمْرُ الَّذِي جَعَلَهُمْ يُقْبِلُونَ يَا محمَّدُ إِلى مَجَالِسِكَ الدَّعَوِيَّةِ مُهْطِعِينَ، ويَجْلِسُونَ عَنْ يَمِينِكَ وَشِمَالِكَ جَمَاعاتٍ، وَيَسْتَهْزِئُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ قَائِلِينَ: لَئِنْ دَخَلَ هَـٰؤُلَاءِ الجَنَّةَ كَمَا يَقُولُ مُحَمَّدٌ، فَلَنَدْخُلَنَّهَا قَبْلَهُمْ، وَلَيَكُونَنَّ لَنَا فِيهَا أَكْثَرُ مِمَّا لَهُمْ؟؟!.

• ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾: اسْتِفْهَامٌ تَعْجِيبِيٌّ مِنْ طَمَعِهِمْ هذا. أي: كَيْفَ يَسْتَقِيمُ لَهُمْ هَـٰذَا الطَّمَعُ، وهُمْ كَافِرُونَ باللهِ رَبِّهِمْ، وبِكِتَابِهِ، وَبِرَسُولِهِ ﷺ، وَهُوَ الَّذِي أَعَدَّ جَنَّةَ نَعِيمٍ لِمَنْ آمَنَ بِهِ وأَسْلَمَ واتَّقَىٰ؟!!.

وَأَعَدَّ دَارَ عَذَابٍ لِمَنْ كَفَرَ بِهِ وأَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ عَنْ دَعْوَةِ رَسُولِهِ ﷺ.

• ﴿كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ۝٣٩﴾: أي: إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِثْلَما خَلَقْنَا سَائِرَ النَّاسِ ومِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ، مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ، مُتَسَلْسِلٍ مِنْ مَاءٍ وَطِين، وَلَيْسَتْ لَهُمْ مِيزَةٌ مَا عَلَىٰ غَيْرِهِمْ مِنَ الْبَشَرِ، أَمَّا التَّوْسِعَةُ لَهُمْ فِي الْأَمْوَالِ، وَتَمْيِيزُهُمْ بِمَكَانَةٍ يَحْرِصُ عَلَيْها طُلَّابُ الزَّعَامَات؛ فالْمَقْصُودُ مِنْ ذَٰلِكَ اخْتِبَارُهُمْ فِي ظُرُوفِ الحياةِ الدُّنْيَا، أَيَكُونُونَ مِنَ المؤمنِينَ، أم مِنَ الْكَافِرِين؟، أَيَكُونُونَ مِنَ الْجَاحِدِينَ أَمْ مِنَ الشَّاكِرِين؟.

وإِذْ أَثْبَتُوا أَنَّهُمْ كَافِرُونَ جَاحِدُونَ كَانَ الْعَدْلُ يَقْتَضِي خُلُودَهُمْ فِي عَذَابِ النَّار.

ويُقْسِمُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِقَسَمٍ مَنْفِيٍّ بحرف النَّفْي «لَا» مُرَاعَاةً لاعْتِبَارَيْنِ سَبَقَ بَيانُهُمَا عِنْدَ تَدَبُّرِ قولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝٣٩﴾ من سورة (الْحَاقَّةُ/ ٧٨ نزول) فَيَقُول عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٤١﴾:

لَمْ يَكُنِ الْمُخَاطَبُونَ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ يَعْلَمُونَ أَنَّ لِلشَّمْسِ مَشَارِقَ وَمَغَارِبَ، بِحَسَبِ حَرَكَةِ الْأَرْضِ الدَّوَرَانِيَّة، بِتَقْدِيرِ اللهِ وَقَضَائِهِ وَحِكْمَتِهِ، فَكَانَ الْقَسَمُ بِرَبِّ المشَارِقِ والْمغَارِبِ غَيْرَ مُفِيدٍ لَهُمْ تَوْكِيداً، فَكَانَتْ مُرَاعَاتُهُمْ تَقْتَضِي نَفْيَ الْقَسَمِ بِالْمَشَارِقِ والمغَارِبِ، لَكِنْ سَيَأْتِي مَنْ يُدْرِكُ هَـٰذِهِ الحقِيقَةَ مِنْ حَقَائِقَ نِظَامِ الكَوْن، فَكَانَ الْحَلُّ ذِكْرَ الْقَسَمِ بِرَبِّ المشَارِقِ والْمَغَارِب، ونَفْيَ الْقَسَمِ بِحَرْفِ النَّفْي «لا»، فَهُوَ يُقْسِمُ لِمَنْ يُفِيدُهُ الْقَسَمُ تَوْكِيداً، وَلَا يُقْسِمُ لِمَنْ لَا يُفِيدَهُ الْقَسَمُ التوكيد.

والْخَبَرُ المؤكَّدُ بالْقَسَمِ؛ هُوَ قُدْرَةُ اللهِ عَلَىٰ خَلْقِ بَشَرٍ خَيْرٍ في تَكْوِينِ

ذَوَاتِهِمْ؛ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْتَزِّينَ بتَمَيُّزِهِمْ عَلَىٰ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ فُقَرَاءِ المؤمِنِينَ المسلمين.

• ﴿... وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾﴾: أي: لَا أَحَدَ في الْوُجُودِ كُلِّهِ يَسْبِقُنَا غَالباً لَنَا فِيمَا نُرِيدُهُ ونُقَدِّرُه وَنَقْضِيهِ، أَوْ مُعْجِزاً لَنَا عَنْ فِعْلِ مَا نُرِيد.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُوصِي رَسُولَهُ ﷺ بِشَأْنِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَرَت مُعَالَجَتُهُمْ في السُّورَة، وَبَلَغُوا أَخَسَّ دَرَكَاتِ الإجْرَامِ والْعِنَادِ والإصرارِ عَلَىٰ الْبَاطِلِ:

• ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَٰقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾:

ذَرْهُمْ: أي: دَعْهُمْ واتْرُكْهُمْ غَيْرَ عَابِئٍ بِهِم، فهم ميؤوسٌ مِنْ إصْلَاحِهِمْ عَنْ طَرِيقِ إرَادَاتِهِمُ الحرَّة.

يَخُوضُوا: أَصْلُ الْخَوْضِ الْمَشْيُ في الماءِ وَتَحْرِيكُهُ، وَبِهَٰذَا يَتَكَدَّرُ بالْوَحْلِ الَّذِي هو مُتَرَسِّبٌ في أَسْفَلِهِ، ومن التَّوَسُّعِ اسْتِعْمَالُ الْخَوْضِ في التَّصَرُّفَاتِ السَّيِّئَةِ والضَّارَّةِ، وفي ارْتِكَابِ الكبائِرِ مِن الإثم.

الْأَجْدَاث: القبور، واحِدُهَا «جَدَثٌ».

النُصُب: مَا نُصِب لِيُعْبَدَ مِنْ دُونِ اللهِ.

يُوفِضُونَ: يُسْرِعُون.

تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ: أي: تَغْشَاهُمْ وَتَعْلُو عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ آثَارُ ضَعْفٍ وَهَوَانٍ وانْكِسَار.

المعنى: فَدَعْ يَا مُحَمَّدُ هَٰؤُلَاءِ الْمُعَانِدِينَ الْمُصِرِّينَ عَلَىٰ بَاطِلِهِمْ،

والميؤوسِ مِنِ اسْتِجَابَتِهِمْ عَنْ طَرِيقِ إرَادَاتِهِمُ الحرَّة، واتْرُكْهُمْ غَير عَابِئٍ بِهِمْ، وَوَجِّهْ مُجَاهَدَتَكَ لِلْمَطْمُوعِ باسْتِجَابَتِهِمْ.

دَعْ يَا مُحَمَّدُ هَؤلَاءِ يَخُوضُوا في ارْتِكَابِ قَبَائِحِهِمْ، والإنْطِلَاقِ مَعَ كُفْرِيَّاتهِمْ وَلَوَازِمِهَا في السُّلُوكِ الإجْرَامِيّ.

ودَعْ يَا مُحَمَّدُ هَـٰؤُلَاءِ يَتَحَرَّكُونَ فِي حَيَوَاتِهِمْ تَحرُّكَ اللَّاعِبِينَ، الَّذِينَ يَسْتَغْرِقُونَ مُعْظَمَ أَوْقَاتِ فَرَاغِهِمْ مِنْ عَمَلٍ جَادٍّ مُفِيدٍ لَهُمْ فِي دُنْيَاهُم بِلَعِبٍ لا خَيْرَ فِيهِ.

دَعْهُمْ حَتَّىٰ يُوَاجِهُوا أَحْدَاثَ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَهُ وهو يَوْمُ الدِّينِ يَوْمُ الْجَزَاءِ الْأَكْبَرِ، وَهُوَ يَكُونُ بَعْدَ بَعْثِهِمْ وَخُرُوجِهِمْ مِنْ مَدَافِنِهِمْ سِرَاعاً، كَأَنَّهُمْ يُوفِضُونَ مُسْرِعِينَ إِلَىٰ أَوْثَانِهِمُ الَّتِي كَانُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللهِ، وَيُسْرِعُونَ إِلَىٰ عِبَادَتِهَا مُؤْمِنِينَ بِأَنَّ عِبَادَتَهَا تَنْفَعُهُمْ فِي كَثِيرٍ مِنْ أُمُورِ حَيَاتِهِمْ.

لَكِنَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُسْرِعُونَ بالْجَبْرِ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ، تَغْشَاهُمْ وَتَعْلُو وُجُوهَهُمْ آثَارُ ذُلٍّ وانْكِسَارٍ وَهَوَانٍ، خَوْفاً مِنَ الْمَصِيرِ الَّذِي هُمْ إِلَيْهِ صَائِرُونَ فِي الْجَحِيمِ، لِيَذُوقُوا آلَامَ الْحَرِيقِ، والْعَذَابِ الأَبَدِي الَّذِي يُعَذَّبُونَهُ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ جحوداً وعِنَاداً مَعَ وُضُوحِ الْحَقِّ لَهُمْ.

ويَخْتِمُ اللهُ البيان بِقَوْلِهِ: ﴿... ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

وبهـٰذَا تَمَّ تَدَبُّر الدّرس الثَّالِثِ من دُرُوس سورة (المعارج) وَهُوَ آخِرُ السُّورَة.

والحمد لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وَتَوْفِيقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وَفَتْحِهِ.

❀ ❀ ❀

(٧)
ملحق: مُستَخرَجات بَلاَغِيَّة مِن سورة (المعارج)

في هَـٰذِهِ السُّورَة اختيارات بَلاَغِيَّةٌ مُتَعَدِّدَة، مِنْهَا ما يَلِي:

أوّلاً:

من التّشْبِيهِ «المرْسَلِ المجمَلِ» في مَوْضِعَيْن قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾﴾:

في هَـٰذَينِ التشبيهَيْنِ ذِكْرُ المشَبَّهِ، وأَدَاةِ التَّشْبِيهِ، دُونَ ذِكْرِ وَجْهِ الشبه. ومثل هذا قولُهُ تَعَالَىٰ:

﴿... كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

ثانياً:

تنزيلُ المخْلُوقِ الَّذِي لَا عَقلَ لَهُ وَلَا حَيَاةَ مَنْزِلَةَ الْعَاقِلِ الْحَيِّ الْمُدْرِكِ، وَمِنْهُ تَنْزِيلُ نَارِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْزِلَةَ ذِي الحياة والْعَقْلِ والإرَادَةِ والنُّطْقِ، في قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ «لَظَىٰ» اسْم من أَسْمَاءِ دَارِ الْعَذَابِ جَهَنَّم:

﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾:

أي: تَدْعُوا أَنْ يُعَذَّبَ فِيهَا هـٰذَا الْكَافِرُ، أي: هي مُعَدَّةٌ لِهـٰذَا التَّعْذِيبِ.

ثالثاً:

تَعْرِيفُ الْكَلِمَةِ بِبيانٍ فِي النَّصِّ، ومِنْهُ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾: فتعريف الهلوع، هو ما جاءَ في الآيَتَيْنِ بَعْدَه.

رابعاً:

مِنَ الاسْتِفْهَامِ التَّعْجِيبيّ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ فِئَةٍ من الْكَافِرِينَ:

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾﴾.

وأكْتَفِي بهٰذَا والحمد لله على مَعُونَتِهِ، ومَدَدِهِ، وَتَوْفِيْقِهِ، وَمِنَّتِهِ، وفَتْحِهِ.



خاتمة المجلَّد الرابع عشر مِنْ كتاب
معارج التفكُّر وَدَقَائق التدبّر

مع وَخَزَاتِ الإبَرِ بُكْرَةً وَعَشِيًّا وَكَثْرَةِ انْطِراحي على الْأَرْضِ أو على السَّرِيرِ؛ قَضَىٰ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِفَضْلِهِ ومِنَّتِهِ أَنْ يُنْهِيَ لِي كِتَابَةَ هـٰذَا الْمُجَلَّدِ الرّابع عَشَر المشْتَمل على تدبُّر السُّوَر التالية:

(١) إبراهيم.

(٢) الأنبياء.

(٣) المؤمِنُون.

(٤) السَّجْدَة.

(٥) الطُّور.

(٦) الْمُلْك.

(٧) الحاقّة.

(٨) المعارج.

فالحمْدُ للهِ الْجَلِيلِ الْوَهَّابِ عَلَىٰ مَا امْتَنَّ بِهِ عَلَيَّ، وأعَانَنِي وأَمَدَّنَي حَتَّىٰ أَتَمَّ لِي تَدَبُّرَ هَـٰذِهِ السُّوَرِ، وكِتَابَةَ هـٰذَا الْمُجَلَّد إِنَّهُ جوادٌ كَرِيمٌ مَنَّان.

وصَلَّىٰ اللهُ وسَلَّمَ عَلَىٰ خَاتَمِ الأنبياء والمرسلين مُحمَّدِ بن عَبْدِ اللهِ وَعَلَىٰ سائر الأنبياء والْمُرْسَلِين.

وَكَانَ الْفَراغُ مِنْ كِتَابَةِ هـٰذَا المجلَّد في يَوْمِ الإثْنَيْنِ ٣٠ رمضان سنة ١٤٢٤هـ، الموافق لـ ٢٤ تشرين الثاني ٢٠٠٣م.

عبد الرحمن حبنكه الميداني

الفهرس

الموضوع | الصفحة

سورة إبراهيم
١٤ مصحف ٧٢ نزول

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

سورة الأنبياء

٢١ مصحف ٧٣ نزول

الموضوع — الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الصفحة / الموضوع

سورة (المؤمنون)

٢٣ مصحف ٧٤ نزول

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

سورة السَّجْدَة

٣٢ مصحف ٧٥ نزول

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

سورة الطور

٥٢ مصحف ٧٦ نزول

الموضوع — الصفحة

سورة المُلْك «تبارك»

٦٧ مصحف ٧٧ نزول

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

سُورة الحاقّة

٦٩ مصحف ٧٨ نزول

الموضوع　　　　الصفحة

الموضوع | الصفحة

سورة المعارج

٧٠ مصحف ٧٩ نزول

الموضوع الصفحة